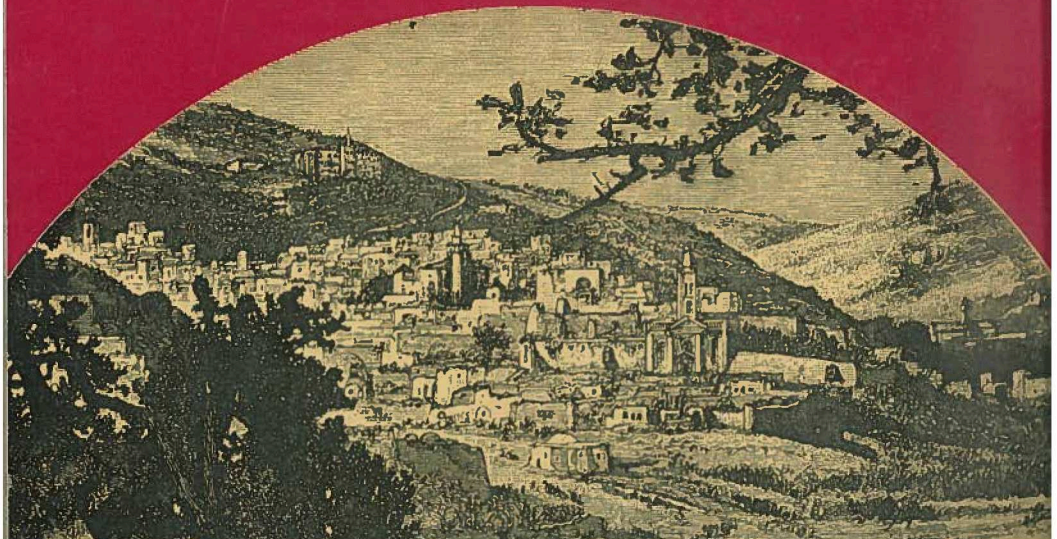


الثقافة الفلسطينية

كانون الاول (ديسمبر) ٢٠٠٢

١٦



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٢

رقم ١٦

دورية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر شهريا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

سكرتير التحرير : ابراهيم العابد مدير التوزيع : غازي خورشيد .

هيئة التحرير : المقدم الهيثم الايوبي ، بلال الحسن ، د .
سعيد حمود ، احمد خليفة ، الحكم دروزة ، محمود درويش ،
د . يوسف شبل ، د . نبيل شعث ، منير شفيق ، د . صادق العظم ،
ناجبي علوش ، حبيب قهوجي ، د . محمد المجذوب ،
عبد الحفيظ محارب ، د . حنا ميخائيل ، هاني الهندي .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبها ولا تعكس بالضرورة آراء
منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني
(متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت - لبنان ،
ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ،
برقيا مرابحات ، بيروت .

ثمن المصدد (بريد جوي) : ٢١/٢ ل.ل. في لبنان وسائر الوطن العربي، ٤ ل.ل. في آسيا وأفريقية
وأوروبية ، ٦ ل.ل. في الأمريكتين وأستراليا .

الإشتراك السنوي (بريد جوي) : ٢٠ ل.ل. في لبنان والوطن العربي، ٥٠ ل.ل. (١٦ دولارا أميركيا)
في آسيا وأفريقية وأوروبية، ٨٠ ل.ل. (٢٦ دولارا أميركيا) في الأمريكتين
وأستراليا. (بريد عادي) ٤٠ ل.ل. (١٢ دولارا أميركيا) في سائر
الدول الأجنبية .

يعطى حسم ٥٠٪ (عدا البريد) على الاشتراكات للمقاتلين والعمال إذا جاءت الطلبات من خلال المنظمات
أو النقابات أو الاتحادات .

صورنا الغلاف : بيت لحم والناصرة ، في القرن التاسع عشر

المحتويات

صفحة ٥	جان جونية : أحاديث عن الثورة الفلسطينية .
٢٨	الخروج من ساحل المتوسط ، محمود درويش .
٣٤	النفط العربي في استراتيجية المجابهة العربية الاسرائيلية ، الدكتور يوسف عبدالله صايغ .
٧٤	القوى السياسية الفرنسية والمسألة الفلسطينية ، داود تلحمي .
٨٨	من الآثار غير المنشورة للشهيد غسان كنفاني : قصتان (١) الاعمى والاطرش ، (٢) العاشق .
١٢٨	دراسات توفيق كنعان في الفولكلور الفلسطيني ، نمر سرحان .
١٣٧	المتوردون على الخدمة العسكرية في اسرائيل ، عبد الحفيظ محارب .
١٥٠	ملاحظات حول تجربة الاتحاد العام للمعلمين الفلسطينيين، شهادة موسى .
١٦٣	مستقبل الثورة الفلسطينية ودور الشباب العربي فيها .
١٧٠	لقاء مع النقابيين الفلسطينيين القدامى ، اعداد بلال الحسن .

١٨٩ مراجعات : ماركس والمسألة اليهودية ، ماجد نعمة . لا سلام حول
اسرائيل ، الدكتور عدنان العمدة . تربية ساطع الحصري القومية ،
ف. المنصور . البيت الابيض والصهيونية واسرائيل ، مصطفى كركوتي .
تهليلة الموت والشهادة ، الياس خوري .

٢٠٥ رسائل اعلامية : الصحف الغربية واحداث ايلول ، م. ش. المهرجان
الدولي الاول لافلام وبرامج فلسطين ، سفيان الرمحي . النشاط الصهيوني
في اليابان ، مراسلنا في طوكيو . اصدقاء ميونيخ في الساحة الفلسطينية
في كندا ، مراسلنا في كندا .

٢٢٣ شهريات : (١) المقاومة الفلسطينية ، ب.ح. (٢) القضية الفلسطينية
عربيا ، ناجي علوش . (٣) القضية الفلسطينية دوليا ، د.ت. (٤) المناطق
المحتلة ، ع.م. جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية
وآخر بالعمليات التي اعترف بها العدو الصهيوني من ١٠/٣ - ١١/١٢ /
١٩٧٢ ، غازي خورشيد .

٢٤٢ اسرائيليات : م. د.

٢٤٨ تقرير خاص حول مؤتمر القنمية الاردني ، ا. م.

شؤون فلسطينية

ابراهيم العابد

رغم الاصابات الجسيمة التي سببها الانفجار الغادر ، ظلت كلمات رئيس التحرير ، المدير العام لمركز الابحاث الفلسطينية ، تتصدر شؤون فلسطينية ، وواصل الدكتور صايغ اشرافه الكامل ، حتى في اثناء وجوده في المستشفى ، على مواد الاعداد السابقة (١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥) حتى هذا العدد الحالي . لكن اضطراره الى السفر الى الخارج لمواصلة العلاج منعه ، ولهذا العدد فقط ، من كتابة الافتتاحية .

يتضمن هذا العدد حديثا مطولا مع المفكر الفرنسي التقدمي البارز جان جونه الذي حضر الى لبنان خصيصا لهذا الغرض . ورغم انه امضى في لبنان ما يقارب الشهر ، الا انه رفض اجراء أي حديث مع أية صحيفة قبل أن ينشر حديثه في شؤون فلسطينية . في العدد أيضا دراسة اقتصادية - سياسية معمقة عن النفط العربي ودوره في المجابهة العربية - الاسرائيلية طلب منا تقديمها الى اجتماع وزراء الخارجية والدفاع العرب الذي عقد في الكويت يوم ١٥ تشرين الثاني الماضي بالنظر الى أهميتها وعلاقتها المباشرة بأعمال الاجتماع . مقال آخر في هذا العدد يعالج ظاهرة جديدة مهمة بدأت تبرز ، لكن يبسط ، في اسرائيل تتمثل في رفض بعض الشباب اليهود الانخراط في الجيش الاسرائيلي . أما ندوة العدد فقد خصصناها لاستعراض جوانب غير معروفة من تاريخ الحركة النقابية الفلسطينية قبل ١٩٤٨ واشترك فيها خمسة من قادة هذه الحركة يتحدثون لأول مرة في ندوة واحدة .

ويتضمن العدد جزءا ادبيا رئيسيا ففيه قصيدة جديدة أخرى لزميلنا الشاعر محمود درويش مستوحاة من الرسالة التي كتبها ايرين بيسون في العدد الماضي عن قبور الشهداء في غزة ، وفيه قصتان غير مكتملتين لشهيدنا غسان كنفاني كان قد بدأ بكتابتهما لشؤون فلسطينية . وكان غسان قد بدأ بكتابة « الاعمى والاطرش » حين سجن ويوم خرج من السجن تمنينا له أن يسجن مرة أخرى حتى ينيها ، ويا ليتة !

الى جانب هذه المقالات هناك دراسة عن القوى السياسية الفرنسية وموقف كل منها من القضية الفلسطينية ننشرها في الوقت الذي يزداد فيه دور فرنسا خاصة وأوروبا بشكل عام أهمية في الصراع العربي - الاسرائيلي ، ودراسة عن توفيق كنعان الطبيب الفلسطيني الذي كان له وحده الفضل الاول في تسجيل جوانب مهمة ومغفدة جدا من التراث الشعبي الفلسطيني .

لا بد لنا أخيرا من كلمة عن رواج شؤون فلسطينية . حين صدر العدد الثالث طبع منه نسخ زادت بنسبة الثلثين عن العدد الاول ، وحين صدر العدد السابع تضاعف عدد النسخ مرتين ونصف المرة عن العدد الاول . ويصدر هذا العدد ، تضاعف عدد النسخ ثلاث مرات . بالإضافة الى ذلك ، فقد أعدنا طباعة الاعداد الستة الاولى بسبب الطلبات المتزايدة لاقتناء مجموعات كاملة .

جان جونية : احاديث عن الثورة الفلسطينية

هذا المقال كتبه جان جونية لشؤون فلسطينية . وهو تسجيل لما رآه وما استنتجه بعد اقامة دامت عدة أشهر بين الفدائيين والشعب في الاردن مباشرة بعد معارك ايلول 1970 . وهو رد على أسئلة طرحناها عليه وناقشناها مع شبان فلسطينيين في باريس والشرق . أجاب جونية بصراحتة الممهودة في كتاباته الادبية . اجاب ببساطة وعمق معا . بعض ملاحظاته قد يثير الدهشة ، والبعض منها قابل للنقاش . الا ان المقال من اوله الى آخره مطبوع باخلاص عميق وحب شديد للثورة والشعب . جونية تكلم عن تأثير اجواء الثورة الفلسطينية على رجالها ونسائها وعليه هو ايضا ، وعن حاجات الشعب الفلسطيني ومطامحه وعن العقبات التي واجهها ، عن المشكلة اليهودية وعن الفن والادب في الثورة . كل ذلك بلغة فرنسية جميلة يصعب ان تنقل الترجمة العربية كل جزاياتها .

مرة أخرى نطرح أمام القارئ نظرة صديق من الخارج الى واقع عاشه ويعيشه شعبنا كل يوم ، حتى اصبحت بعض جوانبه جزءا من الطبيعة لا تلفت الانتباه . وهنا تكمن نقطة ضعف وقوة نظرة كهذه : ففي الوقت الذي لا يتمكن فيه الصديق مهما طالقت اقامته وازداد تعلقه من استيعاب معطيات الوضع بشكل كامل ، الا انه احيانا اقدر من بعض المقيمين على لمس بعض القضايا التي عودتنا السنوات على اغفالها (واشير بصورة خاصة هنا الى ملاحظاته حول حياة المخيمات) . جونية نظر بعينين مجردتين الا من الصداقة والصدق الى واقع يومي لشعبنا ومناضليننا : وبين الرؤى المتعالية النردية من جهة و« الفاهمية » المجردة من جهة اخرى ، تاتي هذه الرؤيا بنفس جديد .

يتعرض المقال لاكثر من هذا ، ويطلق اكثر من موضوع وتتشابك المواضيع بدون تسلسل ، على نمط بعض اللوحات الحديثة . قد يجد القارئ في ذلك اضعافا للسرد ، الا ان المؤلف يرى غير ذلك ، وحافظنا بالتالي على النفس الذي وضعه ، ولم نقطعه الا بمناوئين جزئية هي بالطبع ليست الا مؤشرات تسهل القراءة ولا تشكل تبويبا مضاسقا .

بعض القضايا التي يطرحها الكاتب تحتاج الى توضيح ونقاش . اخص منها بالذكر : قضية العروبة والعمليات الخارجية ومشاكل الفن والادب في الثورة . بالنسبة للقضية الاولى نود ان نترك لجونية مسؤولية ما كتبه وبالشكل الذي كتبه ، الا انه يهنا ان نؤكد للقارئ وجهة نظرنا : نحن اعداء الفكر الشوفيني والتعلق باعلام ماضية تبرر عجزنا وتقاعننا اليوم بحجة ما قمنا به في الامس الغابر من اسهام في « الحضارة الانسانية » ، الا اننا نعتز بماضينا ونعتبر ان فيه الكثير من الدروس التي نعيدنا في مسيرتنا الثورية وفي تعزيزها . ونحن ضد الفكر القومي الطوباوي الذي لا يأخذ بعين الاعتبار خاصية كل قطر وبالتالي كل نضال قطري في معركة التحرير الكبرى . الا اننا كذلك ضد الفكر الاقليمي الذي ينظر الى تحرير فلسطين بمعزل عن الثورة العربية ضد الامبريالية التي لا تشكل اسرائيل الا اقوى حلفاتها في المنطقة . نحن ضد « وحدة

ادوات القمع» ومع «وحدة الثورات الشعبية» . والوحدة الاخيرة ليست فقط مطلباً جماهيرياً وإنما هي حاجة تاريخية لمواجهة التحدي الإمبريالي سياسياً واقتصادياً وعسكرياً . ونحن أخيراً ، نمضي من واقعنا المتميز ماضياً وحاضراً لبناء مستقبل على ارض وفي فضاء القرن العشرين . فالتعريب ثوري اذا عنى شمول التحدي القطري والقائد ، وهو رجعي اذا قصد به تغطية الهروب امام المسؤوليات التاريخية . وباختصار فالعنيان في قاموسين طبقين مختلفين . اما موضوعا العمليات الخارجية والفن والادب في الثورة فسيكون لنا رجوع آخر لهما .

بقي ان نعرف بكلمات قليلة كاتب المقال . جان جونييه من مواليد ١٩١٠ . كتب اول مؤلفاته القصصية والمسرحية والشعرية في السجن في مطلع الاربعينات ، فانهارت على حد تعبيره جذرائه الاربعة وامتد افقه ليشمل العالم كله : لان كتاباته ترجمت الى اكثر من عشرين لغة . وكتب سارتر فيه كتابا بعنوان «القديس جونييه» ساعد على ادخاله بشكل مفاجئ الى جو الادب العالمي .

وحيثما طلبت من جونييه عنوانا لمقاله اقترح «شخص يكتب عن الثورة الفلسطينية» مضافا اليه ان «آراء الكاتب قد تكون صحيحة أم لا ، وهي قابلة للنقاش ، وعلى القارئ ان يقرر ان كانت تستحقه . والا فعليه ان يهملها» . فجونيه عرفنا هنا نفسه .

داود تلحمي

الحديث التالي جرى في باريس ليلة ٢٧ أيلول ١٩٧٢ ، في حي شمعي . في الغرفة سبعة شبان فلسطينيين (بين ٢٠ و ٣٠ عاما) ، فتاة فرنسية وأنا . وكان وأثل يدير الحوار ويقوم أحيانا بالترجمة .

والمواضيع الرئيسية التي تطرقنا لها ، أحيانا في شيء من التعب والفوضى ، كانت تقريبا التالية : ميونيخ ، أيلول الأسود ، الاسلام ، الصهيونية واليهود في فرنسا ، فشل المقاومة الفلسطينية في الاردن ، صعوبات الزواج الرسمي ، واقع الانفصام بين مجتمعين (الفلسطيني والاردني) ، الحرص على وجود علاقات انسانية في عالم يتجه بسرعة نحو فردية مطلقة ، المقارنة بين الثورة الفلسطينية وثورات أخرى في العالم ، ذات ميزات وفي مراحل مختلفة ...

ولا بد من الاشارة فورا الى أنني وجدت في هذه الغرفة الباريسية ، حرية التعبير نفسها التي وجدت في الاردن ، في قواعد فتح . والتحفظات القليلة التي لمستها — والتي لم تكن موجودة في القواعد — تتعلق بموضوع الدين وثم غياب العلاقات الزوجية ، الذي يعتبر تقريبا كارثة من قبل بعض الرجال هنا (« الزواج وحياة الزوجين في مجتمعنا ، يسمحان بالتخلص من الوحدة ») . ولحت البلبلة التي يعيشها هؤلاء الشبان — الذين ما زالوا في غالبيتهم يتكلمون الفرنسية بصعوبة — في نوع من المنفى ، ازدادت مرارتهم فيه بعد خسارة قواعد الفدائيين والمليشيا في الاردن . ولكنني كنت المح من خلال هذه المعارضة ، مصدر بلبلة آخر : تخوف الذكر من فقدان امتيازاته . وباختصار ، اذا تحررت النساء ، فسيخسر الرجال احدي المظاهر الاولية للسلطة . وقد وجدت عند عصام (احد الذين يجيدون الفرنسية اجادة اكثر) اختيارا للمفردات الصعبة ، التي تبدو له طبيعية ، ولكنها قد تكون كذلك تعبيرا عن حب السيطرة : تعابيره الحذقة قاسية أحيانا ، وقد ترهب بعض الفدائيين المبهورين بعلم بهذه السعة . مبهورين اذا راضحين .

وحيثما بدأت بالتكلم عن : الثورة ، المقاومة الفلسطينية ، أدركت ان هذه التعابير لا تعني شيئا بالنسبة لي : بعد عدة أشهر أمضيتها في قواعد الاردن ، ما أفكره هو مجموعة وجوه . كلها تحمل أسماء ، حتى لو كانت وهمية . كل رجل أو امرأة كان يتفاعل بشكل

مختلف عن الآخر . لا بد أن أضغ جانباً أو أنسى كل هذه الوجوه ، حتى المس ما هو مشترك بينها ، وما يحركها . ولن أنجح دائماً .

وما يجب الا نغفله هو أنه حينما كانت الثورة الفلسطينية ، في الخارج ، تلمع بوهج عظيم ، في هذا الوقت نفسه كان السلاح ينتزع من أيدي الفدائيين وكانت قواعدهم تتقلص أكثر وأكثر . ما زلت أذكر ليلة قضيتها في مغارة قرب نهر الأردن ، حينما كان احد المسؤولين يحاول اقتناع عشرين فدائياً أو أكثر بالقاء السلاح — وكانت حجتهم بأن الجيش الاردني من طرفه سيحد من هجومه . وكان الفدائيون ناقمين ، وغير مقتنعين بالاسلوب . وفي النهاية ، أطلعوا عن المعارضة ! وكانت هذه بداية انهيار الثورة في الاردن ، في الوقت الذي كانت فيه الشبيبة في العالم اجمع ، تجمد المقاومة .

جنور الشخصية الفلسطينية

خصوصية الثورة الفلسطينية تعود الى جذورها . كانت فلسطين ساطعة عثمانية ذات طابع فلاحى أساساً ، تعيش في شيء من الحرية . وكان الموظفون الاتراك يأتون بين حين وآخر لجنى نوع من الضرائب . واليهود فيها ، كما في سائر العالم العربي ، كانوا قلائل ، وحينما قررت الصهيونية في ارض تميماتها ، احتلال البلد ، لم ير السكان في البدء حرجاً . كانوا يعلمون ان العديد من اليهود هربوا من القابح الزوسية والبولونية . ولهذا لم يسيئوا معاملةهم . لكن الاحتلال اليهودي استمر وتساعد حتى أصبح جارفاً . وبدأ الفلسطينيون بالتلمل . ومع أنهم كانوا جزءاً من كل متجانس يحمل اسم « الامة العربية » الا ان العرب أنفسهم بدأوا بالتكلم عن الفلسطينيين وعن فلسطين وعما يحدث فيها . وفي مواجهتهم لليهود ورواد الاحتلال — الذين بدأوا يقرءوا الا ان أموال الصندوق القومي كانت وراءهم — بدأ الفلسطينيون بالشعور بخصوصيتهم : بدأوا يشعرون بخصوصية لغتهم ، دينهم ، عاداتهم وأسمائهم . كان هذا بدء وعي جماعي ، ولكنه لم يكن بعداً قومياً (1) . وبعملية شراء خبيثة للأراضي ، ومنع بيعها فيما بعد لغير اليهود ، أصبح اليهود ملاكاً لمساحات واسعة . وتطور الوعي الفلسطيني ، وما زال يتطور الآن ، نحو وعي قومي أكثر وأكثر نضوجاً ، في وجه عملية مقابلة عند اليهود . وفي الوقت الذي كان عدد اليهود يتزايد وأملاكهم تتسع ، لم يبلغ الفلسطينيون درجة الوعي بشخصية قومية — مستقلة في اطار العالم العربي — الا حينما اقتقد هذا الشعب أرضه . وكان اليهود قد اشتروا الأرض أو طردوا السكان باستعمال الاساليب الارهابية . ويمكننا القول اذا ، ان الوعي القومي الفلسطيني نضج في الوقت الذي انتزعت فيه الأرض كالبساط من تحت اقدامهم . والهزات الثلاث الاعنف لانتزاع البساط كانت في ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ و ١٩٦٧ . والشعب الفلسطيني أصبح في النهاية حقيقة . أصبح كيانه ولكن بدون أرض .

ما سأطلق عليه فيما يلي اسم « الاخلاق اليهودية — المسيحية » ، وهي مفهوم لا يعبر عنه لفظ « الاخلاق البورجوازية » ، ولكن ربما ناسبه لفظ « النزعة الانسانية المسيحية » humanisme chrétien ، يمتد الآن ليشمل العالم اجمع . ولا أستثنى الصين بعد دخولها الامم المتحدة واليونيسكو ومؤسسات أخرى أوجدت في ظل هذه النزعة . وحتى نواجه هذه النزعة ، التي تشبه تقريباً احترام العائلة والملكية والشوفينية والنظام والقانون (بشرطته وعدليته) والحيش والمرتببة hiérarchie ، والفن الاكاديمي وقواعد اللغة الخ ، نحتاج لاحد أولئك المخربين الكبار ، الذين كان نيتهم أحد اسلافهم . هذه النزعة تعتمد ، فيما تعتمد عليه ، على الملكية العقارية . نعلم جيداً ان التداول (البنوك) ،

(١) هذه الكلمة هي ترجمة national ولكن الترجمة الدقيقة تشير الى الانتماء الى وحدة — شعب — ذي

القروض الخ) أصبحت أدوات سلطة أقوى من الاكتناز ، ولكن القيم العقارية ما زالت مهمة . وهذا الارتباط بالأرض ، ينعكس في الأمم المتحدة ، حيث تعتبر الأمة أمة — حسب تعريف ستالين — إذا شكلت وحدة اقليمية . التمسك بالأرض ليس جديدا . ولكن شعوبنا بلا أرض جايت التاريخ : المغول ، الهان ، الفاندال ، الفرنك ، والفجر وعدة قبائل افريقية وعربية . ويسمونها التاريخ احيانا شعوبا . ومن غير المنطقي ان تعترف الأمم المتحدة ، وهي تجمع لشعوب ساكنة ، بشعب بلا أرض ، كما ان رجلا بلا دار يعتبر متسكعا ويتعرض للسجن . والفلسطينيون مهملوا معرضون لشتائم الآخرين وحتى لاحتقارهم . كل جهد سيذل ، بلا شك ، لدعم اسرائيل في رفضها بأن تتحول فلسطين الى أرض . واسرائيل ذات خبرة ، فلها ماض من ألفي سنة من التشرذ .

وهناك حاجة لدراسة للموضوع — وربما كان قد قام بها فوستيل دو كولانج Fustel de Coulange في كتابه « المدينة القديمة » حول العلاقات بين امتلاك الأرض والحصول على الاعتراف « بمحترمية » Respectabilité اجتماعية .

وإذا كان ما أقوله صحيحا ، فان اسرائيل التي كانت سبب تشرذكم في أنحاء العالم العربي يستعمل كل ما في وسعها كي لا تحصلوا على قطعة أرض . والاشغال التي تمررون أمامكم لمواجهة الوضع الحالي هو العمل ، بالعنف أو بدونه ، على الأراضي التي تمرر عليها . حتى الكنيسة الكاثوليكية ، وهي « سلطة روحية » أرادت لها أرضا : الفاتيكان .

ربما كان من غير المستحيل ان نرى ، في تعلق البعض بالشخصية الفلسطينية ، التأثير الذي تتركه احيانا حركات التمرد الكبيرة . وفي هذه الحال ، لن يأتي التضامن مع هذه الشخصية الا من العناصر الهامشية : الطلاب ، النساء ، اليسار المتطرف ، الفنانين ، والصين نفسها في معزل (حتى الامس) . وتأييد الاتحاد السوفياتي ذو طابع آخر . لا بد من قراءة واستعادة كتاب فوستيل دو كولانج .

مهريان : الخيالي والعروبة

اين كان اذا هذا الشعب ؟ الأرض التي تنساب تحت أقدامه ، مثل البساط ، لم تمنع هذا الشعب من تملك الوعي القومي والمحافظة عليه ، ولكن اين ؟ ليس الا على أرضيتين كلاهما غير مناسب : الخيالي والعروبة .

لا بد من رؤية طريقة تشكل هذا الكوكب الجديد : على أرض غير واضحة الحدود ، رمل متناثر من العائلات الملتصقة بالأرض لانها تعيش عليها ، ولكنها حرة في تنقلها سواء وحدها أم في قوافل ، تجوب هكذا العالم الذي ينطق بالعربية من اقاصه الى ادناه — وحتى أبعد ، في العالم الذي ينلو القرآن . هذه العائلات ، أو الافراد ، تعود دائما الى منزلها في الخليل ، في حيفا أو القدس . أرضها هناك ، راسخة وفيه . ولكن شيئا غشينا ، تذوب الأرض ، تذوب حتى تختفي تحت أقدامها ، ولكن الشخصية الفلسطينية اتخذت وزنا أكبر فأكثر ، وإذا أردنا ثقلا حقيقيا . ولكن ، في هذه الحقبة بالذات ، بعد سلبها من أرضها ، القت بنقلها المتزايد في اتجاه الخيالي والعروبة .

الخيالي ، بالنسبة لفلسطين ، ذو أثر حسن الى حد ما . اضطر الشعب الفلسطيني في انقاده للأرض الذي ربما أضعف شعوره القومي ، أن يكتشف في الخيالي قواعد يحافظ عليها بحرص حتى لا يتبحر في الحلم أو في المثاليات . وفي الوقت نفسه ، وبعد الجازر الاردنية ، والتهديدات العلنية الاسرائيلية ، والتهديدات الباطنة الأخرى — التي لا بد من الإشارة إليها — من الدول العربية الأخرى ، استمرت فلسطين المحرومة من الأرض في التكون كشعب مستقل .

في حديثي عن مخيمات اللاجئين ، يصعب علي أن اتخلص من فكرة تراودني : في عصر

أصبح بالإمكان فيه الحصول على مواد رخيصة ورائحة للعين ، ويستطيع فيه المهندسون الشباب الحاذقون ان يبنوا بسرعة ممرات معبدة وقنوات من البلاستيك ، كان من السهل ان يعيش اللاجئون الفلسطينيون في لبنان والاردن في نوع من القرى اللطيفة — التي يعيش فيها الانسان بسرور . لكن الحكومات العربية الغنية والاونروا أسكنت اللاجئين في مأور معدنية ، من الحديد أو الألمنيوم ، حيث البرد صقيعي في الشتاء والحر خائق في الصيف . كل شيء جرى وكان الهدف منه تحقير الفلسطينيين ، واشعارهم أكثر بواقمهم كلاجئين . اذا كان بين المسؤولين السياسيين عن الخيمات من يعتقد ان ذلك يساعد على ابقاء الفلسطينيين في حالة ترقب بانتظار عودة سريعة لفلسطين ، فهذا الحساب خاطيء . واذا أرادوا ان يجعلوا منهم ثوريين بشكل أسرع ، فهذا الحساب خاطيء ايضا . لان العيش في المنفى وحده كان يكفي لان يجعل الفلسطيني ثوريا . والتعليم ، بجميع أشكاله ، يصبح أسهل وأسهل كذلك اكتشاف طرق الانعتاق . بوعي أو بدون وعي ، عملت البورجوازيات المختلفة على مضاعفة هذا اليأس ، الذي يتجاوز حدود الاختلاف الطبقي .

وهزيل للاجئين . أكرر ما قلته من ان مواد البناء هي اليوم سهلة أكثر من ملجأ مؤقت ولماذا علب التنك ؟ وعين الماء كل ٢٠٠ أو ٣٠٠ متر ؟ ولا صيدلية وطبيب واحد للمخيم يعيش المسؤولون اليوم في مسكن معقول ، فلم لا يعيش اللاجئون كذلك ؟

ان استقلالية الشعب الفلسطيني ومحافظة على شخصيته المميزة يعودان أساسا الى روحه الثورية . لان ما حدث شيء آخر : كلما سحبت الأرض من تحت قدميه ، وكلما التجأ الشعب الفلسطيني الى الخيالي ، اكتشف حتى يستمر في البقاء وحتى يواصل مسيرته ، الضرورة الثورية . وهذا يحدث أكثر فأكثر . والعملية الكاملة لم تتم بعد ، ولكن الشعب الفلسطيني تبناها . واذا حافظ على يقظة متقدة ، فسيعمق وعيه القومي ، وهذا الوعي سيحمي الوعي الثوري ، كطريق وحيد نحو الاصاله الفلسطينية .

ومن جهة أخرى ، العروبة . ان خطر العروبة اكبر من خطر الخيالي . ذلك ان الخيالي يحتاج دائما الى امتلاء ولكن العروبة شيء ممتلئ . وهو امتلاء أبوي وأمومي في الوقت نفسه . أقصد انه ايعاز قهري (مع كل ما يرتبط بمفهوم الابوة : احترام التقاليد ، رجولية متفاقمة ، واصرار على الانتماء الى المجموعة العربية واليها وحدها) . وهو أمومي بمعنى انه التجاء الى كنف هذه المجموعة « للهروب » من عالم الخارج — أي العالم غير العربي — واستعادة ما سماه وائل وما كان يبحث عنه : الحرارة الانسانية .

بدأت لي الجهود التدريسية في مخيم البقعة ومخيمات أخرى جديرة بالاهتمام . وكان الأطفال ، اولادا وبنات يبدون تعطشا شديدا للتعلم ، وربما عاد ذلك لنوعية المعلمين ، أو رغبتهم الطبيعية في المعرفة ، أو تطلعهم الى التخلص من سواد الخيمات . (ففي البقعة ، لم تكن هناك مثلا صيدلية واحدة تحتوي على أدوية بدائية والوضع نفسه كان في اربد) . ومن الصعب علي الا اذكر ملاحظات صديق لي ، وهو معلم انكليزي : يحاول الطفل وهو بدون فروضه ان يغطي وراء كوعه الايسر دفتره ، ليمنع جاره من رؤية ما يكتب ، وكذلك ليضع منذ عمر خمس أو ست السنوات حدودا للمكتبه الخاصة . وكان الصديق يضيف ان بالإمكان تفادي هذا التصرف ، بالسماح للطفل الذي يصل الى حل أن يوضح على طريقته هذا الحل الى جاره الصغير .

واذا كنت تطرقت الى هذا الاسلوب بشكل عرضي ، فلانه يوغر شيئا من الانفتاح والاخوة منذ الطفولة ، ولا أنكر أهمية التماس ، ومواجهة التحدي وروح الهجوم : ولكني أؤكد على ضرورة التعاون المتبادل منذ السنين الأولى .

لماذا اتف الى جانب الفلسطينيين ؟

وإذا وجه لي سؤال بسيط : لماذا اتف الى جانب الثورة الفلسطينية ؟ سأذكر اولاً ان ممثل منظمة التحرير في فرنسا دعاني لزيارة مخيمات الفلسطينيين وقواعدهم في الاردن . وما حدث لي في هذه القواعد هو التالي : في الوقت الذي استمرت فيه الثورة الفلسطينية مجردة وغريبة عني نوعاً ما ، أدركت انها لم تغير الفلسطينيين فقط وانما غيرتني أنا أيضاً . أوضح : في أوروبا ، بفعل كسل آلي ، كنت أنظر الى الوظيفة وليس الى الإنسان . كان خادم المطعم ضرورياً لوضع الصحن ، والكأس واملأه الكأس : وإذا وقع مريضاً ، فالصحن والكأس سيكونان كذلك أمامي . سيكون هناك خادم مطعم آخر يحل محل المريض . وكان هذا يحدث على كل المستويات وفي كل الوظائف : كان كل رجل قابلاً للاستبدال في اطار وظيفته ، وباستثناء حالات خاصة ، لم نكن نلمس الا الوظيفة . في القواعد الفلسطينية ، كان يحدث العكس : لقد تغيرت بمعنى ان علاقاتي تغيرت ، لان كل العلاقات كانت مختلفة . كان كل رجل غير قابل للاستبدال كرجل ، ولم نكن نلمس الا الرجل دون الوظيفة ، والوظيفة ان كانت موجودة ، لم نكن نلمس الا النظام ، وانما قتالاً

وكل ثورة لا تعتمد الى تغييرى بتغيير العلاقات بين الناس ، لا تهمني ، وأكثر من هذا ، أشك ان ثورة لا تؤثر علي لنحولني هي بالفعل ثورة . لقد أقامت الثورة الفلسطينية نوعاً جديداً من العلاقات ، غيرتني ، وبهذا المعنى فان الثورة الفلسطينية هي ثورتي . ومن عوالم اهتمامي بالمنطقة ، خدمتي العسكرية في دمشق وقراءة « أعمدة الحكمة السبعة » ، واحساسي الغامض بأن لورانس كان دجالاً حتى حينما ادعى انه يساهم في تحرير العرب . فترحيهم من نير العثمانيين لصالح بريطانيا أو فرنسا أو اسرائيل ليس مكسباً . وبحكم وجودي هناك ، وحرية تنقلي في دمشق التي أنهالت عليها قنابل غورو ، وكذلك بتأثير جاذبية شخصية سلطان الأطرش المتمرد ضد الاحتلال الفرنسي ، بقيت مهتماً بشعب الشرق العربي .

في ١٩٤٧ - ١٩٤٨ ، وصلتني في فرنسا أصداء الامر الواقع الاسرائيلي بشكل خافت . كما أثار انفجار عبدالناصر ضاحكاً حينما أمم قناة السويس حماسي . وعاد العالم العربي يقبع في شبه نعاس ، في الوقت الذي كان فيه شمال أفريقيا يتحرر من السيطرة العسكرية والادارة الفرنسيين ، علماً بأن المصالح الفرنسية - الأوروبية استمرت بشكل واسع ، وخاصة في المغرب .

وفي عام ١٩٦٨ ، أي بعد الحرب العربية الاسرائيلية ، كنت في تونس . كان ذلك في عصر « بن صلاح » الذهبي . وصلتني حينذاك بطريق الصدفة ، انباء أفواج الجزائريين والمغاربة الذين كانوا يمرون من الشمال والجنوب متجهين نحو القاهرة للانضمام للمقاومة الفلسطينية . ففي مطار قابس - تونس ، سمعت بالامر لأول مرة ، ثم حدثني صاحب مكتبة وتونسي آخر في قفصة عن شعر فتح وانشيدها .

وفي ١٩٧٠ ، استحوذ اختطاف الطائرات اهتمامي . فكنفت في درعا في مطلع اكتوبر ١٩٧٠ .

تعريب فلسطين أم فلسفة العالم العربي ؟

الشعب الفلسطيني موجود بلا أرض . وإذا ترسخ هذا الوجود في الخيالي ، فذلك لا يشكل خطراً كبيراً . أما الحاحي على اخطار « العروبة » على مسيرة هذا الشعب وخاصيته ، فلا يعني ان الفلسطينيين ليسوا عرباً . فهم عرب ، ولكنهم أكثر من ذلك . العروبة خطر لانها تشكل حينها بورجوازيًا الى الماضي ، يعمل على تحويل انظار الشعب عن مصالحه الحقيقية .

واصراري على نقد التوجه العروبي ليس الا محاولة للبحث عن التحول الذي سيجعل من الانسان العربي التقليدي ، انسانا — عربيا ام لا — ولكنه اشتراكي . ومن الامة العربية ، التي تضع ملامحها بين تناثر دولها المصطنعة ، امة جديدة — عربية ام لا — ولكنها اشتراكية ، متحدة ام لا ، ولكنها اشتراكية . هل سيكون التحول طويلا ؟ ربما ولكنه بدأ . فقد شرع شبان وشابات لا يدينون الا بالقليل الى التقاليد والى أوروبا ، في نفث غبار القديم .

يقال لي أن الثوري التونسي حساس للثورة الفلسطينية اكثر منه مثلا للثورة الفيتنامية . وهذا غالبا صحيح . فهذه الثقافة المشتركة قد تكون ايجابية اذا عملت في اتجاه تضامن ثوري ، ولكنها خطيرة اذا تحولت الى عاطفية لا علاقة لها باحتياجات الثورة . ليست الخطورة في العروبة كثافة مشتركة ، ولكنها في كون العديد من العرب يعتبرونها جوهر essence . جوهر ، يشكل لب « الكائن العربي » ، باستثناء الآخرين .

وإذا كانت الثقافة عنصر تمييز فهي ليست تميزا جذريا . أوليست النظرة السائدة للعروبة كجوهر حائلا محتملا بين الحركة الفلسطينية وازدهار ثقافة فلسطينية مميزة ؟ وحتى اذا كان التونسيون أكثر تعاطفا مع الثورة الفلسطينية منهم مع ثورات أيرلندا الشمالية أو فيتنام ، فالفلسطيني (والفدائي على أي حال) كما رأيت في قواعد الأردن ، يبدي الحماس نفسه وحب استطلاع أكبر نحو ثورات لا تجري في الفلك العربي . وربما كانت هذه الملاحظة دليلا على أن الثقافة العربية أقل شمولا مما يقال ، وأن الفدائي بدأ في الانطلاق منها .

إذا كانت الثورة ، باختصار ، هي القضاء على نظام أو واقع سياسي مرفوض ، واستبداله بآخر ، يتفق أكثر مع مصالح الجماهير الشعبية ، فلا ريب أن الثورة الفلسطينية لم تحدث لأنها لا تستهدف إبدال نظام قائم ، لأن الوعي القومي قائم مع اقتتاد الأرض ، ولأن من الصعب تحقيقها لصعوبة تغيير نظام الشعب الفلسطيني الذي يعيش في مخيمات يسري عليها بتفاوت نظام الدولة القائم فيها . ولكن استعمال لفظة الثورة ممكن بالمعنى التالي : أن تجذير الوعي القومي يترافق مع انضاح وتطوير فكرة نظام آت يسري فعلا على الشعب . ولكن هذا النظام الذي يتفاعل عند بعض العقول السياسية الفلسطينية ، لم يفرز بعد ، على ما اعتقد ، فكارا ثوريا منطلقا من الخيالي لينتهي في « نظام جديد » مطبق فعلا من قبل الجماهير الفلسطينية ، ولا حتى متفاعل معها بشكل يسمح للوعي الثوري أن يطلق الجماهير في استكشاف حركة تحريرها الخاصة وتنفيذها في الدول التي تؤوي المخيمات .

إذا كانت حدة الضرورة الثورية ستستمر بالدوران في حلقة مفرغة ، أي خارج أي مجال تطبيق حقيقي ، أن تتعرض الثورة من جراء ذلك لخطر المثالية ؟ وإذا كانت الحال كذلك ، فما هي السبل لتفادي الخطر ؟

أعلم أن الأمر لم يبلغ هذه الخطورة . ذلك لأن الثورة الفلسطينية ، إذا أردنا غض الطرف عن كونها تطرح نفسها كنظام للمستقبل قادر على حكم الناس ، هي أيضا وقبل كل شيء ، من خلال العروبة التي انطلقت منها ، إشارة أو ، إذا شئنا ، مثال . والقول أنها تنطلق من العروبة يعني بالتأكيد أنها تتخطاها . وقد لاحظت ، دون شك ، أن هذه الحركة اللولبية أو الحلزونية التي تسير بسكان مقاطعة عثمانية نحو تكوين وحدة حقيقية ، دون أية ركيزة أرضية ، إنما هي انعكاس للحركة اليهودية التي أدت إلى الصهيونية . وأعني بالانعكاس الصورة المقلوبة . فهاتان الولادتان النقيضتان تعطيان على مدى تطورهما صورتين نقيضتين : فاليهود الذين أتوا إلى فلسطين وحملوا اسم « إسرائيليين » وفي جمعيتهم أفكار اشتراكية مبهمه ، عادوا بسرعة إلى تاريخ قديم لا

يعدو كونه اسطورة . وعضوا عن **الدولة الاشتراكية** ، اقاموا دولة ثيوقراطية او بالاحرى انشأوا **ثيوقراطية بدون الله** ، بمعنى انهم حرصوا على تغذية فكرة **الجوهر اليهودي** الموجودة ضمنا في شعار « الشعب المختار » .

اما الفلسطينيون الذين طردوا من ارض هم سكانها منذ اجيال ، فقد تصرفوا في كل شيء بعكس الاسرائيليين تماما ، لاضطراهم لذلك في بادئ الامر : فكلما تقدم الاسرائيليون ، غاص الفلسطينيون في العالم العربي ، وكلما كسبت اسرائيل ارضا ، وجد الفلسطينيون انفسهم في الخيالي . وكلما تتوقعت اسرائيل ضمن دولة بورجوازية رأسمالية ، أراد الفلسطينيون انفسهم واكتشفوا انفسهم ثوريين . كلما تلقت اسرائيل المال من جاليات «الشتات» اليهودي كي ترسخ اقدامها في اراض احتلتها ، استخدم الفلسطينيون الهيئات العربية لانماء الفكر والنضال الثوريين . لذلك يبدو لي من الخطأ ، كما ورد في بعض الكتابات الفرنسية ، مطابقة تصرف الفلسطينيين ومصيرهم مع تصرف اليهود ومصيرهم ، باستثناء نقطة واحدة : ارادة العيش كشعب مميز . اما التباعد فقائم منذ البداية ، بفعل الواقع نفسه .

امراة من الشعب

من المستحيل الا يرافق الثورة الفلسطينية تحرر المرأة الفلسطينية . ولنطرح جانبا النساء البرجوازيات ، او اللواتي يضمن انفسهن في خدمة الثورة عند تخرجهن من الجامعات — غربية كانت ام لا — . انني اتكلم عن امرأة عامة الشعب : فهي ، حتى في موقعها الحالي العنصر الاكثر ديناميكية والاكثر ثورية - ويخيل لي ان هذه الحرية التي تتمتع بها — حرية ما قبل التحرر — لا تعود الى ١٩٧٠ او ١٩٦٧ او ١٩٤٩ بل تنحدر الى زمن أبعد بكثير من ذلك .

ويمكنني القول على نمط ما قاله روسو : ان المرأة الفلسطينية ولدت حرة ، وحالها افضل من حال سواها على ما يبدو لي ، وهي مستعدة لتقبل اية افكار ثورية ، رغم كونها في الوقت نفسه وبحكم موقعها وطبيعتها ، عنصرا محافظا . والمرأة بشكل عام — لا المرأة الانثوية والمتنوعة كما ارادها الرجال واصبحته — بل المرأة التي تؤمن في قرارة نفسها انها متساوية مع الرجل — بمعنى انها ليست امه أو أخته أو عشيقته بل رفيقته ، هذه المرأة عليها ان تشارك في النضال ضد النظام لانها — مع الطفل — الكائن الاكثر تعرضا للاستبداد . ولا أعني أبدا نضالا مسلحا بالاطاقر او بعض الفورات العنصية ضد الرجال ، بل تعبيرا مستمرا عن حريتها وعن تحررها . وان لم تكن كل النساء الفلسطينيات ام حسن ، فكلهن يشبهنها في مضمار مهم : الا وهو تقبل متطلبات النضال . عندما قدمني حسن لأمه ، كنا في شهر رمضان . وحينما أعلمتها انني لست مسلما وانني لا أؤمن حتى بالله ، نظرت الي دون تعجب أو أستهزاء . كانت ارملة ناهزت الخمسين ، وكان الوقت قارب الظهر .

— « ان كان لا يؤمن بالله ، عليّ اذا ان اعد له الطعام » .

وأعدت لنا الطعام . فكوني ملحدا خلال شهر رمضان قادها للاجابة الصحيحة : طعام الغداء . اما هي ، فلن تأكل الا بعد السادسة مساء .

عند الغروب ، ساعدت العائلة مجتمعة في تعبئة الرصاص في الامشاط . واعني العائلة : الام ، حسن ، أخته وزوج أخته . كان الجيش الاردني يطلق النار على مخيم اريد من مستشفى تمركز فيه . وما ان هبط الظلام ، حتى التحق حسن بمركزه داخل المدينة ، فبقيت وحيدا في غرفته مع ثلاثة رشيقات كلاشنكوف مطروحة قرب مدخل اللجأ الذي كان يحتوي بدوره على عدد من قطع السلاح . كان اطلاق النار ما زال مستمرا عند الساعة العاشرة ، ولم أستطع النوم . ولكنني تظاهرت بالنوم عندما قرع الباب ، فلم

أجب . وفتح الباب بعد لحظات قصيرة ، ودخلت أم حسن حاملة طبقا عليه كوب ماء وفنجان قهوة . وكانت بندقية تتدلى من كتفها . وضعت الطبق قرب السرير ثم خرجت . شربت القهوة . وقرع الباب من جديد بعد بضع دقائق . لم أجب . فدخلت أم حسن واستردت الطبق ، ثم خرجت .

ما سبق هو وصف للتصرف البسيط والانيق الذي تتحلى به امرأة فلسطينية من الشعب . وشاهدتها في اليوم التالي جاتية وهي تعد بعض الحلوى . واستأذنتني بالدخول ، وبعد التحية ، سألتني ان كنت جائعا . ولما أجبته بالنفي الحت كي تعد لي كوب شاي ، ولكنها رفضت أن تشرب هي : فالشمس كانت قد أشرقت . ثم ابتسمت وقالت : « الله » ! . وبدأ لي خطيرا ألا يدرك المسؤولون الحسد الذي تكف النساء بالتصرف عنده كشرقيات ، حسب التقاليد . وباستطاعتي سرد أمثال أخرى عن حرية المرأة الفلسطينية ، على الأقل في الوقت الحاضر .

وفي شيء من الحدة ، يقول لي عصام ، الذي يحاول عقلنة مفهوم الثورة ، والثورة الفلسطينية بالتحديد : « الفلسطينيون بشكل عام فلاحون . علينا إذا ان نعود لنعمل في أرضنا . أما في الدول العربية الأخرى ، وهنا في باريس ، فنحن مقتلعون من الجذور » . ويقول ذلك بالانفعال نفسه الذي لمحتة على وجه فدائي شاهد أنوار الخليل التي كان يشير إليها من ضفة الأردن . والانفعال حقيقة بالتأكيد ، وهو ناتج عن النفي ، ولكننا إذا أمعنا النظر بعض الشيء في الامر ، وجدنا ان فكرة الجذور هذه التي يعتبرها عصام أساسية هي في الواقع عابرة . ويتابع عصام : « الفلاح سعيد بفلاحة أرضه » . « هذا صحيح . ولكن صحيح أيضا ان الولد او الأولاد ، عند وفاة والدهم الفلاح ، او حتى قبلها ، لا يعودون يأبهون بالأرض ، وبالعامل فيها ، فيبيعون المنزل والحقل ليعملوا في المدينة عند « رينو » ، وليقتضوا عطلتهم في اسبانيا او اليونان » . ويقر عصام بذلك . أود ان اصفي هنا حسابي مع فيلسوف لبناني قال لي يوما : « على الثورة الفلسطينية ان تتعرب أكثر فأكثر . فالعروبة كانت دائما ثورية » . وكنت قد أجبته : « أتمنى عكس ذلك تماما : ان يصبح العالم العربي فلسطينيا أكثر فأكثر ، نظرا لكون الفلسطينيين هم الشعب الوحيد في العالم العربي ، إذا استثنينا مثالي ظفار وأريتريا ، الذي برهن عن تصرف ثوري » .

ربما لعبت العروبة فيما مضى دورا ثوريا : لا أعلم . لكن ما أخشاه اليوم هو ان نعود بنا العروبة الى حنين ساحر بقدر ما هو خداع . أذكر سيدة لبنانية ثرية كانت تستعيد أمامي بشيء من الحماسة وقائع معركة بدر وأمجاد الأمويين . فإذا كانت امثال تلك الأحداث ما زالت عالقة في ذهن عامة الشعب ، فذلك يعود في الغالب لمفهوم العروبة وما يحمله من ترسبات الماضي . ويمكن اعتبار تاريخ العرب اسطورة ، لما نمتزج فيه الحقائق بالخيال ، لكنها اسطورة قد تعرقل العمل الثوري . فإذا كانت الثورة الفلسطينية قادرة على اختيار العناصر التاريخية التي تقدمها كنماذج ضمن خط ثوري محدد ، فاني أشك في مقدرة العروبة على التصرف بالشكل نفسه : فهمها الأكبر هو إثارة عواطف البورجوازية عبر أمجاد التاريخ السالف .

الأردنيون والفلسطينيون

ثم رحنا نستعرض الأخطاء التي ارتكبتها المقاومة ، وأخطرها أخفاتها في اقامة رابطة مصلحة مشتركة بين الجماهير الأردنية والفلسطينية . كان بمقدور هذه الجماهير ان تفرض نفسها إذا اتحدت لا برابطة العروبة وحسب ، بل بواسطة عمل تثقيفي جسدي وثابت ، وبواسطة المشاركة والاعمال الجماعية . وعوضا عن ذلك كان هناك من جهة ، الفدائيون الفلسطينيون ، المسلحون ، والمتباهون بثياهم المرقتة ، والمتجاهلون كليا

لعقليّة الفلاح الأردني . ومن جهة أخرى ، الفلاحون ، وقد ازعجتهم وأخافتهم تصرفات
الفدائيين الاستعراضية . فاستداروا بالطبع نحو الملك ، وجيش البدو ، الذي كان
« يحميهم » - ويحمي الملك المتطلع الى اميركا .

اذكر يوم وصلت الى اربد قادما من درعا وكان موظف جبارك اردني يباهز الخامسة
والعشرين قد ركب معنا ، عند مركز الجبارك ، ليصل الى منزله في اربد . وكان سائق
السيارة فلسطينيا وما ان وصلنا الى فندق يديره فلسطينيون حتى تركنا السائق . واصر
الموظف الاردني على حمل حقيتي ، ودخل معي الى الفندق . كان الفندق صغيرا جدا
وكانت كل غرفة من غرفه تتسع لاربعة او خمسة أسرة . وكان يعج بالرواد . وبينما
استقبلني الفلسطينيون كصديق عاملوا الموظف باحتقار . فسألتهم ، بعد ذهابه ، لما لا
يحاولون اقامة علاقة مع موظف اردني متواضع الحال مثلهم ، علاقة صداقة في بادئ
الامر ، ثم علاقة سياسية . عندها هز صاحب الفندق كتفيه بلا مبالاة : فالموظف لم يكن
فلسطينيا !

ويسألني عصام ايضا اذا كنت لاحظت حين وصولي (نهاية تشرين ١٩٧٠) تراجع
المقاومة واذا كنت حللت اسباب هذا التراجع . وبما اتني كنت بين الفدائيين ، فكان
من المستحيل الا ارى ما يجري . ولفتت انتباهي حينذاك حالة البهجة والسرور التي
كانت تسود احراج عجلون والسلط ، والنابعة من كون الفدائيين قد استطاعوا الافلات
من جحيم عمان . وكانوا يتحلون ببهجة الشباب ، وضحكه وطيشه ، بينما كان ذلك
غائبا عن الجيوش النظامية . ولكن هذه البهجة كانت ستارا للهزيمة ، الا في بعض
حالات تسليم الاسلحة ، حيث كانت علائم الهزيمة تظهر في حساسية حادة . اما اسباب
تلك الهزيمة فكان يصعب علي تحميل المقاومة وحدها مسؤوليتها . اذ كنت ارى رغما
عني ، صفقات دول كبرى ومساوماتها . وما زالت حتى الان اسئلة عديدة دون اجابة :

الفدائي كائنات

سؤال : كيف كانت نظرتك للفدائي كائنات ؟ ما هو رأيك في منطلقات التزامه الى حد
التضحية التامة ، وفي الاهداف التي يقاتل من اجلها ؟

ما يراودني قبل كل شيء ، ويذهلني أيضا ، هو حرية التعبير الكبيرة التي كان يمارسها
الفدائي . وكلمة « مذهل » ليست مبالغة في وصف تلك الظاهرة . كان في وسعهم
- اذا شئوا - التكلم في اي موضوع . لا أفكر اي موضوع محظور عليهم . كانوا
مهتمين بما يجري في الصين وكوبا ، وفي باريس بعض الشيء . كانوا يتطرقون الى كل
المواضيع ، ويعالجونها بمزيج من الخفة والرصانة .

ويدون المام يذكر باللغة العربية ، كنت اشعر ان اللغة التي يستعملونها كانت ابسط من
سواها ، وكانها افرغت من الزركشات المألوفة . فالوقائع والتعبير البسيطة كانت اهم
من التعليقات عليها ، الا اذا كانت تلك التعليقات وقائع لا احكاما .

كان مظهرهم بهيا . كان هناك ما اسميه بالجمالية الفدائية . فاخلاقتهم كانت تزوب في
جماليتهم . هذا فيما يختص بالمظهر الخارجي . اما داخلهم فكان اقل وضوحا واشد
قسوة في آن واحد . فكلية « ثوار » كلمة تستعرنارا . كانوا يحملون ارادة انجاز
تحول تاريخي مزدوج : قيادة الثورة الفلسطينية من خلال التحرير لتشمل الشعب
العربي بأجمعه ، واستعادة فلسطين . بالنسبة للهدف الاخير ، كانت الجماهير
الفلسطينية في المخيمات او خارجها مطلعة على الموقف ، اما تثوير العالم العربي فلم
تكن تعرف عنه شيئا . لذلك جاء دعم الفدائيين كمقاومين ، وتم تجاهلهم كثوار .
فاصبوا بنوع من العرج المعنوي كاد يفقدهم توازنهم . من الممكن تغيير كل هذه الامور

وربما جرى ذلك الآن . ضروري ان يتوجه الشعب بأجمعه نحو أرض ميعاده ، ونحو
أضرام نار الثورة الشعبية في العالم العربي . لا شك ان الفدائيين يرغبون في أرض
ثابتة ، ولكن أكثرهم رشاقة أدرك ان علامة العصر ليست التماسك ، والشجرة ،
والبيت ، والصخرة ، وانما استعداد دائم لحركة متعاضمة . وقد قال لي فارس بعد
خوضه معركة في صفوف فتح ، انه مستعد للنضال من اجل التحرير في اي قطر
يستقبله . اما حسن فكان يقوم بعمل منتظم وصارم في أريد ، وكلاهما لم يتجاوز الثانية
والعشرين . ولكنني اقول واردد ، ان الجاهير لم تكن تدرك تماما جانب الثورة .
المقاومة نعم — الثورة لا . ربما كان ذلك من قبيل الحيلة لئلا يزعج اليمين
الفلسطيني !

الثورة في الكلمات

علينا ان نتطرق هنا لمسألة اللغة . فاذا أردنا ان نكون شعبا ملتحمها وثابتا ، اي متمثما
بتلك الكثافة التي سبق وتكلمت عنها ، فلا بد من جعل اللغة المتداولة لدى هذا الشعب
— وهي العربية هنا — أكثر جمالا . والكلام عن الجمال لا يعني الزخرفات التي تخفي
الفكرة ، بل على العكس ، فان اللغة تزداد جمالا بقدر ما تتوفر مطابقة دقيقة بين
الوقائع من جهة والتعبير عن تلك الوقائع من جهة أخرى .

ان اليسارية الطفولية تميل الى ادخال اي شيء ضمن الكلمات والتعابير . واذا كان
الجمال لا يساوي البساطة ، فان البساطة هي دون شك عامل جمال . كذلك الامر
بالنسبة للدقة في التعبير . فهي لا تعني التشنج بل الليونة . ان الثوريين الطفوليين
يستعملون قاموسا لا يغطي أي جزء من الواقع ، واتساءل ان لم يكن استعمالهم لهذا
القاموس تعبيرا عن رغبة خفية في افشال الثورة ، هذا اذا كانت الثورة هي ايضا تبديل
نمط العلاقات بين الافراد . واعني اخيرا بجمال اللغة رفض كل نزعة اكااديمية ، وتقبل
كل الاكتشافات التي يقوم بها الشعب تلقائيا وتشجيعها .

ليس حمل السلاح كل شيء في هذا العالم . فالانسان يميل الى الابتعاد عن الحياة ، او
بالأحرى عن الجهد في فترة أصبحت فيها الحاجة الى السكن ماسة ، وراج خلالها مبيع
تلك العقاقير المسماة مسكنات . لقد الفت السلاح منذ حدثتي ، ثم نسيت : فقد دفعني
نوع من الجبن الى « التعتل » . ولكن لقايتي في الأردن بفدائيين يعيشون سلاحهم ،
وصمموا على استعماله — الفدائيين وجميع سكان المخيمات — اعادني الى واقع العنف ،
وافهمني ان العنف ضرورة . واعني بالعنف الجهد الرامي الى تحقيق قطيعة مع نمط
تراجعي يحول دون الحياة : فتفجر البراعم التي تفتتح عنف ، وعنق ايضا نمسو
حبوب القمح حين تحطم فروعها قشرة الأرض . واذا كانت الصحف — والبقية
الباقية — ضد العنف فلانها تدرك ان العنف هو منبع الحياة ، لذلك فهي تخطط عن قصد
بينه وبين الفظاظة . ولكن هذه الاخيرة تتناقض في الواقع مع العنف ، بمعنى انها نابعة
عن عمل ، او مجموعة اعمال مقتصرة على ذاتها . بينما العنف هو البحث — سهلا كان
ام لا — الذي يقوم به جيل جديد .

لكن البرجوازية تدرك ان بمقدورها خلط مضامين الكلمات والتعابير ، فتستكر اعمال
العنف مهما كان مصدرها ، على الرغم من معرفتها كل المعرفة ان بين تلك الاعمال ما
هو شراسة غير مجدية وما هو من الطرف الاخر عنف ضروري .

عندما سألت احد الفدائيين ، سنة ١٩٧٠ : « ما هو بالتحديد هدف الممارك التي
تخوضها ؟ »

اجابني : « استرجاع ارضنا »
وعندما اردفت : « وهل يمكنكم استرجاعها اذا كنتم لا تريدون اي شيء آخر ؟ »
اجاب : « - وهل يمكننا الحصول على اي شيء اخر اذا لم نحصل على ارضنا ؟ »
وقد لمسنا معا امكانية الضياع في مآهات لعبة الاجابات هذه .

اذا لم يتح لحسن وامثاله العيش في فلسطين عندما تعود ثانية « فلسطين » ، فمن
سيعيش فيها ؟ الجماهير طبعاً . أما الثوار الحقيقيون فسيتابعون ثورتهم في مكان آخر ،
كما لو كانوا ارسنقراطيي الثورة . وترتفع عدة اصوات لتقول لي : « الجماهير
ثورية » . هذا صحيح بالنسبة لتطلعاتها الى العدل والحرية ، لا بالنسبة لاتخاذ
القرارات .

لا يتكلم احد عن السعادة في الثورة . اتخالون العمل الثوري كثيباً ؟ ليست كل الاعمال
الثورية بالتأكيد مسارة - ولكن هنالك نوعاً من السعادة يرافقها ، حتى في تدمير البنية
القديمة من قبل الثائر . طرحت السؤال عدة مرات على بعض الفدائيين « تبدو لي
سعيداً فهل أنت تلهو ؟ » وكانت الاجابة دائماً نفسها : « ولم لا ؟ لماذا تريد الا نتعرف
على اللذة خلال الحياة التي نعيشها ، حياة المقاتل الذي يهدم القيم البالية » ؟ واذا كان
بناء الاسس الاخلاقية البرجوازية لا يعرفون الا نوعاً من الحالة الكئيبة ، الحزينة ،
المتشجنة ، فلربما كان للثورة ان تكون في احدى مراحلها ، نقيض تلك الكتابة .

انذكر الان سميرة وهي طبيبة فلسطينية مقيمة في الولايات المتحدة جاءت من تلقاء نفسها
لمعالجة جرحى عمان . حسناء ترتدي سروالاً . كان علينا الانتقال من جرش الى السلط
لملاقاة طبيب ومسؤول سياسي هناك . اوصلنا سائق تاكسي ، وهو جندي ميليشيا في
الوقت نفسه . وحين وصولنا في المساء ، كان الطبيب غائباً . نقلنا سيارة الى قاعدته ،
فبلغناها في اثناء الليل . وما ان رأنا ذلك المسؤول حتى تتم بضع كلمات ما لبثت سميرة
ان ترجمتها : « يجب ارجاعها الى السلط ، من المستحيل ان تقضي الليل هنا ،
فالقاتلون لن يفهموا . ولن يفهم الشعب كيف يمكن لامرأة ان تقضي الليل في قاعدة » .
وكانت الطريق والمنطقة محفوفة بالمخاطر . فطلب من فدائين ارجاع السيارة الى
السلط ومن ثم العودة ، وكل ذلك خلال الليل . اتمتعون حقاً ان الجماهير لن تفهم لماذا
تقضي طبيبة الليل ، مرتدية تلك الثياب ، تحت لحاف في زاوية من الغرفة ، لو خوطبت
بصراحة ؟ ان الجماهير الفلسطينية لن ترى حتماً في ذلك اي فجور .

كنت لبضعة ايام خلت اسير مع سميرة عبر ازقة مخيم غزة - وتحادثنا مع ست او
سبع نساء ما لبثن ان دعوتنا لتناول الشاي . وعلى ارض الغرفة الوحيدة التي كانت
البيت ، فرشنا بضعة اغطية لنا ، ووضعن وسادات قربها . وشعرت فجأة بغرابية
الموقف بالنسبة لعالم عربي تقليدي : عالم الف ليلة ليلة ! اذ كنت الرجل الوحيد وسط
سبع او ثماني نساء يتحادثن في السياسة . وما ان افصححت عين شعوري حتى علا
الضحك . ألم يكن بمقدور تلك النساء ، او بمقدور ازواجهن ، تفهم قضاء سميرة الليل
في القاعدة ؟ ربما كان اصعب عليهم ان يفهموا لماذا تم ارجاعها في الليل عبر منطقة
محفوفة بالمخاطر حتى في وضوح النهار . كان من السهل ادراج ملاحظة في جريدة
« فتح » تقول ما فحواه : « نظراً للمخاطر التي قد تتعرض لها في المنطقة من جراء
تصرفات عناصر الجيش الاردني ، فقد اضطرت زميقتنا الطيبنة سميرة الى قضاء الليل
في القاعدة كذا . . » وما الذي يحول دون القيام بحملة تفسيرية ؟

تملكني الغضب في احدى المناسبات . كان ذلك حينما قال لي غصام : بصوت لا يقبل
الجدل : « على جميع الفلسطينيين ان يعملوا للقضية الفلسطينية ، وخاصة المثقفين
منهم ، عليهم ان يستعملوا كل ما اوتوا به من مواهب من اجل القضية الفلسطينية » .

أما الذين لم يفعلوا شيئا لأجل الثورة ، فيجب نفيهم عن الأمة ، بعد النصر . وقد صدمني ذلك الحكم المبرم ، وتلك العودة الى ألحجة المطلقة ، التي اقصى حد . فالعالم لا يقتصر على الثورة الفلسطينية وحسب . ويجب ان تكون لاي امرىء - حتى الفلسطيني - حرية القيام بالابحاث على النحو الذي يرتأيه . يمكنه ان يخطئ ، ويمكنه ان نهمل أبحاثه . وحتى شخصه . لكن نفيه خارج جماعة - مهما كانت أحجامها متواضعة - يعني نفيه خارج المجموعة الانسانية بأكملها . وهذا بالضبط ما تفعله الاخلاق البرجوازية - غربية كانت أم لا - حينما تطرد ، او تسجن ، او تعزل في موقع هامشي ، كل رجل لا يعترف بالقيم المتداولة .

ويجيبني عصام : « ربما اسأت فهم ذلك » .

ربما . فانا اسئء الفهم بعض الاحيان . اما فيما يختص بحركة التحرر ، فما ان ارى محاولة حكم تسلطي ، ولهجة ادانة حاقدة حتى أخشى ان تكون الحركة قد بدأت تنكر نفسها ، او تهبط الى « الجذائوفية » * .

ثم قال لي : « ما كان البسطاء ليفهموا ذلك » .

فأجبت بشيء من الحدة : « البسطاء اقل غباء مما تعتقد ، وهم قادرون على فهم كل شيء تقريبا » .

على الرغم من حالة البؤس ، وعلى الرغم من البطالة الاضطرارية ، لم الحظ في المخيمات ، ذلك الاغتراب وذلك الضيق اللذين يسببهما دائما فصل نشاطات المرأة عن نشاطات الرجل ، والتمزق بين مجال النساء ومجال الرجال . وعوضا عن ذلك الخمول الخبيث في نظرات سكان المغرب مثلا ، فان مخيمات الاردن ، وان لم تكن تعج ببهجة القواعد ، كانت تنقسم بالصفاء والكرم .

فالأرادة الثورية لا تقتصر على استعمال مرادفات مؤثرة ، ولا حتى على استعمال البندقية ، بل هي ايضا مرتبطة بالتحدي الرامي الى العيش حياة سعيدة . انني لا اعرف ، في العالم العربي ، شعبا يتوق الى التخلص من الافكار المضجرة مثل الشعب الفلسطيني ، والى التحرر من الأعمال المرهقة ، من الثياب الرثة ومن المواقف المذلة . واذا وضعنا جانبا البرجوازية الفلسطينية ، وهي شبيهة بسواها من البرجوازيات ، فالمخيمات الفلسطينية تنقسم بالأرادة في مجابهة الحقائق وجها لوجه .

نافذة الغرب على العالم الثالث

كانت الثورة الفلسطينية - المقاومة كما سمينها اول الامر - تصلنا عبر مصفاة الصحافة . واذا كانت تلك الصحافة تتقيد بذلك الحجاب الذي ارادته اسرائيل ، فقد كان هناك ثمة شيء اخر ، الا وهو النظرة للعالم الثالث . فالقراء الأوروبيون يريدون صحفا « نظيفة » . حتى وصف الثورات عليه ان يكون مطهرا ، خاليا من البقع ، ناصع الابلوب ، لئلا ينزعج القارئ . وبما ان العالم الثالث موضوع مضجر بالنسبة اليه ، فما يجري فيه يجب ان يعرض على طريقة القصة المسلسلة ، مرفقا بكل التفصيلات الضرورية ، على ان ترد البقية « في العدد القادم » . فالعالم الثالث ، اذا اردنا ، يجب ان يكون رفيق القارئ المسلمي في الصحيفة . واخيرا ، فان المستعمر (بفتح الميم) او الذي تحرر من الاستعمار - وما زال مستعمرا في الواقع - اصبح عنصرا هاما في مناظر البلاد البعيدة لدى الأوروبيين : فهو ينظر الى صورة امرأة عربية تعمل ، او رجل اسود يتسلق دربا وعرة ، كما ينظر الى صورة بقاء ابيض على غصن شجرة استوائية . فالثلاثة في امكانهم الطبيعية ، واوروبا لا تخشى شيئا من هذه الناحية .

* جذائوف : رقيب الادب والفن في عهد ستالين .

لن ادع احدا يلمس المشهد الذي أتأمله . ادرك انه مصنوع من البؤس والخرق اليبالية ، لكنه يفعم حاجتي الجمالية ، ويمكنني من امتحان تفوقتي في تذوق حالة الفقراء ، كأنهم وجدوا هنا لأرضاء نزوتي . أمن قبيل الصدفة ان يكون قصر « المشوار » في الرباط ، متاخما لحياء تنكية تحوي ٦٠.٠٠٠ شخص ، او ان تكون بعض المخيمات الفلسطينية ملاصقة لاجل ابنية بيروت ؟ أمن قبيل الصدفة ان يقضي الاوروبيون عطلتهم ، أكثر فاكتر ، في البلدان المتخلفة ، مظهرين شفهم بالتجول في الاسواق القديمة قبل العودة الى القصور المبنية خصيصا لهم ؟ الى حد ان ولوج عربي رث الثياب او اميركي اسود في احد الاحياء السكنية الراقية أمر بحد ذاته كاف لاستنفار الشرطة .

اليكم ما اجابني به عامل مغربي عندما سألته عما يخشاه اكثر من اي شيء في باريس : « السير في الشارع ، لان كل المارة ينظرون الي » . وبالطريقة نفسها ، فعندما يعرض المهندس المعماري على الزبون منظرا لا يمكن حجبها في اعالي بناء فخم ، فلا يكون ذلك المنظر الا عبارة عن مزرعة قديمة وكرم يعمل فيهما رجال ونساء . فالبرجوازي « يتفرج » على المنظر — كما يتفرج الحسن الثاني على الاكواخ — ولكن ، قلما نتساءل عما اذا كان المنظر بحد ذاته — عما اذا كان اولئك المزارعون وعمال الكرمة راضين بأن يكونوا « فرجة » ؟ وماذا يدعوا سكان المخيمات الى قبول وضعهم كمنظر يتأمله البرجوازيون ، وشهود صامتين على لذات البرجوازية المحتاجة لذلك القدر من الفراغ والتسلية ؟ ان لم تكن تلك « الفرجة » الا منظورة ، لشعر المتفرج بطمأنينة ساكنة وسادية لانه ليس في المشهد ، ولا هو في احد أرجائه . والمتفرج محافظ بمعنى انه لا يريد لتلك « الفرجة » ، ان يتغير لونها او شكلها . فبؤس المقموعين يضفي الوانا بديعة على تلك اللوحة — او « الفرجة » — التي يتأملها الغربي . لذلك لا يجب تغيير أي شيء ، « فذلك قد يفسد جمال المنظر » ، يقول البرجوازي . و« الفرجة » « فرجته » هو . اما اذا كان المتفرج يستغل المنظر الذي يتأمله ، فذلك يمكنه من اقامة نوع آخر من العلاقات : اذ لا يكتفي الناظر ، هنا ، بالقيام بدور الحراسة السلبي ، بل يصبح سيد تغييره العملي ، علما بأن هدف عملية التغيير هذه لا يمكن الا أن يكون انتاجا لصالح السيد . وهذا الاخير لا يكون أبدا مشهدا ، ولا حتى جزءا من مشهد ، ولكنه قد يعرض نفسه للفرجة ، وهذا أمر يختلف كليا عن « المشهد » . فهو يرفض ان يراقبه المستغل (بفتح الفين) ، وحتى ان يراه . ولكن المستغل يراقب السيد بانتباه وصمت : وغالبا ما يكون ذلك لسوء طالع السيد .

ما قلته في الفقرة اعلاه انما يهدف الى الايضاح بأن استملاكا سلبيا وشهوانيا يتطابق بالضبط مع استملاك ايجابي وتغييري : ما ان تنظر العين ، وتتذوق لذة النظر ، حتى تريد الاحتفاظ بالصورة المنظورة ، فتسلب الصورة — المشهد للاحتفاظ بها والنظر اليها ، كما يسلب السيد مشهده لاجل متعة أخرى .

لا يحلو لاحد أن يكون فرجة ينظر اليها الرجل القوي . وكل نظرة تتمتع بنفسها ، ان ارادت النظر لمجرد النظر ام الاحتفاظ بالشيء للتمتع بالنظر — هي خالية من البراءة . وما اتمناه ، هو الا يتمكن نظر الاوروبيين بعد الان من رؤية « الطابع المحلي » ، وان يختفي كل « طابع محلي » ، والا يقدم المتهورون اي شيء يتمتع الانظار : مثلما قد تكون حالة ايلول الاسود بلا قناع ، في ميونيخ . ولكن ، هل سيحدث كل شيء وكأنه تحسد للغرب ؟

كل ذلك مرهون بالطبع بالاسلوب الذي ستختاره الثورة الفلسطينية لنفسها ، فاذا ارادت الاحتفاظ بسمعتها لدى البلاد الغربية ، وحاولت ان تعطي عن نفسها صورة مقبولة لدى الغرب ، وحرمت نفسها ، تبعاً لذلك ، من كل الحيل والاساليب التي تدينها اخلاق وأخلاقيات الامم . ستخسر ذلك ولن تكسب شيئا عوضا عنه ، اذ ان يقظة

اسرائيل والسنتها المنتشرة في أرجاء المعمورة كافة ستعمل دائما على تقديم اية ظاهرة فلسطينية — ما عدا الاستسلام الكلي طبعاً — على انه ضرب من الشر من الواجب محاربتة وسحقه .

بعد قضاء بضعة أشهر مع الفدائيين في قواعدهم ، لا بد من أن أعرفكم على غرابية واقعي : فقد بذلت أقصى جهدي ، خلال سنوات ، لاطمح كل الاواصر التي تشدني الى الامة الفرنسية ، ونجحت في ذلك بعض الشيء . ولكنني في نهاية المطاف ، وجدت نفسي أساهم ، بمنتهى السعادة ، في نضال امة مسلووبة ، من أجل استرجاع أرضها الضائعة . لا أشك في ضرورة النضال من أجل العودة الى الأرض المغتصبة ، ولكنه يبدو لي ان الحاجة أمس لتغيير الانسان العربي ، بواسطة النموذج الفلسطيني أولاً ، ثم بمساعدة الفلسطينيين . أرفض التعمق أكثر واكتفي بالافتراح التالي : أصبح الفلسطينيون بلا أرض . الشعب الفلسطيني يعيش في الخيالي ، بكل كثافته . ليس باستطاعة بعض العناصر الفلسطينية التفلغل في أرجاء العالم العربي ، الذي هو بامس الحاجة الى اعادة تكوين جذرية ؟ فإرادة استعادة الأرض هي إرادة العدل . واذا اقتضت على ذلك فهي محدودة . لكن الفلسطينيين قد يجعلونها تتخطى نفسها ضمن ثورة لا تقتصر على فلسطين ، بل تشمل العالم العربي بأسره . وهذا هو السبب الذي جعل شباب العالم أجمع يقفون مبهورين أمامها ، وأعطي مثالا على ذلك تصرف يساربي ايار ١٩٦٨ حينما أقاموا واجهة فلسطينية في باحة السوربون بمحاذاة الواجهة الصينية .

يصعب علي التكهّن فيها اذا كان اختلاف منشأ الفدائيين (غزة ، الخليل ، القدس ، درعا ، دمشق ، عمان ، الكويت ، أو أحد المخيمات المنتشرة هنا وهناك) ، يخلق الاحتكاكات بين السكان وفي منظمة التحرير الفلسطينية ، جاعلا العمل الجماعي عسيرا ، أم اذا كان ذلك التنوع يشكل ، على العكس ، عامل إضافة وكسب ، يغني الثورة الفلسطينية أكثر فأكثر .

كان الفدائيون قد حوصروا فوق السلط وجرش لدى مفادرتي بيروت . لكن أبناء آخر كمين نصبه لهم الجيش الأردني لم تصلني الا في فرنسا . وقد برهن هذا الكمين على ان الحكم الأردني — والبرجوازية التي يحميها — كانوا يخشيان الثورة الفلسطينية أكثر من اسرائيل .

هل نفذت عقوبات في القواعد دون أن أشعر بذلك ؟ ربما تدخل مسؤول دون أن الحظه ، لكني لا أذكر ، في أي حال ، اية مشاجرة او مناقشة حادة وعنيفة . اذا كان ذلك الجيش من الفدائيين يعيش في خفة مدهشة ، والصورة التي بقيت في ذهني عنه هي صورة مجتمع متمدن الى أقصى حد . وهذا القول بعد المجازر التي أقتربها بدو حسين يبدو وكأنه مجرد حشو . لكن الواقع عكس ذلك . فالفدائيون والمسؤولون ، الذين انخرطوا بارادتهم في صفوف فتح ، أو الجبهة الشعبية ، أو الجبهة الديموقراطية ، أو الصاعقة ، كانوا قد أنشأوا ، تحت ستار من اللامبالاة الظاهرية ، نوعا من الاشتراكية البدائية ، اشتراكية ما تحت الاشجار وتحت الامطار ، بداية اشتراكية بدوية وهزيلة كانت بمثابة بشرير التناؤل بمجتمع أكثر تقيدا قد يتكون حولها ...

وقد اغتال حسين بداية عالم جديد كهذا ، بالاشتراك مع اسرائيل ، ومع بعض البلاد العربية ، ومع كل البلاد الغربية .

ميونيخ والغرب

لم يدهشني حادث ميونيخ الا قليلا . كنت حينذاك في ايطاليا . وسأقول لكم بضع كلمات في هذا الموضوع اذا كان ذلك يهمكم .

الالعاب الأولمبية — وقد ردد هذا القول بما فيه الكفاية — ليست سوى وسيلة متعة ، ومظاهرة دعائية عبر المباريات ، أي لعبة بيع أمم بالزاد العلني من خلال الرياضة . فهي منظمة الامم المتحدة للرياضة ، اذا صح التعبير ، حيث يسمح للامم الضعيفة الاشتراك في المباريات ، بينما المنافسة تنحصر في الواقع بين الماردين . والابواق التي رددت صدى مأساة ميونيخ لم تكن مهرجانات الالعاب بحد ذاتها ، بل الصحافة الغربية المرتبطة مباشرة او غير مباشرة ، بتل أبيب ، عبر شبكة معقدة من مديري الصحف ، والمحربين ، والكتاب ...

كان اختطاف الطائرات الثلاث عام ١٩٧٠ ، وتحويلها الى صحراء الاردن قد أثار موجة استنكار مماثلة لما حدث ابان ميونيخ . والمصطلحات كانت نفسها : مجرم ، متوحش ، دنيء ، وجبان لوصف الفلسطيني ، وضحية بريئة لسواه . وقد توصلت اذاعة « أوروبا رقم ١ » الى اختلاق حدث مدهش : يبدو ان امرأة وضعت طفلا وسط الصحراء ، دون ماء ودون عناية ، محاطة بالذباب والملاريا . وما لبثت أن انهكت اذاعات أوروبا اجمعها بتقييم الاخطار التي يتعرض لها المولود الجديد ، بينما لم يكن هناك في الواقع أية راكبة حبلى على متن الطائرات ، ولم يلد احد اي شيء . وأخيرا ، قيام مذيع مجهول بتكذيب الامر ، دون أن يشعر به أحد ، وبعد فوات الاوان . اذ ان الجماهير الاوروبية كانت قد استنكرت تصرفات الفلسطينيين استنادا لحادثة مختلقة من الفها الى يائها .

تلك الصحف التي تتلاعب بالرأي العام تكتب كلمة « ارهابي » حيث يجب كتابة كلمة « فدائي » ، أي الذي يضحي بنفسه . فالعين العبرية تبهرها من وراء مثلثها المقدس ، كما تبهرها عين دايان الوحيدة .

واليكم هذا المثل : « من وراء النوافذ نصف المغلقة ، فتح قناصة البوليس الالماني النار ، عند سماعهم الاشارة المتفق عليها ، فأردوا الارهابيين الفلسطينيين قتلى بظرف ثوان معدودة ، وحرروا في الوقت نفسه ، ودون ان يصابوا بأية خدوش ، الرهائن الاسرائيليين » . (فرانس سوار — في عددها الصادر بتاريخ ٨ ايلول ١٩٧٢) .

اذا ، يجب ارداء الفلسطينيين قتلى وتحرير الاسرائيليين دون أية خدوش . يمكن قراءة هذا الموقف كما يلي : « فلسطين مسحوقة ، المجد لاسرائيل » . والشركاء في الجرم هم الدول الاوروبية وغالبية شعوبها . واختيار الكلمات بات يهدف — بعد ميونيخ — الى وضع الفلسطينيين في مصاف المجرمين ، وكل عمل تحدده كلمات مماثلة انما مرتبط الى عالم تحتني ، هو العالم الثالث ، هنا ايضا .

تلك هي سلطة السيد : التحكم بمعاني الكلمات ، تحميلها او افراغها من مغزاها المعنوي ، وابدال ذلك المغزى بوصمة عار .

وهوذا برهان آخر لصالح ايلول الاسود :

بتشجيع من اسرائيل والسنتها المنتشرة هنا وهناك ، عم أوروبا احتقار فظيع للقضية العربية بشكل عام ، وللقضية الفلسطينية بوجه خاص . ومفضوحا كان أم مبطننا — كما هي الحال بالنسبة للحكومة الفرنسية — فان هذا الاحتقار بلغ حدا بنتنا مرغمين على القول تجاهه ان الفلسطينيين ، بما انهم لا يتمتعون بأي حق اطلاقا ، فلهم الان الحق في أي عمل يقومون به لاجل الحصول على حق ما . بما انهم سيمعرونهم في أي عمل يقومون به ، فلم الاكتراث بردود الفعل الاوروبية ؟ واذا كانت ميونيخ قد لقيت ترحيبا في المخيمات ، فهذه اشارة الى أن المخيمات أصبحت الآن قادرة على بذل الكثير تجاه الذين يبذلون الكثير تجاهها . ويعني هذا انه بات من الضروري القيام باعلام تحريضي داخل المخيمات ، لا أن تنتظر المخيمات سلبيا التحرير بفضل عمليات ايلول الاسود بمفردها .

يجب المباشرة بعمل تحريض سياسي ، سرىا كان أم لا ، على نطاق القاعدة ، اي داخل المخيمات .

نعلم الآن ان سفير اسرائيل كان حاضرا في مطار ميونيخ . وان غولدا مئير اعطت الامر باطلاق النار ، من القدس : فمصرع اليهود ارادته اسرائيل . كان يجب ان « تنتحب اسرائيل بأسرها » ، وأن يتوعد الاسرائيليون بالانتقام .

ولنلاحظ هنا ما كتبه الصحف الالمانية: « ان شرطة أوروبا بأسرها قد تعاونت في مطاردة العرب الى حد يمكننا من القول انه لم تكن هناك الا شرطة اوروبية واحدة خلال الايام الماضية » .

ما أن تم اعلان فكرة « السوق المشتركة » ، و« أوروبا الستة » ثم « أوروبا العشرة » ، حتى بات واضحا ان وحدة أوروبا لن تتحقق ، ولن تتكون بصلابة ، الا أمام عدو مشترك . والعدو لا يمكن ان يكون الا الفقير ، المذلول ، الزنجي ، العربي ، الاصفر ، العين المقطبة . ألم تكن الوحدة واقعة لا محال بعد ذلك التعاون الحميم بين شرطة كل قطر اوروبي ؟ زد على ذلك ان المنتفعين من تلك الوحدة لن يكونوا الرأسماليين دون سواهم ، بل جميع المواطنين ، كل أولئك الذين « يتفرجون » على « المنظر » ، البرجوازيون والبروليتاريون على السواء ، اذ ان هؤلاء ايضا برجوازيون بالنسبة الى « حثالة » الشعوب : العالم الثالث .

توصلت الامبراطورية البريطانية الى ذروتها — أي غطت اوسع مساحة من الاراضي والمحيطات — عندما كانت الاخلاق الفكتورية مهيمنة . وبينما كانت تسحق ، لمصلحتها ، الهند بأسرها ، بشطريها المسلم والهندوسي ، والشرق الاوسط ، ومصر محمد علي ، لتخترع من ثم العراق وفلسطين اليهودية والجزيرة العربية ، كانت انكلترا تتغلق بالاخلاق الى حد التزمّت . وقد سمحت لنفسها بتزف ديموقراطية ليبرالية سحرت العالم اجمع . وعندما قات الجنرال عيدي امين ان انكلترا هي المكان الذي يجب ان يعود له الاسرائيليون ، عبر عن قدر كبير من المنطق . وعندما تابعت امريكا مسيرة أوروبا ، كان من الطبيعي ان تأخذ على حسابها اسرائيل ايضا .

كل حكومات أوروبا البولييسية ، استعملت قدر ما استطاعت القرصنة والقرصنة . فقد اختطف سلاح الطيران الفرنسي احمد بن بيلا ، وتولت المخابرات امر المهدي بن بركة . ولبضعة ايام خلت ، كانت الشرطة الامريكية تخطف — في ستوكهولم ثم في كوبنهاغن — ديبلوماسيا حاول اغتيال ابن تشانغ كاي تشيك . ولم تحرك رابطة حقوق الانسان ساكنا . وتعرفون انتم كل المعرفة جرائم ألشترين والارغون ، وانفجارات حيفا ومندق الملك داود ، والجنود البريطانيين المقتولين والحشوين بالمتفجرات . تعلمون بأمر مقتل برنادوت ، والغريب ان كل الناس في أوروبا — أعني الصحفيين — يعلمون بالامر ، لكن هنالك نوعا من الرقابة التي تمارس كلما دار الحديث حول ولادة الدولة اليهودية .

لا بد انكم أدركتم ان مقاتلي ايلول الاسود ماتوا بنظري كجنود ، وان تلك الشخصية الفلسطينية ، التي لا أرض لها سوى العروبة والخيالي ، لا بد وانها أصبحت قوية الى حد بعيد في صميم كل فلسطيني ، لتنجب رجالا يتسهون بذلك التصميم وذلك الاستعداد على التضحية بحياتهم لاجلها . وهذا يعني انه لا مجال اطلاقا لحوار مع اسرائيل . كان ظهور ذلك الشبح المخفي تحت قناع مثقوب ، تعظييه حذبة صغيرة ، على شاشات التلفزيون وغلافات الصحف ، يخيف ويؤلم على حد سواء . هو تعبير اولاً عن رفض ايلول الاسود بأن تكون تلك « الفرجة » ، أي أن تكون عالما ثالثا في مسرحية أوبرا ، ذات « الطابع المحلي » حيث يلف النظر الى الموت والبؤس بالنسبة للمتفرجين

الاوروبيين البعيدين عنهما . هذا الظل أصبح قريبا منا الى حد ان الغربيين يخشون ان يكون بينهم . فهو ليس فانتوماس أو طرزان . لا يحمل اي اسم ، والامر افضل كذلك . عندما نقلت ايلول الاسود النضال الى أوروبا ، انما أعادته الى ساحته الاصلية . فاعادة نقل الحرب الى أوروبا هي ، بالنسبة للفلسطينيين عودة منطقية الى منبع مصائبهم : فالحكومات الروسية والبولونية والالمانية والفرنسية والبريطانية هي التي ساهمت في خلق الدولة اليهودية . وعودة الفلسطينيين الى تلك الديار — سواء اكانوا رافعين اصبع الاتهام ام قبضة الانتقام ، لا بد وان تساعد أوروبا في تحمل مسؤوليتها في موجات اضطهاد اليهود . فأوروبا لم تبال بحملات اضطهاد اليهود المتتالية ، كما انها لم تبال لذبح السكان العرب في فلسطين . ولم يكن أمام اليهود ، حينذاك ، سوى اقتحام أقل المواقع مقاومة : تلك المقاطعة العثمانية التي ، حسب ما يقال الان ، كانوا قد طردوا منها منذ ألفي عام ونيف . ومن طردهم حينذاك ؟ الرومان ، لا العرب . وقدم الاسرائيليون من كافة أرجاء أوروبا . واما اذا حدث أن وجد بينهم بعض اليهود العراقيين واليمنيين الذين نجوا من مذابح مزعومة ، فهذه قد تكون نقطة سوداء في سجل اليمن أو العراق ، لا في خانة الفلسطينيين .

على أي حال ، ما هي تلك الالعب الاولية بالضبط ؟ في الاصل ، صدر قرار تأسيسها في مدينة دلف ، وذلك لاقامة هدنة بين المدن الاغريقية المتحاربة . ولكن اليونان هي أيضا أوروبا . وعندما أعاد البارون « بيار دي كوبرتان » الحياة للروح الاولية ، فانه لم يفعل ذلك لبراءته الطفولية : اذ كان ذلك ضربا من الامبريالية الثقافية نظرا الى كون الرياضي الياباني والكوري والسنغالي والمغربي على السواء مرغبين على تعلم تاريخ اليونان ، ان هم ارادوا معرفة تاريخ الالعب الاولية وروحها . لذلك ، يشكل اختيار الفلسطينيين لرهائن اسرائيلية ، في أوروبا ، في ألمانيا ، وسط الالعب اولوية ، تلخيصا جامعا وبلغيا للمسألة الفلسطينية . وما بات يتضح بحدة من خلال ذلك النضال هو تخطي الصراع لنفسه ، بمعنى ان النضال لم يعد يقتصر على الصهيونية والامبريالية ، بل أصبح يكافح ضد اخلاقية طاغية ، هي الاخلاقية التي تنبع منها كل القيم الغربية ، والتي تنبع منها أيضا العنصرية ، ومعاداة السامية ، والصهيونية، والرأسمالية ومختلف الامبرياليات . وقد فرضت تلك الاخلاقية نفسها بطريقة طفغانية .

وجميع تفجرات العالم الثالث — وفلسطين من ضمنها — انما تهدف ، على ما يبدو لي ، الى مجابهة تلك الكلمات التي تريد فرض نفسها كاحكام وادانات . ان هذه الاخلاق بدأت تمارس تأثيرها من خلال تغلغلها داخل اللغة وتلويثها .

تقول الصحف الاوروبية في وصف الفلسطينيين واعمالهم : « أعمال عنف أعمى » ، و« جرائم لا يمكن تفسيرها » ، « لا انسانية » ، « دنيئة » ... تلك محاولة لارهاب الفلسطينيين بواسطة اخلاق خانقة هي اخلاق الاوروبيين دون سواهم .

« نداء توجهه السيدة منير الى العالم الحر » (الفيغارو — ١٣ ايلول ١٩٧٢) . هذا العنوان هو زلة لسان تكشف عن كون فلسطين ليست حرة . ولكن العنوان نفسه يعتبر ان « العالم الحر » — الذي تنتمي اليه اسرائيل — لا يمكن خلطه مع العالم المغفل بالقيود ، الذي ينهبه « العالم الحر » . ودون أن يعي ذلك ، فان المحرر الصحفي قد جعل تلك الحقيقة جلية للعيان : « العالم الحر » له جيوشه ، ومصارفه ، وسجونته ، وابنيته الشاحبة ، وبيروقراطيته ، وتاريخه المكتوب ذو الالتواءات التي لا حصر لها ، كل ذلك لمواجهة « الضياع » الفلسطيني . وكلما اندلعت حرب بين أوروبا والعالم الثالث ، فهي لا تلبث ان تصبح معركة الخير والشر ، حيث تمثل أوروبا طبعاً الخير كله — هذا ان تكن هي الخير بحد ذاته . لذلك يجدر بنا التساؤل عن جدوى تصرف الفلسطينيين على

نمط العادات — او بالاجرى القواعد — التي تسير العالم الغربي . كل الاساليب جيدة طالما تنزل الضربات بتلك الاخلاق ، التي لا تحتل موقعها هذا ، ولا يجري الدفاع عنها باستماتة الا لسبب واحد ، وهو لانها تشكل سدا في وجه مطالب عالم مستغل (يفتح الغين) .

الثورة في الشرق والغرب

هذا سؤال يطرحه علي الفلسطينيين دائما : « ما هي المقارنة التي يمكننا اقامتها بين الثورة الفلسطينية والحركات الثورية في الغرب (ايار ٦٨) » ؟ جوابي لن يكون مرضيا فبعض ايام ايار ٦٨ كانت مبعثرة في الزمن الذي سبق ذلك الشهر في فرنسا . كانت مبعثرة في الزمان والمكان . الا انه كان لا بد من « لمة » هذه الايام اذا كنا نريدها ان تسجل في بضعة ايام بوضوح اكبر حتى يتم اكتشاف ما كان يتفاعل منذ زمن طويل . اما الثورة الفلسطينية ، فما زالت في الفترة التي تعتبر فيها كل الضربات مفيدة ، وذلك بالنسبة للعالم الغربي وبالنسبة للانظمة العربية البرجوازية . واذا اخذ الفلسطينيون بعين الاعتبار تلك القاعدة الدولية التي لا يحترمها احد ، فسيدركون انهم قد اصبحوا في مرحلة محددة من لعبة يلجأ فيها الجميع الي الغش . (ذلك ان هنالك قواعد ثورية وحررية وضعتها الغربيون بالطبع وتبنتها مختلف البرجوازيات العربية .) والتكهن عما ستكشفه فلسطين عند النصر ، مستحيل لان وعيها القومي ما زال قيد التكوين — كما سبق وقلت — في المخيمات والقواعد ، وفي اذهان الطلاب الفلسطينيين في الخارج .

واود ان ازيد كلمة اخيرة وهي ان قواعد الفدائيين قد خلقت جوا مفعما بالحوية ، شبيها بالذي خلقه شهر ايار ٦٨ في فرنسا . ولكن اختلافا جذريا كان يفصل الاثنين فالفدائيون كانوا مسلحين ، وكانت اسلحتهم تجر كالمغناطيس سلاح البدوي : فكانوا يعيشون وسط مزيج من البهجة والشعور بالخطر . وهذا الخطر كان يضي شيئا من النقاوة والتساوة على الحياة في القواعد .

المسألة اليهودية

سؤال : ما هي نظرتك للجزور الاوروبية للمسألة الفلسطينية (المسألة اليهودية) والى مدى استمرار العداء للسامية ؟ واذا كانت الصهيونية ردا على المعاداة للسامية ، من موقعها نفسه ، فاي مخرج ترى لتلك المشكلة التي هي غريبة قبل كل شيء ؟

جواب : من الواضح ان المعاداة للسامية ما زالت رائجة في أوروبا ، وانني اتساءل الى أي حد تستغل العنصرية المعادية للعرب لاختفاء المعاداة للسامية في الغرب المسيحي . بواعث هذا الشعور المعقد ترجع الى كون المسيحيين استلهموا جوهر عقيدتهم من النصوص المقدسة اليهودية، ولكن التوسع في هذا المضمار يتطلب دراسات طويلة لست قادرا على القيام بها . ومن الواضح انه ما دام الصراع العربي الاسرائيلي قائما فانه يريح ضمائر المعادين للسامية اذ يمكنهم من اتخاذ موقف علني الى جانب « اوروبيين » . « اوروبيون » لان الرأي العام الاوروبي لا يعطي عملية الاستيطان الصهيونية الا شكلا واحدا — وذلك عائد الى نوع من الكسل او الراحة الفكرية — نرواد اشتراكيون قدموا من بولونيا وروسيا لتأسيس الكيبوتزات . ويمكننا القول ان يهود أوروبا باتوا ببنائي عن أي اضطهاد لان اضطهاد المانيا النازية الفظيع لهم اصبح بمثابة غطاء يحميهم . لكن اسرائيل في نظري أصبحت تشكل خطرا حقيقيا في الشرق الأوسط . اذ باتت باستطاعة الامبريالية الامريكية التستر خلف امبرياليات ثانوية في تلك المنطقة ، واسرائيل احداها . وتطمعني عصام ليؤكد ان معاداة السامية ولدت في أوروبا خلال القرون الوسطى . وهو على حق ان كان يقصد اضطهاد اليهود ، وبالاخص تلك التي قامت بها المحاكم

الدينية آنذاك ، اذ لا يمكن انكار الحملات المسيحية المعادية لليهود في شرق اوربوا . وبما ان معاداة السامية هي علة وجود الصهيونية ، فان الصهاينة انفسهم باتوا يقبلون بذلك التفسير . ولكنني اعتقد ان الصهيونية هي ظاهرة القرن العشرين وهي نسخة مطابقة تماما لنموذجها الاصيل : الاستعمار . وقد برهنت منذ ولادتها على القدر نفسه من اللؤم الذي اتسم به الاستعمار حينما ادعي نشر قيم 1789 الثورية عبر العالم ، بينما كان ينشئ نظام عبودية يمكنه من زيادة ارباحه . اذ ان الصهيونية اهتمت ظاهريا بالاحتفاظ بملجأ يحمي اليهود من معاداة السامية الغربية بينما كانت تبني ، في الواقع ، دولة ثيوقراطية بعد ان طردت شعبا بأسره . فأسلوب الاحتلال كان هو نفسه تقريبا في الحالتين : بضعة رواد بدائيين في افكارهم ، او مغامرين لا يتورعون عن ارهاب السكان المحليين او قتلهم ...

ولكنكم تعرفون هذه الامور افضل مني . اما القسم الاخير من السؤال فاقول بصدده انني لا ارى اي حل خارج اقامة الاشتراكية . ولكن ذلك الحل لن يتم ما لم يدرك الاسرائيليون ضرورة الثورة الاشتراكية . ونحن الآن ، على ما يبدو ، بعيدون كل البعد عن ذلك الادراك . فاسرائيل اليوم مأخوذة بارادة القوة والعظمة .

وإذا استعملنا كلمة اشتراكية بكثرة كما سبق ، يحق لكم طرح السؤال : « هل انت مستعد للقبول بعالم اشتراكي ؟ » اذا كانت هي الاشتراكية المطبقة في خطوطها العريضة — بدرجات متفاوتة — في كافة انحاء العالم ، فائني ارفضها دون شك ولكنني سأقبل المساهمة بشكل مطلق في خلق عالم تكون فيه الاشتراكية صيرورة دائمة .

دعم الثورة الفلسطينية في الغرب

سؤال : ما هو رأيك في حركة المساندة للثورة الفلسطينية في فرنسا والغرب عامة ، وبإمكانيات اتساع نطاقها ؟ ماذا يستطيع الفلسطينيون واصدقاؤهم العمل في هذا المجال ؟

جواب : اذا كانت الحكومة الفرنسية مكرمة — وذلك لاسباب اقتصادية : بتزول الشرق الاوسط — على الادلاء ببعض التصريحات المبدئية لصالح الفلسطينيين ، كالاعتراف بحقهم في الوجود وحتى بحقهم في تقرير مصيرهم ، أو التنازل بشأن وجود شبه تمثيل للفلسطينيين في فرنسا ، فان ذلك لا يجب ان يخذعنا : فالحكومة الفرنسية قد سلمت اسرائيل ، خلال اثني عشر عاما ، كميات هائلة من الاسلحة . واعطاؤها النصيحة بعدم استعمال تلك الاسلحة ، كما فعل الجنرال ديغول في سنة 1967 ، ضرب من السخافة الطفولية — هذا ان لم يكن مناورة تدخل في لعبة فرنسا المزدوجة — . فكيف تريدون من دولة دفعت ذلك الثمن الباهظ مقابل تلك الاسلحة ، ان تطيع نصائح بائع الاسلحة هذا ؟ ان الحكومة الفرنسية تعلم كل العلم ان اليهود يسيطرون على الصحافة الفرنسية بأكملها تقريبا ، وان اسرائيل ما زالت تتمتع بعطف أكثرية يهود فرنسا . لذلك اعتقد ان ما تم اتجاذه هو جيد بالفعل : اي الضغط على البلدان البترولية كي تضغط بدورها اكثر وأكثر على الحكومة الفرنسية لاستقبال الفلسطينيين في فرنسا . أما الحركة المساندة لفلسطين بحد ذاتها فما زالت ضعيفة ومعرضة دائما لتهمة معاداة السامية . فالموافق المتخذة ما زالت ذات طابع انساني اكثر منه سياسي .

على أي حال فان قضائي معظم أوقاتي خارج فرنسا يمنعي من اتخاذ موقف على نحو ما تطلبونه مني . ولكنني اعتقد ان الاكثار من الدراسات حول شعب قيد التكوين — على نحو الدراسات التي يقوم بها العلماء حول نجوم قيد التكوين — قد يعود علينا بالفائدة . عندئذ ، يجب دراسة فلسطين كما هي — لا كما ستصبح — فذلك مستحيل — اي كما هي منذ ان حرمت من ارضها — وحتى منذ ان تم سحب الاراضي الاردنية واللبنانية

الجنوبية من تحت أرجل الفدائيين .

وبينما اعتقد الناس ان كل تلك المصائب والتراجعات قد اضعفت فلسطين واجهزت عليها — تماما كما توقعها دايان — اذا بها تبدو اقوى من ذي قبل . وهذه هي الظاهرة التي علينا دراستها لمساعدة الثورة .

الادب والفن في الثورة

سؤال : ما هو الدور الذي يمكن للادب والفن ان يؤديه في الثورة ، وفي المعركة من أجل تحرير الانسان ؟ .

جواب : التوضيح واجب هنا ايضا . هنالك ثورة اجتماعية واقتصادية واحدة ترافقها ثورات فنية متعددة : ثورة في الرسم ، في الموسيقى ، في الادب الخ . . . هذا اذا امتنعنا عن التطرق الى الثورة الثقافية التي هي شيء آخر ايضا . وبشكل عام ، فان الحديث عن دور الفن في الثورة يجزئنا بشكل طبيعي الى فكرة جعل الفن البرجوازي في خدمة الثورة . فنحاول مثلا استعمال الرواية لمحاربة البرجوازية ، بينما الفن الروائي هو بنظري تعبير برجوازي . انا لا اعرف رواية برولينارية ، كما انني اشك في قبول بروليناري او ثائر لتلك الثورات الصغيرة التي تم القيام بها داخل الفن الروائي في السنوات الاخيرة . كانت ثورة اكتوبر سنة ١٩١٧ عملا رائعا . واحداث ثورة في الرسم ، كما فعل سيزان خلال عزلته ، هو عمل جميل ايضا . لكن رجال اكتوبر ١٩١٧ استولوا على السلطة السياسية وبادروا ، منذ سنة ١٩٢٤ ، الى منع معارض سيزان وكل الرسامين الذين فهموا امثولته . ولئن كانت الثورة السياسية والثورة الفنية لا تتناقضان دائما ، فعلينا الاعتراف بان كل ثورة ترغب في ان تمدحها تلك الاكاديمية نفسها التي يراد تحطيمها .

« معركة من أجل تحرير الانسان » . لا شك في ذلك . لكن الثورات الفنية هي كماليات تتعدى امكانيات الثوار السياسيين . انني اؤمن بقوة ان عمل الفنان يجب ان يترك حرا . فليس بإمكان أحد اداء الفصاح له . **واذا كان بإمكان الفنانين مساعدتكم من حين لآخر ، فلن يكونوا بالتأكيد افضل من ساعدكم .**

فالامر لا يتعلق بالفن ، بالنسبة للثورة ، بل بالمعلومات . لذلك علينا القبول بتلك المقولة : ان الفن الذي ستستعمله الثورة هو فن سيرفزه الفنانون ، منعزلين كانوا ام لا ، ويستبدلونه بفن جديد .

وفي حال قبولنا للمصطلحات السياسية ، علينا الاقرار بان الفن مرتبط باليمين واليسار في آن واحد . فهو ، وان كانت جذوره متصلة في التقاليد، ينعكس او يرغب في الانعكاس في مستقبل يكون قد صاغ جزءا بسيطا منه بيديه . وتلك الازدواجية في العمل الفني تجعله صعبا ضمن معركة سياسية .

ولنذهب الى ابعد من هذا الحد . العمل الفني هو في نظري على نوعين ، وتحديد النوعين حسب وظيفة كل منهما لا يجب ان ترافقه أية مفاضلة . هنالك من جهة العمل الذي يخدم الثورة ، وهو بناء بهذا المعنى ، مع كونه يهدم القيم البرجوازية . وهنالك نوع آخر من الاعمال الفنية ، عنيف وتحريضي بالضرورة ، بمعنى انه يرفض التسليم بآية قيمة ، وبآية سلطة . فهو يناقش حتى وجود الانسان . وهذا هو النوع الذي كنت اقصد عندما قلت ان العمل الفني لا يمكن ان يخدم الثورة وانا لحن على انه يرفض كل قيمة وكل سلطة .

هل يجب ربط الفن بالثورة ؟ الكلام هنا اسهل من الفعل . فكيف يمكننا ربط سهام تنطلق باتجاهات مختلفة ؟ فلنأخذ مثلا فظائع الحرب لغويا (Goya) وهي مجموعة لوحات كرسها

« غويا » لادانة الحروب النابليونية . وكل من أتيجت له فرصة تأمل المجموعة بأكملها سحر بجمال ذلك العمل الفني . فروعة المشهد تنسينا ادانة الحرب التي يتضمنها ، نظرا لأنها كانتا بخفة خطوط « غويا » وحيويتها . ما هي حالة التأمل بذلك العمل ؟ يمكنني وصف شموري كما يلي : حالة جلود باطني ، مستمرة في بحث لا متناه عن الجمال ، دون ان ينتهي الجلود . فهذه نقطة اللاعودة بالنسبة لها ، وهي ان تخطتها أطلت على حالة من الإنهيار ، وفي حدها الاقصى ، الموت .

اما الثورة ومتطلباتها فهي دائما عبارة عن اوامر عنلية ، وقولي ان العمل الفني تحريضي ، انما يعني انه في آخر المطاف يهز كل نظام قائم ، والعمل الفني الذي يتهمج مرحليا على بعض القيم ، ويحاربها ويقوم بتحقيها ، يبدأ أيضا ، وبالحركة نفسها ، بإرساء أسس سلطات الثورة . قد تقولون انها سلطات الشعب ، وانها مطلقة بما ان الشعب سيد مصيره . لكن علينا تقبل تلك الفكرة القائلة بان أية ثورة لن تنصر على الموت . وعلى الرغم من ذلك ، فمن واجب الثورة تشجيع اعدائها : الاعمال الفنية . وذلك لان العمل الفني — وهو نتاج الكفاح المنفرد الذي يخوضه الفنان — يميل الى التأمل . وهذا الأخير قد يتحول ، في المدى البعيد الى هدم لكل القيم . برجوازية ام لا ، وابدالها بشيء آخر سيثبته أكثر فأكثر ما نسيه حورية .

لكننا ما زلنا بعيدين عن كل هذا . فالعمل الثوري له مكانته في النضال الثوري ، لكنه عرضة لكافة انواع التبجح والرشوة ، كما هو الآن ، وكما سيبطل لامد طويل ، ضمن العالم البرجوازي . الفنان متواضع . والعمل الفني سوف يصبح مجرد تجربة تواضع ، أكثر فأكثر . أنا لا أقول غياب — بل تواضع . بينما هو حاليا ، اكان ذلك في العالم البرجوازي أم ضمن الثورة ، أداة سلطة . اما العمل الحرفي ، فيمكنه رد الذي يمارسه الى مواقف أكثر وأكثر رجعية . فلنأخذ مثلا صناعة الفخار بما انها وسيلة للعيش بالنسبة لعدد كبير من العائلات في بعض البلاد العربية — وكونها كذلك هو سبب كاف يدفعنا الى المحافظة عليها ، لان الحاجة الاولى لاي كائن هو البقاء ، أي العيش . ان الحرفي مضطر ، كي يلبي طلبات زبائنه الذين يبرون به مرور طريق ، ان يعيد ، الى ما لا نهاية ، صنع الشكل ذاته للوانني التي يريد بيعها ، وهو الشكل الذي كان موجودا منذ ألفي او ثلاثة آلاف سنة ، والذي يخاله السواح مرتبطا بشكل او بآخر ، بالبلد او بالمنظر . وسيعيد الخزفي صنع تلك الأشكال عشرة آلاف أو عشرين ألف مرة . وإذا أراد حقا ان يبيعه ، فتلك الاواني يجب ان تطابق تماما الفكرة التي تكونت عنها في ذهن السائح . وأبسط خطأ كاف لجعل الاناء فاشلا يستحيل بيعه .

اما اذا حوّر بيكاسو شكل أي اناء ، فسيكسب ذلك الاناء قيمة بقدر ابتعاده عن الشكل القديم الأكاديمي . وكلما وضع بيكاسو من ذاته في الاناء ، ومن حريته الذاتية ، أي كلما كان الاناء تعبيرا عن حريته وشخصيته هو ، كان جميلا ، ومباغا . لكن أقل هفوة تتعرض لها الطينة الرطبة بين يدي الحرفي تعتبر خطأ . ولا يمكن للحرفي ان يواصل العمل في ذلك الخطأ ، أو ان يدخل حريته في صنع الاناء عبر ذلك « الخطأ » . فلاناء لا يجب ان يحوي قدر ذرة من شخصية الحرفي .

ان العمل الفني — ونتكلم هنا عن الفن البرجوازي او الذي تقبله البرجوازية — يترك أوسع مجال للعوامل الذاتية لدى المرء . ولئن كان من الممكن ان تثير تلك العوامل الذاتية عواطف الناظر ، فمن المشكوك فيه ان تكون سلاحا ثوريا . اما اذا ابتعد الفنان عن عواطفه الذاتية — رافضا كل ما هو عاطفة وشعور — فقد يكسب ابعادا جديدة : ذلك التطلع الى الموت مثلا الذي سبق وتكلمت عنه ، والذي هو بمثابة دعوة الى التاصل لا الى النضال . وأخيرا ، ربما كان احدى تعريفات العمل الفني : انه شيء لا يفي بأية حاجة .

شاعت حاليا أداة تعبير واتصال بسيطة الى حد ما وهي السينما . وانني اتساءل عما اذا كان من الممكن لبعض الفدائيين — او مناضلين غيرهم — أن يزودوا بالآلات تسجل الصوت أيضا ، كي ينتجوا أفلاما صغيرة ، يكتشفون بانفسهم التقنية والأجائية الأكثر ملاءمة لها ، ويتم عرضها في المخيمات فيما بعد .

وفيما يختص بالثورة الفلسطينية ، فهي على حق عندما تستعمل الاشكال الفنية البرجوازية ، ولكن ذلك الإستعمال قد يعرض الثورة للخطر ، اذا اغراها استغلال المواضيع ، والصور ، والكليشيهات نفسها — أي الاكاذيب نفسها — التي تساند البرجوازية . وهناك ما هو أفظع : فغنائو البرجوازية (البارعون بينهم) هم هامشيون بالنسبة لتلك البرجوازية ، والفن الذي انشأوه يعمل ضد السلطة البرجوازية ، الى حد ما (على نطاق أضيق جدا من الواقع) واذا وضع فن باكملة في خدمة الثورة ، فقد يصبح باكملة أيضا ، في خدمة السلطة السياسية داخل الثورة . ولا اعتقد ان ذلك مما يحمده ، الا اذا اعتبرنا ان السلطة الثورية تادرة ، في كل الاحوال ، على تقويم وتشجيع ثورة أدبية ، أو موسيقية ، الخ ...

لم تحدث بعد — على حد معرفتي — أية ثورة فنية فلسطينية . وعلى الرغم من ان كل الطاقات الفكرية قد جندت للمساهمة في المعركة السياسية أو المسلحة ، فمن الممكن ان يظهر فنان ما — منفرد أو لا — يتمتع بالقوة الكافية كي يعرض على شعبه اشكالا جديدة ، أكثر وضوحا وجلاء . وحذار من احباط عزيمته حينذاك ، بحجة عدم أهلية الاناس النسطاء : فالنسطاء سوف يستوعبون الفن الجديد بطريقة أفضل من واضعي نظريات الثورة ، الغارقين في لجج الثقافة البرجوازية .

ومساندة للفنان المنعزل ، أود ايضا ما يلي : ان العمل الفني هو دلالة على رفض القوانين العادية — أي قوانين العادة — من أجل اكتشاف قوانين جديدة قد تفتح السبيل للغة جديدة . فالعالم العربي في حالة جمود منذ أكثر من مئة وخمسين سنة . وميشكل احجام الثورة الفلسطينية عن اعطاء الفنانين فرصهم للخلاق خسارة كبرى . أما هؤلاء الفنانون ، فسيستخدمون ، للتوصل الى أهدافهم ، أساليب كل الناس ، الأساليب التي يستطيعون استخدامها . فليست هنالك ثمة مدارس ، ولا وجود لأية قواعد ، الا تلك التي يجب هدمها لاستبدالها بقواعد جديدة .

الفنان ضعيف — وعلى الثورة حمايته حتى في نطاق الأخطاء التي قد يرتكبها — لكنه في الوقت نفسه أحد أقوى أسلحة الثورة التحريرية .

صدر حديثا عن مركز الأبحاث باللغة الانجليزية كتاب
مجلة نيو ستيتسمان والشرق الأوسط

بقلم

خالد قشطيني

يعرض المؤلف في الكتاب لوائف المجلة من قضايا الشرق الأوسط ، وخاصة قضية فلسطين ، وذلك منذ أول صدورها ، كمجلة تقدمية يقرأها معظم مثقفي العالم الثالث ، وحتى الوقت الحاضر حيث توسعت المجلة بدعمها للصهيونية واسرائيل مما يحض ادعائها بالاشتراكية والتقدمية .

١٤٤ صفحة ، بليرتين لبلانيتين فقط

تضاف اليها أجور البريد الجوي : ٥٠ ق.ل. في العالم العربي ،

١٠٠ ق.ل. في أوروبا ، ٢٥٠ ق.ل. في سائر الدول

الخروج من ساحل المتوسط

محمود درويش

جاء في الأنباء : أن قبور
الشهداء تتحرك في غزة ا .

١ - سيلٌ من الأشجار في صدري

أتيتُ .. أتيتُ

سيروا في شوارع ساعدي تصيلوا .

وغزةُ لا تصلي حين تشتعل الجراح على مآذنها ، وينتقل الصباح

الى موانئها ، ويكتمل الردى فيها .

أتيتُ .. أتيتُ

قلبي صالحٌ للشرب

سيروا في شوارع ساعدي تصيلوا .

وغزةُ لا تبسج البرققال لأنه دُمها المملتبُ . كنتُ أهرب من

أزقتها ، وأكتبُ باسمها موتي على جَمِيْزَةٍ ، فتصيرُ سَيِّدَةً وتحمل بي

فقراً حراً .

فسبحان التي أسرَّتْ بأوردي الى يدها ا .

أتيتُ .. أتيتُ

غزة لا تصلي .

لم أجد أحداً على جرحي سوى فيها الصغير ..

وساحلُ المتوسط . اخترق الأبد ..

٢ - لا توقفوني عن تزييفي !
ساعةُ الميلادِ قلّدتِ الزمانَ ، وحاولتني .
كنتُ صعباً - حاولتني
كنتُ شعباً - حاولتني مرةً أخرى ..
أرى صفّاً من الشهداءِ يندفعون نحوي ، ثمّ يختبئون في صدري ،
ويحترقون .

ما فتّكَ الزمانُ بهم ، فليس لجثتي حدٌّ . ولكنني أحسّ كأن
كلّ معاركِ العربِ انتهتْ في جثتي ، وأودّ لو تتمزقُ الأيامُ في لحمي
ويهجرتني الزمانُ ، فيهدأ الشهداءُ في صدري .. ويتفقون :

ما ضاقَ المكانُ بهم ، فليس لجثتي حدٌّ . ولكنّ الخلافةُ لا تزال
أهمّ من أعدائكم وترايبكم ورسولكم -
لا توقفوني عن تزييفي

ساعةُ الميلادِ قلّدتِ الزمانَ وحاولتني .
كنتُ صعباً - حاولتني مرةً أخرى
أرى صفّاً من الشهداءِ يندفعون نحوي
لا أحدٌ ! .

٣ - وتقاسمتني هذه الأمام القريبة والبعيدة .
كلُّ قاضٍ كان جزأراً
تدرّج في النبوءة والخطيئة
واختلفنا حين صار الكلل في جزء ،
وصار الجرح وردتنا جميعاً
فابتعدنا ..
إذهب إلى الموت الجميل -
ذهبتُ ..
وحدي كنتُ

قلتم : نحن ننتظر الجنازة بالأكاليل الكبيرة والطبول ،
ونلتقي في القدس ..
ليت القدس أبعد من توابعي لأنهم الشهود
وما عليك ! ذهبت للموت الجميل
ومدينة البترول محجز مقعداً في جنة الرحمن - قلتم لي .
وطوبى للممول والمؤذن .. والشهيد !

٤ - تعب الرثاء من الضحايا
والضحايا جمدت أحزانها
أواه ! من يرثي المرثي ؟
لست أدري أي قافية تحتطني ، فأصبح صورة في معرض الكتب
القريب

ولست أدري أي إحصائية ستضمني ..
يا أيها الشعراء .. لا تتكاثروا !
ليست جراحي دفترا .
يا أيها الزعماء .. لا تتكاثروا !
ليست عظامي منبراً .
فدعوا دمي - حبر التفاهم بين أشياء الطبيعة والاله
ودعوا دمي - لغة التخاطب بين أسوار المدينة والغزاة .
دمي يريد الأنبياء .

٥ - وأعود من تلقاء نفسي ..
ليت شبتاكي بعيد كي أرى أمي
وليت القيد أقرب كي أحس النبض في زندي
وليت البحر أبعد كي أخاف من الصحاري
آه ، ليت الشيء عكس الشيء كي تتأكل الأشياء في نفسي ، وتأخذ
صيغة الفرح الحقيقي

ابتعدنا واقتربنا
يا أهالي الكهف قوموا واصلبوني من جديد
لأنني آتٍ من الموت الذي يأتي غدا
آت من الشجر البعيد
وذاهب في حاضري - غدكم .
أنا قشرت موج البحر زنبقة لها معنى .
وغزة لا تصلبي ..

٦ - نيل من الأشجار يخرج من ضلوع الصخر - يصقلني الفناء
وجدول يمتد من صدري عمودياً - وتنحدر الساء
رأيت رأي القلب - ذوبني الضياء
فصرت صوتاً ، والحصى صار الصدى
وتنفس القبر القديم ..
تحرك الحجر .. استرد ديبته منكم
أنا الأحياء والمدن القديمة . حاولوا أن تخلعوا أسماءكم تجدوا يدي .
وحاولوا ان تزعوا اوابكم تجدوا دمي . أوحاولوا أن تحرقوا هذي الحرائط
تبصروا جسدي -

أنا الأحياء والوطن الذي كتبوه في تاريخكم ..
من جثتي بدأ الغزاة ، الأنبياء ، اللاجئون -
وفيه يهتمون سيرتهم لأبد من جديد .

٧ - تتحرك الأحجار .
هذا ساعدي متمايل كالرعب
ليس الرب من سكتك هذا القفر
هذا ساعدي .
تتحرك الأحجار .
ما سرقوا عصا موسى
وإن البحر أبعد من يدي عنكم

إذن ، تتحرك الأحجار
 إن طلوعوا وإن ركعوا ، وإن مروا وإن فرّوا -
 أنا الحجر .. أنا الحجر الذي مسته زلزلة .
 رأيت الأنبياء يؤجّرون صليهم
 واستأجرتني آية الكرسي دهرأ ، ثم صرت بطاقةً للتهنئات
 تغير الشهداء والدينا
 وهذا ساعدي .
 تتحرك الأحجار
 فالتقوا على أسطورة
 لن تفهموني دون معجزة ، لأن لغاتكم مفهومة . إنّ الوضوح
 جريمة . وغوض موتاكم هو الحق - الحقيقة .
 آه ، لا تتحرك الأحجار إلا حين لا يتحرك الأحياء
 فالتقوا على أسطورة :
 سيل من الأشجار ، غزة لا تصلني ، ساحل المتوسط اخترق الأبد .

٨ - لن تفهموني
 تخرج العذراء من ضلعي
 تكون مشيتي
 وأصاب بالأمطار والبرق الذي أدمنته
 لن تفهموني
 ناهضاً من قبركم
 والأرض للشهداء -
 أنهيت المغامرة الأخيرة وابتدأت :
 هنا الخروج . هنا الدخول
 هنا الذهاب . هنا الإياب
 ولا مكان هنا
 أنا الزمن الذي لن تفهموني خارج الزمن الذي ألقى بكم في الكهف -
 هذي ساعتي :

ينشقّ قبرٌ ثم أنهض صارخاً :
لا توقفوني عن نزيفي
لحظةً الميلاد تسكنني من الأزل ، استريحوا في جراحي -
ها هو الوطن الذي يتجدّد ، الوطن الذي يتمجدُّ ، اقتربوا من
الأشجار ، وابتدئوا معي !

٩ - في غزاةٍ اختلفَ الزمان مع المكان
وباعةُ الأسماك باعوا فرصة الأمل الوحيد ليغسلوا قدمي
أين المجدليه ؟
ذابت أصابعها مع الصابون
وانهمرت كتابات كتابات
وكان الجندُ ينتصرون ينتصرون
كانوا يقرأون صلاتها
ويفتشون أظافرَ القدمين والكفين عن فراحٍ فدائي ،
وكانوا يلحقون حياتها
بدموع هاجرٍ . كانت الصحراء جالسةً على جلدي . وأولُ دمعة
في الأرض كانت دمعةً عربيةً . هل تذكرون دموع هاجر - أول امرأة
بكت في هجرة لا تنتهي ؟
يا هاجر ، احتفلي بهجري الجديدة من ضلوع القبر حتى الكون أنهض
يسكنُ الشهداء أضلاعي الطليقة
ثم أمتشق القبورَ وساحل المتوسط
احتفلي بهجري الجديدة .

النفط العربي

في استراتيجية المجابهة العربية الاسرائيلية *

الدكتور يوسف عبدالله صايغ

مقدمة

صلة النفط بالقضية الفلسطينية صلة متعددة الجوانب . فهي من الناحية الزمنية صلة تاريخية اذ كان هناك بعد نفطي أو مصلحة نفطية، الى جانب الابعاد والمصالح الأخرى، خلف الجهد الامبريالي لارساء أسس الاستعمار الصهيوني في فلسطين وتوطيده في قلب العالم العربي ، منذ أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . وهي صلة معاصرة الى المدى الذي تعزز فيه الامبريالية الغربية اليوم علاقتها بالوجود الاسرائيلي وتعيّنه على التثبيت بمكتسباته وتوسيع رقعتها في الوطن العربي .

وهي ، من الناحية الوظيفية ، صلة عسكرية وسياسية واقتصادية في آن واحد ، الى المدى الذي تتشابه فيه مصلحة الامبريالية الغربية المعاصرة بالمصلحة الاسرائيلية في هذه الحقول الثلاثة ، من خلال الاستغلال الغربي لموارد النفط العربية وتحويل هذه الموارد الى مصدر قوة عسكرية وسياسية واقتصادية للبلدان الغربية التي تنتمي المصالح النفطية اليها ، ومن خلال تحويلها الى أداة رعب تشل الإرادة العربية وتشوه الرؤيا العربية للمصالح العربية الحقيقية .

وهي أيضا ، من ناحية نظام العلاقات بين البلدان والدول ، صلة معقدة تمتد عبر مستويات متعددة ، لأن للنفط دورا معقداً في إطار المجابهة العربية الاسرائيلية ، حيث يفعل النفط — او يمكنه ان يفعل — ضمن الأطار العربي على أصعدة التعاون العربي والانهاء والتحديث والتسلح وخلق مجتمعات عدل وتكافؤ فرص ، ويفعل او يمكنه ان يفعل ضمن الأطار الدولي الأوسع كجهاز ضغط على الغرب وكمادة رئيسية للمساومة ، ويفعل او يمكنه ان يفعل في خلق توازن مع القدرة الاسرائيلية المضادة القائمة في الأساس على دور اسرائيل أو صورتها في العالم الخارجي كمجتمع حديث متقدم ، وكتجربة اجتماعية تدعو للتمعن ، وكبلاذ ذي فاعلية عسكرية بارزة .

وهي أخيرا ، اذا نظرنا اليها من الزاوية الواسعة لمجابهة القوى الفلسطينية العربية

* اعتمد الكاتب في القسم الثاني من هذا البحث على دراسة بعنوان « سبل استخدام النفط العربي لصالح القضية الفلسطينية » أهداها في نيسان (ابريل) ١٩٧٢ للمجلس الاقتصادي العربي بتكليف من لجنة وزارية فرعية في المجلس . وقد شكلت هذه اللجنة لجنة خبراء لتقييم المصالح الاقتصادية العربية/الاجنبية وسبل استخدامها لصالح القضية الفلسطينية . اما الصيغة الحالية فقد أعدت بناء على طلب مجلس السلم العالمي والمجلس الوطني للسلم والتضامن في الجمهورية العراقية وقدمت للندوة العلمية المتعددة في العراق من ١١ الى ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٢ حول « النفط كسلاح في الكفاح ضد الامبريالية والعدوان الاسرائيلي ووسيلة لتطوير اقتصاد وطني مستقل » .

للقوى الإسرائيلية الامبريالية ، صلة جدلية في أكثر من جانب من جوانبها . فبقدر ما يزداد شأن النفط في الوطن العربي يزداد فعمل النفط كمصلحة عربية راسخة (Vested Interest) ويرتفع جدار التحفظات الرسمية العربية تجاه الضغوط الفلسطينية والشعبية العربية للقيام بعمل عربي شامل وحاسم تجاه إسرائيل والامبريالية . وبقدر ما يزداد التثبيت العربي بالمكاسب النفطية يرتفع جدار الشك الفلسطيني بالارادة والتصميم العربيين على القيام بالعمل الشامل والحاسم . وكذلك ضمن الاطار الدولي ، فان العلاقة الجدلية تبرز من خلال تزايد التردد العربي في استخدام النفط كوسيلة ضغط ومجابهة مع الامبريالية الغربية كلما ارتفعتفاعلية النفط كوسيلة مجابهة، ومن الناحية الامبريالية يزداد الدعم لاسرائيل ويرتفع مستوى الاعتراف عليها كلما تصاعد شأن النفط العربي في الحياة الاقتصادية والعسكرية للغرب وتعاظمت طاقته كجهاز ضغط في المجابهة ، كما يزداد اطمئنان اسرائيل الى استمرار التردد العربي كلما ازداد تثبت العرب بمكاسبهم النفطية .

هذا التعريف المغرق في الاقتضاب يبدو وكأنه يؤكد ان صلة النفط بالقضية الفلسطينية حبل بالتناقضات ، وكأنها هذه الصلة لا تلد في النهاية الا عكس ما يتوقع منها ، فبدلاً من ان يصبح النفط قوة في يد العرب نرام وقد أصبح او كاد قوة في يد اسرائيل والمعتكز العربي . هذا صحيح في ضوء المعطيات الموضوعية للواقع العربي اليوم . لكن اليوم ليس هو الغد ، ولو كانت رؤيانا للغد العربي انه امتداد للحاضر العربي لدعوننا لانتحار جسامي للانسان العربي ولجتمعه . والحلقة المفرغة التي تدور التناقضات ضمنها اليوم يمكن ان تكسر ، ومتى كسرت أصبح النفط قوة عربية في اليد العربية وتحولت مسيرة العلاقة الجدلية بين النفط والقضية الفلسطينية صوب الصالح العربي . هذه رؤيانا للغد الممكن التحقيق : اما مفتاح السر في تحقيقه وفي كسر الحلقة المفرغة فهو وضوح الادراك العربي لابعاد الخطر الصهيوني الاسرائيلي الامبريالي ، وتبلور ارادة النضال في المجتمع العربي ، والانعتاق من النظرة الضيقة للمصالح العربية الجزئية المتوقعة ضمن افق زمني قصير التي رحاب النظرة الواسعة للوجود والمصير العربي المشترك الممتدة الى الافق الزمني البعيد . من هنا نبدأ والا انتهينا حيث نحن وجوداً ومضماً . وخسرنا الموارد اياها التي نظن اننا نحرص عليها من خلال الارتهان للخوف في مجابهتنا للقوى الاسرائيلية الامبريالية .

اذن هذا هو الاطار الصحيح لفهم دور النفط في القضية الفلسطينية وبالتالي في المجابهة العربية الاسرائيلية . وتحديدنا فاننا سنعالج الموضوع من خلال أسئلة رئيسية اربعة سنطرحها ونحاول الاجابة عليها في هذا البحث ، مركزين على امكانية استخدام النفط كجهاز ضغط عربي لصالح القضية الفلسطينية ، وشروط نجاح هذا الاستخدام . لكن لا بد قبل ان نفعل ذلك من تحديد بعض المنطلقات .

١ - المنطلق الاول يتعلق بنظرتنا الى النفط كمورد وكأداة . فلسوف يتضح اننا لانعالج النفط كمجرد سلعة اقتصادية ، ولا نحن نحاول في محصلة التحليل مجرد اكتشاف كيفية تنظيم مردود انتاج وتصدير هذا المورد على أهمية هذا التنظيم ، لان اغراض البحث كما حددناها ليست اقتصادية بل سياسية استراتيجية تتعلق بالمصير العربي وبقضية فلسطين داخل هذا الكل . وكذلك فنحن نرفض الموقف العربي الذي يرغب في ان تبقى النفط في منأى عن الاستخدام السياسي او الاستراتيجي وان نحصر استخدامه ضمن اطار التعامل التجاري البحت .

٢ - المنطلق الثاني ان النفط ، على عظيم شأنه ، ليس المورد الوحيد او الوسيلة الوحيدة الصالحة للضغط على العالم الخارجي لصالح القضية الفلسطينية . فهناك

وسائل أخرى منها الأرضة العربية الضخمة في الخارج (وهي متصلة اتصالاً وثيقاً بمورد النفط ومصدراته) ، والتجارة الخارجية من البلدان العربية واليهما ، وسائر الخدمات الاقتصادية كالنقل البحري والتأمين وسواها . على أننا في البحث الحاضر سنركز النظر على النفط الذي هو الموضوع المراد درسه .

٣ - المنطلق الثالث ان العالم الخارجي المستهدف من استخدام النفط كأداة ضغط يشمل جميع البلدان ، من عدوة وصديقة ، ولا عدوة ولا صديقة - أي في مختلف مواقع العداء والصداقة الممكنة ، والتي قد يكون لها قول أو أثر في مجرى الأحداث . لكن البلدان المستهدفة بالضغط بشكل مباشر ستكون - كما سيأتي من سياق البحث - البلدان الغربية وخاصة تلك التي ساعدت منذ الأساس في نشوء الحركة الصهيونية الحديثة وفي قيام دولة إسرائيل والتي تساندها الآن وتمنحها منعة وقوة واستمراراً - نعني بذلك الولايات المتحدة ثم بريطانيا .

٤ - المنطلق الرابع ان الإطار أو المدى الزمني الذي يقع التحليل ضمنه يختلف باختلاف أجزاء التحليل ، فهو مدى قصير لبعض أوجه استعمال النفط ، وهو مدى متوسط أو طويل للبعض الآخر . وسيعدد في كل جزء من البحث نوع المدى الزمني الملائم له .

٥ - المنطلق الخامس ان سبيل استخدام النفط لصالح القضية الفلسطينية تتنوع فبعضها سلبي والبعض الآخر إيجابي ، وبعضها سلبي مرحلياً فقط لكنه قادر على خلق حالة إيجابية بفضل رد الفعل المتوقع له . على أننا نشدد ان مسألة التصنيف الى سلبي وإيجابي مسألة عابرة وينبغي ألا تقع أسرى التسميات ، إذ ان المسألة المركزية هي الغرض النهائي للاستخدام .

٦ - المنطلق السادس ان استخدام النفط كما يرد في هذا البحث قضية معقدة وتنطوي على محاذير ومخاطر بالنسبة للعرب . وليس هنالك من إجراء أو موقف أو عمل لصالح القضية الفلسطينية لا ينطوي على محاذير ومخاطر . إذن فالأساس في الاستخدام ان يكون موقف العرب هو القبول بمخاطر وأكلاف محسوبة اذا كانت محصلة الفعل ورد الفعل والتفاعل بالتالي في صالح قضيتهم - واختيار ذلك الموقف أو القرار بين مختلف البدائل الذي تكون محصلته هي الأفضل من وجهة نظر القضية .

٧ - المنطلق السابع ان التخطيط العربي ينبغي ان يتمتع بالمقدار الأكبر من المرونة بحيث يشمل مواقف وإجراءات على درجات متفاوتة من الشدة وأن يستهدف القدرة على المناورة في مرحلة أولى هي مرحلة التلويح والإنذار والتهديد ، كما يستهدف القدرة على الحاق الأذى بالقوى الخارجية المعادية أو المراد التأثير فيها ، حين تفشل المرحلة الأولى ويتطلب الوضع الانتقال الى المرحلة الثانية التي هي مرحلة « عض الأصابع » أو تجربة كل فريق لقوة الاحتمال لدى الفريق الآخر ، وفي أقصى حالاتها مرحلة العقاب . وبالطبع فان هذا المنطلق يفترض التنسيق العربي على الاقل من أجل التخطيط لكيفية استخدام النفط . كما يفترض التخطيط وضع خطط مختلفة للاحتتمالات ليصار الى استعمال الخطة الملائمة في الموقف الملائم ، ابتداء من مرتبة التلويح والتهديد وصعوداً الى مرحلة الحرج والحسم تصعيداً (Escalation) مع التهيئة لامكان التهييب (De-escalation) كذلك ، وصيغ ذلك التهييب ومرتباته .

٨ - المنطلق الثامن والآخر ان محاولة الإجابة على الأسئلة المركزية الأربعة التي سنتناولها بالبحث والتحليل تنطلق من الوضع العربي الراهن ولكنها ترفض اعتباره محطة نهائية . فلو لم تمتد رؤيانا الى وضع عربي أفضل لاكتفينا بالقول ان البلدان العربية اليوم في حالة تشبه الشلل ولا قدرة لها على التحرك الديناميكي الفعال . وأذن فإننا ، منطلقين مما هو كائن ، نتجه صوب ما هو ممكن اذا عبثت الإرادة العربية .

ومفتاح السر في هذه التعمئة — فيما نعتقد — هو تحقيق مقدار من صفاء الإدراك لحيقة
الخطر الصهيوني الإسرائيلي الأمبريالي ولابعاده ، ودلالاته للبعير والوجود العربي
ولمستقبل أجيالنا . ومتى اتضحت الرؤيا العربية ارتفعت درجة التحسس بالخطر
وزداد القبول بالواقف والإجراءات التي كلفتها التي كانت مرفوضة قبل صفاء الرؤية
والإدراك للخطر .

من هنا ندخل صلب الموضوع من خلال التوجه صوب الاسئلة الرئيسية الاربعة التي
هي مدار البحث ، وهي تعالج ما يلي : **أولا** — النفط والقوة الذاتية العربية ، **ثانيا** —
النفط كجهاز ضغط على القوى الخارجية ، **ثالثا** — الضغط الإسرائيلي المعاكس ،
رابعا — الغرب والضغط العربي .

أولا : النفط والقوة الذاتية العربية

منذ اللحظة الاولى يتوجب علينا أن نبين أن مصادر القوة الذاتية العربية متنوعة وليس
النفط على كبر شأنه إلا أحد مظاهرها المادية الملموسة . لكننا لسنا الآن في صدد تحليل
هذه المصادر ، وبالتالي فالتالي فالتالي سنركز النظر على النفط . وينبغي بالتالي إبراز شأن
النفط العربي من خلال تقديم خلاصة للوضع النفطي العربي ، وهي خلاصة تستند الى
جداول الملحق الإحصائي :

خلاصة لأبرز الحقائق حول النفط (سنة ١٩٧٠)

١ — نسبة احتياطي النفط الخام الثابت والمعلن الى احتياطي العالم بأسره :

٤٩٧٪	في البلاد العربية
٥٨٪	في أفريقيا غير العربية
٧٥٪	في الولايات المتحدة
	في نصف الكرة الغربي (الولايات المتحدة وكندا
١٣٤٪	والكاريبي وأميركا اللاتينية)
١٦٦٪	في البلدان الاشتراكية

٢ — نسبة انتاج النفط الخام الى انتاج العالم بأسره :

٣٢٦٪	في البلاد العربية
٢٠٣٪	في الولايات المتحدة
٣٧٥٪	في نصف الكرة الغربي
١٦٦٪	في البلدان الاشتراكية

٣ — نسبة الاحتياطي الى الانتاج السنوي :

١:٥٩٢	في البلاد العربية
١:١٢٨	في الولايات المتحدة
١:١٠٦	في الكاريبي
١:١٢٦	في نصف الكرة الغربي
١:٣٥١	في البلدان الاشتراكية

٤ — نسبة صادرات النفط الخام ومشتقاته لجملة صادرات العالم :

٦٣٣٪	من البلاد العربية : النفط
٥٤٨٪	النفط ومشتقاته
١٠٠٪	من نصف الكرة الغربي : النفط

٪١٧٧
٪ ٢٥
٪ ٣٧

النفط ومشتقاته
من البلاد الاشتراكية : النفط
النفط ومشتقاته

٥ - نسبة انتاج النفط الخام الى استهلاكه :

٪١٠٥. في البلاد العربية
٪٦٨٦ في الولايات المتحدة
٪ ٣٦ في أوروبا الغربية
دون ٠.٥ في اليابان
٪١١٢٧ في البلاد الاشتراكية

٦ - عائدات تصدير النفط الخام من البلاد العربية (عدا مصر وسوريه)
سنة ١٩٧١ ٦٩٨ مليون دولار

٧ - تقدير عائدات تصدير النفط لعام ١٩٧٥ ١٥١١٨ مليون دولار

تتضح من هذه الخلاصة ومن الملحق الاحصائي ذاته ، الاهمية العالمية للنفط العربي ودرجة الاعتماد العالية على هذا النفط - وهي اهمية تتبدى من خلال عدة مؤشرات أبرزها ارتفاع نصيب البلدان العربية من المخزون او الاحتياطي النفطي الثابت وتساعد تقديرات هذا الاحتياطي عبر السنين ، وارتفاع الانتاج السنوي وتزايدته عاما بعد عام بثبات وبأكثر من تزايد الانتاج العالمي ، مما رفع نسبة الانتاج العربي لجملة الانتاج العالمي خلال الستينات ، وارتفاع نسبة ما يدخل التجارة العالمية من النفط العربي ان منسوبا الى جملة الانتاج العربي او الى جملة التجارة العالمية ، واخيرا استمرار اعتماد العالم الغربي على النفط العربي وتزايد هذا الاعتماد تزايدا شاهقا .

وكذلك وبقليل من التمعن تتضح حقيقة في غاية الخطورة هي ان انتاج النفط وتصديره أكثر نواحي العلاقات الاقتصادية اهمية بين العرب والعالم الخارجي - وان هذه الاهمية ذات طبيعة اقتصادية في الواقع والظاهر لكنها ذات اهمية سياسية وعسكرية قصوى كذلك ، وان يكن العرب لم يفيدوا بعد من طاقة النفط كعامل سياسي عسكري . وهنا ينبغي ان نبين اننا نقصد بالعالم الخارجي العالم الغربي لاغراض هذه الدراسة - كما سيتضح من سياق البحث - ونحن نضع اليابان في اطار العالم الغربي لان هذا البلد يملك شيئا من رأس مال الشركات المنتجة للنفط ، شأنه في ذلك شأن فرنسا او بريطانيا أو سواهما من بلدان الغرب ، ولكون اليابان تصنف مع البلدان الغربية في « منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية OECD » وهي ليست بدون دور سياسي في مجموعة البلدان الغربية .

اما اهمية الناحية النفطية في العلاقات الاقتصادية العربية - الغربية فليست بسبب حجم المبيعات النفطية وقيمتها فحسب ، وانما كذلك بسبب الدور البالغ الخطورة الذي يلعبه النفط في حياة المستوردين اليومية وفي صناعتهم ووسائل نقلهم وفي قدراتهم العسكرية على السواء - مما يجعله سلعة استراتيجية حيوية من الطراز الأول ، وايضا بسبب الدور الذي يلعبه في الحياة الاقتصادية للبلدان العربية المصدرة للنفط ، ولبلدان المرور بما يجنيه من عملات اجنبية ودخل وبما توفره عائدات استخراج النفط ومروره من موارد للاستخدام في الاستهلاك الخاص والعام (ويتضمن الاستهلاك العام حاجات الدفاع) وفي التثمين الانمائي ايضا الخاص والعام ، وفي دعم الصمود العربي ، وبما يتيح النفط من قوة سياسية لو استخدم لهذا الغرض . واخيرا بما يسمح به فائض العائدات النفطية من تشيرات خارج البلدان المصدرة للنفط ومن تدعيم للاحتياطي المالي في الخارج .

السؤال الاول الذي نطرحه بعد تقديم هذه الخلاصة هو :

كيف يفعل النفط العربي في دعم القوة الذاتية العربية ورمع مستواها نوعية وفاعلية ؟
وتتطلب الاجابة على هذا السؤال النظر الى دور النفط من اربع زوايا متداخلة
بطبيعتها .

١ - النفط كوسيلة انماء وتحديث وتحرر

زاوية النظر الاولى وهي تمتد الى الافق الزمني البعيد ، هي قدرة النفط على توفير
الوسائل المادية اللازمة للانماء والتحديث في العالم العربي . وغني عن القول ان
المجتمعات والاقتصادات العربية بحاجة الى تحقيق مستويات اكثر ارتفاعا ، من التنمية
بمعناها الواسع - فالتنمية ليست مجرد تحقيق زيادة ملموسة في الناتج القومي الفردي
على اهمية هذا الامر . ان تصدير النفط من البلدان الغنية بالنفط قادر في ذاته على
تحقيق متوسط حسابي مرتفع للدخل الفردي . انما المقصود بالتنمية رفع فاعلية
الاقتصاد الوطني وكفاءته ، وتحديث هذا الاقتصاد بنقل مؤسساته وتنظيمه وسبل
انتاجه والتكنولوجيا المعتمدة فيه - وفي الاساس بنقل انماط التفكير فيه - الى القرن
العشرين لتكون عصرية وعقلانية وفعالة .

واخيرا فان محصلة التنمية التي نقصدها تكون رفع مستوى الانتاج ثم - متى توغرت
للمجتمع المفاهيم الصحيحة في نطاق عدالة التوزيع وتكافؤ الفرص - تحرير المجتمع من
العوز والغيبية والخضوع للبيئة . واذن فان التنمية بهذا المعنى عملية تحررية وثورية
شاملة ذات ابعاد تتخطى بكثير المفهوم الاقتصادي الضيق للمصطلح . وكذلك فان
التنمية - كعملية ثورية - بفعل علاقة جدلية بين القوى التي تطلقها وتنتقل بها ، تخلق
بمجرد انطلاقتها ما لا نجد افضل من تسميته « ثورات مضادة » او تيارات معاكسة او
سلبية في حقول الديموغرافيا والادخار والتمير والتعليم والتطلعات الاستهلاكية وجمالية
البيئة وخلافها من حقول . ومن الواضح ان المجتمع النير مدعو للاحتياط لهذه الثورات
المضادة .

اين يرد دور النفط في كل هذا ؟ واين يقع كل هذا الجزء من البحث من موضوعنا العام ؟
الجواب بديهي دون ريب . فالنفط من ابرز وسائل تحقيق عملية الانماء ، وعملية الانماء
من اقوى ركائز المجابهة العربية الاسرائيلية في المدى الطويل .

غير ان ابراز شأن التنمية في تمكين العرب من المجابهة يبرز في اللحظة نفسها تناقضا لا
بد من التصدي له ، هو ان المجتمع الذي يبني قدراته الانتاجية يعز عليه ان يدخل في
صراع مسلح يهدد بتدمير ما بناه . هذا التناقض لا يزول بمجرد ان نتجاهله ، ولا هو يحل
بمجرد ان نختار سبيل الاستسلام ، لان ما يظن انه مكتسبات يحميها الاستسلام من
الدمار لا يلبث ان يتحول الى عمق استعماري لاسرائيل تستغله في ظل حالة الاستسلام
فيصبح الاقتصاد الذي اريدت حمايته غنيمة لاسرائيل وحقلا لاستغلالها . واذن فان
تنمية الاقتصاد والمجتمع برغم تهديد الدمار ينبغي ان تكون عملية مجازفة محسوبة ذات
شقين : احدهما تنمية الاقتصاد والآخر تنمية القدرة انضالية العسكرية بشكليها
الشعبي والنظامي لحماية المكتسبات الانمائية من خلال حماية الوطن .

يتصل بعملية التنمية ودور النفط في تحقيقها ، وبدور تحسين قدرة المجتمع على تحويل
طاقاته الاقتصادية الى واقع في المجابهة مع اسرائيل - يتصل بهذين الدورين اتصالا
وثيقا اعتماد العلم والتكنولوجيا اساسا لسيطرة الانسان العربي على بيئته الطبيعية
ومفتاحا لحل مشاكله على تعددها . وهنا ينبغي التركيز على وجوب النظر الى العلم
لا كاداة للسيطرة على البيئة وحل المشاكل وحسب ، بل ايضا وبالاولى كمنهجية تفكير
واسلوب تطلع الى القضايا ومنحى في تحقيق انسانية الانسان . والنفط العربي ، كما

يبدو بوضوح ، وسيلة جبارة لتمكين العرب من الاخذ بالعلم الحديث وتطبيقاته التكنولوجية ، وبتنفيذ البحث والتجربة في المعاهد العلمية والمؤسسات الاختصاصية .

٢ - النفط كوسيلة لتحقيق المجتمع العادل

ظلما يفتن المختصون باقتصاد التنمية ، التقلديسو النزعة ، الى الناحية الاجتماعية في التنمية . فهم يركزون على تعظيم الناتج القومي كأنما ذلك غاية في ذاته ، جاهلين ان المجتمع الطامح الى تحقيق مستوى رفيع من التنمية ، ومن القوة ، لا بد له من ان يشعر اغراءه بأنهم شركاء لا اجراء ، ومن ان تنال القوى العاملة فيه ثمار جهدها الانمائي ، ومن ان تترجم التنمية فيه لا الى فرص عمل ودخول متزايدة وحسب ، بل ومنكافئة كذلك . فلا قدرة لمجتمع يستغل أبناءه مهما عظم الناتج القومي فيه على مجابهة عدو عنيد يجمع الى جانب قدراته العسكرية مقدارا واسعا من المشاركة السياسية والاقتصادية بين مواطنيه .

وانه وان لم يكن للنفط دور مباشر في خلق مجتمع العدالة الذي نشدد على وجوب وجوده ، بل لعله حتى الان ادى دورا معاكسا ، الا ان من الواجب التوضيح أولا ومن الناحية السلبيه ان من الضروري الا يظل النفط اداة اثناء فاحش للقلقة وتحسن اقتصادي طفيف للكثرة ، وثانيا ومن الناحية الايجابية ان من الضروري ان يستخدم النفط في تحقيق نمط من التوزيع أكثر عدالة للفرص والدخل والثروة ، الى جانب استخدامه في تعظيم حجم الناتج القومي للبلاد العربية .

٣ - النفط كوسيلة للتعاون الاقتصادي العربي

حتى الان أشرنا الى دور النفط في الانماء العربي وكأنما الوطن العربي قطر واحد او بلد واحد ذو سيادة واحدة . لكن الواقع ان الوطن العربي ممزق مشتمت في سيادات وارادات متباينة ولم تعد لديه حتى رغبة التظاهر بنشدان الوحدة . ومع وضوح ضرورة الوحدة او على الاقل التعاون الصادق المنسق من ضمن تعدد السيادات في المجابهة مع اسرائيل ، تبرز اهمية العوامل التي تخلق جسور التعاون . من هذه العوامل النفط كمورد للتثمين على الصعيد العربي المشترك ، وكحافز على التعامل التجاري المتسع ، وكوسيلة لتحسين نمط توزيع الثروة بين البلدان العربية ، وكطاقة لدعم الصمود ، وكأداة لتطوير بعض الصناعات الضخمة التي لا قبل لبلدان مفردة على تطويرها واستغلال انتاجها ضمن سوق منسعة ، وكجهاز لاعادة توزيع القوى والمهارات البشرية العربية في نمط أكثر عقلانية واقل قطرية .

٤ - النفط كوسيلة تسليح

اخيرا ، فان الموارد المالية لقطاع النفط العربي بمقدورها ان تمكن الدول العربية - خاصة دول « المواجهة » - من شراء الاسلحة الحديثة المتطورة والمرتفعة الاثمان لرفع الفاعلية العسكرية لهذه الدول . ومن الواضح ان السلاح المتطور الشديد الفاعلية يتطلب مستلزمات مالية باهظة قد لا يكون بمقدور بعض البلدان العربية القيام باعبائها منفردة .

ضمن هذا الاطار ، ومن خلال افتراض وجود الارادة العربية لرفع القدرة الذاتية العربية على الاساس القطري والقومي معا ، فان النفط قادر على الاسهام بشكل بارز في تحسين وضع العالم العربي بالنسبة الى المجابهة مع اسرائيل ضمن مدى زمني يتراوح بين القصير والبعيد .

ثانيا : النفط كجهاز ضغط على قوى الخارجية

بعد ان طرحنا السؤال الاول الذي تناول القدرة الذاتية العربية ، نطرح الان السؤال

الثاني وهو يتناول قدرة العرب في الضغط على العالم الخارجي ، وبالتحديد ، كيف يستطيع العرب أن يحولوا مورد النفط الى جهاز ضغط على القوى الخارجية ، لتحقيق تحول واضح في اوساط هذه القوى لصالح القضية الفلسطينية ؟ والاجابة على هذا السؤال تدور ضمن مدى زمني قصير الى متوسط - اي ان بالامكان استخدام النفط كجهاز ضغط خلال مدة زمنية اقصاها نحو خمس سنوات ، لاسباب سيوضحها البحث فيما بعد .

لقد طرحت جهات رسمية وخاصة في مناسبات ماضية مختلفة فكرة استخدام النفط كجهاز ضغط على العالم الخارجي . ولعل أبرز هذه المحاولات كانت محاولة الحكومة العراقية في مؤتمر وزراء المال والنفط العرب في بغداد في 15 آب (اغسطس) 1967 والتي لم يكتب لها النجاح . وسنعمد فيما يلي ، وبشيء من التفصيل ، الى استعراض السياسات البديلة المطروحة او الممكن طرحها لهذا الغرض وذلك بتحديد طبيعة كل منها ، ومن ثم تحليل مزايا السياسة ومساوئها ، آخذين بالاعتبار ما يترتب على كل سياسة مطروحة من نتائج ونتائج عكسية في البلدان العربية وفي الخارج على السواء ، ذلك ان مجموعة من القيود والحدود والروادع الاقتصادية والسياسية (وربما العسكرية) ترافق كل خيار مفتوح امام العرب ، وان الخيارات المفتوحة بدورها ذات جوانب وآثار اقتصادية وسياسية وعسكرية ، وان هذه الجوانب سواء اكانت في حساب القيود والحدود والروادع او في حساب الخيارات ليست كلها ايجابية او سلبية وانما هي تختلف وتتداخل ، كما يتبدل حجمها واثرها بالنسبة للالق الزمني المختار . لهذا يترتب علينا - توخيا للانضباط الفكري والمنهجية العلمية ان نوازن بين مختلف الآثار لكل من السياسات لنخرج بالتالي بمحصلة الحساب الصافي ، سلبا او ايجابا ، بشكل يمكن معه مقارنة محصلات جميع السياسات المطروحة وتسهل معه عملية الانتقاء بين هذه السياسات .

ولا بد من ان نبين ان المدى الزمني الاقصى الذي يدور التحليل خلاله بالنسبة لهذا القسم من البحث هو المدى المتوسط (اقصاه خمس سنوات) وذلك لثلاثة اسباب : **أولا** ، ان هذه المدة تمثل المهلة القصوى التي ينبغي التحرك ضمنها اذا اريد للقضية الفلسطينية الا تتحجر وللمكاسب الصهيونية الا تترسخ . **ثانيا** ، ان هذه المدة طويلة ويصعب التنبؤ بمدة اطول او التخطيط لمدة اطول . **ثالثا** ، ان معطيات الطاقة ستبتدل تبدا جذريا بعد هذه المدة من حيث اكتشاف مناطق نفطية جديدة او استثمار مناطق جديدة او قائمة الى مدى اوسع ، ومن حيث حدوث بعض التبدل في تكنولوجيا الطاقة وتبدل المركز النسبي لمصادر الطاقة البديلة للنفط .

ولكي ننتقد تقيدا تاما بالموضوعية فاننا سنترك للنحليل ان يدلل بنفسه على الاكثر فاعلية والاقل فاعلية من السياسات البديلة دون ان يعني تحليل المواقف حول أي من السياسات تنفيا لهذا التحليل بالضرورة . اما اختيار السياسة المفضلة فهو في التحليل النهائي من حق الذين يملكون القدرة على اتخاذ القرارات السياسية بعد ان يستعرضوا ما يضعه البحث بين ايديهم من وسائل تعين على اتخاذ القرار وتلقي ضوءا على مختلف جوانب المسألة المطروحة .

اخيرا ، لا بد قبل تقديم مختلف السياسات وتقييمها من ان نبين انه ليست لها جميعا الاهداف نفسها ، ولا هي تنطلق من المبررات نفسها ، وليست على المستوى نفسه من حيث افقتها الزمني . فبعضها - مثلا - يهدف الى وضع الضغوط على جميع البلدان الغربية منطلقا من مبدأ مسؤوليتها جميعا في شد ازر اسرائيل بشكل او باخر ، في حين يهدف البعض الاخر من السياسات من خلال تطبيق انتقائي الى الضغط على بلدان غربية محددة دون بلدان اخرى . وكذلك فان بعض السياسات يعتمد التدرج والمرحلية

في حين يعتمد البعض الآخر مبدأ « الضربة الواحدة » . ثم ان بعض السياسات يركز في طبيعته وفي المقام الأول على تحقيق آثار اقتصادية ، فيما يركز البعض الآخر على تحقيق آثار استراتيجية تتعلق بأمن البلدان الغربية ذاته — هذا مع الإدراك لتداخل هذين النوعين من الآثار في النهاية . وأخيرا فان بعض السياسات يرتب مواقف وأجراءات متكافئة ومتشابهة على جميع البلدان العربية النفطية ، في حين ان البعض الآخر يرتب مواقف وأجراءات متباينة لأسباب سيبرزها التحليل . والخيار بين هاتين الفئتين يحدده الواقع العربي واحتمال تطبيق كل من الفئتين . وأخيرا لا بد من التأكيد بأن طبيعة الوضع العربي — الإسرائيلي في أي نقطة زمنية تعين موقع كل من السياسات في سلم الأفضلية ، وأذن فان تبدل الوضع يبذل هذا الموقع حتفا .

يمكن وضع السياسات المختلفة التي جرى طرحها في الماضي أو يحتمل طرحها حاليا ضمن مجموعات خمس هي : **أولا** ، السياسات التي تدور حول امتلاك العرب لرأس مال شركات النفط ، جزئيا أو كليا — أي سياسات التأميم . **ثانيا** ، السياسات التي تدور حول حجب النفط جزئيا أو كليا عن البلدان الموجهة السياسات صوبها . **ثالثا** ، السياسات الأكثر مداورة والتي تتعلق بممارسة سيطرة غير مباشرة على مشنزي النفط العربي . **رابعا** ، سياسات أخرى لا يمكن تصنيفها تحت المجموعات الثلاث السابقة . **خامسا** ، السياسات المشتركة بين التأميم والحجب .

١ — سياسات التأميم

لا بد من التأكيد أن التأميم في ذاته هو نهاية مطاف ، إذ أنه متى مورس لم يعد من مجال للمناورة لأنه عملية يكاد يستحيل أن تعكس . والمقصود إذن بسياسات التأميم هو الابتداء بمرحلة التلويح والإنذار والتهديد سعيا نحو التأثير في موقف البلدان التي تنتسب شركات النفط إليها لصالح القضية الفلسطينية . فاذا فشلت مرحلة التهديد وتم اللجوء للتأميم انتهت مرحلة المناورة ومحاولة الضغط والردع ودخلنا مرحلة الحسم أي مرحلة العقاب والحق الأذى ، ذلك ان قيمة الرادع هي في مصداقيته (credibility) بحيث لا يضطر الفريق الذي يهدد به الى تطبيقه ، أما إذا لم يستجب الفريق المستهدف وصار من الضروري تنفيذ التهديد انتهت قدرة الرادع كرادع وتحولت الى عقاب ، ولذلك يتوجب أن تتوفر مسبقا النية والقدرة على التنفيذ احتياطا لفشل الرادع .

من هنا ان محبذي سياسات التأميم — الجزئي أو الكلي — كثيرا ما يقفزون عن موضوع قدرة التهديد بالرادع فورا الى تنفيذ التهديد وبذلك يخسرون فاعليته كرادع ومؤثر في موقف الفريق الآخر . ولعل سبب الالتباس هو أن الذين ينادون بالتأميم لا يميزون دوما بين فاعلية **التهديد** بالتأميم لصالح القضية الفلسطينية وبين ضرورة التأميم ذاته كعملية لتثبيت الحق القومي في التصرف بالموارد الوطنية .

على ان القول بفاعلية التهديد ينبغي ان يدعمه اثبات خطورة دور النفط العربي في العالم الغربي ، وهو أمر لعل من الواجب ان نتصدى له الآن من خلال تقديم الحجج والحجج المضادة للسياسات التأميمية ، مبتدئين بسياسة التهديد بالتأميم الكلي لجميع الشركات المنتجة في جميع أقطار النفط العربية .

١ — يتضح منذ اللحظة الأولى ان السياسة القائلة بالتهديد بالتأميم الكلي تجسد مبدأ تحميل جميع البلدان الغربية دون استثناء أو تمييز المسؤولية المشتركة لجهة التواطؤ مع إسرائيل ومساندتها ومعاداة العالم العربي . ومن الجهة الأخرى تقوم هذه السياسة على مرتكز العمل العربي الموحد . وفي حالتها القصوى — أي تنفيذ التهديد — تمثل السياسة المثال الأوفى والأوسع لبدا « الضربة الواحدة » أو العمل الواحد الجراحي

الشمائل غير المرن الذي لا عودة عنه ولا يمكن ممارسة التهيب بعهده .

ان هذه السياسة ذات طاقة تهويلية كبيرة من الزاوية العربية — اذا اقترن التهديد بالمصداقية — بالنظر للشأن الكبير الذي يتمتع به النفط العربي في أسواق البلدان الاجنبية — والغربية منها على وجه أدق — كما سبق وبيننا . وهكذا فان التهديد بالاستيلاء على موجودات الشركات (التي بلغت قيمتها القائمة بنهاية ١٩٧٠ نحو ١١٤٥٠ مليون دولار وقيمتها الصافية بعد الإهلاك نحو ٦٤٥٠٠ مليون دولار) من شأنه ان يضع في يد البلدان العربية المنتجة للنفط قدرة ضاغطة تجاه أوروبا الغربية والولايات المتحدة واليابان كما انه يهدد بأن يحول الى الخزانات العربية موارد ضخمة تمثل الفرق السنوي بين الأرباح الصافية — كائنة ما كانت — التي تجنيها الشركات واقساط التعويض التي تتمهد البلدان العربية بدفعها (ونحن نفترض اقرار مبدأ التعويض الى جانب التأميم) .

على ان ما يعطي هذه السياسة المزيد من الفاعلية هو توقع ارتفاع شأن النفط العربي في المستقبل بالنسبة للعرض والطلب العالميين ، كما يتبين من الجدول ٦ — ٨ في الملحق الاحصائي ، وبصورة أخص ارتفاع شأن النفط العربي في سداد حاجات العالم الغربي في السنوات المقبلة . وليس أدل على ذلك من ضالة نسبة الاحتياطي النفطي في اليابان وأوروبا الغربية والولايات المتحدة الى الإنتاج في هذه المناطق . ومع ان درجة الاعتماد العالي جدا في اليابان وأوروبا الغربية من المعلومات الشائعة والمعروفة جيدا ، الا ان الكثيرين يجهلون ان الولايات المتحدة ستصبح مستوردا رئيسيا للنفط العربي خلال سنوات قلائل — حتى مع الاستثمار الواسع لمصادر النفط في الاسكا — اذ يتوقع ان يرتفع استيرادها من ١٧٠ مليون طن لعام ١٩٧١ (تشمل النفط الخام ومشتقاته) الى نحو ٦٠٠ مليون طن لعام ١٩٨٠ ، يتوقع ان يأتي بين ثلثها وثلاثة ارباعها من المنطقة العربية* . ذلك ان كون الولايات المتحدة اكبر منتج للنفط الخام في العالم حاليا ، وكون مصادر الطاقة الأخرى خلاف النفط تمثل ٥٥٤٤ بالمائة من جملة أنواع الطاقة المستهلكة في ذلك البلد (كما يتبين من الجدول ٩ في الملحق) ، ينبغي الا يخفى الواقع الآخر وهو ان الولايات المتحدة بالرغم من انتاجها الكبير للنفط الخام ومن تعدد مصادر الطاقة فيها ، هي مستورد صاف للنفط الخام اذ بلغت مستورداتها ٢٤٤٤ بالمائة من جملة استهلاكها للنفط الخام عام ١٩٧٠ . كذلك ينبغي الا يغرب عن البال ان تطور مصادر الطاقة خلاف النفط في العالم الغربي كان ابطأ بكثير من تطور الاعتماد على النفط، وكذلك ابطأ من تطور الطلب على النفط .

اما بالنسبة لأوروبا الغربية واليابان فالامر اشد خطورة ، ذلك ان انتاج النفط الخام ضئيل جدا كما ان مصادر الطاقة البديلة ذات نسبة أدنى بكثير مما هي في الولايات المتحدة ، ففي أوروبا الغربية تبلغ النسبة ٣٨٤٨ بالمائة وفي اليابان تبلغ ٢٦ بالمائة لعام ١٩٧٠ . وليس هنالك من المؤشرات المقنعة ما يدل على انعكاس هذا الخط في المستقبل القريب وإنما تتجه المؤشرات في اتجاه ارتفاع الاعتماد على النفط العربي كما هو الحال في الولايات المتحدة .

ينبغي ان يضاف الى ما اثبتناه لجهة قوة الجانب العربي النفطي وضعف الجانب الغربي ان البلدان غير العربية الغنية بالنفط هي بالتحديد الاتحاد السوفياتي وفنزويلا وكندا

* بموجب احصاءات بنك تيسيس مانهاتن في دراسته «الاستثمارات الرأسمالية لصناعة النفط العالمية ١٩٧٠» .

* انظر شهادة مساعد وزير الخارجية الامريكية جان اروين امام لجنة الشؤون الداخلية في الكونغرس، كما ورد نصها في نشرة وزارة الخارجية رقم ١٧١٤ بتاريخ ١٩٧٢/٥/١ ص ٢٦٦ — ٦٢١ . انظر ايضا « مجلة

النفط والغاز » The Oil and Gas Journal . عده ١٩٧٢/٣/٢٠ ص ٢١ .

وايران ونيجيريا واندونيسيا ، على ان جملة صادرات هذه البلدان من النفط الخام ومشتقاته لعام ١٩٧٠ كانت نحو ٣٤٥ مليون طن اي ٤٤٤٤ بالمئة من صادرات البلاد العربية و٢٧٠٤ بالمئة من الصادرات العالمية ، منها نحو ١٧٠ مليوناً اتجهت الى الولايات المتحدة ، وهكذا فان نحو ١٧٥ مليون طن فقط اتجهت للبلدان المستوردة الاخرى ، وهذه الكمية يجعلها تعادل نحو ٢٢٤٥ بالمئة فقط من الصادرات العربية . واذن فان رفع صادرات هذه البلدان لتعوض عن النفط العربي أمر لا يمكن ان يتحقق الا بثمارات كبيرة وبعد مرور ثلاث الى خمس سنوات على الاقل — هذا على افتراض استمرار الاستهلاك الحالي ودون أخذ ازدياده بالاعتبار — وهو افتراض لا يجد ما يبرره .

في ضوء هذه الملاحظات يتضح ان التهديد بتأميم أسهم الشركات المنتجة امر في غاية الخطورة بالنسبة للعالم الغربي ، وللولايات المتحدة بالذات التي لا تفضح ضالمة مستورداتها الحالية من النفط العربي حقيقة ارتهائها المثل لهذا النفط العربي ، كما ان ضالمة مستورداتها الحالية لا تعكس ضخامة ثمراتها النفطية في العالم العربي وارباحتها من هذه التثمارات . ان الولايات المتحدة لن تجد لا في احتياطها النفطي ولا في الاحتياطي في منطقة الكاريبي او في نصف الكرة الغربي بأسره ما يمكن له ان يتكفل باحتياجاتها المقبلة — وهي حقيقة تفضحها النسبة المتواضعة جدا للاحتياطي الى الانتاج السنوي في نصف الكرة الغربي ، ومحدودية قدرة المناطق الاخرى من العالم على الحل محل النفط العربي ، في وضع عالمي يتميز بتوقعات ارتفاع الطلب بشكل متصل لسنوات عديدة مقبلة .

ثمة ناحيتان اخريان لسياسة التأميم الكلي جديران بالتسجيل . فبالاضافة الى الدور المستقبلي الكبير الذي سيلعبه النفط العربي في سد حاجات الولايات المتحدة للطاقة ينبغي ان نذكر ان شركات النفط الامريكية كانت تملك نحو ٦٠ بالمئة من جملة رؤوس أموال الشركات العاملة في المنطقة العربية قبل تأميم الحكومة العراقية لشركة نفط العراق في ١٩٧٢/٦/١ ، ونحو ٥٣٤ بالمئة بعد التأميم العراقي . واذن فان اثر التأميم الشامل على الولايات المتحدة يكون فوراً عدا انه يزداد مستقبلاً — لان خسارة الشركات للسيطرة على رأس مالها (وهو يعني انخفاض قدرة الولايات المتحدة ذاتها على تأمين تدفق النفط) يكون دون ريب مصدر قلق فوري للولايات المتحدة بل قد يكون رادعاً قويا اذا استخدم بالشكل المناسب ، ورافقته الجدية وادى الى مستوى عال من قابلية التصديق .

والناحية الاخرى مالية محضة : ففي تقديرنا بلغت ارباح الشركات الامريكية نحو ٢٦٧٠ مليون دولار لعام ١٩٧١ ، وهو مبلغ ذو أهمية ملموسة في الحساب الجاري بميزان المدفوعات الامريكي ، اذ لم يتخط الفائض في الحساب الجاري لعام ١٩٧٠ مبلغ ٤٤٤ مليون دولار وانقلب هذا الفائض الى عجز مقداره ٧٢٩ مليون دولار بآخر حزيران (يونيو) ١٩٧١* . هذه الارقام تدل دلالة واضحة على الدور الكبير الذي تلعبه ارباح شركات النفط في جعل رصيد الحساب الجاري ايجابيا او في التقليل من سلبيته . غير انه ينبغي عدم تضخيم هذا الاثر لارباح الشركات بالنسبة للنتائج القومي في الولايات المتحدة لانها تشكل اقل من ثلاثة اعشار من واحد بالمئة من الناتج القومي القائم . على ان اثر التأميم على ميزان المدفوعات البريطاني يكون أكثر خطورة بكثير بل قد يؤدي الى كارثة ضخمة .

ب — قد يقال ، من الجهة الاخرى ومع الادراك لاهمية النقاط التي ائبنتها في الفقرة (أ) اعلاه ، ان التهديد بتأميم أسهم الشركات المنتجة ليس مخيفاً للبلدان الغربية لانه يضع

* بموجب احصائيات صندوق النقد الدولي في : International Financial Statistics

على اكتاف البلدان المصدرة للنفط عبئا ثقيلا هو عبء تسويق النفط بقدر ما يضع في ايديها قدرة ضاغطة. والجواب المباشر هو ان عملية التسويق مع ما يواكبها من مناعب فنية وأخرى تجارية تتعلق بخلق شبكة التعامل بالنفط والتعاقد مع المستوردين ، هي عملية يمكن تنظيمها في السياق القصير ودون تأخر يذكر أولا لان شبكة العلاقات قائمة ولن يتبدل فيها سوى شخصية الجانب المصدر ، وثانيا لان حاجة أوروبا الغربية واليابان للنفط العربي حاجة ماسة ، بل حيوية ، حيث لا يكفي المخزون النفطي لهمة تزيد عن ثلاثة أو أربعة شهور اللفترة قصيرة وبفضل تقنين صارم وثقل الوطأة ، و ثالثا لانه في الوقت نفسه لا توجد مصادر بديلة للنفط يمكن اللجوء اليها في السياق القصير والمتوسط (أي ضمن حدود ثلاث الى خمس سنوات) . بعبارة قصيرة ان البلدان العربية المصدرة للنفط ، لانها تستطيع اذا شاءت ان تضغط بأصابع قوية على شرايين الحياة الاقتصادية في أوروبا الغربية واليابان ، فهي قادرة على حسم الموقف بالرغم مما يرافق الضغط في السياق القصير من بلبله في انتاج النفط وتسويقه ، وذلك من خلال اسراع أوروبا الغربية واليابان اضطرارا الى التفاهم مع البلدان المصدرة للنفط لتأكيد تدفق النفط . كذلك تنبغي الإشارة الى امكان استخدام الخبراء الاجانب - وقد يكون عدد منهم موظفين سابقين في الشركات المؤممة ذاتها - في عمليات الانتاج والتسويق ، كما يمكن استخدام الشركات للقيام بهذه المهمات لقاء عمولة عينية أو نقدية . واذن فمشاكل الانتاج والتسويق التي قد تنشأ تكون على الأرجح قصيرة الامد وقابلة للحل بفضل حاجة أوروبا الغربية واليابان للنفط العربي وعدم قدرتها على الرد المعاكس الفعال .

ج - وكذلك اذا قيل ان سياسة التهديد بالتأميم الكلي مجحفة لان اثرها المحتمل في معظمه يقع على أوروبا الغربية واليابان وهي تضم عددا من البلدان لم يشترك في احد أوجه العداء على العالم العربي وبصورة خاصة لم يشترك في تمكين الصهيونيين من فلسطين وتوطيد دولتهم التوسعية ، في حين ان هذه السياسة لا تصيب الولايات المتحدة بالقسم الاكبر من الأذى وهي الدولة المسؤولة في المقام الاول عن استمرار الوجود الاسرائيلي وامتداده التوسعي - اذا قيل هذا ، فان جواب محبذي سياسة التأميم الكلي هو ان اية مناعب تحملها أوروبا الغربية واليابان ينعكس أثرها على الولايات المتحدة التي تمثل مركز الثقل في شبكة البلدان الغربية ، وعلى الولايات المتحدة بالذات يترتب العمل على رفع عبء المتاعب عن كاهل أوروبا الغربية واليابان . وبما ان هذه المتاعب ليست مالية وانما عينية ، اي بما انه لن يتوفر نفط بديل بمقادير وافية وان يكن بأسعار أكثر ارتفاعا ، فلن تستطيع الولايات المتحدة القيام بعمل معاكس يعيد النفط الى شرايين الحياة الاقتصادية في أوروبا الغربية واليابان ، سوى تعديل سياستها حيال القضية الفلسطينية . يضاف الى هذا ان الولايات المتحدة ستصبح مستوردا رئيسيا للنفط العربي خلال السنوات القليلة المقبلة واذن فان اثر التأميم الرديسي سيقع عليها ايضا بصورة مباشرة وحتمية .

د - ثم ان محبذي سياسة التهديد بالتأميم الكلي يحاجون بان الواجب القومي يدعو على أي حال الى امتلاك البلدان النفطية لوسائل الانتاج النفطي جميعها ، وما ضغط هذه البلدان مؤخرا من خلال « منظمة البلدان المصدرة للنفط » في سبيل المشاركة في ملكية أسهم الشركات المنتجة سوى خطوة في الاتجاه الصحيح . فلماذا لا تتخذ خطوات مسرة التأميم كلها مرة واحدة ، انتقالا من التهديد الى التنفيذ ، خاصة بالنظر لخطورة الوضع العربي الحالي تجاه اسرائيل ، سياسيا وعسكريا ؟

هـ - أخيرا ، فان بعض القائلين بسياسة التهديد بالتأميم يعتقدون ان هذه السياسة وان كانت قيمتها الحقيقية تكمن في المرحلة الاولى منها وهي مرحلة التهديد ، الا ان مرحلة

التأميم — فيما اذا فشل التهديد وكان لا بد من اللجوء الى التأميم — ذات فائدة للقضية الفلسطينية . مرد ذلك في رأيهم الى كون شركات النفط — خاصة في الولايات المتحدة — هي في قرارة نفوسها وفي الحقيقة الى جانب اسرائيل لان هذه تخيف العرب وتحد من تطرفهم وتلهيهم عن شركات النفط . واذن — تقول هذه الحجة — فان التأميم يخرج الشركات من الحلبة كعامل قوي يساند اسرائيل سرا ويفيد منها في تبديد قوة العرب .

* * *

يوحي التحليل حتى هذه النقطة بأن سياسة التهديد بالتأميم الكلي هي سياسة سليمة ذات انياب قاطعة تشكل جهاز ضغط جبار على البلدان الغربية لصالح القضية الفلسطينية . غير ان التبصر في منطلقات هذه السياسة وفي النتائج العكسية المحتملة لها يرسم صورة مختلفة المعالم والسّمات في التحليل النهائي . وبالتحديد ، هنالك خمس نقاط ضعف في سياسة التأميم الكلي ينبغي بحثها ، وهي تعدل الاستنتاجات التي توحى بها السياسة لأول وهلة :

أ — نقطة الضعف الاولى في سياسة التأميم الكلي هو منطلقها القائل بأن فاعلية التهديد بالتأميم تكمن في صدوره عن جميع البلدان المصدرة للنفط معا وفي آن واحد — على أساس ان قيام بلد واحد مهما عظم شأنه النفطي بالتهديد بتأميم اسهم الشركات الغربية المنتجة في أرضه لا يكون عملا مجديا لان الشركات تظل محتفظة بسيطرة واسعة على الإنتاج كما تظل قادرة على التعويض عن نفط البلد المعني برفع إنتاجها في بلدان أخرى عربية وغير عربية — كما حدث بعد تأميم مصدق في إيران سنة ١٩٥١ . اما ضعف السياسة المقترحة لهذه الجهة فهو انها تتجاهل الواقع العربي وتغرق في التجريد المثالي . وليس سرا ان البلدان العربية ليست كلها على نفس درجة الاستعداد للقيام بالتأميم ، او حتى بالتهديد به ، وهكذا فان اي تباين في الموقف من شأنه أولا ان يصل بالسياسة الى الفشل، وثانيا ان يفجر الموقف العربي غير المتراص وان يزيد من الشغرات فيه وبالتالي ان ينقل هذا الموقف الى مرتبة دون المرتبة الحالية تماسكا وانسجاما — وهي كما نعلم مرتبة متواضعة .

ب — وهناك في الناحية الثانية أمر يستوجب التوقف في سياق التحليل الموضوعي : هو التساؤل فيما اذا كانت جميع البلدان العربية المصدرة للنفط (واطلاقا جميع البلدان العربية) تشعر بأن الخطر الاسرائيلي يهددها الى حد القيام باجراءات تنتهي بمغامرة احتمالات الخطر فيها للبلدان ذاتها مرتفعة جدا ، وبصيغة أخرى فيما اذا كانت هذه البلدان — على شديد اهتمامها بقضية فلسطين — مستعدة لتحمل المخاطرة الكبيرة لمجتمعاتها ومواردها من أجل فلسطين والعمل في سبيلها ، خاصة وان البلدان العربية لا يبدو انها مقتنعة تماما ان الخطر التوسعي الصهيوني يهددها هي جديا كما هدد فلسطين من قبل ، ويتهدد مواردها الضخمة النفطية وغير النفطية ، كما هدد موارد فلسطين المتواضعة — مما هو واضح من تصريحات المسؤولين الاسرائيليين وأدبهم السياسي ومن ثنانيا موافقهم وتصرفاتهم . والتهديد يتم لحساب اسرائيل نفسها ولحساب الغرب الذي يناسبه ان تكون اسرائيل الشرطي الحارس لمصالحه . اننا لا نستطيع الا ان نقول ان الجواب على هذا التساؤل في مختلف صيغه ان يكون ايجابيا الا اذا كانت الادلة كافية بأن البلدان العربية تؤمن باخلاص وبدون تحفظ ان هنالك اندماجا عضويا كاملا بين قضية فلسطين والقضية الوطنية المصرية لكل منها وكانت تشعر بانتماء كامل للقضية الفلسطينية يحملها على التصرف تجاه هذه القضية كما لو كانت أرضها هي أصبحت محطا لاستعمار واقتلاع صهيونيين كما أصبحت فلسطين ، والا اذا أدركت البلدان العربية ان الاطماع الاسرائيلية تشمل أرضها ومواردها هي أيضا وتهدد مستقبلها ومصيرها اقتصاديا الى جانب التهديد السياسي والقومي . عند هذا الحد لا

يزي المحلل بين يديه من الدلائل ما يكفي لافتراض الجواب الايجابي للتساؤلات المطروحة ذكرها .

ج - ثمة نقطة ضعف اخرى تكمن في هذه السياسة هي انها ، لكي تكون فعالة ومع افتراض وجود جوارب مرض للنقطتين (ا) و (ب) اللتين سبق تقديمهما ، ينبغي ان يرافقتها وقف تزويد البلدان الغربية بالنفط (وهو يقع تحت المجموعة الثانية من السياسات النفطية) . فاذا اقتصر التأميم في النهاية على تحويل ملكية اسهم الشركات للبلدان المصدرة للنفط ولم يتعد ذلك الى حجب النفط عن البلدان الغربية ، ظل اثر التأميم مالياً فحسب ، وهو اثر ضخم ووجيه لكنه ليس حاسماً ، سواء في مرحلة التهديد أم التنفيذ . ذلك اننا نفترض التعويض الملائم للشركات خاصة وان معظم رؤوس اموالها قد جرى اهتلاكه حتى الآن . وفي أية حال فان الاقتصادات الغربية قادرة على استيعاب الصدمة المالية الناجمة عن ضياع ارباح الشركات السنوية على ضخامة هذه الارياح ، ما دام تدفق النفط مستمرا (تمثل الارياح اقل من ربع واحد بالمئة من الناتج القومي الاجمالي للدول الغربية المعنية) ، هذا مع صعوبة استيعاب الصدمة في ميزاني المدفوعات الامريكى والبريطاني .

اذن فان الخطوة الحرجة في هذا الصدد هي **حجب النفط** عن البلدان الغربية ، وحجب النفط أكثر من أي عامل آخر يتقود في تحليلنا الى ضربة معاكسة قد تبلغ حد الحرب كما سنبين عند تحليل المجموعة الثانية من السياسات .

ولئن قيل ان الناحية المالية لسياسة التأميم الكلي (فيما اذا نفذ بعد فشل مرحلة التهديد) والمؤدية الى توجه ارباح الشركات (كائنة ما كانت) الى خزانات البلدان العربية المصدرة للنفط هي بيت القصيد لانها توفر للعالم العربي احتياطيا ماليا ضخما يمكن تمويل النضال ضد اسرائيل بواسطته ، جاز التساؤل فيما اذا كان العالم العربي يشكو شحة في الموارد المالية الآن وقبل التأميم . وبالتحديد فان عائدات النفط العربي بلغت عام ١٩٧١ نحو ٦٩٨٠ مليون دولار كما ان الحساب الجاري في ميزان المدفوعات العربي الموحد يتمتع بفائض ضخم تقدره لسنة ١٩٧١ بأكثر من ٢٠٠٠ مليون دولار . والمشكلة اذن ليست مشكلة موارد مالية وانما مشكلة التعاون العربي الصادق والقبول بتوجيه قسم كبير جدا من هذه الموارد لحاجات النضال العسكري والسياسي ، وهذه قضية **ارادة نضال لا قضية اقتصاد في المقام الاول** - وبالتالي فان توفر المزيد من الموارد يفضل التأميم اي الحصول على ارباح الشركات (التي تقدر لعام ١٩٧١ بنحو ٤٤٤٥٠ مليون دولار) قبل حسم اقساط التعويض ، لن يبدل الصورة الا هامشيا ما دامت الرغبة العربية في الالتزام الكامل وغير المتحفظ بالنضال غير متوفرة .

د - نقطة الضعف الرابعة ان البلدان الموجهة سياسة التأميم الكلي ضدها ليست الآن جميعها على المستوى نفسه من العداء للعالم العربي . وبما ان المفروض ان تتأثر الدول وتعمل بوجي موافقتها ومصالحها الراهنة اقل مما هو بوجي اوضاع تاريخية قريبة او بعيدة ، فان البلدان المصدرة للنفط تخطيء اذ تضع فرنسا ما بعد خزيوان (يونيو) ١٩٦٧ او ايطاليا او اليابان على نفس مستوى المعاملة كالولايات المتحدة . وتوجيه المعاملة نفسها الى جميع الشركات والبلدان التي تنتسب هذه الشركات اليها تكون محصلته الاساءة الى علائق جيدة او مقبولة قائمة مع بعض البلدان الاجنبية ونقل هذه البلدان من مصاف الدول الصديقة او على الاقل المحايدة **حاليا** الى مصاف الحدود العدو . وبالطبع فان هذا ينافي مبدأ تقديم المصلحة الحالية والمستقبلية في التصرف السياسي للدولة على أي اعتبار آخر في التعامل .

هـ - أخيرا ، هناك موضوع « الضربة الاقتصادية المعادلة » ونعني بذلك قيام الدول

الغربية التي يستهدفها التهديد بالتأميم الكلي (أو التأميم ذاته إذا نفذ) بالتهديد بالانتقام (أو بالانتقام) اقتصاديا . وأكثر الاسلحة الاقتصادية فعالية في يد هذه الدول هو بالذات الارصدة العربية الحكومية والخاصة الضخمة ، في مصارمها وفي اسواق أسهمها ، والتي تقدرها بنهاية ١٩٧١ بما لا يقل عن ٦٠٠٠ مليون دولار يتوقع ان ترتفع بنهاية ١٩٧٢ الى نحو ٧٥٠٠ مليون . وبالطبع تستطيع البلدان الغربية التهديد بتجميد الارصدة وايقاف سيولة الاسهم والاستثمارات ، او تنفيذ ذلك اذا نفذ التهديد بالتأميم .

ولا يفيدنا في شيء الظن اننا نستطيع نقل هذه الاموال الى بلد آخر قبل اعتماد سياسة التأميم الكلي اذ ليس هنالك من سوق مالية أخرى قادرة على استيعاب أموال بالحجم الذي يبناه ، سوى سويسرا (وحتى هذه مع التحفظ) ، التي نرجح انها ستمتنع في تلك الحال عن استقبال الاموال العربية بالادعاء بأن نظامها المصرفي وسوقها المالي مشبعان أكثر من اللازم بالاموال الأجنبية ، وسيكون تمنعها في الواقع تضامنا مع الدول الغربية الأخرى . اما المانيا الغربية ، وهي ليست بين كبار ممتلكي أسهم شركات النفط فانها لا توفر حلا للمشكلة ، أولا لان سوقها المالي اصغر من أن يتسع للاموال العربية ، وثانيا وما هو اهم لانها من أولى البلدان الغربية التي يجب ان تستهدفها سياسة الضغط العربية بسبب مساندتها لاسرائيل التي اتخذت منذ منتصف الخمسينات ولا تزال تتخذ ابعادا خطيرة ، من خلال اتفاقية التعويضات المعقودة مع اسرائيل الدولة ثم من خلال اتفاقية « التعويض الشخصي » التي يفيد منها الافراد الاسرائيليون ، وهما اتفاقيتان أفاد منهما ميزان المدفوعات الاسرائيلي افادة كبرى — هذا عدا تصدير المانيا الغربية لبعض انواع الاسلحة لاسرائيل واستيراد البعض الآخر منها .

اما الادعاء المعاكس بأن الدول الغربية لن تقدم في حال التأميم الكلي على تجميد الارصدة والاستثمارات لانها بذلك تخسر المستوردات العربية فقول مردود لسببين : أولا ، ان حجم الضربة العربية يكون من الشدة بحيث انه سيتطلب حتما ردا قاسيا وسريعا — على الاقل تجميد الارصدة والاستثمارات — وثانيا ، ان البلدان الغربية لن تصاب بأذى شديد من جراء توقف مستورداتها من أسواقها بسبب تجميد الاموال التي تسدد بها ثمن تلك المستوردات . فجملة مستوردات البلدان المصدرة للنفط من البلدان الغربية تمثل أقل من ٤ بالمئة من جملة مصدرات البلدان الغربية . وهكذا نعتقد — كحصيلة لهذا القسم من البحث — ان الصيغة الاولى لسياسة التهديد بالتأميم الكلي بسبب طبيعتها المالية في الاساس لا تستطيع منفردة تحقيق تبدل عميق في المواقف الغربية لصالح القضية الفلسطينية ، وان التأميم ذاته اذا طبق ينهي مرحلة المناورة والردع ويصبح حالة لا عودة عنها من شأنها استدراج اجراءات اقتصادية غربية معاكسة قد لا تقبل البلدان العربية بأن تتحملها . وعلى أي حال فان اثر التأميم بعد تنفيذه يكون في وضع المقدرات النفطية في يد البلدان العربية النفطية دون ان يكون له بالضرورة اثر حاسم بالنسبة للقضية الفلسطينية . اننا لا نقلل من شأن السيطرة العربية على الموارد النفطية ولكننا نميز بين تحقيق هذه السيطرة ، والتاثير في الموقف الدولي بالنسبة للقضية الفلسطينية ، لانهما نتيجتان مختلفتان في طبيعتهما .

* * *

الصيغة الثانية لسياسة التهديد بالتأميم الكلي (او التأميم الكلي ذاته) ، هي سياسة التهديد بالتأميم الجزئي (او التأميم الجزئي ذاته) . وهنا ينبغي ترداد الملاحظة التي أوردناها عند بحث سياسة التأميم الكلي من أن تنفيذ التأميم يدخل الموقف في مرحلة جديدة هي مرحلة العقاب التي هي بطبيعتها نهائية ولا عودة عنها او مناورة حولها ، في حين ان التهديد بالتأميم الجزئي (كما سنحدده) يبقى الموقف داخل نطاق المناورة وتجربة اعصاب القوى المتعابلة .

تقول هذه السياسة بالتهديد بتأميم أسهم الشركات التي تنتسب الى الدول المستاندة لاسرائيل تاريخيا وحاضرا ، وتعني بالتحديد بريطانيا والولايات المتحدة ، واستعمال الموارد الاضافية المتاحة بفضل التأميم (وتمثل الفرق بين ارباح الشركات التي تنتقل الى البلدان العربية بالتأميم واقساط التعويض) لاغراض الجهود الحربي والانمائي .

وبما ان البلدين المذكورين كانا حتى اول حزيران (يونيو) ١٩٧٢ يملكان ٧٩ بالمئة من جملة أسهم الشركات المنتجة في البلدان العربية (او نحو ٧٠.٣ بالمئة بعد تأميم الحكومة العراقية لشركة نפט العراق) فان هذه السياسة في صيغتها النهائية اي صيغة تنفيذ التهديد تضع في الايدي العربية القدرة على التحكم باكثرية الطاقة الانتاجية وبكل مناسبتين على ذلك من اثار ونتائج تالية ، دون استثارة البلدان الغربية الأخرى التي ساندت اسرائيل او تساندها بشكل اقل كثافة واستمرارية والتي لن يطالها التأميم او التهديد به . هذه هي الحجة الاولى التي تقدم في صالح السياسة المطروحة .

الحجة الثانية ان عمليات الإنتاج والتكرير اصبحت او كادت عمليات روتينية يتقنها الخبراء والمهندسون والعمال المهرة العرب ويستطيعون القيام باعبائها ، منفردين او بالاستعانة بخبرات فنية مستوردة من الخارج في الحالات الاستثنائية ، او بخبرات ترغب في التعاون من بين اجهزة شركات النفط التي يطالها التأميم . وتقتضض هذه السياسة ان الشركات ، لشعورها بالاضطرار لشراء النفط العربي ، ستسارع على الارجح للدخول في صيغة علاقات تجارية محضة جديدة مع الحكومات العربية كما ستسارع الى عرض خدماتها الفنية على الحكومات بعد التأميم من اجل استخدام بعض اجهزتها او كلها وتشغيل ناقلاتها ومعامل تكريرها في الخارج ، وانها اخيرا سترضى بأن تقوم بهذه الخدمات لقاء اجر او عمولة ، نقدية او عينية .

في تقييم السياسة المطروحة ينبغي ان نبين انها في كثير من نواحيها - مع التحفظ في انها محدودة المدى ولا تشمل جميع الشركات المنتجة - تشبه السياسة الاولى القائلة بالتهديد بالتأميم الكلي . فهي تتسم بالمزايا نفسها وتلازمها بنقاط الضعف نفسها مع التعديل لجهة درجة شمول كل من السياستين . ومن هنا فاننا لسنا مضطرين للتبسط في شرح وتحليل المزايا ونقاط الضعف وسنكتفي بالاشارة اليها بايجاز كلي .

١ - سياسة التأميم الجزئي تضع في يد البلدان العربية قدرة ضاغطة جبارة وموارد مالية ضخمة تقدرها بحوالي ٣٥١٥ مليون دولار على اساس ارباح الشركات البريطانية والأمريكية لعام ١٩٧١ . (طبعا ينبغي خصم اقساط التعويض من هذا الرقم ، واي هبوط في الدخل نتيجة انخفاض المبيعات او الاسعار) . كما ان هذه السياسة في حال تنفيذها تحرم البلدين - خاصة بريطانيا - ركيزة رئيسية من ركائز ميزان المدفوعات الدولي .

ب - لا يقرى البلدان على مقاطعة العرب اقتصاديا بالمقابل بسبب السياسة المطروحة لانهما - خاصة بريطانيا - بحاجة للنفط ولان الولايات المتحدة وهي ليست اليوم بحاجة الا ل مقدار ضئيل نسبيا من النفط العربي ستصبح بحاجة ماسة اليه وخلال سنوات ثلاث او اربع . وهكذا تصبح بريطانيا عامل ضغط سياسي على الولايات المتحدة في صالح قضية فلسطين من اجل تأمين استمرار تدفق النفط اليها ، الى جانب مصلحة الولايات المتحدة نفسها في تأمين النفط العربي لسوقها بالذات في المدى المتوسط .

ج - ما دام امتلاك العرب لمنشآت الإنتاج في اراضيهم كليا هو الهدف النهائي الذي لا مفر منه فلماذا لا يصار الان الى تنفيذ التأميم في اللحظة المناسبة في خدمة قضية فلسطين ، اذا لم ينجح التهديد في ذاته .

تقابل هذه الميزات بعض نقاط الضعف في سياسة التأميم الجزئي ، التي نجعلها فيما يلي :

أ - ان سياسة التهديد بالتأميم الجزئي لا تؤدي الى الضغط الفعال على بريطانيا والولايات المتحدة . ما دامت مقتصرة على الاثر المالي ابي الحصول على ارباح الشركات البريطانية والأميركية ، وما دامت تنقل السيطرة على النفط الى العرب دون ممارسة السيطرة كسلاح سياسي . ويستطيع الاقتصادان البريطاني والأميركي امتصاص الصدمة المالية نتيجة للخسارة في حال تنفيذ التهديد التي انما تمثل نحو ثلث من واحد بالمئة من الناتج القومي المشترك فيهما (نحو سبعة أعشار من واحد بالمئة في بريطانيا ونحو ثلاثة أعشار من واحد بالمئة في الولايات المتحدة) - هذا مع الاعتراف بصعوبة امتصاص الصدمة اللاحقة بميزان المدفوعات . اما ضياع السيطرة الأمريكية والبريطانية فيخفف من حدته وخطورته عدم ممارسة العرب لهذه السيطرة بالمعنى السياسي :

بالتحديد عدم ايقاف النفط عن البلدين المعنيين .

ب - وليس مما يقوي حجة هذه السياسة القول انها تضع في يد العرب موارد مالية ضخمة للاستعمال في الجهود الحربي ، لان هذا الجهود لا يحده الآن شحة الاموال وانما عوامل أخرى ومعظمها من النوع المعنوي غير الملموس والمتعلق بارادة النضال .

ج - الصدمة الحقيقية والحاسمة تكون في حجب النفط العربي عن هذين البلدين الى جانب تأميم أسهم شركاتها . وهنا يقوم الاحتمال المرتفع باقدامها على الرد القاسي ، اقتصاديا في احسن الاحوال (بتجميد الاموال العربية في أسواقها المالية) ، أو عسكريا ، أو في الحقلين معا . (مما سيبحث في باب سياسات حجب النفط) .

د - كذلك فان سياسة التأميم الجزئي تقوم على فرضية التزام العرب بمبدأ القيام بعمل مشترك - وهي فرضية سبق أن تبين عدم واقعيتها .

وهكذا اجمالا فاننا نجد ان سياسة التأميم الجزئي اذ هي تتحاشى بعض العيوب التي تلازم سياسة التأميم الكلي الا انها تشكو في الأساس من نقاط ضعف من نفس الطبيعة كذلك كما انها تتمتع في الأساس بمزايا من نفس الطبيعة كذلك .

٢ - سياسات حجب النفط

تدرس هذه السياسات هنا بمعزل عن استخدام سياسات التأميم ، على أن يبحث تمازجها في الباب الخامس . وكما رأينا عند دراسة سياسات التأميم فان سياسات حجب النفط يمكن أن تبدأ بالتهديد ثم - في حال فشل هذا الرادع - ان تنتهي بالحجب عن الفريق المستهدف بالسياسة . لكن الفرق بين المجموعتين لهذه الناحية هو أن الحجب في حال تنفيذه يظل يسمح بالمانورة بحيث يمكن العدول عن الحجب جزئيا أو كليا . أي انه كما ان التصعيد المتدرج ممكن في حال الحجب ، كذلك فالتهديب المتدرج ممكن ، فلا توجد حالة نهائية لا تمكن العودة عنها .

يمكن طرح سياسة حجب النفط العربي ضمن صيغ مختلفة ، أبرزها صيغتان : الأولى تقول بالتهديد بحجبه كليا عن جميع الشركات الغربية (أي عن البلدان الغربية التي تنتسب الشركات إليها) ، أو بحجبه فعليا لفترة ذات فاعلية في حال فشل الرادع عن ان يحمل مصداقية كافية لدى الفريق المستهدف . والثانية تقول بحجبه جزئيا أي عن بعض الدول .

اما بالنسبة للصيغة الأولى ، فالمسألة بديهية بمعنى ان حجب النفط عن العالم الغربي أيضا لفترة ذات فاعلية من شأنه أن يثقل الحياة الاقتصادية في أوروبا الغربية واليابان شيلا رئيسيا خلال أشهر قلائل ، وأن يفرض عجز الولايات المتحدة عن التعويض عن النفط العربي لان قضية التعويض ليست فحسب قضية تدبر الاموال للاستثمارات

النفطية اللازمة في مناطق أخرى من العالم وإنما هي في المقام الأول تدبير النفط البديل بسرعة أي في السياق القصير - وهذا مستحيل ، بل انه يكاد يكون مستحيلا خلال المدى الزمني المتوسط كذلك - يقابل ذلك حقيقة مركزية وجوهرية هي ان طاقة الاحتمال لدى البلدان الغربية لا تتوفر الا ضمن المدى الزمني القصير أي دون السنة الواحدة . واذن فان حجب النفط عن أوروبا الغربية واليابان والولايات المتحدة يخلق حالة جديدة لا تستطيع هذه المناطق مجابتهها مباشرة أي ضمن نطاق موضوع النفط وضمن المدى الزمني المتاح لها . وبالتالي فان سياسة الحجب هي الرادع السياسي الاقصى الذي يملكه الغرب تجاه الغرب والذي اذا هدد به واقترن التهديد بقابلية التصديق يمكنه ان يكون ذا اثر ايجابي ورئيسي في صالح القضية الفلسطينية .

على ان حجب النفط يعني توقف موارد المالية ، لانه لا توجد اسواق بديلة تعوض عن الاسواق الغربية . والدول المصدرة للنفط أصبحت تعتمد اعتمادا كبيرا على أنماط استهلاكية وتثميرية في القطاعين الخاص والعام يجعلها على درجة منخفضة من الاستعداد للقبول بتوقف الإيرادات المالية الناجمة عن النفط الا لفترة قصيرة قد لا تتعدى الثلاثة الى ستة شهور ، هذا مع العلم ، وبالرغم من أن لدى البلدان المصدرة للنفط احتياطيها ماليا في الخارج يقدر على تمويل المستوردات والمشاريع التثميرية في فترة الشهور المبينة . غير ان موضوع الارصدة والاستثمارات في الخارج يثير تساؤلات أخرى بدوره مما سنبينه فيما بعد .

على ان ما هو أهم من فقدان الموارد المالية بالنسبة لبلدان النفط هو الخطر الكبير النابع عن قدرة هذه السياسة الجسارة بالذات . فالقدرة العربية في الضغط على شرايين الحياة الاقتصادية الغربية - وهي قدرة لا ريب فيها في نطاق حجب النفط - تشكل في الوقت ذاته نقطة انكشاف في الموقف العربي . فالبلدان الغربية اذا شعرت ان حياتها الاقتصادية - وحياتها البيولوجية - أصبحت او تكاد تصبح في خطر ضمن مدى زمني قصير ، ستضرب بالقوة نفسها دفاعا عن النفس . وليس من الحكمة وحسن التصبر اطلاقا ان يتجاهل المحلل الاحتمال المرتفع جدا لقيام البلدان الغربية بعمل حربي من اجل تأمين استمرار تدفق النفط .

ولئن قيل ان العالم الغربي لا يستطيع تجريد حملة عقابية ضد البلدان العربية المصدرة للنفط جميعها كان الجواب أولا ان وسائل الضرب الحديثة ليست مقصورة على حملات الجيوش والاساطيل وان ترسانة البلدان الغربية مليئة بمختلف انواع أنظمة الاسلحة التي تعطي هذه البلدان مرونة فائقة في الردع والضرب الوقائي والضرب اللاحق على جبهة واسعة ، وثانيا انه يكفي على الأرجح ان يضرب بلد واحد بقا عليه لكي تبدل البلدان النفطية الأخرى مواقفها رضوخا وملائمة للبلدان الغربية خوفا من أن ينالها ما يكون قد نال البلد المضروب أولا . كذلك ليس من الحكمة وحسن التصبر الافتراض ان الرادع السوفييتي - أو أي رادع آخر - يمكنه ان يمنع البلدان الغربية عن الضرب لاننا في تحليلنا نستبعد ممارسة هذا الرادع لان ممارسته ستؤدي بها يشبه الحماية الى حرب شاملة سوفياتية غربية ، ونحن نستبعد قبول الاتحاد السوفياتي لهذه النتيجة . واذا كان هذا هو توقع الغرب نفسه - وهو ما نرجحه - فان الغرب يكون قادرا على الضرب وهو يشعر بالاطمئنان .

لكن تظل سياسة حجب النفط في النهاية أقوى الاسلحة العربية . ويزيدها قوة ان الحجب يمكن ان يتم نتيجة ضغط شعبي ومن هذه الناحية فهو أقل احراجا للدول العربية من التأميم لان التأميم يتطلب تشريعات تقوم بها الدولة لا مجرد اجراءات يفرضها الضغط الشعبي .

الصيغة **الثانية** لسياسة الحجب تقول أما بحجب النفط عن بريطانيا والولايات المتحدة فقط على أساس أنهما تاريخيا البلدان اللذان قدما أكبر العون للصهيونيين ، اذ كانت بريطانيا مسؤولة عن قيام الوطن القومي اليهودي ومن ثم عن قيام الدولة ، وجاءت الولايات المتحدة بعد ذلك فأصبحت مصدر العون الرئيسي لإسرائيل سلاحا ومالا وسياسة ودبلوماسية ، أو بحجبه عن بريطانيا والولايات المتحدة زاندا المانيا الاتحادية وهولندا لان البلدين الآخرين (خاصة المانيا الاتحادية) يدعمان إسرائيل بصورة متكررة أكثر من بقية بلدان أوروبا الغربية .

أ - وسواء اكانت السياسة من النوع الاول الضيق ام الثاني الموسع فهي تقوم على الاساس نفسه، وهو ان التهديد بحجب النفط عن بعض البلدان الغربية التي تحمل بحق مسؤولية ضخمة في مساندة إسرائيل بشكل متماد هو من نوع القصاص العادل . ومع اعتراف انصار سياسة حجب النفط الجزئية بأن الولايات المتحدة اقل تأثرا بحجب النفط من دول أوروبا الغربية (واليابان) لانها لم تستورد عام ١٩٧٠ من العالم العربي سوى ١٢ مليون طن تمثل ٧ بالمئة من جملة استيرادها و١٧ بالمئة من جملة استهلاكها ، الا انهم يعتبرون ان حجب النفط عن اصدقاء الولايات المتحدة الذين يعتمدون اعتمادا أساسيا وخطير المدى على النفط العربي (بنسبة متوسطها ثلثا مجموع الاستهلاك) من شأنه ان يحمل دول أوروبا الغربية المعنية - بل كل هذه الدول - على ان تصبح جهاز ضغط على الولايات المتحدة يجعلها تبديل سياستها - وهي البلد الذي يمثل مركز الثقل اليوم في مساندة إسرائيل ودعمها باستمرار ضد العرب . (على أي حال يتوقع ان تستورد الولايات المتحدة نحو ٧٧ مليون طن من النفط العربي خلال ١٩٧٢) . ويضيف البعض الآخر تعديلا بسيطا لهذه الحجة هو ان حرمان بعض بلدان أوروبا الغربية القارية من النفط يجعل هذه البلدان تضغط على الولايات المتحدة **وعلى بريطانيا ذاتها** - عدا الضغط الداخلي في بريطانيا الذي سيولده الحرمان من النفط - ويجعل بريطانيا بالذات تستخدم نفوذها الخاص لدى واشنطن لحملها على تبديل سياستها من قضية فلسطين تبديلا جزريا .

ب - اما آلية جهاز الضغط المستهدف فهي ان البلدان الأوروبية التي تحرم من النفط العربي ستضغط على الولايات المتحدة لتبديل سياستها لانها لا تستطيع ان تفعل شيئا لتخفف متاعب البلدان المحرومة ولتعيد دورة الحياة الاقتصادية فيها (التي يتوقع أن تتباطأ كثيرا بعد حوالي ثلاثة شهور من انقطاع النفط العربي) . وهنا أيضا - كما لاحظنا عند عرض سياستي التأميم - فان قدرة الولايات المتحدة المالية لا تفيد في شيء لان الظروف **ليس شراء نفط بديل** بأسعار أكثر ارتفاعا **وانما أساسا ايجاد نفط بديل** خلال فترة قصيرة تعد بالشهور - وهو أمر غير ممكن حتى ولو طال الافق الزمني فامتد الى الاجل المتوسط أي حتى خمس سنوات ، ذلك ان الطاقة الانتاجية لفنزويلا ونيجيريا وإيران واندونيسيا والاتحاد السوفياتي لا تستطيع التعويض عن النفط العربي في المدى القصير أو المتوسط . وهكذا توضع الولايات المتحدة في « الزاوية » وتضطر الى تبديل سياستها من قضية فلسطين لانقاذ اقتصاد أعز حلفائها وأقربهم اليها . والقضية هنا ليست فحسب في توفير النفط والغاز للمصانع والسيارات والصناعات البتروكيميائية والمولدات الكهربائية - وانما هي كذلك توفيره للاستعمال المنزلي في الطبخ والتدفئة والانارة (بفضل توليد الكهرباء حراريا أي بواسطة النفط) . اذن فان حجب النفط العربي يمس الاقتصاد والحياة اليومية للبلدان المستهدفة على السواء - بل ببساطة انه يمس الحياة البيولوجية لهذه البلدان .

ج - ينطلق بعض محبذي هذه السياسة في توضيح حسناتها بالقول انها لا تثير عداة الغرب كسياسة التأميم الكلي لانها تقتصر على حجب النفط ، وحجب النفط يعني رفض

التعامل التجاري مع البلدان الغربية التي توجه السياسة ضدها ، وليس هناك ما يوجب على بلد ما الاتجار مع بلد آخر برغم انفيه .

د - ثم يحاج محبذو سياسة الحجب الجزئية بأن هذه السياسة مع كونها تقول بحجب النفط عن بعض البلدان الا انها قادرة على ضبط الامور بحيث لا يتسرب النفط من البلدان التي يسمح بتدفق النفط العربي اليها الى تلك التي يحجب عنها . وهذا صحيح اذا كانت البلدان المصدرة للنفط جادة في الامر لانه بمقدورها ان تنقيد في مبيعاتها للبلدان المسموح لها بالاستيراد بالكميات التي كانت تتجه اليها في الفترة السابقة لحجب النفط . وبالطبع فان توفر النفط في البلدان المسموح لها بالاستيراد واستمرار الحياة العادية فيها سيخلق المزيد من الضغط على البلدان المحرومة والتي ستري ان البلدان الاخرى التي يتوفر لها النفط ستقتنص الاسواق التجارية منها وتسبب لها بذلك ضررا بعيد المدى حتى بعد العدول عن سياسة حجب النفط . وهذا سيؤدي الى قيام البلدان المحرومة بالاسراع في اعادة النظر في سياساتها العربية وبالمزيد من الضغط على الولايات المتحدة للغرض نفسه . على ان الجدير بالذكر ان مقرري السياسة في الولايات المتحدة بدأوا يشعرون بضغط داخلي كذلك مرده الى ازدياد الادراك لدى تزايد الاعتماد على النفط العربي . وقد برز عدة محللين سياسيين وخبراء امريكين حتى الآن وركزوا في الصحافة الاختصاصية وفي شهادات رسمية أمام لجان نيابية على وجوب الادراك بأن النفط العربي بمقدوره أن يصبح قوة سياسية ضاغطة جبارة في الولايات المتحدة . * . والمؤلم ان هذا الادراك والتحسب له يسبقان الادراك العربي والتصرف بمنطقه .

كما رأينا عند بحث سياسة الحجب الكلي ، فان سياسة حجب النفط العربي عن عدد محدد من البلدان الغربية تبدو جذابة للوهلة الاولى ، لكنها في الوقت نفسه تشكو من عدد من نقاط الضعف نجعلها في ثلاث نقاط :

١ - ان القول بأن حجب النفط ان هو الا رفض للتعامل التجاري مع البلدان المستهدفة ، والبلدان العربية لا يتوجب عليها الاتجار برغم انفها ، هو قول مغروق في التبسيط . فالنفط ليس سلعة عادية وانما سلعة استراتيجية حيوية هي بمثابة الدم في شرايين الحياة اليومية والاقتصادات وانظمة الدفاع . والنفط العربي يمثل نحو ٦٥ بالمئة من جملة النفط المستخدم في البلدان الاوروبية الغربية المستهدفة في السياسة - واذن فقطع النفط العربي عن هذه البلدان هو حكم بالشلل على معظم الجسم الاقتصادي فيها ، كما انه معطل لنمط الحياة اليومية المنزلية كما رأينا .

ب - يترتب على هذا التحفظ آثار خطيرة . فالبلدان الغربية المعنية ستتردد حتما بضربة متكافئة أو أشد قسوة . وفي أسوأ الحالات ستجمد الارصدة والاستثمارات المالية العربية في مصارفها وأسواقها المالية وهي اللجأ الرئيسي للارصدة والاستثمارات العربية ، حتى مع الاعتراف بأهمية السوق المال السويسري . وان قيل بأنه يمكن التحسب لنقطة الضعف هذه مسبقا بنقل الارصدة والاستثمارات قبل حجب النفط التي استواق فرنسا وسويسرا ، كان الجواب - كما بينا قبلا - ان السوق المالي الفرنسي لا يقدر على استيعاب الاموال العربية (وقد شاهدنا بالاختيار كيف انه بعد ان نقلت جمهورية ليبيا العربية أموالها من بريطانيا الى فرنسا عند تأميم شركة بريتيش بتروليوم عام ١٩٧١ ، أعادت فرنسا الجزء الاكبر من هذه الاموال الى المصارف البريطانية خلال اسبوع) ، وان السوق السويسري سيرفض استقبال هذه الاموال ، ظاهريا بحجة

* كما أشرنا الى شهادة جان اروين فيما سبق ، والى مقال في مجلة The Oil and Gas Journal بتاريخ

١٩٧٢/٣/٢٠ . ونضيف الى ذلك مقالا آخر بقلم جين كتي بعنوان « الحصول على نفط الشرق

الوسط مرتبط بالسياسة الخارجية للولايات المتحدة » - نفس المجلة بتاريخ ١٩٧٢/٦/١٢ ، ص ٧١ .

الاشباع وفي الحقيقة تضامنا مع البلدان المحرومة من النفط . وهكذا مرة اخرى نرى ان العرب يصبحون أسرى أموالهم لأنها تقيد حرية تصرفهم .

غير ان رد البلدان المحرومة قد يجيء أشد عنفا من الاجراءات الاقتصادية كتجميد الاموال العربية . فبالاضافة لهذا التجميد قد تعتمد البلدان الغربية المعنية ردا عسكريا بصيغة أو بأخرى ، اذا طال أمد انقطاع النفط وهدد الحياة الاقتصادية واليومية وأجهزة الدفاع بالشلل . ولئن قيل ان هذا الاحتمال الذي شهدنا أهميته عند بحث سياسة الحجب الكلي تتغير ظروفه بين سياسة وأخرى، أي انه احتمال ضعيف الان لان سياسة حجب النفط الجزئية انما تستهدف عددا محدودا من البلدان الغربية في حين ان حجب النفط الكلي يستهدف جميع البلدان الغربية — اذا قيل هذا كان ردنا ان البلدان ذات النزوع للعمل العسكري في كلتا الحالتين هي البلدان نفسها ، وبالتحديد الولايات المتحدة وبريطانيا (خاصة البلد الأول) ، ولذلك فينبغي عدم استبعاد الرد العسكري وان يكن احتمال الان اضعف منه في سياسة الحجب الكلي . وهنا ايضا فقد يستهدف العمل العسكري بلدا عربيا واحدا أو أكثر .

ج — نقطة الضعف الأخيرة هي الفرضية التي تقوم عليها سياسة حجب النفط عن عدد محدد من البلدان الغربية والقاتلة بأن هذه السياسة يلزمها عمل عربي موحد . ونحن احتراما منا للواقع وتحاشيا للتجريد المثالي نعتقد ان شرط الالتزام العربي الواحد غير المتحفظ والمشاركة بالعمل الموحد الممتد زمنيا حتى يحقق أغراضه ، غير متوفر في الظرف العربي الحالي ، وليس من المنطق او حسن التصبر والتخطيط السليم ان تبني سياسة ذات أبعاد خطيرة كالسياسة المطروحة على اساس فرضية غير سليمة .

حصيلة هذا التحليل لسياسات التهديد بحجب النفط او حجبه ان قدرة الضغط العربية تكمن في هذه المجموعة اكثر مما تكمن في مجموعة سياسات التهديد بالتأميم او تنفيذه . لكن هذه القدرة بسبب ضخامتها وفعاليتها تستثير على الأرجح ردود فعل غربية عنيفة بل قد تستدرج اجراءات عسكرية غربية (عدا الاجراءات الاقتصادية) لا نخال البلدان العربية في الوضع العربي الراهن تقبل بان تتعرض لها . لكن في النهاية تظل المسألة مسألة حرب أعصاب ، فالغرب يدرك ضعف مركزه لكنه يناور من نقطة ادراكه لضعف الفريق العربي الخائف على موارده المالية وعلى أمنه فيما اذا كان رد الفعل الغربي عسكريا . وليس المهم حقيقة انكشاف العرب بقدر ما هو اعتقادهم بانكشاف موقعهم . اما هذا الخوف فلا يبطله سوى الفهم العربي الحقيقي للوضع المقارن وارتفاع ارادة النضال لدى العرب .

٣ — السياسات الأكثر مداورة والتي تتعلق بممارسة سيطرة غير مباشرة على مشتري النفط

نأتي الآن الى مجموعة أخرى من السياسات او الاجراءات الجزئية التي يمكن ان تتخذ وتكون ذات أثر على السياسة الغربية عامة والاميركية خاصة ، وان يكن الاثر غير مباشر أو جزئيا . وسنعدد أربعة منها :

١ — الاجراء الأول هو قيام البلدان العربية النفطية بشراء أكبر نسبة ممكنة من أسهم شركات النفط ، ما كان يعمل منها في أراضي البلد المعني وما كان يعمل في أراضي عربية أخرى ، وذلك لغرضين اثنين ، أولهما السيطرة على السياسة النفطية لهذه الشركات بالمعنى الاقتصادي والتجاري للسياسة ، وثانيهما ممارسة ضغط سياسي على بلدان الغرب مما لا تمارسه الشركات الآن ، لصالح القضايا العربية عامة وقضية فلسطين خاصة . ومن الواضح في هذا الصدد انه لا يوجد أعضاء في مجلس

ادارة أي شركة حتى الآن يستطيعون ممارسة ضغط سياسي خارج النواحي المالية والإدارية البحتة ، على أن المستهدف هو ممارسة ضغط على سياسة البلدان التي تنسب الشركات إليها من خلال تقوية نفوذ الاعضاء العرب في مجالس الإدارة وتمكينهم بفضل نسبة الاسهم العربية المرتفعة من حمل هذه المجالس على أن تلعب دورا موازيا ومعدلا (بكسر الدال) لدور الاوساط المالئة للصهيونية في البلدان الغربية المعنية .

ب - الاجراء الثاني هو قيام بلدان النفط بالتهويل باسترداد أجزاء من مباحث الامتيازات النفطية بواسطة التشريع ، من أجل الاستثمار المباشر أو الاستثمار بالتعاون مع فرقاء غير غربيين أو مع فرقاء غربيين لقاء عمولة محددة - وذلك أيضا كوسيلة ضغط سياسي على البلدان الغربية ، إذ من المعلوم أن الشركات تحرص كثيرا على الاحتفاظ بالمقدار الأقصى من الأراضي المشمولة بالامتيازات الاصلية .

ج - الاجراء الثالث هو ايعاز سلطات بلدان النفط للععمال في الشركات بالتباطؤ في الانتاج وفي تحميل الناقلات (خاصة الناقلات العملاقة) لاشعار البلدان الغربية بقوة بلدان النفط العربية وبتصميمها على ممارسة الضغط السياسي على الغرب لصالح القضايا العربية عامة والقضية الفلسطينية خاصة .

الخلاصة التي تبثق عن هذه الاجراءات الثلاثة انها جميعا تهدف الى رفع قابلية التصديق لدى الغرب بصدد الموقف العربي والتصميم العربي على مناصرة قضايا العرب ، والى تصديق التهديد العربي بأن اجراءات أشد وطأة ستتخذ إذا لزم الامر وكانت الاجراءات ذات الاثر المداور قليلة الجدوى .

والجدير بالذكر أن اتخاذ هذه الاجراءات لا يتعارض مع اعتماد أي من السياسات الأخرى الا بمعنى أن الاجراءات متواضعة الاثر ، والتباطؤ في الانتاج هو طبعاً دون حجب النفط حدة وفاعلية ، واسترداد قسم من الامتيازات وشراء المزيد من أسهم الشركات هما دون التأميم سهولاً وفاعلية كذلك . وبالتالي تمكن المباشرة باتخاذ الاجراءات الثلاثة المبينة فوراً من قبل جميع البلدان المنتجة كمقدمة لاتخاذ ما هو أشد وأمضى من اجراءات .

د - أخيراً ، لا بد من التأكيد بأن هنالك جانباً ايجابياً ينبغي تقديمه وتوضيحه الى جانب السياسات المقترحة قبلاً والتي كانت بشكل عام ذات صفة سلبية بمعنى انها كانت تهدف الى خلق ضغط على الغرب من خلال ايقاع الاذى بمصالحه . هذا الجانب هو تنمية قطاع النفط العربي وتقويته بفضل تنمية صناعات الغاز والتكرير والبتروكيمياويات وتنمية النقل البحري وخدمات تأمين النفط ، من أجل تحقيق مورد دخل مرتفع بديل يعوض الى حد ما عن الانخفاض في مورد تصدير النفط الخام فيما اذا اتخذت البلدان العربية اجراءات تحد من تصدير النفط الخام ، كما تحقق السياسة مزيداً من السيطرة في حال استمرار التدفق . وما ينطبق على تنمية قطاع النفط الوطني ينطبق بشكل أوسع على تنمية الاقتصادات العربية ككل لان ذلك يجد من الاذى الذي تصاب به اذا اتخذت البلدان العربية اجراءات ردعية ضد الغرب من شأنها ان تؤدي بمورد النفط الى الهبوط . غير اننا بحثنا موضوع التنمية من زاويته الواسعة في القسم الاول حين عالجت دور النفط في تنمية القدرة العربية الذاتية .

٤ - سياسات أخرى

سنعرض سياستين في هذه المجموعة يصعب تصنيفهما تحت أي من المجموعات السابقة ، اولاهما فرض رسم تصدير انتقائي لدعم الجهود الحربية العربي .

طرحت هذه السياسة كاجراء زجري ومالي في اعقاب حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . وقالت بفرض رسم تصدير قدره ٢٠ سنتاً أميركياً على كل برميل نفط يصدر من البلدان

العربية (مرة واحدة او تدريجيا) لتمويل عمليات التعمير والتسلح العربية . وقد استندت هذه السياسة الى الحجج التالية تبريرا :

أ - ان فرض الرسم اجراء سهل التطبيق .

ب - ان الاجراء يمكن ان يكون انتقائيا في التنفيذ ، أي ان البلدان الصديقة المستوردة للنفط يمكن أن تدفع لها رديات معادلة للرسم المدفوع أو ان تستثنى منذ الابتداء من الرسم ، وهكذا تقع وطأة الرسم المفروض على البلدان العدوّة المساندة لاسرائيل (وعلى رأسها كما كان مقترحا في السياسة المطروحة الولايات المتحدة وبريطانيا والمانيا الاتحادية وهولندا) .

ج - ان النفط العربي منخفض الاكلاف وبالتالي فان سعر البيع يستطيع ان يستوعب الرسم المفروض . وطبعي ان نسبة ما كانت الشركات المنتجة للنفط مستقدر على تحويله من الرسم للمستهلك النهائي ، ونسبة ما كانت ستضطر هي ذاتها لتحمله ، تتوقف على مرونة الطلب لجهة سعر البيع . وفي كل الاحوال كان الاعتقاد بأن رسم التصدير لن يعدل نمط الاكلاف العالي بحيث تتمكن الشركات من التحول بسببه عن النفط العربي الى سواء ، أولا لاستحالة التعويض عن النفط العربي في المدى الزمني القصير أو المتوسط ، وثانيا للميزات التي يتمتع بها النفط العربي من حيث كلفة الانتاج . الضعف الاساسي في هذه السياسة انها مالية في طبيعتها وليست في ذاتها كافية للتاثير في السياسات الغربية المناصرة لاسرائيل والمساندة لها - خاصة سياسة الولايات المتحدة . فرسم التصدير يمكن استيعابه - وقد امتصت شركات النفط والبلدان التي تنتسب هذه الشركات اليها اكثر من الرسم المقترح منذ منتصف ١٩٦٧ خلال الاتفاقيات الجديدة في مطلع ١٩٧١ ومطلع ١٩٧٢ مع البلدان المصدرة للنفط . كما ان اتاحة المزيد من الموارد المالية للجهود الحربي العربي بفضل سياسة كالسياسة المطروحة لا يضمن **القيام الفعلي** بمجهود حربي من الناحية الأخرى . ولهذا نعتقد ان هذه السياسة تخطتها الاحداث لان الغرض الاساسي الذي من اجله طرحت لم يعد قائما مع التصاعد الشاهق في العائدات النفطية للبلدان العربية بين صيف ١٩٦٧ وربيع ١٩٧٢ ، ولان اثر السياسة المالي اضعف من أن يحمل البلدان الغربية على اجراء التبدل المنشود في سياساتها من قضية فلسطين . فاذا فرض رسم تصدير من الارتفاع بحيث شكل عبئا غير مقبول على المستورد نتج عن ذلك توقف التصدير فعلا أي تصبح السياسة المطروحة كسياسة حجب النفط ، وقد عرضناها وجللنا آثارها اعلاه بما لا يضطرنا لاعادة العرض والتحليل هنا .

باختصار ، ان فرض رسم تصدير اما ان يكون سياسة ضعيفة وغير ذات اثر اذا كان الرسم منخفضا ، أو ان يكون كسياسة حجب النفط اذا كان الرسم مرتفعا جدا .

السياسة **الثانية** ضمن المجموعة الحالية ما لا نستطيع افضل من تسميته « سياسة اللاسياسة » .

نعني بهذه السياسة ترك الامور على ما هي عليه الان ، أي الاستمرار بالسعي لتحسين شروط الاتفاقيات بين البلدان المصدرة للنفط والشركات المستثمرة ، وبرفع مستوى الصادرات الكمي ، وبالتالي الاستمرار بتحسين الوضع المالي للبلدان المصدرة باضطراد لكي ترتفع قدرتها على تحمل اعباء الدفاع المتزايدة وقدرة بعضها على التبرع لدعم الصمود . من هنا كانت تسميتنا لهذه السياسة « باللاسياسة » لانها في الواقع تقوم ضمنا ان لم يكن صراحة على مبدأ عدم استخدام النفط سلاحا او وسيلة ضغط فعال على العالم الغربي وعلى مبدأ عدم المجابهة المباشرة مع بلدان العالم الغربي - بالاختصار فهي تقوم في جوهرها على اساس ابقاء الوضع على ما هو عليه - مع

تحفظ هام بصدد نمط الوضع الراهن : هذا التحفظ يتعلق ببدا المشاركة العربية برأس مال الشركات ، ونقصد به ان المشاركة - الى جانب كونها عملية ذات مظهر مالي ودخلي الا انها في الوقت ذاته ذات دلالة سياسية وقومية ، لانها تمكن البلدان النفطية من ممارسة مقدار من السيطرة (يتناسب مع حجم المشاركة ومع موقف الفريق العربي وكيفية تحديده لدوره) على السياسات النفطية وبالتالي على سياسات البلدان التي تنتسب شركات النفط اليها .

من الواجب الاعتراف ، قبل المضي في تحليل سياسة اللامسياسة ، ان بعض المجابهات الماضية التي أدت الى قطع النفط كانت لاغراض سياسية تتعلق بقضية فلسطين ومفترعاتها وليس لغرض جني المزيد من العائدات النفطية . اي ان البلدان المصدرة للنفط (او بلدان المرور) التي تصرفت في الماضي بشكل يحد من تدفق النفط او يوقفه ، قبلت مبدأ المجابهة مع الغرب . لكن الواقع ايضا ان جميع هذه المجابهات لم تكن حاسمة ، فهي اما كانت قصيرة المدى فلم تمتد زمنيا حتى نقطة الحرج ثم الحسم بالنسبة للاسواق الغربية ، او هي لم تكن شديدة الوطأة لانها اقتصرت على عدد قليل من بلدان النفط او هي اخيرا لم تطبق بدقة تمنع تسرب النفط الى من كان يراذ حرمانهم منه . وفي كل الحالات فقدت المجابهات قابليتها للتصديق بسرعة بما رافقها من شكوى وتخوف عربيين من ان وقف النفط سيؤثر سلبا في الاوضاع المالية والاقتصادية العربية ، او بما لازمها من اعتقاد بان الغرب سيعدل موقفه السياسي ايجابيا وبسرعة ، دون ان يقوم هذا الاعتقاد على قاعدة موضوعية صلبة ودون ان يتمتع بخلفية تاريخية تبرره .

اذن فان المجابهات الماضية لا تصلح لان تعتبر سابقة لتوقع مجابهات مقبلة حاسمة يكون العرب مستعدين فيها لان يوصلوا السياسة المختارة الى نقطة الحسم او على الاقل الى مستوى الحرج . ومن هنا تكتسب سياسة اللامسياسة اغراءها وجاذبيتها لانها من جهة تتحاشى المجابهة التي يبدو ان درجة القبول بها منخفضة جدا ، ومن جهة اخرى توفر على البلدان العربية مخاطر المجازفة (الاقتصادية - السياسية - العسكرية) المترتبة على المجابهة ، ومن جهة ثالثة تضمن لهذه البلدان موارد مالية يصح اتخاذها مبررا لسياسة الاستمرار لانها - اي الموارد - يمكن ان تبرز على انها قادرة على دعم الصمود وتمويل حاجات الدفاع الى جانب حاجات الاستهلاك والانهاء في البلدان المعنية .

لكن مهما يكن من امر ، فان سياسة اللامسياسة او سياسة الاستمرار ضمن خطوط الوضع الراهن لا تصلح وسيلة ضغط على الغرب والدليل على ذلك ان البلدان العربية عاجزة عن ممارسة اي ضغط بفعالها . « فحسن السلوك » الذي يعتبره بعض انصار هذه السياسة اقوى عناصرها في التعامل مع الغرب ليس له مكان في قاموس التعامل السياسي ، حيث يتأثر التعامل بنمط توزيع القوى وبممارسة القوى لقوته او بتهديده المتنع والقابل للتصديق باستعداده لممارستها ، اما لردع الخصم او لتصحيح مواقفه . ثمة سبب آخر يحملنا على التقليل من قيمة سياسة الاستمرار في نطاق السياسات المطروحة في هذا البحث ، هو ان مبررها المالي لا يشكل حجة تحمل على القبول بها . فقدرة هذه السياسة على توفير المزيد من الموارد المالية الضخمة للبلدان المصدرة للنفط امر لا ريب فيه . لكن الحاجة ليست الى المزيد من الاموال ، والمال ليس عنق الاختناق الاساسي الذي يمنع الجانب العربي من ممارسة وزنه السياسي لتعديل موقف الجانب الغربي . وكما بينا قبلا فان عنق الاختناق هو عدم توفر ارادة المجابهة والنضال واستخدام جميع الموارد والقبول بالتضحيات لصالح القضية الفلسطينية .

٥ - السياسات المشتركة بين التأميم وحجب النفط

لعل هذه المجموعة أكثر المجموعات فاعلية لأنها تتمتع بمرونة فائقة منبثقة عن إمكان استخدام التهديد بالتأميم (أو التأميم) والتهديد بحجب النفط (أو حجبه) في تمازجات مختلفة وضمن برنامج تدرجي ، كما يمكن التهييط فيها من خلال عنصر حجب النفط الذي يمكن تصعيده وتهيبطه . أما ميزاتها الأخرى والتي يرجح أن تعوض عن نقاط الضعف الكامنة في مجموعة سياسات التأميم ومجموعة سياسات الحجب كل على حدة فستتضح من خلال التحليل كما سنشدد عليها في ختام التحليل .

وبالرغم من أن هذه المجموعة يمكن أن تضم صيفا مختلفة فإننا سنتكلم عن إحدى هذه الصيغ كهيئة لتمازج معين لعنصري التأميم والحجب .

تقول هذه السياسة بخطوات تدرجية تقوم بها بعض البلدان النفطية لأكملها (على أن يظل الباب مفتوحا أمام البلدان الأخرى للمشاركة) وتوجه الخطوات صوب بلد غربي واحد هو الولايات المتحدة . وبالتفصيل تتضمن السياسة الإجراءات التالية :

أ - تركز السياسة في الأساس على العراق وليبيا ومصر وسورية والجزائر . أما في المرحلة الأولى فتركز على البلدان الثلاثة الأولى . وبما أن العراق قد أمم المصالح غير الفرنسية في مجموعة شركة نفط العراق في أول حزيران (يونيو) ١٩٧٢ ، تقوم ليبيا ومصر بموجب هذه السياسة بالإنذار بأنها ستؤمم أسهم الشركات الأميركية العاملة على أراضيها والتي يشكل نصيبها من الإنتاج الإجمالي للبلدين ٨٢ بالمائة (٨٦٪ في ليبيا و ٤٦٪ في مصر ، وقد كانت النسبة الإجمالية قبل التأميم ٦١،٤٢ بالمائة نظرا لكون المصالح الأميركية في العراق كانت تبلغ ٢٣،٧٥٪) ، ما لم يحدث تبدل واضح في موقف واشنطن من القضية الفلسطينية . فإذا لم تكن الاستجابة مرضية ، ينفذ التأميم فعلا ، مما يرفع المصدقية العربية فوراً ويعيد إليها بعض الاحترام .

ب - إذا لم يكن من أثر سياسي إيجابي لهاتين الخطوتين ، أو كان أثرهما ضئيلا ودون مرتبة معينة تكون البلدان المعنية قد حددتها مسبقا ، أو أتت برد فعل عكسي ، تقوم البلدان الثلاثة زائدا سورية والجزائر (زائدا أي بلد آخر يود المشاركة في تنفيذ السياسة بشكل طوعي) بالإنذار بحجب النفط والغاز عن الولايات المتحدة . فإذا جرى تجاهل الإنذار أيضا ، يصار إلى حجب النفط والغاز ضمن برنامج تدرجي (أي حجب نسبة مئوية يصار إلى تصعيدها بموجب الإنذار المحدد) .

ج - إلى جانب هذه الخطوات من البلدان الخمسة ، تقوم بقية البلدان العربية المصدرة للنفط بتحديد الإنتاج لكي لا يتمكن أي بلد من استيراد فوق ما كان يستورده قبلا من النفط منعا لتسرب المزيد من النفط العربي إلى الولايات المتحدة ، وكوسيلة للضغط على البلدان الغربية لتضغط بدورها على الولايات المتحدة لصالح قضية فلسطين .

تقوم السياسة المقترحة على ثلاث فرضيات أساسية : الأولى أن الولايات المتحدة هي مركز الثقل في المساندة الغربية لإسرائيل وهي البلد الذي يمكن الاستعمار الصهيوني من الرسوخ والامتداد ومن تحدي الأسرة الدولية وأثرب على السواء ، لذلك ينبغي أن توجه أية إجراءات زجرية في الوضع الراهن إلى الولايات المتحدة . الثانية أن الدول الغربية الأخرى بالرغم من الدور الذي قام به بعضها في فتح أبواب فلسطين أمام الصهيونيين ومساندتهم ماليا وسياسيا ومعنويا هي ذات أثر سياسي ضئيل اليوم بالنسبة لقضية فلسطين ومن الواجب تحييدها على الأقل ، وفي أحسن الاحتمالات جعلها تصبح نصيرا للعرب في الضغط على الولايات المتحدة . الثالثة أن البلدان العربية الخمسة المذكورة قادرة على اختطاط سياسة مشتركة بصدد التأميم وهي على درجة من

القبول لفكرة التأميم أكثر من سواها ، كما أنها أيضا قادرة فنيا على تحمل نتائج التأميم — ولهذا كان اختيارها دون سواها من البلدان العربية النفطية .

تتميز السياسة المطروحة بعدة ميزات أهمها :

أ — أنها واقعية في فرضياتها إذ تقصر إجراءات التأميم على مجموعة من البلدان العربية أكثر استعدادا للقبول به من سواها . (ليس في الجزائر وسورية شركات أميركية عاملة ذات شأن) .

ب — أنها واقعية لجهة الهدف بحيث أنها توجه الضربة الأولى تجاه العدو الغربي الأكبر لقضية فلسطين أي الولايات المتحدة .

ج — أنها تعتمد التدرج والرحلية فتضغط تدريجيا على الولايات المتحدة وتعطيها فرصة أولى لتعديل سياستها العربية ، فإذا لم تتجاوب الولايات المتحدة فان السياسة تقول بتصعيد الإجراءات كما بينا .

د — أنها تميز بين الولايات المتحدة وبقية البلدان الغربية وتعطي الانطباع بالروية والروية والتميز بين بلد هو عدو مكشوف وبلدان أخرى عداؤها محدود الأثر أو هي محايدة تجاه العرب .

هـ — أنها لا تتطلب من البلدان العربية المصدرة للنفط خارج الخمسة التي عدناها اتخاذ خطوات مرهقة ماليا أو محرجة سياسيا وجل ما تطلبه منها هو تحديد الإنتاج لكي لا تملص أميركا من فعل خطوتي التأميم وحجب النفط من جهة ، ولكي تجهد البلدان الغربية الأخرى بسبب تحديد تدفق النفط إليها للضغط على الولايات المتحدة . أما مقدار التحدد فينبغي إقراره بعد دراسة ومشاورات بين البلدان العربية المعنية ، لكنه في أكثر صورته تواضعا يعني تجميد الإنتاج على مستواه السابق للتحدد . وبالطبع فان البلدان التي يطلب إليها التحدد لن تشكو أزمة مالية بالنتيجة ، أولا بفضل ما لديها من احتياطي مالي كبير وثانيا لأنها ستستمر بالأفادة من عائدات نفطية ضخمة وان تكن غير متصاعدة .

و — أنها تتحاشى السياسات الكلية أو القائلة بتطبيق مبدأ الضربة الواحدة التي مر ذكرها بما رأينا انه يوافق تلك السياسات من احتمالات خطر على البلدان العربية كلها أقله ذو صفة اقتصادية واقصاه ذو صفة عسكرية .

ز — أنها تجسد مبدأ « العصا والجزرة » أو العقاب والثواب في انها تتضمن وسائل الإكراه ووسائل الترغيب في آن واحد وضمن قابلية الاستخدام المرن .

غير ان السياسة المطروحة — بما تتمتع به من مرونة وتدرج واعتدال نسبي تنكشف للنقد لأنها لا تعطي الانطباع بانها موجهة جدا وبشكل درامي . على اننا نعتقد أن ميزات هذه السياسة وسيئاتها ، بالمقارنة مع السياسات المعروضة قبلا ، تحمل على الاعتقاد انها في ظل الظروف العربية الراهنة أصلح السياسات البديلة في صافي التحليل النهائي لغرض استخدام النفط العربي وسيلة ضغط ، من أجل تحقيق تعديل اساسي في السياسة الأميركية من قضية فلسطين . فمع ان سياسة حجب النفط عن جميع بلدان الغرب من قبل جميع البلدان النفطية العربية تبدو وكأنها سياسة فضلى ، الا انها سياسة متسرعة في التصفيد ومفرقة في الشمول ، ولعلها تجسد حالة اليأس النهائي الذي يتخذ التصرف العربي معه موقفا متطرفا يكاد يكون انتحاريا في أقصى حالاته . ومن الواضح ان هذه السياسة الكلية القائمة على مبدأ « الضربة الواحدة » تلائم حالة الأزمة القصوى التي تنشأ فيما اذا اندلعت حرب عربية — اسرائيلية جديدة ولم يعد الطرف يسمح بالتصعيد المثالي وبالتدرج البطيء . من هنا كان تفضيلنا للسياسة

الآخيرة المعروضة أي سياسة تمازج التأميم والحجب ضمن صيغة متدرجة مرنة .

ينبغي توضيح ثلاثة أمور ختاماً لهذا التحليل الدائر حول دور النفط كجهاز ضغط على القوى الخارجية :

١ - الأمر الأول هو أن مناقشة السياسات المطروحة تقوم على أساس وضع عربي رآهن وأن تفضيل سياسة ما على سياسة أخرى يتبدل حتماً إذا تبدل هذا الوضع صوب مزيد من التعاون العربي ومزيد من الالتزام الفعلي بقضية فلسطين والعمل لها اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً ، ومزيد من القبول بالمخاطر والأعباء التي تترتب على هذا العمل . كما تقوم مناقشة هذه السياسات على أساس افتراض حالة اللاحرب مع إسرائيل . فإذا نشبت الحرب معها وقامت الولايات المتحدة بمساندة إسرائيل تصبح السياسات الأكثر « تطرفاً » أكثر جاذبية وأجدر بالاختيار لأنها تكون أكثر جدوى وهسماً .

٢ - الأمر الثاني هو أن انتقاء سياسة نفطية ما لا يعني الاقتصار على هذا الإجراء في المجابهة مع الغرب . فهناك نواح إيجابية طويلة الأمد ينبغي اعتمادها تدور حول رفع الفاعلية الاقتصادية العربية والإنماء العربي بشكل عام ، مما يقوي ساعد المجتمعات والاقتصادات العربية في مجابقتها مع الغرب ويجعلها أكثر قدرة على تحمل آثار المجابهة السلبية وأعبائها النفسية والمادية .

٣ - الأمر الثالث هو أن انتقاء سياسة ما بين السياسات المطروحة هنا ، أو سواها ، واعتماد هذه السياسة ، يلزمه استيفاء خمسة شروط ليصبح فعالاً ولكي تؤدي السياسة المنتقاة بالتالي إلى أغراضها المستهدفة :

١ - أن يحافظ على السرية التامة قبل التطبيق ، لأن الإعلان دون خطة مرسومة من شأنه ألا يحمل على محمل الجد على الأرجح بالنظر لهبوط درجة قابلية التصديق لدى الغرب ، ولأن الفريق العربي يخسر عنصر المفاجأة ويعطي الفريق الغربي المجال لاحتياط السياسة أو للاحتياط لآثارها . إذن فالإعلان ينبغي أن يكون جزءاً من الخطة ذاتها .

ب - أن يتم الالتزام بدقة بالسياسة المنتقاة ، بتفاصيلها التي يتفق عليها ، وأن يستمر التضامن بين الفرقاء المسند اليهم تطبيق السياسة .

ج - أن يرافق التطبيق الإدراك المسبق أن المجابهة سلاح ذو حدين وأن يرافقه القبول بالأعباء التي تترتب على المجابهة بعد أن تكون الدراسة الدقيقة قد أثبتت أن حصيلتها حساب المجابهة هي في الصالح العربي .

د - أن تعتبر البلدان العربية المعنية بأية سياسة منتقاة أن فاعلية المجابهة تكمن في استنهارها حتى مستوى الحرج ومن ثم مستوى الحسم ، وأنه إذا جرى تطبيق السياسة لفترة ما أدنى من ذلك المستوى (لمجرد المشاركة العاطفية أو تسجيل المواقف) فإنها لن تكون ذات أثر وستفشل ، والآخرى بها عندئذ لا تعتمد على الإطلاق كي لا يتحول التهديد بها إلى مهزلة - مأساة .

هـ - أن لا يحصل تردد بعد مباشرة تطبيق السياسة المنتقاة ، وأن تطبق باقتراب وجرأة ، ولا يشعر الخصم بالتردد والضعف واستغله لاحتياط السياسة بطريقة أو بأخرى من طرق الإرهاب وحرب الأعصاب .

ثالثاً : الضغط الإسرائيلي المعاكس

السؤال الثالث الذي ينبغي أن نطرحه الآن هو : ما هي القدرة الإسرائيلية المضادة ، أو الضغط الإسرائيلي المضاد الذي يمكن ممارسته لمنع العرب من استخدام النفط

كجهاز ضغط ؟ بعبارة أخرى ، ما هي قدرة الردع الاسرائيلية التي من شأنها منع العرب عن استخدام النفط كجهاز ضغط ، وما هي قدرة اسرائيل على التصرف اذا جرى هذا الاستخدام ؟

انطلاقا ، ينبغي ان يؤكد ان قدرة الردع ليست بالضرورة القدرة العسكرية ، وان تكن القدرة على القيام بعمل عسكري رادع ، او عمل عسكري لاحق لاستخدام النفط ، متوفرة لدى اسرائيل وكان استخدامها واردا في اي حال . فمن الممكن ان تقوم اسرائيل بالدور نفسه الذي قامت به عام 1956 في مهاجمة سيناء حين تصرفت نيابة عن بلدين غربيين حماية لما اعتبراه مصلحة حيوية لهما ، واصالة عن نفسها لضرب مصر قبل ان يتدرب جيشها على استعمال السلاح السوفياتي الذي كان قد وصل حديثا . وعلى اي حال فان المصلحة الحيوية الغربية اكثر وضوحا واعظم شأنًا بالنسبة للنفط مما كانت بالنسبة لقناة السويس ، ولا ينبغي اسقاط احتمال تكليف العرب لاسرائيل لتقوم بعمل عسكري ، او لتلوح بعمل عسكري ، من شأنه ردع العرب عن استخدام النفط بشكل فعال ضد القوى الغربية ، او فيها اذا جرى الاستخدام من شأنه ضرب العرب بسرعة وحسم لايقاف الاجراءات النفطية التي تكون قد اتخذت .

هذا هو الجواب البديهي للسؤال الذي طرحناه حول قدرة اسرائيل على ممارسة ضغط معاكس للضغط العربي النفطي . على ان هنالك نواحي اخرى ليس اي منها بارزا لكنها في مجموعها تعطي اسرائيل وزنا دوليا يجعل الغرب يعير هذا البلد اهتماما ما كان ليعيره اياه لولا هذه النواحي . اي ان استعداد الغرب للرضوخ للضغط النفطي العربي يحده او يخفف من وزنه اربعة عوامل هي : **اولا** ، احترام الغرب لاسرائيل كبلد متقدم وعصري نجح خلال حقبتين ونصف في توطيد مركزه وترسيخ اقدامه وسط محيط عربي ضخم ومعاد . **ثانيا** ، احترام الغرب لاسرائيل كمجتمع ذي تجربة اجتماعية تدعو للانتباه على الاقل في نواح ثلاث هي : استيعابه اعداد ضخمة من المهاجرين ، واقامة المستعمرات التعاونية (الموشافيم) والاشتراكية (الكيبوتسيم) وقيام هذه بدور فكري وعقائدي وقيادي رائد ، وتحديث جهاز الدولة والمجتمع . **ثالثا** ، اطمئنان الغرب الى قدرة اسرائيل على الحفاظ على شريان نفطي هام هو خط آيلات عسقلان - وتوسيع هذا الشريان ان لزم - ليقوم بنقل النفط الايراني الى المتوسط متحاشيا قناة السويس ، وينقل اي نفط عربي يمكن الحصول عليه بالتحايل في صيغ معروفة (وان تكن هنالك صعوبة في اثبات حصولها) . **ورابعا** ، اطمئنان الغرب الى قدرة اسرائيل العسكرية على الردع او ممارسة العمل العسكري الفعلي بنجاح - دفاعا عن نفسها وعن مصالح اصدقائها الغربيين على السواء ، مهما كان تعريف مصطلح « الدفاع » و « المصالح » . اذن نستطيع ان نستنتج ان هذه العوامل الاربعة في مجموعها تشكل بوضوح قدرة اسرائيلية على ممارسة الضغط المعاكس للطاقة الغربية على الضغط وذلك في المدى الزمني القصير ، والمتوسط ، وربما البعيد ايضا ، وان تكن هذه القدرة مداورة لا مباشرة . واهم ما في الموضوع ان هذه العوامل - بسبب ما تخلقه من صورة خاصة لاسرائيل في الغرب وفي الوسط العربي على السواء - تصبح ذات اثر في توجيه التصرف العربي (او على الاصح عدم التصرف) ، بحيث ان العرب يشعرون بوجود قدرة اسرائيلية على الضغط المعاكس ، او هكذا يوحون . وفي حالة كهذه ان ما يشعر به الفريق المستهدف من الضغط المعاكس - اي العرب في السياق الحالي - له اهمية ملموسة ما دامت للضغط المعاكس قابلية التصديق . والقدرة الاسرائيلية تتمتع بهذه القابلية دون ريب لدى الغرب والعرب على السواء .

رابعا : الغرب والضغط العربي

بقي ان نطرح السؤال الرابع والاخير : ما هي قدرة الغرب على مقاومة الضغط العربي

النفطي ؟ وجوابنا نقول انه سبق ان بينا في القسم الثاني من هذا البحث ان قدرة الغرب قد تكون مباشرة على الصعيد العسكري او الاقتصادي او الاثني معا ، وقد تكون مدارورة كما بينا في القسم الثالث اي انها قد تتحقق من ضمن قدرة اسرائيل على ممارسة ضغط معاكس . وكذلك كنا قد بينا في القسم الثاني ان حاجة الغرب للنفط العربي من الضخامة بحيث لن يتوفر له نفط بديل خلال المدى الزمني المتوسط — اي في حدود خمس سنوات مقبلة — والغرب اذن والى هذا المدى ، لا قدرة له على الاستغناء عن النفط العربي وبالتالي التملص من اثر الضغط الذي يستطيع الغرب ممارسته . اما تحديد المدى الزمني الذي يقدر الغرب ضمنه على مجابهة الضغط العربي فامر معتد . فالغرب لديه هذه القدرة من خلال اسرائيل في المدى القصير والمتوسط ، ولديه هو ذاتيا قدرة الضغط العسكري المعاكس في حال حدوث ازمة حاسمة كحجب النفط . اما قدرته المنبثقة عن الاستغناء عن النفط العربي فغير واردة في المدى القصير او المتوسط ومنظلا محدودة في المدى الطويل .

هذا من حيث قدرة الغرب على مقاومة الضغط العربي من منطلقات خارج الوطن العربي . لكننا نعتقد ان الصيغة الاشد خطورة للقدرة الغربية تكمن في وتنتقل من قلب العالم العربي بالذات : انها حالة التفكك والخوف ، انها عدم القدرة على اتخاذ قرارات عربية شاملة حاسمة ، انها ضعف الارادة العربية في النضال . اذن فقدرة الغرب انما هي في المقام الاول في ضعف العرب وفي استمرار التصور الخاطيء — بل الاثم — لدى عدد من الدول العربية بان « حسن السلوك » العربي تجاه الغرب ككفيل في النهاية بان يجعل الغرب يتحول عن سياسته الحالية المناوئة للحق العربي في فلسطين والمالئة للدعاء الصهيوني وللوجود الاسرائيلي ، صوب وجهة النظر العربية .

لسنا نجزم بأن هذا التصور هو تصور صادق في كل الحالات . فلعل بعض الدول العربية غير مقتنعة به لكنها تدعيه لانه يعفيها من ممارسة ارادة النضال ضد الامبريالية الغربية ، ولعل البعض الاخر مقتنع به . لكنه في اي حال يعكس حالة المراهقة السياسية المسيطرة في بعض اجزاء المحيط العربي ، ويفضح ضعف الادراك لحقيقة الخطر الصهيوني الاسرائيلي وللإطماع التوسعية الصهيونية الاسرائيلية ، او انه — وهذا اخطر ما في الامر — يفضح قلة الاكتراث الصادق بمصر فلسطين وبالبحر العربي على السواء .

خاتمة

اتضحت فيما نعتقد الامور الجوهرية التالية :

- ١ — صلة النفط بالإطماع الامبريالية في المنطقة العربية وصلة هذه الإطماع بالاستعمار الصهيوني الاسرائيلي ،
- ٢ — الموقع الخطير الشأن والمتزايد الاهمية الذي يحضه النفط العربي في مجمل موارد الطاقة المتاحة عالميا ،
- ٣ — امكان استخدام النفط لتنمية القدرة الذاتية العربية في السياق الطويل ، وامكان استخدامه كجهاز ضغط جبار على القوى الغربية الامبريالية في السياق الزمني المتوسط ، لصالح القضية الفلسطينية ،
- ٤ — وجود عدة سياسات او صيغ لاستخدام النفط لغرض الضغط الفعال ، ووجوب اختيار السياسة او الصيغة المفضلة انطلاقا من الوضع العربي الراهن وتطلعا صوب وضع مقبل يرضي الطموح العربي برفع مستوى التعاون العربي ورفع فاعليته ورفع مصداقيته ،

٥ - بسبب تفتت ارادة النضال العربية اليوم والارتهان العربي للمكاسب النفطية ، وقوع العرب اسرى مواردهم النفطية وبالتالي شلل ارادتهم ، وصيرورة النفط عاملا مستمرا للوضع الاستسلامي الراهن بدل ان يكون عاملا ثمة وتبديل من اجل التحرير ،

٦ - كون الوضع الراهن اذن لجهة الافادة من النفط وضعا قاتما جدا ، ووجوب الافادة من النفط في المدى الزمني القصير والمتوسط اي قبل ان يطور الغرب موارد نفطية بديلة للنفط العربي ، من خلال سياسة تتمازج فيها اجراءات التأميم وحجب النفط ضمن خطة مرنة متدرجة ،

٧ - ختاماً واستطراداً ، وجوب حصول تبدل جذري في المجتمع العربي وفي اوساط سلطاته ، ووجوب تحقيق فهم افضل لحقيقة الخطر الاسرائيلي الامبريالي ، ووجوب تحقيق تماسك عربي اقوى ، ووجوب تبلور ارادة النضال شروطاً اساسية لتحول النفط الى اداة لتنمية القدرة الذاتية العربية والى جهاز ضغط فعال على القوى المعادية للقضية الفلسطينية . فان لم تستوف هذه الشروط ظل العرب اسرى نفطهم واموالهم ، رهائن الخوف وفقدان الثقة بالذات ، وحكموا على مصيرهم بالتأقزم .

ملحق احصائي

جداول ١ - ١٠

- (١) تقديرات الاحتياطي العالمي الثابت والمعلن للنفط الخام ، بنهاية ١٩٧٠ .
- (٢) تقديرات الاحتياطي الثابت والمعلن للنفط الخام في البلدان العربية ، بنهاية ١٩٧٠ .
- (٣) تطور انتاج النفط الخام في البلدان العربية ١٩٦٠ - ١٩٧١ .
- (٤) صادرات البلدان العربية من النفط الخام ١٩٦٥ - ١٩٧٠ .
- (٥) عائدات النفط للبلدان العربية ١٩٦٠ - ١٩٧١ وتقديرات ١٩٧٢ - ١٩٧٥ .
- (٦) تطور العرض والطلب على النفط الخام في العالم ، وفي الشرق الاوسط وشمال افريقيا : ١٩٦٠ - ١٩٧٠ وتقديرات ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ .
- (٧) تقديرات انتاج النفط الخام في البلدان العربية ١٩٧٢ - ١٩٧٥ .
- (٨) تقديرات صادرات البلدان العربية من النفط الخام ١٩٧٥ و ١٩٨٠ .
- (٩) استهلاك المصادر الاولية للطاقة في العالم الغربي ١٩٧٠ .
- (١٠) خلاصة للمصالح النفطية العربية في البلاد العربية .

جدول (1)

تقديرات الاحتياطي العالمي الثابت والمعلن للنفط الخام بنهاية 1970.

نسبته الى العالم %	الف مليون برميل	البلد او المنطقة
760	4647	الولايات المتحدة الاميركية
147	1044	كندا
246	1643	منطقة البحر الكاريبي
146	949	بقية نصف الكرة الغربي
1344	8342	جبله نصف الكرة الغربي
047	444	اوروبا الغربية
1241	7447	افريقيا
0044	24249	الشرق الاوسط
1741	10040	الاتحاد السوفياتي واوروبا الشرقية والصين
243	1444	بقية نصف الكرة الشرقي
8746	02744	جبله نصف الكرة الشرقي
8349	02047	العالم (باستثناء الاتحاد السوفياتي واوروبا الشرقية والصين)
10000	72047	العالم

ملاحظة : تشمل التقديرات للولايات المتحدة وكندا النفط الذي يعتمد بإمكان استخراجه من احتياطي الغاز الطبيعي .

المصدر : BP Statistical Review of the World Oil Industry, 1970 ص 4

جدول (٢)

تقديرات الاحتياطي الثابت والمعلن للنفط الخام في البلدان العربية بنهاية ١٩٧٠

نسبته الى العالم %	مليون برميل	البلد او المنطقة
١٤٩٣	١١٤٨٠٠	ابو ظبي
٠٠١٠	٦٣٤	البحرين
٠٠١٦	٩٨٣	دبي
٥٤٢٣	٣٢٤٠٠٠	العراق
١٠٠٩٧	٦٧٤٠٠٠	الكويت
٢١٤٠٢	١٢٨٤٥٠٠	السعودية
٤٤٢٠	٣٥٤٧٠٠	المنطقة المحايدة (السعودية والكويت)
٠٠٢٨	١٤٧٠٠	عمان
٠٠٧٠	٤٤٣٠٠	قطر
٠٠٢٠	١٤٢٠٠	سورية
٤٤٩١	٣٠٤٠٠٠	الجزائر
٠٠٧٤	٤٤٥٠٠	مصر
٤٤٧٨	٢٩٤٣٠٠	ليبيا
—	١	المغرب
٠٠٠٩	٥٥٠	تونس
٥٥٤٣١	٣٣٨٤٦٦٨	مجموع البلاد العربية
٨٣٤٥٩	٥١١٤٠٧٢	مجموع العالم (عدا مجموعة الدول الاشتراكية)
١٦٤٤١	١٠٠٤٣٢٥	مجموعة الدول الاشتراكية
١٠٠٠٠	٦١١٤٣٩٧	مجموع العالم

ملاحظات : (١) تختلف التقديرات باختلاف المصادر ، لمثلا توجد تقديرات في مجلة World Oil لنفس السنة مجموعها للبلدان العربية ٣٢١٤٤٠٩ ملايين برميل ونسبتها للمجموع العالمي ٥٨٤٨٢ بالمائة (على اساس ان المجموع العالمي بما في ذلك مجموعة الدول الاشتراكية هو ٥٤٦٤٣٦٤ مليون برميل) . والفرق كبير كما يبدو .

(٢) ان مصدر المعلومات في الجدول هو نفس المصدر الذي استند اليه التقرير الذي استقيناه منه معلومات الجدول (١) فيما عدا للولايات المتحدة وكندا . اما الفرق بالنسبة للاحتياطي العالمي فهو بسبب الاختلاف في اساس الحساب للولايات المتحدة وكندا حيث شمل الجدول (١) تقديرات استخراج النفط من احتياطي الغاز الطبيعي في البلدين ولهذا فان الاحتياطي العالمي في الجدول (١) يزيد عنه في الجدول (٢) بنحو ٩٤٣ مليون برميل .

(٣) الفروقات الكبرى بين تقديرات مجلة World Oil والمصدر المعتمد لهذا الجدول هي في : الجزائر ، السعودية ، الكويت ، ابو ظبي ، المنطقة المحايدة ، عمان ، ومصر .

المصدر : مجلة Oil & Gas Journal عدد ٢٨ ديسمبر ١٩٧٠ .

جدول (٧)

تطور انتاج النفط الخام في البلدان العربية ١٩٦٠ - ١٩٧١
(الانتاج السنوي مليون برميل)

البلد	١٩٧١	١٩٧٠	١٩٦٩	١٩٦٨	١٩٦٧	١٩٦٦	١٩٦٥	١٩٦٤	١٩٦٣	١٩٦٢	١٩٦١	١٩٦٠
أبو ظبي	٢٥٢٤٩	٢٥٢٢٢	٢١٦٤٤	١٨٢٢٦	١٢٦٤٢	١٢١٤٢	١٠٢٤٩	٧٨٤٢	١٨٤٢	٦٤٠	—	—
البحرين	٢٧٤٤	٢٨٤٠	٢٧٤٨	٢٧٤٥	٢٥٤٤	٢٢٤٥	٢٠٤٨	١٨٤٠	١٦٤٥	١٦٤٤	١٦٤٤	١٦٤٥
قطر	٤٥٤٦	٢٠٤٧	٢٥٨	—	—	—	—	—	—	—	—	—
البحرين	٦٧٢٢٢	٥٦٠٤٥	٥٥٢٤٠	٥٥٠٤١	٤٤٧٤٩	٤٥٠٦٦	٤٨٠٤٠	٤٥٦٤٨	٤٢٢٢٢	٣٦٦٤٦	٣٦٥٤٤	٣٥٤٤٦
الكويت	١٦٨٤٩٦	١٦٨٤٩٦	١٤٤٠٠	١٤٨٦٤١	١٢٦٤٧	١٢٦٤٧	١٢٦٤٧	١٢٦٤٧	١٢٦٤٧	١٢٦٤٧	١٢٠٤٢	٥١٤٤٢
المنطقة الحليّة	١٠٤٤٨	١٢٦٤٢	١٢٦٤٢	١٢٦٤٢	١٢٦٤٢	١٢٦٤٢	١٢٦٤٢	١٢٦٤٢	١٢٦٤٢	١٢٦٤٢	١٢٦٤٢	١٢٦٤٢
مصر	٦٢٤٧	٦٢٤٢	٦٢٤٢	٦٢٤٢	٦٢٤٢	٦٢٤٢	٦٢٤٢	٦٢٤٢	٦٢٤٢	٦٢٤٢	٦٢٤٢	٦٢٤٢
السعودية	٤٥٦٤٤	٤٥٦٤٤	٤٥٦٤٤	٤٥٦٤٤	٤٥٦٤٤	٤٥٦٤٤	٤٥٦٤٤	٤٥٦٤٤	٤٥٦٤٤	٤٥٦٤٤	٤٥٦٤٤	٤٥٦٤٤
الجزائر	٧٢٤٢	٧٢٤٢	٧٢٤٢	٧٢٤٢	٧٢٤٢	٧٢٤٢	٧٢٤٢	٧٢٤٢	٧٢٤٢	٧٢٤٢	٧٢٤٢	٧٢٤٢
مصر	٢٢٤٢	٢٢٤٢	٢٢٤٢	٢٢٤٢	٢٢٤٢	٢٢٤٢	٢٢٤٢	٢٢٤٢	٢٢٤٢	٢٢٤٢	٢٢٤٢	٢٢٤٢
ليبيا	٦٤٦	٦٤٦	٦٤٦	٦٤٦	٦٤٦	٦٤٦	٦٤٦	٦٤٦	٦٤٦	٦٤٦	٦٤٦	٦٤٦
البحرين	١٤٠	١٤٠	١٤٠	١٤٠	١٤٠	١٤٠	١٤٠	١٤٠	١٤٠	١٤٠	١٤٠	١٤٠
قطر	٦٢٤٢	٦٢٤٢	٦٢٤٢	٦٢٤٢	٦٢٤٢	٦٢٤٢	٦٢٤٢	٦٢٤٢	٦٢٤٢	٦٢٤٢	٦٢٤٢	٦٢٤٢
السعودية	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤
الجزائر	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤
مصر	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤
ليبيا	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤
البحرين	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤
قطر	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤	١٤٦٢٤٤

ملاحظة : (١) : تقديرات فقط
 Middle East Economic Survey
 المصدر : مجلة World Oil
 عدد ١٥ لسنة ١٩٧١ و Middle East Economic Survey

جدول (٤)

صادرات الدول العربية من النفط الخام (١) ١٩٦٥ - ١٩٧٠

(١٠٠٠ برميل / يوم)

النسبة لصادرات العالم من النفط %	البلد						
	١٩٧٠	١٩٦٩	١٩٦٨	١٩٦٧	١٩٦٦	١٩٦٥	
١٥٥٥	٢٤٢٢.٥٦	٢٤٧٩٤٤٧	٢٤٦٤٢٥٤	٢٤٤٢٩٥٦	٢٤٢٧٦٦٦	١٤٨٥٨٤٥	السعودية
١٢٤٠	٢٤٤٩٩٤٤	٢٤٤٤١٤٧	٢٤٣.٧٤٠	٢٤٢.٢٤٢	٢٤١٨١٤٨	٢٤.٣٥٤٣	الكويت (٢)
٧٤١	١٤٤٧١٤٢	١٤٤٤٥٥٤	١٤٤٢٩٤٢	١٤١٦٩٤٥	١٤٣١٩٤٥	١٤٢٥٢٤٩	العراق
٣٤٣	٦٩٤٤٨	٥٦٦٤٥	٤٩٥٥٤	٣٨١٤٠	٣٦١٤٤	٢٨.٠٤٢	ابو ظبي
١٤٧	٣٦٢٤٨	٣٥٣٤٠	٣٣٩٤٠	٣١٩٤٧	٢٩١٤٠	٢٦٢٤٧	قطر
١٤٦	(٣)٣٢٨٤٠	٣٢٨٤٠	٣٢٣٤٣	٦٧٤٤	—	—	عمان
١٥٤٩	٢٤٣١٢٤١	٢٤.٦٩٤٥	٢٤٥٨٢٤٤	١٤٧١٧٤٣	١٤٤٩٩٤٦	١٤٢١٢٤٧	ليبيا
٤٤٦	(٤)٩٤٨٤٠	٨٨٣٤٠	٨٦٧٤١	٨٦٨٤١	٦٧٤٤٧	٥٤٦٤٣	الجزائر
١٤٣	(٥)٣٦٢٤٠	١٩٤٤٣	١٤٤٣	—	٢٩٤١	٣.٤٤	مصر
.٤٣	٧.٤٠	٦.٤٥	٤٥٤٠	٢٣٤٨	١٣٤٠	—	تونس
	١٣٤١٦٨٤٩	١٣٤١٦٦٤٩	١١٤٠.٦٤١	٩٤.٧٨٤٦	٨٤٦٤٦٤٧	٧٤٤٤٣٤٠	العالم العربي
	٢.٤٧٩٥٤٠	٢.٤٦٣٩٤٩	١٧٤٦٥٨٤٨	١٥٤٣٩٧٤٨	١٣٤٨١٦٤١	١٣٤١٣٩٤٠	العالم
	٦٣٤٣	٦٣٤٣	٥٨٤٩	٦٣٤٣	٥٩٤٠	٦٣٤٦	نسبة العالم العربي للعالم %

ملاحظات : (١) بما فيه اعادة التصدير Reexports

(٢) باستثناء صادرات شركة Aminoli

(٣) تقديرات حسب نسبة الصادرات للانتاج في السنة الضابغة .

(٤) لم تظهر دبي بين المصدرين المسجلين في مصدر المعلومات اعلاه فاذا اضيفت كانت صادرات

١٩٧٠ نحو ١٣٤٣.٠٠٤.٠٠٠ برميل يوميا .

المصدر : مجلة World Oil ، اعداد مختلفة .

جدول (٥)

عائدات النفط للبلدان العربية ١٩٦٠ - ١٩٧١

وتقديرات ١٩٧٢ - ١٩٧٥

(مليون دولار)

السنة	ابوظبي	قطر	السعودية	الكويت(٥)	العراق	ليبيا	الجزائر	عمان	دبي
١٩٦٠		٤٩٦١	٣٣٣٦٧	٤٤٤٤٨	٢٣٩٤٦				
١٩٦١		٤٨٤٩	٣٣٧٤٦	٤٦٧٤٩	٢٣٨٤٩				
١٩٦٢	١٤٨	٥٠٤٩	٤٠٩٤٧	٤٨٤٤٤	٢٣٩٤٧	٣٩٤٨			
١٩٦٣	٥٤٨	٥٤٤٤	(١)٦٠٧٤٧	٥٣٣٤٧	٢٧٧٤٢	١٠٧٤٨			
١٩٦٤	١١٤١	٥٧٤٥	٥٢٣٤٢	٥٧٧٤٤	٢١٧٤٨	٢١٠٤٦			
١٩٦٥	٣٠٤٠	٦٢٤٢	(٢)٦٦٢٤٦	٦٠٥٤١	٢٣١٤١	٣٥١٤١			
١٩٦٦	٨٩٤٧	٨١٤٦	(٣)٦٨٩٤٧	٦٤٨٤٨	٣٥٤٤٨	٥٢٢٤٨			
١٩٦٧	٩٩٤٨	٩٦٤٠	(٤)٩٠٩٤١	٧٣٦٤٧	٣٣١٤٩	٦٢٥٤٢	١٩٩٤١		
١٩٦٨	١٦١٤٠	١١٧٤٤	٩٢٦٤٨	٦٩٠٤٢	(٥)٥١٢٤٣	١٤٠٠١٤٨	٢٦١٤٨		
١٩٦٩	٢٠٠٤٣	١٢٣٤٥	٩٤٩٤٠	٧٨٢٤٠	٥٠٣٤٠	١٤١٧٥٤٢	٢٩٨٤٨		
١٩٧٠	٢٤٠٤٧	١٢٨٤٥	١٤٢١٠٤٠	٨٣٣٤٦	٥٣٨٤٣	١٤٣٥١٤٣	٣٢٥٤٠		
١٩٧١	٤٢٠٤٠	١٩٠٤٠	١٤٩٠٠٤٠	١٤٣٩٠٤٠	٨٣٠٤٠	١٤٧٥٠٤٠	٣٢٠٤٠	١٣٠٤٠	٥٠٤٠
١٩٧٢	٥٤٣٤٢(٧)	٢٢٥٤٧	٢٤٣١٦٤٩	١٤٥٧٧٤٦	٩٢٧٤٥	٢٤٣٢١٤٢	٣٤٧٤٣	١٥٥٤٤	٦٠٤١
١٩٧٣	٦٨٠٤٩	٢٥٩٤٢	٢٤٧١٨٤٥	١٤٧٢٣٤٧	١٤٠٠٠٤٠	٢٤٩٦٦٤٧	٤٥٦٤٠	١٨١٤٠	٦٩٤٣
١٩٧٤	٨٤٩٤٩	٢٩٧٤١	٢٤١٨٣٤١	١٤٨٩٢٤٤	١٤٠٨٣٤٣	٢٤٧٨٣٤٩	٥٣٦٤٣	٢٠٨٤٩	٨٠٤٥
١٩٧٥	٩٤٠٦٧٤٤	٣٤٢٤٢	٣٤٧٢٠٤٠	٢٤٠٧٣٤٤	١٤١٧١٤٢	٤٤٨١٧٤٠	٦٢٩٤٤	٢٤٢٤٣	٩٣٤٢

ملاحظات : (١) بما فيه دفعات خاصة من ارامكو بمبلغ ١٥٢ مليون دولار .

(٢) بما فيه ضريبة اضافية بمبلغ ٤٦ مليون دولار .

(٣) بما فيه ضريبة اضافية بمبلغ ٢٩٤٤ مليون دولار .

(٤) بما فيه ضريبة اضافية بمبلغ ٢٣٤٤٦ مليون دولار .

(٥) ابتداء من ١٩٦٠ تنتهي السنة في ٣١ آذار .

(٦) بما فيه مقبوضات اضافية تساوي ٥ سنت عن كل برميل للفترة حزيران - كانون اول ١٩٦٧ .

(٧) احتسبت تقديرات عائدات ١٩٧٢ - ١٩٧٥ على النحو التالي :

أ - قدر معدل الزيادة السنوية في الانتاج لكل بلد على اساس معدل الزيادة السنوي

الوسطي من ١٩٦٥ الى ١٩٧٠ كما ورد في *BP Statistical Review of the*

World Oil Industry, 1970 ص ٨ - عدا عمان ودبي اللتين بدأ انتاجهما

متأخرا حيث احتسبت الزيادة بمعدل وسطي هو ١.٤٧ ٪ وهو معدل المنطقة ككل اذا

اخذنا الانتاج الفعلي في الفترة المبينة أي ١٩٦٥ - ١٩٧٠ .

ب - ضربت تقديرات الانتاج للسنوات ١٩٧٢ - ١٩٧٥ (الناجمة عن طريقة الحساب

اعلاه) بالعائدات الوسطية للبرميل الواحد محسوبة كما يلي :

١٩٧٢ - عائدات البرميل لسنة ١٩٧١ مضانها اليها ٨٤٥ ٪ .

١٩٧٣ - ١٩٧٥ - عائدات البرميل في ١٩٧٢ مضانها اليها ٤٤٥ ٪ سنويا لكل سنة .

المصدر : OPEC Annual Statistical Bulletin ومصادر خاصة .

جدول (٦)

تطور العرض والطلب على النفط الخام في العالم ، وفي الشرق الاوسط وشمال افريقيا

١٩٦٠ - ١٩٧٠ وتقديرات ١٩٧٥ و ١٩٨٠.

(الف برميل في اليوم)

السنة	الطلب	العرض	الشرق الاوسط وافريقيا	الشرق الاوسط وشمال افريقيا	نسبته الى العرض العالمي %
١٩٦٠	٢١٤٩٩٢	٢٢٤٠٨٢	١٤١٠٦	٥٤٤٦٩	٢٤٤٨
١٩٦١	٢٣٤٢٩٤	٢٣٤٥٥٨	١٤١٧١	٦٤٠٢٠	٢٥٤٦
١٩٦٢	٢٥٤٣٢١	٢٥٤٥٠٢	١٤٢٢٠	٦٤٨٥١	٢٦٤٩
١٩٦٣	٢٧٤١٨٠	٢٧٤٤٠٩	١٤٢٨٨	٧٤٨٧٦	٢٨٤٧
١٩٦٤	٢٩٤٣٣٢	٢٩٤٦٤٢	١٤٣٧٧	٩٤١٥٥	٣٠٤٩
١٩٦٥	٣١٤٦٩٧	٣١٤٧٩٢	١٤٤٨٣	٨٤٧٩٩	٣١٤٧
١٩٦٦	٣٤٤١٠٨	٣٤٤٥٠٢	١٤٥٥٩	١١٤٧٠٢	٣٣٤٩
١٩٦٧	٣٦٤٥٢١	٣٧٤٠٣٥	١٤٥٧٨	١٢٤٧٧٨	٣٤٤٥
١٩٦٨	٣٩٤٢٢١	٤٠٤٤٦٣	١٤٦٨٥	١٤٤٩٨٩	٣٧٤٠
١٩٦٩	٤٣٤٢٣٥	٤٥٤٢٨٧	١٤٨٢٩	١٦٤٤١٣	٣٦٤٢
١٩٧٠	٤٦٤٨٨٥	٤٧٤٧٤٧	١٤٩٨٢	١٨٤٩٨٠	٣٩٤٨
١٩٧٥	٦٣٤٧٦٤	٦٤٤٩٣٦	٣٤١٧١	٢٠٤٣٦٨	٤٥٤٨
١٩٨٠	٨٢٤٨٩٣	٨٤٤٤١٦	٥٤٠٧٣	٤٨٤٥٨٩	٥٧٤٦

ملاحظات :

- (١) بما فيه النفط الخام ، والغازولين الطبيعي ، الخ.
- (٢) لعدم توفر بيانات مفضلة احتسب عرض شمالي افريقيا بحسب انتاج افريقيا الوسطى والجنوبية من العرض لمجلد افريقيا .
- (٣) معدل الزيادة السنوي العالمي للعرض والطلب بين ١٩٦٥ و ١٩٧٠ هو ٨ % في المتوسط .
- (٤) تقديرات ١٩٧٥ للعالم احتسبت بمعدل زيادة سنوي قدره ٦ % عن سنة ١٩٧٠ في المتوسط .
- (٥) تقديرات ١٩٨٠ للعالم احتسبت بمعدل زيادة سنوي قدره ٥ % عن سنة ١٩٧٥ في المتوسط .
- (٦) التقديرات للشرق الاوسط وافريقيا احتسبت على اساس معدل زيادة سنوي للعرض والطلب قدره ١٠ % عن سنة ١٩٧٠ في المتوسط .

المصدر : World Oil اعداد مختلفة .

جدول (٧)

تقديرات انتاج النفط الخام في البلدان العربية ١٩٧٢ - ١٩٧٥
(بالالف برميل في السنة)

البلد	تقديرات		الانتاج الفعلي		معدل الزيادة السنوي % ١٩٦٥-٧٠
	١٩٧٥	١٩٧٤	١٩٧٢	١٩٧١	
ابو ظبي	٧٠٢٤٢١٠	٥٨٦٤١٥٢	٤٨٩٤٢٧٥	٤٠٨٤٤١٠	١٩٤٨
البحرين	٢٤٤٣٠٠	٢٢٤٤٢٠	٢٠٤٦٤٢	٢٨٤٩٦٣	٥٤٨
العراق	٧١٤٤١٢٢	٦٨٩٤٩٨٢	٦٦٦٤٦٥٠	٦٤٤٤١٠٦	٢٤٥
الكويت المنطقة	١٤٢٨٧٤٨٤٥	١٤٢٢٨٤٨٦٠	١٤١٧٢٤٥٧٧	١٤١١٨٤٨٧١	٤٤٨
الحايدة	٢٥٢٤٩٩٣	٢٣٨٤٩٤٠	٢٢٤٤٧٧٩	٢١١٤٤٥٧	٦٤٢
قطر	٢٢٨٤١٢٤	٢٠٧٤٧٦٢	١٨٩٤٢٢٠	١٧٢٤٢٣١	٩٤٨
السعودية	٢٤٥٨٢٤٣٥٧	٢٤٢٠٦٤٥٦٩	٢٤٠٥٩٤٤٢٦	١٤٨٢٨٤٧٨٢	١٢٤٠
الجزائر	٤٥٢٤٨٠٠	٤٠٢٤٢٠٥	٣٥٩٤٠٤٢	٣١٩٤٧١٨	١٢٤٢
ليبيا	٢٤٢٣٠٤١١٠	١٤٨٢٧٤٩٦٠	١٤٤٩٨٤٣٢٨	١٤٢٢٨٤١٢٧	٢٢٤٠
دبي	٦٨٤٥١٦	٦١٤٨٩٢	٥٥٤٩١١	٥٠٤٥٠٧	-
عمان	١٥٧٤٢١٢	١٤٢٤١٠٨	١٢٨٤٢٧٢	١١٥٤٩٦٤	-

ملاحظات : (١) حسب الزيادة المقدرة في الانتاج للسنوات ١٩٧٢-١٩٧٥ على اساس معدل الزيادة السنوي الوسطي الفعلي للسنوات ١٩٦٥ - ١٩٧٠ (عدا عمان ودبي اللتين باشرتا الانتاج متأخرتين) . وقد ظهر بنتيجة استخدام هذا الاسلوب ان المعدل الوسطي للسنوات ١٩٦٥ - ١٩٧٠ لجميع البلدان (عدا عمان ودبي) كان ١٠٤٧ % . وقد اعتمد هذا المعدل لتقديرات التزايد في الانتاج في عمان ودبي .

(٢) لم يحسب معدل الزيادة السنوي الفعلي لعمان لانه يشوه الصورة بسبب قفزة الانتاج المفاجئة بعد المباشرة به .

(٣) نسب الزيادة للفترة ١٩٦٥ - ١٩٧٠ مأخوذة من

جدول (٨)

تقديرات صادرات العالم العربي من البترول ١٩٧٥ ، ١٩٨٠
(١٠٠٠ برميل في اليوم)

النقطة	١٩٧٥	١٩٨٠
العالم العربي	١٩٤٩٥٠٠٠	٢٩٤٩٢٥٠٠
العالم	٢٩٤١١٢٠٠	٤٠٤٧٥٨٤٢
نسبة العالم العربي للعالم %	٦٨٤٥	٧٢٤٤

ملاحظات : (١) العالم العربي : السعودية ، الكويت ، العراق ، ايراني ، قطر ، عمان ، دبي ، ليبيا ، الجزائر ، مصر ، تونس .

(٢) ١٩٧٠ : الصادرات الفعلية .

(٣) معدل الزيادة السنوي التقديري للعالم العربي ١٠ % (مائدة بسيطة) .

(٤) معدل الزيادة السنوي التقديري للعالم ٨ % (مائدة بسيطة) .

جدول (٨)

استهلاك المصادر الأولية للطاقة في العالم الغربي ١٩٧٠
(الكميات بها يعادل ملايين الاطنان الغريبة من النفط)

المنطقة والدولة	المتوسط	الغاز الطبيعي	الوقود الصلبة	الطاقة المائية	الطاقة الذرية	المجموع	نسبته من
	مليون طن	نسبته من مليون طن	نسبته من مليون طن	نسبته من مليون طن	نسبته من مليون طن	مليون طن	نسبته من مجموع
	مليون طن	نسبته من مجموع	نسبته من مجموع	نسبته من مجموع	نسبته من مجموع	مليون طن	المجموع / الاستهلاك
الولايات المتحدة	٦١٦٤٦	٤٤٦	٥١٣٠	٣٢٦٨	٢٢٠	١٤٥٦٣٤٤	١٠٠٠٠
أوروبا الغربية	٦٧٧٤٨	٦٣٤٣	٦٤١	٣٠٤٤	٢٤٧	١٤٠٣٦٤٥	١٠٠٠٠
بعضها							
انكلترا	١٠٢٤٥	١٠٤٩	٥٤٣	٩١٤٤	٢٤١	٢٠٧٢٤٢	١٠٠٠٠
فرنسا	٩٤٤٦	٦٥٠	١٤٢	٣٧٤٣	٤٤٤	١٤٥٤٦	١٠٠٠٠
ألمانيا الغربية	١٣٠٤٧	٥٦٠	١١٤٨	٨١٠	١٤٢	٣٣٣٤٣	١٠٠٠٠
إيطاليا	٨٦٤٦	٧٧٤٣	١٤٩	١١٤١	٤٤	١١٢٤٠	١٠٠٠٠
اليابان	٢٠٠٤٣	٧٤٤١	٢٤٧	٥١٤٩	٤١	٧٧٠٤١	١٠٠٠٠
مجموع أوروبا الغربية والولايات المتحدة	١٥٥٢٤٤٦	٥٣٣	٥٧٨٤٩	٢٠٤٢	٢٤١	٢٤٨٦٠٤٠	١٠٠٠٠

ملاحظة : ان استهلاك الطاقة في هذا الجدول محسوب على الأساس ما يعادل كل منها بالاطن الغريبة من النفط .
المصدر : BP Statistical Review of the World Oil Industry 1970 ، ص ١٦ .

جداول (١٠)
 خلاصة المصالح النفطية الغربية في البلاد العربية

(بالنسبة المئوية)

الجزائر	ليبيا	البحرين	دبي	مجان	قطر	المنطقة المحيطة قطر	ابوظبي	العراق	السعودية	الكويت
١٦٨٠	٨٥٩٠	١٠٠٠٠	٦٦٤٦٦	—	١٢٤٢٢	٢٢٤٨٠	١٤٤٧٠	٢٢٤٧٥	١٠٠٠٠	٥٠٠٠٠
١٧٥٠	—	—	٢٢٤٢٢	—	٦٠٤٦٤	—	١٤٤٦٠	٢٢٤٧٥	—	—
٥٤٩٠	٢٠٠٠٠	—	—	—	٦٦٤٢٠	—	—	—	—	—
٦٤٧٠	—	—	—	٨٥٠٠٠	—	—	—	—	—	—
٢٤٢٠	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
٠٤٦٠	—	٢٤٧٠	—	—	—	٢١٤٠٠	—	٥٤٠٠	—	—
—	—	٠٤٢٠	—	١٥٤٠٠	٢٤٦١	—	—	—	—	—
—	—	—	—	—	—	—	—	—	١٠٠٠٠	١٠٠٠٠
١٤١٠٠	—	—	—	—	—	١٠٠٠٠	١٠٠٠٠	١٠٠٠٠	١٠٠٠٠	١٠٠٠٠
٤٤٠٠	٨٠٤٠٠	٠٤١٠	—	١٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠	١٠٠٠٠	١٠٠٠٠	١٠٠٠٠	١٠٠٠٠	١٠٠٠٠
١٠٠٠٠	١٠٠٠٠	١٠٠٠٠	—	—	—	—	—	—	—	—

ملاحظات : فيما عدا ليبيا احتسبت النسب اعلاه على اساس المشاركة النسبية للبلاد الاجنبية في الشركات المنتجة كما ورد في المصدر (١) ، موزونة بالنتائج هذه .
 الشركات لعام ١٩٧١ كما وردت في المصدر (٢) و (٤) .
 بالنسبة لليبيا : نفس الطريقة اعلاه ولكن باستعمال اوزان مختلفة هي انتاج الشركات في العام ١٩٧٠ كما وردت في المصدر (٣) .
 هناك مشاركة لا تذكر لبعض الشركات الامريكية في حصة فرنسا من التترول الجزائري .

- (١) Middle East-Africa Oil, Statistical Summary, Aug. 1970
- (٢) Middle East Economic Survey (MBEES), March 3, 1972
- (٣) Middle East Economic Survey (MBEES), March 3, 1972
- (٤) Middle East Economic Survey (MBEES), March 3, 1972

القوى السياسية الفرنسية والمسألة الفلسطينية

داود تلحي

سنقوم في هذا المقال ، باستعراض مواقف القوى المؤثرة في المجتمع الفرنسي تجاه « مشكلة الشرق الأوسط » . وتسهيلا لهذه المهمة ، سنعمد الى ترتيب هذه القوى على الاسس الرسمية التي تتبعها أجهزة الاعلام دون نقاش تناسب هذا الترتيب مع مواقع هذه القوى . سنلجأ اذا الى استعمال التقسيمات التالية :

١ - قوى اليمين واقصى اليمين : ويقصد بها عادة القوى الشوفينية المتخلفة والمتطلعة الى الماضي ، او القريبة من المفاهيم السياسية الفاشية . وهذه القوى تقليديا ضعيفة في فرنسا وتأثيرها الذاتي على المجتمع الفرنسي محدود جدا . وللتبسيط ولاعطاء فكرة أولية عن واقعها ، سنعطيهما نسبة ٥ بالمائة من القوة التمثيلية (لاسباب سنوضحها فيما بعد) .

٢ - الوسط : يستعمل هذا اللفظ ليشمل قطاعا غير واضح الحدود يمثل بقايا الديمقراطية المسيحية والتيارات الرأسمالية الليبرالية التقليدية . وللاسباب نفسها اعلاه ، سنعطيهما نسبة ٢٠ بالمائة .

٣ - الديغوليون : او الاغلبية الحاكمة منذ ١٩٥٨ وتشكل تجمعا غير متجانس يضم مجموعات من آفاق مختلفة بعض الشيء ، التفت حول ديغول لما يمثله من تجديد للمفاهيم القومية الفرنسية ، وبشكل سطحي نستطيع القول أن هذا التيار يمثل الرأسمالية « الوطنية » او المحلية الطامحة الى استقلال نسبي عن الرأسمالية العالمية (وبالذات الامريكية) . وسنعطى هذا التيار نسبة تمثيلية ٤٠ بالمائة .

٤ - اليسار المعتدل : ويشمل ما يسمى بالاشتراكيين الديموقراطيين ، دعاة الاشتراكية « الحرة » اي الإصلاحية ، وبشكل رئيسي بقايا الاممية الثانية . وسنعطى هذا اليسار نسبة تقريبية ١٠ بالمائة .

٥ - أقصى اليسار : ويضم جميع التنظيمات والقوى التي تتبنى الماركسية (والنظريات الجذرية القريبة منها) في اجتهاداتها ومدارسها المختلفة ، ويشكل الحزب الشيوعي القوة الرئيسية بينها . ويتبقى لها نسبة تمثيلية تقريبية ٢٥ بالمائة . ونكرر ان هذه النسب ليست الا لاعطاء فكرة اجمالية مبسطة ولا تشكل في اي حال ميزانا علميا للتأثير الحقيقي لكل هذه القوى . كما نؤكد على ان استعمال ألفاظ اليمين واليسار هنا هو اتباع لتسميات متعارف عليها ولا تغطي بالضرورة محتوى سياسيا واضحا (مفهوم اليمين قد يمتد ليشمل اجزاء كبيرة من المجموعات الاخرى) .

اقصى اليمين

كما ذكرنا اعلاه ، لا يشكل هذا التيار بقوته الذاتية عنصرا ذا تأثير واسع في الحياة السياسية الفرنسية ، على الرغم من أن بعض المفاهيم التي تشكل ايديولوجيته العامة منتشرة في اوساط عدة وعلى نطاق واسع . فالعنصرية (تجاه العرب بشكل خاص

والتعصب القومي المتطرف (الشوفينية) والعداء للاجنبي لها امتدادات في العائلات السياسية المختلفة . الا أن تجسيد هذه المواقف في تنظيمات سياسية كان يجد دائما في فرنسا صدى اقل منه في الدول الأوروبية المجاورة (ألمانيا واطاليا مثلا حيث تعود النازية مجسدة في الحزب القومي الديموقراطي والفاشية في الحركة الاجتماعية الإيطالية) .

واليوم وبعد فشل انصار استمرار الاستعمار في الجزائر في بناء قاعدة واسعة خارج مجموعات المستوطنين العائدين الى فرنسا ، لا يشكل أي تنظيم من تنظيمات هذا التيار حركة استقطاب هامة . وهكذا تلد التنظيمات وتموت أو تتكاثر دون أن تخرج التيار من قوقعته المتضائلة . وإذا اتخذنا النسب الانتخابية دليلا ولو تقريبا للاحظنا هذا التدهور . (لا بد من الإشارة الى أن كافة النسب التي نشر إليها هي نسب المعبرين عن مواقفهم السياسية ، وتستثنى إذا المتنعين عن التصويت الذين يشكلون عادة ٢٠ بالمئة من مجموع الناخبين وغالبيتهم من عديمي الاهتمام بالقضايا السياسية ، وقلة منهم من المقاطعين المبدئين) .

ففي انتخابات الرئاسة عام ١٩٦٥ فاز ممثل اليمين المتطرف تكسييه فينيانكور بنسبة تقارب ٥ بالمئة من الاصوات . وفي الانتخابات النيابية الأخيرة عام ١٩٦٨ حصل اليمين الرسمي على أقل من ٤٣ بالمئة . وفي مدينة باريس ، في الانتخابات البلدية عام ١٩٧١ فازت حركة (النظام الجديد) الأكثر تمثيلا لليمين المتطرف حاليا بنسبة تقارب ٢٦ بالمئة . والتيار بذاته ليس ممثلا الآن في أي من الأجهزة التمثيلية (البرلمان ، مجلس الشيوخ) ، ولن تقوم إذا بالاهتمام بهذا التيار بشكل مفصل ، متغاضين عن تعداد تنظيمياته وإنما سنعمل على استخلاص مواقفه بشكل عام تجاه المسألة الفلسطينية . وفي هذا الصدد ، يخرج الباحثان جان وليام لابير في دراسته عن « الاعلام عن دولة إسرائيل في كبريات الصحف الفرنسية خلال عام ١٩٥٨ » باستنتاج يبدو صالحا حتى اليوم ، وهو أن اليمين بمجمله وبشكل واضح مؤيد لإسرائيل . ولا تشكل التيارات العنصرية التي يغلب عداؤها لليهود على كراهيتها للعرب الا الشواذ عن القاعدة .

ومنطلقات هذا التيار في تأييد إسرائيل واجهار عداؤها للعرب واضحة وفي صلب منطقته . فالعنصرية والتعصب العرقي اللذان يميزان هذا التيار يمارسان بشكل خاص تجاه العرب لاسباب تاريخية وأهمها هزيمة الاستعمار الفرنسي في الجزائر ووجود مئات الآلاف من العمال المغاربة في فرنسا نفسها (كما وضحنا ذلك في مقال سابق) . ولا تتقف العنصرية ضد اليهود (اللاسامية) عائقا دون ترسيخ هذا العداء ، إذ أن منطلق الصهيونية الذي يدعو الى تجميع اليهود في بلد واحد يتفق مع المنطق اللاسامي الداعي الى إخراجهم من دول نشنتهم . هذا الى جانب اعتبار الكثيرين من اليمينيين لإسرائيل كقاعدة غربية متقدمة تدافع عن وجود الغرب وحضارته أمام الشرق المتهدد . وهكذا يفسر موقف لا سامي شهر وهو كزافييه فالو المفوض السابق للشؤون اليهودية اثناء الاحتلال النازي ، إذ صدر جريدته أبان حرب ١٩٦٧ بعنوان : « لماذا أصبحت صهيونيا ؟ » .

ولم تفت أية مناسبة منذ « حرب الايام الستة » ، الا وعبر فيها رؤوس اليمين الفرنسي عن موقفهم هذا . فتكسييه فينيانكور ، زعيم « التحالف الجمهوري للحريات والتقدم » ، وممثل اليمين المتطرف في انتخابات الرئاسة عام ١٩٦٥ أعلن أكثر من مرة عن تأييد حزبه المطلق لإسرائيل وعدائه للعرب ولسياسة الحكم الفرنسي بالنسبة لحظر شحن الاسلحة (وقائع مؤتمر الحزب في نوفمبر ١٩٦٩) . وجاك سوستيل ، المندوب السابق في الجزائر وأحد ألد أعداء استقلالها ، والذي شكل تجمعا يضم غالبية من المستوطنين سابقا في شمال إفريقيا ، كرس نفسه على ما يبدو في السنوات الأخيرة للدفاع عن إسرائيل في عقبه ومخالفات ومحاضرات صعبة : كما قام بزيارة إسرائيل واستقبله متاحيم

بيجن بحرارة رفاقية ، (مجلة « الأرض المستعادة » الصهيونية تتكلم في معظم اعدادها عن خدمات سوستيل . مثال ذلك عدد ١٥/١٢/١٩٦٩) . ووقف جورج بيدو رئيس الوزراء السابق وأحد قادة ارهابيي الجيش السري اثناء حرب التحرير الجزائرية وزعيم حركة العدل والحرية مواقف مشابهة .

والامثلة عديدة والمواقف متطابقة . وباستثناء بعض المجموعات الضئيلة التي تغلب عنصريتها ضد اليهود على عدائتها للعرب (كمجموعتي بيري سيدوس و « الدفاع عن الغرب ») ، وبعض المجموعات الأخرى التي يتساوى عداؤها للطرفين فامتعت عن اتخاذ موقف الى جانب احدهما ، يقف مجمل اليمين المتطرف اذا الى جانب اسرائيل .

الوسط

تستعمل بعض التنظيمات السياسية هذه التسمية المطاطة لتؤكد على اختلافها مع اليمين الشوفيني من جهة واليسار الاشتراكي من جهة أخرى . وبشكل عام ، تمثل التنظيمات الوسطية الحالية تيارا رأسماليا ليبراليا غربي النزعة يتشابه الى حد بعيد في موقعه ومواقفه مع الديموقراطية المسيحية (في ألمانيا وإيطاليا مثلا) . ومنذ بروز الظاهرة الديغولية التي جمعت جزءا كبيرا من « القوميين » والليبراليين ، أصبح هذا التيار قوة ضعيفة نسبيا وهامشي الدور في حوار سياسي كثيرا ما ظهر كواجهة بين الديغوليين والحزب الشيوعي (القوة اليسارية الكبرى في فرنسا) . الا أن السياسة الديغولية المتميزة بالرغبة في الاستقلال نسبيا عن الدول الكبرى وبالذات عن امريكا ، ألقت على هذا التيار مهمة الدفاع عن الاحلاف الكلاسيكية (وبالذات عن الحلف الاطلسي) والاقتصاد الحر .

ومنذ ابتعاد ديغول عن الحكم انقسم الوسط الى جزئين : اولهما دخل في تحالف مع الحكم القائم ، وثانيهما حافظ على موقفه المعارض لنظام بومبيدو . والتيار الثاني يتمثل بشكل رئيسي في حزب « الوسط الديموقراطي » الذي يرأسه جان لوكانويه مرشح الوسط لانتخابات الرئاسة في عام ١٩٦٥ . أما الاول فنواته حزب « الوسط ديموقراطية وتقدم » الذي يقوده وزير الثقافة الحالي جاك دوهاميل . وهناك تنظيمات وسطية أخرى ، ممثلة في مجلس الشيوخ (كاتحاد الوسط لديموقراطي التقدم ، والوسط الجمهوري للعمل الريفي والاجتماعي) ، الا ان تأثيرها السياسي محدود او يعبر خلال التنظيمين المذكورين اعلاه .

ولتحديد قوة هذا التيار التي تتراوح نظرا لعدم وضوح حدوده ، سنعود لبعض النسب الانتخابية . ففي انتخابات الرئاسة عام ١٩٦٥ ، فاز لوكانويه بنسبة تقارب الـ ١٧ بالمئة من اصوات الناخبين ، وفي الانتخابات النيابية الاخيرة ، حاز تجمع الوسط تحت اسم « التقدم والديموقراطية الحديثة » على نسبة اكثر بقليل من ١٠ بالمئة بينما فاز الان بوهر في انتخابات الرئاسة عام ١٩٦٩ بنسبة ٢٣،٦ بالمئة . فالنسبة اذا متفجرة حسب الظروف الا انها ، كما ذكرنا اعلاه ، تدور حول ٢٠ بالمئة .

بشكل عام ، يقف هذا التيار الى جانب اسرائيل باجماع يفسره الموقع الاقتصادي والايديولوجي لقادته .

فلوكانويه ، زعيم « الوسط الديموقراطي » مثلا لا يتخلف عن المشاركة في أية تظاهرة صهيونية مهمة ، وكذلك بوهر رئيس مجلس الشيوخ الحالي . أما دوهاميل وتنظيمه ، فمشاركتهم في الحكم الحالي تمنعهم من التعبير بهذا الشكل الصارخ عن عواطفهم ، الا انهم لا يخفون عواطفهم في مناسبات كثيرة .

لوكانويه ، استحق من وزير النقل الاسرائيلي شمعون بيريس لقب « الصديق المثالي

لاسرائيل « (جريدة « اخبار اسرائيل » ٢٤/١٠/١٩٦٩) . وهذا اللقب حرص لوكانويه على استحقاقه في كل المناسبات . ففي تظاهرة ضخمة ضد صفقة الاسلحة الفرنسية لليبيا يوم ٢١/١/١٩٧٠ ، احتج بشدة على سياسة الحكومة الفرنسية واتهمها بتعريض وجود اسرائيل للخطر (لوموند ٢٣/١/١٩٧٠) ، وفي رسالة لوزير الدفاع ، وصف لوكانويه بصفته عضو مجلس الشيوخ ، حظر شحن الاسلحة لاسرائيل بانها « سياسة غير نظيفة وخادعة » وطالب برفعه واعادة العلاقات الطيبة السابقة مع اسرائيل (لوموند ٣١/١٢/١٩٦٩) ، وتبنى حزبه رسميا هذا الموقف في مؤتمره الذي انعقد في مطلع ١٩٧٠ .

اما بوهر ، خصم بومبيدو في آخر انتخابات للرئاسة ، فلا يقل حماسة في الدفاع عن اسرائيل . ففي ندوة نظمتها المجموعة الصهيونية اهدافات - زيون صرح بأن « مصر اسرائيل واوروبا مرتبطان » . وكان قد عرض في الانتخابات المذكورة على الجنرال كونيج ، رئيس لجنة التضامن مع اسرائيل ، ان يرشح نفسه بدلا منه ، الا ان الاخير اعتذر . وفي ندوة اخرى ، التي بوهر محاضرة تحت عنوان « شكل آخر من العنصرية ، العدا لليهودية » قال فيها : « قبل قرار التقسيم ، كان العدا لليهودية يتمثل في معارضة خلق الدولة اليهودية ، وهو اليوم يتمثل في معارضة سياسة دولة اسرائيل . . . وفي كلتا الحالتين يتضمن هذا الموقف اساس اللاسامية التقليدية » (لوموند ٢٩/٤/١٩٧٠) . ومثل حليفه لوكانويه ، لا يتخلف بوهر في التعبير عن تأييده المطلق لاسرائيل في كل مناسبة ومشاركته في المهرجانات المنظمة من قبل انصارها (جريدة « الارض المستعادة » الصهيونية مثلا ، بتاريخ ١٥/١٢/١٩٦٩) .

اما جاك دوهاميل ، قائد الوسط المتحالف مع الحكم الحالي ووزير الثقافة فقد قال عنه شمعون بيريس بعد مقابلة معه بنوم ٣٠/٩/١٩٦٩ « (اخبار اسرائيل » المصدر السابق) ان « من دواعي السرور ان يجد المرء ان الاصدقاء القدامى ما زالوا على صداقتهم لاسرائيل حتى بعد توصلهم للحكم » . وفي مقال آخر في احدي الجرائد الاقليمية (لوجورا) حاول دوهاميل تبرير الصفقة الليبية على اساس انها « سياسة الشر الاقل على اسرائيل » لانها تمنع تسرب الاسلحة السوفياتية « بشكل اوسع وبدون اشراف » . واكد في المقال نفسه على ان السياسة الفرنسية تغيرت بمجيء بومبيدو الذي « عباد عن الحظر الكلي الى حظر جزئي وتخلي عن شرط الانسحاب المسبق للقوات الاسرائيلية في مقترحات السلام الفرنسية » . فبراي دوهاميل اذا ، ان الذي غير موقفه تجاه اسرائيل ليس هو وانما بومبيدو .

وهذه المواقف التي يكررها ممثلو التيار الوسطي في كل مناسبة هي جزء بالطبع من الرؤية السياسية الشاملة لهذا التيار (الذي يتخذ مواقف عدائية من حركات التحرر كافة ويمتنام بالذات) وتجعل منه حليفا طبيعيا ودائما لمعسكر العدو .

الديغوليون

نظرا لعدم وضوح الخط السياسي الديغولي (على الرغم من وجود بعض المواقف المميزة له) فان هذه التسمية غير دقيقة وتشمل مجموعات ذات آفاق سياسية واجتماعية مختلفة . وان كان الالتفاف حول ديغول هو القاسم المشترك لها في اثناء حياته ، فهي اليوم لا تشكل كتلة متجانسة متراسة ، والتناقضات التي كانت مغلفة في الماضي بدأت منذ استلام بومبيدو للحكم بالظهور على السطح .

وقد شملنا تحت هذا العنوان عائلات ثلاث : الاولى : هي « التجمع الوطني للجمهوريين المستقلين » الذي يتزعمه وزير الاقتصاد الحالي فاليري جيسكار دستان . ونعتمده بالديغولية يعود الى تحالفه خلال فترة مع ديغول ، الا ان هذه الصفة أصبحت اليوم

غير صحيحة لا سيما وأن التنظيم ابتعد عن ديغول قبل فترة من استقالته ، وهو أقرب سياسيا الى الوسط الذي تحدثنا عنه . الثانية : هي مجموعات « اليسار الديغولي » وهي تنقسم اليوم الى كتلتين ، احدهما في الحكم والثانية في المعارضة (باعتبار أن بومبيدو برأيها تخلى عن سياسة ديغول) . والثالثة : وهي الاله هي « اتحاد الديمقراطيين من أجل الجمهورية » وهو الحزب الرئيسي الحاكم الذي يتزعمه رئيس الجمهورية نفسه . وسنبداً باستعراض مواقفه .

١ - اتحاد الديمقراطيين من أجل الجمهورية : اتخذ الحزب الديغولي الرئيسي هذه التسمية على أعقاب انتفاضة ايار ١٩٦٨ ، وكان حتى ذلك الحين يحمل اسم « اتحاد الجمهورية الجديدة » الذي شكل جهاز الحكم الديغولي بعد عودة ديغول للحكم في ايار ١٩٥٨ . وقوة الحزب لم تنفك في الازدياد منذ ذلك التاريخ ، حين كانت اضعف من الحزب الشيوعي ، فاصبحت بعد التقاء كل التيارات التي ارهبها احتمال التطور الثوري لحركة ١٩٦٨ ، تشكل قوة انتخابية تزيد على ضعف قوة الشيوعيين (٤٤ بالمئة من المقترعين تقريبا) . الا أن هذا اللقاء معرض للتفسيخ (بعد انسحاب عدد من الديغوليين القدماء اثر استقالة زعيمهم) ، وبوادر التقلص بادية ، كما اظهر ذلك استفتاء نيسان ١٩٧٢ حول دخول بريطانيا للسوق المشتركة .

وبحكم تنوع الانتماءات السابقة والمواقع (رغم غلبة طابع الرأسمالية القومية) لا يقف الحزب من القضايا العالمية وقضية فلسطين بالذات موقفاً موحداً حقيقية . فالموقف المعروف لديغول ، والذي بدأت بوادره بالظهور قبل حرب حزيران وتبلورت بشكل خاص في مؤتمره الصحفي الشهير في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٦٧ ، حين أعاد الى الأذهان تاريخ الاستيطان الصهيوني في فلسطين ومعارضة السكان المحليين له ووصف اسرائيل « بالعسكرية والتوسعية » واليهود على حد تعبيره بأنهم « شعب نخبة » ، واثق من نفسه و« متسلط » ، هذا الموقف لا يعكس اطلاقاً شعور الاغلبية الديغولية وعواطفها ، والتي اضطرت رغماً عنها الى الالتزام به ، وأحياناً لم تلتزم .

وقد وضع ديغول فيما بعد موقفه في رسالة رد بها على بن غوريون بتاريخ ١٢/٦/١٩٦٧ ، قال فيها : « يدولي ان انسحاب القوات الاسرائيلية ، سيؤدي الى حل يضمن الاعتراف بدولتكم من قبل جيرانها ، كما يكفل حدوداً آمنة من كلا الجانبين - تحددها وساطة عالمية - ، ويحقق مصيراً كريماً وعادلاً للاجئين والاقليات ، وحرية الملاحة للجميع في خليج العقبة وقناة السويس . ان فرنسا مستعدة لتحقيق حل كهذا ، في اطار الامم المتحدة ، بالمشاركة بشكل مباشر في تطبيقه ليس فقط على المستوى السياسي وإنما أيضاً على ساحة المعركة نفسها » . [لوموند ١٠/١/١٩٦٨] .

وبعد مجيء بومبيدو الى الحكم ، كرر مراراً التزامه بمواقف سلفه . الا ان بعض بوادر التساهل تجاه اسرائيل ظهرت ، وقد يفسرها جزئياً - الى جانب اختلاف الرؤى السياسية بين الشخصيتين - دخول عناصر جديدة في التحالف الحاكم متعاطفة جميعها كلية مع الجانب الاسرائيلي (وهذا بالطبع جزء من تطور شامل انعكس على مجمل السياسة الداخلية - والاقتصادية خاصة - والعالية) . وأكد هذا التطور وزير الخارجية موريس شومان في لقاء له مع المكتب السياسي للمجموعة البرلمانية للحزب الحاكم حين قال : « اتبعنا بعد ذلك سياسة النوايا الحسنة ، فأعلننا عن الحظر الجزئي ، وعملنا لصالح التعاون بين اسرائيل والمجموعة الاقتصادية الأوروبية في بروكسل ، كما اقترحنا تعويض اسرائيل عن المبالغ التي دفعتها مقابل شراء الميراج » [لوموند ١٤/١/٧٠] . ويروي شمعون بيريس في جريدة يدعيوت أحرانوت انه سمع كلاماً من هذا النوع حول العلاقة بالسوق المشتركة والعودة الى الحظر الجزئي من وزيرين فرنسيين

اثناء رحلته في خريف ١٩٦٩. [نقلا عن « اخبار اسرائيل » ٢٤/١٠/١٩٦٩] .

الا ان هذا التحول الجزئي لم يغير الموقف الفرنسي في الشرق الاوسط بشكل جوهري . ذلك ان الاسباب الرئيسية التي دعت الى اتخاذ هذا الموقف ما زالت قائمة . (يلخصها بول بالتا في عدد ايار ١٩٧٠ من مجلة «الدفاع الوطني» شبه الرسمية ، بمقارنة الميزان التجاري الفرنسي مع اسرائيل ومع مجمل الدول العربية . ويظهر هذا الميزان ان الصادرات الفرنسية للدول العربية عام ١٩٦٦ (٤٥.٣ ملايين فرنك) اقل من نصف الواردات (٩٦.٨٠ مليون فرنك) التي يشكل البترول عنصرها الرئيسي . في المصدر نفسه اعلاه ، نقل شمعون بيريس عن « احدى الشخصيات الفرنسية » قولها « بان فرنسا يجب ان تأخذ بعين الاعتبار بترول الشرق الاوسط » . وأشار رئيس الوزراء السابق شابان دلماس امام نواب الحزب الحاكم الى سياسته بالقول : « سياستنا في هذه المنطقة تسير في الخط الذي رسمه الجنرال ديغول . نحن لسنا موالين لاسرائيل ولا للعرب وانما لفرنسا . وسياستنا التي تستهدف السلام ، تقوم بشكل مطلق على اساس مصالح فرنسا » . [لوموند ١٢٣/١/١٩٧٠] .

وهذا التعبير لاسس السياسة الخارجية ، في صلب المنطق الراسمالي ، ولا يمكن ، في اي حال ، مطالبة الحكم الفرنسي باستعمال منطق آخر لا يتناسب مع طبيعته . [مقال اريك رولو تحت عنوان « دور فرنسا في الشرق الادنى » في لوموند ١٢/١١/١٩٧٠] . هذه المواقف المتتالية لاعمدة النظام الديغولي هي اذا مواقف الحزب رسميا . وفي كل مؤتمراته ، اتخذ الحزب قرارات تأييد لسياسة الحكومة في هذا المجال بالذات . الا ان ذلك لا يمنع ان « غالبية جهاز الحكم والتوجيه ، اي مجموعة القائمين على القطاعات الرئيسية في الحياة القومية وفي تكوين الرأي العام ، هم في غالبية الاحيان موالون لاسرائيل ، وذلك يفسر التردد والمعارضة التي تلقاها سياسة الحكومة عندما تأتي الى التنفيذ » . [من مقال احد كبار محرري لوموند فيانسون بونتيه عن « الفرنسيين تجاه اسرائيل » بتاريخ ١١/١/١٩٧٠] . وهذا يعيد الى الازهان حادثة «خطف» البوارج الحربية من ميناء شربورغ في ليلة ٢٥/١٢/١٩٦٩ ، وقد اشارت حينذاك منظمات عدة منها الحزب الشيوعي واحدى التنظيمات الديغولية اليسارية (« اتحاد العمل الديموقراطي ») الى تواطؤ على مستوى عال سمح للاسرائيليين بنقل البوارج الى ميناء حيفا [لوموند ١٦/١/١٩٧٠] .

ولم يكتب بعض اعضاء « اتحاد الديموقراطيين » بالتردد ، بل عبروا علنا عن معارضتهم لموقف الحكم وحزبهم . ففني اللجنة الادارية « لتحالف فرنسا - اسرائيل » شخصيتان من الحزب الحاكم هما النائب جاك مرسييه والوزير السابق ريمون تريبوليه من اصل ثمانية اعضاء . والاخر يترأس كذلك لجنة الصداقة البرلمانية فرنسا - اسرائيل التي تضم ٥٥ نائبا ديغوليا [مجلة « الارض المستعادة » ١٥/٢/١٩٧٠] .

يبقى هناك بالطبع الاقلية الملتزمة عن قناعة بموقف مؤسس الجمهورية الخامسة . وتكتفي بذكر اسم لوي تيرنوار الوزير السابق ورئيس رابطة التضامن الفرنسية العربية [الذي يعبر عن موافقه باستمرار في نشرة الرابطة : فرنسا والدول العربية] ، وميشال حبيب دولونكل السكرتير العام المساعد للحزب المختص في الشؤون العالمية [لوموند ١٣/١/١٩٧٠] والجريدة الديغولية « لاناسيون » التي يشرف عليها [وبعض المجموعات كرابطة « العمل الديغولي » [لوموند ٣٠/١٢/٦٩] و« الحركة من اجل استقلال اوربا » [لوموند ٣١/١٢/١٩٦٩] .

الا ان « اتحاد الديموقراطيين من اجل الجمهورية » يبقى بحكم ايدولوجيته ومواقفه محدود التطور، واي تغيير حقيقي لن ينشأ الا بحكم التناقضات بين الراسمالية الفرنسية

الحاكمة والامبريالية الأمريكية التي تغذي وتشرف على استمرار وجود أداة القمع الصهيونية من جهة ، وتحت تأثير اختلال التوازن الذي تحدثنا عنه بين حجم المصالح الفرنسية في العالم العربي وفي اسرائيل من جهة اخرى .

٢ - الجمهوريون المستقلون : وهو التنظيم الذي يرئسه وزير الاقتصاد جيسكار دستان ، والذي قلنا ان علاقته بالديغولية لم تعد اليوم أكثر من تحالف مع القوة الرئيسية الحاكمة ، يترك للتنظيم شخصيته المميزة . والواقع انه على الرغم من قرب مفاهيم هذا الحزب مع المفاهيم الوسطية (مع تبني بعض المواقف الديغولية المتعلقة بالاقتصاد الوطني) ، فان شخصية جيسكار دستان (التي تعتبر من اقوى شخصيات الحكم الحالي والمرشحين للرئاسة في المستقبل) تعطيه كيانا قد يهدد الحزب الديغولي نفسه .

ومن الصعب تحديد قوة هذا التنظيم ، لانه في معظم المعارك الانتخابية التي خاضها ، كان متحالفا مع الحزب الديغولي . الا ان عدد نوابه في البرلمان (٦٢ نائبا بعد الانتخابات الاخيرة) يشكل تقريبا سدس المجموعة الديغولية كلها ، واذا حولنا هذه النسبة الى نسبة أصوات ، فالنتيجة تقارب ٧ بالمئة من مجموع الاصوات (هذه النسبة تضعه في المرتبة الخامسة من ناحية القوة الانتخابية ، الا ان القانون الانتخابي غير النسبي يعطيه المرتبة الثانية من حيث عدد النواب) .

فيما يختص بموقفه من المسألة الفلسطينية ، فرغم تصريحات جيسكار دستان المتتالية التي يؤكد فيها « تضامنه مع السياسة الحكومية » [لوموند ١٩٧٠/٢/٤] ، الا ان الحزب بجمله على ما يبدو يقف موقفا شبيها بموقف الوسط ، اي مؤيدا تأييدا كليا لاسرائيل . فالسكرتير العام للحزب ميشيل بونياتوفسكي عضو في اللجنة الادارية « لتحالف فرنسا - اسرائيل » [لوموند ١٩٧١/١/٣٠] ولا يفوت أية فرصة في التعبير عن عواطفه . فبعد صفقة الاسلحة الليبية ، أعلن بوضوح ادانته وطلب الحكم بدعم اسرائيل « العقبة الوحيدة امام النفوذ الروسي في البحر المتوسط » [لوموند ١٩٧٠/٢/٣] . والارض المستعادة ١٩٧٠/١٢/١٥ [. والنائب جاك دوميناتي الذي يدير جريدة « باريس غذا » يعبر بوضوح عن وقوفه الى جانب اسرائيل [لوموند ١٩٧٠/٢/٤] . وكذلك النائب دستريمو الذي طالب في اجتماع برلماني في ربيع ١٩٧٠ « بالعودة الى سياسة فرنسا في الشرق الاوسط كما كانت قبل ١٩٦٧ » [لوموند ١٩٧٠/٤/٣] . وهذه المواقف ليست غريبة بالنسبة لحزب ممثل بـ ١٨ نائبا في اللجنة البرلمانية للصدقات الفرنسية الاسرائيلية [الارض المستعادة ١٩٧٠/٢/١٥] .

ولم يسمع داخل الحزب أي صوت نشاز بالنسبة للموقف الشرق اوسطي ، فتصريحات الالتزام بالموقف الحكومي « لانه الوحيد الذي يأخذ بعين الاعتبار مصلحة فرنسا » [تصريح لامييه باكيه رئيس المجموعة البرلمانية للحزب في لوموند ١٩٧٠/٢/٨] لا يلغى التعاطف شبه الكلي تجاه اسرائيل .

٣ - اليسار الديغولي : تطلق بعض القطاعات الهامشية في الحركة الديغولية لقب « اليسار » على نفسها ومرة أخرى لن نقيم هنا استحقاقها لهذا اللقب وسنكتفي باستعراض وعلمي لمواقفها (استعمل ديغول في الماضي هذه الصورة في وصفه للييسار الملتمزم به : « انه خمر جيد ، ولكنه نادر » [لوموند ١٩٧١/١٠/٣]) .

ويتشكل اليسار الديغولي اليوم ، بشكل أساسي ، من مجموعتين رئيسيتين : الاولى وهي فيدرالية اليسار الديغولي وتضم ثلاثة تنظيمات يتزعمها ليو هامون وايفون موراندا وفيليب دوشارتر وتلتزم بالحكم الحالي وهي ممثلة فيه بوزيرين . والثانية هي الاتحاد العمالي الذي نشأ عن دمج اربعة تنظيمات ، ويتزعمها اليوم الوزير السابق جيلبير

غرانفال ، وهي تعتبر النظام الحالي غير مخلص للتراث الديغولي ، وتقف اذا في ضفة المعارضة .

وفي المسألة الفلسطينية ، تقف المجموعتان على ارضيتين مختلفتين : غالاولي (اي الحكومية) تعتبر أكثر عطفًا على الجانب الاسرائيلي من الحكم بينها تعتبر الثانية « أقرب الى الجانب العربي » [لوموند ١٩٧٠/١/٩] . فأحد زعماء الفيدرالية ليو هامون ، الوزير حاليا ، معروف بانتماؤه الصهيونية ، بينما لا يخفي المسؤولون الآخرون في التجمع عواطفهم الى جانب اسرائيل ، الا بقدر ما يقتضيه التزامهم بالموقف الحكومي القاضي بمراعاة المصالح الفرنسية في العالم العربي . فبعد أزمة زوارق شربورغ في مطلع ١٩٧٠ ، اتخذت الفيدرالية موقف الدفاع عن الحكم ، وطالبت باتخاذ « موقف حياد حقيقي » في الصراع الشرق أوسطي [لوموند ٧٠/١/٩] .

بينما اتخذت تنظيمات التجمع الآخر موقفا اتهاميا وصفت فيه الحكم « بالازدواجية ، اذ يدعي الاستمرار في سياسة الجنرال ديغول بينما يتخذ في الواقع مواقف مناقضة » . وذكرت بقرار بومبيدو بالعودة الى « الحظر الجزئي » على الاسلحة المرسلة الى اسرائيل ، ملححة بان الزوارق لم تخطف وانما اعطيت سرا في اطار الموقف الجديد [لوموند ٧٠/١/٦] . واعلنت احدى تنظيمات « الاتحاد العمالي » وهي جبهة الشبيبة التقدمية في مؤتمر صحفي بالقاهرة « ادانتها للعملية الاسرائيلية ، وانتقادها للاستخفاف الحكومي الفرنسي » كما أكدت دعمها « لنضال الشعب الفلسطيني من أجل اقامة دولة فلسطينية ديموقراطية يعيش فيها العرب واليهود » [لوموند ١٩٧٠/١/٧] . وأوضح عضو تنظيم آخر ملتحم داخل « الاتحاد العمالي » (وهو جان دو بير من جبهة التقدم) في مقال له في لوموند [٧٠/١٠/٧] وجهة نظره قائلاً : « لقد استعدنا — بفضل موقف الجنرال ديغول — في الشرق الأوسط مكانة مرموقة . واليوم نرى لماذا لم تحتفل الحكومة الاسرائيلية نصائح الرئيس الفرنسي ... لانها ليست مستعدة لاعادة ما استولت عليه ... ومقابل هذا الموقف الصريح والواضح ، قامت حكومة بومبيدو بانتهاج سياسة متواجحة ، لم تؤد لا لتهدئة الاسرائيليين ولا لطأنة العالم العربي الذي لا يرى في هذه السياسة صلابة السياسة السابقة وبعد نظرها » .

باختصار اذا ، نستطيع ان نقول ان اليمين الديغولي الذي يشمل تنظيم الجمهوريين المستقلين وغالبية الحزب الرئيسي الحاكم يقف عاطفيا مع اسرائيل ، بينما تقف بعض اطراف « اليسار » الديغولي وبعض التيارات الهامشية في الحركة موقفا يصفه البعض بأنه متعاطف مع العرب . أما القوة الحاكمة ، فتنبني في الغالب موقفها من طموحها لاحتلال مكانة اقتصادية ذات شأن في الساحة العربية ، ويقع هذا الطموح في اطار التناقضات بين الامبريالية الرئيسية في العالم (الولايات المتحدة) والامبرياليات الثانوية ، ومن واجب الوطنيين العرب الاستفادة منها ، مع الإدراك التام لطبيعة القوى المتصارعة عالميا وفي كل قطر ، وفي فرنسا بالذات ، مع اعتبار القوى الصديقة استراتيجيا هي الجماهير المناهضة للرأسمال المحلي .

اليسار المعتدل

تقع تحت هذه التسمية اعداد كبيرة من العائلات السياسية ، القديم منها والجديد ، ويجمعها تطلع اصلاحي للمجتمع نحو توزيع أقل انجحاً للناتج القومي دون احداث تغيير جذري في بنائه . وتنعت هذه العائلات غالباً بالاجتماعية (أو الاشتراكية) الديموقراطية . ومنذ أواسط القرن التاسع عشر ، ومثل هذه التنظيمات (العمالية أحياناً) تزد وتتكاثر ، وهي تشكل الآن في معظم دول أوروبا الغربية قوى ذات تأثير تقليدي في الحكم او خارجه .

وستنصر حديثا هنا على تنظيمين رئيسيين : الاول هو الحزب الراديكالي الاشتراكي والثاني هو الحزب الاشتراكي . وسنعتبر مواقفهما ممثلة للتيار بمجمله ، الذي أعطيناه نسبة تمثيلية تقارب العشرة بالمائة . وقد يتجاوز هذه النسبة في الأشهر القادمة نظرا للتغيرات التي طرأت على بنية الحزبين الرئيسيين (في اتجاهين مختلفين) .

الحزب الراديكالي الاشتراكي : هذا الحزب من أقدم الأحزاب الفرنسية الحية (تأسس عام ١٩٥١) ولعب دورا سياسيا مهما في الجمهوريتين الثالثة والرابعة (١٨٧١ - ١٩٤٠ و ١٩٤٥ - ١٩٥٨) . وهو منذ عودة ديغول في طريق الاضمحلال ، ويتحول الآن شيئا فشيئا الى حزب وسطي شبيه في بنيته الطبقية ومواقفه السياسية الداخلية والخارجية من احزاب الوسط التي تحدثنا عنها خاصة بعد سيطرة مدير مجلة الاكسبرس ، جان جاك سرفان شريبر عليه (اذ أصبح سكرتيرا عاما عام ١٩٦٩ ورئيسا للحزب في العام الماضي) . وتنازع الرئيس الحالي اقلية من قدماء المسؤولين تطلق على نفسها صفة « اليسار الراديكالي » ويتودها رئيس الحزب السابق موريس فور ، وقد عقدت هذه الاقلية اتفاقات سياسية مع الحزب الاشتراكي والحزب الشيوعي ، بينما تتحالف الاغلبية مع احزاب الوسط المعارضة للحكم في اطار « الحركة الاصلاحية » . وهذا التناقض الذي قد يؤدي الى انقسام الحزب لا ينعكس اطلاقا على المواقف في السياسة الخارجية وبالذات بالنسبة للمسألة الفلسطينية . فكافة القوى المتصارعة تقف موقفا مستمرا من التأييد المطلق لاسرائيل والعداء لحركة التحرر العربية .

فتصريحات سرفان شريبر وأعدائه ومقالات مجلته الاكسبرس (التي تجد سوفا واسعا للتوزيع في بعض الدول العربية) لا تنقطع عن الدفاع عن وجهة النظر الاسرائيلية . ولا تقع خطورة ذلك في وزن الحزب (الضئيل نسبيا) وانما في تأثير المجلة التي أصبحت أكثر المجالات السياسية الاسبوعية توزيعا ، وتلعب اليوم دورا كبيرا في تسميم الرأي العام الفرنسي .

وستستطيع تلخيص موقف سرفان شريبر من خلال بعض تصريحاته الاخيرة . ففي مؤتمر له في الولايات المتحدة في صيف ١٩٧٠ ، حدد موقفه من المشكلة قائلا : « كل من شارك منا في الصراع ضد النازية يعتبر استمرار وجود اسرائيل قضية مقدسة ، ولذا فاننا لا نستطيع فهم ولا قبول سياسة الحكومة الفرنسية » . [لوموند ١٩٧٠/٨/١] . وكتب في مجلة « المنبر اليهودي » الصهيونية [كانون الاول ١٩٧١] : « اعتقد ان الشرق الأوسط هو المكان الأكثر خطورة على السلام العالمي ، والسبب الرئيسي هو تهديد وجود اسرائيل . . . ومن واجب اوربا ، وفرنسا بالذات ، الاهتمام بميزان التسليح ، وذلك بتسليح اسرائيل ، اذا استمر الاتحاد السوفياتي في تسليح الدول الاخرى وكسر التوازن » .

ولا يخالف سائر الراديكاليين سرفان شريبر في موقفه . فميشيل سوليه نائب الرئيس السابق ، عضو في الهيئة الادارية « للتحالف الفرنسي الاسرائيلي » وأحد النجوم الدائمين للمهرجان الصهيوني في فرنسا [لوموند ١٩٧٠/١/٢٣] . وموريس فور ، خصم الرئيس الحالي ، هاجم مثلا بشدة صفقة الاسلحة الليبية منتقدا الحكومة الفرنسية على موقفها ومعتبرا اياه « مناقضا للمنطق والاخلاق » [مجلة « الارض المستعادة » ١٥/٢/١٩٧٠] . وهذا الاجماع في العواطف الصهيونية للحزب الراديكالي يبدو اذا مطلقا .

الحزب الاشتراكي : يشكل الحزب الاشتراكي (الذي كان يحمل حتى العام الماضي اسم الفرع الفرنسي للاممية العمالية) الرديف الفرنسي للأحزاب الاشتراكية الديمقراطية المنبثقة عن الاممية الثانية والحاكمة في عدة دول من اوربا الغربية (كالمانيا والنمسا والدول الاسكندنافية) . وقد لعب الحزب دورا غير قليل في السياسة الفرنسية في

النصف الاول من هذا القرن ، مع ان الانشقاق الاساسي الذي حدث في مؤتمر تور عام ١٩٢٠ والذي ادى الى ولادة الحزب الشيوعي الفرنسي ، كان في النهاية من ناحية الوزن لصالح الاخير . والقارئ العربي يذكر غي موليه الذي كان رئيس وزراء فرنسا اثناء العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، والذي سيطر خلال فترة طويلة بصفته امينا عاما على مصير الحزب وسياسته . ولكن السنوات الاخيرة التي شهدت تقلصا مستمرا لوزن وصدى الحزب . (الذي كانت نسبة التمثيلية تتراوح بين ٥ و ٧ بالمئة) أدت الى احداث بعض التغييرات في بنيته القيادية وسيطرة عناصر كانت منتمية لتنظيم آخر (هو تعاهد المؤسسات الجمهورية) اندمج هذا العام في الحزب . وعلى رأس هذه العناصر القائد الحالي للحزب ، فرنسوا ميتران ، السكرتير الاول ، الذي كان مرشح اليسار في انتخابات رئاسة الجمهورية عام ١٩٦٥ ضد ديغول .

وتاريخ هذا الحزب في مساندة الصهيونية واسرائيل ودعمهما تاريخ غير متعرج . فلم يحدث حتى الآن ان اتخذ اي موقف متردد (وبالاحرى نقدي) في حماسه الصهيوني . فسكرتيره السابق غي موليه ما زال يفاخر بعملية السويس (العدوان الثلاثي) ويشبه عبدالناصر بهتلر ، ويرسل البرقيات في كل مناسبة لاقطاب الصهيونية . ولا بد من التذكير هنا ان الحزب العمالي الاسرائيلي (اي حزب غولدا مئير وموشيه دايان) عضو في المؤتمر الاشتراكي العالمي ، ورئيسة وزراء اسرائيل شاركت في المؤتمر الاخير الذي انعقد في فيينا [هذا لا يعني ان جميع الاحزاب التي شاركت في هذا المؤتمر تقف الموقف نفسه من « مشكلة الشرق الاوسط »] .

وفي السنوات الاخيرة عبر الحزب مرارا عن تعاطفه مع الجانب الاسرائيلي ومعارضته لسياسة الحكم الفرنسي التي اعتبرها تجنيا على « دولة شجاعا وديموقراطية » [تصريح لغاستون دوغير عضو المكتب السياسي ورئيس بلدية مرسيليا ، لوموند ٢٣ / ١٩٧٠] وتشجيعا « لصراع مسلح جديد في المنطقة » [بيان للحزب في مجلة « الارض المستعادة » ١٥ / ٢ / ١٩٧٠] .

ورغم ان السكرتير الجديد ، كان اقل حماسا قبل اندماج تنظيمه بالحزب في تأييده لوجهة النظر الاسرائيلية ، الا ان مسؤولياته وطموحاته الجديدة دفعت به ، على ما يبدو الى المزاودة على اسلافه . ففي احدى مؤتمرات الصحفية الماضية ، عبر فرنسوا ميتران عن موقفه بالشكل التالي : « دولة اسرائيل لها الحق في الوجود وفي الحصول على ادوات استمرارها . لكنها يجب الا تتحول الى دولة مهيمنة . وكما اننا يجب ان نؤكد على وجود دولة اسرائيل ، فاننا لا نستطيع ان ننفي الواقع الفلسطيني . وعلى هذين الشعبيين ان يتفاهما » . [لوموند ٧ / ٢ / ١٩٧٠] . الا ان هذا التحفظ الخفيف اخفى تماما اثناء زيارته كسكرتير اول للحزب الاشتراكي الجديد ، لاسرائيل . فحين وصوله ، قال : « ان فرنسا ، والفرنسيين يعتبرون انفسهم قريبين جدا من اسرائيل . وان استطعنا فسنعمل على تحسين العلاقات ، والتعبير عن تطلعات القادة الاسرائيليين » [لوموند ١٦ / ٣ / ١٩٧٢] . واعرب اثناء زيارته عن اتفاقه مع مشروع ألون ورفضه لفكرة الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي المحتلة كشرط مسبق للمحادثات [لوموند ٢٣ / ٣ / ١٩٧٢] .

الا ان هذه التصريحات التي يراد منها غالبا طمأنة العناصر الصهيونية والمالية لاسرائيل داخل الحزب على استمرار موقفه المؤيد لها ، لا تستطيع ان تخفي تحولا بطيئا عند بعض العناصر الشابة نحو تفهم اكبر للواقع الفلسطيني . وقد اشارت مجلة الاكسبريس [١٦ / ٢ / ١٩٧٠] الى هذا التطور في مقال لها بعنوان « اليسار المريض بفلسطين » قالت فيه : « قبل ثلاث سنوات ، كان الحزب الاشتراكي يتجنب حتى الاشارة الى قضية اللاجئين . . . ولكنه اليوم يتطور بجذر آخذا بعين الاعتبار التطور على الساحة . . .

ومتقبلا بصعوبة استمرار احتلال الاراضي العربية » . ويبدو ان بعض القيادات الجديدة وتنظيمات الشباب في الحزب يعمل في هذا الاتجاه .

وبالانتظار ، نستطيع اعتبار الموقف الرسمي للحزب الاشتراكي معبرا عنه بالشكل الاكمل في برنامج الحزب الذي نشر في شكل كتيب تحت عنوان « لتغير الحياة » [في دار نشر فلأماريون ص ٢٠٢] ، وجاء فيه : « اربع سنوات بعد الحرب الاخيرة بين الدول العربية واسرائيل ، ما زالت الدول الكبرى تساهم بتمويلها العسكري في استمرار خطر اندلاع حرب جديدة . ان الحزب الاشتراكي يعبر عن تقديره لجهودات ممثل الامم المتحدة من اجل تطبيق قرار مجلس الامن في مجمله . ويؤكد على ان اي سلام دائم يجب ان يعتمد على المبادئ التالية :

— الاعتراف بحق اسرائيل في الوجود والعيش بأمان ، وبحق كافة الامم الاخرى في الشرق الاوسط (كدول ذات سيادة) بما في ذلك الامة العربية الفلسطينية ، التي تختار مسئليها بحرية .

— ضمان حق الملاحة في قناة السويس ومضائق تيران لاسرائيل ولكل الامم .

— الاتفاق بين الدول الكبرى لوقف سباق التسلح في المنطقة .

— وضع حدود دائمة بمحادثات بين الاطراف المعنية ، واخلاء الاراضي المحتلة .

— اقامة شبكة اعانة عالمية لشعوب الشرق الاوسط لمساعدتهم على تطوير اقتصادهم والتعايش السلمي بانتظار تعاون مفيد بين كل دول المنطقة .

— اجراء محادثات بين كافة دول المنطقة لاسكان اللاجئين العرب بمساعدة المجتمع الدولي . »

اقصى اليسار

تحت هذا الاسم ، نجد في التقارير الرسمية الاحزاب والقوى السياسية التي تتبنى الماركسية او الايديولوجيات القريبة منها . وسنهتم هنا بشكل خاص بالقوى التالية :

الحزب الشيوعي ، الحزب الاشتراكي الموحد ، الماويون ، التروتسكيون .

الحزب الشيوعي : يعتبر الحزب الشيوعي الفرنسي اكبر حزب منظم في فرنسا ، وبعد الحزب الشيوعي الايطالي اهم حزب شيوعي خارج المعسكر الاشتراكي . آخر احصائيات الحزب تعطيه عددا من المنتمين يقارب نصف المليون ، بينما يرتفع عدد المصوتين له في الانتخابات فوق الاربعة ملايين (نحو ٢٢ بالمئة) . تكون الحزب كما ذكرنا على اثر الانقسام الذي حدث في الحزب الاشتراكي الفرنسي عام ١٩٢٠ في مؤتمر تور ، واختار منذ ذلك الحين خط الحزب الشيوعي السوفيياتي ، رغم بعض التحفظات (حول دخول قوات حلف وارسو لتشيكوسلوفاكيا مثلا) .

وينعكس هذا الوفاء للخط السوفيياتي على معظم مواقف الحزب خاصة في المجال العالمي ، وبالذات — في مجال بحثنا — في موقفه من المسألة الفلسطينية . ويتلخص هذا الموقف في فقرة من فقرات « البرنامج من اجل حكومة ديموقراطية للاتحاد الوطني » الذي نشره الحزب مؤخرا ، جاء فيها :

« في الشرق الاوسط ، ستعمل فرنسا على تطبيق حل سياسي للصراع ، يتضمن تطبيق قرارات الامم المتحدة وخاصة اخلاء الاراضي العربية المحتلة والاعتراف بالحقوق القومية لكافة شعوب المنطقة بما في ذلك شعب فلسطين العربي ، وبحق الوجود لكافة الدول ، بما في ذلك دولة اسرائيل » . (الكتيب ، دار النشر الاجتماعية ، ص ٢٢٦) .

وهذا الموقف المتطابق نصا مع الموقف السوفيياتي ، يعكس في الوقت نفسه اهتمامات

مختلفة . فبينما تتخذ الحكومة السوفياتية مواقفها على ضوء استراتيجية عالمية (تتميز مثلا في الشرق الاوسط بالحرص على تفادي الصدام مع الولايات المتحدة) ، يواجه الحزب الشيوعي الفرنسي اساسا مشاكل فرنسية بحتة . واحدى هذه المشاكل هي آثار المسألة اليهودية ، وما نتج عنها من امكانات ضغط للقوى الصهيونية التي تسارع الى الخلط بين مناهضة الصهيونية والعداء للسامية . والحزب الشيوعي الذي عانى من العزلة التي فرضت عليه طويلا في الساحة السياسية الفرنسية ، حساس لاية محاولة تستغل بعض مواقفه لاعادته لهذه العزلة . ونذكر مثلا أفراد الحزب الشيوعي (بين القوى السياسية المهمة) في ادانة العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، وكذلك في اتخاذ موقف واضح ضد عدوان حزيران ١٩٦٧ مباشرة بعد بدئه (مدعوما هذه المرة بموقف ديمغول الذي لم يعكس اطلاقا مشاعر العطف على الجانب الاسرائيلي عند غالبية الرأي العام في ذلك الحين ، نظرا للحملة الدعائية الصهيونية التي صورت اسرائيل في خطر الابدان) . وهذا يفسر جزئيا حرص الحزب على التأكيد على وجود الدولة الاسرائيلية ونفي تهمة التحريض على القضاء عليها ، في الوقت الذي يتخذ فيه موقف الادانة تجاه الصهيونية ايدولوجيا والتعاطف المتزايد مع المقاومة الفلسطينية ، خاصة بعد ١٩٦٨ (بينما كان التركيز قبل ذلك ومباشرة بعد ١٩٦٧ على التضامن مع الانظمة التقدمية العربية) .

وبالفعل ، وبعد عدة اتصالات قام الحزب الشيوعي لأول مرة بتوجيه دعوة رسمية لحركة فتح لحضور مؤتمره التاسع عشر الذي انعقد في شباط ١٩٧٠ ، واستقبل وفد فتح استقبالا حارا من قبل أعضاء المؤتمر . [لوموند ٦ و٧/٢/١٩٧٠ ، ومحاضر المؤتمر الصادرة عن الحزب] . ورغم ان الحزب لم يغير رسميا موقفه بعد المؤتمر الا ان بياناته اصبحت تشدد أكثر فأكثر على « الحقوق القومية لشعب فلسطين العربي » [لوموند ١٥/١٢/٧٠ و١٧/١/٧١ وبيانات المكتب السياسي للحزب في جريدة لومانيته ٧١/١/١٤] وتصريحات جورج مارشيه السكرتير العام المساعد وجاك ديكلو عضو المكتب السياسي ومرشح الحزب لانتخابات رئاسة الجمهورية عام ١٩٦٩ في الجريدة وفي مجلة « الديموقراطية الجديدة » عدد شباط ١٩٦٨ مثلا] . وفي تصريح لرولان لوروا عضو المكتب السياسي وسكرتارية الحزب ، طرح قضايا الصهيونية والاسلامية كالتالي : « ابنا نناضل ضد الالاسمية والصهيونية . فكلاهما تحاولان فصل اليهود عن باقي السكان وتحويلهم عن الصراع الطبقي . . . الالاسمية والصهيونية تغذي الواحدة منهما الاخرى وتعملان على الخلط بين مجموع اليهود والصهيونية وبالتالي سياسة اسرائيل وهذا ما نرفضه » . [لومانيته ٧/٢/١٩٧٠] .

وهذا التشديد على « الحقوق القومية لشعب فلسطين » وعلى ادانة الصهيونية يرافقه كذلك في البيانات الاخيرة التركيز على « طرد الفلسطينيين من ارضهم الاصلية » والاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني [لومانيته ٧/١/١٩٧٢] .

الحزب الاشتراكي الموحد : تشكل هذا الحزب في اواخر الخمسينيات من بعض العناصر المنشقة على يسار الحزب الاشتراكي . ورغم تبنيه للماركسية ، بقي فترة طويلة يتأرجح بين المواقف الديموقراطية الاشتراكية وبين اليسار المتطرف ، وقد حسمت احداث ايار ١٩٦٨ هذا التارجح (على الاقل شكليا) لمصلحة التيار الاخير . والحزب محدود التأثير (٣ بالمئة تقريبا في الانتخابات الاخيرة) ولكنه ذو وجود في بعض الاوساط المتفهمة والمسيحية ، وطبيعة تكوينه تفسر التناقضات التي يعاني منها اليوم ، اذ تتعرض فيه اتجاهات ماوية وتروتسكية بينما يحاول سكرتيره الوطني النائب ميشال روكار ان يحافظ على توازن بين كافة القوى المتنازعة .

وكان الحزب في مطلع الستينيات قريب الصلة بأوساط « اليسار » الصهيوني . فبينما

كان الحزب الاشتراكي على صلة وثيقة بالماباي ، كان الحزب الموحد يتعامل مع المابام ، الذي كان يرى فيه الرديف له في اسرائيل ، وبالتالي كانت مواقفه قريبة من هذا الاخير . وجاءت حرب ١٩٦٧ (كان طلبة الحزب من أولى القوى التي ثارت على جو الهستيريا الصهيونية قبل الحرب) وبعدها تصاعد المقاومة الفلسطينية ، وكذلك احتداد الصراعات الطبقيّة في فرنسا (وخاصة في حركة ايار ١٩٦٨) ، لتفرض مواقف اكثر يسارية على الحزب سواء على الصعيد الداخلي أم الخارجي . ففي تشرين الاول ١٩٦٩ وعلى اثر مؤتمر حضره وفد من حركة فتح ، قطع الحزب علاقته رسميا بالمابام ، واتخذ موقف التأييد الكلي للمقاومة الفلسطينية . ففي بيان للمكتب القومي للحزب على اثر قصف منطقة ابو زعل الصناعية ، ورد « ان الحزب يدين العدوان الاسرائيلي بدون تحفظ . ويحيي الشعب الفلسطيني وكافة الشعوب العربية ضحية العدوان . كما يبدي ثقته بالاقليّة الثورية من يهود فلسطين من اجل تطوير النقبة الشعبية ضد هذه السياسة وخلق جو يسمح بنضال مشترك للثوريين الفلسطينيين عربا ويهودا ضد الامبريالية » . [لوموند ٧٠/٢/١٥] .

وكرر الحزب بعد ذلك موقفه هذا (المؤيد اذا لبناء دولة فلسطينية ديموقراطية اشتراكية على ارض فلسطين كلها) في عدة مناسبات [لوموند ١٩٧٠/٩/٢٥ و ١٩٧٢/٩/٨] مثلا والمقالات الاسبوعية في مجلة الحزب « المنبر الاشتراكي » [رغم معارضة تيار صهيوني قوي داخل الحزب ما لبث في النهاية في غالبيته ان انقض عنه . وفي المؤتمر الاخير للحزب الذي انعقد في صيف ١٩٧١ ، حضر ممثلان عن حركة فتح والجيبة الشعبية الديموقراطية اللتين يعترف بهما الحزب بشكل اساسي كقوة رئيسية وطلعيّة سياسيا في صفوف المقاومة .

الماويون : في اواسط الستينات انعكس الخلاف الصيني - السوفياتي على القوى اليسارية في فرنسا ، فبدأت بعض التيارات المتبينة للفكر الماوي بالبروز بين مثقفي الحزب الشيوعي وطلبة الجامعات (وخاصة الكلية العالية للمعلمين ، المعتبرة من أعلى الكليات مستوى) . وتشكلت تنظيمات عدة كان أهمها الحزب الشيوعي الماركسي اللينيني (الذي ما زال موجودا رغم منعه من قبل السلطات الفرنسية اثر انتفاضة ايار ١٩٦٨) واتحاد الشبيبة الشيوعية الماركسية اللينينية (الذي أعطى فيما بعد تنظيمات حملت تسميات اخرى وأهمها اليسار البروليتاري الذي تنطق باسمه جريدة « قضية الشعب ») . وهناك اليوم تنظيمات ماوية عدة ويجمع جميعها - مع بعض التفصيلات في تفسير المنطلقات - على تأييد مطلق للمقاومة الفلسطينية على أهدافها في القضاء على اسرائيل وبناء دولة ديموقراطية في فلسطين ، على طريق استكمال الثورة الوطنية الديموقراطية في العالم العربي . وحتى السنوات الاخرة ، كان هذا التأييد بالنسبة لمعظم الماويين ، يتجه نحو حركة فتح بشكل خاص باعتبارها « تنظيميا جماهيريا » ، الا ان اوضاع المقاومة بعد ايلول ١٩٧٠ وبعض مظاهر السياسة الخارجية الصينية منذ العام الماضي غيرت نوعا ما من وضع هذه التنظيمات ومن موقفها هذا ، مع استقرار التأييد طبعا لجمال حركة المقاومة وأهداف النضال الفلسطيني .

التروتسكيون : الحركة التروتسكية (الاممية الرابعة ومشتقاتها) وليدة معارضة تروتسكي لستالين في نهاية العشرينات ، ولها امتداد منذ ذلك التاريخ في اوربا والامريكيتين وحتى في اسيا (سيلان) . والحركة بمجملها ضعيفة في معظم اقطار اوربا ، وتتوالى فيها منذ الخمسينات الانقسامات على اساس اختلافات ايديولوجية واستراتيجية . وفي فرنسا ، عدة تنظيمات أهمها العصبة الشيوعية (الاممية الرابعة) ، وتحالف الشبيبة من اجل الاشتراكية (المنظمة الشيوعية الاممية) و « الصراع العمالي » . وتمتاز الحركة التروتسكية بنظرة « عمالية » ، اي انها تشدد ، حتى في

الحركات القومية ، على ضرورة الصبغة العمالية لاية حركة ثورية . وعلى هذا الاساس نستطيع ان نلخص موقف التروتسكيين كالتالي . اداة كلية للصهيونية كحركة بورجوازية صغيرة بين يهود اوروبا تغفل عامل الصراع الطبقي ، وتحالف مع الامبريالية من اجل تحقيق اهدافها . وتأييد للحركات الثورية في المنطقة (عربية أو يهودية) التي تؤكد على تحالف الطبقات العمالية من اجل تحقيق الاشتراكية ، والقضاء على الدول العميلة للامبريالية (وعلى رأسها إسرائيل) . ويختلف التروتسكيون في موقفهم من حركات التحرر الوطني ، فالبعض (كالاممية الرابعة) يتعاطف مع التيارات الاشتراكية فيها ويندد بالحركات القومية بشكل محض ، أما الآخرون فيرفضون جملة وتفصيلا مفهوم مرحلة التحرر الوطني ، ويشترطون في تأييدهم طرح الصراع الطبقي على مستوى كل قومية منذ المراحل الاولى (وهذا حال المنظمة الشيوعية الاممية) .

المنظمات الأخرى : استعرضنا فيما سبق مواقف القوى السياسية الرئيسية في فرنسا . هناك بالطبع قوى أخرى متفاوتة الأهمية (كالفوضيين مثلا والتنظيمات الدينية الكاثوليكية والبروتستانتية) ولكنها في الغالب تعبر عن نفسها من خلال التيارات الرئيسية ، والدخول بتفصيل في مواقفها سيطيل البحث . وهذا حال النقابات (وخاصة نقابات العمال والشبيبة) التي تلعب دورا هاما في حياة المجتمع الفرنسي ، وقد اعتمدنا للأسباب نفسها ، الاستغناء عن ذكرها وذكر الحركات ذات الاهتمامات الأكثر حصرا (كالمنظمات التعاونية ، وحركات النضال ضد العنصرية الخ) .

خلاصة

من هذا البحث ، نستطيع الخروج بالاستنتاج التالي : كتقاعدة عامة ، يتزايد التعاطف مع القضية الفلسطينية من اليمين الى اليسار . وهذه القاعدة صالحة على المستوى العالمي ، وتفسرها بديهي اذا أخذنا بعين الاعتبار الطابع التقدمي والمناهض للامبريالية للثورة الفلسطينية (موضوعيا) . وهذا يفرض علينا ان نرى في مجتمع متقدم اقتصاديا كالمجتمع الفرنسي حلقاينا الأساسيين في الطبقات المستغلة (بفتح العين) والقوى السياسية المعبرة عنها . ومهما كانت المواقف الحالية لهذه القوى والوعي الذاتي لجهايرها ، فلا بد في نهاية المطاف (اي مع تصاعد المد الثوري الفلسطيني والعربي) ان تقف كلية الى جانبنا . ولهذا يجب ان نتجنب المواقف المثشجة التي تستبعد التحالف مع القوى التي يرافق تأييدها لنا بعض الاختلاف في الرؤية الحالية .

وهذه النظرة يجب ان تدفعنا كذلك الى العمل بشكل مستمر على عزل العدو الصهيوني في اضيق الحلقات ، بكسب تعاطف كافة الجماهير المعادية لاشكال الاضطهاد على الا تكون عندنا او هام حول القطاعات السياسية اليمينية والمعبرة عن الطبقة المستغلة (بكسر العين) ، التي تتحكم فيها في النهاية ايدولوجيتها المضادة للثورة ، وان اظهرت مواقف متناقضة معها فبحكم حرصها على مصالحها الاقتصادية وتسويق بضائعها .

الاعمى والاطرش

- ١ -

سيقال فيما بعد ان ما حدث كان مستحيلا ، اما الآن فالأبعدون يقولون انها مغامرة ، وأنا أقول انها الولادة . ان الحقائق الصغيرة لم تكن في البدء الا الاحلام الكبيرة ، والمسألة مسألة وقت ليس غير . كذلك تبدأ القصص وكذلك تنتهي . ان المعجزة ليست أكثر من الجنين الغريب الذي ينمو في رحم اليأس ، ثم يولد على غير توقع من أحد ليضحى جزءا من الأشياء ، تبدو ، تدهو ، تدهو ، ناقصة دونه .

وقد كنت أسمع دائما عن قبر الولي عبدالعاطي وعن شجرته ، ولكنني لم أكثر قط . لقد حجت أمي ، حين كنت لا أعرف الى أين تحملني ونمضي ، الى قبور كل الاولياء الصالحين ، المزروعة في كل حي وعلى درب كل قرية ، وسكبوا هناك على عيني من الزيت والدعاء ما يذوب جبلا من الصمت والعناد ، ولكن شيئا لم يحدث ، كأن العمى كان شيئا مكتوبا علي منذ البدء ، والى النهاية .

ومنضت الآن سنوات لا حصر لها على تلك الايام ، حين كانت تضعني أمي على كتفها وتمضي ماشية كأنها تغوص في بحر لا قرار له ، وكنت أحس المسافة على جبهتها حين تنزلق اليها كفي الصغيرة فألمس فوقها طوفانا من تصد العرق التعيس ، ولكننا كنا نعود دائما من قبور الاولياء كما كنا نذهب ، تضيء أمي طريقنا بعينيها الباكيتين الراجيتين ، وأتعرف أنا الى مسافة الرحلة من العرق المتفصد على جبهتها .

ولقد ينست . أقول لك يا حمدان انني ينست . ولو كنت جذع شجرة زيتون لتعبت ، عصرت على عيني كل اعشاب الارض ، وتركت أكف الالاف من الاتقياء والدجالين تمر فوقهما فلا تزحزح راقية واحدة من راقات العتسم الابدي الذي كان يوصد بين جفني بوابات ليل ضار ، لا نهاية له ، وذات يوم اكتشفت العبث كما تكتشف أنت المبصر شروق الشمس . انت تعرف تلك اللحظات العجيبة التي تساوي العمر كله . كانت لحظة من ذلك الطراز الذي لا يقهر والتي تجيء وهي عازمة على عدم الارتداد . ومذ ذاك وأنا جالس ، كما تراني ، أرشو الظلام بالصوت ، وأنسى . انت يا حمدان ما زلت صغيرا ، تتصور القدر ضربة صدفة لا تزحزحه الا ضربة صدفة أخرى ، وبعد أن مضى كل هذا العمر تقول لي أن أمخي الى قبر الولي عبد العاطي ، حيث قام الكسحاء يركضون ، والخرس ينطقون ، والعواقر يلدن ؟ أتريد أن أركب تلك الأرجوحة مرة أخرى في عمر واحد يا حمدان ؟ أتريدني مرة أخرى أسير ذلك الامل التافه المروع ؟

قبر الولي وشجرته ! واليوم تقول انهم رأوا راسه الوقور يتجه بالدعاء الصامت الى

السماء ، معلقا بين فرعي الشجرة . تقول انه يبدو وكأنه هنا كما ينمو الشجر ،
وانه يكاد يخاطب الناس . لقد سمعت هذه القصة في مكان آخر ، ذات يوم ، وذهبت
الى هناك . لا ، ليس مرة اخرى يا حمدان ، ليس مرة اخرى ، ان العمر الواحد لا
يتسع لأكذوبتين كبيرتين .

ولا بد ان حمدان ابتسم ، فأنا أحس ذلك بصورة غريبة اعتدتها منذ زمن لا ترقى له
ذاكرتي ، اكان يعرف انني سأذهب ؟ اكان يعرف عمق تلك اللعبة الهائلة التي نسميها
الامل المهيب الجناح ؟ سمعت خطواته تمضي بعيدا عني الى بوابة بيت النار ، ليخبز
دفعة جديدة من الخبز ، ولكن مهما كان يحسب ، فانني أعرف ان الحقائق الصغيرة لم
تكن في البدء الا الاحلام الكبيرة ، وان القصص تبدأ هكذا ، وهكذا تنتهي . لقد قذفتني
أقدار تعمل من وراء ظهورنا الى هذا المكان ، وأنا اتسائل بين الفينة والاخرى عما
يستطيع الاعمى أن يفعل غير أن يبيع خبزا ؟ ان الرغيف وحده هو الشيء الوحيد الذي
يمكن ان يرى بالاصابع ، تماما مثلما يرى بالعين . وحين يصل الامر الى الرغيف فان
أحدا لا يستطيع أن يخطيء ، حتى الرجل الضريب الذي ولد ، لسبب ما ، دون بصر .
فمنذ عشرين سنة وأنا جالس على هذا الكرسي أبيع خبزا ، ولا أذكر قط انني أخطأت .
ان اصابعي تتذوق الرغيف وتزنه وتتعرف الى عمره وتضمن جودته ، وهي تفعل ذلك كله
كالعين والميزان معا ، فمما لا ريب فيه ان حياتنا مركبة على صورة فريدة ، ولو لم يكن
الامر كذلك لما وجدت في هذا الكون كله متسعا لي ، أنزل فيه مثلما تنزل النبتة في
الحوض ، وأنمو هناك ، مع الارغفة الساخنة وأصوات الناس ، يوما بعد يوم .

ولكن أما أن لذلك كله ان يمضي الى غير رجعة ؟ اليس ثمة في هذا الكون كله ، كله كله ،
رجل واحد ، مبيت واحد ، شيء واحد ، يعيد لهاتين العينين ضوءا مرميا على الطريق ؟
وليس من حق واحد دون الآخر ؟ كان الصخب يملأني وأنا أسمع حمدان يقذف الارغفة
الى بلاط الفرن فتصدر عنها أصوات صفعات مكتومة ، وعرفت ، كما تعرف الارض ان
عشبة ما ستنمو هنا ، انني سأذهب .

وكنيت في أعماقي أكره ذلك ، ولكنني كنت أحس نفسي مربوطا اليه بلا فكاك ، وربما لذلك
بالذات اعتزمت ان أمضي الى هناك في الليل ، ففي نهاية الامر ليس ثمة فارق عندي ،
وكذلك يتعين على الاولياء الا يناموا .

وانتظرت مضي الساعات وأنا أحس التوقد يملأني . لقد اعتدت ان انام في الفرن ،
وتركت الوقت يمضي حتى عم الصمت تماما ، فمقت .

- ٢ -

لم يكن هناك ما هو غير عادي ، ذلك اليوم . كان يوما من تلك الايام التي عشتها سنوات
لا حصر لها ، ولكن الحقائق الكبيرة ، كما يبدو ، لا يحتاج مجيئها الى مناسبات . كنت
أناول رجلا ما كيس الاعاشة ، وكنيت أقول : « عيشة النكد هذه ، أود لو . . . » وفجأة
جاء ذلك الشيء الغامض ، وانقلب العالم رأسا على عقب ، وقلت لنفسني : « يا ولد !
انت منذ عشرين سنة تقول ذلك الف مرة في اليوم » وللتو ، شعرت بشيء من الخجل ،
واقترحمني ذلك مثل شيء لا يرتد . .

كنت أرى شفاهم تتحرك ، ولكن الصوت كان يتكسر أمام جدار رهيب يسد أذني ،
ولذلك فان أقوالهم لم تكن لتعنيني . اعتدت ذلك ؟ لا شك . فجسور الصوت التي تمتد
بين الانسان والانسان كانت عندي مقوضة تماما ، ولكن الانسان يتعلم . وكما يعتاد
الميت الموت فان الاطرش يتعود الصمم . أحيانا أقول : كما يعتاد الانسان العيش ، فان
الإصم يعتاد الصمت . ولكن المسألة الأكيدة هي ان الأشياء أكثر تعقيدا .

ذات يوم لا بد لي من التفكير بهدوء . اقول ل نفسي دائما ان فرصة ان افكر بهدوء لم تتح لي قط في العشرين سنة الماضية ، فقد كانت عيشتي عيشة نكد حقا .

اننا ، حين نفقد واحدة من حواسنا ، فانها لا تضيع . كيف اشرح ذلك الاحساس الغامض ؟ ان الصمم نوع من نوم الصوت . الحاسة ذاتها تظل في داخل الجسد كهدير طاقة حبيسة ، ويكاد صوت استغاثتها أن يسمع ، وهذا بالذات هو الشيء الذي اعتزمت ، طوال عمري ، أن افكر فيه بهدوء .

اما الان فليس ثمة الا الطواف على سطوح الاشياء الساكنة . الدوران الصامت في قاع الساعات الرتيبة لحياة لا يعرف احد كيف تسير ولا الى اين . ومنذ عشرين سنة وانا اجلس هنا ، اناول الاكياس لصفوف لا تنتهي من اللاجئيين . منذ عشرين سنة يمتد امام بصري هذا الصف الطويل من الرجال والنساء والاطفال ، يتحركون امامي كالاشباح . يتدافعون بلا صوت ، وترتطم الصفائح التي يحملونها ببعضها دون ان يصدر عن ذلك الارتطام اي رنين . كأن العالم كله يغطس في حوض ماء زجاجي امام عيني .

وشيئا فشيئا اخذت ادرك ان وجودي هنا لم يكن مصادفة ، فمما لا ريب فيه ان هذه الارتال التي لا تنتهي من البشر البائسين كانوا يكيلون لي سببا لا يحتمل ، فانا — امامهم — يد وكالة الغوث التي تمتد لهم بالطحين والسمن والبقول . وقد يكون الطحين قليلا او فاسدا ، وقد تكون جيوب البقول اقل من قشوره ، ولكنني لم اكن لاسمع . كانت يداي تمتدان بالاكياس ، وكنت ارى شفاههم تتحرك ، ولكنني لم اكن لاسمع .

وعرفت ، يوما بعد يوم ، انهم وضعوني هنا قصدا ، فلم يكن من الممكن لاي رجل آخر ان يحتمل ذلك الطوفان من الغضب الكسيح عشرين سنة متواصلة ، يوما وراء يوم ، ويدا ممدودة وراء يد ممدودة . لقد كنت البوابة الحديدية لقصر المحسنين ، على اقدامها يتكسر صوت الغضب . وامامي كان ملايين اللاجئيين يعومون داخل حوض زجاجي كالاسماك الصغيرة العاجزة ، دون صوت .

اقول ملايين ، لانني ، ربما لكوني لا اسمع الاصوات ، قد تعودت ان ارى ارتال اللاجئيين امامي رتلا واحدا مستمرا مثل نهر متجدد . لقد فقدت القدرة على التأكد من ان ما اراه ليس الا تكرارا . شهريا لمشهد واحد عمره عشرون سنة ، واكتسبت بالتدريج شعورا بانني اقف امام صف لا نهاية له من البشر ، يعبر افراده واحدا واحدا من تحت ذراعي وبصري ، ولكنه لا ينتهي ، لا ينتهي ، لا ينتهي .

ولست ادري كيف تسلقت نغمة « عيشة النكد » الى لساني من اعماق سحيقة ، ربما لانني كنت بصورة ما مسحوقا ، في مكان لا يكاد يرى ، بين جدار البوابة الحديدية لقصص المحسنين وبين الامواج المتكسرة للاصوات الغاضبة القادمة من الخارج ، او ربما لانني بصورة ما كنت فردا في ذلك الرتل البائس من البشر ، سقط بالصدفة امامه ، وصار بالصدفة ايضا يتلقى امواجه الصامته ويبتصها دون ان يعي ، وظللت هناك ، شيئا معلقا في الهواء مثل غيمة .

وهكذا تبدأ القصص ، ثم لا يعرف احد كيف تنتهي : قرأت في الصباح ان الولي عبد العاطي ، المدفون في الحقول القريبة من المدينة ، قد بدأ يجترح المعجزات . وان ثمة كسحاء عادوا من عنده يمشون ، والى جانب ذلك الكلام نشرروا صورة للقبر الطيني الواطيء ، الذي لا يحوطه اي حاجز ، والمنخفض اكثر مما اعتادت القبور ان تكون خفيضة ، ووراء كومة الطين تلك كانت ترتفع شجرة ذات جذع ثخين ، عارية تماما من اية ورقة ، وبين فرعين في اعاليها نبتت ، مباشرة من الجذع ، كتلة تشبه رأس الانسان ، مرفوعة قليلا الى الاعلى ، كأنها تنظر الى السماء ، في وقت لا تكف فيه عن

سماع اصوات الناس الذين يركمون الى جانب القبر الواطىء . . .

واعترمت ، على التو ، ان امضى الى الشيخ عبد العاطي ، ورغم انني لم افكر قط طوال عمري بتصديق مثل هذه الاشياء ، فلست أدري ما الذي حدث في تلك اللحظة بالذات . الآن استطيع ان اقول ان الامرين جاءا معا ان اكتشف نفسي ، واكتشف عبد العاطي ، ولو جاء احدهما قبل الآخر او بعده ، لمرت الامور فوق سطح ايامي مثلما انزلق الاف من الاولياء الى النسيان . ولكنهما جاءا معا ، مثل القفل والمفتاح ، كنت أهوي بصخب من ذلك الكرسي الذي تعدت عليه عشرين سنة ، وهاعندا أرى فتوا في جدار تلك الهوة المروعة .

وعبر عالمي الذي كان دائما يسبح صامتا في حوض ماء زجاجي ، مضيت الى قبر الولي عبد العاطي .

- ٣ -

انني امد لك يدي ، ايها الشيخ النقي الميت ، من قاع هذا الصمت (وقاع تلك العتمة) التي لا يسير غورها ، يا حبيب الله ، المعاد الى هذه الارض ثيرة متفجرة على الخشب . اخاطبك من وراء ظهر الحواس التي يخاطب بها الانسان قدره المكتوب له . مد لي يدك يا عبد العاطي ، يا عاطي ، وانثلثني من هذا الصمت (والظلام) . انني اطلب منك الشفقة ، ايها الولي ، بعد ان رفضتها سنوات لا اذكر عددها . اركع قرب طينك المبتل ، ايها الولي ، واقول : انني تعبت . اصبح بين الجدران التي لا ترى ، في عالمي المعتم (الاصم) ، واهز بكفي الاعمدة التي ترفع السماء ، حيث تجلس مخبئا اجويتك ، وأرجوك ، اتوسل اليك ، ابكي كل الدموع التي منحتها لي ، واعتصر ايماني حتى قراره المسكين : اطلب الفكك من اسر الصمت (والظلام) ، اسالك يا ملك الصمت (والظلام) . ان ترمي صولجانك على وجهي ، وتمنحني حصتي من هذا العالم . اسالك ان تكف عن منحني للعالم امثولة على سطوة الغيب التي لا تفسر . او خذني اليك يا عبد العاطي ، علقني معك على ذلك الجذع العالي ، لنسخر معا من ذل هذا العالم المنكفيء على نفسه ، العاجز المكبل المصوق على وجهه . اخاطبك وحدي ، وجهها لوجه ، من أعماق هذه البرية المتوحشة المهجورة ، واتحداك ان تجترح معجزتك ، ان تقول لي بان كوم الطين القديم يستطيع ان يكون اكثر جدوى من الحياة النابضة داخل صدري ، وفي عروق كفي المشرعتين أمام وجهك . اول مرة اجيء وأمضي الى آخر مرة ، وأذا كان ثمة في هذه الحياة من لا يستحق رؤيتها (ولا سماعها) فلتقل لي ذلك ، هنا والان ، ايها الشيء الخرافي الذي يتدلى من السماء كخطاف . انني اعلق عليك عمري كما يعلق القميص ، وأعلق عليك ايماني وكل المعاني التي تعودت ان استبدل بها الضوء (والصوت) ، وانتظر تحت سقف العتمة مثلما تنتظر انت تحت بلاطة الموت شموع المخدوعين .

« هل قلت شيئا ؟ انني لا اسمع » .

« لم اسمعك تاتي ، فانا رجل ضرير ، كما ترى ، جئت للولي اطلب البصر ، وما زلت انتظر » .

« لا تتعب نفسك . انني رجل أصم ، لا اسمع ، ربما استطيع ان افهم حركة من يدك أكثر » .

فسالني : « لماذا انت هنا ؟ »

وجاء الصمت - الذي صار علي ان اعتاده منذ هذه اللحظة ، وفجأة يصير همي وعبئي وهائزتي الفولاذية - الأحكام ، ولكنه الاختيار السذي لا يخطيء ، فها نحن ذا غريبان

مخلوعان عن العالم مثلها يخلع المارد قضيبا عن شجرة ، يطل علينا عبد العاطي من فوق ، وسيطنا الوحيد المجهول القدرة .

وقلت له : « انني رجل ضريب » . واشرت بأصابعي نحو عيني ثم طاطعت كفي مفروشين امامهما ، مثلما ينغلق مصراعا باب ، وسمعته يهمهم ، ثم قال : « فهمت » وخيم الصمت اثقل مما كان ، وبدا لي اطول مما توقعت ، وجاءت كلماته من ثم مثل شيء يعبر مسرعا دون ان يترك سوى صدى الحفيف : « واين يمكن لاصم واعى ان يلتقيا الا هنا ؟ » ووضع كفه على كتفي وخيل الي انها التصقت بي الى الابد . « اين يمكن لاصم واعى ان يلتقيا الا عند ضريب عبد العاطي ؟ » قلت لنفسي : « ومع ذلك ، فان العالم صغير » ورفعت كفي نحو السماء السوداء ، واشرت الى فوق . « هذا رأس عبد العاطي ، وانت لا تستطيع ان تراه ، هو نفسه الذي رأيته في الصورة ، هو نفسه الذي يجترح المعجزات ، وهو الذي سيعيد اليك بصرك ، ولكك لا تراه الان » وضحك ، فرن في البرية صوت يشبه افراغ قربة ماء . « ليس اجن منك الا انا ، نبحت في كوم الطين عن كنز مسروق ، ورأس عبد العاطي يضحك علينا ، لا انت تراه ولا انا اسمعه » وخط كفه على كتفي فبدونا صديقين عتيقين نتبادل حواسنا على صورة فريسة . ولا شك في انني ضحكت عند ذلك ، اذ انه ضحك بدوره مرة اخرى بعد ان كان قد توقف ، وسأل : « أتريد ان تراه ؟ » ودار حولي : « أعني ان تلمسه » ، ومضى عني الى قرب الشجرة ثم عاد الي . « لو رفعتك على كتفي فستصل بكفيك اليه وهو معلق على الجذع ، تستطيع ان تلمسه وتتعرف اليه ، لا احد هنا يرانا » وصمت ثم مضى « ... ليرانا ويضحك علينا ، هيا ! » وشدني من كمي الى الامام ، وجعلني اتحسس جذع الشجرة ، ثم اخذ العكاز « وضعت عكازك على قبر عبد العاطي ، سحافظ عليها جيدا » وضحك مرة اخرى مصدرا صوت قربة تفرغ من مائها ، ويبدو انه ركع على الارض اذ صرت اسمعه من تحت ، وثبت احدي قدمي على كتفه وامسك بكلتا كفي : « ارفع قدمك الاخرى » . تركت نعلي يزلق وسحبت قدمي ببطء على ملمس من ظهره ، وشعرت بعضلات كتفيه مشدودة ومفروشة تحت قميصه كأسنان مشط عريض ، وبدا يقف حين وجدت قدمي مكانهما على كتفيه ، يرتج قليلا تحت ثقلتي ولكن دون ان يبدو انه سيفقد توازنه ابدا ، وعندما انتصب تماما ترك كفي فتمسكت بجذع الشجرة ، وتركتهما ينطلقان الى فوق كأنما من تلقائهما ، يتحسسان الخشب الخشن واسمع حفيفهما . كنت ارتجف قليلا ، وليست ادري ان كنت خائفا او متوجسا او قلقتا ، وربما كنت مستتارا فقط . « وجدته ؟ » كانت احدي كفي قد وصلت الى منبت الغصن اللخين المنطلق من الجذع ، ومضيت معه ببطء « الي يسارك قليلا » وفجأة اصطدمت يدي بشيء طري . « هذا هو عبد العاطي ، هل له اذنان ؟ » وضحك وهو واقف هناك . لا بد ان يكون ذلك الذي لمستته هو الرقبة . كان شيئا طريا ولكنه اكثر نשאفا من اللحم . شيئا بين اللحم والتمر . هذه الذقن ، ملتصقة من جهة بالعنق ومن جهة اخرى بخشب الغصن ، وغوقها انبساط صغير ، هنا ينبغي ان تكون الشفتان ، ولكن لا يوجد اي شيء . ثمة نوء يكاد يكون مستديرا الى الاعلى . هذا الانف ، ثم تلمست الخدين اللذين كانا خشنين قليلا ، وببطء بحثت فوقهما عن العينين ، ولكنني لامست سقف الحجر . لا توجد عينان ، والى فوق جاء نوء الجبهة مندفا الى الخارج اكثر من المعتاد ، وتأتي الجبهة منبسطة عالية ، وبدت لاصابعي وكأنها لن تنتهي ، وعدت فوق استدارة الرأس اتحسس الصدغ ، لا توجد اذنان . وكانت اصابعي تقول انه رأس غريب وغير ودود . عنق ثخين قصير وذقن عريضة تكاد تكون مربعة ، وانف مستدير وبارز ، وخذان قصيران وجبهة عالية ناتئة اكثر من المعتاد ، وعدت اتحسس من جويدي ، بجمع راحتي كله ، اضغط عليه قليلا ، واعتصر نواته بزرق . اي رأس هذا بلا عينين

وبلا فم وبلا أذنين ؟ ومن تحت سمعته يقول : « هل استغرقتما في الحديث ؟ كدت أتعب ... ماذا قال ؟ » وأخذ يضحك ، وبدأت كتفاه تهتزان . ولست أدري كيف قلت له هامسا ، دون أن اعني : « انه فطر ، مجرد ثمرة فطر . فطر . » ثم أدركت انني لا اسمع ، فصحت بصوت عال : « انه فطر . فطر . » وسمعته يسأل : « هل قلت شيئا ؟ وصحت بكل قدرتي : « فطر » وراق لي صوتي يرتد الي في البرية وكأنه صراخ آلاف من الناس المختبئين تحت الحجارة ووراء الأشجار : « فطر . مجرد ثمرة فطر ! الا تسمع بعد ؟ فطر » واشتبتك الاصوات حتى ملأتني ، قادمة من كل مكان تحت سقف العتمة الواطئ ، وبدأ هو يغوص الي تحت ، وشعرت بانني اهوي الي القاع ببطء ، ولكن بصورة نهائية . وكنت ما زلت اقول « فطر . فطر . فطر . ! » حين أنزلني عن كتفيه . « ماذا تقول ؟ » وأخذت أصرخ نافضا ذراعي حولي : « انه فطر ، رأس عبد العاطي مجرد ثمرة فطر طلعت هناك بالصدفة » وشعرت به يقترب مني ، وأدركت انه لم يسمع ، ابعدته من امامي وتقدمت الي جذع الشجرة . كنت متيقنا ان الشجرة التي تنبت فطرا على غصنها تنبته ايضا في كعب جذعها . بحثت بيدي في اسفل الجذع ، ومن بين الحشائش النامية حوله عثرت على واحدة تشبه التفاحة الصغيرة . انتزعتها ، ودفعتها اليه ، مشيرا بيدي الي فوق حيث كان الرأس ما زال لمعلقا . وخيم الصمت الثقيل مرة أخرى ، وكما توقعت ، جاءت ضحكته التي لا تنسى : « هذا هو اذن ! » وضحك مرة أخرى ، وأخذ يضرب على كتفي بكفه القوية . « يسمونه ايضا فقعا » وسكت . « سأظل كل عمري اضحك على نفسي كلما اذكر انني جئت اطلب من حبة فقع ان تعطيني اذنين اسمع بهما ! » وتابع « وأنت أيضا ! » ثم لا شك انه تطلع الي فوق : « اهكذا تضحك علينا يا عبد العاطي ؟ » ومشى الي الامام قليلا ، ثم عاد وكأنه تذكر شيئا ، ناولني العكاز ، وأمسك بيدي . « هيا بنا نعود » . وبعد ثلاث خطوات فقط وقف مرة أخرى وقال : « اسمي ابو قيس ، ما اسمك ؟ » قلت له « عامر » ولكنه لم يسمع ، ولو سمع لما كان لذلك اية أهمية ، ولما كان جديرا بان يعني شيئا ، وقال : « سأسئلك عبد العاطي ، مباركة لهذه الذكرى » وضحك ، ولم يسمعني اضحك ، فيما أخذنا نخطو معا في قلب العتمة والصمت .

— ٤ —

كان اول ما قاله حمدان حين جاء بفرش الخبز الاول ، في الصباح :

— « كنت اعرف جيدا انك ستذهب لضريح الولي ، وقد أنتظرت في الخارج حتى رايتك تمضي » .

وسألته : — « لماذا لم تتعقبني الي هناك ؟ » .

— « لانني اردت ان تصفو وحدك مع الولي . لعل لدي من الخطايا ما يمنع وقوع المعجزة في دائرة قطرها ميل » قلت ، بما يشبه الهمس : « ولم تقع اية معجزة » .

— « ربما لانك لم تكن صافي النية ، ذلك يحتاج الي ايمان عميق وحقيقي ، والى صبر ومثابرة .. اتحسب ان الأمر يحدث بهذه السرعة ؟ » .

وعددت خمسة ارغبة لزيون ، وأنزلت الثمن في الدرج ، ولم اقل شيئا . ايمكن ان تكون ثمة نية اصفى من نية رجل يريد البصر لعينيه ، ايمكن ان يكون هناك ايمان اكثر عمقا من ايمان رجل يتوق للخروج من العتمة ؟ الصبر والمثابرة ! اية عملة غير رائجة في حبس الليل الابدي ! لست استطيع ان اكسب من الضوء والبصر اكثر من حصتي ، وكل لحظة تمضي وانا في هذا الليل الرهيب خسارة لا تعوض ، ليست ابدا رصيذا للحظة آتية ، ليست صبورا ، ولكن كيف يمكن لحمدان ان يعرف ؟

« قرأوا لي اليوم في الجريدة ان امرأة لم تنجب طوال عشرة اعوام ، انفك عنها
الرصد ببركة الولي عبد العاطي ، وحملت . جاؤوا بها الى الجريدة وصوروا ، وها
هي صورتها ، لها جديلة طويلة ، وهي تضحك » .
قلت :

— « خانت زوجها » .

— « استغفر الله ! انت لا تطاق » .

— « شيخك ليس الا كتلة من الفطر » .

— « اعوذ بالله . . . لا اريد ان اسمعك » .

وعاد ، يدب بخطواته الحافية ، الى الفرن ليخبز دفعة جديدة ، فيما كنت احس تسائني
تغيرت بصورة لا استطيع ان اتجاهلها لحظة واحدة . ما الذي حدث ؟ شيء ما انكسر
في اعماقي بلا ريب ، وقد حدث ذلك بسرعة ، وكأنها على الرغم مني . ربما صارت الامور
امامي اكثر قسوة ، ولكنها بلا شك اكثر وضوحا وشفاء . وكان ذلك يبتعث في راحة
غريبة ومفاجئة ، واخذت اتساءل ان كان الشيء ذاته قد حدث لابي قيس ، وكنت ما
زلت اسمع ضحكته مثل قرقرة قربة ماء ، واحس كنه القوية تخبط على كتفي . آه ايها
الليل ، يا ملك المعجزات الحقيقي ! ان كان هناك ما هو معجز في قبر الطين فهو انسه
يجتذب الخاسرين ، وحوله يكتشفون شراكتهم في هذا العمر المحطم ، ثم يمضون تاركينه
وراء ظهورهم وكأنه لم يكن . اكان من الممكن ، ابدا ، ان اكتشف الولي على تلك
الصورة الفريدة ؟ ان نقتحبه معا ، من خلال العتم والصمت ، ونسبر غوره حتى القرار ؟
اكان حتما علينا يا ابا قيس ان نزحف كاثواب مهترئة يجررها حبل من الغيب ، لنفشر
ذلنا وكساحنا امام فقاعة فطر ؟ عددت ثلاثة ارغفة ووضعت ثمنها في الدرج فخشت
مصدرة صليل تيد ، ووراء ظهري اصطفت ارغفة العجين على بلاط الفرن حين قدفها
حمدان ، واخذت النار تهرج مثل ريح حبيسة . كنت احسب ان المعجزات تتدلى من
السماء مثلها يتدلى خطاب ، نعلق عليه اعمارنا كما تعلق القمصان ، ولكن اصابعي ما
زالت تغوص في ذلك الخشب الطري الذي انبثق في غور العتمة ، ثمرة من الطيش
وقنديلا مطفا في ليالي البائسين المسحوقين المنكفئين على وجوههم واللاعقين جراحهم
بالسكاكين . اما هي فقد خانت زوجها ، وعلقت عارها على مشجب الولي النائم الى
الابد تحت قبضة طين لم تعد تصلح الا ليتكى عليها عكاز رجل اعمى . عددت رغبين
واسقطت ثمنها في الدرج ، وخفت صوت النار ، فيما اخذ حمدان يغسل كفيه . وجاءت
خطوات ابي قيس ، وانتابني فرح صغير لانني تعرفت الى صوتها ، وقال : « كيف انت
اليوم يا عبد العاطي ؟ » وورائي كفت يدا حمدان عن الاغتسال هنيهة ، فلا شك ان
التسمية حيرته ، وجاء الصمت مثلما يجيء الاستفهام ، ليقف تدفق الامور لحظة ،
ويعيد ترتيبها من جديد . « جئت اسالك ان كنت تريد الذهاب مرة اخرى الليلة » انه
يرفع صوته قليلا فيبدو وكأنه يخاطب رجلا يقف على بعد منه . وهزرت رأسي مجتارا
متسائلا وانا ارد عن وجهي ضحكة كانت تتسلقه من الداخل . وعاد يقول : « تذهب
هذه المرة لنعترف بفضل ، لقد اجترح المعجزة » . عددت ستة ارغفة ، وتركت ثمنها
يسقط قطعة بطيئة وراء قطعة بطيئة في الدرج ، ولا شك ان ابا قيس لم يكن ليسمع
اصواتها وهي تصطم بالقطع المعدنية الاخرى . وتصورت للحظة كيف ستبدونه وكأنها
تسقط في حفرة بلا قرار ، وتظل تهوي في الفراغ الى الابد : « لقد اجترح المعجزة ،
وهي معجزة غريبة حقا » وادرت وجهي نحوه ، فهمس « سألت عنك اليوم » . كان
شيء ما يولد في تلك المسافة المتوترة والممتدة بين عالمينا ، وانا استشعر ذلك بصورة
لا يمكن تفسيرها ، ومضى : « قالوا لي انك من طيرة حيفا » وسكت قليلا : « وانا ايضا
من طيرة حيفا » . اسقطت قطعة النقد الاخرى من بين اصابعي الى الدرج ، فصدر رنين

كانه صوت الدهشة «للتقي بعد عشرين سنة !» وضحك ، مصدرا ذلك الضجيج الصغير ، والودود : « اثنان من طيرة حيفا ، يلتقيان بالصدفة حول حبة فقع ! اليس ذلك معجزة يا عبد العاطي ؟ »

- 5 -

الحياة ، وايقاعها أرتيب الذي له صوت التقوض ، خطوات العيث تضرب في تيه مجنون الى ابدي وابديك وآباد الآخرين . الصمت الذي له مذاق البئر المهجورة . العتم الذي له صوت النواح . هذه الجسور التي لم توجد قط ، لم تكن قط ، لم تكن قط ، بيني وبين العالم . انني انمو على الحائط الخارجي لهذا الكون ، انمو مثل طحلب مقرف يشمئز من نفسه ويبحث دائما عن الزاوية وعن الظل . الصمت والعتم ، الصخب والضوء ، أي بديل لاي شيء ؟ الخسارة عدوي ، وكذلك الفجيرة ، وحين افنقد الضوء يضحي الصوت عبثا . حين اغطس في الصمت الابدي تصبح العينان هما ، ونحن انما نتمدد تحت مطرقة العالم ، بايقاعها الذي له صوت التقوض . الا يمكن ان يكون التاريخ كله حلم طفل احرق يعيث بالعباب اكثر تعدادا من ان تستطيع طاقته استيعابها ؟ يا للخاسرين حين يؤلبون على انفسهم الكون بحثا عن سلوى ! حين يعلقون اقدارهم على مخالبا قدر لا يعرفون عنه شيئا كي يصير بوسعهم ان يتحملوا انفسهم ! يا لك يا عبد العاطي ، الجي والميت ، يا لكما من هذا العالم المجنون الذي لا يصدق ! ترى كيف ركبت ايها الولي عبد العاطي زورق الناس التعمساء وعلمتهم ان العالم انما يصنع من وراء ظهورهم ؟ وان عليهم انتظار اقدارهم مثلما ينتظر صف من المصابين بالبرص شفاءهم امام عيادة طبيب لم يوجد قط ؟ وها انتذا تعود على جذع شجرة مثلما تثبت الاسطورة في وهم المهزومين ، تعطي تحت جبة التقوى للمرأة حظ ان تنتهك زوجها . وللدجال وراء دخان المعجزة حظ ان يتقدم متلصقا الى صف الامام في طابور المنسيين ! .. وقد خلعت عنك قداستك ، سلبتك اسنك واعطيتك لرجل حي يبيض باليؤس الذي لا يستطيع انت شفاءه ، وهو لم يثبت على جذع شجرة ، ولكنه نبغ مثلما يتفجر الصبح ، مثلما يسقط الشهب مطلقا من الجهول ليصير شيئا ، وهاغندا جعلت عبد العاطي الولي عبد العاطي الرجل ، اراه يمشي ، واحس اصابعه على كتفي ، واشمه كائنا يقف الى جوارى . اعدتك انسانا رغما عنك ، خلعتك عن وهمي مثلما يخالع الطفل ضرسه ، تخلصت منك ، هزمتك ، جعلتك قبضة من عتم الليل قذفت بها الى وهج نار ضروس . . . كسرتك من تحت قبضتي عصا كنت اتوكأ عليها ، وصرفت عمري آملا منها ان تعطيني ما لا يعطى ، ولست اريدك بعد : لا درعا ولا زورقا ولا وعدا . اخلعك عن شجرتك ، عن عمرك ، عن معجزاتك كما يسترد العاري قميصه المعلق على خطاف يتدلى من السماء . . . واقول لك ، لم يعد يوجد في جدار اوهامي مكان لمسار جديد ، اعلق عليه وعدا بالاصوات التي لم اسمعها قط ، وقد خلقت لنفسي اذنين اسمع بهما العالم ، اما انت فليست الاحبة فقع ، سقطت بالصدفة في مستنقع الناس المهزومين ، وراوا فيهما جزيرة طافية من وعود ليس بالوسع تلمسها باليد ، ولا سماعها بالاذن ، ولا رؤيتها بالعين والاصابع . . .

وانا ؟ لولا ابو قيس لما كان بوسعي ان اراك يا عبد العاطي . واذا كان العمى فح الاخاديع فكذلك البصر ، ولقد تحسنتك بالاصابع التي لا تخطيء ، في تلك اللحظة الفريدة التي ترتطم فيها اشياء الواقع باشياء الوهم وانني لاصنع عنك ، واغفر لك ، فماذا بوسعي ان افعل اكثر من ان اراك تغيب في الفضاء وتذوب مثلما يذوي حلم ؟ وهما كنت ووهنا ولدت ووهما انتهيت ، وها انا استرد قدرتي واحس ملمسه الثقيل على كتفي ، مثلما كانت امي - بلا ريب - تحس جسدي معلقا على كتفها وهي تمضي بي ، انا ، قدرها الصغير والوحيد ، لتضعني بين ايدي اوهام العالم كله ، ولا تحصد الا

الخيبة ، ولا احصد الا العرق يتفصد عن جبهتها العالية
ولولا ابو قيس لما عرفت ، انا الاعمى ، كيف تلتقي اقدار البائسين تحت جبال الانتظار
المهيب الضخام ، لولاه لما استطعت ان اراك ، يا عبد العاطي ، ولولاى لما استطاع
ان يسمعك . . . انما انت ثمرة طيش تنبت في رؤوس الكسحاء الذين يتعلمون ،
بجرعات البؤس المر ، ان الحياة ليست سوى الانتظار ، ولولا اننا تقاسمنا الخيبة ،
سما وبصرا ، لما ارتدت الي طيرة حيفا ، ولما التقيت فوق قبرك قدري ، ولما عثرت
تحت رأسك على شريكى في هذه المرارة التي يكاد طعمها ان يقتلني اختناقا ، ولقد
قادني المبصرون خارج طيرة حيفا ، وأن للعمى ان يتحركوا . ان الاشياء التي ترونها
ليست هي ، وذات يوم سأشرح لكم ذلك كله ، والا لما كان بوسعكم ان تروا في ثمرة
فطر نبيا صامتا يجترح المعجزات ، وانا الاعمى الذي اعرف ان المعجزة انما تجترح من
القاع ، فالثمرة هي معجزة الجذور الضاربة في رحم الأرض ، الضاربة في غور هذا
البدن المقدس للتراب الذي ليس له ملامح ، وليس بوسع الفطر الا ان ينزلق على
الجذوع الجوفاء ، ان يطل على الناس من فوق وان يخدعهم ، ولكنه ليس المعجزة ، وانا
الان ربما لأول مرة ارى في الظلمة المحيطة بعيني حقيقة تتوهج بضوء لا قبل لاحد على
احتماله ، واقتلك ايها العمى ، اتحداك ، واستطيع ان اسبر غورك ، واذا كان
المبصرون يرون في الفطر نبيا ووليا يجترح المعجزات ، فانا الذي رأيت فيه ، باصابعي ،
ثمرة من الطيش تنزلق على سفح احلامنا مثلها التفاحة تنبو وتنقرض ، ولقد اطرحتك ،
ايها الولي ، واعطاني الرجل الاصم اسمك ، ولم يكن بوسعك ان تدافع عن هذا الذي
بقي لك ، وتركتنا نمضي ، ونحن حين مضينا انما قتلناك ودفناك مرة اخرى ، بلا ضوء
وبلا صوت ، وبالصمت الذي تستحقه !

- ٦ -

جاء حمدان فوقف ابو قيس واخذ يستعد ليمضي : « اسمع يا عبد العاطي ، نستطيع
ان نأخذ فأسا ومنكوشا ونذهب الليلة الى هناك » .

قال حمدان : « اعوذ بالله » . الا ان ابا قيس لم يسمعه ، فمضى يقول : « لو قطعنا
الشجرة ، ودفنا رأس الولي ، فلعلنا نسترد ابصارنا واسماعنا » . واخذ يضحك فيهبز
الطاولة امامي ، ويضرب بجمع كفه على ظهر حمدان الذي اخذ يدمدم حانقا ، وعاد
ابو قيس يقول متجها بصوته الي : « ان ظهور الولي لم يجترح المعجزة ، فلعل غيابه
يفعل . . أتأتي معنا يا ولد ؟ » وكنت اعرف ان حمدان سيفقد صبره ، فأخذ يتنهد بصوت
مسموع ، ثم قال : « انتما كافران مارقان تستحقان العمى والطرش ، اذا ذهبتما الليلة
لتخريب قبر الولي وشجرته فسيحكم عليكما بالمحق ، ويمسحكما » قلت له : « اذهب
انت ، واطلب منه عقلا ، لعله يستجيب » فعاد يقول : « اذا ذهبتما الليلة لتخريب قبر
الولي وشجرته اخذت على عاتقي ابلاغ الشرطة ، انني اندركما : سأبلغ الشرطة »
قلت لنفسني : ها قد صار عند الولي جهاز شرطة ! وصاح ابو قيس بصوته الذي يشبه
صوت رجل يتحدث من نافذة قطار في محطة صاخبة : « هذا الولد خائف ، اليس كذلك؟
ماذا كنت تقول يا ولد ؟ » ولكنه لم ينتظر الجواب ، بل مضى بخطواته الثقيلة الى خارج
المخبز ، وعندما وصل الرصيف صاح : « سأراك فيما بعد يا عبد العاطي ، علينا ان
نتحدث » .

وخيم صمت تخش فيه رائحة الوقد في الفرن ، وهو يغوص صوب الموت . وظل حمدان
صامتا ويفوح في صمته طنين الندم ، مثلما يفوح كلما كان يشتط به الفيظ فيتحدث عن
العمى الذي اصابني وكأنه عقاب . عددت ثلاثة ارغفة وامسقت ثمنها في الدرج
واتجهت برأسي صوب حمدان اجته على الكلام ، فقال :

— لماذا يسميك عبد العاطي ؟

— لأنه لم يسمع اسمي .

— لا . أنه يتمسخر على الولي ، هذا الكافر .

— ربما . عندنا في الطيرة حين يموت عزيز ، حين يموت اب او جد او اخ ، نعطي الوليد الجديد اسمه ، وأبو قيس من الطيرة كما سمعته يقول :

— وما علاقة هذا بذلك ؟

— لا شيء . ظننت ذلك ..

وأمتد الصمت مرة أخرى بيننا . هذه المرة مثل جسر ، وليس مثل هوة ، كان حمدان محتاراً قليلاً ، ولكنه كان عازماً على سبر غور ذلك الموقف المعتد الذي اتحم نفسه فيه ، فقال :

— « هل تعترضان حقاً تخريب قبر الولي وشجرته ؟ »

ونجاة أخذت كفاي تنضحان عرقاً ، ولأول مرة في حياتي لاحظت ان العرق يملأ راحتي يدي كلما تحدثت أو تحدث أحد أمامي عن ولي . لعله التوتر . لعله انبثاق أمل هش ليس بالوسع امساكه باليد . لعلها الخيبة المحزنة . أخذت افرك راحتي يدي على صدري ، وقال حمدان :

— « ان ليس من اجلك ومن اجل الناس فمن اجل المرحومة امك ، هذه المرأة الصالحة التي عرفت قبور جميع الاولياء . من اجلها انس تلك الفكرة الحمقاء ، ما الذي تستفيده من تخريب قبر الولي وشجرته ؟ ثم ان الشرطة ... »

— « لقد عرفت المرحومة امي قبور كل الاولياء . صحيح ، ولكنها لم تعرف فيها الا الخيبة .. »

— « ومع ذلك لم تفقد ايمانها ، أنت قلت لي . قلت لي انها كانت تحملك على كتفيها وتمشي ، وكانت .. »

وكنت انا اقيس المسافة بلمس العرق الذي كان يتفصد من جبهتها المجهدة ، وحياتنا كانت تتملق كفاي الصغيرتان فاحس وجهها كله ينضح بالعرق وبالدموع معا ، لو كان البؤس بذاراً لنبت في شقوق وجهها شوكة الضاري من فرط ما سقطتها بالعرق وبالدموع ، ولكنها لم تفقد ايمانها ، هذا صحيح ، لم تفقد ايمانها ، وماتت فيه ، وها هو ذا بالنسبة لي يموت معها .

رفعت راحتي يدي في وجه حمدان ، وكاننا ما تزلان تنضحان عرقاً :

— « اسمع يا حمدان . أتعرف لماذا تملىء راحتي يدي بالعرق كلما جاءت سيرة ولي ؟ الان عرفت ، وكنت اجهل ذلك من قبل . وسأقول لك : لان هذا العرق هو العرق الذي سقاها من جبهة امي ، سنة وراء سنة وميلاً وراء ميل في طسوق لا نهاية لها . كلما كانوا يقولون لها : « هناك قبر ولي » كانت تحملني ، وكنت اتعلق بالعرق المنساح على وجهها ذهاباً وبالدموع البائسة الكسيحة ونحن في طريق الاياب . ها هما كفاي ينضحان ذلك العرق كلما سمعت اسم ولي . ذلك هو كل ما اورثته لي امي المرحومة » .

الا ان حمدان لم يكن يكثرث . كان كل ما يهمه هو ان يعرف فيما اذا كنا ننوي حقاً هدم قبر الولي وقطع شجرته ، فعاد يسأل :

— هل ستذهب مع ذلك الاطرش الكريه ؟

ولكنني لم اكن لاعرف ، لقد عرفت فقط ان شيئاً ما في داخلي ، مثل جسر يستند عليه

بناء ، قد انكسر . وسوف يتقوض شيء ما في لحظة ما ، وكان يتعين علي ان اترقب ذلك دون ايقافه — لانني لا اريد — ودون الاسراع بحدوثه — لانني لا استطيع .

— ٧ —

وصلت الى مكتبي في مركز توزيع الاعاشة في وكالة الفوث ، كنت قد تأخرت ، ولاحظت ذلك على الوجوه الجامدة لزملائي الذين كانوا بالانتظار . بدأت رائحة غبار الفول ورائحة السمك والحليب المجفف تختلط وسط بحيرة الصمت التي اعيش فيها . جلست ، ونظرت الى طاولتي . ثمة شيء قد تغير في داخلي . كان احد الموظفين يتحدث الي ، وكنت اشعر بذلك ، الا انني اصطنعت عدم الانتباه . احيانا يكون الصمم درعا في وجه التفاهة .

قلت لنفسني : « الله الله يا عبد العاطي ! سقا الله ايام الطيرة .. » ثم وجدت انه لا سبب يمنعني من رفع صوتي ، فذلك طراز فريد من الحوار ، خصوصا عندما يكون المرء مثلي الان ، غير مكترث بما سيقوله الاخرون .

قلت ، غير متجه الى احد على وجه التعيين : « ذهبت امس الى قبر الولي ، وقلت له : يا سيدنا الولي اريد ان ترد لي سمعي ، فانا اطرش .. اتعرفون ماذا قال ؟ » وانتظرت قليلا ، لا شك ان واحدا منهم سأل : « ماذا قال ؟ » فمضيت ! « لم اسمع ما قال . فانا اطرش ! ها ها ها ! » .

فتحت الدروج واخرجت هذه القوائم الطويلة من الاسماء التي علقتها اصابعي دون صوت شهرا وراء شهر ، وكانت الاسماء متشابهة ، تصطف مثلها تقف باصات الحكومة في الكراج . احيانا نشطب اسما ونقول : « مات . يا حرام . في السماء لا يوزعون اعاشة ! » . وكل يوم نسجل اسماء جديدة لاطفال بولدون ، ونقول : « بزر جديد ، اللاجئون الذين اضعوا التراب يحرثون ويزرعون الفراش ! » وهذا الصف الطويل من البشر ، واقف مثل طريق مسفلت متعرج يمتد من عام ٤٨ الى عام ١٩٦٧ ، ليس فيه ثغرة واحدة . مثل الطرق الصحراوية في دول النفط ، كلما انفتحت فيها حفرة جاؤوا بالزفت ورتعوها . كلما سقط واحد من الصف ، ميتا من السل او فقر الدم او القهر او الشيخوخة او الهجرة او السجن جاؤوا بولد ولصقوه محله .

نظرت الى الموظفين ، الذين شرعوا ينصرفون الى عملهم ، وقلت : « اللاجئون مثل شارع طويل . طوله عشرون سنة .. ولكن هل تعرفون من الذي يمشي فوق هذا الطريق ؟ » نظروا الي ، وقال احدهم شيئا فضحكوا ، وعدت اقول : « تمشي سيارات وباصات . كادلاك وفولكسفاكن . بسكليتات وكتادر ومداحل ، صنادل وحوافر ، جنازير دبابات وكلاب .. خصوصا يمشي على هذا الشارع الاولياء الصالحون . عبد العاطي مثلا .. »

وضرب مصطفى على الطاولة وقال شيئا لا شك انه شتيمة ، فقلت اهدى خاطره : « لا تزعل .. ذات يوم سأحضر عبدالعاطي الي هنا .. لا ، لن يوزع الاعاشة معنا ، لا . الاولياء لا يوزعون اعاشة ، يوزعون وعودا ، نحن فقط نوزع اعاشة ! » وعاد هو نفسه يرعد غاضبا . كان يحمل قلما عريض الرأس يستخدمه للشطب ، فكتب غلى ورقة كبيرة : « احرص » .

وضعت كفي مفروشة فوق رأسي وقلت له : « حاضر يا سيد مصطفى ، سأحرص . انا اعرف ان الولي عبد العاطي قرييك . حماك . اليس هو والد زينة ؟ » مزق الورقة حائقا ، واخذ باتي الموظفين يتسمون وينظرون الى دفاترهم وكانهم لم

يلحظوا شيئاً ، هم الذين شرحوا لي ما حدث وأفهموني آياه يوماً بعد يوم وأشارة ورأى
 إشارة . زينة ! لا شك انه حلف يومها بكل الأولياء الصالحين . جاءت المسكينة تصرخ
 وتبكي وتقول انهم شطبوا اسمين في اعاشتها لان اخبارية نقلها أحد جواسيس الوكالة
 تقول انها تعمل خادمة وتحصل مئة ليرة كل شهر . أرملة مشحرة مات زوجها تحت
 حمولة شاحنة حصى حين افرغها السائق فوقه دون ان ينتبه . عندها اربعة اولاد ،
 وجاءت تولول عند مصطفى ، وتقول انها واولادها سيوتون جوعاً . كانت ما تزال
 شابة سمراء قوية . ووعده مصطفى أن يدبر المسألة . وبعد اسبوع عادت زينة تبكي
 وتولول : « وعدت أنك ستعيد الاعاشتين فأعدت اعاشة واحدة فقط . لقد اقسمت
 يومها . . . » وأخذت تبكي وتضرب رأسها على الحائط وقالت انها خدعت ، وأخذت
 تردد كلمات باكية : « اولادي . تعبي . عرضي . عرضي . عرضي ! عرضي ! » تعلقت
 هذه الكلمة في سقف المخزن ، مثل ضوء اللوكس ، وأخذت تمطر علينا هياجاً وعاراً في آن
 واحد ، ولا شك انها ما تزال معلقة هناك وقد خفت اشعاعها مثلما يخفت ضوء اللوكس
 مع الوقت . . « عرضي » ! . هكذا يا سيد مصطفى يتحول الخبز الى فراش . انت تريد
 الفراش وهي تريد الخبز . آه يا عكروت . لا شك أنك اقسمت لها يومها بكل أولياء
 الارض ، الان وظفت نفسك عند الولي عبدالعاطي . الان صرت تدافع عن تلك الثمرة
 الطائشة من الفطر ! ترى هل وعدتها بالزواج ؟ سيد مصطفى . مصطفى افندي ؟

« احرص » . مكتوبة بالحبر الاسود العريض من القلم المخصص لشطب الاسماء ، كأنها
 تستخدم هذا القلم العريض لنطمئن الى ان الاسم الذي نشطبه انها انشطب كلياً وتماساً
 فلا تقوم له قائمة من بعد . من يدري ؟ لعل مديرية الوكالة تحسب ان اللاجئيين يولدون
 من جديد ، فلماذا يعثرون على أسمائهم بسهولة ؟ اننا نكتب الاسماء الجديدة بأقلام حبر
 رقيقة ، خجولة ، فلماذا نشطبها بذلك القلم الاسود الثخين الذي يستخدمونه لكتابة
 الاسماء على اكياس الخيش .

حملت القوائم ووقفت . نظرت الى الموظفين وقلت « لنبدأ بتوزيع اعاشة اليوم » .
 مضينا في صف الى المخزن يتقدمنا مصطفى الذي يحتفظ بالمفاتيح ، ووقف كل واحد في
 مكانه . انا قرب الباب المطل الى الخارج .

فتحت الباب فأخذت الاكف تلوح بدفاتر الاعاشة الحمراء وتتدافع وترتطم الاواني
 ببعضها فلا تصدر صوتاً . استغرقت في العمل ، وكانت يداي تنتشطان : من البراميل
 الى الاكياس الى الميزان الى الدفاتر . فجأة حدث شيء غريب ، فقد اكتشفت لأول مرة
 انني انما اقرأ شفاه الناس الذين امامي . انهم ماذا يقولون : « عدس . كوكوس .
 حليب . طحين . فول . . » آه يا عبد العاطي ! اترك اجترحت المعجزة ؟ هراء . طلي
 حنك . ولكن الحقيقة هي انني كنت اقرأ شفاه الناس ، واعرف ماذا يطلبون . . ما الذي
 حدث ؟ علمتها يا عبد العاطي يا ولي ؟ مستحيل ، فانا ما زلت مصرّاً على ان احمل الفاس
 والمنكوش واذهب مع عبد العاطي لاهدم قبر الولي واقطع شجرته . .
 وظلت الافواه تقول لعيني ، طوال ذلك اليوم : عدس ، حليب ، فول ، كوكوس ، تير ،
 طحين . . .

— ٨ —

كنا على وشك أن نغلق المخبز ، أنا وحمدان ، حين سمعت خطوات ابي قيس على
 الرصيف ، دخل فسلم وأخذ يتحسس الارغفة ويقبها ، ثم اختار واحداً وناولني ثمينة
 وأخذ يلفه بورقة . دفعت نحوه كرسياً واطناً من القطن فجلس ، وجاء حمدان من
 الداخل ، وقال :

— ها قد جاء ذلك الشقي الكافر . . هل تريدان الذهاب الى هناك ؟

ولم يسمع ابو قيس شيئا ، الا انه قال لي :

— يبدو ان هذا الولد كثير الثثرة .

ضحكت وهزرت رأسي موافقا ، وأخذ حمدان يدهم حانقا ، فقال ابو قيس :

— لا تضيع وقتك . لماذا لا تذهب وتشتري لنا نص وقية جينة ؟

قال حمدان :

— لا . لن اترك هنا وحدك مع عامر . لن اسمح لكما بالذهاب الى قبر الولي . سأظل هنا وسأظل أراقبكما .

وجاء الصمت ، الذي صرت معتادا عليه الآن ، والذي هو صوت الانتظار ، بكل ما فيه من ترقب يحيل بالجديد . صوت الولادة وهي تتدفق بسكون من قلب الفراغ ، مثل الارتطام الساكن لغيمتين متفتنتين على موعد المطر ..

وبهدوء ، تماما مثلما يشرع المطر ، قال ابو قيس :

— أتعرف يا عبد العاطي ؟ ظنت اليوم ان الولي قام بالمعجزة .

قلت لنفسي : أمس قام بالمعجزة فعرف واحدا من الطيرة على واحد من الطيرة بعد عشرين سنة ، اليوم قلت لنفسي : ها هو ذا جعلني اسمع على صورة فريدة ، لقد اكتشفت فجأة انني أفهم ما يقوله الناس وذلك بقراءة حركة شفاههم . ولكن أتدري ؟ هراء . طق حنك . في آخر النهار عرفت انني لا أستطيع أن أقرأ من حركات الشفاه الا تلك الكلمات المحدودة : قول . عدس . حليب . كوكوس . طحين . تمر وغير ذلك من بضائع الاعاشة .. اما غيرها فلا شيء .. أتعرف لماذا ؟ لان هذا هو كل ما تعلمت ان أسمعه من عشرين سنة . كل يوم كل يوم كل يوم . لا معجزة ولا من يجترحونها . ذلك شيء مثل ان أتعرف في وجه الانسان على البكاء ، ذلك لا يحتاج الى سمع ، لا هو ولا تلك الكلمات المعولة ... يا لعفريت البؤس كم هو ذكي ! مثلما تتعرف أصابعك على الرغيف ، أنت الاعسى . دونما حاجة الى بصر ، أتعرف أنا على تلك الكلمات التي ليست لغة ، والتي ترسم على الوجه مثل الحزن او النعاس او الخيبة ... »

وعاد الصمت ، صوت الانتظار هذا ، الذي أحسه الآن أكثر من أي وقت مضى مترعا حتى حافظه بولادة غامضة ، على وشك ان تنبثق في أية لحظة . أن هذا العالم يدور بسرعة مجنونة وتختلط أشياؤه في فوضى مروعة ما تلبث ان تنداح في حقائق متسقة . هذه اللغة التي يتحدث عنها ابو قيس ، لغة اللاجئين ، لغة البؤس التي لا يسمعها ، ولكنه يراها ، لغة البؤس التي لا أراها ، ولكنني أسمعها ، وغالبا أحسها ، تارة في رغيف الخبز ، وتارة حين تنفصد راحتا يدي بالعرق والدموع . اللغة التي لا يستطيع عبد العاطي لا سماعها ولا رؤيتها .

وأخذ ابو قيس يضرب رغيف الخبز الذي يحمله على حافة الطاولة برفق ، غارقا في أفكاره ، ثم مضى يقول :

— « اللغة عادة ، وقد تعودت أنا لغة الاعاشة ، وأنت تعودت لغة بيع الخبز . انني أفهم لغة زينة جيدا ، ولغة مصطفى ، ولغة شارع الإسفلت الذي تسير عليه الاحذية والمداحل والدبابات والكلاب ، ترى لو تعودت لغة أخرى ، اما كنت أنهما ؟ أعني لو انني عشت في جو آخر . اما كان لدي لغة أخرى ؟ »

ووقف ثم راح يتمشى في الممر الضيق الذي يفصل الفرن عن دكان البيع ، وجاء حمدان فوضع يده على كتفي ، وقال هامسا :

— « لا تترك هذا الشيطان يضللك . اترك الولي بحاله ، ان المعجزات التي اجترحها

نكاد لا نحصى ، سيقطعك الناس اربا .

قلت له :

— « هل ستذهب اليه الليلة ؟ لماذا لا تذهب يا حمدان ؟ اطلب منه ان يعطيك قميصا ، ان يعطيك خذاء تدخل به الى العيد . ان يعطيك ابا انت الذي عشت عمرك بلا اب ، فاذا اعطاك سمعنا وصيتك ، واذا لم يعطك تنضم لنا » .

— « انتما كافران متساويان . هل يعني ذلك انك مصر على الذهاب لتخريب قبر الولي وقطع شجرته ؟ »

— « لست أدري ، اسأله »

— « ولكنه لا يسمع » .

— « اكتب له السؤال . . »

— « لا أعرف » .

— « اذن اسكت » .

— « لا . أريدك انت ان تجيب ، هل ستذهب ؟ »

احسنت بصدري يتلوى فجأة بالهواء ، فتنهدت مرة ومرتين . كان ابو قيس قد كف عن التجوال الحائر فجلس على الكرسي الواطيء ومضى يزداد غوصا في صمته الفريد .

— « هل ستفهم ؟ هل ستفهم لو قلت لك ؟ اذن اسمع : لا حاجة بعد لتخريب قبر الولي وقطع شجرته . ذلك عمل لا يريد شيئا ولا ينقص شيئا بالنسبة لي . الولي عبد العاطي مات ، انتهى ، خلاص ، فاذا ذهبت ونكشت قبره واحرقت شجرته فذلك مجرد احتفال ، مجرد احتفال ، وليس هذا هو المهم ، هل فهمت ؟ »

وفجأة قال ابو قيس كمن يكمل حديثا بينه وبين نفسه :

— « وماذا سنفعل الآن يا عبد العاطي ؟ »

واحسنت بعينيهِ فتترسان وجهي ، مثلها أشعر أحيانا بأذني مشرعتين امام ادنى طنين ، مثل فخ جيد الاخفاء تحت الحشائش ، الا انني لم اقل شيئا ، كانت كل الابواب في رأسي مغلقة ، ولم ينتظر ابو قيس طويلا ، فقدمم ساخرا :

— « تصبح الامور عسيرة حين يموت الاولياء » .

ومضى يضحك ، فأتذكر تلك الليلة الغربية في البرية ، حين كان صوته الضاحك يشبه صوت افراغ قربة ماء ، يرتد صدها من خلف الاشجار وتحت الحجاره وأعماق التراب . تصبح الامور عسيرة حين يموت الاولياء . انه ينظر الآن ، بلا ريب ، نحو حمدان . اجل ، تصبح الامور عسيرة حين يموت الاولياء ؟ ولكن لا بد منها . ها هم الرجال يرفعون اعمارهم عن الخطاف المتدلي من السماء ويهضون ، يتلمسون بأصابعهم راس الولي المتفجر ثمرة على شجرة ويعنصرون نداوته فيجدونه ثمرة فقح بلا وعود . يلتقي المهزومون المكسورون الحزونون فوق البلاطة التي تنام تحتها المعجزة ، فلا يرون تحتها الا جثة الموت الجبان . تصبح الامور عسيرة حين يموت الاولياء ، تنهار جسور الوهم وتتعفن الودود ويتعين عليك ان تحمل قدرك .

— ٩ —

مضيت طوال الليلة التالية احلم حلما قصيرا واحدا ، اصحو من اعماقه مذعورا ، ولكنه ما يلبث ان يعود فيتكرر وكأبه اعادة عرض لشريط مجبور : كنت ارى نفسي متجها الى

مكتبي في وكالة الفوت ، وفجأة أجدني واقفا فوق اكياس الطحين، وباب المخزن مشقوق شقا رفيعا يدخل منه شعاع الشمس مثل نصل سكين ، وعبر هذا الشق أرى اكوام اللاجئين تغلي على امتداد البصر ، وأشرع وسط طنين لا مثيل له بالقاء خطاب ، ويختلط الامر فاذا بي أنظر من شق الباب الى زينة واقفة هناك تخطب وأنا أحاول أن أفهم صوتها الغاضب ، الا انها تنزل بين ذراعي مصطفى ، وأعود فأخطب وقد استبدت بي غضب يملأه الالم ، وتتحرك الجموع وتحطم باب المخزن ، وفجأة تمتلئ اذناني بأصوات ضجيج لا قبل لي باحتمالها ، وأرى عبد العاطي وسط السيل يتدافع بالاكثاف ، وأصحو .

وكنت أعرف ان الذهاب الى مكتبي في الوكالة ، صباح اليوم التالي ، سيكون مؤلما ، وان شيئا ما قد حدث في حياتي ، لا أستطيع تبينه على وجه الدقة ، لقد حطمت شيئا وليس لدي ما أستعوض به . كنت أعرف أنني لن أطيق ، بعد ، العمل في المكان الذي وضعتني فيه عشرين سنة ، ولكنني لم أكن لأعرف أين يتعين علي أن أتجه . ليست الحياة الا سلسلة تأخذ فيها الحلقة بيد الحلقة ، فاذا اكتشفت ولما أدخلت العالم تحت جبهته ، واذا قتلتها أخرجت العالم كله من هناك ، ولكن الى أين ؟

واخذت أتذكر الشيخ حسنين ، امام الجامع في طرة حيفا ، فقد كان جارنا ، وظل يشدد علي وعلى أبي حتى صرت أذهب الى الجامع ، ولكنني كنت أخفق في سماع خطباته كل يوم جمعة ، وذات يوم قلت له وهو يأخذ بيدي خارج المسجد : « لو كان يريدني أن أسمع خطبتك لأعطيني أذنين » ولفرط دهشتي ضحك الشيخ حسنين ضحكا شديدا ، وصار يترأخي في تشديده علي حتى تركت تقريبا عادة الذهاب الى المسجد ، ولكنني صرت أكثر اعتمادا على أبي ، وقد لاحظ الجميع ذلك الى حد كان يبعث في الالم ، وقد انضم الشيخ حسنين الى المجاهدين في الطيرة ، وكان منظر عمالته فوق البدلة الكاكية طريفا ، وبدأت البندقية على كتفه وكأنها خدعة دينية ، لا أكثر . ولكنه في الحقيقة كان مقاتلا من الدرجة الاولى ، وكان دوره مهما الى أن استشهد ذات ليل ، وأخفق الرجال في العثور على جثته من فرط ما كان متقدما على خطوط البلدة .

تذكرت الشيخ حسنين لانه عندما مات شعرت تقريبا بما أشعر به الآن . ذلك الفراغ المروع الذي يضعك على عتبة قرار جبان ، وقد فعلت ، اذ انني أخذت منذ ذلك الوقت أنتظر المعجزة ، وحتى عندما وقعت الواقعة كنت أشعر في أعماقي بأن معجزة ما قد أتقذتني . وقد حدث الامر كله في لحظة صغيرة لا تكاد ذاكرتي تحصرها : يبدو أنني لم أسمع أصوات الانفجارات ونحن نجلس أمام بيتنا في الطيرة ذلك المساء ، واندفع والذي وشقيتي وأمي عبر الطريق الى حيث يقوم الملأ المرتجل ، وسقطت عليهم القنبلة وهم في منتصف المسافة ، اما أنا فكنت ما أزال جالسا في مكاني ، وانقذني الصمم ، وقلت لنفسى سنة وراء الاخرى ان المعجزة قد وقعت ، وأنني ادين بحياتي لعلة طالما سكوت منها .

الآن ، لا فرار . لعل وجود عبد العاطي قد دفع القرار الى نهايته ، فتمزق كل شيء دفعة واحدة ، وليس ثمة الآن الا ذلك المفترق بين طريق الحياة وطريق الموت ، ذلك المفترق الذي تميزه فجأة ، والذي تكشف انك أمضيت عمرك تراوح أمامه دون ان تتخذ قرارك ، ليس لانك لا تريد ، ولكن لانك غافل عن ضرورة ذلك .

القرار . القرار . القرار . ماذا أستطيع انا وعبد العاطي أن نفعل في وجه هذا العالم ؟ هل بقي لدينا ، بعد ، متسع من الوقت لنفعل شيئا ؟ أم تراه بقي متسع من الوقت لكي نعود فتمزق صفحة عبد العاطي الولي من حياتنا وننساها ونعود الى أمكنتنا وكان الزلزال لم يقع ؟

ولكن قلمي سناقتاني ، دون ان اعني ، الى مكتبي في وكالة الفوت . دخلت وعلقت

وجلست الى طاولتي . اخرجت القوائم ، وراحت الاسماء المتشابهة تمتد امام بصري مثل طريق لا نهاية له ، وبدت لي فجأة سلسلة من القيود التي تكبلني وتحول دوني ودون أن أتحرك . خطر لي أن أستل القلم الاسود العريض وأمضي أشطبها واحدا وراء الآخر ، أو أختار أسماء بعينها فأشطبها ، ولكنني استبعدت ذلك ، وأخذت أنظر الى المخزن عبر الباب نصف المفتوح ، حيث كنت أقف في حلمي وأخطب بصوت مجلجل ، وخيل لي أن الباب الكبير للمخزن سيتحطم تحت قبضة الجموع في لحظة واحدة ، وأن اللاجئين سيتقدمون صفا وراء صف مثل سيل لا يكف عن الهدير ، وأن اصواتهم الغاضبة ستحطم ، فيها ستحطمه ، بوابات الصمت المغلقة في أذني . سيحدث ذلك . هذه اللحظة . هذه اللحظة . وقتت واستندت على الطاولة وأخذت أحرق بيوابة المخزن . هذه اللحظة . الدوي سينفجر الآن . الآن . الآن . فجأة استبدت بي استشارة لم أعشها في حياتي ، وشعرت أنني أرثجف بلا هوادة وكادت عيناى تنفجران وأنا اصوب نظري الى ذلك الباب المغلق . كأنه باب الصمم . باب الموت . باب القدر الذي لا يهزم والذي يوشك في اللحظة التالية أن يتقوض . كنت في قرارة نفسي متيقنا من أنه سيتحطم امام الاكتاف المتكدسة وراءه لصف من اللاجئين طوله عشرون سنة مرة . سيتحطم في أية لحظة . فجأة ضاع ذلك الحد الذي يفصل بين الحلم وبين الحقيقة وامتزج كل شيء ، ورايت بعين الحقيقة ما رأيته ليلة أمس مرة بعين الحلم . انهم يجمعون ارادتهم في اكتافهم وراء هذا الباب ، يكورون قبضاتهم فتصبح مثل الصخور المحيطة بصغد ، ويستمدون . هذه اللحظة . هذه اللحظة . الآن . الآن . الآن .

ولكن غور الصمت أصبح أشد عمقا، وظل ، كما كان دائما ، يخيم على كل شيء ، نظرت حوالي ورايت في عيون الموظفين نظرات الدهشة المليئة بالخشية تنضب علي من كل جانب ، وكان مصطفى يبتسم ابتسامة لا تكاد ترى . تنهدت ، وفككت التوتر من قبضتي يدي اللتين كانتا ما تزالان مكورتين فوق خشب الطاولة ، وعدت لجلست .

بذلت جهدا كي لا انظر مرة اخرى الى ذلك الباب الكبير المغلق ، الصامت ، الذي يشبه شاهدة ضريح . ثم قلت لنفسي : « ها انت مرة اخرى يا ابا قيس تتوقع معجزة . لا . ان الامور يا حبيبي لا تحدث كذلك .. الله عليك شو خفيف ! »

- ١٠ -

نمت في غرفة الفرن ، فوق فرش الخبز ، وقبل أن أغفو سمعت خطوات حمدان الخافطة تتجه الى الباب ، حيث مد فراشه ونام . قلت لنفسي : « انه ينام امام الباب كي يصحو اذا ما حاولت الخروج . لقد وجد لنفسه أخيرا عملا مفيدا يرضي ضميره . عين نفسه دركيا لحراسة الولي ! . آه كم يحتوي كيس البؤس من الاخاديع ! انه يشبه نمبا لا تنضب مياهه .. » .

وبدا لي حمدان ، بجسده الضئيل وطيبته وتصميمه ، سدا يشبه جدارا من الصخر ، يقف أمامي وأمام أبي قيس ، وانه ، على صغره ، يحجب من أمام أعيننا امتداد الطريق الذي ضيعناه . أخذت أسمع تنفسه الثقيل ، تنفس رجل اعترض عضلاته طوال النهار بالعمل المضني ، وهو يغطس في عالم النوم كما يغطس رجل في العمى او رجل في الصمم ، وكان نومه هناك تمثيلا طريفا لواقع أحسه احساسا صميميا : فقد كان فعلا يغلغل الباب بجسده القوي ، ويعرقل أمامي طريق الخروج ، لو شئت أن أخرج ، وبدا لي ان اختياره العفوي هذا ليس في الحقيقة الا تجسيدا عابرا لدوره في حياتي .

ولم أكن اعرف من حمدان الا صوته ، وهو صوت غنى عقد عزمه وقرأيه وملا نفسه بقناعات صغيرة ولكنها متراكمة في كل جسده . كانت زحزحته مستحيلة ، وكان الحوار معه أكثر صعوبة . ففي عالم مرتب على تلك الصورة التي في رأس حمدان يستحيل

العيب بالاشياء الموضوعه ، منذ الولادة ، على رفوف الذاكرة ، نائمة تحت الغبار والقبول والاستسلام الكلي .

ولست اعرف على وجه التحديد من اين اتى ، وما الذي انتهى به الى هذا القرن . وكان هو ضمينا في الحديث عن ماضيه ، ولكنني علمت ، مثلما يجمع الانسان شظايا صحن زجاجي محطم ، انه لم يذهب الى المدرسة الا اياما قليلة ، وقد تزوجت امه بعد شهر من ذهاب والده للسجن ، وأذاته زوج امه مر العيش ، فقد كان فقيرا ، وفضا وشرها ، وحين وجد في طريقه طفلا مستسلما مستعدا للقبول ، أخذت شراسته تشتد ضراوة . وقد لجأ الى اماكن عديدة الى أن انتهى به الأمر الى هذا القرن منذ عشر سنوات تقريبا . ونحن ما زلنا منذ ذاك نعيش معا ، ونشكل ثنائيا غريبا فاقت شهرته حدود الحي الذي يقوم فيه القرن . كان جسده قد أضحى قويا بلا حدود ، وصار مضربا للمثل في البأس والشدة ، الا أنه لم يستخدم قط تلك القوة الهائلة النائمة في ساعديه واكتافه لتحقيق أي نوع من أنواع العنف ضد أي كان ، لقد كان فعلا على فئاعة عميقة بأن أمور هذا العالم لا تحتاج الى تقويم ، وأن القوة في جسد الرجل ليست الا رغاها اضافيا يمكن الاستغناء عنه ، وانه اذا ما اعترضت حياة الانسان معضلة ما فلا سبيل لزحزحتها الا بالمعجزة ، وليس بقوة العناد او بعناد القوة .

ومنذ عشر سنوات وأنا أنظر الى العالم بعيني حمدان ، ومع ذلك فانني لم أستطع أن أرى شيئا حقا ، كان العالم بالنسبة لعيني مبنسطا كأنه مرسوم على بلاطة وكان يرى الاشياء والناس على صورة مريدة من البساطة والآلية ، وفي أحيان كثيرة كانت رؤيته تشكل في ذهني جدارا أو بابا بيني وبين الحقيقة في شكلها الأكثر صفاء ، تماما كما هو نائم الآن أمام الباب .

ومنذ ايام قليلة وأنا أحس ذلك أكثر من أي وقت مضى ، واكاد أرى في حمدان قيادا يزداد ثقله ، ومع ذلك لا أغنى عنه بالنسبة لي ، أنا الذي أدرك كيف تحول خلال عشر سنوات الى جزء لا يتفكك من حواسي ، وتحولت في هذه السنوات العشر الى جزء ثابت في عالمه ، والى رف كبير داخل رأسه ، يضع عليه أشياء الذاكرة ، وصور العالم ، المدفونة تحت غبار لا يريد مسه .

- 11 -

كان يوم جمعة ، عطلتي من العمل في مكتب توزيع الاعاشة في وكالة الغوث . ومع ذلك صبحت باكرا على غير عادتي في أيام العطل ، ولما شعرت بأنني نهبت للحيرة والضجر والافكار المتناقضة ، مضيت أزور عبد العاطي .

وقد وصلت الى الرصيف المقابل للفرن في ساعة مبكرة جدا ، وكان النهار ما زال محتفظا بطعم النوم ، وغير قادر بعد على ان يكون حقيقيا تماما ، كأنه لم يسحب نفسه بصورة كاملة من عالم الأحلام الصامت . ولعل ذلك بالذات ما جعلني أرى ما رأيت على تلك الصورة المدهشة : فقد كنت اعترم عبور الشارع الى القرن عندما لاح لي عبد العاطي واقفا قرب الواجهة . كان ما يزال لابسا ثوبه الليلي الابيض ، وكان يزن خبزا لزبون لم يكن يوسعي أن أراه من مكاني ، وهكذا فقد كان واقفا بطول قامته وذراعه امامه ترفع عصا الميزان النحاسي ذي الكفتين المربوطتين اليها بالسلاسل وهو يقوم بوزن الخبز وقد وضع تحت إبط ذراعه الأخرى عدة أرغفة اضافية ، فيما مضى يتجه بعينيهِ الضريرتين الى الامام مثلما يفعل العميان حينما ينصرفون الى تركيز وعي حواسهم الأخرى .

كان الصباح الممتلئ بجو الليل يخيم على الطريق ، والفرن من الداخل ما يزال مظلما تقريبا ، وهكذا فقد بدا عبد العاطي الواقف قرب الباب بثوبه الابيض الطويل وكأنه

يتوهج بنور خاص ، يهد ذراعه بخط مستقيم وهو يرفع حلقة الميزان ويصوب رأسه الى الامام كأنه ينظر الى آفاق لا يراها غيره ، ويضع تحت ابطه عدة أرغفة ، فأراه مثل تمثال من الرخام المتوقد بالحياة .

وقفت انظر اليه عبر الطريق ، ولا ريب انني كنت مأخوذا تماما ، اذ لاحظت ان احد المارين اخذ يحدق الي ، ثم نظر الى حيث كنت انظر الا أنه لم يجد على باب ذلك الفرن ما يستحق الانتباه ، فعاد ينظر الي مدهوشا ، وقال شيئا ثم مضى .

عبرت الشارع وكأني مسحوب بخيوط غير مرئية الى حيث يقف عبد العاطي ، وحين وصلت قربه شاهدت الزبون الذي كان يزن الخبز له ، كان ولدا صغيرا حجبه احد أعمة الوجاهة عن نظري حين كنت على الطرف الآخر من الطريق ، اما عبد العاطي فقد كان يوشك ان يضع الميزان جانبا ، وظننت انه لم يشعر بمقدمي اذ وقفت بلا حراك اشرب بعيني المزيد من ذلك المشهد الذي ظننت انه غير حقيقي تماما .

في اللحظة التالية وجه عبدالعاطي رأسه نحوي وابتسم ، فعرفت انه احس بمقدمي ، فنقلت له :

— لا تتحرك . ابق واقفا لحظة واحدة اخرى ... انك تبدو مثل تمثال قديم .. تمثال العدالة . تلك المرأة التي تحمل ميزانا وسيفا ، ويبدو لي رغيغ الخبز تحت ابطك اكثر معنى من ذلك السيف الذي تحمله امرأة معصوبة العينين ...

ونظر الطفل نحوي ، ثم عاد ينظر الى عبد العاطي الذي ظل واقفا دون حراك ودون ان يرتسم على وجهه أي تعبير ، ولم أسمع ما قاله الطفل لعبد العاطي الذي رد عليه مبتسما ، ثم جاء الولد يدب من الداخل ويتصبب العرق على وجهه من حرارة الوقود الذي كان يحشوه في بيت النار . كان عاريا فوق سرواله الابيض المتسخ ، وكانت عضلات صدره وكنتفيه تبدو متمسقة وجميلة وقوية دون حدود . فُظر الي بامتعاض ، ولم أستطع معرفة ما اذا كان قد حيا أو شتم ، فظللت صامتا .

كان يتجه الى الطاولة يبحث عن شيء ما ، فتح الادراج وعاد فاغلقها ، ورمع الصحف والاكياس ونظر وراء الواح الخشب ، واخيرا مد يده خلف احد تلك الالواح وتناول من هناك سكيناً كبيرة طويلة النصل من ذلك النوع الذي يستخدمونه لتقطيع العجين ، وخطا عائدا الى الفرن ..

الا انه بعد خطوتين اثنتين عاد ادراجه ، واخذ ينظر الى عبد العاطي واقفا هناك ، ما يزال ، جامدا . أمسكه من ذراعه بقبضته القوية وقاده بحنان لا مثيل له الى حيث اعتاد ان يجلس ، ثم اخذ الميزان من كفه واعطى الخبز للطفل وقال شيئا دون ان ينظر الى احد ، وعاد ادراجه الى الداخل .

وفي لحظة صغيرة ، تكاد لا تحس ، تقاطعت الاشياء والاشخاص على صورة فريدة ، فقد تدأخل ذلك الجسد الفولاذي العاري ، المتصبب بالعرق ، وتلك السكين ذات النصل اللامع الطويل بذلك الوهم الذي خيم علي عندما شهدت عبد العاطي واقفا والميزان مرفوع امامه ، على امتداد ذراعه ، عاليا ..

هززت رأسي بعنف ، وقلت لنفسي انني رجل اخذت منذ أيام افقد صلتني بالواقع الذي عشته حتى الامتلاء كل عمري ، وانني اغوص في عالم الاحلام والاهام والرؤى العجيبة ، وأرى الاشياء والناس والحركات كما لم يحدث لي قط من قبل في حياتي ، وأورثني هذا كله شعورا مفاجئا بالتعاسة ، فقد تذكرت ما حدث أمس الخميس في مكتبي في مركز توزيع الاعاشة عندما كنت طوال لِحظات خارجة عن عالم المعقول متاكدا من أن جموع الواقفين على البوابة سيحطمونها وان جدار الصبب المبنى بيني وبين العالم سيتحطم في

اللحظة ذاتها ، وقد احتاج خروجي من ذلك الوهم جهدا يكاد لا يصدق ، مثلما يقتلع الرجل جذر شجرة ، وكذت اجعل نفسي نكتة الموظفين في المكتب .

والآن ، أول ما يحدث لي هذا الصباح شيء لا مثل له ، فأعيش بين عبد العاطي والولد والطفل ، الخبز والميزان والسكين ، حلما جديدا يكاد يشبه كابوسا يصاب به حارس ليلى جديد لمتحف قديم .

لا شك ان شيئا رهيبا يحدث لي ، ولا ريب بوجود مخرج ما ، لم استطع الى الان استكشافه او تلمسه ، وكان عبد العاطي جالسا هناك ، مغوصا هو الآخر كما بدا لي ، في عالمه الذي لا يعرف احد أين يقع قراره ، وقلت لنفسي : أتراه يفكر بالشيء ذاته ؟ قلت فجأة ، دون أن أدرك بالضبط ما الذي كنت أنوي قوله :

— « أتعرف يا عبد العاطي ؟ يتعين علي أنا وكذلك أنت ان نفعل شيئا . لا ينبغي ان نستمر كذلك ، لم يعد بوسعنا ان نستمر حتى لو اردنا . يجب ان نفعل شيئا ... »

وكان عبد العاطي يتجه برأسه نحوي ويستمع بكل جسده ، ليس بأذنيه فحسب ، وقد هز رأسه موافقا على ما قلت ، الا انه أشار الى داخل الفرن اشارة لها معنى ، فقلت :

— « تقصد الولد ؟ أنا وانت والولد ؟ »

هز رأسه ، فيما مضيت أقول :

— « وماذا ينفذ ذلك الولد ؟ انني متأكد انه يكرهني ويكرهك ، وذات يوم سيقتلنا » .

ابتسم عبد العاطي ، وقال شيئا وهو يهز رأسه منكرا ما قلته ، الا أنني لم أكن مقتنعا بجدوى هذا الثلاثي المتنافر الذي لا يعرف أين يتعين عليه ان يذهب .

قلت :

— « طيب ... حتى لو كنا ثلاثة ، أنا وانت وذلك الولد ، فماذا ترانا سنفعل ؟ »

ولم أعد احاول معرفة ما سيقوله عبد العاطي ، فقد كنت متأكدا انه يعيش مثلما أعيش ، وسط تلك الغابة الكثيفة من علامات الاستفهام ، فمضيت أتحدث وكأننا لنفسي :

— « نستطيع مثلا ان نذهب فنحطم قبر الولي ونخلع شجرته ونفش غلنا . نستطيع ان نذهب فنضرب مصطفي ونرغمه على الزواج من زينة . نستطيع ان نلقي خطابا في جموع اللاجئين الذين يقفون بالصف لتسلم الاعاشة . نستطيع ان نفعل ذلك وأكثر ... نستطيع ان نعود الى الطيرة .. الا نستطيع ؟ »

تلك اللحظة دخل الولد مرة أخرى ، قادما من الفرن ، ويبدو انه سمع جزءا مما كنت أقوله ، فرماني بتلك النظرة القاسية التي يعطيها جسده الحديدي العاري نبرة أشد قسوة ، واتجه الى عبد العاطي بالحديث ، وقد استغرق الاثنان بالجدل فجأة حتى انهما لم يلتفتا الي وانا اتقف ، ثم أغادر الفرن خارجا الى الطريق الذي كان يسبح ، صامتا ، في وهج الشمس .

— ١٢ —

ها انت تغطس في عتمة الذاكرة كما تنطفئ الشمعة ، أيها الولي المقدس النائم في البرية تحت شجرته المباركة ، وحين ذهبت انما أخذت معك كل الشموع التي أضاعتها أمي في ليلى الذي قالت لي انه سيمتد الى الابد ، وقد حسبت ان العتمة ستزداد حلقة ، ولكنها بقيت على حالها ، وها أنت ذا توغل في الماضي كأنك لم تكن قط .

وطوال أيام ، بعد أن قتلناك تلك الليلة في اعماق البرية ، كنت انتصارنا الذي رد الينا نبض الحياة في صدورنا ، وها هي الايام تمضي ، فاذا بموتك يفقد نضارته ، واذا بنا

نحسه في أيدينا انتصارا صغيرا يذوب ويفقد توجهه ، أنت يا درع البؤساء الوهني ، ما الذي فعلته بنا ؟

كنت درعنا وكنا نحسب أنك تحمينا من طعن رماح الزمن الذي نخوض في غماره ونسبح بين أنصالها ، وحين أطرحناك عرفنا أننا لم نكن نخوض في غابة الزمن ، وكنا واقفين على ضفته واهمين ، متمسكين بذلك الدرع الذي هو أنت وكان القتال في أوجه .. الآن نحن بلا درع ، ولكننا نخوض في شوك الزمن وفي ناره وفي أمديته ، بصدر مشرعة عارية تطعم لحمها لذلك الارتطام المخيف مع المجهول .

فأعطنا يا عبد العاطي ، أيها الولي النائم تحت بلاطة النسيان ، في البرية التي تعوي فيها الغربة ، القدرة على أن نكرهك ، فقد تيقنا أن موتك لا يكفي ، وأنه انتصار يذوب مع الأيام ولا نستطيع أن نعتاش على مذاقه الذي كان له ، ذات ليلة ، طعم القضاء والقدر .

فأعطنا ، أيها الولي الذي صرفت من أعمارنا عمرا اضاميا لك ، القدرة على أن نكرهك بكل وشيجة من وشائج قلوبنا ، فليس أمامنا ، بعد ، إلا أن نحبيك بالكراهية ، كي نقتلك مرة أخرى . فكما صرفت أنت من أعمارنا كي تعيش ، لا نستطيع إلا أن نصرف من موتك ، كي نحوك تماما من حياتنا ، ثم نرتقي فوقك .

— ١٣ —

كان يوما مترعا بالزجر حتى قرارته ، لكأن الناس كفوا عن شراء الخبز لسبب غامض لا يفهم ، وكنت جالسا هناك على باب القرن ، غارقا في تأملاتي ، حينما جاء حمدان يلهث من الداخل ، وكانت رائحة العرق تفوح من صدره العاري وتملا المكان ، وقد عرفت أنه أراد الكلام ، فتلك هي عادته حين كان يعتزم مفاتحتي بأمر يشغل باله ، وكنت أحسب أنه يريد إنهاء ذلك الخلاف ، بيني وبينه ، حول منزلة الولي عبد العاطي ، إذ أنني لم أكن أعرف أن هناك ما يشغل باله في هذه الأيام أكثر من هذا الموضوع ، إلا أن ظني خاب تماما فقد تنهد ، ثم قذف جملته دفعة واحدة مثلها يرمي المرء صندوقا ثقيلًا عن ظهره :

— « لقد عاد والدي » .

وأخذت بهدوء امتص الصدمة حين لطمتني هذه العبارة القصيرة دون توقع مني ، ورغم أنني كنت طوال السنوات الماضية على يقين من أن أبا حمدان ، الذي لم أعرفه قط إلا من خلال أحاديث قصيرة متقطعة مع حمدان ، لا بد له أن يعود يوما ، إلا أنني أبدا لم أتصور ذلك يحدث على هذه الصورة ، بل أنني لم أتصوره يحدث على أية صورة ، فقد كنت أتوقع حدوثه ، ليس غير .

وعاد حمدان يكرر عبارته ، بعد أن تصور أنني لم أسمعها :

— « لقد عاد والدي . اطلقوا سراحه أمس » .

ولا ريب أن حمدان لاحظ كيف انتفضت ، إذ أنه لم يقل لي قط أن والده كان محبوسا ، وبدا لي لوهلة أن هذا الفتى الذي عشت معه عشر سنوات كاملة احتفظ لنفسه طوال تلك السنوات بحياته الخاصة ، ولم يسمح لي بالتعرف إلا على أجزاء يسيرة منها ، إلا أنني حاولت أن أبدو طبيعيا ، وقلت له :

— « هل انتهت مدة حبسه ؟ »

— « لا ، كان محكوما بالحبس المؤبد . دخل السجن قبل نحو ١٢ سنة ، وكان عمري سبع سنين ، وربما ثماني . فقد أخذوا منذ شهور قليلة يطلقون المحابيس الذين مثله ،

وانت تعرف لماذا ، الحرب والهزيمة والفدائيون .. انت تعرف .. »

— « وما علاقة والدك بالحرب والهزيمة والفدائيين ؟ »

— « كان فدائيا .. »

— « كان ماذا ؟ »

— « كان فدائيا .. »

— « منذ ١٢ سنة ؟ »

— « نعم ، دربوه في سوريا ، ونزل الى هناك عدة مرات .. »

— « ولماذا حكموه بالحبس المؤبد ؟ »

— « اطلق الرصاص على خمسة من العسكر ، فجرحهم وسلم نفسه .. »

— « عسكر ماذا ؟ »

— « عسكر في الاردن . كان ذاهبا مع شخصين الى الداخل فاطلقوا عليهم الرصاص .

مات واحد ، ووالدي أخذ يطلق النار على العسكر ... هذا غير مهم الآن . »

أخذت نفسا عميقا وتنهدت ، ولاول مرة في حياتي شعرت انني راغب حتى أعماقي في التعرف على وجه حمدان ورؤية تعابيره وهو يروي ذلك كله ، اذ أن صوته كان محايدا كأنه يتحدث عن كمية الطحين التي يتوجب علينا ان نعجنها اليوم ..

وامتد صمت قصير بيننا ، الا أن حمدان قطعها فجأة :

— « كان من الأفضل لو ظللت صامتا . لا يجوز أن اتحدث لاحد عن ذلك كله ، كان

عليك أن تطلب مني السكوت » .

ومع ذلك فقد كان منساقا الى الحديث كأنها بقوة لا يستطيع ايقافها ، وقد تردد لبرهة قصيرة فقط ، ثم مضى يقول :

— « لو رأيته في المحاكمة ! كنت مع أمي ، وقد حكمه القاضي بالحبس المؤبد ، فنظر

توا من داخل القفص الى أمي ومد نحوها ذراعاه وصاح : « روجي طالقة بالثلاثة

طالقة ، طالقة » ثم أدار ظهره دون أن ينظر الي ، وخرج من القفص بين الحراس » .

وصمت قليلا ، ثم تنهد :

— « وها هو يعود ... أطلقوا سراحه أمس . لو كانت أمي تعرف ان ذلك سيحدث

لما كانت ... »

وصمت فجأة ، وبدا لي انه لن يتكلم قط بعد هذه اللحظة ، ومع ذلك فقد ظلت محتارا في

سبب مفاتحته لي بالأمر كله ، أتراه ينوي ترك العمل في الفرن ؟ أم تراه يستكشف

الطريقة التي يتعين عليه ان يعامل بها هذه الحقيقة الجديدة في حياته ؟ لا ريب انه محتار

حتى قرارة أحاسيسه ، فلم يحدث له قط في حياته ان واجه حالة على هذا المستوى من

الخطورة ، الا ربما عندما قر قراره ذات يوم على الفرار الى الأبد من بيت أمه

وزوجها ..

وعندما طال سكوته ، سألته :

— « وما الذي ستفعله الآن ؟ »

— « أنا ؟ أنا ؟ لا شيء . لماذا ؟ ماذا تغير ؟ حسبت انك تسأل عما سيفعله هو .. »

— « صحيح . هو . ما الذي سيفعله يا ترى ؟ »

— « لست أدري . هذا ما يخبرني .. »

— « كم عمره الآن ؟ »

— « ٢٨ او ٤٠ سنة ، واعتقد انه ما زال قويا ، ولكنني لا اعرف شيئا عنه ، بل انني لا اعرف الى أين ذهب . »

وخيم الصمت ، أعمق غورا ، هذه المرة ، ووقف حمدان ثم سمعت خطواته تدب اللى الداخل . وما لبثت أن سمعت أصوات أرغفة العجين وهي تصطفق على أرض بيت النار فتصدر ذلك الصوت الحميم الذي يشبه تصفيقا خجولا لطفل يخشى وراء ظهره .

كان حمدان ، طوال السنوات التي عرفته فيها ، يميل الى اعتبار والده ميتا ، فقد حذفه من حياته بنجاح او شبه نجاح ، وقد اعتقدت دائما ان السنين اللتين أمضاها مع امه المتزوجة من ذلك الرجل الفظ هما اللتان شكلتا أساس هذه العادة ، فني بيت من ذلك النوع لا بد ان يرغب الطفل على نسيان والده وعلى حذفه من وجوده ، ومع ذلك فقد كان من السهل ان يكتشف المرء أن حمدان يحتفظ لوالده بمكانة خاصة في ذاكرته ، ولكن كرجل ميت ليس أكثر ، مثلما يتحدث حفيد عن كنز دفنه جده في مكان مجهول ، ولا أمل له بالعثور عليه ، فلم يبق أمامه الا الاعتزاز بذكراه .

ولست أدري بالطبع كيف بنى حمدان لنفسه صورة ذلك الاب الغائب ، الذي تبدت لي حياته الآن عاصفة ومثيرة وأيضا محزنة ومغلوطة على أبرزها ، ولست أعرف شيئا عن بسعة تلك الهوة بين والد حمدان كما هو ، وبينه كما هو في رأس حمدان ، ومهما يكن الامر فقد كنت على يقين بأن حمدان أخذ منذ الآن يقف على عتبة حياة جديدة ، وانني قد أفقده في اية لحظة .

— ١٤ —

مضت اسابيع منذ ذلك اليوم الذي استطاع فيه عبد العاطي ، بالاشارات والكتابة وكل انواع الاتصال التي اخترعها البشر ، ما عدا السمع والبصر ، أن يشرح لي فيه كيف ظهر والد الولد حمدان الى الوجود فجأة ، قادما من مكان يشبه عالم الموت .

وكان الولد حمدان نفسه قد استغرق في تأمل يكاد لا ينتهي ، ولكنه لم يعد يكثرث ، مثلما كان من قبل ، بما يدور حوله ، ومع ذلك فلم يقدر لي ، ولا لعبد العاطي ، أن نرى والد الولد حمدان ولو مرة واحدة ، ولم يكن يوسعنا أن نعرف فيها اذا كان الولد حمدان نفسه يرى والده ، وأين ، ومتى .

وفي لحظات عابرة كان يخيل الي أن الولد حمدان اخترع قصة مثيرة من قلب رأسه الصغير ليشغلنا بها أو يشغل نفسه فيها ، على انني لم أكن على يقين من ذلك ، فقد كنت أشك أساسا في قدرة الولد حمدان على اختراع شيء من هذا النوع .

ومهما يكن من أمر فقد استطاع الولد حمدان ان ينسينا ، ولو الى حين ، قصتنا مع الولي عبد العاطي ، وكان يمكن له أن يجزنا بعيدا عما كنا غارقين فيه ، لولا انني وجدت نفسي انا الآخر اعيش مشكلة غير متوقعة ، فاجأتني في المكتب ..

فقد لاحظنا كلنا كيف أخذ مصطفى يتغيب عن المكتب بين الفينة والأخرى ، ثم امتد غيابه في احدى المرات أسبوعا كاملا . وحين عاد في الاسبوع الماضي كان يلبس بذلة خاكية ، وقد جعلنا — كأنها دون قصد — نرى المسدس الكبير الذي كان يديه تحت حزامه .

وفي اثناء غيابه كانت الشائعات قد اكتسحت المكتب ، وقيل لي ان مصطفى أصبح فدائيا ، وهو يختفي بين الفينة والأخرى في مكان ما ليتدرب على استخدام مختلف الأسلحة ، وانه قد تسلم قيادة مجموعة من الفدائيين الشبان التحقوا قبل فترة وجيزة بالثورة الاخذة في الصعود .

كان مصطفى أول من فعل ذلك من بين جميع الموظفين الذين أعزفهم في الدائرة التي
أعمل فيها ، وفي الدوائر الأخرى التي أزورها بين الفينة والأخرى ، وقد أكسبه ذلك
العمل ، على التو ، نفوذا جديدا في المكتب ، وصار — دون اتفاق مسبق من أحد —
يلعب دور الرئيس .

على أن مصطفى نفسه ما لبث بعد أقل من ثلاثة أيام أن استغنى عن جميع الاحتياطات
المصطنعة التي كان يتخذها ، وصار يتمنطق بالسدس فوق قميصه الخاكي ، ووضع
على صدره شعارا نحاسيا لامعا وعلق وراءه ، على الجدار ، خارطة مزرجة بالدم ،
ومعنونة بأبيات من الشعر الوطني .

وإمس جاء مصطفى الى طاولتي ، وأخذ يتحدث بصوت غاضب ، ولكن من الواضح انه
يجعله عاليا قدر الامكان متوقعا مني أن أسمع ، الا أنني لم أفهم شيئا ، وقد هدأت من
فورته بحركة متصلة من كفي ، ثم قلت :

— « لا أسمع شيئا .. لا أسمع شيئا ، فلا تتعب نفسك ... »

وصمت قليلا ، ثم احتقن وجهه بالغضب من جديد ، وأخذ مرة أخرى يصرخ بملء صوته ،
وأخيرا ، أنحنى ، وكتب على ورقة أمامي :

— « ماذا فعلت من أجل وطنك ؟ »

ونظرت اليه مندهشا ، ولكنني لم أستطع أن أجيب لتوي على ذلك السؤال المفاجيء ،
وقد شعرت — خصوصا — أنه سؤال مهين إذ جاء على لسان مصطفى ، وقد انتهز
هو فرصة حيرتي وترددتي فالتفت الى بقية الموظفين الذين كانوا يراقبوننا صامتين ،
وأشار اشارة جانبية نحوي ، وأخذ يتحدث اليهم ضاربا بجمع قبضته ، بين لحظة
وأخرى ، على الطاولة ، ملوحا بذراعيه ، متقدما خطوة الى الامام متراجعا الى الوراء
بحركات شبه مسرحية ، وكان من الواضح ، وأنا أراقب عروق رقبتة ، ان صوته أخذ
بالعلو درجة وراء درجة ..

وفجأة تذكرت ذلك الحلم الذي عشته فترة من الزمن ، وقلت نفسي : « ها هو ذا مصطفى
يأخذ مكاني ! » فأخذت ابتمسم ، الا أنه رأيي ، فنقدم نحوي والشرر يتطاير من بين
أسنانه ، وإمسك بياقتي بكلتا يديه وأخذ يهزني بضراوة وهو يقول شيئا ، هو أغلب
الظن شتيمية واحدة مضى يكررها مرة تلو المرة .

منذ زمن طويل لم استخدم عضلاتي التي كانت ذات يوم قوية ، وقد انتابني في تلك
اللحظة تشعيرية من الغضب لم أشعر بمثلها في حياتي . أمسكت زنديه بقبضتي وأخذت
أضغط بكل الغضب الذي كان يستعر في صدري — وقد رأيت في عينيه انحناء الضعف ،
وحين فك أصابعه عن يماقتي ظللت ممسكا بزنديه ، وكان يقاوم جاهدا ، الا أنني
ضغطتها الى أدنى ببطء ، حتى أوصلتها الى سطح الطاولة ، فضربتها هناك مرتين ،
ثم تركتها ، وجلست .

وظل مصطفى لحظة ينظر الي مشدوها ، دون أن تنفرج شفثاه عن كلمة . الله الله يا
طيرة حيفا ! هكذا تصبح قبضات الأيدي من فرط ما تعاملت مع الأرض والوعر والثلث !
الله الله يا طيرة العز ! حتى عندما كنت طفلا صغيرا كنت أرى في الحقول المكان الوحيد
الذي يصح فيه الكلام . كنت أمضي النهار وأنا أدق بالمنكوش ذاك التراب الذي سرعان
ما ينشث من جديد ، أحمل الحجارة ، أستل النبات الضار من جنوره الضاربة في عمق
التراب .. الله الله يا طيرة العز ! كنت معروفا هناك — وأنا ما أزال فتى — بأن القوة
الكامنة في زندي هي من الضخامة بحيث لا يقوى أحد على تحديها، ولطالما انتظرت أمام
الجامع ، في الطيرة ، حتى يفرغ الشبان من اختيار بطلهم حتى أنني له ذراعاه على بلاطة

درج المصعد ، ولم يكن ذلك ليستغرق مني الا دقيقة او دقيقتين . . . كم مضى من الزمن دون أن أختبر تلك الثورة ؟ أتراها ما تزال مخزنة في جسدي ، أم أن مصطفى بالذات رجل خرع ؟

عدت فوقفتم ، ولوحت أصبعي في وجه مصطفى الذي كان ما يزال واقفا هناك يحدق إلي مشدوها ، وصحت بوجهه :

« اسمع يا ضرنط ! سأكسر يدك إن حاولت مرة أخرى أن تمددما نحوي . . . تستطيع أن تذهب وتتشاطر على الأرامل والمطلقات . . . أم تراك تحسب أن البدنة صيرتك رجلا يا حرام الشوم ! »

وأخذت شفهاه تتحركان ببطء ، الا أن وجهه ظل جامدا كأن رجلا آخر كان يتكلم في تلك اللحظة . ولم أستطع حتى أن أخمن ما الذي كان يقوله لي ، وما لبثت أن استندار ، بعد أن انتهت ، وخرج من المكتب صافقا الباب خلفه بعنف . . .

وقد هدا الغضب في صدري مثلما تنطفئ نار مهبلية ، وظللت جالسا الى مكتبي مضطربا طيلة ساعات الدوام ، فقد كنت أحس في أعماقي بأن مصطفى يعد لي فخا ، وأنه قد يعود في أية لحظة ويفاجئني بأمر لا أحسب حسابه ، وتوزعتني مشاعر متناقضة . ومع ذلك ، فقد كنت أدرك وسط كل حيرتي أنه يتعين علي الذهاب الى عبد العاطي ، فقد احتاج للولد حمدان ، او لعلمي احتاج الى والده المجهول الغامض . . . ولكنني لم أكن أعرف على وجه التحديد ما الذي يستطيعون عمله ، وقد انتظرت بلهفة انتهاء الدوام ، ومضيت لتوي الى عبد العاطي . . .

وقد شرحت لعبد العاطي ما حدث ، وكان حمدان واقفا على باب الفرن يستمع بعناية الى كل كلمة أقولها ، ولست أدري لماذا كنت أخشى ، أكثر مما أخشاه ، أن يؤلب مصطفى ضدي كثيرا من الناس ، وكذلك الشرطة ، بسبب حديثي المتواصل عن الولي عبد العاطي ، وعن تكرار التصريح بعزمي على هدم قبره وقطع شجرته ، ولعلمني قلت مرة ، أنني سأبول هناك . والواقع أن اصراري على الحديث عن الولي عبد العاطي على تلك الصورة كان سببه بالدرجة الاولى اصرار مصطفى على الدفاع عنه ، فقد كنت عازما على الانتقام منه وأغاظته وقلب حياته في المكتب الى جحيم . . .

ومع ذلك ، فانتني لم أصرح لعبد العاطي بمخاوفي هذه ، رغم أنها تمسه مباشرة ، ولعلمني كنت خائفا من أن أثير غضب حمدان ، الذي كان ينصت الى حديثي بانتباه فائق ، وكنت أخشى أن يأخذ جانب مصطفى فأفقد تأييده لي .

ولكن ما أن انتهيت من شرح حكايتي مع مصطفى ، وعبرت عن مخاوفي من انتقامه ، وطلبت نصح عبد العاطي ، حتى انغمس حمدان مع عبد العاطي في جدال مطول ، وقد انتهى الامر بأن طلبا مني التريث ، وأن أترقب بحذر خطوة مصطفى التالية .

وقبل أن أذهب لحق حمدان بي ، وقد رأيت له لأول مرة في حياتي ينتسم ، وقد شرح لي بالإشارات انه سيخبر والده بكل ما حدث ، مؤكدا لي أن والده له مكانته المهمة ، حتى الآن ، بين قادة القداميين .

- 10 -

عاد حمدان من عند أبيه ، وشعرت من خطواته وهو يدخل الى الفرن انه يحمل على أكتافه خيبة أمل ، وقد جلس على الكرسي الذي نضعه عادة قرب الباب ، واستغرق في الصمت منتظرا مني أن أحرضه على الكلام ، مثل عادته كلما كان يحمل خيرا سيئا . وقد تركته صامتا لفترة طويلة ، وأنا أفكر فيما عساه سمع من والده الغامض بشأن القضية التي تعلق أبو قيس ، وأخذت أتصور ما يمكن أن تكون اثنتا عشرة سنة من

الحبس قد فعلت برجل مثل أبي حمدان ، لعله قد غرق في النسيان ، ولعله حين قطع أواصره بالعالم ، وهم يقتادونه الى ما حسب انه قبره طوال العمر ، فطلق أمراته ، ونسي ولده ، وغرق في وحدته المضجرة ، انها مود نفسه على أن يحتقر العالم ، وليس بوسعك ان تفعل ذلك الا اذا روضت نفسك على اليأس منه الى حد القطيعة معه . وهي الحيلة التي يلجأ اليها السجناء كي لا يموتوا من الحزن في وحشتهم وبعدهم عن العالم ..

كيف تراه ينظر الى هذا العالم ، والى الناس ، والى كل المعاني البسيطة التي تشغلنا وتشغل رجلا مثل أبي قيس ؟ أترأه يستطيع أن يخرب حمدان أو يزرع في شبابه غيوم اليأس من هذا العالم ؟

قلت أخيرا ، كي أخفف على حمدان :

— لا ريب ان اباك يسخر من كل شيء ، وهو يرى ان قضية أبي قيس لا تستحق كل ذلك ... بشرفك ، ألم يضحك عليك ؟

وبعد هنيهة جاءت الدهشة التي توقعتها ، في صوت حمدان :

— كيف عرفت ؟ قل لي كيف عرفت ؟

— ذلك شيء متوقع ..

— ربما ، ولكنك لا تعرف ! لقد تغير والدي كثيرا ، كثيرا جدا . السجن غيره ، وهو ليس كما كنت أتوقع ...

— ماذا تعني ؟

وأخذ حمدان يتأنيء ، مترددا ، فعرفت انه لا يستطيع التعبير على وجه الدقة عما حدث ، فتركته يفكر ، وقد اختار جملة أو جملتين ، على أنه عاد فتوقف في منتصف كل منهما والتجأ الى الصمت . وأخيرا قذف عبارة مختصرة دفعة واحدة وكأنه كان يخاف أن يغير رأيه :

— لقد تعلم السياسة في الحبس !

وخيم صمت طويل بعض الشيء ، ميزته فيه ذلك النوع من السكون الذي اعتدت ان ينشأ بيني وبين أبو قيس . ذلك الصمت الذي يدوي فيه صوت الانتظار ، وكان هذا النوع من الصمت نادر الحدوث بيني وبين حمدان ، وأخيرا عاد حمدان الى الحديث :

— انه طوال الوقت يتحدث عن رجل كان سجيننا معه ، تارة يقول انه رفيق ، وتارة يقول انه مناضل . وكل شيء له معنى عنده ، ويستجر حديثا طويلا ، وحين شرحت له ما حدث بين مصطفى وبين أبو قيس ضحك وقال ان مصطفى من «جماعة الطق طق» ..

— «جماعة الطق طق» ؟

— اي نعم . قال «جماعة الطق طق» ، اي أولئك الذين يختارون من بين كل المتاعب بند «الطق طق» ..

— ماذا يعني «بالطق طق» ؟

— يعني القواص . يقول ان اطلاق الرصاص نوعان ، نوع يسمى «الطق طق» ، ونوع يسميه السياسة ... وهو يقول ان مصطفى من «جماعة الطق طق» ..

— لم أفهم شيئا ..

— وانا لم أفهم ، والظاهر انني أخطأت حين قلت له انك أنت الذي يستطيع أن تفهم

عليه ، وذات يوم لا بد ان احضره الى هنا كي تثرثرا حتى تنفلقا . انكما تشبهان بعضكميا
من حيث انكما تقولان امورا كثيرة لا معنى لها ..
وقام حمدان من مكانه واخذ يتجه الى الداخل ، وعندما مر بجواري امسكت بزنده القوي
فوقفت ، وسألته :

— مهما يكن ... ماذا بشأن ابو قيس ؟

واجاب حمدان :

— قال انه لا يستطيع ان يفعل شيئا ، وان على ابو قيس ان يقطع شوكة بيده ..
وفيما كنت اسمع خطواته تدب نحو الفرن كان رنين الاعتزاز الكامن في صوته ما زال
يرن في رأسي ، ولم يكن من الصعب على المرء ان يسمع ، تحت نبرة الحيرة التي كانت
تكسو صوته ، رنة عميقة من الافتخار بوالده ، انه يتحدث عنه ، وعما قاله ، وكانته
تعاليم ينبغي علينا التعمق في حل رموزها واشكالاتها ، ولكن لا ينبغي لنا الشك بصوابها
مهما كان الامر .

وقلت لنفسي ان الاقدار تلعبه ببراعة ، اذا ما حاولنا ان نفهم ، فهاعذا اضيع نيبا حين
اخفق الولي عبد العاطي في نجدتي ، وها هو حمدان يجد وليا جديدا ، ولكنه ولي محير ،
ومع ذلك فليست عذاباتنا تختلف كثيرا عن بعضها ..

ويبدو ان حمدان لم يستطع البقاء طويلا امام بيت النار مع افكاره ، اذ ما لبث ان عاد ،
وقد جاءت رائحة العرق التي تنبعث من جسده ، كلما وقف امام النار ، قبل ان تجيء
اصوات خطواته . ووقف امامي ، وسألني :

— اتعتقد ان السجن اثر على والدي ؟ ام انه كان طوال عمره هكذا ؟ لقد قال لي هو
نفسه انه تعلم كثيرا من السجن ، وان الحظ قد ساق له ذلك الذي يسميه تارة رفيقا
وتارة اخرى مناضلا ، فتعلم منه الشيء الكثير .. وقد سألني عما افعل ، وحين قلت له
انني اعمل هنا لم يقل شيئا ، بل اخذ ينظر الي بدهشة ..

— هل يعمل الآن مع الفدائيين ؟

— اعتقد ذلك ، ولكنه يقول ان ما تعلمه في السجن يجعله يعتقد بان «جماعة الطق طق»
بحاجة الى تعلم الكثير ، وانه هو نفسه كان من جماعة الطق طق قبل ١٢ سنة ، اما
الآن ..

وخيم صمت قصير ، وفجأة غير حمدان الموضوع ، ولكن دون ان يبدو ذلك التغيير في
نبرة صوته :

— لقد تحدثنا عدة مرات عن الولي عبد العاطي ..

— ماذا ؟

— رويت له قصتكما معه ، ومعني ، وسألته رايه ، انت تعرف ، اردت ان اتيقن من هذه
القضية . فهي تشغلني منذ فترة ..

— طيب ، ماذا قال ؟

— لقد ضحك كثيرا ، ثم قال ان الاولياء مثل الافاعي التي في قصة الزير ، اذا قطعت لها
راسا طلعت مكانه سبعة رؤوس .. ثم شتمني ، وقال انني « ولية » . وقال انه
ياما هدم الناس قبورا للاولياء ، وياما كفروا ، وياما حنقوا بالطلاق الا يسمحوا لاحد
بان يخدعهم مرة اخرى ، ولكنه قال ان هذا ليس هو المهم ، المهم انك اذا هدمت قبر
الولي فعليك ان تقلعه من شروشه ، والا تسمح لولي آخر بان يأتي من وراء ظهرك ..

انه طول الوقت يحكي هكذا ، تقول له : كيت وكيت يقول لك ، طيب ، ولكن شرط كذا وكذا . كل شيء عنده له أول ووسط وآخر ، ودائما يقول ان الامور غير هذا ، وان المسائل اعمق من هكذا .. وهكذا .. ولكنني لا افهم كل شيء ، واطل اهرز رأسي ..

— أنا اعتقد انني افهم بعض الشيء أيضا ..

— أنت مثله . انتما تتحدثان أكثر من قاضي معزول ، وأنا اعتقد انه لم يشعر بالملل في السجن ، فقد أمضى الوقت ، طوال ١٢ سنة ، يتحدث مع ذلك الرجل الآخر بالسياسة ... على كل حال . فقد رأيت انه يحتفظ تحت فرشته بمدفع رشاش . هل تعرف معنى هذا ؟ معناه ان الحبس لم يغيره ، اليس كذلك ؟

— ١٦ —

دخل ابو حمدان الى حياتنا عن بعد ، ولكنني لم اره قط ، ولا استطاع عبد العاطي أن يراه ، وكنا نسمعه من خلال الولد حمدان ، ونراه من خلال التغير الثابت الذي كان يطرأ على هذا الفتى يوما بعد يوم ، وكان عبد العاطي يستمع الى الولد حمدان وهو ينقل تفاصيل مقطعة عن الكلام الذي كان يتبادلته مع ابيه، ومن ثم كان يشركني بالحصيلة عبر أساليب مختلفة كنا ، دون أن ندري ، نطورها نحن الثلاثة معا من خلال احتكاكنا المتواصل ، ومن خلال المواضيع التي كنا نرى انفسنا نبحثها في كل يوم .

ولم يعد مصطفى يخيفني ، وفي الحقيقة انه لم يخفني قط قبل ذلك ، الا انه كان يثير فيّ خشية بالنسبة للمستقبل ، ومع مضي الايام أخذت أنا ، وأخذ بعض الموظفين ، يدركون بأن الحدود التي يستطيع ان يصلها في نشاطه ليست بعيدة الى الجد الذي اعتقدناه في البدء ، وان مسار يومياته قد مضى على الاسلوب نفسه الذي كان لها منذ ان عرفناه ، لعدة سنوات خلت ، الا أن زيادات طفيفة — مثل ملح الطعام او بهاراته — قد طرأت هنا وهناك على نشاطه اليومي .

وقد كانت حياتنا تسير بشيء يشبه الهدوء ، لولا ذلك الطعم الجديد الذي ادخله حمدان اليها ، بطريقته المفعمة بالتحير ، الى أن حدث ذات يوم حادث بدا لي صغيرا في لحظتها، ولكنه لم يكن كذلك كما تيقنت فيما بعد ، فقد كنت في مكنتي في الوكالة حين أحسست بأن شخصا ما يقف قرب طاولتي ، وحين رفعت بصري وجدت زينة واقفة هناك وهي تحمل احد أطفالها على خاصرتها ، وقد بدت لي اقل جمالا مما تصورت ، ولا شك ان الحزن قد انهكها ، وكانت تتحدث الي والدموع تملأ عينيها ، الا انني لم اكن لافهم شيئا ..

وفجأة اصطدم بصري بمصطفى الذي كان جالسا وراء طاولته ، قبالي يسترق النظر دون ان يتحرك ، فاشترت لها ان تذهب اليه ، ولكنها دون ان تنظر الى حيث اشترت أخذت تهز رأسها رافضة وهي تصرخ ، وشرع طفلها يبكي ويتمسك بها ، ودون توقع مني بدأت دموعها تنهمر وكان ابوابا موصدة امام عينيها قد فتحت فجأة على مصاريعها . وربما لن اعرف ، طوال عمري ، ما الذي كانت تقوله تلك اللحظة ، واشعر في كل لحظة بندم شديد ولا ادري لن يتبين علي ان أوجه وخزائنه ، اذ لست اعرف من الذي ينبغي أن يلام ، ولقد استدارت وخرجت من المكتب وأنا انظر الى كفتيها يهتران من تأثير النشيج الذي كانت غارقة فيه ، وكان رأس طفلها المعلق على خاصرتها يهتر هو الآخر بنتاغم محزن ، وفي تلك اللحظة نظرت نحو مصطفى ، واعتقد انني شهدت ، للحظة اقل من الثانية ، بقايا ابتسامة خبت بسرعة حين شاهدني انظر اليه ، وعندها فقط مر في رأسي قرار صغير ، بأن انهض واتجه نحو مصطفى وأستل عمره من عروق رقبته ، ولكنني هدأت بسرعة ، وتنهدت ، وعدت الى أوراقي .

العاشق

في البدء لم يعرف احد في الغيبسية كيف جاء قاسم اليها وسكن فيها ، دخلها ذات يوم كما تدخلها الريح القادمة من الجبل وصار لتوه شيئا من أشيائها الصغيرة ولكنه أبدا لم يستطع ان يكون من ناسها ، ويبدو انه هو ذاته لم يكن راغبا في ان يصبح كذلك . لقد تسلل اليها بلا صوت وبقي صامتا طوال الوقت تقريبا وهكذا فقد حرم الناس حتى من ان يجدوا فيه قصة يحكونها بعد ان حرمهم من أية علاقة معه ، وفي الحقيقة فهم لم يروه تماما الا بعد مضي زمن طويل على قدومه ، حتى انهم تعرفوا اليه عبر حكاية رواها لهم الشيخ سلمان ، كبير الغيبسية ، الذي يملكها بأرضها وناسها ودوابها وزيتونها . « لو تعرفون ما حدث لقاسم هذا الصباح » وهكذا عرفوا اسمه لأول مرة ، ولكن قلة منهم استطاعت في تلك الوهلة ان تذكر ملامحه ، انه ، لأول مرة ، صار موجودا فجأة ، ويبدو ان حضوره بهذا الشكل على لسان الشيخ سلمان ربطه به الى الابد ، ولم يعرف قاسم نفسه في حياته كلها رجلا استوقفه الا وسأله عن حال الشيخ سلمان .

لقد جاء قاسم في ديوانية الشيخ سلمان ذلك الصباح فجأة ، ودون توقع ، دخل الى الناس مع ايقاع صوت الشيخ سلمان المهيب وسط الصمت الذي كان يخيم عادة كلما تحدث ، والحقيقة ان قاسم نفسه كان في تلك اللحظة جالسا بهدوء على كوم من التبن في الاسطبل ينظر بحيرة الى قدميه وقد رفعهما قليلا الى فوق ، وكان الشيخ سلمان يقول لزواره انه صحا في الفجر فصلى وكان المنزل صامتا ومستغرقا في النوم . اخذته كرسيا وخرجت ، كانت السماء جدارا عاليا من البللور النقي باردا وبعيدا وكان الفضاء يشبه الدخان ، وراء البيت سمعت سهيلا صغيرا وصوتا زاجرا ثم رأيت رجلا يطل من وراء الجدار مع الفرس .

كنت قد غسلت الفرس وسقيتها وجعلتها تخب في الساحة الخلفية للدار كي تنفض النوم عن عضلاتها ، وعرفت حين وقفت فجأة وصهلت ان الشيخ سلمان قد خرج من البيت ، وحين صرت مع الفرس على زاوية البيت رأنا ، فأشار لي ان اتقدم . سألته ان كان معجبا بالفرس فهز رأسه وربت على كتفها ونظر في عينيها وابتسم ، عندها سألته عن اسمه فقال « أنا قاسم » ثم سألته ان كان يستطيع ان يحضر لي فنجانا من القهوة فهز رأسه ونظر في عيني الفرس ورأيتها يبسمان لبعضهما ثم يسيران معا دون ان يقود أي منهما الآخر .

وضعت الفرس في مربطها وأخذت بنا من داخل البيت وجمعت حطبها ومضيت ، في دورة واسعة حول الساحة الامامية للبيت كي أتجنب المرور من امام الشيخ سلمان ، الى اول الحقل . كانت نارا جيدة .

وأخذت أراقبه من بعيد ، عبر الساحة الامامية ، ينفخ النار ويهز فيها وغوتها ابريق النحاس هزة العارف ، كان رجلا صلبا وقد رأيت عضلاته تحت قمبازه الرقيق تتكور مشدودة وهو يحني قامته الطويلة فوق النار ، وبدا لي لوهلة ، وهو محني فوق الوهج امام صفحة السماء الشهباء ، يشبه الحصان الفتى . وتساءلت : من ترى وجده وأعطاه عملا هنا ؟ وفي اللحظة التالية أنتصب واقفا غبدا أطول مما توقعت ولوح بالابريق ثم بدأ يتجه نحوي ، عبر الساحة . . وكادت أنتصب واقفا وأصرخ الا انني ، قبل ان أتزحزح ، كان الاوان قد فات ، ورأيته بأم عيني يدوس على الرماد الذي تخلف من نار ليلة أمس الكبيرة التي أشعلناها في الساحة ، وقلت لنفسني « اذن ، فالرماد قد برد » وتنفست

السعداء ، الا انني فجأة رايت الشرر يتطاير من تحت قدميه الحافيتين وهو يغوص في حقل الرماد الواسع ، ولا شك انني بدوت له مجنونا وأنا أهدق فيه فاغر الفم يسير بهدوء وثبات فوق النار .

لم انتبه الا حين خطوت الخطوة الاولى فوق الرماد . لقد بدا لي باردا في ذلك الفجر المسالم ، لم يخطر في بالي على الاطلاق انه كان مجرد فمخ لمعون ، وأحسست بالنار تسلخ راحتي قدمي وكدت اسمع نزيز الدم ينطفئ بصوت مسموع تحت بدني ، وفجأة رايته ينظر الي بعينين مفتوحتين على وسعهما ، كان ابريق القهوة المملئ حتى حلقه يرجف في يدي رجفات صغيرة . انه من سوء الطالع ان تسقط الركوة من يدي وتندلق القهوة في ذلك الفجر وجها لوجه انا والشيخ سلمان وحدنا في هذا العالم .

وظل يتقدم ، كأنه يمشي على عشب . لقد هزني الرعب وسمعت نبض قلبي جنباً الى جنب مع الفحيح المكتوم للنار الراقدة تحت قدميه الحافيتين وقلت بيني وبين نفسي « نبي او مجنون » . ان ضوء الفجر جدير بان يحبل بالاعاجيب ، ولكنه وصل ، ووقف أمامي بالهدوء ذاته فيما أخذت أهدق الى قدميه ، كان الابهامان فقط يرتفعان عن التراب بحركة راجفة . سكب القهوة بثبات ، ووضعها على الحجر المستدير الى جانبي وتحرك مبتعداً دون ان يولييني ظهره وصرخت : « قاسم ! » فوقف دون أن يقول شيئاً ، وعدت أقول : « ماذا فعلت بنفسك يا فتاح يا عليم ؟ » فنظر وراءه الى حقل النار ، وراينا معاً دخانا ضغيرا يتعالى من الحفر التي خلفتها خطواته ، ثم عاد فنظر الى قدميه ثابتتين فوق التراب . ثم الي . وانتظرت ان يقول شيئاً الا انه فرس راحتيه محتارا ، وعاد ينظر الى ابريق القهوة .

وكنت أريد أن يتركني أمضي الا انه ظل ينظر الي مستكرا ، ولم يكن لدي ما أقوله ، فهو يعلم انني لو تركت ابريق القهوة يسقط من يدي في ذلك الصباح الساكن ، وأنا وهو وجها لوجه وحدنا في هذا العالم ، لما تيسر لي أن أظل هنا لحظة اخرى ، ولما تيسر لي أبدا ان أرى « سمرا » مرة اخرى ولكانت قدمي ، على أي حال ، قد احترقتا ايضا ، مضيت الى الاسطبل وأسقطت قدمي في بركة شرب الخيل : في البدء انداحت حولهما غيوم رمادية أخذت تحمر رويدا رويدا وأحسست بلسع البرد يمتزج بأعين الجروح ، ثم جاءت « سمرا » فشمّت الماء ونظرت الي برهة ثم تقدمت فحكّت أنفها الوردية فوق كتفي وقالت لي ان القروح لن تلبث ان تلتحم ، فقمّت معها الى كوم القبن حيث جففت قدمي ، وهناك تركتني أتهدد ريثما تجف القروح .

في تلك الظهيرة ، وبعد أن ترك الزائرون ديوانية الشيخ سلمان ، ولد قاسم فجأة ، وصار يرى في الغبسية هنا وهناك . ولم يكن بوسع الناس ان يحكوا عنه الا قصة مشبه الهاديء على النار ، لقد تحدثوا ايضا عن قدميه الملفوفتين بكوم كبير من القماش المتسخ ، ولكن فيما عدا ذلك ظل قاسم خارج حياتهم ، واذا كان قد دخلها لفترة قصيرة فقد خسر مقابل ذلك شيئاً عزيزاً عليه هو اسمه . . ذلك انه حين رويت القصة لاستاذ المدرسة في مساء اليوم ذاته ضرب كفا فوق كف وهو يضحك ضحكه الشهيرة التي تشبه غرغرة الأبريق وقال : « هذا شيء لا يحدث الا لعاشق » وجاهله الشيخ سلمان بضحكة مقتضبة عرف منها الاستاذ انه مطالب بتوضيح ، فمضى يقول : « ان نار العشق التي تكويه من الداخل أشد حرارة من النار التي داس عليها ، ولذلك لم يحس بها . انه عاشق » ، وهكذا فقد قاسم اسمه دفعة واحدة ، وفجأة . . وفي الواقع كان حضوره ذلك اليوم قصيرا جدا ، ففور ان اكتشف الناس وجوده جردوه من اسمه فغاب مرة اخرى ولكن بطريقة جديدة .

ولم أعرف ما حدث الا في المساء ، كنت واقفا خارج الباب حين بدا ضيوف الشيخ سلمان

يغادرون ، وفجأة قال لي صوت ما : « ليلة سعيدة يا عاشق » وضحك صوت آخر وراءه ، ثم سمعت صوتا ثالثا يقول لي يا عاشق وعرفت فوراً أنني فقدت الشيء الآخر الذي حملته معي من تلال ترشيحا .

لا احد ، على أي حال ، يعرف كيف ترتب الحياة نفسها . . أحيانا يحسب المرء ان قصة ما انتهت فاذا بها تبدأ . ان مستقبل انسان كاملا تراه فجأة متعلقا بحادث صغير لا قيمة له ، ان عقدة المسبحة اصغر من حباتها ولكنها اذا انفكت كرت ثلاث وثلاثون حبة واحدة اثر الاخرى ، وحيانا ينحرف الماعز الاكبر في القطيع وراء قشرة برتقالة فيتبعه القطيع بأكمله ، وقد يجتاز سراجا فيشتبك الرعاة بالمزارعين ويهوت ناس وتفقد دواب وتمعد ولائم الصلح فيأكل فتراء القرية ومجانينها وأطفالها العراة وخيلها وبقرها ، ويرى مدعو ما فتاة ما هناك فيخطبها ويتزوجها وتنجب له اولادا وبنات يعيشون ويموتون ويمشي في جنازاتهم رجال لا يعرفونهم خطوات السنة العشر ويتحدثون وقد يتفقون على شيء او يتشاجرون .

والذي لا شك فيه انه كان مقدرنا لقاسم ان يمضي حياته كلها وراء بيت الشيخ سلمان يحادث سمرا وينام الى جوارها فوق هسيس التبن لو لم يدس ذلك الصباح على الرماد الملتهب ويدخل ، بخطواته الثابتة الجريئة ، الى رأس الشيخ سلمان وذأكيرته ، فحين كان الشيخ سلمان يستوي بهابة في الحنطور صباح اليوم التالي مستعدا للعودة الى بيته في عكا سألته القيم على مزارعه ان يعين موظفا جديدا يحمل الخضار على ظهور الحمير كل صباح الى حسبة عكا بعد ان ارتكب حامد ذلك الحادث البشع : سرق حمارا وهرب بحمولته الى مكان مجهول تاركا الحمير الثلاثة الاخرى واقفة على عرض الطريق قرب مقبرة عكا الى ان وجدهم رجل بالصدفة .

وكان الشيخ سلمان على عجلة ، شأنه كلما كان على وشك العودة الى عكا ، ولم يكن في ذهنه ايما شيء ، فقال للرجل الذي كان يقف الى جوار العربية : « دع العاشق يتسلم الحمير كل صباح الى حسبة عكا بعد ان ارتكب حامد ذلك الحادث البشع : سرق حمارا في الساحة الخلفية مدركة انه يتعين عليها الانتظار حتى بعد ظهر الخميس القادم كي ترى الشيخ سلمان مرة اخرى ، وأطل قاسم من وراء البيت ورأى الرئيس واقفا ما يزال في حلق الطريق الضيق فأحس فوراً بأن شيئا رهيبا سوف يحدث ، وفي اللحظة التالية تلاقت ابصارهما .

رايت في عيني العاشق وميضا مخيفا ، ولاول مرة احسست بأن هذا الرجل المتين الصامت الذي جاعني منذ اسبوعين يستجدي ان اعينه جرائنا يخفي وراء جلده شينا مخيفا لا سبيل الى نكته ، انه نوع من الرجال ينبت فجأة امامك فاذا بك غير قادر على نسيانه ، وبدل ان يتجه مثل كل الناس الى الاشياء تتجه اليه الاشياء من تلقائها . كانت قدماه ما تزالان ملفوفتين بكومين من القماش المنسوخ وكان اذ يسير يباعد فيما بينهما وينفضهما نفضا ، الا انه لم يكن مضحكا ، كانت سمرا تسير الى جانبه ، وأنا لا أذكر أنني رايت ايا منها وحده منذ جاء الى هنا . لقد وقف ينظر الى من بعيد متوقعا ان أستدعيه ، وحين أوامات له بيدي تقدم نحوي بثبات ، وقلت له : « فجر غد ستأخذ الخضار الى الحسبة » .

وكان ذلك ما كنت اتوقعه وأخشاه ولكنني حين سمعته ظللت صامتا كأن الامر لا يعنيني فيما أخذت سمرا تنفض رأسها المتكبر بغضب ، وأخذ الرئيس ينظر الى منتظرا جوابي فيما ظللت واقفا انظر اليه .

وبدا لي انه لا يريد ، فافهمته ان كل الحرائث يتمنون ان تكون لهم مثل هذه المهمة ، فهي

مريحة ومريحة وتحمل صاحبها مرة كل يوم الى المدينة ، وان الشيخ سلمان اختاره من بين الجميع لهذا العمل وعليه ان لا يخيب أمل الرجل فيه .

واستدار ومضى وتركني مع سمرا عاجزين عن قول ايها شيء : كان يبدو انه يحب وظيفته بلا حدود ، ويسعده ان ينقل الاوامر والطلبات التي يعرف انها لا ترد ، كان معروفا هنا بسلطته القوية وعناقه المستمد من دقته في تنفيذ اوامر الشيخ سلمان وحرصه عليها ، والواقع انه لم يكن يحس بأنه انسان آخر غير الشيخ سلمان ولذلك فحين يكون الشيخ هنا فانه يخفتي ، وحين يغيب الشيخ يبدو في كل مكان في كل الاوقات . وكانت سمرا تنظر اليه محتارة وهو يذق بحذائه الثقيل الساحة الامامية لبنت الشيخ سلمان متجها نحو الحقول ، وحين غاب استدرنا وذهبنا الى الاسطبل لتلقي نظرة أخرى على الحمر .

لقد كرت المسبحة فجأة بالطريقة التي كان يتوقعها قاسم في أعماق نفسه دون ان يقدر على تحديدها بالضبط : وصل الى عكا في الصباح ، وقبل ان يدور حول الساحة متجها الى الحسبة في آخر حديقة البلدية التي تصفر فيها أوراق الكينا زعقت قربه سيارة ، وترقعت اصوات الاحذية الثقيلة واصوات أعقاب البنادق المكتومة ، وخشخشت القيود ، ووجد نفسه محاصرا فيما اخذت الحمر ، وقد فوجئت ، تردت نافضة اعناقها الثخينة وتصدم بعضها بعضا ، وأطبقت الايدي على جسده من كل ناحية ودفع دونها اتجاه مرتين او ثلاث مرات . . الا ان ذلك حدث وكأنه كان يتوقعه بالتفصيل تماما ، فلم يقاوم ، والواقع انه كان يساعدهم بطريقة ما ، فقد سهل على العسكري الذي كان اكثرهم حماسا ربط القيود حول معصيه ، وتقدم نحو السيارة من تلقائه وصعد اليها دون الاستعانة بأي شيء ، وألقى نظرة كسبحة على الحمر وقد ظلت واقفة تنفض رؤوسها باحثه عن اتجاه ما ، وحين شقت السيارة طريقها بين الناس الذين تجمعوا نظرت قبالي ، وكنت اتوقع ان اراه هو ذاته كان ذلك كان شيئا مرسوما منذ ولدت ، وتلاقت نظرانا . كان يبتسم ابتسامة الرجل الذي انتصر أخيرا على غير توقع منه . اسمه الكابتن بلاك ، وقد عظأت أنا بلا شك صعود رتبته ثلاث سنوات كبيرة ، بالإضافة الى المرارة التي سببتها له طوال ذلك الوقت الطويل . نظر الى قدمي أولا وهو ما زال يبتسم خارجا من كابوس لا يتصوره العقل ، ثم الى صدري ، ثم الى عيني مرة أخرى ، ثم وجد الكلمة المناسبة فقلها من بين اسنانه ، « وأخيرا يا عبد الكريم ! »

وفي ذلك المساء قالوا في الغبسية : لقد كان العائيق مجرما خطيرا اختفى هنا فترة من الوقت وخدع الرئيس والشيخ سلمان وكل شيء والحمد لله الذي جعلهم يمسكونه قبل ان يرتكب جريمة أخرى .

وفي الصباح الباكر وصل الشيخ سلمان الى الغبسية على غير توقع من احد ، كان وجهه مضرجا بالغضب وكان ينتفض ، وحين أمسك الرئيس بلجام الحصان قفز الشيخ سلمان بفتوة شاب من مقعده وأخذ يركله ، وعرف الرئيس فوراً انه سيدفع غالبا ثمن أهماله في التقصي قبل ان يقبل الموظف الجديد ، فترك المكان مسرعا وأخذ يدعو .

وأكمل الشيخ سلمان خطواته الغاضبة الى البيت فيما شبت سمرا على قائمتيها الخلفيتين وأخذت تصهل صهيلا مطوطا كأنه النواح . مجرم في منزلي ، محكوم بالاعدام . وقال له ضيوفه مهدين : « ولكنه وقع أخيرا في جزاء أعماله . » .. وضحك الشيخ سلمان بهرارة وأخذ يهز رأسه . كلا . لم تنته قصته ، العائيق هذا ، قاسم ، عبد الكريم . الشيطان ذاته . سيعتقد الانكليز انني كنت أحبته هنا . . من يصدق ان الشيخ سلمان لم يكن يعرف ؟ لعنة الله عليك يا رئيس يا مجنون .

ثم حلف الشيخ سلمان يمينا بالطلاق ان يرمي الرئيس بالرصاص اذا رآه في الغبسية ، من هنا الى الابد .

أما قاسم فقد وضع في سجن عكا ، في الغرفة رقم ٣٦٢ ، وصار اسمه منذ ذلك السجن رقم ٣٦٢ .

العتبة ترتفع ثلاثة أشبار ، وفوقها يلامس كعب الباب الحديدي الأسود البلاط الرمادي الداكن ، طول الغرفة عشرة أشبار وعرضها عشرة أشبار أما سقفها فمرتفع دون حساب ، وفي أعلاه تفتتح كوة صغيرة ينبثق منها قش غاضب . انه موسم الاخصاب عند السنونو ولكنه لا يدخل قط . رأسه فقط يبدو لوهلة مغطى قفاه بالضوء وحين يرف منطلقا ، بين الفينة والاخرى ، تسمع الزنزانة صوت الفرغ لحظتين خارجتين عن العقل . الجدران من الحجر الوحشي ، منقور وملطخ ومحطم ولكنه لا يعبر عن شيء . انه تاريخ الاطافر وأطراف الصحون والملاعق حين تضحي عند الحبيس كل أدوات فراره المهيب . رجال جاؤوا وحاولوا ومضوا أو أصيبوا بالجنون ، وكان السقف دائما ، أمام عيونهم ، يعلو يوما وراء الآخر وكانت الأرض تنخفض تحت العتبة لحظة وراء الأخرى . في اليوم الأول أخذت أعود نفسي على ذلك الشيء الرهيب : أن لا أحسب انني في قاع بئر سحيق ، كلما نظرت الى السقف ارتددت لتقوي الى اللحظة الاولى التي وطئت فيها هذا المكان : جاؤوا بي من الساحة ، وصعدت ثلاث درجات ومشيت في ممر طويل ضيق ومنبسط تماما ، لم أنزل درجة واحدة . الغرفة اذن في مستوى الأرض وليست بئرا . ولكنني كنت أهوي من جديد كلما نظرت الى السقف والجدران والعتبة ، ومن جديد أعود الى البدء في انتفاضة الفرار التي لا تمعوس : حين جيء بي الى هنا لم أنزل درجة واحدة .

ظللت واقفا فترة مديدة من الزمن كأنني جدار خامس . ان الانسان لا يمكن ان يكون الا محصلة تجاربه وهو يفترض دائما ان الأمور ستعبر ، ورغم ذلك يعتبر ان اعتيادهسا واجب لا فرار منه ، جربت وضعين أو ثلاثة اوضاع لنوع مريح من الاستلقاء ، واخيرا وجدت الطريقة التي صار يتعين علي منذ الان ان اقبلها وحدها حالسة للنوم ، وحين استلقيت على ظهري واضعا رأسي في الزاوية كي اكسب شبرا جديدا داهمني ذلك الشعور الذي كنت أعرف انه ذات يوم سيقتمني كالسيف : انتهى الامر . اخيرا يا عبدالكريم . دارت الزوبعة دورتها الغاضبة ثم صدمها الجدار فسقطت كالخريف . انتهى الامر ، كل دروب الهروب لا تؤدي الا الى العقاب ، بطريقة أو بأخرى . كانت الجريمة في ذاتها عقابا ، كان الاختبار عقابا ، كان الانتقال من عبدالكريم الى قاسم عقابا ، كانت صهوات الخيل في تلك الليالي الجلدية التي لا تنتهي ولا تبدأ عقابا ، كان الرعب عقابا ، كان الصمت عقابا ، كان المسير على النار عقابا ، وهذا هو نهاية المطاف . عقاب آخر لو كان اعتاده منذ ثلاث سنوات لما كان ، الآن على الاقل ، يكثرث به مثلما يفعل هذه اللحظة . ان الجريمة لا منطبق لها وكذلك العقاب ، وحين يعتقد المرء انه كان هاربا من العقاب يكشف فجأة انه كان معاقبا بطريقة خاصة ، كنت مطلوبا ، وكلي لا أقع صرت مجرما ، وكلي لا أمضي حياتي في السجن قتلت مرة أخرى . وفجأة يأتي العقاب مجرما ، وكلي لا أمضي حياتي في السجن قتلت مرة أخرى . وفجأة يأتي العقاب وكأنه كان ينتظر طوال ذلك الوقت وراء كتفي ويترصد اللحظة المناسبة .

اللحظة المناسبة التي ولد فيها قاسم من جديد في طول الليل وعرضه بعد غياب طويل . كالد عاد فجأة فاذا به بيلا الجرود مرة أخرى ، من الجرمق الى ترشيحا الى جدين الى عكا . طار الغبار عن خيوط غير مرئية وربطها الناس باعتناء شبكة من الاساطير كانت مجرد احداث لا يكثرث بها احد ، وفي اللحظة التي أغلق فيها الباب الحديدي في سجن عكا على قاسم ، أو عبد الكريم ، أو العاشق ، أو السجن رقم ٣٦٢ انفتحت المصاريع عنه في كل القوى التي كانت تتواصل كالشريط البائس الخجول من صفد الى عكا ، صار

فجأة موجودا لحما ودما حين غاب ، وحين لم يكن يوجد منه في الحقيقة الا أسماء لا رابطة فيما بينها مثل مزق راية مهترئة جرجرت من ميدان هزيم الى ميدان هزيم آخر ، وحين كان هو ذاته وراء قلعة الحجار ، تحت العتبة ، في غرفة اضيق من رثيئه اللتين تنفستا الدم والرعب والجرود ثلاث سنين كالدهر . الشيخ سلمان تحدث عنه تلك الليلة في الديوانية ، كان غاضبا في البدء ولكنه كان يهدأ كلما كان الفضول يغلب على التوقع القلق ، الغيبسية كلها حاولت تلك الليلة ان تذكره بالتفاصيل ، ومضت سمرا تسهل طوال الليل وتضرب اكوام التبن بحافريها الدقيقين . الكابتن بلاك تحدث عنه وفي صوته رنة النار الدفين الذي انتعش . وفي مركز البوليس في عكا فتحت الاضبارات من جديد ونفض عنها الغبار ، وفي ترشيحا تذكره الناس فجأة وارجعف احمد القاضي حين سمع قصصه ومسح على وجهه كمن ينسرب من كابوس جارح . وتذكر الحج سالم يوم تصدى له رجل طويل ملثم بين الزيتون وسلبه فرسه وتركه مقيدا في الوحل . وتذكر رجال كثيرون قصصا حدثت لهم ولجيرانهم او كادت تحدث لهم او لم تحدث لهم ، وتنفس رجال عائلة الرخي ونسأؤها الصعداء ، وثمة قري بعيدة عرفت الاخبار ، وقبور سقيت بالماء من جديد وقد تذكرها الناس فجأة ووضعت في مزهرياتها جرود النخيل مرة اخرى .



قال الكابتن بلاك للميجور ماكلود فيما كان ينفذ الغبار عن سترته : سأحتفظ به في سجن عكا من دون كل الناس . اعرف انه صار ينبغي ان يفتح ملفه من جديد ولكنني سابقه هنا ، اتفرج عليه كل يوم ، حتى اراه معلقا . انا لا اصدق انه ظل ساكنا طوال ذلك الوقت الذي اختفى فيه عن ابصارنا ، لا بد انه سلب شيئا هنا وقتل شخصا هناك وغدا سترى كيف ستندفق الشكاوى .

وقال له الميجور ماكلود وهو ينظر اليه من فوق سريره الخفيف : لم ارك في حياتي سعيدا كما تبدو الآن ، يخيل الي انك تزوجت .

— تزوجت ؟ اوف ؟ اكثر من ذلك بكثير ، انت لا تعرف شيئا ، لست تدري ماذا يعني ان يسقط عبد الكريم اخيرا .

— اعرف ، كنت تقول ان ذلك يشابه ان تجد نفسك فجأة في فراش مارلين ديتريتش .

— انا قلت ذلك ؟ متى ؟

وظوى سترته ووضعها على الكرسي فيما ترك اذنيه مفتوحتين على وسعهما ، وقال الميجور ماكلود :

— بعد ان هرب منك آخر مرة ، اعتقد ان ذلك حدث منذ نحو ستة شهور . .

— آه . اكثر قليلا . كان يوما مرعبا ذلك اليوم خلعت فيه انني لن افقد مستقبلي فقط ولكن حاضري ايضا .

— كنت مغناظا جدا يومها ، ويبدو انهم انبوك بلا هوادة الى حد رفضت ان تروي لنا كيف حدث الحادث .

— كان في الواقع سلسلة من المصادفات . كنا يومها في كوكبة من ثلاثة رجال خرجنا لمرافق جابي الضرائب الذي كان قد استعد للعودة من ترشيحا الى عكا ، كنت قد نسيت كل شيء عن عبد الكريم تقريبا ، وعلى اي حال فقد كنت ما زلت اعتقد يومها انه مختبئ في مكان ما حول طيرة دننن قرب يافا حيث شوهد هناك آخر مرة ، وحين كنا على وشك الخروج من البلدة خيل الي انني لمحت رجلا اعرفه ، مر من جوارى على ظهر حصان مثلما يمر بك اي رجل في أية لحظة في اي مكان من تلال الجليل ، لم ألحظ وجهه الا لفترة

أقل من اللحظة ذاتها، وحين مررنا بدأ وجهه يتشكل في رأسي قطعة صغيرة فوق قطعة صغيرة أخرى، مثلما يحدث حين تمسح بقماشة مبتلة وجهها عتيقا مغبرا متأكلا في لوحة ما، وفيها كانت أصوات حوافر حصانه تدق نازلة رويدا رويدا ورأني كان وجهه يتكبير صاعدا في داخل رأسي، مرعبا ووهيبا وعلى بعد ذراع. مثل كابوس فاجاك مرة أخرى، بعد أن استيقظت، وراء المنعطف.

ان الزمن خديعة. اصطلاح واحتيال والا لما كانت تلك اللحظة الواحدة اطول من أية لحظة غيرها ولما كان بوسع ذلك الزحام من الاوهام والحقائق والمشاعر، برعبها وثوقها وتحفزها وأملها ويأسها في آن واحد، ان تتسع له لحظة واحدة كانت في الوقت ذاته، للآخرين، مثل اللحظة التي سبقتها والتي ستلحق بها. دور الحصان عنقه فيها أخذت تخش على جسده المشدود أجراس الفضة الصغيرة، ورفعت بصري فاذا به، الكابتن بلاك، أمامي. كان مشغولا باحصاء رجاله وترتيب مسيرتهم الصغيرة فتقاطعت نظراتنا تقاطعا خاطفا دون ان تتصادم، ومن ساقى اللتين كانتا تشدان حول ظهر الحصان العاري انتقلت الى جسده رنة القشعريرة فانفض، ولكني لجمته ومضيت هادئا مثلما كنت، احصي دقات الحوافر تحتي وورأني متوقعا ان تنقض السماء أو تتراجع في وهلة واحدة.

وتكون في رأسي مثل زوبعة صغيرة. انه عبدالكريم بلا شك وأنا الذي اعرف، وقيل أن أستدير أسمعته صوت البندقية تتأهب ومغلاقتها يتراجع ويرتد، وصحت: عبدالكريم! تف والا أطلقت النار!

ووقف الحصان من تلقائه ثابتا ولكنه، مثلما أردت، لم يستدر، كان الفرار موتا، وبدات شتلات التبغ حولي تتقصف واحدة وراء الأخرى وتسقط في صدري، فأسمع أصوات تقوضها كالغويل. مرة أخرى، اذن، يا كابتن بلاك.

وعرفت لتوي انه يدبر لعبة أخرى، ويقف هناك يفكر في تنفيذها، فغيرت مكاني بهدوء كي أفضل أفتراضه دون أن أزيح عيني عنه وهو مستو هناك على ظهر حصانه يعطيني ظهره ببرود، كان حصانه عاريا ولكنني لم أكن متأكدا من انه لا يحمل، في مكان ما تحت تميصه الفضي، سلاحا.. وقلت بهدوء وقد استعدت رباطة جاشي: انزل عن الحصان وتقدم رافعا ذراعيك. وبدات أنزل عن ظهر الحصان دون ان يكون في رأسي شيء معين، ولكنني قبل أن المس الأرض سمعت صوت الكابتن بلاك ترن فيه الشماعة: «عبدالكريم.. هنا ثلاث بنادق مصوبة اليك تماما، لا ترتكب أية حماقة».

ونزل بهدوء، مثلما رأيته دائما، واستدار كان الأمر لا يعنيه، رافعا ذراعيه ولكنه لم يتقدم، وتبادلنا النظر وفهم كل منا ما حدث ويحدث وسيحدث دون كلمة واحدة، وأغلب الظن انه رأى نجمة جديدة تلمع على كتفي حين رأيت في اللحظة ذاتها سوادا قاتما يحيط بعيني، وقبل أن اطلب منه التقدم خطا جابي الضرائب الى الامام وهو ينتفخ الصعداء:

— اي عبد الكريم هذا يا كابتن بلاك؟ نحمد الله انك لم تطلق الرصاص على ظهر هذا الرجل البريء.. انه حسنين، أحد جامعي التبغ عند الحاج عباس، كل ترشيحا تعرفه.

وكنت أشعر تماما إن الكابتن بلاك ظل طوال الشهور الستة الماضية فوق هذه الخديعة وخارجها، وان الأمر لن يغير شيئا ولكن ربما يعطيني لحظة أخرى أفكر فيها، ومثلما توقعت ضحك الكابتن بلاك تلك الضحكة العصبية التي تبصقها اسنان رجل يعرف انه لن يستطيع ان يكسب النقاش الا فيما بعد، وهز بندقيته وهو يشر نحو صائحا:

— انه عبدالكريم، وأنا الذي اعرف.. تقدم ببطء الى هنا.

وحدث الشيء الرهيب قبل ان اتم جملتي . كنا نقف وراء المنعطف مباشرة حيث لمحت عبد الكريم لأول مرة ، وكان يبعد عنا حوالي خمسة امتار ولكن وجهه كان متجها نحو المنعطف ، وهكذا فقد شاهد تلك الشاحنة اللعينة قبلنا حين اطلت بانفها الاحمر منزلقة بلا صوت تقريبا حول الطريق الموحل ، وفجأة انقلب كل شيء راسا على عقب ، وفيما كان السائق يكبح شاحنته تطايرنا من امامه ناجين بانفسنا ، وهكذا طار عبد الكريم مثل حلم .

كنت قد بدأت اخطو حين رايت الشاحنة فجأة تسد الطريق فتفتح امامي ابوابا لا حصر لها ، لقد دارت اللحظة الرابعة دورتها الجنونية ، ووقف الكون كله على صهوة جواد . كانت الجياد جميعا تقف على طرف الطريق تتلهى بالتهام العشب ، وقد لمحت الكابتن بلاك يدور حول نفسه مذعورا حين كنت اعطي صهوة افرج جواد لي ، وحماتي المنعطف عن ابصار الجميع ، وضربت كالريح في الوعر الذي يستعصي على الماعز .

لم يهرب عبد الكريم فقط ولكنه هرب ايضا بحصان الجابي ، وفي سرجه ضرائب منطقة ترشيحا كلها ... آلاف من الجنيهات مرتبة ومربوطة وكان من المفترض ان اكسون مسؤولا عنها وحميا لها ... انت لا تستطيع يا ميجور ماكلويد ان تعرف كيف اسودت الدنيا في عيني : فهناك اقف هنالك ليس مهزوما فقط امام عبد الكريم ولكن امام كل الجليل ، ومن حيث اعتقدت انني سانتصر زججت نفسي في معركة خسرت فيها شيئا جديدا ، لقد فجاننا الحادثة جميعا ، ولكن جابي الضرائب كان اول من استرد وعيه فقفز كالضفدع المذعور الى حصان عبد الكريم العاري وحين استوى على صهوته نقل الجواد الابيض خطواته مكانها كي يحفظ توازنه ثم وقف كتمثال ، وعبثا راحت جهود الجابي وازيز مهمازيه وسلخ سوطه ، فقد ظل الحصان واقفا كأن الامر لا يعنيه ، وكان علي ان اتصرف بسرعة فارسلت جنديا الى ترشيحا كي يبلغ ويستنجد ، وارسلت الجندي الآخر في اعقاب الشاحنة خشية ان يكون سائقها متواطئا ، وعدوت انا ، على ظهر حصاني ، في اثر صدى عبد الكريم ... ولكن ذلك كله كان عبثا : فلا سائق الشاحنة كان شريكا في الحادث ، ولا النجدة وصلت في وقتها ، ولا انا عثرت على عبد الكريم ... أتدري ؟ كنت اقول لنفسي وانا عائد مع الخيبة والمرارة والتعب ان الارض ذاتها هي المتواطئة والشريكة ، وانك كي تقبض على عبد الكريم عليك اولاً ان تلقي القبض على الارض ... انك تبتسم ، ولكن لو كنت مكاني لفعلت مثلي ، وقفت فجأة واخذت اطلق الرصاص على الشجر ، على الصخر ، على البلان ، على شقوق السيول ، على الطرق الرفيعة التي تطل وتختبئ ... وكان صدى الطلقات يمضي في ذلك العراء ويرتد الي كالثقتهات ، وكان عبد الكريم ذاته وراء كل شيء في ذلك الجرد ، يقبضني بعينه اللامعتين الخبيثتين ويضحك ، مع الارض ، على غضبي ...

كانت حوافره ثابتة كاربعة مسامير وهو يضرب فوق الشوك والصخور ويلتزم المنحنى مثل من تعلم ان يهرب ، وسميته « ربح » فاستجاب دون تردد ومضى ينفذ عرقه معتزاً وقابلاً لشراكة الفرار ... وبعد نصف ساعة عرفت انني ضيعتهم مرة اخرى فابطأت ، وعندها فقط شعرت بالخرجين تحت فخذني ينطان برفق على ظهر « ربح » ، لوهلة حسبتها محشوين بالطعام ، ولكن الملامسة خيبت املي . نزلت وانزلت السرج وفتحت الكيسين فاذا بالمكان الاجرد يزهر بتلك الاوراق الخضراء ، واذا باللحظات الخارجة عن العقل تدور دورتها الجنونية من جديد ، فهناذا مع رجل غني ، اغنى مما كنت اطم وانا طفل ، ورغم ذلك فانا لا استطيع ان اشترى شيئا ، ولا حتى كسرة خبز وليس لي في هذا الكون كله، من اوله الى آخره ، انسان استطيع ان اعطيه شيئا ، وفي الوقت نفسه فقد اضفت من حيث لا اعني صفحات سوداء جديدة ، مثيرة للغضب والهياج ، في سجلي الموجود في مكان ما ينتظر ان ينفذ عنه الغبار ذات يوم ...

والكابتن بلاك المسكين ايضا ! يا لغزابة هذا الكون الرهيب ... فحين حسب انك استرد اسمه على ذلك المنعطف الجنوني خسر ، في لحظة كالبرق ، كل ما تبقى له من ذلك الاسم العريق الذي كان مرهويا ذات يوم ... ان شفقتي عليه تزداد في الوقت الذي تزداد فيه رغبته بقتلي ... رفعت الاوراق الخضراء جاعلا من اصابع كسفي مشطا كبيرا واخذت اقلبها مثلما الفلاجون يفعلون باكوام السنابل ، وكان يكتسحن شعور اعرفه ينتابني حين احمل بندقية غير محشوة في لحظة تحبل بالخطر . وهيم ريح وهو يرصد بأذنيه أية حركة يمكن ان تنأم حوالي فنظرت اليه مخلوقا قادرا على ان يعطي دون حدود ودون مقابل ودون كلمة واحدة ، وفي عينيه الواسعتين برق الحل . ليس بوسعنا ان نفعل شيئا الا ان ننتظر نهاية هذه اللعبة ، اخذت احفر بهدوء وهو ينظر الي ، ثم أعدت القنود دون ان أعدها الى كيسها الجلدي . حفرت عميقا في الارض حتى عجزت ، وضعت الكيسين فوق بعضهما ورصفت الحجارة فوقهما وحولهما ثم أعدت التراب ، وفي التراب زرعت من جديد شجيرات الشوك التي اقتلعتها في البدء بعناية ومن جذورها وقست المكان بعيني وخطواتي وتذكرته جيدا ، وعدت الى صهوة ريح فأخذ ينحدر وحده على السفح هادئا ، فيما أخذت العتمة تتسلق السماء وراء الجبال البعيدة . وسميت نفسي « قاسم » ، وكان « ريح » اول من عرف ، ومضينا طوال الليل نسير ونقف ونغفو قليلا ونتحدث ونغني بصوت خفيض ونبحث عما يتعين علينا ان نفعل ، وفي الصباح التالي اتفقتنا ان نودع بعضنا ، فليس من الصالح بعد ان نظل معا ، نزلت عن صهوته حين كانت الشمس تشرق ومشطت عرغه باصابعي فنوح دون ان يفتح فمه وأخذ يهز رأسه وينفض عنقه وينقل حوافره وهو على باب قرار صعب ، ثم استدار فخطبت راحتي على مؤخرته ، مضى بطيئا اول الامر وهو يطأطء رأسه ، ثم انطلق فجأة دون ان يلتفت واخذ يرف في ريح الصباح كالراية حتى غاب في الغبش .

نام الكابتن بلاك ملء عينيه تلك الليلة ، كان يصحو احيانا وهو يخشى ان يكون ما حدث مجرد حلم ثم يعود فيغفو دون ان تذوب الابتسامة عن شفثيه الحمازين ، وكان الميجور ماكلويد يراثبه وهو يخرج من كابوسه الطويل ... ان الميجور ماكلويد يعرف تماما ان الكابتن بلاك سيكون اول من يبكي على عبد الكريم اذا ما شبق ... فقد كانا ، رغم كل شيء ، عائلة واحدة . وطوال شهور مديدة كان عبدالكريم كل شيء في حياة بلاك ، يمثل امامه ليل نهار اليأس والامل والخيبة والانتصار والدين والسادات في آن واحد . كان جزءا من مشاعره واضحى دون ارادته مقياسه للامور والاشياء ، وحتى عيد الميلاد كان بالنسبة للكابتن بلاك مناسبة يقيسها على عبد الكريم ، وهو لن ينسى يوم قال له كئيبا : « بودي لو أستطيع ان اتمتع باجازة الميلاد » وصمت قليلا ثم اكمل : « ان اقبض على عبد الكريم قبل العيد » .

ولكن العيد مر ، ذلك العام ، دون ان يقبض عليه ... كان قريبا منه الى حد كان يشمه مثلما تفعل كلاب الاثر ، ورغم ذلك فقد استطاع ان يفر من اصابعه . وشغل الكابتن بلاك شهورا بعد ذلك الحادث وهو يتعقب عبد الكريم ، شهورا ضائعة بلا ادنى ريب ... فما هي الاحداث تقول انه في الوقت الذي كان فيه الكابتن بلاك مشغولا بالبحث عن عبد الكريم في الجنوب كان عبد الكريم يختبئ خلف اسم حسنين ويقطف التبغ بسلام في حقول الحاج عباس في ترشيحا !

ولكن الحاج عباس ، حين استدعي للتحقيق اثر حادث حسنين مع الكابتن بلاك وجابي الضرائب ، لم يكن يعرف شيئا ... كان مثلنا جميعا ضحية رخيصة لذلك الرجل الصامت ، فقد جاء حسنين الى بيته في ترشيحا مشغفا ممزقا منها ، قبل نحو عام من الحادث وطلب مثل عشرات من الفلاحين في الموسم ، ان يلتحق بحقول التبغ يقطف

وينضد ويحرس وينقل ويحصي ، كان يصطخب فرسا سوداء وصرة صغيرة واوجاعا في معدته ولكنه كان رجلا قويا وفي ملامحه ما يطمئن .

كانت زينب قد كبرت فجأة في بيتي ، انبثق جسدها على حين غرة تحت ثوبها كأن الامر قد تم بين العشيبة والصبح ... كنا قد نسيناها تقريبا ، واعتاد الناس ان يقولوا : زينب ابنة الحاج عباس . وكانت تعيش في بيتي منذ كانت في الثالثة وكانت تقول عني والدها وعن زوجتي امها ولكنها كانت بلا شك تعرف الحقيقة ولا ترى لزوما لتعريفها او التذكير بها ، ان الاقدار تتساقط فوق رؤوسنا كالطر ، وحين رأيت حسنين للمرة الاولى واقفا امامي يطلب عملا دون ان يلح ودون ان يتكلم كثيرا ودون ان تبدو في صوته رنة استجداء صغيرة ، نظرت فورا الى اصابع يديه ، وحين لم ار أي خاتم فيها قلت لنفسي : هذا هو زوج زينب . ولكنني سألته ان كان متزوجا فاجاب بالنفي ، وسألته عن اهله فقال انه يعرف فقط ان امه عادت الى حوران حين ارسل لها اخواله نعي والدها وتركته وحده يتدبر امره او يلتحق بأخواله ، وانه يعمل الآن ليجمع قليلا من المال يعيده الى بلدة امه التي لم يرها في حياته . وقلت لنفسي : « هذا هو الرجل » وكان كل ما احتاجه قليلا من الاصطبار . ان الاقدار تتساقط على رؤوسنا كالطر من حيث لا ندري ولا نتوقع ، وها هي حكاية زينب تدور دورتها الواسعة ثم تصل الى نهايتها اللائقة ... ألم تكن امها ، هي الاخرى ، من حوران ؟ يا رحمة الله عليك يا زيد ! .. اكنت تدري حين فعلت فعلتك ان السماء لا تنام ؟ يومها نقم الناس جميعا على تلك الزبيجة وقالوا : ذهب زيد الى يافا وعاد بعروس من حوران ... وصعقت قرى ترشيحا كلها حين عرف ناسها ان العروس كانت خادمة عند بيت الرخي ، ولكن لو فكروا يومها هكذا : ومن هو زيد ؟ انه فلاح منفرد لا يعرف ابعده من ابيه ولا يعرف احد من أين جاء ، التحق بزراعة التبغ اجيرا وحين صار في جيبه خمس جنيهات سافر بها الى يافا فاذا به يتزوج هناك ويعود بها ... فماذا كان سيحدث ؟ ولكن الاقدار تتساقط فوق رؤوسنا كالطر ، وحين انفجرت الثورة في الجبل اختفى زيد مثلما ظهر تاركا في ترشيحا زوجته وابنته الصغيرة دون ان يترك لهما شيئا ... وقلنا يعود زيد اليوم ، ويعود زيد غدا ويعود بعد اسبوع ويعود بعد شهر ... ولكنه لم يعد الا بعد ثلاثة شهور جثة مطرزة بالرصاص ومحمولة على ظهر حمار . وقال الناس : هذا زيد وهذا بيته ، وساق الانكليز الحمار الى البيت ، واطلت زوجته ونظرت اليه وقالت للعسكر : « انا لا اعرف هذا الرجل » ... مسكينة ، حسبت ان ذلك سوف يحميها من العقاب ولكنها كانت امرأة بلا ظهر ، وحيدة اكثر من فارة الحقل زمن القتل ... وحين اخذوها جاؤوا بزينب الصغيرة الى بيتي . وقلنا : تعود امها اليوم ، وتعود غدا وتعود بعد شهر ، ولكنها لم تعد ، ولم يعرف احد ماذا حدث : لقد التحق زيد بالشيخ القسام في تلال يعبد مجذوبا بالكلمة القصيرة الكافية التي كان يقولها ذلك الرجل : موتوا شهداء ، فمات زيد وضاعت اخبار زوجته وظلت زينب في بيتنا ، وقالت زوجتي : نتركها هنا ، وغدا تكبر فتخدم وتنفع ويأتي نصيبتها فمتزوج ونكسب ثوابها ... فاي ثواب اكثر من ان نزوجها لرجل لا يعرف عنها الا انها من داري ؟ طويت الفكرة في رأسي بانتظار الوقت المناسب وقلت لحسنين : « اذهب الى الحقول ، وستجد العمل هنا مريحا ومريحا اذا كنت انست مريحا ، وعلى اي حال فان سلوكك وحده هو الذي سيحكّم عليك ، واذا كنت طيبا فسترضى » .

واخذت انظر الى الحاج عباس جالسا وراء سبخته المصنوعة من بزر الزيتون وقد لمعت حياتها بين اصابعه الخيشية ، ورأيت في عينيه الباسمتين ما يشبه الفخ ، اتراه يعلم ؟ انه يريدني لصفقة صغيرة مجهولة ، الايام وحدها ستظهرها . اتراه يعلم ؟ أيريدني ان اقتل رجلا واتركه يمسخ اصابعه في قميصي الملطخ ؟ ولكنني كنت أريد العمل بأي ثمن فقد

كان العمل بالنسبة لي أكثر من طعامي وشرابي ، كان مخيبي بعد ذلك الحادث التعيس
وكنت لا أملك في هذا العالم الا مرتينة جيدة مدفونة في مكان لا يعرفه أحد ، وحقدا أجزر
يطل من حدقتي الكابتن بلاك اثر النزال الاخير بيننا أمام شجرات الصبار الوحشي في
الطيرة .

كان حسنين يرتجف ، ولكن بكبرياء .. واحسست . وانا انظر اليه واقفا هناك ينقب في
كلماتي القصيرة انني أمام رجل خاص . أجل . هذه هي الكلمة . رجل خاص لست
تستطيع أن تعرف عنه أكثر من احساسك به ، وسيظل يطوي سره بعناية مثلما يتوجب
علي أيضا . لقد عبرت الصفقة الصغيرة بيننا في ذلك الصمت الصاخب فبت في اللحظة
ذاتها التي عرف فيها انني أخبى له سرا أعرف أنه يخبىء هو الآخر سرا آخر في المقابل ،
وحين جاءت هذه الفكرة الي رأسي نظرت اليه فأخذ يبتسم ابتسامة صغيرة ، كالمصافحة ،
ودون أن يقول شيئا استدار ومضى .

ذهبت الي الاسطبل فوضعت « الهيجا » في مربطها وعلقت لها واستلقيت على كوم
التبن جاعلا من صرتي وسادتي واخذت انظر اليها واقفة هناك تضرب حوافرها برضى ،
فهي الاخرى وجدت سقفها ومربطها بعد طول طراد ، ان الخيل تشبه الشجر وبوسعي
التيقن من هذا حين أرى هيجا بالذات تقف على قائمتيها الخلفيتين وتخطب ذراعيها في
الهواء رافعة عنقها الطويل الي الاعلى مصدرة صهيلا راجفا مثل صوت الريح حين
تتسرب عبر أغصان شجرة متوحدة ، في أي أرض كنت يا هيجا ؟ ان اقدار الخيل مثل
اقدار الرجال ، افي ذلك ايها شك ؟ ومثل اقدار الرجال تتلاقى اقدار الخيل في البراري
وتحت جبال الليل ، ولولا ذلك لما لاقيت الهيجا ، ولما كان بوسعي أن اكمل فراري من
الطيرة ، لقد هربت بعد اللقاء الاخير مع الكابتن بلاك راجلا وفي يدي بندقية جديدة ،
وبعد ليلتين سلبت فرسا أصيلة من رجل كان يغني وحده في الليل وكنت اعرف ان علي
التخلص من هذه الفرس في أول فرصة ، فانت لا تستطيع الا تكون معروفا حين تكون
مع فرس أصيلة مفروغة ، ولكن اقدار الخيل تتلاقى مثل اقدار الرجال ، وفي الليل ،
بعيدا وراء تلال طولكرم وعلى مدارج كفر عناب سمعت أصوات حوافر تسترق الخطو ،
فقلت : أستبدل فرسي . رفعت كوفيتي حتى جفني وتيسست مع الحصان وراء المنحنى ،
ورأيت شبحهما يندمج كتلة من السواد ، ولكنه رأي في اللحظة ذاتها وسمعت فولاذ
بندقيته يمزج الطلقة ، وقال صوت بدوي : أهذه فرس أصيلة ؟ ولم أجب فتقدم علي
ظهر فرسه خطوة ، وتبينت جزءا من وجهه النبيل المتكبر وقال لنفسه : انها فرس
اصيلة . ودار حولي واتقا من فرسه ثم دفع فوهة بندقيته في خاصرتي وقال : وأنت
أيضا سرقت هذه الفرس . وهزرت بندقيتي برفق وحركت فرسي حوافرها وشمت
بصوت مسموع ، وكانت الصفقة تتم ببساطة بيننا نحن الاربعة ، أنزل بندقيته وقال :
اعطني فرسك وخذ فرسي ، ونزلت عن صهوتها في اللحظة التي نزل فيها ، ونظر اليها
وهو يعطيني اللجام وقال ، كأنه يحادثها : انهم يسمونني ابو الهيجا ، سرقت هذه
الفرس في البادية وجئت أستبدلها هنا ، وسأعود بفرس لا يعرفونها .. ونظر الي :
وهذه فرس لا يعرفونها هنا .. وبهذه البساطة تداخلت اقدارنا نحن الاربعة في بعضها ،
امتطى فرسي وامتطيت فرسه وأسمايتها « هيجا » ومضينا دون أية كلمة ، عاد هو الي
باديته وراء الحدود وضربت انا مع هيجا شمالا .. من أي أرض جئت يا أصيلة ، يا
امراة ، يا شجرة ؟ كانت تغطس رأسها في التين وتمضغ بدعة ، وجاء الرئيس فنظر اليها
ودار حولها فبادلته النظر ، ومشط عرقها بأصابعه ثم جاء نحوي دون أن ينظر الي
وجلس الي جانبي وهو يفتح علبه من المعدن الصديء ثم دفعها نحوي وهو يقول : لف
سيجارة ، انه تبغ ممتاز ، وأخذنا نلف سيجارتين صامتين ، وبلعت الدخان حتى قرارة
رثتي فاغتسلت أعماقي بشهوة لا مثيل لها وكان ينظر الي فاحصا دون ان يقول شيئا .

لقد شاهدت في حياتي عددا قليلا من الرجال يجترعون الدخان بهذه اللذة ، وكان حسنين منهم ، لا شك انه اشتهى هذه اللقافة منذ ولد ، وربما جاء الى هنا كي يضع دخانها في صدره ويمضي ، لم يبد في تلك اللحظة راغبا في اي شيء آخر من الحياة كلها ، وكان كل شيء في هذا الرجل يقول لي انه سيكون فلاحا صعبا ، وقد تعلمت دائما ان الرجال الذين يمتلكون فرسا أصيلة يصعب التعامل معهم من فوق ولذلك ، فهم لا يبيعونها حتى لو فتك بهم الجوع ، انها — لهم — أكثر من صهوة أمينة ، انها ملاذ وصديق وشقيق في وجه العالم .

وقال لي « أنا الرئيس هنا ، قال لي الحاج عباس عنك . وغدا سنبدأ معا » . ولكنني كنت أعرف انه يريد أن يقول شيئا آخر ، وخذله صمتي فقام بطيئا ، وعاد الى الهيجا فخبط يده برفق على ظهرها العاري ونظر الي :

— « انها فرس لا تقدر بثمن » وهزت هيجا رأسها برضى وحكت أنفها على ظاهر يده وعادت الى علفها ، وقال الرئيس قبل ان يترك المكان « سيكون لنا حديث طويل غدا » ، واذا خرج جاء رجل آخر وقف على الباب وهتف : الحاج عباس يريدك يا حسنين ، وقمت ، وكان الحاج عباس واقفا امام الاسطبل ينظر الى ثلاثة اكياس من الطحين ملقاة فوق بعضها ، واثار نحوها دون ان ينظر الي ، وتطوع الرجل الاخر فحكى : « يريدك ان تدخلها الى البيت » ، وسحبت كيسا فوق بلاط المدخل الخشن ، ثم استدرت وعطفته على ظهري ودخلت ، وورائي جاء صوت امرأة يقول « الى الامام قليلا » ، وحين وضعته نظرت اليها فقالت وهي تبتسم : أنا زينب .

ولم أكن على استعداد لأرى ذلك الوجه حين استدار الظهر المغبر بالطحين ، ولكنني حين فوجئت بعينه السوداءين تنظران الي لم أجد شيئا أقوله غير اسمي ، كان شابا في أواسط العشرين ان كنت احسن تقدير الأعمار ، صلبا طويلا وله كنان كبيرتان تلفنان الأنظار . انهما تذكران بالحائط . وكان قميصه الفضي ممزقا ومفتوحا عن صدر أسمر مشدود العضلات ، وكانت عنقه مشعرة وقوية تحت ذقن تكاد تكون مربعة كحجر محطم سقط هناك بالصدفة ونبت عليه طحلب أسود شرس وقصير . . وحين نظرت الى كتفه لاحظت ذلك الخط الداكن الذي خلفه هناك ، بلاريب ، حزام بندقية . واستدار دون ان يقول شيئا وخرج ، ومن شق الباب رأيته يعالج الكيس الآخر بقدمين ثابتتين كجذعي شجرة . وسمعت « عبود » يقول له : « قول الله يا حسنين » فقلت لنفسي : اسمه حسنين .

ودخلت بالكيس الآخر وتركته ينزلق عن ظهري الى جوار الكيس الاول ، ومرة أخرى سمعت صوتها يقول : « الله يخليك هالهمة يا حسنين » فهزرت رأسي مشغولا بتسوية الكيس واقفا ، ولكنها قالت : من أين أنت ؟ وحاولت أن أجيب حقا ، ولكنني سمعت صوتا ورائي ، وجاءت خطوات الحاج عباس هادئة كأنها تسترق شيئا فعدت أدراجي الى الخارج لاحمل الكيس الثالث وظل الحاج عباس واقفا الى جوار زينب ، وحين رجعت بالكيس كان ثمة شيء جديد في جو الغرفة الرطب استشعرته في نظراتها الي . ووقف وأخذ ينظر الينا واقفين معا ، زينب وأنا . كأننا أب مع ابنته حقا ، وعندها طلبت منه أن يسوي الكيس الى جانب الكيسين الآخرين ففعل دون تردد ، لقد بدأ الكيس اصفر من المعتاد وأخف وزنا حين شماله من أذنيه بين ذراعيه القويتين وحطه دون عنف في المكان المناسب ، وفجأة وجدتهني أقول له ما كنت أنوي أن أقوله له بعد شهر أو شهرين :

— سأعطيك زينب يا حسنين ان نويت على الخير .
وكننت أتوقع أن يحدث كل شيء ، تلك اللحظة ، الا أن أسمع الحاج عباس يلفظ تلك

الجملة بهذه البساطة ، وكأنها من وقع اللطمة المفاجئة طار بصري الى زينب دون ارادة
مني فاستدارت منتفضة وهرولت صوب الباب ، ولكنني ، في اقل من اللحظة ، شهدت
وجهها ورأيتة جميلا حقا ، وضحك الحاج عباس بما يشبه الفرغرة ، مثلما يضحك
الرجل الذي يرغب في ترقيع موقف مليء بالثقوب وتقدم نخوي خطوة واخذ يضرب كفه
العجوز على كتفي وهو يقول : انها بنت طيبة ، ضع عقلك في رأسك .

اليوميات الفلسطينية

اول وادق سجل علمي شامل للقضية الفلسطينية

في تطوراتها واحداثها واخبارها

مدة ست سنوات ونصف السنة

(من ١٩٦٥/١/١ الى ١٩٧١/٦/٣٠)

ثلاثة عشر جزءا كل جزء يغطي نصف عام

٧١٠٠ صفحة من القطع الكبير

سعر المجموعة ١٤٥ ل. ل.

(عدا اجور البريد)

اطلبها من قسم التوزيع في مركز الابحاث - م. ت. ف.

ص. ب ١٦٩١ - بيروت

دراسات توفيق كنعان في الفولكلور الفلسطيني

عمر سرحان

لا نعرف الكثير عن الحياة الشخصية للدكتور توفيق كنعان ، رائد حركة احياء الفولكلور الفلسطيني ، وان كنا نملك مادة وفيرة من كتبه ومقالاته التي استمر ينشرها تباعا ابتداء من العشرينات من هذا القرن . وقد كان يعمل طبيبا في المستشفى الألماني في القدس . واصبح في عام ١٩٢٧ رئيسا لجمعية الاستشراق الفلسطينية . ويسدو ان الدكتور كنعان نشر معظم دراساته وابحاثه باللغتين الانكليزية والالمانية(١) وان المادة الوفيرة التي جمعها عن ملامح الحياة الشعبية الفلسطينية كانت مكرسة لتعريف الانسان الغربي بحياة سكان فلسطين - الاراضي المقدسة .

وتقول د. هيلما جرانكفيست الباحثة الفنلندية المتخصصة في دراسة الحياة الشعبية الفلسطينية ان د. توفيق كنعان باحث محنك تدرس في دراسة المأثورات الشعبية الفلسطينية منذ فترة طويلة . وتصفه بأنه صديق قديم لها تعرفت عليه اثناء عملها في ميدان الفولكلور الفلسطيني في الفترة بين عامي ١٩٢٥ - ١٩٣١ . وفي عام ١٩٥٩ قابلته جرانكفيست ثانية عندما زارت القدس مجددا . وتقول جرانكفيست ان الرجل اذ ذاك كان مريضا . وكان فقد بيته ومكتبته ومجموعاته ومخطوطاته عندما أصبح بيته في المنطقة الحرام في القدس بعد حرب عام ١٩٤٨ . ومع ذلك فهي تشهد له في ذلك الوقت بأنه ظل على نشاطه المهود يقرأ ويكتب ويجمع المادة الفولكلورية الخام ويلقي المحاضرات في هذا المجال .

ونحس بذلك الحماس المتوقد لدى الدكتور توفيق كنعان والرغبة الصادقة في جمع ملامح الحياة الشعبية في ما يكتبه في مقدمة كتابه « المزارات والاولياء المسلمون في فلسطين » حيث يقول : « ان الملامح البدائية لفلسطين تختفي بسرعة كبيرة . ولن يبقي وقت طويل حتى تتلاشى هذه الملامح نهائيا . ولذلك فانه من واجب كل طحالب ودارس فلسطيني متخصص في دراسة الفولكلور ان لا يضيع أدنى وقت وان ينشط لجمع العادات والمعتقدات الشعبية واللامح الفولكلورية الدارجة في فلسطين » . ويضيف الدكتور كنعان في مكان آخر من المقدمة فيقول : « وأنا كابن لهذه البلاد شعرت انه من واجبي ان اعاون في هذا الجهد العلمي . وبما انني لا ادعي انني دارس محترف فانني احاول هنا ان اضع المادة الفولكلورية الخام كما جمعتها تاركا للدارسين المحترفين امورا تفسيرها ومقارنتها » .

وتأتي دراسة الكاتب الحالي لاعمال توفيق كنعان المنشورة بالانجليزية ك محاولة اولية لنفض الغبار عن تلك الاعمال الاصيلة تمهيدا لنقلها او نقل الافكار الرئيسية فيها الى اللغة العربية والتتويه بأبرز ملامح الحياة الشعبية وعلى الاخص منها المعتقدات الشعبية التي تبرز الثقافة الاساسية والبدائية للانسان الفلسطيني . وتكمن اهمية المادة التي جمعها الدكتور كنعان في ان هذه المادة قد جمعت في وقت مبكر من هذا القرن ، ذلك الوقت الذي عاش فيه العديد من الرجال والنساء المسنين الذين عاشوا ومارسوا تلك المظاهر الحياتية التي اثبتتها لنا الدكتور توفيق كنعان . ومن جهة أخرى

من الكاتب الحالي يسفر أنه من الضروري جدا ان يلفت انتباه المؤسسات الثقافية الوطنية والافراد ذوي الاهتمام والخبرة على تراث الشعب الفلسطيني الى اهمية مثل هذه الدراسات التي تصور طابع الشعب وتخلق الصلة المعنوية بين الانسان الفلسطيني المشرّد وبين أرضه المحتلة التي يحاول الاعداء ان يطمسوا معالمها ويذوّبوا شخصيتها تهيّدا لابتلاعها وانكار حق اهلها فيها . ان اثبات مفردات الحياة الشعبية الفلسطينية في عمل موسوعي كبير مدعم بكشف بالمراجع الاجنبية والعربية والتي تعرضت لدراسة الحياة الشعبية الفلسطينية وخاصة ما نشر منها قبل الهجمة الامبريالية الصهيونية على ارض فلسطين يمكن ان يضع امام القارئ العربي والاجنبي صورة وثائقية عن حياة الشعب الذي يعيش الان في المنفى وتوضح العلاقة الوثيقة بين الناس المشردين وأرضهم المحتلة .

المزارات والاولياء في فلسطين (٢)

تعتمد دراسات الدكتور كنعان لهذا الموضوع على زيارته وملاحظته الشخصية لـ ٣٢٥ مزارا في فلسطين ، كما انه جمع معلومات وافرة عن ٣٤٨ مزارا اخر . ويقول د. كنعان انه كان يحضر الاحتفالات والاذكار والموالد التي كانت تقام في تلك المزارات كما جمع مجموعة كبيرة من الحكايات التي تفسر الظواهر المتعلقة بموضوعه ، واعتمد في دراسته على مجموعة من الأشعار الصوفية والمدائح والامثال والاقوال المأثورة . وكانت لديه مجموعة من الحجابات التي صنعها المشايخ بهدف البركة والعلاج الشعبي . ويقول د. كنعان عن طبيعة دراسته : « ان هذه الدراسة توصل القارئ بشكل مباشر للحياة اليومية في فلسطين ، وتوضح كل ما هو غامض في اذهان الناس في مجال المعتقدات والخرافات الشعبية . كما تعطي هذه الدراسة مقارنة مع ما كان سائدا في الأزمان البدائية ، وتظهر ان العديد من المعتقدات والخرافات ظلت منذ الاف السنين عالقة في اذهان الناس في الوسط الشعبي » . ويعرف الدكتور كنعان المزار ويقول انه لا يعني بالمزار ذلك المكان الذي يدفن فيه نبي أو ولي من اولياء الله المعروفين فحسب بل يعني بالمزار كل حرم أو معبد أو ضريح أو شجرة أو شجيرة ، أو كهف أو نبع أو بئر أو صخرة والتي يوليها الناس تقديسا أو احتراما خاصة سواء كان ذلك يعتمد على معتقدات دينية أو خرافية .

وبعد ذلك يفيض المؤلف في دراسة مواقع المزارات المنتشرة في فلسطين وانماطها ويدرسها من الناحية المعمارية والمعتقدية ويوضح وجود النموذج الامثل للمزار الذي يضم ضريحا وقبة ومقاما ، وتلك المزارات التي لا تحوي ضريحا وتلك التي هي مجرد « حويطة » أو كومة من الحجارة . ويعدد المزارات بأسمائها ومواقعها في فلسطين . ويتحدث المؤلف عن الطقوس والممارسات الدينية التي يمارسها الشعب في هذه المزارات والتي تتلخص في أداء العبادات وقسم الايمان والوفاء بالنذور وطلب البركة والشفاء . ويذهب الفلاح الفلسطيني الى المزار للحصول على البركة التي تشع من المكان المقدس لكل شخص يتصل به أو يمر بيده على الستائر والضريح والبناء . كما اعتاد الناس أن يودعوا ممتلكاتهم المنقولة لتكسبون في حامي الولي ، اما الممتلكات غير المنقولة مثل المحاصيل في الحقول فانهم يضعونها « بوجه الولي » أي يعلنون انها تحت حمايته فلا يجرؤ احد على مسها .

ومن الممارسات الشعبية في المزارات ذات الصبغة السحرية ربط الخرق بنوافذ المزار واثجاره . ويعلل المؤلف هذه الظاهرة فيقول انها تهدف الى اثبات زيارة الانسان للمقام وتذكرة الولي بالزائر ورجباته . ويربط المريض الخرقة ويقول : « رميت عليك حملي يا ولي الله » . وهذا النوع من الممارسة الشعبية يسمى بالسحر الاتصالي . اذ ان كل شيء كان على اتصال بشخص ما او كان له به علاقة سوف يستمر بحمل العلاقة

مع ذلك الشخص . وهكذا تظل الخرق تحمل رغبات الشخص الزائر وأمله بالشفاء . وبمرور الوقت تأخذ الخرق شيئا من قوة الولي وتنقلها للمريض . ويذهب الفلاح لزيارة أولياء الله في مزاراتهم طالبا الشفاء وواعدا الولي بتقديم أضحية اذا من الله بالشفاء . وقد يأخذ الفلاح شيئا من الزيت أو القماش أو الماء أو الحجارة من المزار أو مما يجاوره ويستعمل كل ذلك كوسائل للحصول على الشفاء . كما يذهب الناس ومعهم أحد المتهمين بارتكاب ذنب ما ليقسم اليمين في المزار . وفي ذلك تأكيد للمتهم بأن الولي سيتسبب في ايدائه اذا كان كاذبا . ويورد المؤلف نص احد الايمان الشعبية التي كان يؤديها المتهم في المزار . يقول اليمين : « والله ومحمد رسول الله / والله وما اعز من الله / وحياة هالعود والرب المعبود والنبي داهود / والصليب الحي / وحق القبلية المحمدية / وحق هالكليسة والساكنين فيها / وباب هالشرق معبد النصراري / والكعبة / والمهد الشريف / والمصحف / ولحية النبي / وحق عوينة هالشمس القربة لطاعة ربها / وحياة هالشارب / وحياة الماي المطهرة الحي والميت / وحياة الماي الجارية والسموات العالية / وحياة هالشجرة اللي تشرب من عرقها ويتسبح ربها / وحياة هالبساط الاخضر اللي طلع من الارض خرسا طرشا . وحق من يعلم كسم ورقة في هالشجرة وكم شعرة في هالحيوان ... » .

وتقدم النذور للمزارات ولوجه الشيخ وغاء بوعد قطعه مريض او صاحب حاجة . ويقول الشخص « نذرن علي لاقدم كذا وكذا اذا شفي ابني او حملت زوجتي او ... » . ومن الاشياء التي تقدم وغاء بالنذور تقدمات لتجميل المزار واصلاح بنائمه ، كما تقدم الاضحيات او المساعدات المالية للفقراء باسم شيخ المزار او الولي .

المعتقدات الشعبية حول الماء والابار والينابيع (٦)

لقد احتل الماء وما زال مركزا ممتازا في حياة الشعب الفلسطيني وسكان الارض العربية نظرا لندرته . واتخذ تلك الاهمية الكبيرة بحيث أصبحت استعمالات تهمس أمورا مقدسة وممارسات اعتقادية تتصل بالطب الشعبي والاحتفالات الدينية ومضامين الخرافات . ولم يقتصر استعمال الماء ضمن هذه المعتقدات على الاحياء بل الاموات يحتاجون الماء . ويقول المعتقد الشعبي ان ارواح الموتى تنطلق ايام الجمع وهي تحمل « ظروف » الماء لتملاها من الينابيع .

يناقش الدكتور كنعان في دراسته لهذا الموضوع مسألة وجود « الينابيع المسكونة » والتي مؤداها ان ينابيع معينة تسكنها ارواح خيرة او ارواح شريرة . ولا تظهر هذه الارواح الا لشخص وحيد في النهار او في ساعات الليل . ومن اهم الاسباب التي تجعل الناس يعتقدون ان نبعنا معيننا مسكونا هي ان يكون النبع في مكان مهجور او في غابة او دغل كثيف الاشجار ، وان لا تصل اشعة الشمس الى مصدر النبع . ويتحقق ذلك الانعزال بوجود كهف او شق من الصخور او قنال قديم يكون مدخل النبع . وتبدو هذه الظروف موالية ومحبة للارواح وتكون على اتصال بداخل الارض وبالنجم « زحل » . ويستعرض د. كنعان الينابيع التي تنبثق بشكل دوري ، اي انها تدفع مياهها في وقت ما في حين تتوقف عن الجريان في وقت اخر . وتلك مسألة أثارَت خيال الناس وانبثقت عنها معتقدات خرافية جميلة . لقد وجد الناس تفسيراً ذا صلة بالاعتقاد بالارواح الحارسة للمياه وهو اعتقاد منسجم مع الموروثات الدينية . انهم يعتقدون ان العين الدورية تسكنها اثنتان من الارواح : الاولى روح بيضاء والثانية روح سوداء . وكلا الروحين في صراع سرمدى دائم . وعندما تنتصر الروح الحرة تفسح المجال امام الماء لينساب لمنفعة البشرية العطشى . ولكن سرعان ما تنهض الروح المستعبدة السوداء وتستأنف المعركة . وعندما تنهزم الروح الحرة يفلق منفذ الماء .

ويعطي د. كنعان تفسيراً مبنياً على معتقد شعبي لظاهرة الينابيع الساخنة . يقول « هناك عدد كبير من الأرواح تسخن المياه باستمرار قبل ان تنفذ الى سطح الأرض . ويستحضر الوقود من مسافة بعيدة . لقد أمر الملك سليمان الجن أن يقوموا بهذا العمل ليمنحوا سكان فلسطين حماماً طبيعياً ساخناً وبما ان الأرواح عمياء وطرشاء ولا تعلم بموت سيدها الملك فقد ظلت تخشى عقابه واستمرت تقوم بعملها . ويسود اعتقاد مماثل حول « الحمام التركي » اذ يقال : « سكانه بجموه » اي ان الأرواح التي تسكنه هي التي تسخنه .

ويرى د. كنعان ان هناك صلة بين المعتقدات الحالية للشعب الفلسطيني وبين المعتقدات الاثنولوجية القديمة لسكان فلسطين . وهو يرى أن الينابيع التي يعتقد الآن بأنها مسكونة بالأرواح كانت في الماضي ينابيع مقدسة ومكرسة لعبادة الالهة المتعددة في فلسطين . وان ارواح الالهة لا تزال تزور تلك الينابيع — على حد المعتقد الشعبي — وان تغيرت اشكالها ، وقد ظلت الفكرة الاساسية سائدة . ويعتبر د. كنعان المعتقدات الحالية كرواسب متبقية من الممارسات الدينية القديمة في فلسطين . ويفسر ذلك ان العديد من الينابيع الموجودة حالياً ظلت تؤدي اغراضاً علاجية كما هو الحال منذ عهد التوراة . ومن ذلك عين سلوان وحمام ستنا مريم وعين ام الدرج وحمام الشفا . وللأسبب نفسه نجد ان هناك تقدمات تقدم للأرواح حارسه المياه ، فتقدم الشموع والازهار لحمام ستنا مريم وتقدم المصابيح لغير هذا النبع . وتؤدي صلوات وادعية ويحرق بخور عند بعض الينابيع كما هو الحال عند نبع جفنا . وتسمع عند بعض الينابيع صلاة وصوت جمهور غير مرئي .

ان ملاحظات د. كنعان حول الابار المسكونة بأرواح خيرة وشريرة تدور حول الخوف من الأرواح بنوعها ، واذا كانت ارواح اولياء الله تقدم العون للاخيار فانه لا يجوز الاقتراب منها في حالة لا تظهر عدم الاحترام لأولئك الابرار . ولذلك لا يجوز لامرأة مؤمنة ان تقترب من نبع مقدس او تمسه وهي غير طاهرة . واذا حصل ذلك فان الولي سيعاقب مثل هذه المرأة باصابتها بمرض في جسدها . وقد يعاقب البلد بأكمله ويوقف جريان النبع . ولذلك لا يجرؤ احد على الاقتراب من نبع تسكنه روح رجل مقدس دون ان يذكر اسم الله او اسم الولي او القديس الذي يسكن ذلك المكان وخاصة اذا كان الوقت ليلاً او كان الشخص يسير ليلاً بمفرده في مكان مهجور . واذا لم يفعل الشخص ذلك فانه سيلقى المتاعب . أما الأرواح الشريرة التي يمكن ان تصادف شخصاً ما فانها قد تتبعه وتصيبه بالمرض والضعف وحتى الموت . ويمكن ان تقوم هذه الأرواح بتجفيف مياه هذه الينابيع وخاصة اذا اقتربت منها امرأة غير طاهرة . وفي جفنا فان القسيس يذهب الى البئر الجاف فيتلو الدعاء ويحرق البخور ليسترضي الجنية او يجبرها على اطلاق سبيل الماء .

وهكذا يكون الخوف من الأرواح بنوعها القاسم المشترك للمعتقد الشعبي حول هذه الكائنات التي تحتل مكاناً غامضاً جداً في اذهان الناس .

الآواني السحرية(٤)

طاسة الرجفة او طاسة الرعبة اثناء ذو قدرة سحرية مبنية على الكتابات المثبتة عليه . واذا ما شرب من مائه الشخص الخائف فانه يشفى . وقد أجرى د. كنعان دراسات على ٥٨ عينة من الاناء المعروف بطاسة الرجفة (او طاسة الرعبة ، الخوفة ، الخطة) . ولا يتوقف أثر هذا الاناء السحري على شفاء المصاب بحالة الخوف انما هناك العديد من الأمراض التي يشفى اصحابها اذا ما وضعوا ماء في هذه الطاسة وشربوا منه . وقد اورد المؤلف عشرات من الكتابات التي نقشت على تلك الآواني والتي توضح

القدرة الشخائية السحرية لتلك الآنية . وانتقل للقارئ احدى هذه الكتابات كما اوردها المؤلف حرفيا : « وباذن الله تعالى تشفى هذه الطاسة النادرة من السموم كلها وقد جمع فيها منافع مجربة وهي للسعة الحية والعقرب والحما . . . المطلقة والفرس المعلقة للكلب والمغص وللقولبخ للشقيقة للطحال والقوة . . . الدم ولاطسال السحر وللعين وللنظر وللرمد والنزلة والرياح والارواح والبواسير للخلط البسارد ولسائر العلل » . وتتضمن كتابة اخرى على احدى هذه الاواني رموزا غير مفهومة وان كانت ذات دلالات سحرية عند كاتبها . من ذلك هذه الكتابة التي تقول : « بسم الله الرحمن الرحيم . اذا السماء انشقت واذنت لربها وحقت واذا الارض مدت والقت ما فيها كذلك تلقى الحمل للجنين سالما باذن الله والله يخرجهم اخراجا وان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا . انصرف ايها القولبخ يانوح بنوح كلوخ كلخ الم المرح م ع س ق ك ه ي ع ص ط ه س م ي س ن » .

ويفسر د . كنعان دور الآنية السحرية تفسيراً يتصل بالاعتقاد بقدرة النجوم والذي يلعب دوراً مهماً في حياة الناس في الوسط الشعبي الفلسطيني . وهناك اعتقاد ان لكل شخص برجاً خاصاً ، وهذا البرج يحكم مجرى حياته . وان علاقة هذا البرج مع غيره يسبب لصاحبه الخير او الشر . ولذلك فان على كل شخص ان يعرف نجمه ، ولما كان ذلك صعباً فانه يشرب من « الطاسة » والتي فيها الابراج الاثنا عشر والمتضمنة برج ذلك الشخص بالتأكيد . ويورد المؤلف حكاية عن اصل هذه الطاسة فيقول ان الجن اعتادت ان تستعمل مثل تلك الطاسة في الاستحمام . وذات مرة ذهب جن ليستحم بالقرب من نبع وبعد ان انتهى الاستحمام نسي الوعاء السحري بالقرب من النبع . واتفق ان مر بالمكان شخص محظوظ ووجد الوعاء فأخذه . وفي وقت قصير تمكن ذلك الرجل من اكتشاف مميزاته . وبمرور الزمن صنعت نسخ من الاصل واثبتت ان لها ميزات الاصل نفسها . وتدل الحكاية على ان القوة السحرية لا تعود لمعدن الانساء وانما للكتابات الموجودة عليه والمتضمنة كلمات من القرآن واسماء الله والملائكة والكواكب والنجوم والجمال السحرية . وهنا يكمن السبب في ان طاسة الرجفة لا يجوز ان يمسه سوى شخص طاهر كما انها تلف وتحفظ في مكان نظيف طاهر وباحترام كبير . واذا اضطر شخص غير طاهر لنقلها فانه لا يمسه بل يلفها بقطعة من القماش . وهناك من يعتقد ان هذه الطاسة ربما فقدت بعض قوتها اذا تعرضت للشمس الساطعة . وتستحضر الان معظم نماذج طاسة الرجفة بواسطة الحجاج الذين يذهبون الى مكة لاداء فريضة الحج . ويعتبر الناس ان تقديم هدية مثل طاسة الرجفة شيء ذو قيمة كبيرة جدا . ولا يقتصر استعمال طاسة الرجفة على الوسط الشعبي المسلم . وتتضمن قائمة الاواني التي اجري عليها الدكتور كنعان دراساته اواني مأخوذة من أسر مسيحية .

البيت العربي الفلسطيني(ه)

كرس الدكتور كنعان الجزء الاكبر من دراسته للتحدث عن البيت العربي الفلسطيني من حيث معماره ومواد بنائه . واستعرض لذلك البيت الحجري والمبني من الطين والبيت القروي والبيت في المدينة ودرس الخيمة واعطى صورة واضحة عن المعمار الفلسطيني . وفي الجزء الاخير درس د . كنعان الجوانب الفولكلورية للبيت مكرسا معظم ما كتبه للمعتقدات الشعبية المتعلقة بعمارة البيت وسكانه والتصور الشعبي للامور المتعلقة بذلك .

يقول د . كنعان ان ابرز المناسبات الاحتفالية في الحياة الشعبية الفلسطينية هي : الزواج ، وولادة الذكور وبناء بيت جديد . وعندما ينتهي المرء من سقف بيته يجتمع لديه الاهل والاصدقاء والجيران لتناول وجبة احتفالية وتقديم الهدايا بهذه المناسبة الطيبة . ان الدار تحتل مكاناً مرموقاً في نفس الانسان الفلسطيني فهي تمثل ما يستره ويستتر

أهله وتمثل الذكريات بشتى أشكالها . وهو يحن إليها إذا غادرها ويتمنى العودة إليها وأعدا أياها بأجمل الزخارف والمحبة القلبية . ويتضح ذلك في هذه الأغنية الشعبية التي يسجلها د. كنعان :

يا دارنا يا أم الحجر الأحمر	أحنا رحلنا وغبرنا اتوطن
يا دارنا يا أم الحجل والطوق	يا عاليه وامشعة لفسوق
يا دارنا بللي اربينا فيكي	لا عادت تاوينا ولا اتاويكي
يا دارنا ان نزلوك عربان غبرنا	اتوصيهم يا دار حتى نعاود
لاجيب لك يا دار حملين نيلة	وانتشك يا دار نقش العرايس

ويستعرض الدكتور كنعان العديد من المعتقدات الشعبية المتعلقة بالبيت . يقول ان هناك معتقدا سائدا في الوسط الشعبي الفلسطيني مؤداه ان كل بيت تسكنه مخلوقات خارقة للعادة ... وتوجد هذه المخلوقات على الأخص في البيوت الخالية والخربنة والحديثة غير المأهولة . ولذلك يفترض في كل ساكن جديد ان يسترضي تلك المخلوقات . وتبدأ اجراءات ترضية هذه الكائنات ومحاولة كف شرها منذ البدء في البناء وعند الاساس . اذ يجب اذ ذاك ذبح ذبيحة كتنقدمة للارواح ساكنة المكان تسمى « ذبيحة الاساس » . ويستدعي المسيحيون الخوري ليارك الاساس ويلقي عليه مياه مقدسة . وعند وضع حجر الاساس يضع صاحب البيت تحت الحجر قطعة عملة فضية باعتبار ان ذلك يشكل فألا حسنا يدل على « الغضا » اي النور . وعندما يعقد البناء شائشية باب البيت فانه يعلق على الحجر هناك خرزة زرقاء ، وثوما وقطعة من الشب وبيضة مفرغة . وهناك من يعلق شكل يد بشرية او صليبا . وهناك ايضا ذبيحة العقد والتي تذبح عند انتهاء العمل في السقف . وقد اعتاد البدوي ايضا ان يذبح ذبيحة كلما نصب خيمته في مكان جديد للأسباب والمعتقدات نفسها السالفة الذكر .

ويروي الدكتور كنعان أنه كان هناك معتقد قديم مؤداه أنه لن يخلد البناء الا اذا دفن في الاساس انسان او جزء من انسان !! وخاصة اذا كان البناء حماما عاما او عسارة ذات صلة بالجمهور (١) . وقد حلت فيما بعد عادة ذبح حيوان بدلا من تلك العبادة . وهناك المعتقدات الشعبية ذات الاصل الاسلامي والتي تفرض على ساكن البيت الجديد ان يدعو شيخا ليقرأ القرآن او يدعو الدراويش لاقامة الحضرة وهذه العبادة ما تزال موجودة حتى الان . ويعلق الناس راية بيضاء على ظهر البيت وذلك تيما برأية الرسول محمد (ص) البيضاء .

دراساته الأخرى

تعتمد دراسات توفيق كنعان على رصد المعتقدات الشعبية ومن هذه المعتقدات التي التي نقله الى جانبها مسألة الثنائية في المعتقد الشعبي الفلسطيني . فهو يدرس النور ويقابله بالظلام (٧) . ومن هذا القبيل درس الثنائيات التالية : الخير والشر ، الابيض والاسود ، الملائكة والشياطين ، العالم العلوي والعالم السفلي ، الاله مقابل ابليس . وهو يعتقد ان دراسة ظاهرتي النور والظلام يمكن ان تؤدي الى نتائج كبيرة وتوضح مواقف جمة . ويعد ان يتحدث د. كنعان عن سبل الانارة الشعبية والمصاييح الساذجة ، ويعد ان يتحدث عن خوف الانسان البدائي من الظلام فانه يحشد عشرات الامثلة من الحياة الشعبية التي تتصل بموضوع . وذلك يذكرنا بالمنهج المشهور الذي اختطه سير جيمز فريزر في الدراسات الانثروبولوجية الذي يعتمد على دراسة فكرة معينة من خلال ايزاد حشد هائل من الامثلة الموضحة لها في بيئات انثروبولوجية شتى . ومن هذه الامثلة العديدة المتعلقة بمسألة النور والظلام رصد كل التعابير الشعبية المتصلة بكلمات : مصباح ، ضوء ، قمر ، شمع ... الخ وفي بعض الاحيان نحس بتشعب الموضوع واتخاذ مسارات شتى . وعلى سبيل المثال فانه عندما يتحدث عن الزيت

كمادة أساسية تشعل للحصول على النور فإنه يتحدث عن القيمة الغذائية للزيت من وجهة نظر الأقوال الشعبية المأثورة كما يسهب في الحديث عن اعتقاد الناس ببركة شجر الزيتون . ومن وجهة نظر الكاتب الحالي — وهي لا تتعارض مع ما أراده د. كنعان — فإن المادة الخام التي خلفها لنا كاتبنا تشمل ثروة فولكلورية لا ينضب لها معين تحتاج الى من يشمر ساعد الجد للعمل على جلاء ملامح الفلاح الفلسطيني ونظرتيه الخيرة . من هذا المنطلق يدرس توفيق كنعان الموضوعات الأخرى مثل فولكلور النبات (٨) وفولكلور الفصول (٩) ونحن نرى انه يتناول اسم نبتة معينة ثم يدرس الامثال والأغاني الشعبية والأقوال المأثورة المتعلقة بها . ومثلا نراه يدرس وجهة النظر الشعبية حول فترات الحياة المختلفة وهو يورد نبتة « الخيار » . وأنقل عنه هذا النص : ابن عشرة مثل الخياره المقشرة ، ابن عشرين يماشر المجانين ، ابن ثلاثين زهر البساتين ، ابن أربعين من الكاملين . ثم يستفيض د. كنعان في دراسة النسخ الأخرى من هذا النص وتفسيرها . كما يقوده الحديث عن النبات من وجهة النظر الشعبية الى المعتقدات الشعبية المتعلقة بها فيرصد ظاهرة ارتباط النبتة بالمزارات وأضرحة الأولياء ومسألة تقديس الأشجار التي هي مستمدة من القدرة الإلهية المتمثلة فيها . ويشر ذلك كثرة الزخارف الشعبية في البيوت والمزارات وعلى الملابس والتي تمثل أشكالا شتى من الأشجار .

ويستطرد كنعان فيدرس نباتات وردت في الكتب المقدسة ونبئت حولها معتقدات وخرافات كثيرة مثل نبتة القمح التي كانت تنتصب في وسط جنة عدن والتي قدمت الائمة منها طعاما لحواء — أم البشر — . وعندما طرد آدم من الجنة أرسل الله اليه بواسطة الملاك جبريل حبات القمح ملفوفة بسبع مناديل من الحرير . وقام آدم بزرع هذه الحبوب والتي اتخذت شكل حرف الالف (ا) وهي الحرف الاول من لفظ الجلالة (الله) . ولذلك فإن القمح « نعمة من الله » ويحرص الفلاح على الا يدوس اية قطعة خبز مهما صغرت . واذا ما وجد الفلاح شيئا من الخبز وقد سقط على الأرض فإنه يتناوله بكل خشوع واحترام ويقبله ويضعه على جبينه ثم يودعه جانبا بحيث لا يتعرض لان يداس بالاقدام . وتأتي مادة فولكلور الفصول كتتمة لمقالة د. كنعان المنشورة بالامانة حول هذا الموضوع (١٠) وكذلك استكمالا لما كتبه كتاب آخرون مثل بوهر (١١) وسونن (١٢) وستيفان (١٣) حول فولكلور الفصول في فلسطين . ويدور معظم هذه المادة حول أسماء الشهور والمطل والمواسم والمناسبات على مدار السنة وما ارتبط بها في الذهن الشعبي من أفكار وممارسات ومعتقدات . أما دراسة د. كنعان للمعتقدات والممارسات الدينية فيما يتعلق بتصور قدرة الله (١٤) فيمكن اعتبارها ذات صلة بما كتبه عن الأولياء وهي حافلة بتصور الانسان لقدرة الله ودوره في مسائل الخير والشر والرزق والفقر والمرض والشفاء . وغني عن الذكر أن هذه التصورات تعزي كل ذلك لله . ويبدو أن جهد الباحث الفولكلوري ازاء مثل هذه الدراسات يجب ان ينصب على تمييز ما هو دين رسمي عما هو فولكلور . وهذه ليست مهمة سهلة . ونحن نعرف أن الكثيرين من الكتاب الغربيين الذين درسوا الفولكلور الفلسطيني خلطوا بين المعتقدات الشعبية المنحدرة من الشروح الدينية وبين الدين الرسمي .

وأخر الموضوعات التي درسها د. كنعان والتي هي موضوع استعراض الكاتب الحالي لأعمال ذلك الكاتب دراسته عن طيوغرافيا وفولكلور البتراء (١٥) . وتكمن أهمية هذا الموضوع بدراسة الحياة الاجتماعية لبدو البتراء وصلة ذلك بحياة بدو جنوب فلسطين ، إذ أن هناك علاقات وطيدة وحركة ارتحال تمت على طريقي وادي عربية وجعلت الأراضي على طريقي الوادي منطقة فولكلورية واحدة ذات صفة عربية بدوية .

يسكن الليانثة ، بدو البتراء ، في وادي موسى وهم ذوو طبيعة بدوية الا أنهم يمارسون

الزراعة شأنهم في ذلك شأن الفلاحين . ويتحدث د. كنعان عن ملامح الحياة اليومية لهؤلاء الناس فيقول أنهم يعيشون حياة صعبة ويقاسون من الحاجة والفقر المدقع . ويعتمد مجتمعهم على سيطرة الرجل . ويتم زواج البنت عندهم على رغبة وليها ودون استشارتها ولا تحصل على شيء من المهر . وقد يمنحها والدها هدية وهي عبارة عن بعض الحيوانات أو قطعة من الأرض . ويشيع بين اللبائنة زواج البدل بحيث يزوج الواحد منهم أخته أو قريبته لشخص ويتزوج هو أخت ذلك الشخص أو قريبته دون وجود مهر . ويندر أن يتم الزواج بالخطف ، وفي هذه الحال يسمون الفتاة التي تهرب مع حبيبها « طموح » . وهناك عدد ضئيل من بنات المشايخ لعين دورا كبيرا في حياة القبيلة وفي هذه الحالة يسمى الشيخ بكنية تعود لتلك البنت . وغالبا ما يقضي الرجال وقتهم في كسل دائم وثرثرة متصلة .

ويعتبر اللبائنة الاولياء مخلوقات ذات قوة خارقة ودورهم هو مساعدة الناس عند الحاجة . ولذلك فهم يطلبون منهم العون أكثر مما يطلبونه من الله . ويقول د. كنعان أنهم قليلو المعرفة بالدين فقد سأل هو شخصا خمسة منهم أن يتلوا سورة الفاتحة ولكنهم لم يكونوا ليعرفوا تلاوتها . ويصدق هذا القول على البدو المقيمين في النقب وأطراف سيناء فمعرفةهم بالدين جد ضئيلة إن لم تكن أحيانا معدومة .

ولم يجد د. كنعان عند هؤلاء البدو أي ممارسات أو طقوس في مزار أو كهف أو ضريح لولي . ولكنه لاحظ أنهم يقتنسون الموتى من الأشخاص ذوي الدور الكبير في تاريخ العشيرة أثناء الحياة . ويؤمنون بالجن ويصفونه بأنه يشبهه الغول كما هو مائل في الحكايات الشعبية الفلسطينية .

منهج البحث عند توفيق كنعان

يمكن القول ان دراسة توفيق كنعان للفولكلور الفلسطيني هي دراسة وصفية . وهو يعتمد على تناول زاوية معينة بحيث يورد كل التفاصيل المتعلقة بها والتي يبدو أنه جمع الكثير منها بطريق الاستجواب الشخصي . أما الجزء الآخر فقد اعتمد فيه على العمل المكتبي . ويبدو أنه رجع الى العديد من المراجع الاجنبية والتي حاول أن يصحح ما جاء فيها على ضوء معرفته الاصلية بالحياة الشعبية المحلية .

وقليلا ما يحاول د. كنعان أن يربط بين المادة التي يجمعها وبين مثيلاتها سواء أكان ذلك في بيئات أخرى أم البيئة الفلسطينية القديمة . وهو ان حاول ذلك فإنه يقارن مع عهد التوراة أو مع ما جاء في القرآن الكريم . الا ان د. كنعان يكتب وقد اتضح في ذهنه المنهج الوظيفي بحيث يبذل جهدا طيبا في تفسير المادة التي يتحدث عنها من خلال إبراز وظيفتها في الحياة الشعبية ودورها في توجيه أفكار الناس وتكوين مفهوم معين مرتبط بممارسات معينة متفق عليها لدى الوسط الشعبي . ولذلك وجدنا أنه ألقي ثقله الى جانب دراسة المعتقدات الشعبية لعلمه الاكيد ان هذه المادة ذات صلة بالواقع المعاش للناس فهي تؤثر فيه وتوجهه وتحكم مسار الحياة اليومية .

ولم ينس د. كنعان أنه يكتب عن تراث بلد مهدد بأخطار التزويب والابتلاع ، ولذلك نراه يربط بين المادة التي يجمعها وبين الأرض ، ويخلق الصلة بينهما بحيث يمكن القول ان هؤلاء الناس — أهل فلسطين — هم أصحاب هذه الأفكار المرتبطة بهذه الأرض والتي وجدت الصلة عبر هذا الحشد الجغرافي العظيم من المزارات والأضرحة والكهوف والينابيع والآبار والأشجار ... الخ .

وبعد ، فإن أعمال د. كنعان لها أشبه بعمل موسوعي يحتاج الى من يعيد تنظيمه ويضيف اليه لتظهر « موسوعة الفولكلور الفلسطيني » التي تبرز وجه الشعب الفلسطيني صاحب الأرض العربية الفلسطينية ومبدع تراثها وثقافتها الاصلية .

- ١ - من أبرز مؤلفات الدكتور توفيق كتعان بالالمانية كتابه :
Aberglaube und Volksmedizin in Lande der Bible
« الخرافات والطب الشعبي في فلسطين »
- a) Der Kalender der Palästinenischen Fellachen.
b) Dämonglaube in Lande der Bible.
c) Die Neugeborenen in der Palästinenischen Volkssite.
اما دراسات توفيق كتعان بالانجليزية والتي هي موضوع هذه الدراسة فتضم كتاب :
Mohammeden Saints & Sanctuaries in Palestine.
واحدى عشرة مقالة اخرى نشرها في مجلة JPOS
- ٢ - *Mohammeden Saints And Sanctuaries in Palestine*, Luzac & Co., London 1927.
- ٣ - دراسة الدكتور كتعان حول هذا الموضوع في مقالته :
a) Water And the Water of Life in Palestinian Superstition, *JPOS*, IX, 1929.
b) Haunted Springs and Water Demons in Palestine, *JPOS*, I, 1921.
- ٤ - درس د. كتعان هذا الموضوع في مقالته :
a) Tasit Er-Radjfeh, (Fear Cup), *JPOS*, III, 1924.
b) Arabic Magic Bowls, *JPOS*, XVI, 1936.
- كما استفاض المؤلف في التحدث عن هذا الموضوع في كتابه :
Aberglaube und Volksmedizin in Lande der Bible, Hamburg, 1914.
- ٥ - تناول الدكتور كتعان هذا الموضوع في مقالة من جزئين بعنوان :
The Palestinian Arabs House, its Architecture and Folklore, *JPOS*, 1937, Vol. XII, (223-247).
- ٦ - فصل د. كتعان هذه الظاهرة في كتابه :
Dämonenglaube im Lande der Bible (38-39).
- ٧ - Light and Darkness in Palestinian Folklore, *JPOS*, XI, 1930.
- ٨ - Plant-love in Palestinian Superstition, *JPOS*, VIII, 1928.
- ٩ - Folklore of the Seasons in Palestine, *JPOS*, III, 1924.
- ١٠ - انظر مجلة :
Z.D.P.V. XXXVI, 266-300
- ١١ - Z.D.P.V. XXXVIII, 54-57: Bemerkungen zu Dr. Canáan's Der Kalender des Palästinenischen Fellachen.
- ١٢ - Landwirtschaftliches vom see Genesareth, Das Heilige Land, Heft I, 1921.
- ١٣ - The Division of the Year in Palestine, *JPOS*, 159-170.
- ١٤ - More Palestinian Beliefs and Practices Relating to God, *JPOS* XIV, 1934.
- ١٥ - Studies in the Topography and Folklore of Petra, *JPOS*, IX, 1929.

الفنون الشعبية في فلسطين

بقلم

يسرى جوهريّة عرنيطة

من منشورات مركز الابحاث في م.ر.ت. ف.د. (ص.ب ١٦٦١ ، بيروت)

٢٥٦ صفحة ، ٨ ليرات لبنانية تضاف اليها اجور البريد الجوي : ١٠٠ ق.ل. في العالم العربي ،
٢٥٠ ق.ل. في اوروبا ، ٥٠٠ ق.ل. في سائر الدول .

المتردون على الخدمة العسكرية في اسرائيل

عبد الحفيظ مجارب

ظهرت قضية التمرد على الخدمة العسكرية كقضية للمرة الاولى في اسرائيل عام ١٩٧١ ، واخذت تنمو وتتفاعل ببطء خلال عام ١٩٧٢ . والحقيقة ان المرء - للوهلة الاولى - يستغرب حدوث ذلك لسببين : (١) الطبيعة التوسعية التي جبل عليها المجتمع الاسرائيلي . (٢) نظرة المجتمع الاسرائيلي الى الجيش ، وهذه النظرة تخطيط الجيش الاسرائيلي بهالة من الاعجاب والتقدير والاحترام قل ان يحظى بها جيش آخر في العالم ، ويعود ذلك الى ثلاثة اسباب رئيسية : اولا ، ان الجيش الاسرائيلي أداة صالحة لتغذية الروح التوسعية للجمهور الاسرائيلي ، ثانيا ، ان الدولة قامت على اكتاف الجيش على خلاف قيام الدول في معظم المجتمعات ، كما وان الجمهور الاسرائيلي عايش منذ قيام الدولة حالات أمن متوترة أحرز فيها الجيش الاسرائيلي ثلاثة انتصارات خيالية ، بدءا بحرب عام ١٩٤٨ التي انتهت في عام ١٩٤٩ ومرورا بحرب ١٩٥٦ وانتهاء بحرب حزيران ١٩٦٧ ، كل ذلك خلال جيل واحد ، الامر الذي جعل هذا الجيل ، اي الجمهور الاسرائيلي ، يكن احتراما يصل في بعض الاحيان الى هالة مقدسة تجاه الجيش الاسرائيلي . ثالثا ، الدور الذي يلعبه الجيش الاسرائيلي في عملية دمج « يهود الشتات » ، ويمكن القول انه المؤسسة الاقوى والاتجع في عملية صهر «يهود الشتات» في بوتقة واحدة بالرغم من فشل عملية الصهر وتخطيها .

لهذين السببين تبدو للوهلة الاولى قضية التمرد على الخدمة العسكرية مستغربة الا ان وجه الغرابة يزول عندما نقف على اسباب ظاهرة التمرد على الخدمة العسكرية وعواملها وحجمها .

من هم المتردون على الخدمة العسكرية ؟ ينتمي المتردون على الخدمة العسكرية ، او رافضو الحرب كما يطلق عليهم في بعض الاحيان ، الى فئتين رئيسيتين ، الفئة الاولى تنطلق من فكر سياسي ايديولوجي ضد الحرب ، وتعتبر الجيش الاسرائيلي جيشا محتلا ، والفئة الثانية تنطلق من اوضاعها التعميسة التي خلقتها الهوة الاجتماعية في اسرائيل ، معتقدة انها تستغل في جميع مجالات الحياة ، وان النضال التقليدي ضد النظام المستغل لا يأتي بنفع ، ولذا اقدمت على نضال فعال للتمرد ضد الخدمة العسكرية .

قبل التطرق الى الاسباب والعوامل التي أدت الى التمرد الايديولوجي والتمرد الناجم عن الهوة الاجتماعية ، لا بد لنا من الوقوف قليلا على قانون الخدمة العسكرية وعلى فئة اخرى أخذت تتجرب من الخدمة العسكرية لاسباب ليست سياسية او ايديولوجية . يلزم القانون الاسرائيلي كل رجل وامرأة من الذين تتراوح اعمارهم بين ١٨ و ٢٩ بالخدمة النظامية في الجيش الاسرائيلي ، تستغرق خدمة الرجل ٣٠ شهرا والمرأة ٢٤ شهرا ، ويستثنى القانون النساء المتزوجات ، كما ويعفى الفتيات المتدينات وتلاميذ المدارس الدينية المعروفة باسم الـ « يشيفوت » ، اما الرجال الذين يعارضون الحرب لاسباب

ضميرية فان القانون يعفيهم من الخدمة في الوحدات المقاتلة ، وينص على تجنيدهم في وحدات غير مقاتلة مثل سلاح الخدمات الطبية والتوجيه القومي وما شابه . وفيما يتعلق بالخدمة في سلاح الاحتياط فان القانون يلزم كل رجل حتى سن ٤٩ والنساء (اللواتي يشملهن القانون) حتى سن ٣٤ ، بالعمل في الخدمة الاحتياطية ٤٢ يوما خلال العام .

ان الفئة التي أخذت تتهرب في الآونة الأخيرة من الخدمة العسكرية لاسباب ليست سياسية أو ايدولوجية هي فئة الفتيات اللادينيات ، وقد غدت عملية التهرب هذه ظاهرة ملموسة في النصف الثاني من هذا العام ، حيث أخذت اخبار هؤلاء الفتيات مكانا في الصحف الاسرائيلية . ومن الجدير بالذكر ان نسبة الفتيات اللواتي لا يشملهن القانون الاسرائيلي بسبب تدينهن او ادعائهن بالتدين قد بلغت عام ١٩٦٩ ، ٤٠ بالمئة ، وقد تصاعدت هذه النسبة خلال العام الحالي بسبب كثرة الفارات من الخدمة تحت ستار التدين ، بمساعدة الفئات الدينية المتطرفة ، حيث أخذت هذه الفئات تتشط في التستر على الفتيات الهاربات وايوائهن ، كما وأخذت تتشط في تشجيع الفتيات على عدم الانخراط في سلك الخدمة العسكرية لتنافي ذلك مع الشريعة اليهودية .

هنالك أسباب عدة تقف وراء ظاهرة تهرب الفتيات من الخدمة العسكرية من أهمها العامل الاقتصادي حيث تفضل العائلات الفقيرة ومحدودة الدخل ان تقوم الفتاة في سن الثامنة عشرة بالعمل لمساعدة أفراد العائلة على الانخراط في الخدمة العسكرية التي لا تدر مردودا اقتصاديا ، كما وهناك العامل الديني لدى رب الأسرة وليس بالضرورة لدى الفتاة ، الأمر الذي يضع الفتاة أمام ضغوطات عائلية ، وهناك عامل ثالث وهو أكثر رواجاً من العاملين السابقين بين صفوف الشرائح الاجتماعية المتوسطة والمتدنية ، وهو عامل الاخلاق ، التي تستغله العائلات التي ترفض ارسال بناتها الى الخدمة العسكرية مدعية — سواء كان الأمر صحيحاً أو غير صحيح — بأن الخدمة تؤثر على شرف الفتاة وعفتها ، مدعية وجهة نظرها عادة بأقوال « الابن البكر » الذي أنهى خدمته في الجيش : « لقد كان الابن البكر في الجيش وهو يعرف جيداً ما يجري هناك » . ومن الجدير بالذكر ان « الابن البكر » وأولئك الذين يرفضون تجنيد أخواتهم في الجيش يشنون حملة ضد الفتيات اللواتي يعملن في الجيش ، ضاربين على وتر العفة والشرف على غرار أحد الجنود الذي قال : « ان الأمر أسهل بكثير مع المجندات . عندما أخرج مع فتاة بشكل جدي من أجل الزواج ، فأنني أختار فتاة لم تذهب الى الجيش . انني منعت أختي من التجنيد » (دافار ٧١/١٠/٢٥) .

نعود الآن الى أسباب وعوامل التمرد الايدولوجي السياسي ، الذي قاده مجموعة من الأشخاص وعلى رأسهم جيورا نويمان وروجر درهي وغيرهما من الشباب الذين تفتحت أمام عيونهم طبيعة الحركة الصهيونية والاحتلال الاسرائيلي . لقد كانت هنالك أسباب عدة وراء التمرد على الخدمة العسكرية أهمها :

١ — الاعمال « المخزية والمشيئة » التي تقوم بها قوات الاحتلال وأهمها على سبيل المثال لا الحصر ، سياسة العقاب الجماعي ، وسياسة الاستيطان الاسرائيلي وما يترتب عنها من سلب ونهب للفلاحين العرب ، وسياسة التشريد والتهمير ، ورش المزارع العربية بالواد السامة (كما حدث في قرية عقربة) بواسطة طائرات سلاح الجو ، الأمر الذي جعل بعض الفئات الاسرائيلية تنظر الى الجيش الاسرائيلي كجيش محتل ، وهذا أمر لا تعترف به التكتلات السياسية الرئيسية في إسرائيل ، فبعضها يرى ان المناطق المحتلة « مناطق محررة » والبعض الآخر يعتبرها « مناطق محتفظاً بها » مع ان جميع هذه الكتل تجمع على ضرورة عدم العودة مطلقاً الى حدود الرابع من حزيران . وكان من نتيجة الاعمال المخزية في المناطق المحتلة ان حدثت قفزة جيدة في نضال العناصر اليسارية الاسرائيلية المعارضة ، حيث أخذ البعض يربط بين الاعمال المشيئة والخدمة

في الجيش ويدعو علنا الى رفض دخول المعركة فيما اذا وقعت الحرب ، مثل الكاتب الاسرائيلي عاموس كينان الذي قال في اجتماع احتجاجي ضد الاستيطان الكولونيالي في مشارف رفح : « لقد جئنا للاحتجاج ضد السياسة الكولونيالية لاننا ندخل عصرا حديثا لاسرائيل الكولونيالية . ان الاستيطان لا يبعد السلام فقط ، بل يجعله امرا مستحيلا . لقد قامت اسرائيل جديدة ، قبيحة ، تتشكل من خليط ديني وعسكري وبرجوازي » . واضاف ان الاعمال الكولونيالية في المناطق المحتلة تؤدي الى الحرب « وينبغي علينا ان نعلن الآن باننا لن نقاتل في هذه الحرب » (معاريف ٧٢/٤/٢) .

٢ - تعنت اسرائيل في مواقفها السياسية وعدم استجابتها لمشاريع « السلام » سواء العربية منها او الدولية ، مع ان هذه المشاريع تمنح وجودها وكيانها صفة الشرعية ، وتعطيها اكثر بكثير مما كانت تطلب هي قبل حرب حزيران ، وهذا الامر ناتج عن الطبيعة التوسعية للمجتمع الاسرائيلي ، ولذا اتخذت السلطات الاسرائيلية مواقف متعنتة تتسم بالفطرية كالاصرار على المفاوضات المباشرة والقول في الوقت نفسه بانها لن تعيد هذه المنطقة او تلك حتى ولو جلس العرب « معنا على مائدة المفاوضات المباشرة » وذلك نتيجة لانتصارها الباهر في حرب حزيران من ناحية ، وضعف حركة التحرر العربي من ناحية اخرى ، كما واخذت تضع قيودا على السلام تحول دون تنفيذ مشاريع السلام العربية المشفوعة بالتنازلات والتي تعطي اسرائيل اهم شيء كانت تطلبه وتسعى اليه ، الاعتراف العربي الرسمي بها علاوة على منحها تعديلات على الحدود اي توسيع رقعتها ، ولو ان هذه المشاريع العربية طرحت قبل حرب حزيران لقبلتها اسرائيل فوراً وبدون تردد ، ولاتهم اصحابها اي الطرف العربي بالخيانة ، ولكان من المشكوك فيه ان يبقى صاحبها على سدة الحكم يوما واحدا ! وبالرغم من ذلك وقفت اسرائيل حجر عثرة امام مشاريع السلام العربية والدولية ، وانحت باللائمة على الطرف العربي وبعض الاطراف الدولية ، وخرجت من كل ذلك بان الوضع الراهن سيستمر على ما هو عليه ، متذرة **بعدم وجود خيار** او « لا مناص من ذلك » . ومع ان الخيار في بعض الاحيان - اي الخيار الاسرائيلي - يكون موجودا فان السلطات الاسرائيلية تسارع الى عرقلة وسد الطريق امامه ، متذرة بالجملة نفسها « لا خيار » ، وخير دليل على ذلك ما اشيع حول موافقة الرئيس عبدالناصر على مقابلة الدكتور ناحوم جولدمان رئيس المؤتمر اليهودي العالمي ، واشترط عبدالناصر ان تتم المقابلة بموافقة السلطات الاسرائيلية ، الا ان « مقابلة السلام » هذه لم تتم بسبب رفض السلطات الاسرائيلية اعطاء موافقتها للدكتور جولدمان ، وكان من نتيجة ذلك كله ان بدأ قسم من الجمهور الاسرائيلي يتشكك في جملة « لا خيار » او « لا مناص » ، الا انه ظهر هنالك اكثر من مجرد التشكك حين حدث نوع من التمرد بين اوساط تلاميذ المرحلة الاخيرة في المدارس الثانوية الذين يقفون على عتبة الانخراط في سلك الخدمة العسكرية ، ضد سياسة « لا مناص ولا خيار » ، وقد خلق هذا النوع من التمرد شبه تيار ضاغط في المجال السياسي في اسرائيل بين اوساط الشبيبة ، فقد تصدى طلبة ثانويون في القدس لهذه السياسة ، وبعثوا برسالة الى رئيسة الحكومة غولدا مئير في شهر ابريل من عام ١٩٧٠ ، ربطوا فيها بذكاء وبجرأة واقع وقوفهم على عتبة الخدمة العسكرية بنفويت الحكومة كافة فرص السلام « نحن مجموعة من الطلبة الثانويين ، نقف على عتبة تجنيدنا في الجيش الاسرائيلي ، نحتج على سياسة الحكومة تجاه قضية مباحثات جولدمان - عبدالناصر ، لقد آمنا باننا نذهب للقتال وللخدمة العسكرية خلال اعوام ، لانه لا يوجد خيار ، بيد انه اتضح لنا في اعقاب هذه القضية انه ايضا في حال وجود خيار ولو كان بسيطا جدا فان نصيبه التفاضلي . وعلى ضوء ذلك فاننا ، مع الكثيرين غيرنا ، نفكر كيف سنقاتل في حرب متواصلة لا نهاية لها ، في الوقت الذي تعمد الحكومة في سياستها الى تفويت فرص

السلام . اننا نطالب الحكومة باستغلال كل فرصة واحتمال للسلام » (هعولام هزيه ٧٠/٦/١٧) .

ان قيمة الرسالة لا تكمن بالاحتجاج بقدر ما تكمن في عملية ربط الاحتجاج بالخدمة العسكرية ، وهذا امر غير مألوف حتى ذلك الحين في الصراعات القائمة في المجتمع الاسرائيلي . وقد عنت الحكومة وأدركت خطورة عملية الربط هذه ، وشنت هجوما بوسائل الاعلام الاسرائيلية ضد مجموعة الطلبة صاحبة الرسالة ، وكان من الطبيعي ازاء هذه الحملة أن تحدث انشقاقات بين التلاميذ المتمردين على سياسة الحكومة خاصة وأنهم لا ينتهون الى حزب او تيار ايدولوجي معين ، إلا أن روح التمرد اجتاحت طلبة ثانويين آخرين حيث بعثوا برسالة في شهر مايو من عام ١٩٧٠ الى نائب رئيسة الحكومة يجال آلون ، احتجاجا عليها على سياسة الحكومة المترددة تجاه السلام ، وعلى رد الحكومة غير المتسامح على رسالة تلاميذ القدس .

٣ - افتضاح خرافة الإبادة : من بين الامور الاساسية التي ازلت الكثير من الامور المسلم بها والمفروسة في ذهنية الجمهور الاسرائيلي افتضاح خرافة الإبادة التي روجت لها السلطات الاسرائيلية منذ قيام الدولة وحتى الآن . فقد أصبح « خطر الإبادة » المحقق باسرائيل يتلاشى من خلال اعترافات الزعامة العسكرية بأن اسرائيل لم تواجه عشية حرب حزيران خطرا يهدد كيانها مخالفين بذلك « الامر اليومي » الذي صدر عند اندلاع الحرب لوحداث الدروع الاسرائيلية : « بالدم والنار والحديد سنحول دون تنفيذ المؤامرة ... اننا نطلق لتخطيم مؤامرة الإبادة » ومناقضين التصريحات الكثيرة التي لا حصر لها قبل حرب حزيران وبعدها التي عكف الزعماء الاسرائيليون على ترديدها . لا نقصد هنا التطرق الى اسباب قضية خطر الإبادة وعواملها وملابساتها وكذلك ليس الى ملابسات تصريحات القادة العسكريين التي نسفت الفكرة السائدة وكشفت القناع عن زيف ادعاءات الزعماء الاسرائيليين بل نود الاشارة اليها كعامل مساعد استغله المتمردون على الخدمة العسكرية في دفاعهم عن مواقفهم ومعتقداتهم ، متسلحين باعترافات القادة العسكريين الذين كانت لهم يد طولى في حرب حزيران .

كان اول المتحدثين عن خرافة الإبادة الزعيم (احتياطي) متياهو بيلد وتبعه كل من عيزر فايتسمان وحاييم بارليف واسحاق رابين وغيرهم . يعتقد بيلد ان اسرائيل لم تكن معرضة الى خطر الإبادة الا في عام ١٩٤٩ ، ويشاركة في هذا الرأي عيزر فايتسمان ، ومع ذلك فقد « ثابرننا على تنمية الاحساس بالخطر المحقق بنا ، وكاننا شعب صغير ضعيف ، يتخوف باستمرار على كيانه ، ومعرض في كل لحظة لخطر الإبادة » . ويمتد بيلد « انه حسب رأيي جرى منذ الحرب جهد محسوب لطمس جوهر المشكلة التي مثلت امامنا في مايو/يونيو ١٩٦٧ ، وطرح الحرب وكأنها تفجرت عقب خطر كبير وان العرب كانوا يعرضوننا للخطر ، وان هذا الخطر ناجم عن وضع حدودنا التي كانت مكشوفة » . ويستنتج من ذلك بأن الهدف من هذا الطرح هو « توسيع حدودنا » . ويضيف بيلد « انني على يقين بأن الحكومة لم تستمع مرة واحدة الى تقرير من قبل القيادة العامة بأن التهديد العربي كان يشكل خطرا على اسرائيل ، او بأن اسرائيل لم تكن تملك القدرة لاحاق الهزيمة بالجيش المصري الذي كشف نفسه بغياوة مذهلة للضربة القاضية للجيش الاسرائيلي ... ان الادعاء القائل ان تلك القوات المصرية التي احتشدت على حدودنا الجنوبية كان بإمكانها تهديد كيان اسرائيل لا يعني فقط الاستهزاء بالثقفين الذين لا يستطيعون تقييم هذه الامور ، بل أيضا تحقيرا للجيش الاسرائيلي » (معاريف ٧٢/٣/٢٤) .

اما عيزر فايتسمان فانه يعترف بأن عامل الخطر المحقق بالكيان الاسرائيلي لم يكن قائما « وان الدولة لا تخرج الى الحرب فقط عندما يحدق بها خطر الإبادة » وان المصالح

القومية كانت وراء الحرب « ان أمن اسرائيل ليس هدف وجودها . ان الدولة اقيمت
للسعي لتحقيق الاهداف القومية الاخرى » (هارتس ٢٩/٣/٧٢) .

لقد احدثت هذه الاعترافات موجة من التساؤلات بين الجمهور الاسرائيلي الذي عانى من
حالة خوف رهيبه عشية حرب حزيران نتيجة ترداد خطر الابادة على كل لسان وفي كل
مكان ، وأكثر من ذلك نسفت الفرضيات الأساسية التي تقوم عليها السياسة
الاسرائيلية . (للأستزادة حول هذا الموضوع انظر مجلة شؤون فلسطينية : عدوان
حزيران وخرافة الابادة - الدكتور أسعد رزوق . عدد ١٣ ، وخطر الابادة أسطورة في
قاعدة الاستراتيجية الاسرائيلية - المقدم الهيثم الايوبي . عدد ١٤) .

٤ - المسرحيات المناوئة للحرب : في اعقاب حرب ١٩٦٧ أخذت تبرز في اسرائيل حركة
مسرحية مناوئة للحروب يقودها كتاب شباب من الثائرين على الأوضاع السياسية
والساخطين على سياسة « لا مناص » و« لا خيار » ومن أبرز المسرحيات التي ظهرت
مسرحية « ملكة الحمام » للكاتب الشاب حانوخ ليفين . كتبت المسرحية على شكل
اناشيد وأغان ، كل انشودة تنافس الاخرى في شدة انطلاقها ضد الحرب ، وهذا الأمر
مناف للروح العسكرية المسيطرة في المجتمع الاسرائيلي التي خطت لها القيادة
السياسية وحافظت عليها الزعامة العسكرية من أجل تحقيق الاهداف الصهيونية . ولذا
واجهت هذه الاغاني المناوئة للحروب استهجان وعداء السلطة والتيارات
السياسية الفاعلة في اسرائيل . ان قيمة مسرحية « ملكة الحمام » لا تكمن في كلماتها
الساخطة ضد الحروب فحسب ، بل أيضا (وهذا أمر أساسي) في كونها الصوت
الساخط الذي يطلق صرخة « لا » و« كفى » في مجتمع تتحكم فيه العسكرية .

وهناك مسرحية أخرى تجاوزت صرخة « لا » و« كفى » وتجرات على التمرد ضد أهم
سلاح تملكه العسكرية الاسرائيلية ، الا وهو سلاح « الخدمة العسكرية » في مسرحية
« اقتفز » التي ظهرت في عام ١٩٧٠ نجد للمرة الاولى روح تمرد الشباب ضد الخدمة
العسكرية ، وسنقتطف ثلاثة مقاطع تنطرق الى موضوع التهرب من الخدمة ويمثل
المتبردين الشاب ابي (انظر مجلة الجديد كانون الثاني شباط ١٩٧٠ حيفا) .

« ايلي : اذن أنت تهرب يا جبان . اقتد بيوسي

ابي : لا تسخر ، للهروب أوجه حسنة جدا

ايلي : هروب انه عدم القدرة على مجابهة المشاكل

ابي : من قال ذلك ؟ بيالك ؟ احاد هعام ؟ ترومبلدور ؟ عم تتحدث ؟ ثلاثة يهود استنطاعوا
الهروب من روسيا ، كاتب هرب من المانيا النازية ، منهم بريء هرب من السجن ،
ملحق شهير هرب من اليونان ، ليس سماع هذه الاخبار فرحة عظيمة . لكلمة هروب
لا توجد نغمة شاذة ، بالعكس تماما ، فهي نغمة الحرية ، رنين السعادة ، انها ليست
نغمة المنطق ، انفهم يا سيدي ؟

موشيه : الى الجحيم ، قل لي ، بأية مقاييس تحكم على الحرب ؟

ابي : بالمقياس الوحيد ، وهو ان حياة الانسان هي الشيء الأكثر سموا وأهمية .

وفي مقطع آخر يمثل ابي طلبة المدارس فئة الثانويين المتبردين على الخدمة العسكرية
والذين أخذوا يرفضون مفاهيم حاولت السلطة ترسيخها في أذهانهم .

« ابي : بعد اسبوعين سننهي الثاني عشر ، ستصابين بصدمة اذا قلت لك ماذا ساعمل!
فن اذهب الى الجندية !!

روني : هل تقصد ان تعلن بذلك ، انك متدين ؟

أبي ؛ لا ، إنما قررت أن أتلاعب

راحيل : أبي ، هل صحيح ما قالته لي الجارة من أنك وصفت « المبكى » بأنه مجرد جدار ؟

أبي : لكن يا أمي ، جدار ... انه مجرد جدار ... »

وفي مقطع آخر يصل « أبي » الى ذروة اليأس من الواقع ، ومن خلال هذه الذروة يرى الحل وهو التمرد على خدمة العلم بشكل نهائي .

« أبي : لا أدري ما العمل ؟ انني لا أرغب في وحدة سكن ... لا أريد الجهات الست ... لا أريد شرفة مغلقة ، أريد شرفة كبيرة مفتوحة ومستديرة ككل العالم . لن أعود ، أماه ... لن أخدم العلم ... لا أريد ، أماه .. أنا لا ، أنا لا » .

لهذه العوامل مجتمعة ، ابتداء من الاعمال المشينة التي تقوم بها قوات الاحتلال في المناطق المحتلة ، وتعننت اسرائيل في مواقفها السياسية وعدم استجابتها لمشاريع «السلام» سواء العربية منها ام الدولية ، ومرورا بافتضاح خرافة الإبادة ، وانتهاء بالمسرحيات المناوئة للحرب ، أخذت تبرز في الساحة الاسرائيلية ظاهرة التمرد على الخدمة العسكرية ، وكان للحزب والهيئات الثورية في اسرائيل وعلى رأسها المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية « متسبين » والحزب الشيوعي الاسرائيلي « رايح » وبعض عناصر اليسار الاسرائيلي الجديد ، وكتاب وشخصيات اسرائيلية ثورية مثل عاموس كينان ودان بن اموتس والدكتور شحاك ، فضل كبير في استثمار هذه العوامل ضد السلطة وتوجيهها في مسار فضالي أدى في النهاية الى ظهور الفئة المتمردة .

قبل أن نتطرق الى رافضي الخدمة العسكرية ومعتقداتهم لا بد لنا من الوقوف قليلا حول ردود الفعل في اسرائيل على هذه الظاهرة وعلى ردود الفعل العالمية . لقد اتسمت ردود الفعل الاسرائيلية بالتضارب والتشعب حسب أهواء ومشارب التكتلات السياسية الفعالة في اسرائيل ، بيد أنها تجمع على استنكار الظاهرة واعتبارها ظاهرة عرضية في مجتمع « مستنير » . ومما يلفت النظر ان وسائل الاعلام الاسرائيلية الرسمية منها او غير الرسمية دابت ، من خلال تحليلها وتعليقها على رافضي الحرب ، على تشويه صورة الدول العربية ونعتها بأقذع الاوصاف . ولكي تتضح امامنا صورة ردود الفعل لا بد من استعراض مواقف التيارات المختلفة في اسرائيل ، مبتدئين بحزب مبام (يسار صهيوني) الذي عبر عن نفسه في مقال نشرته صحيفة عل همشمار (٧٢/٦/١٤) تجاه قضية نويمان جاء فيه : « ان هذه الظاهرة يمكن ان تكون فقط ظاهرة هامشية في حياة اسرائيل . ففي دولة مستنيرة ، محاطة بدول ديكتاتورية عسكرية متخلفة وعدوة لن يكون هنالك كثيرون من أمثال نويمان . لا يمكن في ظروفنا ان يكون رفض حمل السلاح رفضا يعود الى الضمير ، الا اذا كان هذا الضمير فاسدا » . اما وجهة نظر المتدينين فانها لا تختلف عن وجهة نظر اليسار الصهيوني ، بيد انها أرادت ان تستثمر قضية نويمان ، وتخلق منها قضية أخرى ، قضية من هو اليهودي ؟ فقد نشرت صحيفة نويمان « هتسوفيه » الناطقة باسم الحزب الوطني المتدين مقالا افتتاحيا أخذت تشكك فيه بيهودية نويمان على اعتبار انه ابن لام غير يهودية ، ولذا « فهو غريب ، حقا انه يتحدث العبرية وتثق في مدرسة عبرية ، ومسجل كابن للقومية اليهودية ، الا انه غريب وفق الشريعة اليهودية » ثم شكك المقال الافتتاحي في مسألة ختنه ! وخرج من كل ذلك بمطالبة السلطات المسؤولة في التدقيق الشديد عند تسجيل هوية كل شخص في وزارة الداخلية « هل هو مختون ؟ هل هو من أم يهودية ؟ » وبذلك أراد المتدينون تفجير قضية من هو يهودي مرة أخرى . ومن الجدير بالذكر ان هنالك عددا من اليهود متزوجين بنساء من اصل غير يهودي ، لا يعترف المتدينون بيهودية اولادهم . اما التيار اليميني

معد غير عطف رئيس ادارة حزب حيروت غيرر فايتسيمان حين قال في اجتماع امام جمهوره من الطلبة في الجامعة العبرية في القدس حول قضية نويمان انه « لا يوجد مكان في الدولة لرافضي الخدمة العسكرية ، واذا كان الشاب يرفض قبول سيادة دولة اسرائيل ، فانه ينبغي سحب الجنسية الاسرائيلية منه » (مغاريث ١٥/٦/٧٢) . اما كتلة هعولام هزيه فقد اتخذ رئيسها اوري افنيري موقفا مناوئا من قضية رفض الخدمة العسكرية لاعتقاده بانه اذا ما اصبحت ظاهرة الرفض ظاهرة عامة فان ذلك سيثجع مثيري الحروب في الخارج لشن الحرب . يقول اوري افنيري : « لو ان عمل جيورا نويمان سيؤدي الى موجة متصاعدة لرفض التجنيد ، فهل سيقرب هذا الامر للسلام ؟ . . اذا ما خلق انطباع في العالم العربي بأن قوتنا العسكرية آخذة بالانهيار ، واننا سنفقد بعد بضعة اعوام ارادة الدفاع عن انفسنا ، فان الامر لن يؤدي الى تعزيز قوى السلام العربية ، بل ان ذلك سيكون بمثابة تشجيع لمثيري الحرب عبر الحدود ، ومثيري الحرب عندنا . ان الضعف لا يجلب السلام » (هعولام هزيه ١٠/٥/٧٢) .

من الملاحظ ان ردود الفعل الاسرائيلية تهربت عن عمد من معالجة الاسباب الحقيقية لرافضي الحرب ، ولم تمس جوهر الموضوع بل فضلت التركيز على جوانب معينة منه مع بذل محاولة لتثويه صورة الجانب العربي ، الا ان الفئات الثورية في اسرائيل وعلى راسها المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية متسبين ، وكذلك فئات من اليسار الاسرائيلي الجديد والحزب الشيوعي الاسرائيلي راکاح ، وشخصيات مستقلة اخرى مثل دان بن اموتس ، وقفت الى جانب قضية التمرد على الخدمة العسكرية المتمثلة في ظاهرة جيورا نويمان ، ومست جوهر المشكلة ، وقامت بتنظيم تظاهرة في تل ابيب امام مبنى وزارة الدفاع وتظاهرة اخرى امام مبنى المحكمة اثناء محاكمة جيورا نويمان ، كما ونشطت في نقل قضية التمرد الى الخارج . وقد تمثل حضور القضية في الخارج في تظاهرة حدثت في لندن لاطلاق سراح نويمان وفي عرائض احتجاج مذيبة بالآف التواقيع مسن بريطانيا وفرنسا والمانيا وامريكا واستراليا، بيد ان اهمرد فعل خارجي قد صدر من جانب الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر . وتكمن أهمية موقف سارتر في عاملين ، أولا ، لكونه فيلسوفا يملك التأثير على قطاع كبير من البشر ، وثانيا ، للتحول الذي طرأ على موقف سارتر تجاه اسرائيل ، فقد كان سارتر عشية حرب حزيران متعاطفا مع اسرائيل وربما كانت اسطورة الابداء احد العوامل الرئيسية الكامنة وراء هذا التعاطف ، ويتمثل موقفه في الرسالة التي بعث بها الى السيدة صوفيا أم جيورا نويمان والتي تنص : « بودي ان أعبر لك عن تعاطفي الكامل مع ابنك . ان اعواما من السجن تنتظر، بسبب العمل الشجاع والعمل . انه برفضه الخدمة في جيش كان في بدايته جيش دفاع وتحول الى جيش معتد محتل ، يشجب سياسة حكومة اسرائيل التي تحول الان دون أية خطوة نحو السلام . وكلني أمل بان يثر عمله تفكير اكبر عدد من الشبان ابناء جيله . ومن البديهي ان تكون هنالك قيمة لاسباب (عمله) توازي على الاقل نفس قيمة اسباب رفض الخدمة العسكرية لاسباب ضميرية محضة ، واعتقد ان تيرئة ساحته ستكون شرفا للمحكمة . ثقي يا سيدتي بأنني أشعر بالامك » (مغاريث ١٢/٦/٧٢) .

قضية جيورا نويمان : يعتبر جيورا نويمان رمز الثائرين على الخدمة العسكرية وأصبح يشكل قضية تعرف باسمه ، وبالرغم من محاولة السلطات الاسرائيلية كبت القضية وحبسها الا انها اُفلتت من أيديها وغدت من بين القضايا التي تتداولها الاوساط اليسارية الثورية في العالم ، ويعود الفضل الكبير في ذلك الى صمود جيورا نويمان الذي يناهز الثامنة عشرة من عمره والى المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية متسبين التي اخذت تروج لها بين الاوساط والتيارات المستتيرة في الساحة العالمية .

بدأت قصة نويمان عند مطلع شهر آب من عام ١٩٧١ عندما قام مع ثلاثة آخرين من ابناء

جيله (١٨ عاما) على عتبة الخدمة العسكرية بعد أن أنهوا دراساتهم الثانوية (وهم رؤبين لسمان ، دوف جال ، عيريت يعقوبي « فتلة ») بإرسال رسالة الى وزير الدفاع موثيه ديان ونسخ أخرى عنها الى كبار المسؤولين الاسرائيليين والى مندوب الاسم المتحدة في اسرائيل ، تعتبر سابقة وفتاحة لنضال عملي ضد المؤسسة العسكرية المحاطة بهالة من القدسية في اسرائيل . لم تكن هذه الرسالة كرسالة خريجي المدارس الثانوية الذين يشكون من سياسة « لا مفر » و « لا مناص » وهم على عتبة الخدمة العسكرية والتي نالت استحسان ورضى قطاع من الجمهور الاسرائيلي ، بل كانت ثورة على الخدمة العسكرية بالذات ، على الاداة الرئيسية القوية التي لا تتعزز السياسة الاسرائيلية الا بها ، على الجيش الاسرائيلي : « اننا لسنا على استعداد للدفاع في قوات الدفاع . ان شبابا يفقدون ارواحهم في هذه الدولة في معارك من اجل صراعات داخلية وليس من اجل قيم عليا . مقابل كل قتيل في القناة ، يثري رجل في تل ابيب . **اننا لسنا على استعداد للخدمة في جيش محتل** . لم نولد احرارا لكي نصبح مضطهدين . ان الاضطهاد ليس سببا كافيا لبذل الروح من اجله ، اننا لسنا على استعداد لتحويل الى مرشحين في قائمة اعلانات الوفيات فقط لجرد استهتار الحكومة بأرواح البشر . اننا لا نرغب أن يكتبوا عنا « حديث الموتى » في يوم من الايام . **اننا لسنا على استعداد لارتكاب بحق شعب آخر ما ارتكب بحق آبائنا واجدادنا** . مرفق بذلك أوامر التجنيد التي استلمناها » (مجلة متسبين ١٠ / ٨ / ٧١) .

وقفت السلطات الاسرائيلية حيال ذلك مندهشة ، ولجأت الى اسلوب طمس الحقائق وتطويقها خشية انتشارها ، فأنكر وزير الدفاع في بداية الامر انه تلقى رسالة رفض للخدمة العسكرية من قبل الاشخاص الاربعة ، كما ومنع التلفزيون الاسرائيلي من بث مقابلة مع الاشخاص الاربعة كانت قد اعدت ، وأخذت وسائل الاعلام الاسرائيلية تبرز رسالة أخرى بعث بها أحد المشوهين يطلب فيها الانضمام الى الجيش الاسرائيلي ، بيد ان الرسالة كانت قد أخذت طريقها الى الصحف الأجنبية ولم يعد بالإمكان التستر عليها . حينذاك لجأت السلطات الاسرائيلية الى ثلاث طرق في معالجتها لقضية التمرد على الخدمة العسكرية (١) توجيه مذكرات توقيف بحق التمرديين ووضعهم في سجون عسكرية مع تجديد هذه المذكرات عند انتهاء المدّة والقيام خلال ذلك بحملة نفسية مشفوعة بالتهديد ضد الشخص الموقوف بغرض تليينه وكسر مقاومته . (٢) افساح المجال امام الراض للخدمة ، للعمل في مجال آخر ضمن الخدمة العسكرية ولكن في وحدات غير المقاتلة مثل الوحدات الطبية ، وضمن حدود الرابع من يونيو فقط . وقد استطاعت السلطة العسكرية القضاء على تمرد عدد من الاشخاص بواسطة البديل الجديد : الخدمة في حدود الرابع من يونيو وفي الوحدات غير المقاتلة . (٣) في حالة تعذر كسر مقاومة الراض من خلال تجديد مذكرات التوقيف في السجن ، واصراره على رفض الخدمة سواء في الوحدات المقاتلة ام غير المقاتلة في المناطق المحتلة او ضمن ما يسمى بالخط الاخضر ، تحاول السلطة فتح طريق أمامه لتخلص من المشاكل التي يثيرها بواسطة التلميح للراض بأن بإمكانه عدم الالتحاق بالخدمة اذا كان مصابا بمرض جسدي أو نفسي ، واذا ما استجاب الراض لهذا « الاعراء » وصرح بأنه يعاني من مرض ، تطلق السلطة سراحه من الخدمة العسكرية على اساس انه « غير ملائم للعمل في الجيش الاسرائيلي » وبهذه الوسيلة أطلق سراح عدد من الراضين للخدمة . اما في حالة عدم جدوى هذه الوسائل الثلاث فان الراض يحال على محكمة عسكرية لاصدار الحكم بحقه في السجن . ليس من السهل اجتياز هذه الاساليب الثلاثة لسببين اثنين : (١) التهديد والوعيد من قبل السلطة ، (٢) يفاعه سن الشباب الراضين الذين تناهز أعمارهم الثامنة عشرة فقط ، غير ان من يكون مسلحا بايديولوجية معينة فيمكنه التغلب على كافة الصعوبات النفسية والجسدية .

لقد جريت السلطة مع جيورا نويمان الاساليب الثلاثة وفشلت معه وانتصر عليها ،
فبالنسبة للاسلوب الاول اصدرت مذكرة بتوقيفه ٣٥ يوما في سجن عسكري ، وعند
انقضاء المدة الحقتها بمذكرة توقيف ثانية بالمدة نفسها ثم الحقتها بثالثة ورابعة وخامسة ،
وخلال ذلك استخدمت معه الاسلوب الثاني ، وكادت ان تنجح حين اُشيع ان نويمان
قبل العمل في الجيش ضمن حدود الرابع من يونيو وفي الوحدات غير المقاتلة . ويبدو ان
نويمان وافق لفترة زمنية صغيرة للعمل في وحدة غير مقاتلة تحت تأثير عاملين : الضغط
الموجه اليه في السجن من قبل سلطات الجيش ، ومن قبل ابويه اللذين ضغطا على
ابنهما — بالرغم من تأييدهما لموقفه — لقبول البديل بدل ان يبقى بين الحدران الاربعة ،
والشعور الذي اعترى نويمان بأنه يجب ان لا يقدم على خطوة تجعله في مرتبة المتفوق
على زملائه ، بيد ان هذين العاملين سرعان ما سقطا عندما أعلن نويمان كما جاء على
لسان أبيه : « انني لا اريد ان اكون في جيش مضطهد حتى ولو لم اجد في المناطق
المحتلة ، وكذلك فانني لن التحق بسلاح الخدمات الطبية . . . وانني لا اريد ان اطلق
سراح جندي آخر لكي يخدم مكاني في المناطق المحتلة » (هولام هزيه ٧٢/٦/١) .

وهكذا استمر جيورا في مواصلة نضاله . وقبل التطرق الى الايديولوجية المسلح بها لا
بد من الوقوف قليلا حول التربية المنزلية التي ترعرع عليها . ويحدثنا ابوه عن ذلك
بقوله : « لقد هاجرنا الى البلاد عام ١٩٥٨ ، وكان جيورا يناهز الرابعة والنصف من
عمره ، كان في طفولته يريد معرفة ما جرى لجده ، وروينا له كل شيء ، وروت له امراتي
التمرد في وارسو ، حيث كانت في وارسو لغاية عام ١٩٤٤ حين طرد سكانها وغدت
المدينة حجارة فقط وأرسلت امه مع أهلها للعمل في المانيا . لقد قتلوا امي في
اوشفيتس ، وتوفي ابي في هانوفر في احد المعسكرات ، كما لقيت اختي حتفها في
معسكر اعتقال في تشيكوسلوفاكيا . حدثت جيورا عن كل شيء وكان دائما يريد المزيد
من المعرفة . لقد اثر ذلك عليه كثيرا . ان هذه المعاناة لم تكن معاناة بالنسبة للشعب
اليهودي بل ايضا بالنسبة للشعب البولوني والشعوب الأخرى التي عانت الامرين من
الالمان . ومن الواضح ان التربية البيئية قد اثرت عليه . . . اننا لم نشتر له ابدا لعب
اطفال على شكل بنديقية او دبابة او جنود . بل كنا دائما نشرح له ضرورة احترام كل
الشعوب وكافة البشر بغض النظر عن دينهم أو جنسهم » (المصدر السابق) .

هنالك ملاحظتان تجدر الاشارة اليهما (١) وجه الشبه بين الماضي القريب والحاضر
الراهن ، بين ما ارتكبه النازية من فظائع ضد اليهود وشعوب أخرى وبين ما ترتكبه
اسرائيل من فظائع ضد الشعب الفلسطيني والشعوب العربية ، وجه الشبه هذا اخذ
ينمو ويرتسم بشكل متزايد في اذهان اوساط اسرائيلية مستترة ، وهذا هو ما دفع
الرافضين للخدمة العسكرية الى اختتام رسالتهم بالقول : « اننا لسنا على استعداد
لنرتكب بحق شعب آخر ما ارتكب بحق اباؤنا واجدادنا » . (٢) الملاحظة الثانية تتعلق
بالجملة التي وردت على لسان ابي جيورا حول لعب الاطفال . لم تكن هذه الجملة
عرضية بقدر ما هي اتهام للمجتمع الاسرائيلي ، فمن المعروف ان لعب الاطفال العسكرية
رائجة في اسرائيل ، الامر الذي يولد بالضرورة روحا عسكرية لدى الطفل ، ولا ينتهي
الامر عند هذا الحد ، بل تنمى في الطفل روح عدوانية من خلال بعض الالعاب التي
تسيء الى شعب آخر كلعبة « العربي المشنوق » ومن خلال التربية العنصرية التي
يتربص بين احضانها ، « فالطفل في اسرائيل » كما جاء في مقال عن لعب الاطفال
العسكرية (ملحق معاريف ٧١/١٢/١١) « يقتل عربيا كل مرة يضغط بها على زناد
مسدسه » .

نعود الآن الى المنطلقات الايديولوجية التي دفعت نويمان لرفض الخدمة ، وكانت ايضا
بمثابة السلاح القوي الذي صمد به اثناء صراعه . ان نويمان لا يعتبر نفسه رجلا

« سلاميا » يعارض الحروب لكونها حروبا ويعارض العنف لكونه عنفا ، وهذا لا يعني انها ينطويان على امر ايجابي « ولكن قد يكون هنالك نضال تستعمل فيه القوة ويكون نضالا صادقا » ، ويعتقد نويمان « ان الامر المطروح هو التخلص من الكيان والسلطة والنظام الصهيوني » ويشرح رفضه للخدمة العسكرية في مقابلة اجريت معه على النحو التالي : « رفضي للتجنيد ليس خطوة قائمة بحد ذاتها ، انه جزء من عقيدة شاملة وجزء من تجربة لرؤية شاملة لواقع الشرق الاوسط ولتاريخه والنزاع في هذه المنطقة . بايجاز اني ارى في الصهيونية العامل الاساسي في هذا النزاع ، وهذا العامل يحمل بين ثناياه ظواهر ، بدءا بالكيرن كيميث ، وكيرن هيسود ، ومرورا بالوكالة اليهودية وحتى الدولة وجيش الدفاع الاسرائيلي . ان الامر المطروح على بساط البحث من الناحية التاريخية المبدئية هو **التخلص من الكيان والسلطة والنظام الصهيوني** . ان من يعرض « المشكلة » على « انهم يريدون ذبحنا » انها يخدع نفسه ويخدع الاخرين . المشكلة الاساسية هي التحرر من الصهيونية » (مجلة متسبين عدد ٦٢ فبراير ١٩٧٢) .

من خلال هذه الرؤية الشاملة لواقع الشرق الاوسط وتاريخه وهي رؤية متطابقة مع رؤية منظمة متسبين التي ينتمي اليها ، دافع نويمان عن نفسه اثناء مثوله امام محكمة عقدت في يافا في بداية شهر تموز من هذا العام ، وانكر ان يكون ما اقدم عليه بمثابة مخالفة ، وان سبب رفضه للخدمة في الجيش يعود الى طبيعة هذا الجيش والدور المطلوب منه « ان السبب في ذلك هو ان الجيش الاسرائيلي كما اراه هو جيش احتلال » ثم اخذ نويمان يتطرق الى الاعمال المشينة التي يرتكبها الجيش الاسرائيلي في المناطق المحتلة مثل هدم حارات بأكملها في قطاع غزة في عام ١٩٧١ وقيامه بطرد الاهلين وتهجيرهم « للمرة الثانية في حياتهم » معتبرا ان ذلك جزء بسيط جدا من الاعمال المشينة التي ترتكب الا انه ذكرها لكونها قد حدثت في الفترة التي تلقى فيها امرا بالانتساب للخدمة العسكرية ، ومشددا على ان « اعمال الجيش الاسرائيلي في المناطق المحتلة هي بمثابة اضطهاد واهانة وتهجير ونفي ، تشكل بأكملها كافة الظواهر الكلاسيكية للاحتلال » (هارتس ٧٢/٧/٦) وان هذه الاعمال تتنافى والمبادئ التي يؤمن بها ، ومنها مرافعته بقوله « حسب رأيي انني اقف اليوم هنا ليس بسبب مخالفة ارتكبت ، بل بسبب استجابتي لضميري » . ومن الجدير بالذكر ان امه صوفيا قد استدمت الى المحكمة لتشهد في قضية ابنها ، وقد كشفت النقاب عن التهديدات والحملة النفسية التي كان يوجهها قائد المعسكر ضد ابنها « ساحطم ابنك » وانه كان يقترح عليها في بعض الاحيان التنازل لابنها « ولكنني لن افعل ذلك مطلقا لانه غير مجرم . . . لقد ثقفته على المحبة والسلام واحترام الانسان بغض النظر عن الدين واللون والجنس » وقد اصدرت المحكمة حكمها بسجن نويمان ٨ اشهر ضاربة بعرض الحائط قول الفيلسوف الفرنسي « اعتقد ان تبرئة ساحته سيكون شرفا للمحكمة » .

لم يقتصر التمرد على اشخاص منتمين او مقربين من منظمة متسبين ، بل شمل ايضا اشخاصا اخرين ليسوا منتمين الى المنظمة وان كانت معتقداتهم ومبادئهم تتطابق او تتشابه مع معتقدات متسبين ومبادئها ، فهناك على سبيل المثال الشاب دوف جال الذي لا يعتبر رفضه للخدمة العسكرية ناجما عن فلسفة سلامية ، ذلك لانه يؤيد العنف ولكن في حالة واحدة فقط « العنف من اجل الثورة الاشتراكية لانه عنف المستغلين ضد مستغليهم » ، وسنورد هنا مقتظا من مقابلة صحفية معه نشرت في مجلة متسبين (٧١/٨/١٠) يوضح اسباب تفرده المتمثلة في معاداته للصهيونية التي يعتبرها سبب كل الماسي في منطقة الشرق الاوسط .

« س : من خلال اية مبادئ توصلت الى الاستنتاج بخصوص رفضك للخدمة في الجيش الاسرائيلي ؟

ج : قبل كل شيء ، بسبب كوني معاديا للصهيونية .
س : ما هي مبادئك وهل تنتمي الى تنظيم ؟
ج : انني اشتراكي ، ولا انتمي الى تنظيم معين او اتعاطف معه .
س : لماذا تعادي الصهيونية ؟
ج : لا اعتقادي بانها جلبت كافة المآسي في منطقتنا .
س : الا تعتقد بوجود مكان في ارض اسرائيل لدولة يهودية ؟
ج : هنالك مكان في البلاد للبشر يعتبرون انفسهم يهودا ، وكذلك يوجد مكان لكل انسان اخر يريد العيش هنا .
س : وماذا بخصوص المسألة اليهودية ؟

ج : ان الفكرة الصهيونية لم تأت بالفعل لحل المسألة اليهودية ، انني لا اعتقد ان اليهودي في اسرائيل اكثر امانا من اي مكان اخر في العالم .
س : الا يوجد تمييز واقع على الاقليات اليهودية في العالم ؟

ج : ليس هنالك تمييز موجه ضد اليهود لكونهم يهودا ، بل هنالك تمييز ضد يهود لكونهم صهاينة ، ففي روسيا على سبيل المثال . . يعتبر الشخص الذي يحمل افكارا صهيونية مناوئا للثورة ، ولذلك فانهم يضطهدون هناك يهودا صهاينة .

والى جانب هؤلاء المتمردين المنطلقين من فكر ايديولوجي هنالك متمرذون على الخدمة العسكرية ينطلقون من فلسفة « سلامية » مناوئة لكافة انواع العنف مثل الشاب « الن روبين » من تل ابيب الذي توجه برسالة الى قيادة الجيش يعلن فيها رفضه للخدمة العسكرية « لاسباب ضميرية وليس الى اسباب سياسية » بيد ان ذلك لا يعني الافلات من السجن وان كانت المدة التي تصدر بحق هؤلاء عادة اقل من المدة التي تصدر بحق المتمردين الايديولوجيين . ولعل « روجر درهي » هو اكثر المعبرين واشدهم اصسارارا في موقفه « السلامي » ضد الحرب . فقد كان من بين اوائل الذين رفضوا الانصياع للامر بالخدمة العسكرية واخذ يعمل طيلة عامين ضد هذا الامر بوسائل شتى منها ارسال مذكرات الى نحو ٩٠ صحيفة داخل اسرائيل وخارجها لتوضيح موقفه الذي يعتمد على « استعداده للخدمة » - اعوام ولكن ليس في خدمة عسكرية بل في خدمة السلام ، خدمة منظمة كالجيش ولكن بدل القيام بالحرب ينبغي العمل من اجل السلام » (معاريف ٧٢/٦/٢٦) ووضح انه يدعو الى اقامة جيش سلام وامساح المجال امام الشباب للانضمام اليه . ومن الجدير بالذكر ان روجر درهي البالغ من العمر ٣٠ عاما كان قد قدم الى اسرائيل من فرنسا تاركا دراسته الجامعية ابان حرب حزيران تصورا منه ان اسرائيل تواجه « خطر ابادة » بيد ان هذا التصور اخذ يحوي من خلال ادراكه لواقع زيف الدعاية الصهيونية الامر الذي ولد لديه الدعوة الى الانكار السلامية المناوئة للحرب التي بقي مؤمنا بها ضاربا بعرض الحائط الحكم الذي صدر بسجنه ستة اشهر . فعند مثوله امام المحكمة قام بدور توجيه الاتهام اكثر من قيامه بالدفاع عن نفسه فقد وجه حديثه الى القاضي قائلا : « ان المحكمة تحاكم الاشخاص المتهمين بالقتل ، والان تريد انت محاكمتي لانني ارفض تنفيذ القتل ؟ صحيح ان من واجبي الدفاع عن نفسي وعن الدولة ، ولكن من قال بان هذا الدفاع يتأتى فقط عن طريق الحرب ؟ في الحرب يموت اناس . وقبل كل شيء ينبغي ان نعيش ، حيثئذ يمكن صنع السلام . ان اينة حرب حتى الان لم تحل قضية السلام بل تسببت بحرب اخرى . . » (المصدر السابق) . والامر اللافت للنظر في قضية (درهي) انه كان بإمكانه الخلاص من السجن

ومن الخدمة في الجيش معا بسبب مرض في كليته بيد انه انكر ان يكون مريضا ، وعندما سأله القاضي عما اذا كان مستعدا لاجتياز فحص طبي اجابه الراضى بالنفي القاطع وقال انه لائق من الناحية البدنية للخدمة في الجيش غير انه يرفض الخدمة « لاسباب ضمنية » . ودفع الثمن ٦ اشهر في السجن بنفس مطمئنة ، بيد ان هنالك من لا مطمئن نفسه الى اجتياز الاساليب الثلاثة ودخول السجن مثل « يوسف هرئيل » (٢٨ عاما) من سكان تل ابيب ، الذي قام عند مدهمة الشرطة العسكرية عند منتصف شهر سبتمبر من هذا العام بسبب فراره من الخدمة بمحاولة الهرب من نافذة بيته ، الا ان المحاولة كلفته حياته ، اذ سقط على الشارع جثة هامدة .

وازاء الاوضاع الصعبة التي يواجهها رافضو الخدمة العسكرية ، ومن اجل نقل قضيتهم الى الراي العام العالمي بشكل اوسع وانجح ، اقدم شبان اسرائيليان على طلب حق اللجوء السياسي في السويد وذلك بسبب رفضها « سياسة الحرب القذرة » التي تتبعها السلطات الاسرائيلية ، اسوة بزملاء لهما من الجنود الامريكيين الذين اعتادوا طلب حق اللجوء السياسي في البلد نفسه ، احتجاجا على « سياسة الحرب القذرة » التي تشنها الولايات المتحدة ضد شعب فيتنام .

وقد عبر كل من الشابين اللذين يناهزان الثامنة عشر من عمرهما عن آرائهما في قضية الحرب والسلام في المنطقة فقد قال هاري اوستفلد في مقابلة أجرته معه صحيفة افنو بلاندت السويدية « انني اعتبر جيراننا العرب اصدقائي ، لذلك لن اجازف بالتورط في القتال ضدهم » واما زميله يعقوب غولدبوف فقد قال للصحيفة نفسها : « انني ارفض ان تكون لي أية يد في هذه الحرب القذرة . وبصفتي جنديا فقد اجبر على الاشتراك في عمليات انتقامية قاسية ضد العرب ، مثل اقدام الاسرائيليين على قتل الشيوخ والنساء والاولاد كما حدث بعد مأساة ميونيخ » (كما نقلته صحيفة النهار ١٧/١٠/٧٢) . وبذلك فتسح الراضون للخدمة العسكرية جبهة جديدة في تصديهم للجيش الاسرائيلي .

المتوردون من خلال الهوية الاجتماعية : هنالك ظاهرة تهمرد اخرى على الخدمة العسكرية اخذت تتفشى في النصف الاول من هذا العام بين الفئات المسحوقة من ابناء الطوائف الشرقية نتيجة التمييز الذي يواجهه اليهود الشرقيون في كافة مجالات الحياة والناجم عن الهوية الاجتماعية (انظر مقالة الهوية الاجتماعية في اسرائيل شؤون فلسطينية عدد ١٥) لا تتوفر معلومات دقيقة حول عدد هؤلاء المتوردين ، فبينما تقدر بعض المصادر الاسرائيلية العدد بانه يناهز الاربعين ، نجد مصادر اخرى تلمح بان عددهم وصل الى المئات . ولعل خطورة هذا النوع من المتوردين قد بدت واضحة امام المسؤولين الاسرائيليين ذلك ان ابناء الطوائف الشرقية الذين يشكلون اكثر من نصف السكان في اسرائيل يعتبرون خميرة صالحة لنمو حالة التهمرد على الخدمة العسكرية بسبب اوضاعهم وظروفهم التعميسة ، ولذا اخذت السلطات الاسرائيلية المسؤولة تنظر الى هذه المشكلة بجد وتعامل في الوقت نفسه بذرة التهمرد بلين تحسبا من العواقب الوخيمة ، ويتضح ذلك من ردود الفعل المتسامحة نسبيا تجاه هؤلاء المتوردين بين التكتلات السياسية الفاعلة في اسرائيل التي تجمع على استنكار التهمرد وفي الوقت نفسه تبدي تنهما للاسباب الكامنة وراءه وتدعو الى حل مشاكل هؤلاء الشباب ! اما اسباب الخطورة فتمثل في قول رئيس هيئة الاركمان اللواء دايفد اليعازار « ان السبب الذي دفعنا للنظر الى المسألة بجد ، ينبع من واقع وجود دول في العالم تستخدم فيها بطاقة التجنيد كوسيلة للصراعات الداخلية . اننا لا نرغب في ان تغدو هذه الظاهرة مالوفة في البلاد ، لذلك فان مصلحتنا تتطلب فصل الصراعات الداخلية عن الخدمة في الجيش الاسرائيلي . ان الجيش الاسرائيلي هو لليهود كسافة وينبغي ان يبقى معزولا عن اي صراع داخلي في الدولة » (معاريف ٢٨/٣/٧٢) . بيد ان مسألة عزله عن الصراعات

الداخلية أصبحت في الأوية الأخيرة بالنسبة للمسحوقين من أبناء الطوائف الشرقية مسألة فيها نظر ، ذلك انه اتضح امامهم خلال ٢٤ عاما جربوا وخاضوا كافة أنواع النضالات التقليدية من اجل تغيير الواقع التمييزي الذين يعيشونه ، بدءا بالاضطرابات والتظاهرات المتكررة المشفوعة في بعض الاحيان بالعنف ومرورا بانتفاضة وادي الصليب في حيفا وانتهاء بظهور حركة الفهود السود ، دون ان يحدث تغيير في واقعهم المر ، ولم يبق امامهم لا خوض نضال واحد : رفض الخدمة العسكرية . وقد توصل عدد من أبناء الطوائف الشرقية الى هذه النتيجة حين تمرد سبعة منهم في شهر اذار من هذا العام على الخدمة العسكرية وذلك بارجاع الهويات العسكرية الى الجيش ادراكا منهم بان الجيش هو المكان الوحيد الذي تحتاجهم فيه السلطة ، حيث يشكل أبناء الطوائف الشرقية لبنة اساسية في حجمه ، مطلقين صرخة المسحوقين الذين يساقون الى الحروب لمصلحة الاسياد : نقاتل من اجل من ؟ او كما يقول حانوفا مزراحي ابرز الشبان السبعة ، « انهم يرسلوننا الى الجيش للمحافظة على المتحف الذي يخص مؤشيه ديان في الوقت الذي لا نملك فيه مكانا للنوم — لماذا ينبغي علينا ان نذهب للجيش ؟ » او كما يقول احد زملائه : « عندما روى زميلان لنا بانهما تلقيا امرا بالانخراط في سلك الاحتياط ، اخذنا نفكر : نقاتل من اجل من ؟ ولماذا نقاتل ؟ عندما كنا أبناء ١٨ عاما ذهبنا الى الجيش بقلب مغمم بالحب ... واعتبرنا ان ذلك بمثابة فخر لنا ، ولكن اتضح بمرور الزمن ان الجيش هو المكان الوحيد الذي تستخدمنا فيه الدولة .. ليس من المعقول ان يطلبوا منا تقديم ارواحنا لدولة لا توفر لنا ابسط الشروط للعيش كبشر » .

ولعل ما هو اخطر من ارجاع البطاقات العسكرية ، ظاهرة التهديد باستخدام العنف من قبل أبناء الطوائف الشرقية المتمردين على الخدمة العسكرية ، والذين لا يرون في ارجاع البطاقات العسكرية اخر المطاف في نضالهم بل حلقة تؤدي الى حلقة من العنف كما يقول حانوفا مزراحي : « اننا نأمل ان يستمعوا الينا الان ، وان لا يعطونا فرصة لاستخدام ما تعلمناه في الجيش ... ولكن في المكان الذي لا يمكن فيه الحصول على شيء الا عن طريق العنف ، فاننا لن نتردد ايضا نحن عن التصرف كالاخرين . لن ناكل الطين ونقول بانه غسل » (هعولام هزيه ٧٢/٣/١٥) .

ويمكن القول ان الضوء البسيط الذي اخذ يشع وسط المجتمع الاسرائيلي ، يعتبر ظاهرة جديدة ، تنصدي — على الرغم من بساطتها — لاداة القمع الرئيسية التي تستخدمها الصهيونية في الحفاظ على الكيان الاسرائيلي وتوسيعه على حساب شعوب المنطقة .

ان هذا الضوء علاوة على انه بمثابة المعيار الحقيقي لتورية الفئات الثورية وخاصة تلك المعادية للصهيونية ، لا يعتبر عاملا مساعدا للثورة الفلسطينية وانما ايضا شريكا لها في صنع المجتمع الجديد البديل ، على انقراض المجتمع الصهيوني المتمثل في الكيان الاسرائيلي ، عقب تحرير كامل التراب الفلسطيني ، هذا المجتمع الذي يحتضن عربا ويهودا متساوين في الحقوق والواجبات وينتفي فيه استغلال الانسان للانسان .

ملاحظات حول تجربة الاتحاد العام للمعلمين الفلسطينيين

شجاده موسى

يمكن اعتبار الاتحاد مؤسسة في طور التكوين ، وتجربة محدودة . فقد اعلن تأسيسه في أواخر عام ١٩٦٩ ، أما مؤتمره الأول فعمد في شهر آب ١٩٧٢ . ولذا تنحصر تجربة الاتحاد عمليا في نشاط قيادته (الامانة العامة) وبعض فروعها التي اكتمل تشكيلها منذ وقت مبكر نسبيا مثل فروع لبنان وسورية والكويت . من جهة أخرى ، لا يصح ان يكون نشاط الاتحاد في هذه الفترة المحدودة مقياسا نهائيا لتقييمه ، اذ انه عبارة عن نشاط في مرحلة تحضيرية . ان هذا الوضع ، وطبيعة المعلومات المتوفرة حول الاتحاد تجعل دراسة الاتحاد ذات طبيعة جزئية وغير متكاملة . لذلك ستكتفي هذه الدراسة بطرح عدد من الملاحظات والاقتراحات ، التي قد لا تكون صحيحة كلها ، ولكنها ربما كانت مفيدة في اثاره بعض القضايا امام الاتحاد وهو على ابواب بدء مرحلة جديدة في عمله كمؤسسة مكتملة . ولا يقصد بهذه الملاحظات مجرد الانتقاد بقدر ما تهدف ان تشكل محاولة للاسهام في دفع تجربة الاتحاد على الطريق الثوري المنشود . وسنحاول القاء الضوء على بعض الجوانب الهامة في الاتحاد مثل : ١ - قطاع المعلمين : اي الوسط الذي يعمل ضمنه الاتحاد . ٢ - الوضع الخاص للمعلمين الفلسطينيين : بهدف ابراز النواحي الموضوعية التي تتحكم بعمل الاتحاد . ٣ - مهمات الاتحاد : ونحاول تصور المهمات الأساسية التي ينبغي على الاتحاد التصدي لها . ٤ - الاتحاد كمؤسسة : وأخيرا نحاول استعراض تجربة الاتحاد منذ انشائه ، مع التركيز على بنيته ومدى انسجامها مع مهماته .

أولا : قطاع المعلمين : اكتسب التعليم لسدى الفلسطينيين بعد نكبة عام ١٩٤٨ قيمة خاصة واضحية « الحرفة » الرئيسية التي تحتذبهم ، وذلك نتيجة للوضع الجديد الناجم عن النكبة . ولقد تمثل هذا الوضع ، من جملة ما تمثل بفقدان الفلسطينيين ، وغالبيتهم من سكان الريف ، كل وسائل الإنتاج ، وبتركزهم عموما في مخيمات مكثفة على هوامش المدن . وعلى صعيد الاقتصاد العربي المحلي (الأردن ، سورية ، لبنان) كانت الصناعة مبتدئة ونطاق العمل الزراعي - المجال الذي يمكن ان يتجه اليه الفلسطينيون - محدودا ، بحيث كانت الدول العربية تشهد تحولا سكانيا من الريف الى المدينة . ليس هنا مجال البحث في الوضع الاقتصادي العربي في ذلك الوقت ولكن يهمننا ان نؤكد انه نتيجة للوضع الفلسطيني والعربي ، من الزاوية الاقتصادية ، انقسم الفلسطينيون

* تنحصر منشورات الاتحاد تقريبا في تقرير عن مؤتمر رابطة سورية ، تقريران عن مؤتمري رابطة لبنان ، كراس صغير عن الامانة العامة بعنوان « الاتحاد في سنته الثالثة » ، بالإضافة الى النظام الداخلي والقانون الاساسي ، وبعض البيانات .

يشكل عام إلى قسمين : قطاعات ميسورة نسبياً أقامت في المدن ، خاصة في الأردن ولبنان ، واندمجت بالاقصاد المحلي ، التجاري بوجه عام ، والقسم الأكبر فقير لا يملك شيئاً ، جمع في المخيمات وعاش حالة بطالة شبه كاملة في البداية ، والاعمال التي تيسرت له كانت على هامش البنية الاقتصادية مثل العمل الزراعي الموسمي ، العمل في قطاع الخدمات (مقاهي ، مطاعم ، فنادق) والتجارة البسيطة (نكاكين ، باعة متجولون) .. الخ .

في ظل هذا الواقع كان لا بد للتعليم من ان يكتسب وضعاً متميزاً لعدة اعتبارات :

١ - تأمينه مجاناً من قبل وكالة الغوث ، ولو لمرحلة محدودة ، وكذلك من قبل الدول العربية المضيئة (ما عدا لبنان) . ٢ - ازدياد الطلب على المعلمين وخاصة المعلمين ، سواء للعمل في مدارس وكالة الغوث ، أم في الدول العربية وخاصة السعودية ودول الخليج التي بدأت تشهد نهضة وتوسعا كبيراً في مجال التعليم . ٣ - وبذلك أصبح التعليم الفرصة المتاحة عملياً او الرأسمال الوحيد الذي يمكن به تحقيق الطموحات الفردية كتحسين الوضع المادي والمكانة الاجتماعية . ولذلك نقول ان التعليم أصبح « الحرمة » او المهنة التي اجتذبت الفلسطينيين ، ولكنها كانت في الوقت ذاته حرفة ممتازة من حيث مردودها المادي وكتيعة اجتماعية . فاكسب المعلم مكانة اجتماعية مرموقة ، كما ان دخله المنتظم والمرتفع نسبياً مكّنه من تحسين وضعه المادي والمعيشي بشكل ملموس متميز عن غالبية سكان المخيم . ربما تكون صورة المعلم ومكانته الاجتماعية قد اهتزت الان بفعل التطورات التعليمية والاقتصادية التي حدثت في اوساط الفلسطينيين ، لكن المعلمين ما زالوا يشكلون شريحة اجتماعية كبيرة لها اوضاعها الخاصة .

لا نملك احصاءات دقيقة عن المعلمين الفلسطينيين من حيث العدد او من حيث توزيعهم بحسب مكان الإقامة ، والجنس ، والجنسية ، والتخصص المهني والمستوى العلمي .. الخ . ولكن لدينا تقديرات اتحاد المعلمين لعدد المعلمين وتوزيعهم في مناطق عملهم ، كما نملك احصاءات وكالة الغوث الخاصة بالمعلمين العاملين في مدارسها . يقدر اتحاد المعلمين العدد بـ ٤٨ الفاً موزعين كما يلي (١) : الارض المحتلة ١٠ الاف ، شرق الأردن ٩ الاف ، سورية ٤ الاف ، لبنان ٣ الاف ، مصر ٣ الاف ، السعودية ٧ الاف ، الكويت ٦ الاف ، الخليج ألف واحد ، ليبيا الفان ، الجزائر ٣ الاف . اما عدد معلمي وكالة الغوث فكان ٦٧.٦ في عام ٧٠ - ٧١ موزعين كما يلي (٢) : الضفة الشرقية ٢٢١١ ، الضفة الغربية ٩٢٩ ، غزة ١٦٠.٣ ، سورية ٩٥٩ ، لبنان ١٠٠٤ . لا يبين الاحصاء المذكور عدد المعلمات ، الا ان عددهن في العام السابق كان ٢٧١٨ معلمة (٣) .

يمكن القول ان معظم المعلمين الفلسطينيين هم من سكان المخيمات او قرينون منها جغرافياً او بحكم العلاقات العائلية . واستناداً الى تقديرات اتحاد المعلمين فان اكثر من نصف المعلمين اي ٢٦ الفاً يعملون في المناطق المحتلة وفي الأردن وسورية ولبنان ، يضاف اليهم ٣ الاف في مصر اي ان نحو ثلثي عدد المعلمين يعملون في مناطق تجمع الفلسطينيين . يضاف الى ذلك ان المعلمين ، بطبيعة المهنة ، يظلون اقرب الى سكان المخيمات من حيث الاحساس بالاثر المادي والمعنوي للتكبة وحالة اللجوء . فالمعلمون اجمالاً يعملون خارج اطار الاقتصاد المحلي (بعكس موظفي الشركات والبنوك واجهزة الدولة ، واصحاب رأس المال) ، ويعود معظم العاملين في مناطق بعيدة ، سنويًا - في اجازة الصيف - الى اماكن اقامتهم التي هي غالباً في المخيمات ، كما ان دخلهم المحدود يجعل موقعهم في اسفل سلم البورجوازية الفلسطينية .

الوضع الخاص للمعلمين الفلسطينيين : هناك عدة امور تجعل للمعلمين وضعاً خاصاً يؤثر على تحركهم وعلى عمل الاتحاد أيضاً . من هذه الامور :

١ - التوزيع : حيث يعمل المعلمون في بلدان عدة وفي قطاعات مختلفة مثل وكالة الغوث ، والقطاع الرسمي والقطاع الاهلي او المدارس الخاصة . ويؤكد هذا الوضع عدة حقائق مثل : ا - صعوبة الاتصال ، ولا تقتصر هذه الصعوبة على من هم في الارض المحتلة ومن هم خارجها بل تشمل كذلك العاملين في البلدان العربية سواء بسبب البعد الجغرافي ام بسبب قيود السفر التي تفرضها بعض الدول العربية على الفلسطينيين . ب - اختلاف اوضاع العمل ، فتوزع المعلمين بين بلدان مختلفة وقطاعات مختلفة يجعلهم يخضعون لاطراف مختلفة من حيث شروط وقوانين العمل والضمانات . ج - وينجم عن ذلك ان يواجه المعلمون مشاكل مختلفة بمعنى ان المشاكل التي يواجهها معلمو وكالة الغوث هي غير المشاكل التي يواجهها معلمو المدارس الخاصة او المعلمون في البلدان العربية الاخرى . د - حرية التحرك والمرتبطة بالاطراف الخاصة لكل بلد . فهناك دول لا تمنع في العمل الفلسطيني السياسي والنقابي ، بينما تعارض بعض الدول او لا تحبذ مثل هذا العمل لانها لا تسمح به لمواطنيها انفسهم . و خلاصة القول ان هذا التوزيع وما ينتج عنه يشكل ثغرة اساسية في عمل اية مؤسسة فلسطينية كالاتحاد العام للمعلمين .

٢ - الوضع الطبقي : يشكل المعلمون الفلسطينيون من الناحية الطبقية شريحة اجتماعية متجانسة ولكنها ليست متماسكة . والمعلمون في أي مجتمع يشكلون فئة اجتماعية متميزة ، تعيش اوضاعا متشابهة من حيث طبيعة العمل وقوانينه وامتيازاته . ومن جهة اخرى ، تكاد العلاقات ضمن مؤسسة التعليم تكون خالية من التناقض والصراع . فعلاقة المعلمين باداريي التعليم مثلا ليست كعلاقة العمال باصحاب العمل ، بمعنى ان العلاقة ليست استغلالية ولا يتمتع هؤلاء الاداريون بامتيازات فارقة عن مجموع المعلمين ، وليس لهم مصلحة مباشرة في معارضة اي تحرك للمعلمين للحصول على مزيد من الحقوق . وعلى الصعيد الفلسطيني نلاحظ ان فئة المعلمين لها اوضاعها وقضاياها الخاصة ولكنها في الوقت ذاته غير متماسكة ليس بسبب طبيعة العمل فحسب بل بحكم توزيع هذه الفئة بين بلدان وقطاعات كما مر معنا .

لقد ولد الوضع الطبقي الموضوعي للمعلمين انعكاسات خاصة على علاقتهم بسكان الخيميات . فالعلم مقارنا بباقي سكان المخيم يتمتع بامتيازات خاصة ، فهو يحصل على عمل دائم وراتب منتظم ، لا يتعب جسديا ويتمتع بالاجازات والعلاوات ويعيش جوه الخاص في حياة مادية مريحة بالنسبة للوسط المحيط به . كذلك فان قضايا المعلمين هي قضايا خاصة مفصولة عن قضايا القطاع الاكبر من الاهالي ، حيث انحصرت هذه القضايا ، او ظهرت وكأنها محصورة في المطالبة بتحسين الرواتب والضمانات ، اي بالكسب المادي المباشر غير المرتبط بمصلحة باقي الاهالي . ولذا كان موقف الاهالي سلبيا من تحركات المعلمين حتى ان هؤلاء بدأوا يتحدثون عن الفجوة الحاصلة بينهم وبين الجماهير . ان قضايا المعلمين بطبيعتها قضايا خاصة ليست مثلا كقضايا الطلاب والعمال التي هي قضايا الجماهير نفسها . ان هذه الفجوة ليست مفتعلة بل لها اسبابها الموضوعية والتمثلة اساسا بوضع المعلمين الطبقي . ولكن هذه الفجوة قابلة للردم خاصة ونحن نخوض معركة تحرر وطني - ولكن ذلك يتوقف اولا على ممارسات المعلمين وعلى مقدرة الاتحاد على تحديد مهمات وطرح قضايا تنقل المعلمين من واقعهم وقضاياهم الخاصة الى صلب القضايا الجماهيرية .

* يختلف الوضع بالنسبة لاصحاب المدارس الخاصة ، وعلاقتهم بمتعلميهم ، من المعلمين ، حيث يتحدد ملكهم حسب مصلحتهم كمالكي مؤسسات خاصة .

مهمات الاتحاد :

عند الحديث عن مهمات اتحاد المعلمين ، أو أية مؤسسة نقابية أو تنظيم جماهيري فلسطيني ، لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار قضيتين أساسيتين : الأولى أن الاتحاد كمؤسسة نقابية لا بد أن يعطي للعمل النقابي بعده الكامل (تحقيق انجازات مطلوبة لأعضائه ، تأكيد الممارسات الديمقراطية ، خوض نضالات من أجل حقوق النقابة ومكاتبها ، خوض نضالات مشتركة مع النقابات الأخرى . . الخ) . والثانية أن شعبنا يخوض معركة مريرة لاسترداد أرضه . وفي معارك التحرر الوطني ترجع القضايا المطلوبة الى مكانة ثانوية ، حيث تطغى المسألة السياسية — دحر العدو القومي وقهره — على نشاط مختلف المؤسسات الشعبية والتنظيمات الجماهيرية . بكلام آخر ، لا بد أن تكون الثورة محور عمل الاتحاد، مما يحتم عليه أن يتصدى لمهمة مزدوجة، سياسية ونقابية معا ، فلا ينكمش العمل النقابي في حدوده التقليدية بل ينطلق من النضالات المطلوبة لتعبئة طاقات الاعضاء وبشكل فعال في خدمة الثورة . وضمن هذا الإطار تتم محاكمة مؤسساتنا الجماهيرية ، وذلك في ضوء قدرتها على صوغ أهداف محددة تحقق لأعضائها انجازات خاصة دون أن تتحول الى مؤسسة نقابية تقليدية ، وتجدد جهاير الاعضاء في النضال الثوري دون أن تتحول الى مجرد جهاز سياسي فوقي .

وقبل الحديث عن مهمات محددة للاتحاد ، ينبغي أن نسجل بعض القضايا التي تعتبر بمثابة الركائز أو المستلزمات لعمل الاتحاد كتنظيم جماهيري ثوري .

١ — **تأمين المسألة التنظيمية** : ان الغاية الأولى التي لا بد أن يحققها الاتحاد هي أن يصبح المؤسسة أو التنظيم الفعلي الحرك لقطاع المعلمين . ولن يتحقق ذلك بسهولة وبصورة تلقائية بل من خلال الممارسة وتحقيق الانجازات بحيث يصل المعلم الى قناعة بان الاتحاد هو الجهة التي تفكر له بقضاياها وتلاحقها ، الجهة التي تستجيب لهومومه وقلقه لأنها ساهرة على مصالحته وعلى تأمين حقوقه وتحسين أوضاعه ومساعدته ماديا ومعنويا عندما يلحق به الضرر . وبالطبع فان مثل هذه القناعة تستلزم قناعة أخرى من قبل المعلم مؤداها ان الاتحاد لا يستطيع القيام بهذا الدور دون المساعدة الفعالة والتجاوب الكلي من قبل الاعضاء مع ما يطلبه ويقرره الاتحاد . ان اكتمال هذه الصورة يعتبر الركيزة الأولى في عمل الاتحاد وعليها تتوقف مقدرته على القيام بدوره وتحقيق أهدافه .

٢ — **تحديد مهمات عملية** : يحدد الاتحاد عددا كبيرا من الاهداف العامة في المجالات النقابية والسياسية والاجتماعية وهي أهداف جيدة ولا شك (٤) . ولكن يبدو أن الاتحاد قد قفز فوق الواقع الموضوعي للمعلمين والمتمثل بتوزيعهم وبوضعهم الطبقي . لقد رأينا أن توزيع المعلمين بين البلدان والقطاعات قد أوجد ظروفًا متباينة للعمل ، كما ان وضع المعلمين في المخيمات — بغض النظر عن الأسباب — قد أدى الى فجوة بينهم وبين الجماهير . واذا كنا نقول ان المطلوب تحديد مهمات عملية فلكي تنسجم مع هذا الواقع ، اذ ان المهمات أو الاهداف العامة لا تكفي بل لا بد من برنامج للعمل . وعلى هذا الاساس فربما كانت المهمات المنوطة بفرع الاتحاد في الكويت أو في السعودية تختلف عنها في سوريا ولبنان أو الاردن . كذلك فان مهمات الفروع في المناطق البعيدة لا بد وان تختلف عن المهمات العملية للفروع في مناطق تجمع الفلسطينيين اي في مناطق المخيمات .

٣ — **التركيز على العمل في المخيم** : تمتاز المخيمات بكونها مناطق التجمع الأساسية للفلسطينيين ، ومراكز العمل الثوري، وفيها تقوم المدرسة الفلسطينية، ويعمل عدد كبير من المعلمين الفلسطينيين في مؤسسة واحدة هي وكالة الفتوح . وبالطبع ، لا يقتصر العمل الثوري على المخيمات ولكن الجماهير هي محور العمل الثوري وهدفه . والاتحاد

يدرك ذلك حين يحدد أهدافا له مثل « بناء الشخصية النضالية للشعب الفلسطيني ، تحقيق الوحدة الوطنية ، العمل على تطوير المجتمع الفلسطيني ثقافيا واجتماعيا .. الخ » (٥) . وما ينبغي التأكيد عليه هنا هو اعطاء ثقل نوعي للعمل في المخيم . فالمخيم هو الإطار الموضوعي للعمل الفلسطيني لأن العامل أو المعلم يشعر بأن المخيم هو إطار تحرره ، وليس المصنع أو المدرسة ، ان لم تكن مدرسة المخيم . هذا لا يعني ان الانسان الفلسطيني انسان سلبي في مجال عمله ولا يناضل مع زملائه وان لم يكونوا فلسطينيين ، الا انه مع ذلك يظل يشعر بأن تضيته وإطار عمله الجماعي ليس هنا وإنما وسط جماهيره في المخيم . هناك حقيقة أخرى وهي ان المخيم ليس وحدة سكنية بل تجمع مهني أنصح التعبير ، وهو المكان الذي يلتقي فيه أهله ليتداولوا مشاكلهم الخاصة والقضايا الوطنية معا . ومن ثم فلا بد أن يشكل العمل الثوري في المخيم وحدة لها مجاريها التنظيمية وترعايتها المهنية والاجتماعية والسياسية . يمكن الآن ان نحاول تصور المهمات الأساسية لاتحاد المعلمين والتي تندرج ، برأينا ضمن العناوين التالية :

اولا — مهمة سياسية : تتمثل هذه المهمة في أن يشكل الاتحاد ، عبر أعضائه ، تنظيميا من تنظيمات الثورة ، واحدى قنواتها التي تصل الثورة بمجموع المعلمين وبالجماهير ، وتقيم صلة حية بين الجماهير والثورة . وانجاز هذا الدور مرهون — كما ذكرنا سابقا — بقدرة الاتحاد على أن يصبح هو مؤسسة المعلمين التي يتحركون من خلالها ، وأن يقيم علاقات متينة مبنية على الثقة مع الجماهير . كما ان انجاز هذا الدور يتطلب تحديد برامج تفصيلية لعمل الاتحاد ضمن قطاع المعلمين في أماكن تواجدهم المختلفة ، ولعمله بين الجماهير ، والاتحاد هو الجهة الأقدر على تحديد الوسائل التي تمكنه من أن يربط به المعلمين العاملين في السعودية مثلا ، أو المدارس الخاصة في لبنان ، وكيف يجند طاقاتهم لخدمة الاتحاد والثورة . كما انه الجهة القادرة على وضع برنامج عمل يومي على صعيد المدرسة والمخيم . في الكراس الذي أصدره الاتحاد حول أهدافه ونشاطاته نجد في مجال النشاط السياسي أن هذا النشاط انحصر اجمالا في المشاركة بالتظاهرات والمناسبات الوطنية ، وبارسال المذكرات والبرقيات الى جهات مختلفة وفي مناسبات مختلفة (٦) . ومثل هذا النشاط يتم عادة عن طريق قيادة الاتحاد ، وربما كانت طبيعة الاتحاد التكوينية في هذه المرحلة هي التي حصرت معظم نشاطه بأماته العامة . إنما العمل السياسي المثمر هو في النهاية عمل القاعدة ، العمل في أوساط المعلمين ومع الجماهير . والعمل السياسي متعدد الأشكال والمستويات ، يأتي في أولوياته ايصال الاتحاد لمواقف الثورة الى جميع المعلمين ، وخلق حوار مستمر بين المعلمين ووسط الجماهير حول جميع المواقف والقضايا المتصلة بالثورة . غير ان العمل السياسي لا يقتصر على ذلك كما ان أسلوب طرح هذه القضايا ومعالجتها له أهمية قصوى . ان تجربة الفيتكونج غنية في هذا المجال خاصة بالنسبة للعمل على مستوى القرية واقامة « رابطات التحرير الوظيفية » فيها مثل : رابطة التحرير للمزارعين ، للشباب ، للمثقفين .. الخ والتي تهدف جميعها الى « مساعدة الفرد للآخرين ، والاشتراك في النضال السياسي » والتي أكملت بذلك تحريك الامكانات المادية والمعنوية للمجتمع وتعبيتها (٧) . ولذا يمكن القول على سبيل المثال ان انشاء مكاتب عامة هو عمل سياسي وكذلك اصدار صحيفة محلية ، بالتعاون مع التنظيمات الأخرى ، والمساهمة في تكوين وتطوير المؤسسات الشعبية ، والمناقشة العامة للقضايا الخاصة ، ومناقشة العمل الداخلي للاتحاد وسلوك أعضائه بهدف تمهين العلاقات التنظيمية : فالمناقشات العامة التي تتناول مختلف القضايا العامة ، والخاصة بقطاعات السكان المختلفة ، تضع الجماهير في صلب العمل الثوري وتفتح الأفاق لمبادراتها في دعم الثورة وتقويتها . ولكن مرة أخرى ، ان مثل هذا العمل والبرنامج يقع على عاتق اتحاد المعلمين بالدرجة الأولى وعلى تعاونه مع المؤسسات الأخرى القائمة .

ثانياً - مهمة نقابية : يحدد الاتحاد عدداً من المهام النقابية مثل « تنمية الوعي النقابي والثوري بين المعلمين ، العمل على تحسين الظروف المعيشية والمهنية » ، العمل على تعزيز الروابط القومية بين الاتحادات ونقابات المعلمين في الاقطار العربية . . الخ (٨) .

لن يتطرق هذا البحث الى المهام النقابية الخارجية ، بل يهتم بالناحية الداخلية والتي من ضمنها تنمية الوعي النقابي والعمل على تحسين الظروف المعيشية والمهنية ، لأن نقطة الثقل تكمن هنا . فلن يمكن الاتحاد من القيام بدور فعال على مختلف الاصعدة ، لا بد وان يؤمن أولاً وجوده كهيئة منظمة للمعلمين قادرة على قيادتهم وضامنة لتجاوبهم معها . نقطة الانطلاق اذن هي في تأمين هذه الصورة من التنظيم ، أي ان ما ينبغي على الاتحاد ان يواجهه أولاً هو كيف يمكن ان يصبح التنظيم الذي لا يجذب المعلمين السعي صفوفاً فحسب ، بل يجعلهم يشعرون بضرورته وبضرورة وجودهم ضمنه . ولن تتولد مثل هذه الحالة بدافع سياسي صرف ، او لمجرد القناعة بأهمية التنظيم ، بل يرافق ذلك وربما يأتي قبله الادراك المحسوس للمعلم بأن تحقيق المكاسب وتحسين أوضاع العمل والضمانات بل تأمين العمل يأتي عن طريق الاتحاد . وهذه مسألة صعبة ولا شك ، الا ان الاتحاد استطاع ان يحس المسألة تماماً وحقق بعض الخطوات على الطريق أهمها تقديمه مساعدات مادية للمعلمين الذين تضرروا في حوادث الاردن ، ومحاولة تأمين عمل للمعلمين الذين يطردون من عملهم أو العاطلين عن العمل ، والا هم من ذلك سعيه لاكتساب صفة شرعية ورسمية لدى بعض الدول بحيث يستشار عند توظيف المعلمين الفلسطينيين . واذا ما استطاع الاتحاد انجاز المزيد من هذه الخطوات ، كان يصبح له دور كبير في الاشراف على التوظيف وتأمين العمل ، وتقديم المساعدات وتأمين بعض الضمانات الاجتماعية والصحية . . الخ فسيذكر المعلمون أهمية الاتحاد بالنسبة لهم ، وأهمية التفاهم حوله وتأييدهم للالتزامات نحوهم ، لانهم سيذكرون ولا شك ان الاتحاد ليس قيادة ، بل جبهة الاعضاء . كذلك فان خوض نضالات مطلبية جماعية تزيد من ترابط الاتحاد الداخلي ، وتقوي وحدته ومكانته السياسية . ويتطلب ذلك حصر المشاكل الخاصة بالمعلمين وعلى مستوى قطري حيث يعملون في ظروف مختلفة ومن ثم يواجهون مشاكل مختلفة . واثارة المطالب التي يمكن تجنيد المعلمين حولها ، وخوض نضالات ترتفع فيها احتمالات النجاح امر مهم كعملية تكتيكية ولكنها تتطلب تخطيطاً وحساباً . غير ان هناك محذوراً يجدر التنبيه له يتعلق بفهمنا لحل المشاكل الخاصة . فالذي يحدث أحياناً ان تنشط القيادة لتحقيق بعض المكاسب المادية لعدد محدود من الافراد آملين ان يكون ذلك مشجعاً للمعلمين كي يلتحقوا بالاتحاد . فلا يجب ان ننسى ولو للحظة اننا تنظيم ثوري يؤمن بأن تحقيق المكاسب لا يكون الا نتاج عمل جماعي ، وذلك يتطلب ادراك جميع الاعضاء لابعاد المشاكل المطروحة وصعوبات حلها ، وضرورة خوض نضال واتخاذ مواقف موحدة حيالها بحيث يصبح النجاح او الفشل مسؤولية جماعية وليس واحداً منوطاً بالقيادة وحدها . قضية أخرى تتعلق بالمهمة النقابية لانها تلازم العمل النقابي الا وهي الديمقراطية . واذا كانت الممارسة الديمقراطية من أهم خصائص العمل النقابي فانها تكتسب بالنسبة لنا أهمية خاصة . فشعبنا لم تتوفر له فرصة حقيقية لممارسة حياة ديمقراطية ، ربما عبر تاريخه كله ، كذلك لم يكن بوسع الحركة الوطنية الفلسطينية على امتداد تاريخها ان تؤمن مثل هذه الحياة لجماهير شعبنا ، حتى ضمن اطارها الذاتي المحدود . ولذا فان سيادة المفاهيم الديمقراطية ، والتعود على النظام والانضباط ، والمناقشات العامة والعمل الجماعي مسألة في غاية الأهمية والخطورة . وفي ظل الواقع الذي يحياه شعبنا يبدو ان التنظيمات الجماهيرية والمؤسسات النقابية هي المؤهلة لتوفير هذه التجربة ، بما تعنيه من انعكاسات ايجابية على مجمل عملنا الوطني . وليس يقصد بالديمقراطية عملية الانتخاب ، فذلك مجرد مظهر ديمقراطي يمكن تزيفه ، ولكن الممارسة الجماعية - بدءاً من القاعدة - في تناول مختلف القضايا كحق لا يقبل الجدل ،

ومناقشتها واقتراح الحلول لها ، وممارسة النقد والتقد الذاتي على المستويات كافة ، والتعود على الاستماع الى آراء الغير واحترام رأي الاقلية والخضوع لراي الاكثرية ، وغير ذلك ، هو ما يمكن ان يعطي للديمقراطية ابعادا ايجابية تصل حتى المستوى المسلكي للافراد . وعلاقة القيادة بالقاعدة مسألة مركزية في عمل اية مؤسسة ، بل لعل من اخطر ما يهدد وحدة المؤسسة وخط سيرها حصول فجوة بين قيادتها وقاعدتها . ويقدر ما تكون القيادة ديمقراطية في تكوينها وممارستها ، وفي حرصها على تطبيق هذه الممارسات على كل المستويات ، بقدر ما تستقطب جماهيرها ، وتساهم في تعميق وعيها لقضاياها ، وتفتح المجال لمبادراتها .

ثالثا — مهمة تربوية : يتميز قطاع المعلمين بأنه مسؤول عن تربية النشء وثقافته . وتشكل هذه المهمة حلقة مباشرة بين المعلمين والاهالي ، ويمكن ان تساعد في ردم الفجوة الحاصلة بين الطرفين . في المجال التربوي يحدد الاتحاد لنفسه عددا من الاهداف النموذجية مثل : تنشئة الاجيال الفلسطينية تنشئة ثورية ، صقل المواهب الفكرية وتنميتها تنمية ثورية ، مقاومة المناهج التي يحاول العدو فرضها في فلسطين المحتلة ، المساهمة في توحيد المناهج التعليمية العربية (٩) . ولا شك ان الاتحاد هو الجهة الاقدر على اكتشاف الثغرات والخطاطر في الثقافة المقدمة للنشء ، وعلى تقييم المناهج ومدى ملاءمتها لوضعنا ، وعلى بلورة اهم القضايا والمشاكل في مؤسساتنا التعليمية . ومن الطبيعي ان يتصدى الاتحاد لمثل هذا الدور ، خاصة اذا أخذنا بعين الاعتبار ان مهمته مهمة ثورية وليست تربوية بالمفهوم الاكاديمي الصرف . غير ان السؤال هو كيف يمكن ترجمة هذه الاهداف العامة الى برامج وممارسات عملية ؟ ما هي الوسائل التي يمكن بها تأيين تربية ثورية للنشء ؟ وكيف سيتم صقل المواهب الفكرية ؟ ، هل يتم ذلك من خلال مناهج التعليم المطبقة حاليا ام هناك بديل آخر ؟ لانه بدون تحديد لمثل هذا البرنامج العملي ، ولو على مستوى تجريبي ، فستبقى هذه الاهداف مجرد شعارات عامة لا تغير من واقع الامر شيئا . لقد أصبح من المسلمات القول بأن المهمة التربوية لا تقتصر على المدرسة والمعلم ، بل لا بد ان يشارك فيها البيت والمجتمع لكي تأتي ثمارها المرجوة . لقد صدرت عن مؤتمر فرع الاتحاد في لبنان عام ٧١ بعض التوصيات التي تهدف الى تقوية العلاقة بين المعلمين والاهالي مثل : العمل على ايجاد مدارس ليلية لمكافحة الابية بين الكبار من اهالي المعسكر ، المساهمة في المشاريع الحيوية كأسبوع النظافة والحملات الصحية ، العمل على اقامة ندوات تثقيفية عامة في مقر الرابطة في المعسكر ، العمل على اعادة الثقة بين المعلم وجماهير المعسكرات بغية التعاون لتوفير جو التعليم في المدارس ويكون ذلك بزيارة الاهالي في بيوتهم أو توجيه الدعوة اليهم لزيارة المدارس ، العمل على تشكيل لجان من الاهالي للآحقة أمور اولادهم في المدرسة ، وغير ذلك من الوسائل التي تقوى علاقة المعلمين بالاهالي وبالمؤسسات القائمة (١٠) . لا نود هنا مناقشة ما أنجزه الاتحاد من هذه التوصيات ، ولكننا نسجل الملاحظتين التاليتين :
أ — ان هذه التوصيات ، في حال تنفيذها تؤدي الى تحسين جو التعليم ولكنها لا تولد تربية ثورية . ب — وهي قد تقوى الثقة بين المعلمين والجماهير ولكنها لا تروم الفجوة الحاصلة بينهما . فلهذه الفجوة اسبابها الموضوعية ولا يردمها سوى ممارسة موضوعية تختلف كليا عن تأدية بعض الخدمات ، هذا المفهوم الخاطيء الذي يعتقد بان المشاركة بالشعور وتأدية بعض الخدمات مثل المشاركة بأسبوع النظافة يحل المسألة . وانما تتمثل هذه الممارسة بأن يعيش المعلمون فعلا مشاكل الجماهير وان يناضل الاتحاد مع الجماهير من اجل قضاياها المختلفة . ولعل المدرسة (بما في ذلك مشاكل التعليم ومضير البناء) تمثل المسألة المشتركة والاكثر وضوحا بين المعلمين واهالي المعسكرات . ويمكن على سبيل المثال ان يبادر اتحاد المعلمين بطرح الممارسة الديمقراطية على مستوى المدرسة . بمعنى ان تصبح الجماهير طرفا اوليا في مناقشة اوضاع المدرسة ومحاكمتها

كمؤسسة اجتماعية . ويتخطى هذا مسألة التعاون بين الاهالي والمدرسة كطرفين ، بل يصبح التعليم في المخيم مسؤولية جماعية تتحدد فيها مسؤوليتنا الذاتية ومسؤولية غيرنا ، وما يمكننا عمله ، وما هو خارج عن ارادتنا . ماذا يمكن ان ينتج عن هذه الممارسة ؟ ان المناقشة العامة ستجعل اوضاع المدرسة باذارتها ومعلميها وطلابها وجميع مشاكلها واضحة امام الجميع ، كما سنتناول بالنقد الصريح كل مسؤول عن خطأ بعد توضيحه . وهذا النقد الذي سيتناول المعلم من حيث قيامه بواجبه ، ونشاطه وتعامله مع الطلاب .. الخ سيتناول كذلك الاب وطريقة معاملته لابنه ومتابعة احواله في المدرسة ، مما يوضح الخطأ ويحدد مصدره . وبذلك يمكن للجميع ان يتلمسوا مواطني الخطأ وطرق الصواب ، كما تتم عملية توعية وتوجيه بصورة تلقائية . ب - تضع هذه المناقشة الصريحة المعلمين امام مسؤولياتهم التعليمية والتربوية والوطنية مما قد يتطلب تغييرا في نمط حياتهم خارج المدرسة . ج - ان هذه الممارسة ستؤدي الى عملية فرز حقيقية ضمن جهاز المعلمين وفق مقاييس تربوية وثورية . اما عملية الفرز القائمة الان - اذا اعتبرنا العضوية في الاتحاد مقياسا - فهي عملية مشوهة تلعب فيها عوامل ادارية وتنظيمية وحزبية ، بحيث لا يعود الاعضاء بالضرورة هم الاقرب الى الجماهير والاكثر التزاما بقضاياها . ولا شك في ان هذه الممارسة بحاجة الى برنامج عملي ينظمها ويضبطها لكي تحقق غايتها ، والاتحاد هو الجهة القادرة على ذلك ، كما انه الجهة المؤهلة لوضع برنامج عملي يوضح كيف يمكنه ان ينجز مهمته التربوية ويعطيها ابعادها العميقة ، وتحديد الوسائل الاجرائية التي ينبغي اتخاذها ليضمن تحقيق خطته واهدافه .

رابعاً - مهمة مالية : لا بد وان تكون المهمة المالية احدى المهمات التي يضطلع بها اتحاد المعلمين ، وذلك انطلاقاً من الامكانات المالية الكبيرة نسبياً التي يملكها المعلمون . فلو دفع المعلم ليرتين لبنانيين في الشهر مثلاً لحصل الاتحاد على دخل شهري لا يقل عن خمسين الف ليرة . وبعض النظر عما هو قائم يحسن بنا ان ننظر الى النواحي التي يمكن استخدام الامكانات المالية بها . ١ - في المسألة التنظيمية اي في مجال تقوية العلاقات بين المعلمين وربطهم بالاتحاد وتدعيمه وتقوية نشاطاته . ويمكن للاتحاد ان يقوم بمشروعات مساهمة ، تشجع المعلمين على استثمار اموالهم ، تستهدف الربح ويستفيد المساهمون من الارباح بحسب مساهمتهم . ومثل هذا الاتجاه يستلزم خطة تأخذ بعين الاعتبار : ١ - ان الغاية الاساسية من هذه المشروعات هي خدمة المعلمين انفسهم والجماهير والثورة ، مع توضيح ابعادها الثورية واهمية دور المعلمين في النهوض الاجتماعي . ٢ - ان تكون رساميلها معقولة واسهمها رخيصة تمكن الجميع من المشاركة فيها . ٣ - ان يعود للمساهمين قسم من الارباح فقط مع تبيان المجالات التي سيوجه اليها القسم الآخر . ٤ - اشتراط العضوية في الاتحاد للمساهمين بهذه المشروعات . كذلك يمكن للاتحاد تعميم تجربة الكويت في الضمان الاجتماعي بعد دراستها بحيث يتم انشاء صندوق للضمان الاجتماعي والصحي لاجزاء الاتحاد . ب - المساهمة في تنشيط التنظيمات الشعبية الاخرى . اذا يفترض نظرياً ان يكون اتحاد المعلمين هو الاتحاد « الغني » بالنسبة للاتحادات الاخرى . ويمكن في هذا المجال مثلاً اصدار نشرة نقابية موحدة يتحمل اتحاد المعلمين القسط الاكبر من مالياتها . كما يمكن للاتحاد ان يساعد اتحاد العمال في اقامة بعض المشروعات على مستوى المخيم او مشاركته في ذلك . كما يمكن ان يقدم الاتحاد بعض المساعدات لاتحاد الطلبة .. الخ ج - المساهمة في دعم الثورة . لا بد اولاً ان يبحث الاتحاد ومنظمة التحرير مسألة الجباية من المعلمين وتنظيمها وتحديد نصيب الاتحاد منها . ان تدعيم مالية الاتحاد يساهم في تخفيف الضغط المالي على المنظمة ، ويصبح رافداً لها بدل الاعتماد عليها . كما ان ذلك يمكنه من المساهمة في تدعيم الثورة مادياً ومجالات ذلك كثيرة بدءاً من

المساهمة في اقامة الملاجيء وانتهاء بتأمين الملابس او التموين للمقاتلين .

الاتحاد كمؤسسة : تنتقل الان الى الحديث عن الاتحاد كمؤسسة بعد ان تحدثنا عن مهماته . وينبغي الاشارة الى ان هذه المهمات لا تختلف عن الاهداف التي حددها الاتحاد لنفسه ، وربما كان ما تقنا به هو ترتيب هذه الاهداف ضمن عناوين رئيسية مع محاولة اعطاها ابعادها الكاملة . ويجدر بنا ان نتذكر ونحن نتحدث عن الاتحاد كمؤسسة انه لا زال في مرحلة تكوينية . سنحاول الآن الغاء الضوء على تجربة الاتحاد من حيث تشكيله وبنائه التنظيمي ونشاطه ، مع محاولة تبين مدى ارتباط ذلك بمهامه الاساسية :

لمحة تاريخية : بدأ العمل على تشكيل اتحاد عام للمعلمين الفلسطينيين في عام ١٩٦٦ في الاردن وفي اعقاب حركة عامة بين معلمي مدارس وكالة الغوث في كل من الاردن وسوريا ولبنان . خلاصة ذلك ان الوكالة حاولت في عام ١٩٦٨ تطبيق نظام جديد سمي « اعادة تصنيف المعلمين » يتناول مرتباتهم وتصنيفاتهم المهنية واهم ما فيه : ١ - فصل المعلمين عن باقي موظفي الوكالة من حيث سلم الرواتب والتصنيف المهني ، بحيث تحدد الرواتب مثلا بحسب المرحلة التعليمية اي يختلف راتب المعلم الابتدائي عن راتب المعلم الاعدادي . ٢ - عدم الاعتراف بالشهادات الجامعية وعدم تعيين جامعيين . ٣ - الغاء مبدأ التعيين الدائم للمعلم واحلال مبدأ التعيين المؤقت (١١) . واهم المخاوف التي اثارها هذا النظام هو ان يكون فصل جهاز التعليم عن باقي أجهزة الوكالة مقدمة لتسليم خدمات التعليم الى منظمة اليونيسكو ، ومن ثم الى الدول العربية المضيفة ، وكذلك الى التصفية التدريجية لاعمال الوكالة حيث يشكل التعليم الخدمة الاساسية فيها . يضاف الى ذلك عدد من المخاوف الاخرى والشعور بالاجحاف الذي سيلحق بالمعلم من جراء تطبيق النظام الجديد . بدأت ردة الفعل في سوريا حيث رفضت جمعية الموظفين النظام الجديد ، ثم اضرب معلمو الوكالة في لبنان لمدة شهر في بداية عام ٦٩ ولم يسفر ذلك عن شيء تقريبا ، واختاروا في اثناء ذلك ممثلين عن مدارسهم اطلق عليهم اسم « وفد المعلمين » الذي انتهى عمليا بانتهاء الاضراب ، ثم تشكلت قيادة جديدة حاولت ان تقوم باضراب جديد الا ان المعلمين لم يكونوا في موقف واحد فانتهى الاضراب الجزئي الذي أعلن بالفشل ايضا . وفي الاردن قام المعلمون باضراب لمدة يومين في شهر ايار ٦٩ للسبب نفسه وانتهى الاضراب بناء على وعد بعودة الوكالة عن النظام الجديد . وفي ٢٠/٩/٦٩ عاد المعلمون في الاردن الى اعلان الاضراب لان الوكالة لم تعد عن سياستها في تطبيق التصنيف الجديد ، وشمل الاضراب كذلك مدارس الوكالة في كل من سوريا ولبنان واستمر شهرا كاملا ، كان معلمو الاردن محوره اذ كان الاضراب في سوريا ولبنان اقرب الى موقف التضامن مع الاردن . كذلك جاء هذا الاضراب ولاول مرة باسم الاتحاد (١٢) .

اما انشاء الاتحاد فقد جاء بمبادرة من لجنة التنظيم الشعبي في منظمة التحرير . فقد اتصلت دائرة التنظيم الشعبي في اواخر شهر تموز ٦٩ ببعض المعلمين في الاردن وطلبت منهم ان يسافروا الى مدينة الاسكندرية لحضور مؤتمر المعلمين العرب واستصدار موافقة على عضوية الاتحاد في اتحاد المعلمين العرب . سافر الوفد وحصل فوراً على هذه الموافقة ، اي اصبح الاتحاد عضوا في اتحاد المعلمين العرب (والاتحاد لم يتأسس بعد) . وبعد عودة الوفد الى الاردن سبت دائرة التنظيم امينا عاما للاتحاد ، هو الامين العام الحالي ، وطلبت ان يكون اعضاء وفد الاسكندرية اعضاء في الامانة العامة الا ان بعضهم اعتذر . باشرت الامانة العامة بعد ذلك عملها في الاردن وخارج الاردن بأن بدأت بتعيين لجان تحضيرية في عدد من المناطق التي يتواجد فيها معلمون فلسطينيون . ففي اواخر عام ٦٩ عينت لجانا تحضيرية في كل من سوريا ولبنان والكويت . وفي اوائل عام ٧٠ عينت لجانا في العراق ومصر والجزائر والمغرب ، وعام ٧٢ في ليبيا . وكانت مهمات هذه اللجان ان تقوم بعملية التنسيب للاتحاد ثم اجراء انتخابات الروابط المحلية والفروع .

وحتى الآن حدثت انتخابات وعقدت مؤتمرات قطرية في كل من سوريا ، العراق ، الكويت ، لبنان ، المغرب ، الجزائر (١٢) .

حول هذه الفترة من تاريخ الاتحاد يمكن ايراد بعض الملاحظات التي ربما وقف المؤتمر الوطني عندها وهو يراجع تجربة الاتحاد الماضية . احدى هذه الملاحظات تتعلق بفاعلية المعلمين ، ومن ثم الاتحاد ، في هذه الفترة . من المعروف ان في الفترة التي اهتمت التكنة لعب المعلمون ، كفراد ، دورا بارزا في الحركة الوطنية ، وشكلوا مدخل العمل السياسي لعدد من التنظيمات والاحزاب . غير ان المعلمين لم يشكوا تنظيمهم المهني الخاص على غرار القطاعات الشعبية الاخرى مثل الطلاب والعمال والمرأة ، والتي شكلت تنظيمات خاصة بها منذ فترة طويلة نسبيا وقبل قيام حركة المقاومة الفلسطينية . اما اتحاد المعلمين — مع انه جاء بمبادرة فوقية من اللجنة التنفيذية للمنظمة — فقد اعلن قيامه في عام ٦٩ وهو عام تميز بزخم المقاومة واتساع نفوذها وممارستها توعا من النفوذ خاصة في الاردن ولبنان . من جهة ثانية يلاحظ ركود ملموس لفروع الاتحاد في مناطق التجمع السكاني الفلسطيني ، مع ان المفروض بهذه الفروع ان تكون محور النشاط بسبب وجودها وسط الجماهير الفلسطينية ولإمكانات التحرك النقابي ، سواء لما تواجهه من مشاكل أم لما يمكن ان تقوم به من مشروعات ونشاطات . لذلك نقول ان الاتحاد بحاجة الى مراجعة نقدية لممارسات ونشاط فروع خاصة في مناطق التجمع السكاني ، في هذه الفترة . صحيح ان الاتحاد كقوة نقابية يعمل للحصول على مكاسب مادية للمعلمين ، ولكن الغاية الاساسية من وجوده هي العمل على تنظيم هذا القطاع ليلعب دورا ثوريا في الحركة الوطنية . وعندما لا يتم التحرك الا من اجل الحصول على بعض المكاسب المادية ، او عندما ينكمش نشاط الاتحاد الى ما تقوم به قيادته وحدها ، غربا يكون الاتحاد قد وصل الى نتيجة هي عكس ما يريد . ولا بد ان تستهدف مثل هذه المراجعة للتجربة السابقة معرفة اسباب هذا الركود وهل يعود ذلك لاسباب موضوعية خارجية ، ام انها تعكس صورة سلبية لطاقة المعلمين على التحرك الثوري وتحميل مسؤوليته . وهذا ولا شك سيساعد الاتحاد على وضع اهداف مرحلية وقابلة للتنفيذ . والملاحظة الثانية التي ينبغي تسجيلها تتعلق بديمقراطية التجربة . يمكن القول ان التجربة بدأت بشكل غير ديمقراطي حين قامت المنظمة بتسمية الامانة العامة التي مارست عملها باسم الاتحاد العام للمعلمين الفلسطينيين طوال ثلاث سنوات دون ان تدعو ولو للمؤتمر استثنائي يعطيها صفة الشرعية . وكذلك تسارت الفروع طوال هذه المدة ، وبعضها اجري انتخابات ، وعقد مؤتمره القطري منذ اكثر من سنة ، على نظام داخلي يفترض ان يكون مؤقتا وبغرض تنظيم تأسيس الفروع واختيار مندوبين للمؤتمر الوطني الاول . من جهة اخرى ، جرت في هذه الفترة حادثتان نذكرهما لمجرد التسجيل . كانت الاولى قيام الامانة العامة بجل اللجنة التحضيرية في سوريا وتعيين لجنة جديدة لاجراء الانتخابات . وبرزت الامانة العامة عملها بانتهاء المدة القانونية على عمل اللجنة التحضيرية دون اجرائها للانتخابات . اما لجنة سوريا فقد اوردت على لسان امين سرها في كلمته في المؤتمر القطري لرابطة سوريا في شهر ايار ١٩٧١ ، ان اللجنة قد اجلت اجراء الانتخابات « بسبب الأوضاع في الاردن وما تبعها من مضاعفات » . وعبرت اللجنة عن أسفها لأقدام الامانة العامة على حل اللجنة (١٤) . في الوقت ذاته ، وعلى مستوى المثال ، كانت رابطة سوريا في اثناء عمل اللجنة المنحلة اكثر نشاطا واكتمالا من رابطة لبنان ، كما يتضح من تقرير المؤتمرين القطريين في كل من البلدين ، واللذين عقدا في الفترة نفسها (ايار ٧١) . فبالنسبة لعدد الاعضاء كان في رابطة سوريا ١٤٤١ عضوا وفي رابطة لبنان ما يقارب من ١٢٠٠ عضو . وبالنسبة للناحية المالية كان في رابطة سوريا وفر قدره خمسة آلاف ليرة ، بينما كانت رابطة لبنان في عجز مالي « ومنذ وجودها تعتمد في ماليتها على الامانة العامة » (١٥) .

الحادثة الثانية التي ينبغي ايرادها تتعلق بالائتلاف الذي حصل في لبنان واختيار أعضاء المؤتمر القطري الأول عام ١٩٧٠ . فقد اتفق تنظيميان فدائيان فيما بينهما على اختيار أعضاء المؤتمر ، وحدث ذلك بموافقة الامانة العامة ، ولم تجر انتخابات الا في منطفة طرابلس حيث لم ينجح الائتلاف . وكان من نتيجة ذلك ان قاطعت منطفة صور ، بكل معلميتها ، المؤتمر تعبيراً عن رفضها للبدء الذي اتخذ . وكان ذلك عاملاً في احداث فجوة بين المعلمين واللجنة التنفيذية التي اختارها المؤتمر الائتلافي(١٦) . والملاحظة التي يجب تسجيلها على الامانة العامة هي ان الانتخابات تشكل الحق الطبيعي والمظهر الديمقراطي الاساسي الذي يمارسه أعضاء النقابة ، وعلى الاتحاد ان يستفيد من تجارب الاتحادات التي سبقته ويكون نموذجاً في الممارسات الديمقراطية .

بنية الاتحاد : لا يهمننا استعراض البناء التنظيمي للاتحاد بقدر ما يهمننا ان نؤكد على قضيتين . اولاً ان يكون هذا البناء قائماً في الاصل لخدمة المهام الاساسية او الاهداف التي يحددها الاتحاد لنفسه . وثانياً ان يكون هذا التنظيم مرناً بحيث يتلاءم والوضاع المختلفة في مناطق عمل الاتحاد . واهم الملاحظات التي يمكن ايرادها بهذا الصدد ما يلي : ١ - ان انجاز المهام الاساسية للاتحاد (سياسية - نقابية - تربوية - مالية) مرتبط بالجهاهير ، أي ان الفعالية الاساسية للاتحاد هي في مناطق التجمع السكاني للفلسطينيين . وربما يكون من الطبيعي ان تتوفر في النظام الداخلي للاتحاد مرونة تسمح لفروعه في هذه المناطق اقامة تشكيلات تنظيمية خاصة مثل عقد مؤتمرات خاصة لفروعها ، او تشكيل قطاعات تنظيمية في كل رابطة وذلك حسب المهام الاساسية . . . الخ ٢ - يحدد النظام الداخلي للاتحاد الهيكل التنظيمي على النحو التالي : - الوحدة (المدرسة) وتنتخب لجنة الوحدة . - الدائرة (مجموعة مدارس) وتنتخب لجنة الدائرة . - المنطفة (مجموعة دوائر) وتنتخب لجنة المنطفة . - الرابطة (مجموعة المناطق) وتنتخب لجنة تنفيذية .

يلاحظ اولاً عدم امكانية تطبيق هذه التشكيلات التنظيمية في جميع مناطق عمل الاتحاد ، ولذلك اضيف في النظام الداخلي مادة تنص على ان « لكل رابطة ان تحدد عدد تشكيلاتها التنظيمية وفقاً لظروفها الجغرافية والبشرية » (١٧) ومن جهة اخرى يبدو ان القصد من هذه التشكيلات هو ضبط العملية الداخلية او التنظيمية في الاتحاد . وهي بذلك اقرب الى التنظيم الحزبي منها الى التنظيم النقابي - خاصة اذا علمنا ان مهام هذه التشكيلات تكاد تنحصر بحضور الاجتماعات الدورية وكتابة التقارير من قبل اعضائها ، في حين يفترض ان تكون هذه التشكيلات قد اعتمدت لكونها الوسيلة الافضل لخدمة اهداف ومهام الاتحاد وانجازها . فقد لا يكون مهماً مثلاً وجود عشر وحدات في مخيم ما ، بل وجود لجان لها مهام محددة . ومن الدلائل على ان هذه المهام كانت غائبة حين رسم الهيكل التنظيمي ، ان الاتحاد يضع لنفسه مثلاً برنامجاً طموحاً للمشروعات الانتاجية ولكنه لا يفرز لذلك جهة او جهازاً مسؤولاً لتابعته بل يترك ذلك للمسؤول المالي في الامانة العامة بالاضافة الى قيامه بالمسؤوليات المالية للاتحاد باسره(١٨) .

وفيما يتعلق بالنظام الداخلي للاتحاد يمكن اثارة بعض الملاحظات التي تحتاج الى نقاش .
١ - الاشتراكات : يترك النظام الداخلي لقيادة كل رابطة تحديد قيمة رسم الانتساب والاشتراك الشهري للعضو في بلده(١٩) . والملاحظة هي انه من اوليات التنظيم ، باعتقادنا ، خضوع جميع الاعضاء لقواعد مالية واحدة واذا كان الدافع لهذه القاعدة هو التفاوت في رواتب المعلمين ، فالحل الاكثر « عدالة » يكون في جعل رسم الانتساب او الاشتراك تصاعدياً بنسبة الراتب ، لا في ترك الامر لكل رابطة على حدة لان الناحية المالية لا تتوقف على الاشتراكات وحدها ، بل هناك امور تتعلق بالتفرغ والمساعدات والنفقات وغيرها . ب - عدد أعضاء المؤتمر القطري : يترك النظام ايضا لقيادة كل

رابطة تحديد عدد ممثلي المناطق في بلدنا الى المؤتمر القطري (٢٠) ، ويبدو كذلك ان هذه القاعدة وضعت لاعتبارات موضوعية تتعلق بالاوضاع المختلفة في المناطق التي يعمل بها المعلمون ، ولكن مع ذلك فالمبدأ هو وضع القواعد العامة اولا ثم تضاف بعض اللوائح التي تعالج الحالات الاستثنائية .

وليس واضحا لماذا لا يتم تحديد الممثلين على اساس عددي ، علما بان ذلك لا يعني بالضرورة تطبيق نسبة واحدة في كل الفروع . ج - **مدة عمل اللجنة التنفيذية والمؤتمر القطري** . هناك مادة في النظام الداخلي بحاجة الى تفسير اذ تحدد مدة عمل اللجنة التنفيذية للرابطة بثلاث سنوات (٢١) . في حين يفهم ضمنا ان المؤتمر القطري الذي ينعقد سنويا هو مؤتمر جديد يتم اختيار اعضائه بالانتخاب (٢٢) ، مع اعطاء المؤتمر حق حجب الثقة عن عضو أو أكثر من أعضاء اللجنة التنفيذية . السؤال هو لماذا لا يكون من ضمن اعمال المؤتمر انتخاب لجنة تنفيذية جديدة ، قد تكون هي نفسها اللجنة السابقة . د - **مجلس الاتحاد** : ينص النظام الداخلي على وجود مجلس للاتحاد مكون من اعضاء الامة العامة وامناء سر الروابط . والمجلس عبارة عن محطة تنظيمية عامة تتابع سياسة الاتحاد في غياب المؤتمر الوطني . ولكن النظام الداخلي لا يحدد موعدا دوريا لاجتماعات المجلس ولا يعطيه صلاحيات او مهمات فعلية ، بل يقصر ذلك على « النظر في الخطة العامة التي يضعها المؤتمر العام ، والفصل في طلبات الاستقالة التي يتقدم بها احد اعضاء الامة العامة » (٢٣) .

نشاط الاتحاد : لم يكن الغرض من هذا البحث تسجيل تاريخ الاتحاد واستعراض نشاطاته ، الا انه يحسن بنا في النهاية ان نذكر ابرز النشاطات التي قام بها الاتحاد خلال هذه الفترة من وجوده ، ويهدف تبين مدى ارتباطها بالمهمات أو الاهداف المنوطة بالاتحاد . كان من ابرز نشاطات الاتحاد سلسلة الاضرابات التي قام بها معلمو مدارس وكالة الغوث ومتابعة الاتحاد لقضايا المعلمين مع الوكالة . كذلك اظهر الاتحاد اهتماما بأعضائه وتقديم مساعدات لهم وخاصة تقديمه مساعدات مادية لاسر المعلمين الذين اعتقلوا في الاردن ، ودفع رواتب دائمة لاهالي الذين استشهدوا في حوادث ايلول ١٩٧٠ . ويعتبر مشروع الضمان الاجتماعي الذي طبق في رابطة الكويت (يقضي بدفع تعويض مالي للمعلم في حالة الوفاة ، أو الفصل أو الإصابة بعاهة مستديمة) أمرا مهما ومثالا يحتذى به . هذا بالإضافة الى عدد من النشاطات الأخرى مثل جمع تبرعات للهلل الاحمر ، زيارة المقاتلين في قواعدهم ، حضور المؤتمرات العربية والدولية واصدار بيانات أو ارسال برقيات في المناسبات المختلفة (٢٤) . والملاحظة التي تتكرر مرة أخرى هي ان معظم نشاطات الاتحاد لم تكن على مستوى القاعدة ووسط الجماهير ، اذ انحصرت هذه النشاطات اجمالا بالامانة العامة واللجان التنفيذية . وهذا النمط من النشاط لا يبدو وثيق الصلة بالمهمات الاساسية للاتحاد ولا يؤدي الى تحقيقها . فالاتحاد ، مرة أخرى ، ينجح في انجاز مهماته عندما يتحول الى مؤسسة شعبية من خلال ما يطرحه من قضايا وما يمارسه من نشاط بين جماهير المعلمين وجماهير الخيميات (٢٥) .

- ١ - مقابلة مع الامين العام للاتحاد ، شهر ايار ١٩٧٢ .
- ٢ - الانروا ، دائرة التعليم ، الموجز الاحصائي لعام ٧٠ - ٧١ ، ص ٥٤ و ٨٦ .
- ٣ - الانروا ، دائرة التعليم ، الموجز الاحصائي لعام ٦٩ - ٧٠ ، ص ٦١ و ٩٩ .
- ٤ - الاتحاد العام للمعلمين الفلسطينيين ، الامة العامة ، الاتحاد في سنته الثالثة ، ص ١١ .
- ٥ - المصدر نفسه .
- ٦ - المصدر السابق ، ص ١٦ - ١٧ .
- ٧ - دوجلاس بايك ، الفيتكونج ، منشورات

- دار الطليعة ، ص ٥٨ .
- ٨ - اتحاد المعلمين ، المصدر السابق ، ص ١١ .
- ٩ - المصدر نفسه .
- ١٠ - اتحاد المعلمين ، رابطة لبنان ، تقرير المؤتمر القطري لعام ٧١ ، ص ١١ - ١٢ .
- ١١ - اتحاد المعلمين ، الاتحاد في سنته الثالثة ، ص ٥ .
- ١٢ - مقابلة مع الامين العام لرابطة لبنان ، ايار ١٩٧٢ .
- ١٣ - مقابلة مع الامين العام للاتحاد ، ايسار ١٩٧٢ .
- ١٤ - اتحاد المعلمين ، رابطة سوريا ، تقرير المؤتمر القطري لعام ٧١ ، ص ١٥ .
- ١٥ - اتحاد المعلمين ، راجع المصدر السابق ،
- التقرير ص ١ - ٢ ، وتقرير مؤتمر لبنان ص ٦ .
- ١٦ - مقابلة مع الامين العام لرابطة لبنان ، ايار ١٩٧٢ .
- ١٧ - النظام الاساسي ، ص ٨ .
- ١٨ - النظام الداخلي ، ص ٢٨ .
- ١٩ - المصدر السابق ، ص ١٩ .
- ٢٠ - المصدر السابق ، ص ٢٥ .
- ٢١ - المصدر السابق ، ص ٢٧ .
- ٢٢ - المصدر السابق ، ص ٢٥ .
- ٢٣ - المصدر السابق ، ص ٢٩ - ٣٠ .
- ٢٤ - اتحاد المعلمين ، الاتحاد في سنته الثالثة ، ص ١٢ - ٢٥ .
- ٢٥ - كتب هذا البحث قبل انعقاد المؤتمر الاول للاتحاد في آب (اغسطس) ١٩٧٢ ، ويهدف المساهمة في اعمال المؤتمر .

علاقات اسرائيل مع دول العالم

(١٩٦٧ - ١٩٧٠)

بقلم

شهادة موسى

٥١٧ صفحة من
الحجم الكبير

١٠ ليرات لبنانية

تضاف اليها اجور البريد : ١٥٠ ق.ل. في العالم العربي ،
٢٠٠ ق.ل. في اوروبا ، ٦٠٠ ق.ل. في سائر دول العالم

اطلبه من : مركز الابحاث ، قسم التوزيع ، ص.ب ١٦٩١ - بيروت

مستقبل الثورة الفلسطينية ودور الشباب العربي فيها

في بحث مستقبل الثورة الفلسطينية لا بد أولاً من تحديد العوامل الأساسية التي بلورت ضرورات انطلاقها . هذه العوامل الأساسية تنطلق من نقطة جوهرية وأساسية لا يجوز المس بها لأنها مثبتة تاريخياً وقومياً وحتى مصلحياً ، وهي ان القضية الفلسطينية قضية عربية أولاً وبالاساس وقد فرض هذا بالتالي ان تكون حركة التحرر الفلسطينية جزءاً لا يتجزأ من حركة التحرر العربي . وهذه الكلمة التي ترددت حتى فقدت معناها في الاذهان تحتاج الى تثبيت في هذه المرحلة بالذات بسبب ما تواجهه الثورة الفلسطينية حالياً من متاعب وبسبب بروز وجهات نظر تحاول دفع الثورة الفلسطينية الى المرتبة الثانية في جدول الاعمال .

ولكن كون الثورة الفلسطينية جزءاً لا يتجزأ من حركة الثورة العربية لا يجوز أن يلغى مطلقاً الدور الفلسطيني الخاص الذي يجب أن يقوم به الفلسطينيون تجاه قضيتهم . ولتوضيح ذلك لا بد من ذكر الوقائع التالية :

١ — ان قيام دولة اسرائيل قد توافق مع مرحلة الاستقلال التي نالت فيها أغلب الدول العربية ، وأغلب دول العالم الثالث استقلالها ، وفي جو معركة الاستقلال كان موضوع الوحدة العربية مطروحا في المنطقة على انه موضوع قابل للتحقيق والتنفيذ على مدى سنوات منظورة فقط .

٢ — ومن منطلق الترابط بين القضية الفلسطينية والقضية العربية ، ومن منطلق العمل لاقامة الدولة العربية التقدمية الموحدة ، قام الفلسطينيون بعد نكبة عام ١٩٤٨ بمتابعة نضالهم من اجل استرداد وطنهم من خلال الاندماج في الحركة الوطنية العربية ، ممثلة بأحزابها السياسية في المشرق العربي . فاندمج الشباب الفلسطيني في هذه الاحزاب مؤمناً بأن توحيد الوطن العربي وبناء المجتمع الاشتراكي القوي فيه ، سيكون طريق النضال لتحرير فلسطين . انطلاقاً من الايمان العميق بعروبة القضية ، وبمسؤولية العرب جميعاً تجاهها . وقد جاءت بعض الانتصارات التي تلت ذلك لتزيد في عمق هذا الايمان ولتدعم النهج الذي يدعو ويعمل لتحرير فلسطين من خلال العمل لتحرير الوطن العربي وتوحيده ، نذكر من هذه الانتصارات : — معركة مواجهة حلف بغداد التي عنت الوطن العربي وتبلورت في اوساط الشعب الفلسطيني داخل الاردن بالانتفاضة ضد زيارة « تمبرلر » ، لتمثل أنجازاً على صعيد مواجهة السياسة الاستعمارية ودحرها . — ثم جاء طرد « جلوب » البريطاني من الاردن ، وقيام حكومة النابلسي الوطنية في عمان

البحث الذي قدمه الوفد الفلسطيني الى الندوة الفكرية المنبثقة من مؤتمر الشباب العربي الاول ، المنعقد في الجزائر من ٥ — ١١ تموز ١٩٧٢ . أعد البحث في مركز الأبحاث الفلسطينية . وكان الوفد برئاسة الزميل بلال الحسن .

ليمثل انجازا آخر على الطريق نفسه . — ثم جاء العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ لي طرح أمام الجماهير العربية بالدليل الملموس ارتباط اسرائيل بالإمبريالية العالمية وتهديد اسرائيل للمموس أيضا للبلاد العربية ذاتها وليس لفلسطين وحدها . وليكشف من خلال السعي لضرب تأميم قناة السويس دور اسرائيل كقوة عسكرية هدفها ضرب قوى حركة التحرر العربية وتدمير أي انجاز تحصل عليه . ومن خلال الصمود والنجاح في المعركة التي تشبثت فيها كل هذه القضايا ، تعمق الدور اليومي والمباشر لمصر في حركة التحرر العربية ، فزاد ذلك من قوة النهج الداعي للتحرير من خلال العمل الوطني العربي . — ولكن أعمق الأحداث التي دعمت منهج العمل لتحرير فلسطين من خلال الاندماج في الحركة الوطنية العربية ، كان بدون شك قيام الوحدة بين سوريا ومصر . فبقيام هذه الوحدة شعر المواطن الفلسطيني انه أصبح وجهها لوجه أمام القوة العربية القادرة على العمل من أجل التحرير ، لانها تملك الطاقة البشرية والاقتصادية المؤهلة لذلك . من ضمن هذا المنطق ومن ضمن هذه الوثائق اندمج الشباب الفلسطيني في الاحزاب العربية وناضل من خلالها داعيا للوحدة ولبناء المجتمع الاشتراكي ولبناء القوة العسكرية القادرة على مواجهة اسرائيل وانجاز عملية التحرير .

٣ — الا أن هذه التجربة الفلسطينية في العمل الوطني ما لبثت ان واجهت جملة من الحقائق الموضوعية كان لها تأثير عميق في مسيرة الشعب الفلسطيني : — فقد قام الانفصال بين سوريا ومصر محطما الحلم الكبير بتطويق اسرائيل ، ومحطما الأمل ببناء قوة اقتصادية وعسكرية قادرة على مواجهة اسرائيل . — ثم تمكنت القوى الرجعية العربية من توجيه ضربات متلاحقة للحركة الوطنية العربية ممثلة بأحزابها بحيث واجهت هذه الاحزاب مرحلة من الانحسار بعد مرحلة المد التي كانت تعيشها . وظهر من خلال ذلك ضعف في بنية هذه الاحزاب وتكوينها جعلها غير قادرة على مواجهة الموجة الرجعية ، والتأمر الإمبريالي المتصل لدعم القوى الرجعية وضرب القوى الوطنية ، حفاظا على مصالحه الاقتصادية والاستراتيجية . — ثم أخذت الأنظمة العربية تواجه — بعد أن انتهت موجة نيل الاستقلال وكسبه — مشكلاتها الاقتصادية الداخلية ، وتواجه الضغط الاستعماري لابقاء هذه المشاكل على حالها بحيث اضطرت لاسباب موضوعية تتعلق بطبيعة المشكلة الاقتصادية ، ولاسباب ذاتية تتعلق بطبيعة هذه الأنظمة ونهط علاقتها بالجماهير ، ان تقوم بعملية انغلاق لمواجهة مشكلاتها الداخلية واجاد حلول لها . ازاء هذا الواقع والصعوبات التي ينطوي عليها بدأ الفلسطينيون يدركون ان العمل لتحرير فلسطين من خلال الحركة الوطنية العربية ، على الرغم من انه موقف سليم وصحيح من حيث المبدأ ، الا أنه موقف غير كاف . وهو يفرض عليهم ، بدون التنازل عن حتمية الارتباط العضوي بين النضال الفلسطيني والنضال العربي ، أن يبلوروا عملهم الوطني الخاص ، وأن يتسلموا زمام قضيتهم بأيديهم وبشكل مباشر . وقد كان هذا الدرس الفلسطيني نوعا من المناخ العام ، إذ برزت في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات ، تنظيمات فلسطينية عديدة في أكثر من قطر عربي ، وفي وقت واحد تقريبا ، لتعكس احساسا جماهيريا عاما بضرورة قيام عمل فلسطيني خاص . وغرض هذا الواقع نفسه على الاحزاب القومية نفسها ، وعبرت عن ذلك باندفاعها نحو انشاء فرع خاص يضم الفلسطينيين داخل كل حزب عربي ، محاولة بذلك أن تتلاءم مع القناعة الشعبية الفلسطينية . وكان على هذه التنظيمات الفلسطينية أن تواجه بالإضافة الى أهمية الدور الفلسطيني الخاص وضرورته موضوعا آخر يتعلق بأسلوب النضال من أجل التحرير . هل يبقى أسير أسلوب الأنظمة الداعي لانشاء جيوش نظامية تتفوق على القوة العسكرية الإسرائيلية ، في ظل اقتصاد متخلف ؟ وقد جاء الجواب واحدا تقريبا من خلال التنظيمات الفلسطينية الناشئة التي حاولت بشكل او بآخر بلورة استراتيجيتها للكفاح

الشعبي المسلح واعتمادها خطأ للتحريض ، وكان هذا الطرح لاسلوب الكفاح الشعبي المسلح منطلقا من صورة الواقع العربي الذي تسيطر عليه التجزئة ، وهموم البناء الاقتصادي الذي يتعرض لتأمر الرجعية في الداخل ، ولضغط الاستعمار من الخارج ، ولتهديد اسرائيل بضرب المنجزات الوطنية العربية ، اذا ما تخطت مرحلة الامان بالنسبة لها . في هذه المرحلة جاء نجاح الثورة الجزائرية ، في نيل استقلالها عن طريق الحرب الشعبية فقام بدور بارز في ترسيخ القناعة الفلسطينية بالاتجاه الجديد الذي برز في اوساطهم وبامكان النجاح في مواجهة اسرائيل من خلال استغلال طاقة الجماهير ، والاستفادة من نقطة القوة التي تملكها في مواجهة قوة استعمارية كبيرة تملك طاقات عسكرية ومادية ضخمة .

وقد انطلق العمل الفدائي الفلسطيني تجسيدا لكل ذلك في عام ١٩٦٥ ، مواجهها صعوبات الاعتراف الرسمي العربي به ، ومواجهها منذ البداية محاولات القمع . ولكن هزيمة حزيران ١٩٦٧ فرضت على الانظمة العربية تجميد محاولات القمع هذه ، والانطلاق مباشرة الى تأييد الانطلاقة الجديدة للثورة الفلسطينية ودعمها . فأصبح منطقتها في العمل المنطق السائد في اوساط الجماهير ، والذي يلقي منها كل تأييد ، خاصة بعد ان سكنت المدافع العربية معلنة عجز الانظمة عن متابعة المعركة .

٤ - وكنتيجة لكل ذلك نقول ان العمل الوطني الفلسطيني المستقل : الايمان بالدور الفلسطيني الخاص ، لم يكن في منطلقه او في غيائه الا محاولة لتكميل العمل الوطني العربي وتطويره ، والا محاولة لتكريس الارتباط بين الثورة الفلسطينية والثورة العربية ، من خلال التصدي المباشر للعدو الصهيوني الذي يلعب دور الدركي لحماية المصالح الامبريالية في المنطقة ، ولسحق أي انجاز تقدمي تحققه الحركة الوطنية العربية . وهذا العمل الوطني الفلسطيني كان بعد عام ١٩٦٧ بالذات اسهاما جديا في حماية الحركة الوطنية العربية نفسها ، لان ارتفاع صوت المقاومة ضد الاحتلال اعطى الانظمة العربية فرصة لالتقاط الانفاس حتى تبدأ في العمل لاستعادة قواها الذاتية ، وحتى لا تقع اسيرة شروط الاستسلام الاسرائيلية .

ان التأكيد على هذه الظروف الموضوعية لبروز العمل الفلسطيني المستقل ، ضروري الان بسبب ما تواجهه حركة المقاومة من انتقادات كثيرة يصل بعضها الى مبدأ وجودها بالذات ، طارحا من خلال السعي لانهاء وجودها ، أن يعود العمل الوطني الفلسطيني ليرتبط بعجلة العمل الوطني العربي على غرار ما كان الوضع عليه في الخمسينات ، متجاهلا التجربة التي بلورت وانضجت الظروف الموضوعية لقيام عمل فلسطيني مستقل . ومتجاهلا ايضا الدرس الكبير والعميق الذي بلورته هزيمة حزيران .

مرحلة الانطلاق :

لقد لقيت الثورة الفلسطينية تأييدا جماهريا واسعا منذ لحظة انطلاقتها بعد الهزيمة وفي اوساط الشعب الفلسطيني بالذات ، كان هذا التأييد شاملا بحيث استطاعت ان تنتزع بنضالها شرعية تمثيلها لشعبها . كما لقيت الثورة الفلسطينية تأييدا مماثلا في اوساط الجماهير العربية عمق من لحمه العلاقة التاريخية بين النضال الفلسطيني والنضال العربي ، وبرزت هنا امكانية تحويل هذه الطاقة الجماهيرية الفلسطينية والعربية الى قوة فعالة من خلال تنظيمها وتعبئتها باتجاه النضال ضد اسرائيل . ولكن جملة عوامل ذاتية وموضوعية تدخلت لتعيق النمو المستمر لامكانية التحويل هذه . وبعض هذه العوامل يتعلق بفصائل حركة المقاومة نفسها وبرزها :

— حالة التشتت التنظيمي التي كانت انعكاسا طبيعيا لاندماج الشباب الفلسطيني في احزاب وتيارات فكرية متعددة ، كما كانت انعكاسا طبيعيا للتشتت الجغرافي الذي عاش

في ظل الفلسطينيين . ومن قلب هذا الوضع الذي هو حصيلة عشرين عاما من التشرد بذلت حركة المقاومة بفصائلها الاساسية كافة محاولات عديدة لايجاد صيغة فعالة للوحدة الوطنية ، من خلال اللقاء داخل منظمة التحرير ، في عضوية المجلس الوطني ، وفي عضوية اللجنة التنفيذية . وما زالت تجري حتى الآن محاولات دؤوبة لتطوير الصيغة القائمة للوحدة الوطنية من أجل صيغ أفضل وأرقى . - تقصير حركة المقاومة في ادراك قيمة العمل السياسي المنظم في اوساط الجماهير ، من أجل دعم العمل العسكري نفسه . ونتيجة لذلك بقي التأييد الواسع الذي لقيته المقاومة تيارا عفويا لم تستغل طاقاته بشكل كامل . مع اننا نسجل لهذا التيار العفوي انه قام بدور بارز في حماية المقاومة من بعض المؤامرات التي دبرت لتصفيتها في الاردن ولبنان . - تقصير في تطوير اساليب العمل العسكري ، بحيث تكون اكثر ملاءمة لظروف الارض ولأساليب العدو في المقاومة المضادة . - تقصير في ادراك معنى الإجراءات الاقتصادية والادارية التي لجأ اليها العدو في الاراضي المحتلة ، والبدء مبكرا في تحضير الاجواء لمواجهةها .

ولكن هذه العوامل لا يمكن مناقشتها بعيدا عن العلاقات التي نشأت بين الثورة الفلسطينية والواقع العربي الرسمي فمن خلال هذه التناقضات لم تستطع حركة المقاومة ان تواجه نقاط ضعفها الذاتية ، منشغلة بمواجهة تناقضها مع الأوضاع العربية ، وأبرز هذه التناقضات التناقض في الموقف الاساسي حول منهج مواجهة اسرائيل بعد الهزيمة ، بين منطق القتال ومنطق قرار مجلس الامن والتسوية السياسية . ونقول بالم شديد وبموضوعية كاملة ان الموافقة العربية على مشروع روجرز في تموز ١٩٧٠ ، والبليلة الجماهيرية التي احدثتها هذه الموافقة في اوساط الجماهير ، قد خلقت مناخا استغلته الرجعية الاردنية في التحضير لمجزرة ايلول في العام نفسه .

وقد فرض على الثورة الفلسطينية ان تواجه سلسلة متلاحقة من عمليات القمع في الاردن وفي لبنان عطلت الجزء الاكبر من طاقاتها من أجل حماية نفسها من تأمر القوى الرجعية بدل التوجه لمقاومة الاحتلال الاسرائيلي . وحين تمكنت الرجعية الاردنية من خلال مجزرة ايلول ١٩٧٠ وما تلاها من معارك أن تنهي الوجود العلني لحركة المقاومة في الضفة الشرقية ، تمكنت اسرائيل من : (١) ان تطلق العنان لتنفيذ مخططاتها في الضفة الغربية من خلال الانتخابات البلدية ، سعيا وراء ابراز قيادات فلسطينية جديدة ، تكون كتيبات بديلة لحركة المقاومة ، (٢) ان تتفرغ لوضع مخطط شامل لضرب المقاومة الباسلة في قطاع غزة ، حسب اعتراف التقرير السنوي العسكري لعام ١٩٧١ الصادر عن قيادة الاركان الاسرائيلية .

- فرض على الثورة الفلسطينية ان لا تتعامل مع قطاع واسع من الجماهير العربية الا من خلال الانظمة نفسها ، وبالبحم الذي تراه هذه الانظمة مناسبا لمصالحها ولسياستها الداخلية . وادى ذلك الى تعطيل عملية التفاعل العميقة بين الثورة الفلسطينية والجماهير العربية ، بل ان بعض هذه الانظمة قد سعى الى استيعاب الثورة الفلسطينية والسيطرة عليها ، كي تصبح خاضعة لافق سياستها الرسمية .

- اما اجهزة الاعلام العربية فقد انطلقت في فترة المد التي عاشتها الثورة الفلسطينية ، في عملية تضخيم لمنجزاتها ، كانت تهدف الى تغطية حالة القصور العربية القائمة ، وأدت في الوقت نفسه الى خلق حالة وهمية حول العمل الفدائي جعلت المواطن العادي يتوقع منه المعجزات ، وحين لم يجد هذه المعجزات بدأ يشك في العمل الفدائي وجدواه . وحين واجه العمل الفدائي بعض التراجعات قامت اجهزة الاعلام نفسها لتنتشر صورة من التشاؤم حول العمل الفدائي بدل ان تساعد في مواجهة ظروفه الصعبة .

- وفي ظل هذا كله فان الاحزاب العربية الحاكمة منها وغير الحاكمة ، عجزت عن

استيعاب المد الجماهيري الذي ولدته الثورة الفلسطينية وتنظيمه فبقي كما قلنا ، قوة عفوية ، غير قادر على أن يعطي كل طاقاته للمعركة .

ولا نستطيع أن ننكر أن هذه العوامل التي ذكرناها لعبت دورها — بمستويات مختلفة — في تجسيد سلسلة من العقبات التي أعادت العمل الفلسطيني عن تادية دوره بشكل أفضل مما تم حتى الآن . وهي مسؤولة — بمستويات مختلفة — عن التراجعات التي اضطرت حركة المقاومة للقيام بها دون أن نقل مطلقا من شأن أخطائنا نحن .

التخطيط الاسرائيلي

بينما كانت الثورة الفلسطينية تواجه هذه العوامل التي ذكرناها ، كانت اسرائيل تباشر تنفيذ خططها الدائمة في مقاومة العمل الفدائي من خلال ضرب الاقطار العربية نفسها . وقد أعلنت اسرائيل ذلك علنا وبوضوح وعلى لسان أكثر من مسؤول كبير فيها . وهدف اسرائيل من وراء ذلك اجبار الانظمة العربية على أن تقوم بنفسها بالتضييق على العمل الفدائي وضربة ، تخلصا من تهديد الهجمات الاسرائيلية . كذلك خلق التناقض بين العمل الفدائي والانظمة ، وبين العمل الفدائي والجماهير التي تتعرض للقصف والغارات ليحاط العمل الفدائي بجو من العداء والرفض . وقد كان هذا المخطط الاسرائيلي يفرض عملية من التعبئة داخل هذه الانظمة ، تزيد فيها من قوتها العسكرية وتلجأ الى تسليح جماهيرها لمواجهة الاعتداءات الاسرائيلية التي تخفي وراءها أطماعا بالاراضي والمياه العربية موازية للرغبة في ضرب العمل الفدائي . ولكننا وجدنا بدلا من ذلك ، أن بعض هذه الانظمة قد استجاب لضغط التخطيط الاسرائيلي ، أكثر مما استجاب لدور العمل الفدائي في التصدي لهذا التخطيط . وأبرز الامثلة على ذلك : (١) النظام الاردني الرجعي الذي استغل قصف اسرائيل لمنطقة الاغوار لتعبئة سكان هذه المناطق تعبئة اقليمية حاقدة سعت جهدها للتفريق بين الفلسطيني والاردني . ثم بلغ هذا التخطيط ذروته في مجزرة ايلول . (٢) النظام اللبناني الذي سعى اثناء الاعتداء الاخير على جنوب لبنان الى الضغط على حركة المقاومة لتسحب قواتها من المنطقة . ومرة اخرى يطلب من العمل الفدائي ان يواجه الاحتلال الاسرائيلي وأن يحقق المعجزات حتى ينجو من النقد الذي يتعرض له ، وهو يواجه مهمة حماية نفسه والاحتفاظ بوجوده في لبنان قبل أن يواجه الاعتداءات الاسرائيلية . فهل نستطيع أن نتناسى هذه الامثلة العربية ونحن نقيم ونحاسب الثورة الفلسطينية ؟

صورة المستقبل

ان هذه المشكلات التي ذكرناها سواء على الصعيد العربي أم على الصعيد الاسرائيلي لا يمكن فصلها عن تحديد صورة مستقبل الثورة الفلسطينية . وفي تحديد هذه الصورة يجب أن ينصب التركيز مرة أخرى على الترابط النضالي الفلسطيني العربي من ضمن اطار الدور الفلسطيني الخاص الذي تحدثنا عنه ، ذلك ان تطور العمل الفدائي الفلسطيني مرهون في نظرنا بقضيتين : القضية الاولى : أن يتوقف تأمر الانظمة العربية على الثورة الفلسطينية ، اما خوفا من وجود السلاح في ايدي الجماهير واما خوفا من التيارات الجماهيرية المناضلة التي توجد حولها ، واما هربا من الاعتداءات الاسرائيلية ومن نتائجها . القضية الثانية : أن تنمو القوة العربية الذاتية باستمرار لتشكل قوة دعم فعالة للعمل الفدائي وقوة ردع أيضا للتهديد الاسرائيلي . في ظل هاتين القضيتين يمكن للعمل الفدائي ان ينمو . ومن الظلم الفادح أن يناقش نمو العمل الفدائي وأن تقيم نتائجه بعيدا عنهما ، اذ بمقدار ما تنمو القوة العربية الذاتية بمقدار ما ينعكس ذلك على النضال الفلسطيني مهيئا له ظروف الانطلاق الصحيح وظروف التوجه نحو الاهداف الحقيقية التي عليه أن ينشغل فيها بدل انشغاله في حماية نفسه .

ومن ضمن هذا الإطار العام ومن خلاله يمكن أن تحدد المهمات الأساسية للعمل الوطني الفلسطيني في المرحلة الراهنة : المهمة الأولى : هي مهمة النضال من أجل استعادة الموقع الذي خسرتة حركة المقاومة في الأردن بسبب جميع الاعتبارات التي تجعل من الأردن الموقع الطبيعي لانطلاق الثورة الفلسطينية سواء منها ما يتعلق بالعامل البشري أم الجغرافي أم الاقتصادي . المهمة الثانية : مهمة التواجد الفعال داخل الضفة الغربية وقطاع غزة . مع الأخذ بعين الاعتبار بأن تطوير العمل المسلح وتنميته في الأراضي المحتلة أصبح مرتبطا الى حد بعيد بضرورة العمل على مواجهة التخطيط الإسرائيلي الذي يعتمد على الأمور التالية: (١) دمج اقتصاد الأراضي المحتلة بالاقتصاد الإسرائيلي ليكون ذلك تمهيدا لاحتواء هذه المناطق وضمها نهائيا لإسرائيل . (٢) خلق طبقة من المتعاونين مع الاحتلال الإسرائيلي تتكون أساسا من الفئات المستفيدة من الاحتلال وتمثل في كبار المزارعين وكبار التجار . (٣) إجراء الانتخابات البلدية تمهيدا لاعتبار رؤساء البلديات المنتخبين حسب القانون الأردني الذي يفرض أن تكون الانتخابات مقتصرة على أصحاب الاملاك فقط (أي ٧ ٪ من السكان) ممثلين سياسيين للشعب الفلسطيني يتولون التفاوض مع العدو الإسرائيلي والخضوع لمطالبه . (٤) استيعاب الايدي العاملة في المشاريع العاملة في المشاريع الإسرائيلية تحت وطأة التهديد بالجوع ، لأبعاد هذه القطاعات الفتيرة عن التعامل مع حركة المقاومة والانضمام الى صفوفها . (٥) الإصرار على سياسة الجسور المفتوحة ، كي تبقى هذه الجسور صلة وصل بشرية واقتصادية بين إسرائيل والبلاد العربية .

ان مواجهة هذا التخطيط الإسرائيلي مهمة فلسطينية وعربية وليست مهمة فلسطينية فقط . المهمة الفلسطينية في هذه المواجهة تتوجه نحو بناء التنظيم السياسي داخل الأراضي المحتلة لكي يتولى توعية الجماهير بأهداف التخطيط الإسرائيلي ، ولكي يتولى تنظيم نضالات جماهيرية ضد هذا التخطيط تستعمل فيها أساليب النضال المعروفة كافة، من المناشير الى التظاهرات والاضرابات والعصيان المدني ليقود كل ذلك الى خلق مناخ ملائم لنمو العمل العسكري وتوفير ظروف الحماية له . اما المهمة العربية ، فهي بالإضافة الى ما ذكرناه سابقا ، تتطلب التفكير من جديد بسياسة الجسور المفتوحة ومدى استفادة إسرائيل منها في تجنب تبعات المسؤوليات الاقتصادية في الأراضي المحتلة ، مع ما يترتب على ذلك أيضا من تعامل اقتصادي عربي مبطن مع إسرائيل من خلال وسطاء من كبار التجار والتمولين . ولا ينفصل عن هذه المهمات العربية ان تتوقف محاولات التدخل ومسامحي فرض المواقف الاستسلامية على الثورة الفلسطينية حتى تنسجم مع الاستراتيجية العربية الرسمية ، خاصة بعد ان تبين بالدليل القاطع بعد خمس سنوات من الاحتلال عبث كل المحاولات التي بذلت للوصول الى تسوية سياسية مع إسرائيل وبروز نوايا الدمج للأراضي المحتلة بشكل واضح في تصريحات المسؤولين الإسرائيليين .

مهمات الشباب العربي :

في ضوء هذه المهمات الفلسطينية والعربية التي تحدد صورة المستقبل بالنسبة للثورة الفلسطينية نستطيع أن ننقل انطلاقا منها لتحديد مهمات الشباب العربي في دعمها . وهي مهمات تنقسم في تصورها الى قسمين أساسيين : مهمات مباشرة في دعم الثورة ، ومهمات غير مباشرة ، ولكنها لا تقل عن الأولى قيمة وأهمية . **المهمات المباشرة** يمكن ان نلخصها بما يلي : (١) العمل على توعية الجماهير العربية بقضايا الثورة الفلسطينية والمصاعب التي تواجهها ، بطريقة علمية واقعية ، لا تميل نحو المبالغة كما حدث في السابق ولا تميل نحو التشاؤم كما يحدث الآن . (٢) التطوع في صفوف الثورة الفلسطينية لخلق الصلة اليومية بين القضية الفلسطينية والوضع العربية حتى يكون

هذا الاسهام المباشر تجسيدا اوليا لكون معركة فلسطين معركة الامة العربية (٣) المطالبة بالتدريب والتسلح وخاصة في دول المواجهة لتساهم قوى الشباب في رفع درجة الاستعداد لمواجهة اسرائيل وصولا الى المرحلة التي يكون فيها الشعب بأكمله موضوعا تحت السلاح للاسهام في عملية التحرير . (٤) النضال داخل كل قطر عربي من أجل تنظيم الاطار الجماهيري الداعم للثورة الفلسطينية بحيث يكون هذا الاطار المنظم اداة قادرة على التحرك في اللحظة المناسبة لحماية الثورة من اي ضربات تتعرض لها . (٥) وفي اللحظة الراهنة تقع على عاتقكم جميعا مهمة مباشرة تستدعي العمل الدؤوب والسريع لدعم الثورة الفلسطينية في لبنان ، لكي تقطع الطريق على المحاولات الجارية لالغاء وجود العمل الفدائي هناك ، من خلال تكتيك شبيه بالتكتيك الذي نفذ من قبل في الاردن .

هذه هي المهمات المباشرة التي نرى ان الشباب العربي قادر من خلالها على الاسهام في دعم الثورة الفلسطينية . أما المهمات غير المباشرة ، والتي نعتبرها المهمات الاساسية في هذه المرحلة فيمكن ان نلخصها فيما يلي : النضال داخل كل قطر عربي من أجل تطوير اوضاع ذلك القطر بحيث يتجه بكل طاقاته لبناء القوة العسكرية والاقتصادية التي تجعله قادرا على الصمود في وجه التحدي الاسرائيلي ، كمرحلة أولى من أجل الاسهام الجدي في معركة التحرير . وفي عملية النضال من أجل هذا الهدف تبرز مهمات متعددة أهمها : أ - مواصلة النضال من أجل ضرب المصالح الامبريالية في الوطن العربي سواء الاقتصادية منها أم العسكرية . ب - ارساء عمليات التنمية الاقتصادية على أسس تخدم متطلبات المعركة الطويلة الامد مع اسرائيل . ج - اطلاق حرية التنظيم امام الجماهير العربية لنصبح قوة فاعلة في المعركة ، لخلق حالة تتجاوز ما كان الوضع عليه عشية هزيمة حزيران اذ كانت الجماهير بكل زخمها قوة معطلة عن المشاركة في المعركة . د - رفع درجة التنسيق والتعاون والتوحيد بين القوى العربية-الوطنية الى مستوى يؤهلها لمواجهة الخطر الاسرائيلي . هـ - النضال لتجسيد موقف سياسي عربي يخدم المطالب السابق ، ويتخطى عن الاعتقاد بامكانية تراجع اسرائيل بالحوار والاساليب الدبلوماسية .

ان صورة نضال يتجه نحو هذه الاهداف قادرة في اعتقادنا على ان توفر مناخا صحيا لنمو حركة التحرر العربية ، تنفيذ منه الثورة الفلسطينية لتنمية طاقاتها وامكانياتها من أجل تحقيق المهام الكبيرة الملقاة على عاتقها . واذا كان هناك مجال لان نبدأ من هذا اللقاء الذي يمثل فيه شباب الوطن العربي باجراء عملي يكون بداية لترجمة هذه المهمات فاننا نقترح على لقائكم هذا ان يبحث في ايجاد صيغة تنظيمية تنبثق عن مؤتمر الشباب العربي ، لتؤمن صلة اتصال دائمة في ما بينهم لتكون اطارا لتوحيد جهودهم وتنسيق نضالهم دعما للثورة الفلسطينية وللنضالات العربية .

لقاء مع النقابيين الفلسطينيين القدامى

اعداد

بلال الحسين

جرى هذا اللقاء مع النقابيين الفلسطينيين القدامى ، والمدعوين لحضور المؤتمر الرابع للاتحاد العام لعمال فلسطين ، المنعقد في دمشق في ٢٠/٨/١٩٧١ في مقر الاتحاد العام لنقابات العمال في سورية ، وحضره كل من :

١ - نصري الحلو ، ٢ - فؤاد شما ، ٣ - ابراهيم عليان ، ٤ - عبدالله قنديل ، ٥ - المرحوم حسني صالح الخفش . ادار اللقاء بلال الحسين من مركز الابحاث في ٢٢/٨/١٩٧١ . واعتبرت الجلسة جزءا من اجتماعات اللجنة النقابية للمؤتمر .

١ - حديث السيد نصري الحلو :

س : هل يمكن ان تروي لنا ذكرياتك عن الحركة العمالية التابعة لجمعية العمال العربية الفلسطينية ؟

ج : انتسبت لجمعية العمال العربية الفلسطينية لاول مرة سنة ١٩٢٥ ، وكنت اعمل في ذلك الوقت بسكة حديد فلسطين في مدينة حيفا . في ١٩٢٣ طلب بعض العاملين في سكة حديد فلسطين تأسيس ناد ليكون مقرا لاجتماعهم وبحث بعض المشاكل العمالية وامكان حلها . ولكن تطورت الفكرة من تأسيس ناد الى طلب ترخيص بانشاء جمعية سميت « جمعية العمال العربية الفلسطينية » . وبناء على سياسة حكومة الانتداب آنذاك ، والتي كانت سياستها حسب وثيقة الانتداب تقوم على مساعدة الصهيونية في بناء وطن قومي ، ووجه الطلب بمعارضة ومماطلة ، لان حكومة الانتداب كانت ضد أي نوع من التنظيمات العمالية لشعب فلسطين . وبعد الحاح واصرار ومراجعات متعددة ، استطاع الاعضاء المؤسسون أن يأخذوا ترخيصا رسميا بانشاء الجمعية عام ١٩٢٥ . وكانت الجمعية في ذلك الوقت مقتصرة على نقابة عمال سكة الحديد في حيفا (العمال فقط وليس الموظفون) ، وكانت امكاناتها المالية قليلة جدا ، اذ لم يكن لديها عدد كبير من الاعضاء . كان عدد الاعضاء في ذلك الوقت نحو ٣٠ عضوا فقط .

س : من كان يقود الجمعية في ذلك الوقت ؟

ج : اذكر منهم الاخ عبد الحميد حيمور ، والاخ سميد قواص ، والاخ عيد حيمور شقيق عبد الحميد ، والاخ الياس نصار الملقب بالياس الزوك ، والحاج حسين نصار .

س : في فترة التأسيس من كان متفرغا للعمل في الجمعية ؟

ج : لم يكن هناك أحد متفرغ . كان العمل موزعا على الجميع ، ويتم انجازه بعد الانتهاء من الدوام ، حيث كنا نلتقي في مقر الجمعية ونتداول بالقضايا التي تهمننا . لم يكن هناك كاتب متفرغ او موظف او كناس ، وكان الاعضاء انفسهم يقومون بهذه الاعمال . وبعد فترة وجدنا من الضروري أن يتواجد شخص ما في المكتب اثناء النهار ، تحسبا لاي

طارىء قد يحدث ، أو لاستقبال عامل يريد ان يراجع في امر ما ، فأحضرنا المرحوم سامى طه ليقوم بهذه المهمة .

س : ما هي ذكرياتك عن الاحداث المهمة بعد التأسيس ؟

ج : لم يطل عملي بسكة الحديد . تركت العمل بعد فترة قصيرة وغادرت مدينة حيفا ، ثم انقطعت عن النشاط العمالي ، لانه لا يوجد تنظيم عمالي في المنطقة التي ذهبت اليها . وقد عدت الى حيفا في بداية الاربعينات ، لذلك أستطيع التحدث عن هذه الفترة . ولكن أذكر ان اول اضراب عمالي كان في « شركة نيشر » ، وهي شركة يهودية ، وكان العمال العرب فيها ينقلون التراب لشركة اسمنت . وقد حصل العمال نتيجة الاضراب على بعض الحقوق . ولان الحركة العمالية كانت في بدايتها ، فقد كان الحصول على أي مطلب يشكل مكسبا هاما .

س : ماذا كانت مطالب الاضراب ؟

ج : مطالب عمالية ، اي زيادة اجور ، تحديد ساعات عمل . . الخ .

س : هل طالب العمال بتشريع نقابي ؟

ج : لا . لم يكن هناك تشريع نقابي . ولم يكن واردا لدينا ان نطالب منذ البداية بتشريع نقابي .

س : لننتحدث الآن عن فترة الاربعينات ؟

ج : منذ بداية الاربعينات ، وقعت عدة احداث أدت الى تقوية جمعية العمال وتثبيت وجودها ، كما أدت الى اجبار حكومة الانتداب على الاعتراف بوجودنا ، وأخذ جهات نظرنا يعين الاعتبار . فبالرغم من الترخيص الرسمي الذي كان لدينا ، الا أنهم كانوا في البداية يتجاهلون وجودنا بضغط من زعماء منظمة الهستدروت التي كان على رأسها في ذلك الوقت دافيد بن غوريون وجولدا مائير .

في تلك الفترة ، اي فترة الحرب العالمية الثانية ، كان هناك عدد كبير من معسكرات العمل التابعة للجيش البريطاني في فلسطين ، وكان عدد العمال في هذه المعسكرات نحو ١٦٥ ألفا* منتشرين في جميع انحاء فلسطين ، وكان العمال العرب يشكلون الاكثرية ، ولكنهم كانوا يفتقدون التنظيم ، ويعاملون بتمييز واضح لصالح العمال اليهود . في عام ١٩٤١ التحقت بعمل في معسكر هندسة للجيش في منطقة الطيرة ، معسكر رقم ١٥٣ ، وكانت مهنتي «ساين رايتر»** ، واعطاء فكرة عن طبيعة توزيع المهام داخل هذا المعسكر ، يوضح الفرق في معاملة العمال العرب ومعاملة العمال اليهود ، فقد كان القسم الاكبر من الاعمال الفنية بيد اليهود ، اما الاعمال العادية فكانت كلها تعطى للعمال العرب . واذكر انه كان يوجد ٣٦ نجارا بينهم نجار عربي واحد ، ونحو ٤٠ بناء ومورقا بينهم عربي واحد ، و٧ عمال تمديدات صحية بينهم مساعد عربي واحد ، و١٠ - ١٢ دهانا وسائين رايترز بينهم عربي واحد هو أنا . كنا نشعر بخطورة هذا التمييز ، وبخطورة افتقاد التنظيم بيننا ، فأخذنا بتوجيه من جمعية العمال بتشكيل نقابات محلية في كل معسكر . ومن النقابات المحلية في كل منطقة شكلنا لجانا مركزية ، ومن اللجان المركزية شكلنا لجنة قطرية واحدة ، تمثل كل عمال المعسكرات في فلسطين ، وكنت أنا سكرتير هذه اللجنة منذ عام ٤٥ وحتى سقوط مدينة حيفا . وكانت هذه اللجان كلها منتخبة بشكل حر ورسمي . وكانت اللجنة القطرية تعقد اجتماعاتها في مقر الجمعية بحيفا . وأقول بصراحة ان الذي دفعنا للعمل بسرعة لتنظيم عمال المعسكرات كان نشاط

* يحتاج هذا الرقم الى تدقيق .

** مهنة الـ « ساين رايتر » هي الرسم الفني .

اليهود وتجمعهم وتنظيمهم القوي ، وبشكل خاص رغبتهم في ضم أكبر عدد ممكن من العمال العرب الى مؤسساتهم الصهيونية ، اذ كانوا يهيمون دائما في آذان العمال العرب ان مؤسساتهم قادرة على ان تحقق لهم مطالبهم ، وان هذه المؤسسات لا علاقة لها بالسياسة .

س : ما هو نوع المطالب التي كنتم تعملون لتحقيقها داخل المعسكرات ؟

ج : كنا نهتم بكافة شؤون العمال . اذا طرد بعض العمال نتدخل ، اذا اعطي لعمال عربي فني ٢٥ قرشاً في اليوم ، بينما عامل يهودي اقل منه مهارة يأخذ ٥٠ قرشاً فتدخل . اذا حصلت تنسيقات ، وفصل العمال العرب وبقي اليهود نتدخل . وهكذا ، حتى بدأ عمالنا يشعرون ان هناك من يطالب لهم بحقوقهم ، وكان لذلك اثر في تخفيف الضغط عليهم .

س : هل حصل اي تصادم بين تنظيمكم وتنظيم الهستدروت داخل المعسكرات ؟

ج : في عام ١٩٤٢ او عام ١٩٤٣ (لا اذكر) عقدنا اول مؤتمر لعمال المعسكرات ، واتخذنا في هذا المؤتمر قرارا هاما جدا يقول بأنه لا يحق لاي جهة ان تتكلم باسم العمال العرب في فلسطين ، الجمعية العمال العربية الفلسطينية . وفي تلك الفترة كان الهستدروت يسعى لتنظيم اضراب عام داخل المعسكرات . وكانت دعائيتهم لانجاح هذا الاضراب تركز على القول بأن الاضراب هدفه عمالي ولا دخل له بالسياسة . ونحن نريد غلاء معيشة لان الاسعار ترتفع باستمرار ، واجور السكن زادت بنسبة كبيرة ، ولا يوجد ضمان في حالة المرض ، وكل ما يمكن ان يؤثر على عواطف العمال . ولكن الواقع ان الهدف من الاضراب كان هدفا سياسيا خالصا . بعد ان عقدنا مؤتمرا ، زاد اليهود من نشاطهم ، وعقدوا مؤتمرا اتخذوا فيه قرارا بتقريب موعد الاضراب ليعلن في ١٠ نيسان ١٩٤٣ ، وكان الهدف من تقريب الموعد ، ان يتم الاضراب اثناء التخصر لمؤتمر العمال العالمي* ، الذي كان مقررا عقده بعد فترة ، على اساس ان نجاح اضراب يضم العرب واليهود تحت اشراف الهستدروت سوف يؤدي الى اختيارهم كممثلين لكل عمال فلسطين في المؤتمر العالمي ، ويظهرهم امام العالم على انهم يمثلون شعب فلسطين ، ويكرسون بذلك دعائيتهم التي كانت تقول بأنه لا يوجد أي خلاف بين الحركة الصهيونية وبين شعب فلسطين ، وان الخلاف كله منحصر بالكوات والافندية .

قررنا مواجهة دعوة الهستدروت للاضراب ، لتفشيل هدفهم السياسي من وراء ذلك . وبدانا حملة توعية في النهار والليل وفي كل مكان ، خاطبنا كل عامل حسب فهمه ، عامل نتحدث معه من ناحية عاطفية ، عامل آخر من ناحية دينية ، والذي كنا نلمس لديه شيئا من الوعي نخاطبه من الناحية الوطنية ونشرح له القصد من الاضراب . ولتدعيم رأينا كنا نقول للعمال العرب « قولوا للعمال اليهود ، نحن مستعدون للاشتراك في الاضراب بشرط واحد ، ان نوزع منشورا واحدا يدعو للاضراب موقعا من جمعية العمال ومن الهستدروت » ، ولكن لجان الهستدروت المحلية كانت ترفض دائما هذا الطلب ، ويكتشف العمال العرب صحة رأينا ، ويدركون ان الهدف من الاضراب كان سياسيا وليس عماليا . كان هناك بعض العمال اليهود المعتدلين ، الذين وافقوا على حقنا في التوقيع على المنشور الذي سيدعو للاضراب ، ولكنهم كانوا قلائل جدا ، ولم يكن صوتهم مسموعا . وأخيرا جاء يوم الاضراب دون ان نصل نحن والهستدروت الى أي اتفاق . وكنا واثقين من انفسنا ، ومن الجهود التي بذلناها ، ونسقتنا عن طريق اللجان المحلية ان يحل عامل عربي مكان كل عامل يهودي يشترك في الاضراب ، حتى لا يكون هناك توقف عن العمل في أي مجال . وبعد مضي وقت قصير على بدء العمل جاء ضباط

* مؤتمر النقابات الدولي - عقد بلندن بتاريخ ٦ شباط ١٩٤٥ .

المراقبة لاعداد تقرير عن الاضراب الذي لم يكن له اي اثر ، حتى ان قسما ضئيلا من العمال اليهود كانوا يشاركون في العمل . واذيع في اليوم التالي تقرير يقول ان الاضراب قد غشيل ، وان العمال العرب عملوا بنسبة ١١ ٪ . والسبب في ذلك ان كافة العمال العرب المجازين بشكل عادي أو لاسباب مرضية ، قطعوا اجازاتهم وشاركوا بالعمل في ذلك اليوم . وكان ذلك نجاحا حقيقيا لنا ، وفشلا ذريعا للهستدروت . وعلى اثر ذلك اعلمتنا قيادة الجيش انها تعترف بجمعية العمال العربية الفلسطينية الممثلة الوحيدة للعمال العرب ، وطلبت تشكيل لجنة تجتمع اسبوعيا مع الضابط المسؤول لدراس قضايا العمال العرب ومشاكلهم .

س : ماذا كان رد الفعل داخل الهستدروت على هذه النتيجة ؟

ج : برز في صفوفهم تذمر حاد ، لان قيادتهم كانت تعرض عليهم تقارير تفيد ان الاضراب سيتجح ، وان موقف العمال العرب ليس مهما ، فهم لا يهتمون بغير لقمة العيش ، والمعارضة تأتي فقط من البكوات .

دعت الهستدروت الى اجتماع خاص لبحث الموضوع ، ووجهت دعوة الى الجمعية لارسال وفد عنها لحضوره ، وفهمنا فيما بعد ان هذه الدعوة وجهت بضغط من العمال اليهود ، الذي شكوا بأقوال زعمائهم ، وأرادوا ان يفهموا الحقيقة ، واضطرت قيادة الهستدروت أن تلبى طلبهم . تشكل الوفد بموافقة جمعية العمال (معارضة من أعضاء الندوة الآخرين) . اجتمعت مع المرحوم سامي طه ووافق على ذهابنا . في قاعة المؤتمر اخبرونا ان كل خطيب سيتحدث بلغته ثم يجري القاء ترجمة لها . تحدث أحد العمال اليهود بالعبرية وفهمنا كلامه تماما ، وحين ترجمت كلمته للعربية كانت الترجمة مغايرة تماما لما قال . ولذلك حين اعطيت الكلمة لنا سعد مندوبنا الى المنصة ، وبدأ يتكلم بالعبرية . قاطعوه وطلبوا منه ان يتكلم بالعربية فرفض قائلا انكم تقدمون ترجمة خاطئة ، ولا تريدون لعمالكم ان يفهموا الحقيقة ، ولكنهم اصروا على الرفض ، فحدث لفظ شديد فيما بينهم داخل القاعة تطور الى مشادة جرح فيها حوالي ١٥ عاملا يهوديا ، وانسحبنا على اثر ذلك من الاجتماع . وبعد هذا الحادث طلبوا رسميا من الجمعية ان يكون هناك تعاون مشترك بين المنظمات العمالية اليهودية والعربية لحل مشاكل العمال ، واضطروا لأول مرة ان يزوروا مقر الجمعية للاجتماع بنا . وكان هذا تحظيما لفرورهم .

س : هل كان لكم في تلك الفترة نشاط سياسي ؟

ج : الحقيقة ... اننا لم نكن في ذلك الوقت نقوم بأي نشاط سياسي ، ولكن عملنا بحد ذاته كان عملا سياسيا أكثر من عمل السياسيين . وقد نجحنا فيه الى حد ان اجرنا القيادة العامة للجيش البريطاني في عام ١٩٤٧ ان تستدعينا للاجتماع مع القائد العام للجيش البريطاني في فلسطين . واذكر من أعضاء الوفد في ذلك الوقت جمال عقاد ، وشفيق دلال وأنا ، ولا اذكر بقية الاسماء ، وحضر الاجتماع أيضا وفد من العمال اليهود . وقد طلبوا منا ان يكون الحديث باللغة الانجليزية وبدون ترجمة ، بينما سمحوا للوفد اليهودي ان يتحدث بالعبرية مع الترجمة . وقد اعترضنا على ذلك وطلبنا ان يكون حديثنا باللغة العربية ، وحين رفضوا طلبنا انسحبنا من الاجتماع ، ولم نكد نخرج من باب القاعة حتى استدعونا من جديد ووافقوا على ما طلبناه .

س : ماذا كان الهدف من هذا الاجتماع ؟

ج : بحث المشاكل العمالية : الاجور - التعويض - التثبيت . وقد اضطروا لدعوتنا بسبب قوة تنظيمنا ، اذ بدأت نظرتهم لنا تتغير بعد ان كانوا يعتقدون ان التنظيم والاتحاد بين العرب امر مستحيل .

س : كيف كانت علاقتكم مع الاحزاب السياسية القائمة آنذاك ؟

ج : لم تكن ننتمي لاي حزب ، ولم تكن نأخذ رأي أي حزب .

س : اثناء الاضرابات العمالية هل كانت الاحزاب تؤيد اضراباتكم ومطالبكم ؟

ج : هنا من الضروري أن أوضح اننا كنا على خلاف مع الاحزاب في موضوع الاضرابات . كانوا يطلبون الاضراب لسبب من الاسباب ، ويسعون لتنفيذه بشكل مرتجل فكنا نعارض الاضرابات المرتجلة . في إحدى المرات دعت الاحزاب الى اضراب يستمر ٦ ايام ، فعارضنا نحن الفكرة ، واقترحنا عليهم ان يضرب العمال بصورة رمزية مدة نصف ساعة فقط ، على أن نأخذ من كل عامل أجر نصف يوم ، وقد نفذ الاضراب حسب اقتراحنا بالرغم من معارضتهم ، ولم يشمل العمال فقط ، بل شمل اصحاب المحلات ايضا ، وقدمنا على اثره مبلغا كبيرا من المال للهيئة العربية العليا .

س : هل عقدت مؤتمرات أخرى لعمال المعسكرات بعد المؤتمر الاول الذي اثمرت اليه ؟

ج : عقد مؤتمر آخر لعمال المعسكرات ، بعد انعقاد المؤتمر الاخير للجمعية في عام ١٩٤٧ . ولكن لا أذكر تاريخه بالضبط ، ولا أذكر شيئا من مقرراته . وانتخبني الاعضاء مستشارا دائما للمؤتمر ، ولم يكن الاخ سامي طه مرتاحا لذلك ، وكان يفضل أن أبقى أمين سر اللجنة القطرية . وبعد عام ١٩٤٨ ، بعثت من بيروت برسائل الى الحكومة البريطانية ، حول تعويضات مستحقة لبعض عمال المعسكرات ، وتلقيت اجابات عليها ، ثم توقفت عن متابعة هذا الموضوع* .

س : هل كانت لكم علاقة مع « جمعية العمال العرب » في يافا التي أسسها ميشيل متري ؟

ج : عندما عقد مؤتمرنا في يافا عام ١٩٤٣ كان لعمال المعسكرات فقط ، ولهذا السبب لم تدع هذه الجمعية لحضوره . اما ميشيل متري فقد كان قبل اغتياله على صلة وثيقة بالجمعية الرئيسية في حيفا ، ولكن جمعيته انتهت بعد اغتياله .

س : وجورج منصور ... ألم يستطع احياؤها بعده ؟

ج : لم يستطع أن يحييها ، مع انه كانت لديه روح عمالية عالية . كان يعيش في مصر وعندما عاد منها أراد أن يطبق النظام الاشتراكي بنفسه ، ففتح بالمال القليل الذي يملكه مصنعا للاحذية ، طبق فيه على العمال النظم الاشتراكية التي كان يؤمن بها . وانتهى به الامر الى الافلاس .

٢ — حديث السيد فؤاد ثما :

س : ما هي الفترة التي ترغب بالحديث عنها ؟

ج : أنا سأحدث عن فترة ١٩٤١ ، لانني في ذلك العام التحقت بالعمل في ورش معسكرات الجيش البريطاني كعامل خياطة . كان التنظيم العمالي في ذلك الوقت ناشطا ، وجمعية العمال العربية الفلسطينية تضم عدة نقابات ، ولها ايضا عدة فروع . فسكة الحديد ، ومعامل الدخان ، والبلديات ، كان عمالها جميعا منتسبين للجمعية . وبدءا من عام ١٩٤٠ ، وهو العام الذي اقيمت فيه ورش المعسكرات في الجيش ، أصبح عمال المعسكرات ايضا جزءا من الجمعية . وقد اتسع نطاق هذه المعسكرات بسبب ضخامة الجهود الحربي في ذلك الوقت ، وكانت تجمعاتها الرئيسية حول مدن غزة وعكا وحيفا التي كانت تضم أكبر عدد من المعسكرات .

* أضيفت بعد لقاء شخصي في بيروت يوم ١٣/١٠/١٩٧١ .

س : أين كان مركز عملك بالضبط ؟

ج : أنا التحقت بالعمل في معسكر « كيشون » عند مدخل حيفا ، وكانت الورشة تضم نجارين وخياطين وكندرجية وسروجية ، ومع تطور العمل نقل قسم الخياطة الخاص بنا الى معسكر يقع بعد مصفاة النفط (الريفاينري) ، ثم نقلونا الى معسكر خاص لللبسة (خياطة - تصليح - رتي كزات ... الخ) ، وهذا المعسكر كان يضم ١٢٠٠٠ عامل وعاملة من العرب واليهود .

س : كيف بدأت تجربتكم بالتنظيم النقابي داخل المعسكرات ؟

ج : في الفترة التي اتحدث عنها ، تكاثرت العمال العرب بشكل كبير داخل المعسكرات . وكانت الهستدروت ناشطة بشكل واضح ، وهدفها السيطرة على التنظيم العمالي في المعسكرات . وردا على هذه المحاولات بدأت الجمعية تتصل بالعمال العرب لبحث الوضع معهم . وأذكر ان المرحوم سامي طه اتصل بمعسكرنا وطلب ان نرسل شخصين او ثلاثة لمقابلته في مقر الجمعية ، وقد ذهبت انا وشخص آخر اسمه يعقوب الارمني لمقابلته ، وحدثنا عن نمو عمال المعسكرات ، وافتقارهم للتنظيم ، وادعاء الهستدروت المتواصل انها تمثل كل عمال المعسكرات . ثم قال ان جمعية العمال منظمة ، ولها فروع في كل مكان ، ولها نشاطات عديدة توسع في شرحها ، ثم طلب منا ان نعمل لتنظيم عمال المعسكرات وضمهم الى الجمعية . وكانت الجمعية قد أجرت في الوقت نفسه اتصالات ببقية المعسكرات القريبة من حيفا ، وطلبت من بقية الفروع ان تجري اتصالات مماثلة في مناطقها . وعلى اثر هذه الاتصالات ، أمضينا فترة شهر تقريبا نبشر بالفكرة بين عمال المعسكرات حيث طلب منا بعد ذلك ان نجري انتخابات في كل معسكر ، لاختيار مندوبين الى المؤتمر الذي قررت الجمعية عقده لعمال المعسكرات . وقد أجرينا الانتخابات بشكل حر ، وكان كل مندوب يحبل تفويضا رسميا موقعا يخوله الحديث باسم عمال المعسكر الذي ينتمي اليه .

عقد المؤتمر في يافا عام ١٩٤٢ كما ذكر الاخ نصري الطو ، وكان يمثل نحو ٨٠ - ٨٥ بالمائة من عمال المعسكرات في فلسطين ، ولم يستثن من حضوره الا المعسكرات البعيدة التي لم يكن الاتصال بها ممكنا (جنوب رفح مثلا) . وكان المؤتمر ناجحا مئة بالمائة ، ومن قراراته التي اذكرها : ١ - لا يحق لاي هيئة عمالية ان تتطرق باسم العمال العرب الفلسطينيين غير جمعية العمال العربية الفلسطينية . ٢ - المساواة بالاجور بين العامل العربي والعمال اليهودي . ٣ - طلب مقابلة مع المندوب السامي البريطاني لشرح القرارات له والبحث في كيفية تنفيذها . ٤ - انشاء تنظيم قوي لجمعية العمال العربية الفلسطينية في اوساط عمال المعسكرات وقرارات اخرى لا اذكرها ، صدرت كلها في كراس رسمي .

وبعد انتهاء المؤتمر بدأنا في تنفيذ القرارات التنظيمية ، فأجرينا انتخابات داخل كل معسكر لانتخاب لجنة محلية ، ثم اجتمعت اللجان المحلية وانتخت لجنة تنفيذية اسمها « اللجنة التنفيذية لعمال المعسكرات » ، وكانت تضم على ما أذكر ٩ اشخاص منهم : نصري الطو - نديم موسى - وليد سلطان - عبد الزحمن صالح - فؤاد شبا ، وأجرت اللجنة التنفيذية انتخابات مكتب لها ، وانتخت امين سر للجنة التنفيذية * . عندما اكتمل تنظيمنا واكتسب صفته الشرعية شكلنا وفدنا لمقابلة المندوب السامي برئاسة المرحوم سامي طه وعضوية كل من خليل شنير وفؤاد شبا . وقد ذهبنا ثلاثتنا

* يلاحظ التعارض في ذكر بعض الوقائع بين الاخ فؤاد شبا والاخ نصري الطو فيما يتعلق بالهيكل التنظيمي ، وبإماتة سر اللجنة التنفيذية .

الى القدس بناء على موعد رسمي . ولكن قبل حلول الموعد بيوم او يومين ابلغنا باعتذار المدوب السامي عن حضور الاجتماع بسبب مرض او سفر مفاجيء (لا اذكر) وانه غوض السكرتير العام لحكومة فلسطين ان يجتمع معنا . وقد تم الاجتماع في عمارة الملك داوود في القدس ، وكان يضم مفتشي دوائر العمل في فلسطين وكلهم من البريطانيين ، واثنين او ثلاثة من المترجمين العرب . وقد عرضنا عليهم مقررات المؤتمر ، وطلبنا ايضا ترخيصا باصدار صحيفة كانت الجمعية قد طلبت ترخيصها من قبل .

عندما عرضنا موضوع مستوى الاجور العام ، وموضوع المساواة في الاجور بين العامل العربي والعامل اليهودي ، قالوا ان السبب يعود الى ان العامل اليهودي يعيش في مستوى افضل من العامل العربي (مع اعترافهم بان العامل العربي ينتج أكثر) . وطبعاً حصل نقاش طويل حول هذه النقطة ، احتد على اثره السكرتير العام للحكومة وبدأ يقول : انتم لا تهتمون لغير المادة . انكم تنسون ان جيوشنا تحارب وتحميكم من النازية وتسون ان شبابنا يموتون للدفاع عنكم ، وتسون ان كل مواردنا تستهلك في الحرب من أجل ذلك . وقد طلبت الاذن بالكلام للرد على هذا الحديث وقلت : اذا كنتم تحاربون بالنيابة عنا فنحن ليس لنا مصلحة في هذه الحرب ، لانها حرب بين مبدئين متصارعين هما النازية والحلفاء ، وانتم الذين فرضتم علينا ان نوجد داخل هذا الصراع ، وكانت النتيجة اننا اكتونينا بنار الحرب وما ولدته من خراب ودمار وغلاء معيشة . وهنا تدخل أحد المترجمين مشيراً لي بيده انني تجاوزت الحدود في هذا الكلام ، فقلت له انت مترجم ومهمتك الترجمة بدون تعليق .

ركزنا في الاجتماع على موضوع الاعتراف ، وكان هذا اكثر طلب نهتم به ، لان الهستدروت كانت تدعي آنذاك انها تمثل العمال العرب . وخرجنا من الاجتماع بوعد بالنظر في طلباتنا وفي قرارات مؤتمرنا .

س : ماذا كان رد الفعل الاسرائيلي على مؤتمركم وقراراته ؟

ج : على ضوء قرارات المؤتمر ، وعلى ضوء النشاط التنظيمي الواضح الذي أسفر عنه ، ساد في اوساط الهستدروت شعور بان ما بنوه في سنين تهدم في فترة قصيرة . وقد تحدث الاخ نصري عن هذه القضية ، ومن المفيد ان اعرض ما اذكره انا ايضا حول الموضوع نفسه لاننا عاصرناه معا . كان هدف الهستدروت الاساسي ضرب تنظيمنا داخل المعسكرات . وكان موضوع الاضراب هو المدخل ، فدعوا الى عقد مؤتمر في تل ابيب ، وقاموا بنشاط واسع لانجاحه ، ولاشراك ممثلين عن العمال العرب به ، بحجة — كما قال الاخ نصري — ان المؤتمر سيبحث في القضايا النقابية فقط . وازيد على ما قاله الاخ نصري ، انهم لجأوا الى اسلوب الاغراء الرخيص لاقتناع بعض العمال بالحضور ، فكانوا يقولون انكم لن تخسروا شيئاً ، فاجرة يوم المؤتمر ستدفع ، واجرة الطريق ستدفع ، وايام الاضراب ستدفع ، وكذلك يمكن قضاء وقت طيب في تل ابيب مع الاصدقاء والصدقات . وقد كان ردنا على هذه الاغراءات قاسياً في أكثر من مناسبة . وحين عقد المؤتمر المذكور ، بعد مؤتمرنا في يافا بشهر او بثلاثة اسابيع ، اتخذوا قراراً بالاضراب ، وعينوا يوماً محدداً له ، وكانت المطالب المعلنة تتناول مستوى الاجور وغلاء المعيشة ... الخ ، وبدأوا بعد المؤتمر بنشاط واسع لانجاح الاضراب .

قال الاخ نصري انهم وجهوا دعوات للجمعية لحضور الاجتماع في تل ابيب . ولكن ما اذكره ان الدعوات كانت شخصية وليس باسم الجمعية ، وقد ابلغوني شخصياً بالدعوة في مكان عملي . وحسب عادتنا التقينا مساء ذلك اليوم ، نحن أعضاء اللجنة التنفيذية لعمال المعسكرات ، في مقر الجمعية بحيفا . كنا كما اذكر يومها خمسة اشخاص : عبد الرحمن صالح ، نديم موسى ، وليد سلطان ، نصري الحلواني . كان سامي طه

مختافرا ، فاستشترنا الاخ عبد الحميد حيمور بشأن تلبية الدعوة أو رفضها ، فقال انتم
اعضاء اللجنة التنفيذية ، وهذا من اختصاصكم ، فتصرفوا على ضوء مصلحتكم . وبعد
المشاورة قررنا حضور الاجتماع بصفتنا الشخصية .

كان يرأس الاجتماع في تل ابيب ، بن غوريون وأبا حوشي . افتتح بن غوريون
الاجتماع . قال ان الهدف منه تنفيذ اضراب يتعلق بالعامل العربي والعامل اليهودي ،
وليس له دخل بالسياسة . طلبت انا الكلام وقلت : نحن لنا تنظيم عمالي عربي ، وهو
الذي يمثلنا ، ولذلك نرفض ان يتخذ الهستدروت قرارا ويفرض علينا تنفيذه . ان
الهدف من ذلك تحطيم تنظيمنا العمالي العربي ، والاثبات للحكومة البريطانية المنتدبة
ان الهستدروت هو الذي يمثل العمال العرب ، وبناء على ذلك لا يمكن ان نوافق على
الاضراب . ثم أخذت اتلو عليهم قرارات مؤتمرنا في يافا .

حاول رئيس الاجتماع ايقافي عن الكلام فرفضت ، ودار جدل في القاعة بين مؤيدين
ومعارضين . وعندما انتهت ، ترجم كلامي الى اللغة العبرية ، ولكنني لاحظت ان
الترجمة كانت موجزة جدا ، فطلب زميل اخر لنا الحديث ، وفي نيته ان يتكلم بالعبرية
ردا على ايجاز المترجم ، ولكنهم رفضوا السماح له بالكلام ، وحصلت المشادة التي تكلم
عنها الاخ نصري . خرجنا من الاجتماع ، وعلمنا فيما بعد انهم قرروا الاستمرار في
الدعوة للاضراب ، وتأجيل موعد التنفيذ لمدة اسبوع . وبالمقابل تابعنا نحن اجراءاتنا
لافتشاله* .

س : ماذا كان موقف الادارة البريطانية من هذا الاضراب ؟

ج : لقد كان واضحا لنا منذ البداية ان التهيئة للاضراب من قبل الهستدروت تتم برضى
الضباط البريطانيين المسؤولين عن المعسكرات وبالتعاون معهم . وكان مندوبو
الهستدروت يعتقدون اجتماعات مع هؤلاء المسؤولين ، ويعقدون اجتماعات مع العمال
بالاتفاق مع الادارة . وهنا من المفيد ذكر واقعة حدثت معي شخصا . فقبل الاضراب
ببومين جاء الضابط المسؤول وهو بريطاني برتبة كابتن يرافقه بن غوريون و ٣ أو ٤
اشخاص من موظفي الهستدروت ، ونحو ١٠ من اليهود ، ورئاسة المعسكر باكملها .
اوقف الضابط العمل وبقي حوالي نصف ساعة يخطب بالعمال ، ويوجه لي التهم
والاهانات ، وقال في حديثه انني ابث دعاية عنصرية بين العمال ، وانني اعطل الانتاج،
والهستدروت تنظيم قديم وهو اساس العمل النقابي ، وجمعيتكم جديدة وضعيفة .
وخاطب العمال قائلا : غدا (اي يوم الاضراب) ستكون لديكم عطلة رسمية ، وبالامس
عملتم ساعتين اضافيتين واليوم ستعملون ساعتين ايضا ، وسيكون ذلك بديلا عن اجر
يوم الاضراب ، وما ينقص عن الاجر المعتاد سانسجله لكم على حسابي الخاص ، وآمل
ان اذهب غدا الى العزيزية (منتزه مشهور) والقاكم جميعا هناك ، عربا ويهودا . اما
الدعاية العنصرية التي ينشرها هذا (ويشير الي) وجمعيتي ، فلا تستمعوا اليها .
يجب ان تكونوا جميعا اصدقاء وتستمتعوا بعطلتكم .

كنت متضايقا جدا من هذا الحديث ، وخاصة ما يتعلق منه بالاتهامات التي وجهها
للجمعية ، فلما انتهى من حديثه طلبت الاذن بالكلام وقلت له ان كل معلوماتك عن
الجمعية معلومات خاطئة ، فجمعيتنا ليست جديدة ، وهي مؤسسة منذ عام ١٩٢٥ ،
شاطعني بحدة وقال : ارني عملا واحدا نظم في الجمعية منذ اكثر من عام . وقد كان
محقا في ذلك لان تنظيمنا كله كان حديثا ، ولكن الانقاذ جاء من احد العمال الذين كانوا

* يلاحظ التعارض في تحديد موعد هذا الاجتماع ، قبل الاضراب او بعده ، بين حديثي الاخ نصري الطور ،
وفؤاد شبا ، كذلك التعارض في لغة الحديث .

يعملون في سكة الحديد ، ويدعى محمد فايز . اذ وقف وقال انا منظم في جمعية العمال منذ ٥ سنوات ، ولم يكن من الضابط البريطاني الا ان رفسه بقدمه وخرج . عند خروجه استدعيت احد عمالنا ، وهو مصري يدعى الرئيس محمد ، واستحصلت له على تقرير طبي ، وكتبت رسالة طلبت منه ان يذهب ويسلمها لسامي طه ، واخبرته في هذه الرسالة بكل ما حصل ، وكيف ان الضباط البريطانيين يريدون ان يفرضوا علينا الاضراب فرضا . ويظهر ان المرحوم سامي اتصل بالجهات المختصة ، اذ جاعنا عند العصر موظف من الادارة ليخبرنا ان يوم غد هو يوم عمل ، وبعد فترة قصيرة عاد الضابط البريطاني نفسه ليسألني عن الشخص الذي اتصل بي والحديث الذي دار بيننا . فاخبرته انني سألته عما يجري في ورشتهم فقط ، ونقل لي انك طلبت منهم التوقف عن العمل غدا . فصبت ، ثم خاطب العمال قائلا : غدا سوف يكون يوم عمل . وتفسيري لذلك ان البريطانيين كان يهمهم نجاح الاضراب ليساعدوا الهستدروت في فرض سيطرته ، ولكن حين تنكشف الامور ، وتصل الى المسؤولين الكبار ، لم يكن من مصلحتهم اخذ موقف علني يكشف سياستهم ، ولذلك اصدروا اوامر معاكسة بعد ان اتصل سامي طه بالمسؤولين وعرض عليهم المعلومات التي ارسلتها له .

س : هل مارست مهمات اخرى في الجمعية ؟

ج : انا تركت العمل في المعسكرات قبل ان ينتهي وجودها في عام ١٩٤٧ . ويعود سبب تركي الى ان الجمعية اسست تعاونية لعمال الخياطة كان اسمها « جمعية الرخاء التعاونية » ، وفتحت التعاونية مشغلين للخياطة ، مشغلا للنساء ومشغلا للرجال . المشغل النسائي لم ينجح واقفل ، وبقي المشغل الرجالي ، وكان يضم ٢٥ شخصا من الخياطين والمساهمين وقد كلفنتي الجمعية ان ادير هذا المشغل بعد حوالي ثلاثة اشهر من تاسيسه بسبب استقالة المسؤول عنه ، وانقطعت بذلك صلتني بعمال المعسكرات ، وتابعت نشاطي من خلال الجمعية التعاونية ، واصبحت ممثلا لها في مجلس النقابات .

٣ - حديث السيد ابراهيم عليان :

س : متى التحقت بالعمل النقابي ؟

ج : مارست العمل النقابي بدءا من عام ١٩٤٤ من خلال نقابة عمال السكة الحديد في حيفا ، ولم يتم الالتحاق بببادة مني ، بل كان الفضل للجمعية في الاتصال بالفرع الذي كنا نعمل فيه ، وسكة الحديد كانت تضم ١٠ آلاف موظف وعامل ، وهي ذات اقسام عديدة ، اهمها قسم الورشة الذي كان يضم ٣ الاف مهني ، والواقع ان الورشة هي ام جمعية العمال العربية الفلسطينية ، اذ كانت مركز التنظيم الفعلي ، وكان يعمل بها ابرز اعضاء الجمعية ، عبد الحميد حيبور وسعيد القواص وعيد حيبور وعلي نصار . اما الاقسام الاخرى ، قسم الهندسة ، قسم الجرد ، قسم الحركة ، فقد كان التنظيم فيها شبه محدود ، لان نقابة سكة الحديد كانت مقتصرة فقط على عمال الورشة ، وخاصة في الاعوام ٤٢ او ٤٣ وحتى ٤٤ .

في عام ١٩٤٤ قامت الجمعية بالاتصال بقسم الجرد ، وهو القسم الذي يضم السواقين ، وطلبوا منا ان ننضم للنقابة ، وان ننتخب لجنة تمثلنا . وقد استجبنا للطلب وقمنا بانتخاب لجنة محلية (انتخابات الخط العريض ، والخط الضيق ، والخط الحجازي) وابلغنا الجمعية نتائج الانتخابات ، التي اختير منها ٤ او ٥ اشخاص ، كانوا كلهم شبابا صفارا في السن . وفي الواقع كان هناك ممثلون معتمدون لدى الجمعية كممثلين للسواقين في قسم الجرد ، ولكنهم لم يمارسوا اي نشاط منذ انتخابهم . وارادت الجمعية من وراء الانتخابات الجديدة ان تطعم القسم بدم جديد . وقد قامت الجمعية بمحاولات مماثلة في الاقسام الاخرى : قسم الحركة - قسم الهندسة ، واذكر انه تم

انتخاب زهير صالح وشقيقه وجباة من الموظفين في قسم الحركة ، وبذلك أصبحت معظم الاقسام في سكة الحديد بحيفا ممثلة داخل النقابة في عام ١٩٤٤ . وكان للسواقين داخل هذه النقابة اهمية خاصة ، اذ ان اي حركة اضرابية لا يشارك فيها السواقون تكون مهددة بالفشل . وقد انتخبت كممثل للسواقين في الهيئة الادارية لنقابة سكة الحديد ، واستلمت في الهيئة الادارية منصب السكرتير الثاني ، وكان السكرتير الاول الحاج حسين نصار . وكان اختيار اثنين لمنصب السكرتارية يعود الي كبر حجم النقابة

س : ما هي ابرز الاحداث التي عاصرتها ؟

ج : ابرز الاحداث التي عاصرتها الاضراب الذي دعت له الجمعية عام ١٩٤٦ ، وهو الاضراب الذي بدأ في ١٠ نيسان ١٩٤٦ وانتهي في ٢٠ نيسان ، واستطاعت الجمعية في هذا الاضراب ان تحقق معظم مطالبها مما ادى الى ترسيخ مكانة الجمعية واتساع نطاق المؤيدين والتفاف قطاعات واسعة من العمال حولها ، وبدأت الاوساط الجماهيرية كافة تشعر بوزن الجمعية وثقلها . وعلى اثر هذا الاضراب عقدت الجمعية مؤتمرها في ٢٨ آب ١٩٤٦ ونجح نجاحا كاملا ثم تلاه مؤتمر عام ١٩٤٧ .

س : هل اقتصر نشاط الجمعية على القطاع العمالي ؟

ج : لقد حاولت الجمعية بداب ان لا يقتصر نشاطها على القطاع العمالي ، وعملت كثيرا من اجل مد تنظيمها الى اوساط الفلاحين والمزارعين ، وكانت تنفذ ذلك من خلال فروع الجمعية في كل منطقة . وكان أسلوبها في تنظيم الفلاحين يعتمد على انشاء جمعيات تعاونية ، هدفها تحسين احوالهم المعيشية ، ونيل الحقوق التي يطالبون بها . وقد كان للجمعية اهتمام خاص بالثروات الفلسطينية ، وانطلاقا من ذلك ، وانطلاقا من اهتمامها بقضايا الفلاحين ، دعت الى عقد مؤتمر لمزارعي الدخان . ويعود اختيار هذا القطاع الزراعي الى اوضاع اصحابه السيئة بسبب تسلط الشركات عليهم ، وفرض الاسعار التي يريدهونها عند الشراء . فقد كان مزارع التبغ الفلسطيني يضطر - بسبب افتقار مراكز تجميع الدخان الصحية - الى وضع الدخان في بيته ، ومن المعروف ان الدخان المخزون يسبب مرض السل . اما عند البيع فقد كان الفلاح يبيع دخانه بارخص الاسعار ، اذ كانت شركات الدخان تتفق مع رجال الجبرك ، ليزوروا القرى ويقوموا بتصنيف انواع الدخان حسب امزجتهم ، فارضين على الفلاح ان قسما كبيرا من انتاجه من الصنف السيء . فيضطر الفلاح الى بيعه حسب تصنيف رجال الجبرك له . كما كان رجال الجبرك يقومون بالاتفاق مع الشركات بتصنيف جزء من انتاج الدخان على انه غير صالح ولا بد من حرقه ، ثم تستولي عليه الشركات نفسها وتقوم بتصنيعه . وقد كان هناك اتفاق بين الشركات على انه لا يجوز السماح لاي فلاح غير راض عن السعر المدفوع له ، بنقل انتاجه من شركة الى اخرى . الا اذا رفضت الشركة الاولى الشراء منه . وكان هذا يعني عمليا انه مضطر للبيع لاول شركة يتصل بها وبالسعر الذي تفرضه .

لمعالجة كل هذا الوضع عقد اول مؤتمر لمزارعي الدخان في نيسان ١٩٤٧ في مدينة عكا ، وقد خرج المؤتمر بقرارات هامة استهدفت المحافظة على هذه الثروة الوطنية وتخليص اصحابها من سيطرة احتكار الشركات . ومن ابرز القرارات التي اتخذها : ١ - ايجاد مراكز صحية لتجميع الدخان . ٢ - انشاء جمعيات تعاونية لبيع الدخان . ٣ - مقاطعة الدخان الاجنبي .

س : ماذا نفذ من هذه القرارات ؟

ج : يجب ان نلاحظ ان المؤتمر عقد في شهر ٤ بينما كان قرار التقسيم في شهر ١١ من العام نفسه . لذلك لم يكن هناك مجال واسع للتنفيذ العملي . ومع ذلك فقد تم انشاء

بعض المستودعات الحديثة لحفظ الدخان في منطقة الجليل ، ومنع بيع الدخان للشركات إلا عن طريق الجمعيات التعاونية في كل منطقة انشئت بها ، وادى ذلك الى فرض بيعه بالسعر المناسب ، بدلا من تراكم الديون على المزارعين لصالح بنك الزراعة في عكا .

س : كيف انتقلت من نقابة سكة الحديد الى ميدان مزارعي التبغ ؟

ج : في مؤتمر ١٩٤٦ انتخبت عضوا في لجنة الفروع ، وكلفت اثناء ذلك بالقيام بجولة في شمال فلسطين شملت الباجور ، جبل الشيخ ، جبل العرب ، عكا ، ترشيحا ، سحماتا ، الزيب ، البصة ، الطيرة . وكان هدف الزيارة تفقد فروع الجمعية في هذه المناطق ، وتنظيم اوضاعها الادارية ، ومحاضرها ، وايصالها الرسمية ، تحسبا لاي تفتيش حكومي ، يفتش سلفا عن حجة لالغاء ترخيص الجمعية . وبالإضافة الى ذلك كانت مهمتي تشمل تقديم تقرير عن الاوضاع العامة في المناطق التي زرتها . وقد اعدت تقريرا من ٤٠ صفحة يتحدث عن (السكان — الطوائف — النزاعات — مصادر مياه الشرب — عدد المدارس — ادارة القرية : مختار ، مجلس محلي ، بلدية — نوع الزراعة والتجارة ... الخ) . وللأسف لا توجد لدي نسخة عن هذا التقرير ، والنسخة الوحيدة منه بقيت في مقر الجمعية بحيفا .

س : ماذا كان موقف الجمعية من اضراب عام ١٩٣٦ ؟

ج : سمعت من الاخ سامي طه شخصا ان الجمعية لم تكن موافقة على الاضراب ، وان نتائج الاضراب كانت ضد مصالح العمال ، ففي مرفأ حيفا كان ٩٠٪ من عمال المرفأ من العرب ، وحين عادوا للعمل بعد انتهاء الاضراب وجدوا جميع المراكز في يد الشركات اليهودية . وفي شركة نيشر للاسمنت كان يوجد ٣٠٠ عامل عربي استبدلوا اثناء الاضراب بعمال يهود ، وادى تعطيل العمل في ميناء يافا الى ازدهار ميناء تل ابيب . وهكذا يكون الاضراب قد ادى الى اضعاف الحركة العمالية العربية ، وتقوية الهستدروت ، اذا نظرنا الى الامور من هذه الزاوية فقط .

٤ — حديث السيد عبد الله قنديل :

س : متى انتسبت الى الحركة النقابية ؟

ج : في عام ١٩٤٦ ، بعد حوالي شهرين من نصف جسر الحديد القائم بين سمخ والحمة من قبل القوات الصهيونية . وكان ذلك عندما قررت حكومة الانتداب تصليح الجسر المنسوف ، ورسى تعهد التصليح على شركة « سوليل بونيه » الصهيونية بمبلغ ربع مليون جنيه على ما اذكر . وبدأت الشركة تنفيذ المشروع ، واستخدمت عددا كبيرا من العمال ، كان ثلاثة ارباعهم من اليهود ، والربع الباقي من العرب . ونشأ خلاف بين العمال والشركة عندما عرفوا ان هناك تمييزا كبيرا في الاجور بين العامل العربي والعمال اليهودي ، وطالبوا بتعديل هذا الوضع . وفي ظل هذا الخلاف نشأت لدى بعض العمال فكرة تشكيل نقابة للدفاع عن مصالحهم . واجرت هذه المجموعة من العمال اتصالا معي ، وعرضوا علي الفكرة ، فوافقت عليها ، وكلفوني بالاتصال بالمرحوم سامي طه في الجمعية بحيفا لبحث الموضوع معه ، اجريت هذا الاتصال فوافق وارسل لنا حسني الخفش وفخر حجازي للاشراف على اجراء انتخابات وتشكيل نقابة . وقد جرت الانتخابات وتألقت لجنة محلية كنت انا امين صندوقها . وعلى اثر ذلك دخلنا في مفاوضات مع الشركة المذكورة تم على اثرها تعديل اجور العمال العرب .

س : هل اشتركت في مؤتمرات الجمعية ؟

ج : اشتركت في مؤتمر ١٩٤٧ ، وخرج عن هذا المؤتمر تقرير على غرار مؤتمر اب ١٩٤٦ . ولكن هذا التقرير طبع على الستاتسل ، ولم تمكنا الظروف من طبعه علي

شكل كتيب ، كما حدث مع قرارات مؤتمر ١٩٤٦ . ولا توجد لدي نسخة عن هذا التقرير وان كنت اعتقد ان بعض الزملاء لديهم نسخ منه .

٥ - حديث السيد حسني صالح الخفش :

س : نريد في البداية لمحة سريعة عن تطور علاقتك مع جمعية العمال العربية الفلسطينية ؟

ج : انتسابي لجمعية العمال العربية الفلسطينية كان عام ١٩٤٠ . كنت آنذاك عاملا في دائرة الاشغال العامة بمدينة نابلس ، والفنا في الدائرة « نقابة عمال الاشغال العامة » وكنت سكرتير هذه النقابة . انتخبت بعد ذلك في الهيئة الادارية للجمعية في نابلس كأمين للسر . ومن ثم تطور عملي النقابي ، فاصبحت عضوا في المجلس الاعلى للجمعية ، وعضوا في المؤتمر الاول والثاني ، وانتخبت مع الاخ ابراهيم عليان لتكون اعضاء في لجنة الفروع ، وسلم لنا ١٤ فرعا من اصل ٦٥ فرعا ليكون تحت اشرافنا ، وكشائنا واجباتنا في هذه اللجنة ، الاشراف على عمل الفروع ودراسة مشاكلها ، واقتراح الحلول لها . وفي عام ١٩٤٧ كنت عضو اللجنة التنفيذية في الجمعية ، وبعد مقتل سامي طه عقد مؤتمر في نابلس انتخبت فيه كأمين عام للحركة العمالية بالوكالة .

س : هناك غموض في المعلومات حول مرحلة تأسيس الجمعية ، فهل يمكن المساهمة من قبلك في القاء بعض الاضواء على هذه النقطة ؟

ج : الذي اسس في البداية هو نادي سكة الحديد وتم بعد ذلك الحصول على رخصة تأسيس « جمعية » في ٢١ اذار ١٩٣٥ بعد سنة ونصف السنة من تاريخ تقديم الطلب ، وفقا لقانون الجمعيات المثباني ، لانه لم يكن يوجد اي قانون يسمح بتنظيم النقابات ، فتمسترا وراء القانون لجأ الاخوة رواد الحركة النقابية ، اي عبد الحميد حيمور وزملاؤه ، الى هذا الاسلوب ليتمكنوا من خلاله من تنظيم العمال . فالتنظيم لم يكن من الناحية القانونية تنظيما نقابيا ، ولكن تمكنوا من تجاوزه ، فتقدم ٧ او ١١ بطلب لانشاء جمعية للعمال ، وليس لانشاء نقابة ، ثم اخذوا صفة النقابة بالاسم فقط . وانا اقسم تاريخ الجمعية الى خمس مراحل :

— المرحلة الاولى هي مرحلة التأسيس منذ عام ١٩٢٥ وحتى عام ١٩٣٣ ، واتخذت هذه المرحلة طابع التوعية ، وتعليم الاميين منهم ، والدخول في عدة صراعات محلية بسيطة شملت عدة اضرابات .

— المرحلة الثانية منذ عام ١٩٣٣ وحتى ١٩٣٩ . واحدي هذه المرحلة مع بداية دخول سامي طه الى الجمعية ، فقد كان صاحب قوة فكرية ونشاط خاص ، اغنى حركة النضال لعمال فلسطين . وكان له اثر كبير في تبنيه النقابيين وتخطيط النضال من اجل الطبقة العاملة الفلسطينية . ولذلك اعتبر انتساب سامي طه الى جمعية العمال بداية مرحلة جديدة ، وقد كانت فعلا مرحلة جديدة .

— المرحلة الثالثة تمتد منذ عام ١٩٣٩ وحتى ١٩٤٥ ، وهي مرحلة انطلاق الحركة النقابية واتساع نطاقها . ويعود هذا الانطلاق لعدة اسباب سياسية واقتصادية لان الحركة النقابية لا يمكن فصلها عن النضال السياسي للشعب الفلسطيني ، فكانت الحركة العمالية تتأثر سلبا او ايجابا ، ضعفا او قوة ، بالمد الوطني والقومي . فالاضراب الشامل الذي اعلن عام ١٩٣٦ اثر كثيرا على الجمعية وعلى الحركة العمالية واضعفتها . وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ، وجدت ظروف ساعدت في تنمية قطاع الطبقة العاملة في فلسطين ، بسبب وجود قوات بريطانية بنسبة كبيرة فيها ترافقت مع قرار لحكومة الانتداب بفتح المجال امام نشوء صناعات محلية لتغطية

النقص في هذه الصناعات في أوروبا ، ولصعوبة نقل البضائع عبر البحار . ومع اتساع نطاق الطبقة العاملة ، اتسع نطاق التنظيم النقابي . ومن العوامل الهامة في تقدير نمو الوعي العمالي في تلك المرحلة ، اتساع النشاط الشيوعي في فلسطين ، حيث نشط الحزب الشيوعي بعد تحالف الاتحاد السوفييتي مع الحلفاء عام ١٩٤١ ، وكان هذا النشاط ثقافيا وعماليا ، وامتد حتى الى داخل جمعية العمال العربية الفلسطينية ، واذكر على سبيل المثال ان الاخ وجيه صوفان كان اول من اسس فرع جمعية العمال في نابلس .

— المرحلة الرابعة هي مرحلة الصراعات العديدة والهامة التي خاضتها الحركة النقابية منذ عام ١٩٤٥ ، وهي صراعات بين الصهيونية والحركة العمالية ، بين الاستعمار البريطاني والحركة العمالية ، بين الاحزاب السياسية العربية والحركة العمالية .

اولا : صراعنا مع الهستدروت اتخذ عدة اساليب اهمها مواجهة « عبرية » العمل . وبدأت عبرية العمل في خطاب لبن غوريون في مدرسة لا اذكر اسمها ، في عام ١٩٣٣ ، كتفويض عملي لوجود الوطن القومي اليهودي . وتعني عبرية العمل انه لا يجوز لليهودي صاحب المصنع او المؤسسة تشغيل اي عامل عربي حتى يأخذ العمل طابعا عبريا . واسس الهستدروت على اثر ذلك لجانا سموها لجان الدفاع عن العمل ، فكان اعضاؤها يذهبون الى المحلات اليهودية ، ويتردون اي عامل عربي يعمل فيها ، ويفرضون غرامة على صاحب العمل اليهودي كعقاب له . وقد ردت جمعية العمال على ذلك بأساليب مماثلة . كذلك كانت قضية الاجور موضوع صراع دائم . اذ كان العمال اليهود المنتسبون الى الهستدروت يعملون باجور افضل وبساعات عمل اقل ، وكان ذلك يتسم بتشجيع من حكومة الانتداب . وخاضت الجمعية صراعات عديدة لتصل الى المساواة في هذه القضايا . وبسبب تصديها للهستدروت واجهت الجمعية محاولات عديدة لضربها والتشويش عليها ، ورشوة العمال للابتعاد عنها .

ثانيا : صراعنا مع الاحزاب السياسية ، وهذه يجب ان تشرح بشيء من التفصيل ، لان عدة عوامل ساعدت عليها وبرزها :

١ — موضوع الاضرابات : لقد قادت الجمعية عدة اضرابات في مختلف الشركات ، مثل اضراب شركة « مور » في عكا ، اضراب شركة محاجر مجدل الصادق . وكانت هذه الاضرابات موجهة ضد اليهود وضد الانجليز وضد الشركات العربية احيانا ، وادى نجاح هذه الاضرابات الى التفاف العمال حول الجمعية ، وليس ذلك فقط ، بل ادت ايضا الى التفاف الجماهير حولها . ومن الامثلة البارزة للتفاف الجماهير حول الجمعية ما حدث عندما جاءت لجنة التحقيق الانجلو — امريكية ، فقد وافق زعماء الاضراب على مقابلتها وقابلوها فعلا ، وعندما بعثت هيئة الامم المتحدة بعد ذلك لجنة تحقيق قرر الزعماء مقاطعتها ، وقرروا بدون تفكير اعلان اضراب لمدة ثلاثة ايام . اما نحن فقد رأينا في هذا الموقف تناقضا واضحا ، فمن غير المنطقي مقابلة لجنة استعمارية ورمض مقابلته لجنة تحقيق من قبل الامم المتحدة . وفي هذا الجو اجتمعت لجنة النقابات في الجمعية ورأت انه ما دام الهدف من الاضراب انه يرمز لموقف الشعب ، فيمكن الاستعاضة عنه بدقائق مؤقته . واجرت اللجنة في ذلك الوقت حسابا دقيقا للخسائر التي تنتج عن الاضراب ، باعتبار ان لدينا ٢٠٠ ألف عامل وموظف يعملون في الشركات والمعسكرات ودوائر الحكومة ، فاذا كان متوسط الاجر لكل منهم جنيا واحدا في اليوم ، فيكون مجموع الخسائر في ثلاثة ايام ٦٠٠ ألف جنيه . ولذلك قررت لجنة النقابات الدعوة لاضراب يدوم ساعة واحدة فقط يوم حضور لجنة التحقيق ووزعت الجمعية بيانا يعلن موقفها من الاضراب ويقدم تفسيراً واضحاً له . وبانفعل نفذ الاضراب حسب طلب الجمعية لمدة ساعة واحدة ، توقفت اثناءها كسل شيء . توقفت السيارات والقطارات

واغلقت المحلات التجارية ، ولم تستطع الأحزاب تنفيذ موقفها الداعي للاضراب ثلاثة ايام . ان هذا الحادث الذي يبرز التفاف الجماهير حول جمعية العمال أوجد تناقضا بين الجمعية وبين الأحزاب السياسية العربية .

٢ - اهتمام الجمعية بالفلاحين : كان الفلاحون اجمالا في فلسطين يدينون بالولاء للحاج امين الحسيني . ولكن تغيرا واضحا طرأ على هذا الموقف بعد مؤتمر الجمعية عام ١٩٤٦ . ففي ذلك المؤتمر اقرت الجمعية مبدأ النضال الاشتراكي ، وبحث في واجبات العمال تجاه الفلاحين ، ووضعت على ضوء ذلك خطة لانشاء جمعيات تعاونية للمزارعين في كل قرية ، وكان مؤتمر مزارعي التبغ خطوة على هذا الطريق ، ولعب بنك التسليف والتوفير الذي انشأته الجمعية ، والذي وصل رأسماله الى ٣٠ الف جنيه دورا بارزا في انجاح مشروع الجمعيات التعاونية للمزارعين ، فاصبح يمد كل مزارع بالمال الذي يلزمه بدلا من ان يلجأ للاستدانة من الجهات التي تتحكم بمصير انتاجه في نهاية العام ، وقد ساهم الفلاحون كثيرا في تدعيم هذه الجمعيات . وانفذت هذه الخطة الفلاح من شبح الضرائب . فمزارع التبغ مثلا كان يزرع بضرية ، ويحصد بضرية ، وينقل المحصول الى بيته بضرية ، وينقله للبيع في حيفا بضرية ، واذا نتاحت مع شركة ولم يناسبه السعر المدفوع لا يستطيع نقل محصوله من شركة الى شركة اخرى ، والشركات بجموعها متضامنة في الاسعار التي تدفعها فيضطر الفلاح للبيع بالسعر الذي تحدده الشركات . وقد تغيرت هذه الصورة عندما تولت الجمعيات التعاونية الموضوع ، ولكن هذا لم يطبق الا على محصول سنة واحدة ، وقد زرت شخصا المناطق التي ذكرها الاخ ابراهيم عليان ، وشاهدت النتائج بنفسي ، لان مسؤولياتي كانت تشمل التعاون معه في الاشراف على الفروع التي ذكرها . وكننتيجة لهذه السياسة بدأ الفلاحون يلتفون حول الجمعية ، واذكر فرحا حضرته في قرية « معليا » كان الفلاحون فيه يهتفون للجمعية وسلمي طه ، ذلك انهم قطفوا ثمار التنظيم في العمل الوطني . وقد لعب هذا الموضوع دوره ايضا في ايجاد التناقض بين الجمعية والأحزاب السياسية .

٣ - الجمعية والحزب : مثل موضوع الحزب على صعيد العلاقة بين الجمعية والأحزاب السياسية ، الشعرة التي قصمت ظهر البعير . ففي مؤتمر الجمعية عام ١٩٤٦ جرى نقاش حول ايجاد حزب للعمال يعبر عن رأيهم سياسيا . وكان داخل المؤتمر تيار يرفض الفكرة خوفا من وجود حزب جديد على غرار الأحزاب القائمة . ولكن التفاهم في النهاية كان كاملا بعد ان اتسع نطاق النقاش ، وفهم جميع اعضاء المؤتمر انه لا يمكن الوصول الى تحقيق المبدأ الاشتراكي الذي اقروه الا عن طريق حزب يعمل لوضع هذا المبدأ في حيز التطبيق . وحين عقد مؤتمر عام ١٩٤٧ تقرر انشاء مكتب عمالي يكون نواة للحزب . ذلك ان النقاش الذي دار في هذا المؤتمر رأى ان الجمعية لا تملك عددا كافيا من الكوادر النقابية تستطيع ان تستغني عنها لتتفرغ للعمل الحزبي ، خاصة وان هذا الحزب يجب ان يكون بقيادة النقابيين بالرغم من الاتفاق بان تكون عضويته مفتوحة امام اعضاء من خارج القطاع العمالي . فكان الاتفاق ان ترسل المناطق حين يتوفر لها عدد كاف من النقابيين كل نقابي يستطيع الاستغناء عنه ، ليكون عضوا في المكتب العمالي الذي هو مكتب الحزب ، وان يبقى وجود هذا المكتب سرا ، الى ان يتقرر الاعلان عن وجود الحزب . وقد ادى قرار الجمعية بالعمل لانشاء حزب عمالي الى زيادة حدة التناقض بينها وبين الأحزاب السياسية .

٤ - مواقف الجمعية السياسية : في عام ١٩٤٧ عقد المؤتمر الثاني للجمعية . وفي العام نفسه ايضا كانت هيئة الأمم المتحدة تناقش القضية الفلسطينية . وقد اتخذ المؤتمر موقفا واضحا رفض فيه قرار التقسيم ، ولم يكف المؤتمر بالرفض بل ارسل برقية الى الأمم المتحدة تقترح حلا للمشكلة على اساس اعتبار اليهود الذين كانوا موجودين في فلسطين

قبل عام ١٩١٨ ومن توالد منهم مواطنين فلسطينيين ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ويجلى عن فلسطين كل من دخل البلاد بعد ذلك دون رغبة أهلها ، وكان هذا الموقف يشمل اليهود وغير اليهود . وقد أرسل هذا الموقف باسم اعضاء المؤتمر الذين يمثلون ١٢٠ الف عامل منظم ، كل عامل منهم ينتمي الى عائلة تضم خمسة افراد على الاقل ، فيكون المجموع ٦٠٠ الف شخص ، فإذا أخذنا بعين الاعتبار ان تعداد شعب فلسطين في ذلك الوقت لم يكن يتجاوز المليون نسمة ، ادركنا مدى اتساع نفوذ جمعية العمال ، ومدى ادراك الاحزاب التقليدية لضعفها امام هذه القوة النامية . وقد شنت حملة ضدنا بسبب هذا الموقف من اليهود الذين جاؤوا الى فلسطين قبل عام ١٩١٨ .

هذه هي ابرز الاسباب التي ادت الى بروز تناقض بين الحركة النقابية ممثلة بجمعية العمال وبين الاحزاب السياسية التقليدية . فعلى ضوء هذا الواقع كان من حق الجمعية ان تشكل حزبا سياسيا ، وان تتكلم باسم الشعب الذي تلفت غالبية حولها . وعلى ضوء هذا الواقع بدأت الاحزاب التقليدية تفكر بالسيطرة على الحركة العمالية او القضاء عليها . وكنتيجة لذلك دبرت عملية اغتيال سامي طه . وتفسير ذلك واضح ، اذ ان اي حركة رجعية ، تعتمد على الدجل وعلى الغوغاء وترفض فكرة التنظيم . والاحزاب السياسية التي كانت في فلسطين لم تكن احزابا وطنية ، ولم تكن احزابا منظمة على الاطلاق ، وكسأت تعتمد اساسا على الولاء الشخصي ، الولاء لال الحسيني ولال النشاشيبي ولرؤساء البلديات وللمخاتير ... الخ . وقد انقادت الجماهير وراء هذه الاحزاب دون ان تجني من وراء ذلك اية مكاسب ، وحين بدأت جمعية العمال تحقق لهم المكاسب تركوا تلك الاحزاب والتفوا حولها . الحزبان الوحيدان الحقيقيان في تلك الفترة كانا الحزب الشيوعي ، وحزب الشعب الاشتراكي ، ولكنهما كانا حزبين ضعيفين ، ولم يقو الحزب الشيوعي نسبيا الا في الاربعينات .

س : من كان ابرز قادة حزب الشعب الاشتراكي ؟

ج : اعتقد ان هذا الحزب تشكل عام ١٩٤٤ ، وكان من اعضائه البارزين يوسف هيكل رئيس بلدية يافا ، واحمد الشقيري وفريد السعد .

س : هل حاول قادة هذا الحزب الاستفادة من جمعية العمال لصالحهم ؟

ج : لم يحصل ذلك ابدا والذين قادوا الجمعية حرصوا ان لا يفسحوا المجال امام اي حزب لاستغلالها . انما كانت للجمعية صداقات مع تيارات مختلفة من الجيل الجديد ، وخاصة بعض الشباب الذين تخرجوا من الجامعة الاميركية في بيروت ، وجاءوا ليقموا في حيفا ونابلس وطولكرم ، مثل مالك المصري والدكتور صلاح العنبتاوي والسيد احمد الشقيري . وقد بدأ هؤلاء الشباب بمحاولات لاقامة عمل وطني بأساليب تختلف عن الاساليب السابقة ، وحين تأسس حزب الشعب الاشتراكي ، حاول قادته اقامة صداقات مع الحركة العمالية ، ولكن لم يكن هناك اي انتماء من قبل الجمعية لهذا الحزب . وحين قررت الجمعية انشاء حزب عمالي ساد تصور لدى بعض القيادات الرجعية ، ان هذا القرار مرتبط بقرار انشاء حزب الشعب الاشتراكي ، واستنتجوا ان الجمعية اصبحت خاضعة لهذا الحزب .

س : هل كانت هناك جمعيات نقابية اخرى . وكيف كانت العلاقة معها ؟

ج : كانت هناك « جمعية العمال العرب » في يافا . ومؤسسها ميشيل مئري كان يعيش في الاربعين وتعلم هناك ، وكان يقال ان اتجاهه شيوعي . وقد قامت هذه الجمعية بعد خطاب بن غوريون الذي تحدثت عنه ، والذي دعا فيه الى عبرية العمل ، بتشكيل لجان عربية في يافا مقابلة للجان الدفاع عن العمل التي شكلها الهستدروت ، داعيا الى تعريب العمل . واذكر ان شركة « سوليسل بونيه » اخذت تعهدا في مدينة يافا لبناء

مدرسة في منطقة عربية ، فجاء ميشيل ببعض عمال جمعيته المنظمين وضربوا العمال اليهود ، واجبروا الحكومة على سحب التعمد من الشركة اليهودية واعطائه لشركة اخرى عربية .

س : ذكرت اربعة اسباب اساسية ولدت التناقض بين الحركة العمالية والاحزاب ويقال ان موقف الجمعية المؤيد للمشروع الانشائي الذي اقترحه موسى العلمي كمشروع مضاد لمشاريع الحاج امين الحسيني كان من ابرز اسباب الخلاف ، وهو الذي ادى بشكل مباشر الى اغتيال سامي طه . ما هو رأيك بذلك ؟

ج : طرحت على مؤتمرنا في عام ١٩٤٧-ثلاثة مشاريع ، مشروع لجامعة الدول العربية ، ومشروع صندوق الامة الذي تتبناه الهيئة العربية العليا ، والمشروع الانشائي الذي طرحه وتبناه موسى العلمي ، والذي كانت تؤيده بعض الدول العربية ومنها العراق . وقد درست هذه المشاريع الثلاثة لجنة خاصة وعرضت تقريرها على المؤتمر ، حيث نوقش ووافق عليه . وكان التقرير يدعو الى تأييد المشاريع الثلاثة باعتبار انها كلها تخدم القضية الفلسطينية . فالجامعة العربية كانت تقول انها مستعدة لشراء الاراضي العربية من كل شخص يريد ان يبيع . ومشروع الهيئة العربية العليا كان يطالب بان يساهم جميع العرب في تدعيم « صندوق الامة » والصندوق يقوم بشراء الاراضي . اما مشروع سامي العلمي فكان يدعو الى مساعدة الفلاح على تحسين اراضيه وزراعتة ، والعمل على بناء قرى حديثة قادرة على مواجهة المستعمرة اليهودية ، لان شراء الاراضي يشجع الفلاح على البيع والهجرة . وقد رأينا ان المشاريع الثلاثة مفيدة وايدناها . ولذلك لا يمكن القول ان موافقة الجمعية على المشروع الانشائي كانت السبب في بروز التناقض ، فقد ايدنا ثلاثة مشاريع وليس مشروعاً واحداً . وكذلك ايضاً لا اعتقد ان هذا كان السبب وراء اغتيال سامي طه ، اذ كان من الاولى اغتيال موسى العلمي صاحب المشروع نفسه . لقد كانت هناك حساسية كبيرة بين موسى العلمي وبين الحاج امين الحسيني . وكان الحاج امين يعارض مشروع العلمي لكي يتقوى مشروعه هو في الجامعة العربية وينال الموافقة . وقد كان هناك شك بأن موسى العلمي من جماعة حزب الشعب الاشتراكي ، وأنه الرئيس الحقيقي للحزب . ومن المفيد هنا ان اذكر ان بعض اعضاء المؤتمر المحوا الى ان تأييد هذا المشروع سيقود الى بروز خلاف بيننا وبين الهيئة العربية العليا .

س : هل صحيح انه بعد الموافقة على المشروع الانشائي ، من ضمن المشاريع الاخرى كما اوضحت ، انسلخت بعض النقابات عن جمعية العمال ؟

ج : هذا ليس صحيحاً . بل بالعكس من ذلك انتشر التنظيم العمالي على مستوى فلسطين كلها ، وساد جو من التقاخر بالانتماء الى « العمال » والى الجمعية ، واصبحتا نرى « مطعم العمال » و « كراج العمال » في كل بلد من فلسطين ، كدليل على التأييد .

س : في لقاء مع السيد فياض ريال قال انه كان رئيساً لنقابة البقالين العرب بحيفا ، وان نقابته من النقابات التي انسحبت من الجمعية .

ج : لم يكن يوجد في الجمعية نقابة اسمها نقابة البقالين . كان هناك فقط جمعية للتبوين ضمن الجمعيات التعاونية التي انشأتها الجمعية ، وهذه الجمعية كان يمولها بنك الانشاء والتسليف .

س : قلت انك تقسم تاريخ الجمعية الى خمسة مراحل . لتحدث الان عن المرحلة الخامسة .

ج : المرحلة الخامسة هي مرحلة ضعف الحركة العمالية في فلسطين ، وخاصة بعد

اغتيال سامي طه ، وبعد الاحداث التي تلاحقت وانتهت بنكبة ١٩٤٨ .
س : ما هي الاحداث البارزة في هذه المرحلة ؟

ج : بعد مقتل سامي طه عشنا في جو ارهابي ، وكانت لدينا اخبار تقول ان اي شخص تعينه الجمعية بديلا لسامي طه سيقتل ايضا . في هذا الجو اجتمعت اللجنة التنفيذية بعد تشييع الجنازة مباشرة ، للبحث في الموضوع ، فرشح احد الاعضاء السيد يعقوب الحسيني الذي كان يعمل في جمارك حيفا كخلف لسامي طه . وكان الترشيح على اساس ان هذا مطلوب من الحاج امين الحسيني ، وقد عارض اعضاء اللجنة الطلب بشدة ، وتعاهدوا ان يخلوا الراية ، وان يسيروا بالحركة العمالية لتصبح اقوى مما كانت عليه . واتفقوا على اختيار الدكتور عمر الخليل ليتولى رئاسة الجمعية . والدكتور عمر الخليل من مواليد بيسان ، وابن عامل في سكة الحديد ، كان يعمل مفتشا في قسم الهندسة . وقد تخرج من الجامعة الاميركية في بيروت عام ١٩٣٧ ، وكان مقبيا في حيفا وصديقا لسامي طه . وكانت عيادته مفتوحة دائما للعمال ، وكان لذلك موضع ثقة الجميع . وكان الدكتور الخليل مؤسسا لجمعية تدعى « جمعية الفلاح » ، ولذلك كان هناك تقارب بين الجمعية وبين نشاطاته . ولكن للأسف لم يتمكن الدكتور الخليل من حضور اي جلسة من جلسات جمعية العمال .

س : قلت ان الاضرابات الناجحة التي قادتها الجمعية لعبت دورا بارزا في توسيع نفوذها في ايجاد تناقض بينها وبين الاحزاب العربية . هل يمكن التوسع قليلا في هذه القضية ؟

ج : حول اضراب عمال المعسكرات الذي تحدث عنه الاخوان اريد توضيح بعض النقاط لان موقف الجمعية من هذا الاضراب استغل ضدها ، وبرزت شائعات تقول ان الجمعية عميلة لبريطانيه ، لانها عارضت اضرابا ضد الحكومة . وقد تعززت هذه الشائعات بسبب دعاية الهستدروت ، وبسبب موقف بعض القوى التقدمية التي كانت تروج لشعار « وحدة الطبقة العاملة » . لقد كان واضحا تماما للجمعية ان هدف الهستدروت من وراء تنفيذ الاضراب ليس تحقيق مصالح العمال ، مع ان التركيز الاعلامي كان حول هذه المصالح . لقد كان الهدف متركزا حول التمثيل . من يمثل الطبقة العاملة الفلسطينية ؟ جمعية العمال ام الهستدروت ؟ وقد بين الاخوان في حديثهم تعاون الضباط البريطانيين مع الهستدروت لانجاح الاضراب . وبسبب وعي الجمعية الكامل لهذه القضية ، بسبب وعيها لاهمية التمثيل السياسي للعمال في ذلك الوقت وقفت ضد الاضراب .

وتوضيحا لاضراب ١٩٤٦ الذي اثار اليه الاخ ابراهيم عليان ، اقول ان هذا الاضراب كان شاملا ، وقد بدأه العمال ، ثم شارك به الموظفون ، شمل جميع المؤسسات الخاصة والدوائر الحكومية . وقد بدأ الاضراب في يافا وانطلق من نقابة عمال البريد . وسببه المباشر ان رئيس النقابة السيد محمود عيسى تقدم بطلب لارجاع عامل كان قد فصل من عمله ، فرفض مدير الدائرة البحث بالموضوع واخبره انه لا يعترف بجمعية العمال ، فاعلنت نقابة عمال البريد في يافا الاضراب احتجاجا على ذلك ، فجاء الجيش واشرف على تسير العمل بنفسه ، فاجتمع مجلس النقابات في يافا ، وقرر بعد استشارة المركز الرئيسي في حيفا (في موضوع الاضراب كان من الضروري استشارة المركز الرئيسي) اعلان الاضراب العام . فبدأت كل نقابة تضرب تضامنا مع نقابة عمال البريد . وكان الاسلوب المتبع في ذلك الوقت يقضي بتقديم طلب عاجل لبحث موضوع ما ، وتحديد وقت لاستلام الجواب ، فاذا كان الجواب سلبيا يعلن الاضراب . وحين شمل الاضراب كل مدينة يافا وسع الجيش نطاق تدخله واشرف على تسير العمل في جميع المرافق العمالية . ولكن الاضراب اتسع وشمل الموظفين ايضا ، ولم يعد بإمكان الجيش ان يوفر

العدد اللازم لتسيير العمل . كان للموظفين لجنة خاصة بهم ، مستقلة عن جمعية العمال ، أعلنت الاضراب بناء على طلبات خاصة بها . وقد استقلت الحكومة هذا الوضع (اذ كانت دائما تحاول الفصل بين الموظفين والعمال) فطلبت مفاوضة الموظفين ، وحين استجابات لقسم من طلباتهم اعلنوا حل الاضراب ، ولكن ذلك لم يؤثر على الوضع العام ، واستمر الشلل يعم كافة المؤسسات والدوائر ، فاضطرت الحكومة ان تتراجع وتدخل في مفاوضات مع الجمعية للبحث في مطالب العمال . ان نجاح الجمعية في الاضرابات التي كانت تدعو اليها يعود الى حرصها الشديد على ان لا تقدم على اي اضراب ، في القطاع الخاص او في دوائر الحكومة ، الا بعد ان تستنفذ كل وسائل المفاوضات ، ثم توزع منشورات في كل انحاء البلاد تشرح فيها ما تقدمت به من طلبات ، ورد الجهة المعنية على ذلك ، لتهدئ الجماهير للاضراب وتقتنعها بضرورته . ولذلك كان كل اضراب يعلن ، مفهوما ومؤيدا من قبل الجماهير سلفا .

واود اخيرا ان اتحدث عن اضراب عمال المحاجر في مجدل الصادق . مجدل الصادق قرية عربية من قضاء الرملة . الارض عربية . الجبال التي تضم المحاجر ملك للعرب . اما المحاجر نفسها فهي لشركة « سوليل بونيه » التابعة لهستدروت . كان يعمل في هذه المحاجر عمال عرب ويهود . وكان هناك قسم من المحاجر مخصص فقط للعمال اليهود على اساس العمل العبري . من ضمن سعي الجمعية لتحطيم فكرة عبرية العمل ، تقدمت بمطالب تتعلق بعمال المحاجر العرب ، ومن جملة هذه المطالب عدم تخصيص مناطق للعمال اليهود فقط ، وضرورة مشاركة العمال العرب في جميع اقسام العمل . وقاد مكتب العمل المفاوضات في البداية ، وحين فشلت كل تدخلاته ، تقرر اللجوء الى الاضراب ، وبالفعل اعلن الاضراب ، واختير يوم سبت لتنفيذه لسببين : الاول ان هذا اليوم هو يوم عطلة العمال اليهود ، والثاني ان جير الاقران يتلف اذا بقي مدة اطول من اللازم داخلها . يوم الاحد جاء العمال اليهود ليواجهوا بالاضراب . اصروا على رفض الاضراب ، وهدد العمال العرب بأن استمرارهم بالعمل يعني قيام مذبحه بين الطرفين ، فذهب العمال اليهود واستجدوا بالشرطة ، وجاعت الشرطة لتقول لا علاقة لاضرابكم بالعمال اليهود فدعوهم يمارسون عملهم ، وكان رد العمال العرب ان هدف الاضراب الرئيسي هو رفض عبرية العمل ، ونشب على اثر ذلك خلاف حاد ، تدخل فيه للاسف رئيس بلدية عربي ، وحاول حتى رشوة مسؤولي فسرع الجمعية في نابلس باعتبارها مشرفين على الاضراب . في اليوم التالي جاءت الشرطة الخيالة ، فهددهم العمال بأن اي تدخل من قبلهم سوف يعني الاشتباك مع العمال المسلحين والمنتشرين في الجبال فتراجع رجال الشرطة ، وردت الحكومة على ذلك بمحاصرة المنطقة بالدبابات ، فما كان من العمال الا ان افترشوا الارض ، وابلغوا المسؤولين ان الدبابات لن تمر الا من فوق اجسادنا . وامام هذا الاصرار تراجعت القوة العسكرية ، وبدأت مفاوضات طويلة مع الحكومة . واثناء هذه المفاوضات قدمت مغريات شديدة ، منها « شيك » مفتوح باسم سكرتير الجمعية في نابلس ، ومساومات تعلن الاستعداد للموافقة على كل طلبات العمال ، باستثناء طلب مساهمتهم بالعمل في المناطق المخصصة للعمال اليهود . وقد صمدنا امام كل ذلك ، وتوج صمودنا بالانتصار .

س : هل فاضلتكم الحكومة لاقرار تشريع عمالي ؟

ج : لم يصدر في فلسطين اي تشريع عمالي . التشريع كان يفرضه العمال . وفي كثير من الدوائر والشركات توصل العمال الى عقد اتفاقية تقوم مقام القانون . وفي عام ١٩٤٦ صدر مشروع قانون للعمل . وفيما بعد وضع قانون العمل الاردني بالاستناد اليه .

س : ماذا كان وضع الجمعية في اضراب عام ١٩٣٦ ؟

ج : عاشت الجمعية في تلك الفترة حالة من الشلل ، اذ التحق عدد كبير من العمال بالثورة ، ولم تشارك الجمعية بصفة رسمية في تشكيل لجان للدعم . اما في عام ١٩٤٧ ، فقد شاركت الجمعية بشكل فعال وقيادي باللجان القومية والمحلية ولجان الدفاع المدني .

س : هل تعرض سامي طه بسبب هذه النشاطات لاي اعتقال ؟

ج : اعتقل لفترة قصيرة في عام ١٩٣٧ ، مع عدد كبير من العاملين في الحقل الوطني ، وذلك بعد اغتيال « اندروز » في لواء الخليل .

التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني

(عهد الإنتداب)

بقلم

نبيل أيوب بدران

منشورات مركز الأبحاث في م . ت . ف .

ص.ب ١٦٩١

بيروت

سعر النسخة ٣ ل.ل. تضاف اليها اجور البريد
الجوي : ٧٥ ق.ل. في العالم العربي ، ١٥٠
ق.ل. في أوروبا ، ٣٠٠ ق.ل. في سائر الدول

مراجعات

Robert Misrahi, *Marx et la question juive*
(Collection «Idées»).

المتعل للواضح .

— ثم هناك « معاداة السامية » من مواقع يسارية . وهذه بدعة جديدة بدأت الآن تحظى حيزاً واسعاً من « اهتمامات » حركة النشر الفرنسية إذ أنه في خلال سنة واحدة صدرت عدة كتب عنها نذكر منها على سبيل المثال : « اليهود في الاتحاد السوفياتي » « معاداة السامية بدون يهود » « التطهير » « اليسار والصهيونية » وأخيراً لا أخراً « ماركس والمسألة اليهودية » الذي نحن الآن في صدد معالجته والذي ينخرط ضمن التوجيه الفكري والاعلامي الجديد الذي يحاول ان يعيد الى « معاداة السامية » توتنها وارهابها ويعتد الحياة فيها واعادة استخدامها ولكن ضد اليسار ، وضد اليسار فقط ، هذه المرة .

يقول روبر ميراهي في مقدمة الكتاب « ان معاداة السامية ، سواء اكانت موجهة ضد يهود العالم على اساس انهم يشكلون مجموعة دينية ام ضد الاسرائيليين على اساس « تناسي » انهم يهود ، تشكل العقبة الاساسية (1) في بناء مجتمع عادل ، ايا كان هذا المجتمع » (ص ٨) . ثم يضيف فيما بعد : « ان هذا التحليل ... الذي سنقوم به الان يهدف الى فضح معاداة السامية عندما لا تكون ظاهرة وتسيطر الاضواء عليها عندما تكون مخبأة وغامضة ومشوهة اي اثبات ان هناك ، في هذا الفكر او تلك الممارسة ، مصادرة واقعية (وان لم تكن معلنة) للسامية » .

لعلنا لا نغالي اذا قلنا ان مثل هذه الامتكار المسبقة التي اوردها الكاتب الصهيوني قبل قيامه بـ « تكليله » تشكل حجر الاساس في كل مقولاته وفرضياته فهو من جهة يحصر معاداة السامية في معاداة اليهود كجماعة دينية وفي معاداة الاسرائيليين بصفتهم يهوداً دون ان يحاول اعطائنا ، من اول

تشهد حركة النشر في فرنسا حالياً فيضا متزايداً من الكتب التي تحاول ان تعالج مسألة معاداة السامية من وجهة نظر خاصة جداً . ذلك انه بعد ان كانت تهمة معاداة السامية تطلق عادة بالقوى الاجتماعية اليمينية والفاشية (وطبعاً النازية) اصبح الآن للييسار حصته الكبرى من هذه الاتهامات فأصبح هناك نوعان من « معاداة السامية » : — « معاداة السامية » من مواقع يمينية وهذا النوع قد بات مبتذلاً لكثرة ما كتب فيه وعنه ودخل الآن ، بالنسبة الى الوعي (او اللاوعي) ، لا فرق (الغربي ، الى حدود البيدهيات والمسلطات واصبح مجرد محاولة إعادة البحث فيها خطيئة ضد الفكر وضد الإنسانية وضد الحضارة . ويكفي ان تفكر ان اخطر تهمة يمكن ان توجه الى رجال الفكر والسياسة في الغرب هي تهمة معاداة السامية حتى تدرك مدى تسلط الارهاب المعنوي والفكري على العقول والقلوب هناك . ولا عجب في ذلك فالامر لا يبدو كونه ردة فعل طبيعية ، وقد تكون مفهومه ومقبولة ، لموقف الغرب تاريخياً من العرق السامي وبشكل اخص من اليهود ، هذا الموقف الذي وصل الى منتهى عنصريته وهيجيته من خلال النازية التي هي في التحليل الاخر تجسيد عملي لجانب من جوانب الغرب الرأسمالي . كل هذا بات الان معروفاً لجميع المتابعين للمسألة اليهودية كما انه قد اثار العديد من المناقشات والمجادلات الحامية في الاوساط الغربية وخاصة في فرنسا بعد عدوان الخامس من حزيران . ولا مجال هنا للكلام عن هذا الموضوع ولكننا نكتفي فقط بالاشارة الى ان الكلام عن معاداة السامية كان يعلو ويهبط ، لا وفقاً لاعتبارات فكرية او اخلاقية او انسانية ، بل خدية لبعض المواقف السياسية المتعلقة ، من قريب او بعيد ، بدولة اسرائيل وبالصراع العربي — الاسرائيلي . ومن هنا طابعها

الكتاب الي اخره ، ولو تحديدا واحدا « لمعاداة السامية » . ومن جهة ثانية ينطلق من فرضية غريبة مؤداها ان هناك هداء للسامية غير واضح وغير معن وان هدفه في هذا الكتاب هو بالضبط كشف هذا الهداء وتوضيحه واستخراج مبادئه وأسمه ، اي بكلمة اخرى السعي الى صياغة القواعد الفكرية والعقائدية والبحث عن الجذور التاريخية لما يسميه المؤلف بالمعاداة اليسارية للسامية . أما كيف استطلع ر. مزراحي ان يصل الى غايته ، اي ان يوهننا بأنه « اكتشف » الجذور الفكرية والتاريخية للهداء اليساري للسامية ، فمن طريق التركيز على كتيب صغير كتبه ماركس في شبابه عن المسألة اليهودية وهو كتيب يتعرض فيه ماركس للقضية اليهودية بشكل عابر دون اية دراسة تحليلية اجتماعية او خلفية تاريخية دون ان يؤثر هذا النقص ، على كل حال ، على صحة المقولات التي ساقها في هذا المجال . من هذا الكتيب ينطلق المؤلف ليبنى نظرية متكاملة تعتمد على المنطق (الشكلي طبعاً) ، وتهدف الى وضع ماركس في قصص المتهمين بالهداء اليساري للسامية (من المفيد هنا ان نذكر ان ماركس هو يهودي الاصل لنذكر كيف ان المضمون الحقيقي لهذه التهمة يتعدى الفكر اليسيني الرجعي العنصري ليرتبط بكل مفكر يعسادي الصهيونية والدولة الاسرائيلية) . ولكن قبل ان نذهب بعيدا في تقييماتنا لا بد من عرض سريع لاهم محتويات هذا الكتاب .

هناك فكرتان اساسيتان يدور الكتاب حولهما :
 ١ - الفكرة الاولى هي اتهام اليسار (كل اليسار) بالهداء للسامية لانه « يريد من اليهودي ان يكون « انسانا » كبقية الناس ، لا فرق بينه وبينهم ... اي ان يكون شريكا غير محيز فيصبح رجل اعمال كبقية رجال الاعمال ، وموظفا كبقية الموظفين ، ومثقتا كبقية المثقتين ... » (ص ١١) .
 هكذا اذن اصيحت ارادة المجتمع الغربي في رؤية اليهودي يتدمج في كل نشاطاته ويخضع لكل متطلباته معاداة للسامية بعد ان كانت هذه الاخيرة تنحصر في رفض الاعتراف والقبول باليهود في مجتمعهم . ولو كان الامر مجرد احتفاظ اليهود بخصوصيتهم وفرديتهم وطابعهم الخاص لكان الامر ولربما كان العقل المتسامح مستعدا لتقبله . الا ان الدهش والغريب فعلا في المسألة هو ان الكاتب يعتبر الاحزاب اليسارية معادية للسامية لانها

تفرض على المناضلين اليهود ان يتخلوا عن يهوديتهم ولا تسمح لهم بالانضمام الى صفوفها الا بعد ان يعلنوا حربا شعواء على الصهيونية ! وهكذا يتضح شيئا فشيئا الهدف الاساسي من هذه الدراسة : الخلط المتعمد بين اليهود واسرائيل وبين اليهود والصهيونية وكل ذلك من اجل الدفاع عن الصهيونية ، وعن الصهيونية وحدها ، باعتبارها في نظر الكاتب ، الحل الوحيد المقبول لما يسمى بالمسألة اليهودية . لا بسل ان الدفاع عن الصهيونية وعن اسرائيل يصبح اهم من الدفاع عن اليهود ، خاصة وان تهمة معاداة السامية تلصق كذلك بالكثيرين من اليهود التقدميين (كاسحق دويتشر مثلا) وكذلك باليسار العربي وبشكل اخص يسار المقاومة . (يتهم مزراحي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بالهداء للسامية لان « القراصنة » احتجزوا ركاب الطائرات المخطوفة من اليهود لانهم يهود وليس لانهم اسرايليون على حد زعم الكاتب . الا انه يتجاهل ، في عملية تضليلية لا مثيل لها ، ان هؤلاء اليهود كانوا يحملون الجنسية الاسرائيلية كذلك) ولكننا نتذكر الجدل الحامي الذي دار في فرنسا حول ازدواجية الولاء عند اليهود الفرنسيين . وفي هذا الصدد يحاول مزراحي تبرير هذا الواقع فيدمي بأن اليسار لم يفهم الفرق بين ازدواجية الجنسية وازدواجية الولاء ، اذ انه يتهم اليهود الموالين جدا لاسرائيل بالانتهاء الى غير وطنهم « في حين ان هذا اليسار لا يفكر ابدا باتهام التونسيين او اللبنانيين مثلا بخيانة ولاتهم لاطناتهم لانهم يتعاطفون مع الفلسطينيين » . لا شك ان المنطق الشكلي كما تعلمنا اياه المدرسة السفسطائية يتسم بقدره فائقة على تجاوز الواقع وتشويهه وفرض استنتاجات لا علاقة لها بالمعطيات الاساسية والمقدمات المفترضة . الا اننا لم نكن نظن ان لهذا المنطق كذلك مثل هذه القدرة على التفضيل والتشويه دون احترام حتى الشكل . فالمنطق الذي يقدمه لنا مزراحي هنا لا يحترم حتى قواعد المنطق الشكلي واصوله . انه بكلمة واحدة : لا منطلق اذ ابن وجه الشبه بين يهودي فرنسي يعطى كل ولاته لاسرائيل وبين عربي تونسي او لبناني يتعاطف مع الفلسطينيين ! ان العرب في كل اقطارهم لا يعترفون بالتجزئة الحالية ويعلمون دائما تمسكهم بالوحدة ومن هنا فان ولاهم لقوميتهم العربية يأتي قبل ولاهم للكيانات المصطنعة دون ان يطرح هذا

أية مشكلة ، أما اليهودي الفرنسي ففي وشبع مختلف تماما إذ أن هناك تعارضا واضحاً بين مصلحة وطنه ومصلحة إسرائيل إذ لا شيء يجمع بينهما على الإطلاق . ولجوء مزراحي الى هذا التشبيه لتبرير ازدواجية الولاء اليهودي ما هو الا من قبيل التصويه خاصة وأن أوروبا لا تعترف ولا تريد أن تعترف بالتومية العربية والقيار الوحدوي في الوطن العربي .

ثم أن العداء للسامية اختراع أوروبي لم تعرفه بلاد الشرق أبداً إذ من غير المعقول أن يكون العرب معادين للسامية، وهم أنفسهم ساميون . أما العداء لليهودية فمسألة مختلفة لها أسبابها في بعض الشاحنات الدينية والطائفية التي كانت تظهر بين الحين والآخر . فكما كان هناك أحيانا عداء بين هذه الطائفة الدينية وتلك ، كذلك كان هناك أحيانا عداء بين اليهود كطائفة دينية وبين غيرهم من الطوائف . أما أن يمتحن هذا العداء معاداة للسامية فتمييز خطير واعتراف يتسوق الشعب اليهودي وخصوصيته وفرادته واستخفاف ببقية الفئات الدينية والاجتماعية التي لا تمت الأضهاد بنفسه والعداء نفسه . وهذا المنطق يؤدي في النهاية الى عنصرية مخيفة تلتخص في الاحتجاج فقط على الأضهاد الموجه ضد اليهود واعتبار الأضهاد الآخر الموجه ضد الآخرين لا قيمة له على الإطلاق . لماذا ؟ هل لأن اليهودي من طينة غير طينة الآخرين ؟ كل ما نستطيع أن نقوله أن هذا ما تؤمن به الصهيونية وهذا ما تؤمن به أيضا النازية .

٢ - أما الفكرة الثانية في هذا الكتاب فتدور حول ما يسميه مزراحي عداء ماركس للسامية وذلك من خلال كتيبه « المسألة اليهودية » الذي هو عبارة عن رد سريع على نظرية باور التي هذه المسألة نفسها . يقول المؤلف : « بالنسبة الى العالم اللاهوتي المسيحي برونو باور كما بالنسبة الى عالم الاجتماع كارل ماركس ، ينفي القضاء على اليهودي بأية وسيلة كانت وبأية نظرية . وكتيب « المسألة اليهودية » ليس الا دعوة الى الجريمة ودعوة الى اباداة الجنس » (ص ٦٢) . هل صحيح إذن أن ماركس كان يكره اليهود وهو اليهودي الاصل ؟ ان عودة الى كتيب ماركس نفسه والى النص الاصيل توضح لنا كيف تنعدم الإماتة والموضوعية عند مزراحي وكيف يحصل

الكلمات فوق ما تحمله . يقول ماركس : « ان التحرر السياسي لليهودي وللمسيحي يكمن في تحرر الدولة من اليهودية ومن المسيحية » (ص ٢١) هذه الجملة تحولت عند مزراحي الى « دعوة الى الجريمة والى اباداة الجنس » (الجنس اليهودي طبعاً) . « وهنا يحق لنا ان نتساءل : لماذا لم يشر مزراحي الى دعوة ماركس المزعومة الى اباداة المسيحيين كذلك ؟ هذا اذا افترضنا ان هناك مثل هذه الدعوة . لماذا لا يشق ولا يغضب الا لليهود ؟ ان ثورة الكاتب الصهيوني ضد ماركس هي في الحقيقة ثورة ضد الموقف الثوري الذي اتخذه ماركس من القضية اليهودية وهو موثف مغاير تماما ومناقض جذريا للموقف الصهيوني . وهو لا يخفي غضبه لذلك وكان تهمة معاداة السامية قد الضقت به لانه رفض ان يتكلم عن حل صهيوني للمسألة اليهودية (انظر ص ٣٢ - ٣٣) .

وهنا من الضروري توضيح بعض النقاط التي تعمد الكاتب تجاهلها ليسهل أمامه مهمة اتهام ماركس بالعداء للسامية . فهو اولا يركز تركيزا ملفتاً للانتباه على كلمة « يهودية » دون ان يحاول اطلاقاً على المضمون الحقيقي الذي يعطيه ماركس لهذه الكلمة . انها تعني في قاموس الماركسية ، بالدرجة الاولى ، دورا اقتصاديا معيناً تقوم به طبقة معينة من الرأسماليين كما تعني ايضا الثقافة المسيحية السائدة والتي هي امتداد وتحقق لليهودية . إذن غالبية عند ماركس ليست مجرد ديانة سامية بل هي قبل كل شيء ايدولوجية الطبقات الأوروبية المسيطرة . وهذا ما يحاول مزراحي طمسها وتشويهه .

ومزراحي كذلك يرفض اعتبار المسألة اليهودية مسألة كفرها يمكن ان تحل من خلال عملية تحرير الانسانية من الاستغلال بل يصر على اضفاء طابع الخصوصية والفرادة عليها . فلا عجب والحالة هذه من أن نراه يتهم ماركس بالعداء للسامية مجرد ان هذا الأخير يرفض ايجاد « حل خاص » للمسألة اليهودية . وموقف مزراحي هذا هو في الحقيقة تشجيع وتحريض على دعم مواقف وحجج المعادين للسامية الذين كانوا دائما ينطلقون من خصوصية اليهود وعدم قابليتهم للتكيف مع غيرهم ليتكثروا من اضهادهم . وهذا الالتقاء الغريب بين أعداء اليهود وبين من يدعمون الدفاع عنهم يبين

لنا كيف ان الصهيونية في نهاية المطاف ، ورغم كل الادعاءات والمظاهر ، هي الحليف الاعز للمعادين للسامية ، وهي ، موضوعيا ، المستفيدة الوحيدة من وجود هذه الظاهرة . وما جهودها المتواصلة للحفاظ عليها وتاجيجها وتطويرها مع مفاهيم العصر الا من قبيل خلق حاجز في وجه العقل الاوروبي ومنعه ، عن طريق الابتزاز الفكري وعن طريق التهديد بتهمة العداة للسامية ، من رؤية حقيقة المسألة اليهودية وايهامه بان كل يهودي هو صهيوني وان أي انتقاد للصهيونية هو العداة للسامية بالذات .

الا ان مثل هذه المغالطات قد فعدت الان الكثير من تأثيرها وفعاليتها كما ان اليسار قد تحرر ، او يكاد ، كليا من هذا الازهاب الفكري وهذا مما يفسر لنا الى حد ما حرص مزراحي ، ومن ورائه منظرو الصهيونية ، على افتعال نوع جديد من العداة المبطن للسامية يوهمون الناس بأنه يوجه بشكل واع او لا واع كل مواقف اليسار المعسادي للصهيونية . وقد ظن انه قد وجد هذا النوع الجديد في ما كتبه ماركس نفسه عن المسألة اليهودية بشكل عابر . وقد سبق وبيننا تهافت مثل هذا المنطق بسبب ارتكازه على منطلقات خاطئة ومغالطات مقصودة .

وكان كل هذا لم يكف بماذا بالكاتب يفاجئنا بمقولة جديدة وغريبة مؤداها ان معاداة ماركس للسامية مردها الى عقدة بالذنب بسبب تربيته ونشأته وما الى ذلك من « تحليلات نفسية » لا تقوم على أي اساس علمي او موضوعي ومن غير المفيد التوقف عندها بالرغم من أن الكاتب قد كرس لها تمسها كبيرا من كتابه . الا أن ما نستطيع ان نعلق عليه في هذا الصدد هو ان هذا « التحليل النفسي » ليس في الحقيقة سوى وسيلة تفضيلية يحاول مزراحي بواسطتها أن « يدرس » الاسباب النفسية العميقة لسلوك ماركس المعادي للسامية وكان هذا التصرف قد بات امرا مؤكدا وثابتا ومفروغا منه وغير قابل للنقاش ! .

ان كل ما جاء في الكتاب حتى الان يبهد الطريق امام القارئ لكي يقبل بالمقولة الصهيونية التالية:

« ان هناك تناقضا مطلقا بين الاشتراكية ومعاداة السامية . لذلك تنبغي محاربة كل ظاهرة يسارية معادية للسامية بدون هوادة » حتى يتمكن المجتمع غدا من ان يكون اشتراكيا بدون ان يكون معاديا للسامية » . ان الصراع ضد المعاداة اليسارية للسامية يجب ان يكون عنيانا جدا لان هذه الظاهرة خفية وباطنية وغير معلنة على الرغم من انها تظهر احيانا عند بعض المتظرين الماركسيين امثال دويتشر وكيتشكو (ص ٢٤٢) يجب ان العمل على تحرير الماركسية من كل معاداة للسامية . ذلك ان « نهاية معاداة السامية » (وهنا في رأينا الغاية الرئيسية من هذا الكتاب) تعني ايضا « نهاية المعاداة للصهيونية » (ص ٢٤٨) . ان كل الاتهامات والتركيبات المنطقية الشكلية التي يحتويها هذا الكتاب تجد معناها وتفسيرها في هذه الجملة الاخيرة . وعلى هذا الاساس يتجزأ مزراحي على التأكيد مرة اخرى بأن ماركس لم يكن « ماركسيا » (هكذا) في نظريته الى اليهود لانه لم يكن صهيونيا ! وهذا يعني ان الصهيونية هي الاساس وأن معاداة الصهيونية اصبحت تعني الان معاداة السامية . واذا ما اخذنا بهذا المنطق فاننا سنصل الى يوم تلصق فيه تهمة معاداة السامية حتى باليهود الاسرائيليين ، وبشكل خاص الشرقيين ، الذين قد يثورون يوما على المؤسسة الصهيونية .

ان هذا الكتاب يلخص كل الايديولوجية الصهيونية اراء المسألة اليهودية وازاء موقف اليسار منها . انه يمثل اخر محاولات الدفاع عن النفس التي تقوم بها الصهيونية امام انفضاح امرها لدى اليسار العالمي . وهو من هذه الزاوية يمثل اخر ما وصل اليه الفكر الصهيوني في دفاعه عن نفسه وهو « اليسارية » ويكشف عن هويته الحقيقية وعن موقعه المحدد في محاربة الاشتراكية وحركات التحرر وكل الفكر اليهودي التقدمي المعادي له . من هنا اهميته ومغزاه بغض النظر عن قوته الانتاعية المحدودة وتداعي بنيانه الفكري والمنطقي .

ماجد نعمه

Walter Hollstein: Kein Frieden um Israel - Zur Sozialgeschichte des Palastina - Konflikts - (Fischer)

ولكن الكتاب لم ينزل الى السوق في ذلك العام فقد حدث ما منع توزيعه فجأة ، وتلقى المؤلف رسالة مسجلة من دار النشر تعلمه بان احد اصحاب الدار الدكتور برمان فيشر (وهو من عائلة يهودية المانية لها تاريخ عريق في عالم الطباعة والنشر) قد سبق ان اشترط ان لا تصدر الدار اي كتاب عن اسرائيل او النزاع العربي - الاسرائيلي او القضية الفلسطينية قبل ان يكون هو قد قرأه ووافق على اصداره . ولم تكن لجنة المحررين التي اشرفت على اصدار الكتاب قد فطنت الى هذا الشرط ورات ارسال الكتاب للسيد فيشر بعد ان تمت طباعته واصبح جاهزا للتوزيع . وبسرعة اصدر السيد فيشر تعليماته بايقاف توزيع الكتاب واتلاف النسخ المطبوعة منه رهيا يقرأه . ويعهد ان قراه اوكل الى احد « المتخصصين في تاريخ الصهيونية والقضية الفلسطينية » مراجعته ووضع تعليقاته على محتواه وهذا المتخصص محام يهودي الماني له علاقة بدار النشر . وبعد فترة قصيرة تلقى المؤلف رسالة من لجنة المحررين تحتوي على اقتراحات الدار بشأن اعادة طباعة الكتاب في قالب ومضمون جديدين على ضوء التعليقات والاراء التي اثارها صاحب الدار والمخامى بعد مراجعته الكتاب . وكانت اهم نقاط التغييرات المطلوبة :
اولا : تغير صورة الغلاف - وكانت الصورة الاصلية تمثل غذائيا فلسطينيا يتوسط رأس موسى دايان واقترح استبدالها بصورة لمجموعة من اللاجئين تسير فوق جسر اللذبي المتحطم اثناء القتال في يونيو ١٩٦٧ او صورة لبعض انسداد الجيش الاسرائيلي وهم يقتحمون قرية عربية وقد استقر الرأي نهائيا على صورة اللاجئين وهم يعبرون الجسر .

ثانيا : استبدال عنوان الكتاب ، فبعد ان كان العنوان « العرب والتحدي الصهيوني » اصبح في الطبعة الجديدة « لا سلم حول اسرائيل - التاريخ الاجتماعي للنزاع الفلسطيني » .

كما اصابت اقتراحات التعديل والتبديل نحو مائة رأي او حادث مذكور في الكتاب وشملت اكثر الصفحات ولم تسلم منها اية فقرة من فقراته ، وبعض نقاط التعديل مطلق بدقة التواريخ وتسلسل

لكتاب البروفسور فالتر هولشتاين (لا سلام حول اسرائيل : التاريخ الاجتماعي للنزاع الفلسطيني - او العرب والتحدي الصهيوني) قصتان ، قصة تأليفه واخراجيه ونشره وقصة مواده ومضمونه ، ولنبدا بالقصة الاولى : في اواخر ١٩٦٩ عكف البروفسور فالتر هولشتاين - وهو استاذ جامعي سويسري يعمل في بزلين الغربية - على وضع كتاب عن مشكلة فلسطين كنموذج لصراع اقتصادي واجتماعي بين الحركة الصهيونية وحركة الاستقلال الوطني العربية . وكان هدفه من وضع الكتاب ابراز الطابع الاستيطاني الاستغلالي في التطبيق الصهيوني وفضح الوجه الرأسمالي الامبريالي للحركة الصهيونية التي استعملت المشكلة اليهودية في اوربا وروسيا لاقامة مجتمع عنصري شوفيني في فلسطين .

قبل الابداء على وضع الكتاب قام المؤلف بزيارة عدد من الدول العربية من اجل جمع المعلومات والوثائق المتعلقة بالمشكلة ، وفي اثناء هذه الزيارات درس عن قرب الواقع الاجتماعي والسياسي لحركة المقاومة الفلسطينية ، وفي مكاتب الاعلام العربية الرسمية اطلع على مواقف الدول والحكومات العربية من النزاع العربي - الاسرائيلي وتجمع لديه كمية هائلة من المواد الاولى والمراجع الاصلية .

في اواخر عام ١٩٧٠ وبعد عودة المؤلف من زيارة للقاهرة وعمان وبيروت بدأ كتابة الكتاب وانتهى من تأليفه في اواخر عام ١٩٧١ ، ثم عرضه على دار فيشر الالمانية للنشر ، وهي اكبر دار نشر المانية ، وقامت لجنة من محرري الدار بتقييم الكتاب ورغبت توصية الى ادارة الدار بتصحيح بنشر الكتاب لاهمية-الطبية وقيمه السياسية ولاختوانه على استعراض تاريخي اجتماعي للنزاع العربي - الاسرائيلي لم يسبق تقديمه في اي كتاب صدر من دار نشر اوروبية او امريكية ، وتم اتخاذ قرار بانزال الكتاب الى السوق قبل نهاية العام لما فيه من فائدة ادبية ومادية (الريح وضمان بيع كمية كبيرة) وقبل نهاية عام ١٩٧١ بايام كان قد تم طبع ٢٠ الف نسخة من الكتاب اعدت للتوزيع لتكون في المكتبات قبل حلول اعياد الميلاد ورأس السنة .

الأحداث أو طريقة التفسير وصحة المراجع .
وبشان المراجع اشارت الرسالة الى ان الكتاب
يعتد اعتمادا كبيرا على المراجع العربية ووجهات
نظر الطرب العربي والفلسطيني مما يجعل الكتاب
بشكله الاصلي يبدو متحيزا وغير موضوعي .

ولكن اهم ما جاء في رسالة الدار الى المؤلف هو
البرر الذي قدمته الدار لاضطرابها اعادة النظر
في شكل الكتاب ومضمونه بعد تدخل صاحب الدار
شخصيا في الموضوع . فقد جاء في الرسالة « ان
الدار مع اعترافها بقيمة البحث وموافقتها المبدئية
على اصدار كتاب ينتقد الصهيونية على اساس
علمية مدروسة درسا عميقا ، الا انه يجب مراعاة
هدة امور مبدئية بالنسبة لموضوع الصهيونية
واسرائيل ، اذ ان اي كتاب انتقادي يتعرض مثلا
للولايات المتحدة او اليابان او الارجنتين لن يؤدي
الى اثاره الحساسيات ، ولكن ان يصدر كتاب عن
اسرائيل هنا (اي في المانيا) وفي هذه الظروف
فهو امر يختلف اختلافا كبيرا . فرأي بعض الشباب
الاشتراكيين الذين يتفهمون موقفهم الايديولوجي في
المسألة اليهودية لا يمكن تعميمه على شعب بأكمله .
فالعلانية السياسية تصطدم هنا بالحدود
الموضوعية واي اهمال لهذه الحدود فيه خطأ
كبير ، فاسرائيل تتمتع بتأييد وعطف واسعين .
ومرد ذلك الى التضامن مع ضحايا النازية والمبالغة
في التعويضات عما حل باليهود . كما انه يوجد
هنالك لاسامية مبطنة لدى فئات واسعة يواجهها
من ناحية اخرى شعور لدى رجال الفكر بالاحكام
عن انتقاد اليهود خوفا من حدوث استغلال من
قبل الفئات اللاسامية لهذا الانتقاد وبناء حجج
جديدة عليه ضد اليهود مما سيؤدي الى انعاش
اللاسامية ثانية . وعليه فان اي كتاب انتقادي
لاسرائيل يجب ان يحسب حساب تأثيره على الرأي
العام ، ويجب ان يتجنب مثل هذا الكتاب اسلوب
المجادلة الكلامية (Polemik) والتوهويل ، وان
يكون موضوعيا وغير متحيز وقائما على الاحاجيج
بدل العبارات العامة . كما يجب ان لا يدعو الى
الاستفزاز لانه في مثل هذه الحالة سيؤدي السى
عكس ما يقصده ، ويجب ان يراعى مشاعر القراء
اصحاب وجهات النظر المخالفة وذلك باستعمال
اسلوب الافتتاح الهادئ » .

وأقرت الرسالة ان كتاب البرونسور هولشتاين
يتمتع بالعديد من هذه الشروط ولكنه يحتاج الى

بعض التعديلات حتى تكتمل فيه جميع الشروط
وتقول الرسالة « اذا لم يوافق المؤلف على هذه
الشروط ويرى ان يلجأ الى اصدار الكتاب كما
هو في دار نشر اخرى فانه سيتحمل العديد من
المصاعب التي سيكون من ضمنها ايقاع الاذى
بسمعته ، فمحررو الدار يجدون انفسهم في وضع
صعب وهم لا يستبعدون حدوث فضيحة صحافية
ربما تؤدي بصورة غير مباشرة الى اندلاع موجة
من اللاسامية تلحق بالدار خسائر فادحة ولا يمكن
ان يكون هذا من اهداف المؤلف ، لهذا تقترح
الدار حلا وسطا وهو اجراء المراجعة والتعديلات
واضافة مقدمة ايضاحية للكتاب توضح هدفها من
اصداره . وقد وافق المؤلف على هذه الشروط
انتقازا للكتاب ولاعتقاده ان الكتاب حتى بعد اجراء
التعديلات واضافة المقدمة سيؤدي الى الهدف
الذي وضعه امامه عند تأليفه وهو اطلاع الرأي
العام الاوروبي على صفحة مطوية من صفحات
الحركة الصهيونية وممارساتها في فلسطين . اما
المقدمة التي اضافتها الدار الى الكتاب فانها ،
وان كانت تحمل لهجة الاعتذار لاسرائيل ومؤيديها ،
الا انها لا تحتوي على اي مقاطع او معاني تقفل
من قيمة الكتاب او تبطل مفعوله .

يقع الكتاب في ٢٨٠ صفحة موزعة على تسعة
فصول هي : الصهيونية واللاسامية ، سياسة
وضع الاهداف في الحركة الصهيونية ، الاستعمار
الصهيوني في فلسطين (فصلان) ، تقسيم
فلسطين ، وهكذا قامت اسرائيل (ثلاثة فصول) ،
المقاومة الفلسطينية . لن نستعرض هنا ما جاء
في هذه الفصول لكن ما نريد ان نؤكد ان الفصول
بمجموعها قد اختصرت تاريخا طويلا في صفحات
قليلة دون ان تفقد هذا التاريخ اي عنصر من
عناصر تكوينه . ان هذه ميزة يتحلى بها الكتاب
على طول الخط مما يجعله صالحا للقارئ العادي
الذي يحتاج الى كتاب بسيط ولكنه مفيد من حيث
تقديمه المعلومات والحقائق الرئيسية ، وربما كان
هذا هو السبب الذي دعا دار النشر الى اصدار
الكتاب في طبعة جيب شعبية بثمن يتحملة المواطن
صاحب الدخل المتوسط .

يعتبر كتاب البرونسور هولشتاين موضوع هذه
المراجعة وفتحة سياسية تاريخية هامة استطاعت
خرق حاجز الصمت الفكري الرهيب الذي طوق
القضية الفلسطينية في المانيا الغربية منذ وضعت

الأستقلال » في الوقت الذي يكون فيه مسترسلاً في وصف عدوانية اسرائيل وامبريالية الصهيونية . يعتبر الفصل الاخير من الكتاب وما تضمنه من تحديد لطبيعة المواجهة بين اسرائيل والمقاومة الفلسطينية (والاستنتاج بان المقاومة هي السرد التاريخي الحقيقي للهجوم الصهيوني والواقع الاجتماعي في المنطقة) نقطة فارقة في تطيله للقضية الفلسطينية منذ اوائل الاستيطان الصهيوني حتى ظهور المقاومة المسلحة . ويكتسب هذا التحليل والاستنتاج اهمية خاصة في هذه الفترة التي تتعرض فيها المقاومة الفلسطينية الى اعنف حملة صهيونية غربتها تاريخ الثورة الفلسطينية منذ عام ١٩٢٠ ، خاصة بعد موجة الازهاب الاعلامي الصهيوني والتهديد الاسرائيلي بالتصفية الجسدية الكاملة لكل مؤسسات المقاومة ومصادرها البشرية ، والذي بدأ تنفيذه فعلاً بالهجمات الاسرائيلية الاخيرة على تجمعات الفلسطينيين في سوريا ولبنان بهدف تحطيم القاعدة البشرية التي تنفذ منها المقاومة عربياً وفلسطينياً . من هنا يكون وجود كتاب هولشتاين في الاسواق الاوروبية بجانب تعليقات بعض الكتاب من اصحاب الالتزام الثوري والانساني على انسانية القضية والتخاطبها بمستقبل جواهر المتلفة وشعبوها بمثابة حجر اساس يمكن البناء عليه سياسياً واعلامياً لاجراخ القضية من اطرافها الدولي الروتيني كمشكلة نزاع عربي - اسرائيلي حول حدود آمنة واعتراف بسيادات دول وضمان وحدة اراضيها ، واعادتها ثانية الى حبيسها الاصلي كقضية مصير التقدم الاجتماعي والاستقرار السياسي لمنطقة الشرق الاوسط وشعبوية واعتبار حق الشعب العربي والفلسطيني في مقاومة الدولة الصهيونية المدخل الوحيد للقضية من بابها التاريخي اقتصادياً واجتماعياً .

الدكتور عدنان العماد

الحكومة الالمانية مبدأ محور الجريمة النازية بحق اليهود في صلب سياستها الخارجية والاعلامية تجاه اسرائيل . كما أن الكتاب وعلى الرغم من التعديلات والمقدمة التي فرضتها عليه دار النشر - لا يزال يسجل لهذه الدار نقلاً ادبياً لاتدامها على نشره على الرغم من ان بعض اجزائه يتعارض مع آراء صاحب الدار . ويظهر أن لجنة المحررين التي اشرفت على اصدار الكتاب كان لها دور ايجابي في الاصرار على نشره . ولكن الكتاب يشكو من بعض نقاط الضعف التي لا علاقة لصدار النشر بها ولا يمكن تحميلها سوى للمؤلف . فالكتاب عند مطالعته ككسل يبدو وكأنه ملخص لكتابات العديد من المفكرين التقدميين الذين مالجوا القضية ونذكر منهم من الاجانب مكسيم رودنسون (يهودي فرنسي) ، اهارون كوهين (يهودي اسرائيلي) ايلي لوبل (يهودي اسرائيلي) اريك رولو (يهودي فرنسي) وارنولد توينبي المؤرخ البريطاني ومن العرب انور عبد الملك وصبري جريس وسامي هداوي .

والكتاب يلجأ في اكثر جملته الى الاشارة الى المراجع لدعم ما يفكره حتى انه يكاد يخلو من رأي خاص للمؤلف . وهذا الاسلوب جاء رحمة ولعنة على الكتاب ، فهو رحمة اذ انه جمع مع الكتاب قائمة فريدة من المراجع لم يحتوها كتاب اجتنب من قبله ، وهي تشكل قيمة علمية بحد ذاتها . اما اللعنة فلكون هذه المراجع جعلت الاقوال والجمال المقتبسة تطفئ في اكثر من اي موضع على روح التحليل والاستنتاج .

في العديد من المواقع يقع المؤلف في تناقضات ، ان كانت تبدو عند قراءتها مع تسلسل الوقائع ثانوية إلا انها في حالة تكرارها تفقد الكتاب والمؤلف الكثير من المبدئية التي يتعلق بها الكتاب ككسل . وعلى سبيل المثال يقع الكاتب مراراً في خطأ تسمية قيام دولة اسرائيل « بحرب التحرير او معركة

William L. Cleveland, *The Making of an Arab Nationalist: Ottomanism and Arabism in the Life and Thought of Sati' al-Husri* (Princeton University Press, Princeton, 1971).

حياة غنية بالتجارب الفكرية والعملية ، اذ كان ابوه قاضيا من حلب ينتقل بحكم منصبه في الجهاز الحكومي بارحاء الامبراطورية العثمانية ، فولد ابنه ساطع في صنعاء عام 1880 وتعلم في المدرسة الملكية في استنبول حيث برز في الرياضيات واللغة الفرنسية . وعبر هذه اللغة اكتشف الحصري روائع الفكر الاوروبي وتراثه العلمي . وبعد تخرجه عين مدرسا في ولاية ياتيه التي تقع اليوم بين اليونان والبنانيا ، عكس في البلقان ثمانية اعوام نضج فيها تفكيرا والف اثناها اربعة كتب اعتمدت للتدريس بجميع المدارس الابتدائية والثانوية بالامبراطورية . وقد جذبت اليه مواهبه التربوية اهتمام المثقفين ، فقرر ان يترك التدريس من اجل وظيفة اخرى تتيح له مجالات اوسع لنشر افكاره الاصلاحية . فعين قائما لمدينة في مقدونية وتدرج في المناصب . واخيرا ترك الوظيفة الحكومية في البلقان واستقر في استنبول حيث اصدر مجلة علمية . واصبحت له في هذه الاونة علاقة قوية مع حزب الاتحاد والترقي الذي كان يطالب باعادة الدستور ، الا ان الحصري لم ينتم الى الحزب . وكان الحصري قد اصبح في عداد كبار المرشحين والمفكرين في الامبراطورية العثمانية على الرغم من حداثة سنه ، اذ لم يكن قد بلغ الثلاثين بعد ، عندما وقع الانقلاب الذي ازيع فيه السلطان عبد الحميد عن العرش عام 1908 . وفي هذه المرحلة من حياته بقي متمسكا بالفكرة العثمانية ، وبنائا عن المنادين باحياء الكيان العربي المستقل ، الا انه لم ينحرف مع التيار الذي مثلته حركة تركيا الفتاة في سعيها لتتريك الامبراطورية . ولكنه واصل في كتاباته الدعوة الي احداث تطوير على نمط اوروبي للدولة بعد ان عين مديرا لكلية المعلمين .

ويشدد كليفلند على الاتجاه العلماني للحصري ، وهو الاتجاه الذي لم يتخل عنه طول حياته ، اذ لم يؤمن بجدوى الجامعة الاسلامية ، لا في اثناء وجود الدولة العثمانية ، ولا بعد استقلال الاقطار العربية . الا ان الباحث الامريكسي يشير الى الاختلاف في نظرة الحصري الى مقومات الدولة بين المرحلتين العثمانية والعربية في حياته . فهو في

اول ما يتبادر الى الازهان عندما يقرن اسم ساطع الحصري بفلسطين ، عبارته الشهيرة « سئلت لماذا خسرتنا فلسطين ونحن سبع دول ، فاجبتهم خسرتها لاننا سبع دول » . ومع ان الحصري لم يخصص كتابا من بين انتاجه الغزير ليعالج فيه القضية الفلسطينية بتفصيل ، الا ان الباحث الامريكسي وليم كليفلند لا يقلل من اهمية مساهمته في القضية ، اذ يقول في ص 131 من كتابه : « لسع يعالج الحصري مشكلة فلسطين باسهاب كما فعل سائر القوميون العرب . فهو لم يؤكد على ضرورة المعركة الحاسمة ، او يتوسع بالحديث عن مظاهر الاسرائيليين ، فطريقته اعلمق من ذلك : انه يكرر دوما حتمية الوحدة العربية ، بما في ذلك فلسطين ، معتبرا دوره في تحرير الارض دور الدعائي وليس المخطط للعمل المباشر . فني تقرير قدمه الى المشتركين بمؤتمر بلودان حول القضية ، اقترح برنامجا للتصدي لادعاءات الصهيونيين يتضمن نشر المعلومات في الغرب والشرق ، وبين ابناء الجيل القادم الذي سيواجه اعظم تحد من الصهيونية » . وفي ص 75 يذكر كليفلند ان الحصري دعا العراق ابان الثورة الفلسطينية في الثلاثينات الى اعتناق مبدأ الانحياز ، والى الضغط على الدول الغربية من اجل نيل الفنازلات منها بالنسبة لفلسطين وسورية . وفي الوقت الذي عارض فيه نوري سعيد ارسال الاملحة الى فلسطين لثلاث تسعميل هناك ضد الجنود البريطانيين ، طالب الحصري بارسالها وندد بخضوع نوري التام لبريطانيا ، مما جر عليه نقمة النظام الحاكم في العراق ، الذي وجد في تاييده لحكومة رشيد عالي الكيلاني الوطنية عذرا في سحب الجنسية العراقية منه .

ان اهمية كتاب كليفلند تكمن في تتبعه للنمو الفكري لدى ساطع الحصري ابتداء من ايام شبابه في العهد العثماني ، عندما كان احد المؤمنين بوجود بقاء الدولة العثمانية ، الى حين اكتشافه القومية العربية بعد الحرب العالمية الاولى وتكريسه الجزء الاكبر من حياته لخدمة وترويج هذه الفكرة كمؤلف ومرب . وينقسم الكتاب الى قسمين ، اولهما يتناول حياة الحصري ، والثاني يركز على ارائه في القومية العربية . وقد عاش الحصري

المعلمين . وكان ثابتا لا يلين في موقفه ، يقاوم موجات المعارضة التي اكتفقت من كل جانب تقريبا بعناد الرجل الذي يعرف انه على حق . الا انه اضطر الى الاستقالة من منصبه في النهاية ، ليلتحق بدار المعلمين في بغداد كاستاذ . ثم عين بعد ذلك عميدا لكلية الحقوق ، واخيرا مديرا عاما للآثار ، بغية ابعاده نهائيا عن سلك التعليم . ولكن حتى في هذا الحقل البعيد عن اختصاصه الاصلي ، ابدى الحصري كفاءة لغتت اليه انتباه عصبة الأمم التي عينته عضوا في لجنيتها الاستشارية المختصة بشؤون الآثار والفنون . وعندما سقطت حكومة رشيد عالي التي كان الحصري قد تعاطف معها لسياستها الوطنية الهادفة الى ازالة النفوذ البريطاني عن العراق ، سحبته منه الجنسية وطرد من البلاد . فاقام في بيروت اولا ، ثم دعت الحكومة السورية بعد استقلال البلاد للمساعدة في وضع سياسة تربوية جديدة ، الا ان اصلاحاته اثارت تذمر الكثيرين الذين لم يرق لهم اتجاهاه العلماني ، فغادر دمشق إلى القاهرة ، ليصبح اول عميد لمعهد الدراسات العربية العليا . ومع انه تقاعد عام ١٩٥٧ الا انه استمر في التأليف ، داعيا للوحدة العربية ومدافعا عن القومية العربية ضد المتهجمين عليها ، فأنتم عليه الرئيس عبد الناصر بوسام رفيع ، كما اعادت اليه الحكومة العراقية جسيته ، وتوفي في بغداد في كانون الاول ١٩٦٨ ، بالغا من العمر ٨٨ عاما .

المتاح في شخصية الحصري ، كما يراه كليفلند ، هو اعتقاده للمنهج البراهماني في التفكير منذ شبابه . فانه بعد سقوط الدولة العثمانية التي كان هو من دعاة بثائها ، لم يجد صعوبة كبيرة في تطوير عقيدته المتعلقة بتكوين الامة - الدولة من الايمان بالدولة التي ييسر تاريخها الطويل استمرار بقائها كوحدة متكاملة ، (كالامبراطورية العثمانية ، على الرغم من انها تضم شعوبا تنطق بلغات متعددة) الى المناداة بنشوء الدولة ارتكازا على الامة ذات اللسان الواحد المشترك . كان الحصري متأثرا بتعاليم الفيلسوف الالماني فيخته الذي دعا الى وحدة الامة الالمانية في خطب بلنفة الهبت حماس المقتنين الالمان . الا انه - اي الحصري - فضل ان يضع دعوته في قالب اكثر هدوا . وعقلانية . فان كتبه التي صاغها في أسلوب مبسط . تلبس تسري فيها روح علمية رصينة . وتتطلق من قاعدة جدلية بيداغوجية ذات تأثير

المرحلة الاولى كان يؤيد انضمام اقليم الأناضول والاورين الى فرنسا وذلك لحقتها التاريخي بهما ، مع ان سكان هذين الاقليمين كانوا ينطقون الالمانية . ولكن الحصري لم يكن آنذاك يعمر وحدة اللغة اهمية كبيرة في تكوين الدولة الواحدة ، باعتبار ان الامبراطورية العثمانية كانت تضم شعوبا عديدة . اما بعد نهاية الحرب الكونية ، وعندما قرر العودة الى الوطن العربي ، فقد غير وجهة نظره ، واصبح يعارض بشدة عقيدة المفكر الفرنسي ايرنست ريفان في مخومات الامة .

حافظ الحصري على ولائه للدولة العثمانية اثناء الحرب ، ولم يستطع كليفلند ان يحدد موقفه تجاه دخول القوات العربية دمشق تحت الراية الهاشمية ، كما انه لم يتمكن من ان يعين بالضبط الدوافع التي جعلته يعود الى البلاد الغربية بعد ان كان قد اقام في تركيا الجزء الاكبر من حياته حتى ذلك الحين . فالانتراك بعد انهيار امبراطوريتهم طالبه بالبقاء في بلادهم ، كما ان زوجته التركية لم تكن متحمسة لمغادرة وطنها . ولكن الحصري عاد الى الوطن العربي ، فعين مديرا عاما للتعليم ثم وزيرا للمعارف في حكومة فيصل السورية ذات العمر القصير . وعندما زحف الجنرال الفرنسي غورو على دمشق ، انتسب الحصري ليفاوضه بسبب اتقائه الفرنسية ، وقد ترك لنا سجلا لذلك المرحلة الحاسمة في كتابه « يوم ميسلون » . وبقي الحصري في معية الملك فيصل بعد ان فقد الاخير عرشه ، فطاف معه في رحلاته ، كما قضى فترة من الزمن في القاهرة يدرس الاساليب التربوية المستخدمة فيها . فصر كانت القطر الوحيد الذي تدرس فيه المناهج التعليمية بالعربية .

وعندما توج فيصل ملكا على العراق ، عين الحصري مديرا عاما للمعارف . وكما هي عادته ظل بمنأى عن النشاط السياسي ، مكرسا نفسه كليا لعمله التربوي . فآلف الكتب واصدر الحوليات ، الا ان العراق الذي كان آنذاك يمر في طور التكوين ، وتعصف به الاهواء والاتجاهات المتضاربة ، علاوة على المصيبيات القبلية والطائفية ، لم يجعل مهنة الحصري هينة . فهو اولا كان خريج مدرسة مصرية يعمل خبزا التي تجنب مع رجال أغلبيتهم من المستعربين خريجي الكلية الحربية في الاستانة . ثم انه كان سوريا بين هراقينيين ، ويثقفا غربي التفكير بين اناس من انصاف

الاجتماع . وانه اخيرا وليس اقل اهمية ، عالم تربيوي كبير ، وتشهد له بذلك « القراءة الخلدونية » التي ما زالت تعتبر من افضل الكتب التي الت لتعليم الاطفال القراءة والكتابة . صحيح انه اختلف مع كارل ماركس في تعريفه للقومية ، الا ان جميع الاحداث والتطورات التاريخية تنفق الى جانب هذا الفكر العربي وتشير الى انه كان على حق في هذه النقطة على الاقل . وختاما لا بد من القول بان وليم كليفلند قام بجهد طيب في تقديم شخصية ساطع الحمري وتفسير نظرياته في كتاب لا يضم اكثر من ١٨٢ صفحة . وينبغي ايضا الاشادة بلحق الكتاب الذي يشتمل على سجل كامل لكتابات الحمري في التركية والعربية .

ف. المنصور

آسر ، مما يفسر نجاحها الكبير ورواجها بين الناس . كان للحمري تلاميذ كثيرون تسلقوا على كتفيه ، ولكنهم بعد ذلك انكروه . الا انهم اذا كانوا قد درسوا مبادئ القومية على يديه ، فان كتبهم التي بدأ نسيها يتدفق منذ اواخر الخمسينات كانت اما من النوع الثالث بين سحب الرومانسية ، او من الطراز المنطلق من قاعدة ماركسية غير مهضومة كليا . لقد عابوا عليه قلة اهتمامه بالاقتصاد ، واخذوا عليه صداقته مع الملك فيصل الاول ، ولكنه التركية التي اثقلت لسانه العربي الى يوم ممانه ، متناسين انه اول من كتب عن القومية بأسلوب علمي ، واول من دعا الى العلمانية في التعليم في عهود طفى عليها التفكير الغيبي ، واول من نادى بعروية مصر التي لا تنكر ، ومن اوائل العرب (بعد ابن خلدون) الذين كتبوا في علم

Elmer Berger, Letters and Non-Letters: The White House, Zionism and Israel.

(The Institute for Palestine Studies, Beirut, 1972).

العضوي بين الكيان الصهيوني في اسرائيل والامبريالية . ويأمل آدامز ان يؤثر نشر رسائل بيرغر في الشعب الاميركي ، القوة الوحيدة التي يمكن « ان تجبر صانعي السياسة في البيت الابيض على تغيير سياسة الادارة الاميركية وتحويلها للعمل من اجل التوصل الى سلام عادل في المشرق الاوسط » . ويضيف آدامز انه ما لم يحدث مثل هذا التحول « فان المساعدة الاميركية لاسرائيل ستستمر . وهذا يعني تعطيل جميع الجهود التي قد تبذلها الامم الاخرى من اجل توطيد السلام » . ويلتقي آدامز مع بيرغر في الدعوة الى سلام « قائم على حقوق متساوية لكل الشعوب - بما فيها الشعب الفلسطيني - تعيش في حرية وسعادة » . وليس سلاما قائميا على التفرقة العنصرية او الظلم .

المسألة الرئيسية التي يثيرها بيرغر في الدرجة

الكتاب عبارة عن عدد من الرسائل المتبادلة بين المر بيرغر ، حين كان رئيسا للمجلس الاميركي لليهودية المعادي للصهيونية ، وبين عدد من العاملين في ادارة نيكسون الاميركية ، وذلك خلال سنة كاملة بين آب (اغسطس) ١٩٧٠ وآب (اغسطس) ١٩٧١ . ويبلغ عدد الرسائل المتبادلة ١٢ رسالة تعكس وجهة نظر المؤسسة الحاكمة في الولايات المتحدة الاميركية ، وتبين جانب السياسة الامبريالية المملوغ في معالجة قضية الشرق الاوسط في هذه الفترة . والجدير باللاحظة ان هايكل آدامز ، مؤسس صحيفة الفارديان البريطانية السابق في مجلة الشرق الاوسط ، قد قدم للكتاب . واذا كان آدامز يعتقد - دون ان يذكر السبب - ان نشر رسائل بيرغر قد لا يؤثر بصانعي سياسة الولايات المتحدة الاميركية ، فنحن نؤكد ان هذا لن يحدث نظراً للارتباط

الأولى هي مسألة « الشخصية اليهودية » لدولة إسرائيل . ودلت رسائل بيرغر على استيائه الشديد من المساعدة المستمرة التي تقدمها الحكومة الأمريكية « للدولة العنصرية في إسرائيل » والتي عكست — ولا تزال من أجل خلق أغلبية من اليهود فوق أرض فلسطين كما تستكمل العناصر الشرعية والقانونية ، وتوفر لنفسها شروط البقاء والاستمرار . ويربط بيرغر موقف الإدارة الأمريكية هذا بأهداف الحركة الصهيونية العالمية الرامية إلى ضرورة الحفاظ على « شخصية يهودية جوهرية لدولة إسرائيل » . من خلال هذا الفهم ينطلق بيرغر في حملته ضد الصهيونية التي حققت « أغلبية يهودية في فلسطين » على حساب شعب فلسطين . وبهذا الفهم تصطبغ رسائله الموجهة إلى البيت الأبيض خلال عام كامل .

بعد المبادرة الأمريكية التي أعلنت في صيف عام ١٩٧٠ ، والتي عرفت منذ ذلك الحين بمبادرة روجرز وجه بيرغر رسالة إلى الرئيس نيكسون في ٢٥ آب (أغسطس) تثنى فيها « أن يقرأ الرئيس رسالته شخصياً ، أو أحد من مساعديه المشرفين على أزمة الشرق الأوسط » . ويضيف بيرغر في رسالته أن المبادرة « تقدم أفضل فرصة — منذ أكثر من عشرين عاماً — من أجل إقامة سلام عادل ودائم في الأزمة الإسرائيلية — الصهيونية — العربية » . ويذكر بيرغر الرئيس الأمريكي بتقرير صحفي صادر عن أحد المسؤولين في البيت الأبيض ونشر في جريدة (نيويورك تايمز) في ١٧ آب (أغسطس) ١٩٧٠ . وجاء فيه : « أن الولايات المتحدة لا ترى أية فرصة للتوصل إلى حل لازمة الشرق الأوسط ما دامت الدول العربية تصر على إعادة (١٩٤٢) مليون لاجئ فلسطيني إلى (أراضيهم) ، في حين أن إسرائيل تبدو غير مقتنعة بإعادة هذا العدد الكبير من اللاجئين لأن ذلك يهدد الشخصية اليهودية الجوهرية لدولة إسرائيل » . ويؤكد بيرغر أن هذا التصريح يتناقض مع الاتفاقيات الدولية والقانونية والمعترف بها بشكل عام ، وخاصة ما يتعلق منها بالمسألة الفلسطينية ، إلا أن بيرغر يعود ويؤكد في رسالته إلى الرئيس الأمريكي أن موقف الولايات المتحدة هذا يعبر عن مخاوف الإدارة الأمريكية إزاء كل ما يهدد تغيير « الشخصية الأساسية اليهودية لدولة إسرائيل » ؟

يؤكد بيرغر أن « الصهيونية لا يمكن أن تتطور وتؤسس دولة صهيونية دون انتهاك حقوق الفلسطينيين المعادين للصهيونية ، وهذا يزيد من تشعب المشكلة الرئيسية في فلسطين وصعوبتها » . ويضيف بيرغر بوضوح أكثر ، « أن الشخصية الصهيونية لا تعتمد على التفرقة العنصرية ضد المسلمين والمسيحيين من الفلسطينيين وحسب ، بل ضد المعادين للصهيونية من اليهود أيضاً » . ويتم بيرغر الإدارة الأمريكية لأنها ساعدت حركة الصهيونية العالية من أجل طرد الفلسطينيين والتوصل إلى أغلبية سكانية من اليهود معياً وراء « وضع قانوني » لدولة إسرائيل . أن هذه المساعدة جعلت من إسرائيل « دولة يهودية » ، وبصورة أدق « دولة صهيونية » . ناحية أخرى تثير اهتمام بيرغر وهي أن الإدارة الأمريكية قد أعلنت أكثر من مرة بأن أطراف النزاع في الشرق الأوسط « هم الذين تقع على عاتقهم مسؤولية التوصل إلى حل » ، وأن الولايات المتحدة الأمريكية لن تفرض حلاً خاصاً بها من أجل ذلك . وجاءت هذه التصريحات من البيت الأبيض التي ذكر في أحدها ، كما نشر في جريدة نيويورك تايمز أن « مفتاح السلام في الشرق الأوسط بيد العديد من الأطراف : أولاً ، الأطراف المعنية في المشكلة : الإسرائيليون وجيرانهم ، وعلى وجه الخصوص الجمهورية العربية المتحدة (ذلك الحين) والأردن . وهو ثانياً ، في أيدي الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى وفرنسا ... الرابع الكبار » . ويضيف التصريح أنه « إذا لم يتم الاتحاد السوفياتي بدور توفيقى يساعد في التوصل إلى سلام فليس هناك فرصة على الإطلاق من أجل تحقيق السلام في الشرق الأوسط » . ويعلق بيرغر على الفترة الأخيرة من التصريح بقوله أنها « مقبولة ظاهرياً » ، ويتساءل في رسالته إلى الرئيس نيكسون المؤرخة ١١ كانون الثاني (يناير) ١٩٧١ أنه إذا كان الاتحاد السوفياتي مسؤولاً عن السيطرة على وجهات نظر الحكومات والشعوب العربية المعنية في أزمة الشرق الأوسط ، فإلى (أي الرئيس الأمريكي) « لم تشر إلى أنه بإمكان الولايات المتحدة — أو أنها ستفعل ذلك — القيام بمحاولة مماثلة للسيطرة على سياسات إسرائيل وتوجيه مواقفها ... بينما ، في الواقع ، أن عددًا من أعضاء حكومتك صرحوا في عدة مناسبات أن الولايات المتحدة لا تستطيع القيام بهذا الدور » .

ان بيرغر هنا يحاول الدخول في اللعبة السياسية الدولية ولكن ، اذا كان السلام الذي يدعو بيرغر اليه ويعمل من اجل تحقيقه هو السلام الذي ستفرضه - عاجلا او آجلا - الدول الاربعة الكبار ، او الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، او الولايات المتحدة منفردة ، .. فهذا امر آخر . ان بيرغر في هذه الحالة يدخل اللعبة السياسية الدولية تحت اقواس الترحيب . ولذلك من الافضل ان يركز بيرغر عمله السياسي بين الصفوف الاميركية واليهودية في الولايات المتحدة من اجل فهم اكثر موضوعية للقضية الفلسطينية . يشير بيرغر في رسالة اخرى الى ان الادارة الاميركية ترفض ان تدرك بان دعمها المتواصل لدولة اسرائيل « الصهيونية العنصرية » هو تعطيل دائم « لفرض السلام في المنطقة » . ويحاول بيرغر ان يثقل كاهل الحكومة الاميركية بالاحتجاج والاحراج عند قوله ان « الولايات المتحدة - من خلال الدعم الذي تقدمه الى اسرائيل - تتمتع بموقف قوي يخولها ان تتخذ اجراءات حاسمة ضد الدولة العنصرية » .. هذا اذا كانت تسعى بالفعل الى سلام عادل ودائم في المنطقة (١) .

ما لا شك فيه ان الناحية الايجابية في رسائل بيرغر تكمن في ما يمثلته الحاخم بيرغر بين يهود العالم عامة ويهود الولايات المتحدة الاميركية خاصة ، وليست في رسائله المتبادلة مع البيت الابيض . وحتى يصبح للرسائل دور ايجابي يجب تمهينها على اليهود من الاميركيين ونشرها في الصحف الغربية المختلفة باعتبارها صادرة عن مؤسسة يهودية معادية للصهيونية وذات مضمون انساني . لقد جعل البيت الابيض من رسائل بيرغر تبدو وكأنها صرخة في واد . بالطبع ، تلقى بيرغر ردودا على بعض من رسائله .. وكانت تصله جميعها مع « خالص شكر واحترام العاملين في البيت الابيض » . ففي رد أرسل به نوبل م . ميلينكامب احد مساعدي الرئيس الاميركي قال مخاطبا بيرغر ان رسالته « اعطيت الى اعضاء عاملين في مكتب كيسنجر » . وطلب من بيرغر ان يكون على ثقة تامة بان اقتراحاته « ستلقى العناية التي تستحق » . وفي رد آخر يجيب ميلينكامب على اقتراحات بيرغر ويقول « ان جميع الادارات التي تعاقبت على حكم الولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٨ خرصت على سلامة اسرائيل وشرعيتها واستمرار وجودها .. وهذا واحد من العناصر الرئيسية التي

يستحيل تجاهلها اذا ما اريد التوصل الى سلام في المنطقة » . ان بيرغر في جميع رسائله الى البيت الابيض لم يتطرق الى موضوع « وجود اسرائيل » ، ولكن يبدو ان ميلينكامب - والبيت من ورائه - لا يرغب في ان يدرك ان بيرغر لا يناقش مسألة وجود اسرائيل ، بل « الشخصية اليهودية » لدولة اسرائيل . ان رد فعل البيت الابيض السلبي على رسائل بيرغر يجعل الحوار بين الاثنین وكأنه حوار طرشان ، ولذلك من الافضل ان يفرغ بيرغر جهوده الضائعة ويسخرها لخدمة قضيته في مجالات اخرى بين القواعد الاجتماعية اليهودية والاميركية والغربية .. وهو بهذا سيحقق - لا شك - نتائج ملموسة واكثر ايجابية . الا ان بيرغر يستمر في حواراه مع البيت الابيض مبديا اسفه في رسالة وجهها الى ميلينكامب بتاريخ ١٥ حزيران (يونيو) ١٩٧١ لانه لم يلق ردا على اي من رسالتيه اللتين ارسلهما الى البيت الابيض « منذ اكثر من اربعة اشهر » والمؤرخين في ١٩ آذار (مارس) ٢٠ ايار (مايو) ١٩٧١ . ان القرائق لا يأتي من حكومة الولايات المتحدة الاميركية . ومهما طال امد الحوار بين بيرغر والادارة الاميركية ، ومهما امتد زمن الدعوات الانسانية .. فان كل ذلك صراخ في واد .. ان الادارة الاميركية لا تقدم مساعدتها الى اسرائيل نتيجة خطأ ارتكبه احد رؤساء الجمهورية السابقين ، فان لهذه المساعدة جذورها العنصرية والتاريخية والطبقية .

اننا نلتقي مع مايكل آدامز الذي يصف رسائل بيرغر بأنها على جانب كبير من الاهمية بالنسبة الى اولئك المهتمين بدراسة شؤون الشرق الاوسط بشكل عام ، وخصوصا بالنسبة الى كل اميركي يرغب في معرفة الدور الذي تقوم به بلاده في العالم ويساهل عن الدافع وراء هذا الدور . ان بيرغر - وهو لا يختلف في ذلك عن آدامز من حيث النظرة الاوروبية الليبرالية لمعالجة ازمة الشرق الاوسط - ليس له كبير امل في التوصل الى ما يصبو اليه من خلال اطار ومضمون الجهود التي يبذلها من اجل التوصل الى « سلام عادل » في الشرق الاوسط . ان اية جهود تبذل للتوصل الى سلام بين شعوب منطقة الشرق الاوسط بدون التركيز على مسألة الارتباط العنصري والتاريخي بين الامبريالية والصهيونية تدفع بنفسها الى حتفها ،

مصطفى كركوتي

تهليلة الموت والشهادة ، شعر توفيق زياد (دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٢)

تتألف مجموعة توفيق زياد هذه من قصيدتين طويلتين . عمان في أيلول . ومئة سنة على كومونة باريس . الرابط بين القصيدتين هو المحاولة الثورية الفاشلة . في عمان سحقت المقاومة تحت ضربات النظام الأردني وفي باريس سحقت الكومونة قبل مئة سنة تحت ضربات البرجوازية الفرنسية المتعاونة مع الألمان . الرابط المشترك هو الموت والشهادة والتقاؤل التاريخي بالتمصر . لكن طريقة المعالجة والفهم التاريخي للحدث يختلفان في القصيدتين . فبينما نجد في قصيدة عمان في أيلول نفسا شعبيا حارا وصادقا يحاول ان يرسم صورة للأحداث واضعا اياها ضمن التقاؤل التاريخي العام ، معطيا في نهايتها وجهة نظر سياسية في المذبحة وكيفية تداركها في المستقبل ، نجد ان هذا الصوت يصبح اكثر عقلانية واكثر موضوعية في مئة سنة على كومونة باريس حيث البطل الرئيسي والوحيد هو الطبقة العاملة وحيث يمكن وضع الكومونة في السياق الثوري الذي اوصل إلى ثورة اكتوبر السوفياتية .

١ - في قصيدة عمان في أيلول ترتفع التهليل للثورية عبر خمسة أناشيد . القصيدة ، باناشيدها الخمسة ، تتكامل مثل لوحة متعددة الألوان . كل نشيد له لونه الخاص وموسيقاه الخاصة . والقصيدة بمجموعها تعبر عن حادث واحد يمكن النظر اليه من خمسة مواقع . ولا تتكامل الصورة دون هذه المواقع مجتمعة .

النشيد الأول ، « تهليلة الذين يرفضون ان يموتوا ويرفضون ان يستسلموا » هو عبارة عن اغنية شعبية تجدد القتال . الايقاع البسيط ذو الصوت الواحد واللازمة التي تتكرر دائما ، تعطي لهذا النشيد طابعه الشعبي والمتصق بالناس العاديين . « يا حادي العيس دب الصوت في الشطين .

تكسر السيف في كفي انا نصفين

لكنني فوق صلباتي اقاتلهم

نخذ فؤادي وروحي واعطني سيفين » .

هذا الصوت الشعبي ، الذي يبرى في المعركة تهليلة حقيقية ، واضعا اياها في مستوى الصوت الباحث بين اغانيه القديمة عن مستقبله الذي

تطرح مجموعة توفيق زياد الجديدة : تهليلة الموت والشهادة ، موضوع مغالية الشعر ووظيفته الاجتماعية والسياسية بشكل حاد . فالشعر الفلسطيني المقاوم داخل الارض المحتلة هو ابتداء لثلاثة تيارات فنية : الادب الشعبي الفلسطيني المقاوم ، الشعر الفلسطيني في الثلاثينات والاربعينات ، والتيارات الفنية الواتعية في المشرق العربي . من هنا نستطيع ان نفهم ظاهرة التمايز النسبي التي يتخلى بها هذا الشعر . فهو قبل كل شيء شعر يلتزم قضية شعبه . المشاكل اليومية ، ومحاولات التذويب والتجوير ، تفرض عليه خيارا واحدا : اما الالتزام الثوري بقضية الشعب او ان لا يكون هناك شعر فلسطيني على الاطلاق داخل الارض المحتلة . من هنا نستطيع ان نفهم الروحية القتالية والجمهورية التي لهذا الشعر . فهو لا يستطيع بحكم واتعه ان يتخلى عن الهنوم اليومية والعادية . كما انه لا يستطيع ان يفرق في البحث عن الاشكال الجديدة خلف الجدران . ان البحث عن الشكل الجديد لا يمكن ان يقوم خارج دائرة المعركة التي يخوضها الشعب الفلسطيني . والشعر المقاتل بحكم وظيفته الجماعية لا يستطيع ان يسبح لنفسه بالبعد عن الناس . انه يكتب لهم وبهم .

على هذا الاساس ثانی الاهمية التاريخية لتوفيق زياد . فزياد ما زال يحاول ويقوم بالتجارب الفنية في سبيل خلق لغة شعرية بسيطة وسهلة ، تستطيع ان تستوعب التراث الشعبي والثوري وتقوم باعادة كتابته من جديد . وشعره كان دائما لصيقا بالهنوم اليومية ، بالناس العاديين وبالتراث الشعبي الثوري . وفي مجموعته الجديدة يتابع زياد عملية بحثه هذه . وان يكتب هذا البحث الان مزيدا من العمق والرؤية الشمولية للأحداث ، فانه يبقى متوكفا على التراث الشعبي ، انه يحاول ان يطلق من محاولتين ثوريتين مهمتين : المقاومة وكومونة باريس ليستخلص الدروس ، ولتبعث النضال الشعبي العربي والاممي ، مستعمرا صوت الكادحين ، محافظا على صوته الخاص الذي يكتب عمقا تاريخيا في تقاؤله الثوري العميق بالتمصر .

تصنعه المعركة ، لا يلبث ان يتابع في نشيد
« يوميات من عرس الدم » . فالعرش الذي يحز
وريد الشعب ، يحكم بالاعدام على نفسه .
وجثث الالاف الذين يسقطون يوميا تدل على أن
هذا الشعب لا يموت .

« في اليوم التاسع

أصرخ في وجه الدنيا

هذا شعب ذو سبعة ارواح » .

ويصل توفيق زياد في « نهاج عادية من شعب غير
عادي » الى قدرة مذهلة على استيعاب الروح
الشعبية . فهو في خنادق المقاتلين في شوارع
عبان ومخيماتها ، يرصد مشاعرهم ويذوب صوته
في افكارهم ومشاعرهم المباشرة ، لكنه في الوقت
نفسه يمد بهم الى التراث الثوري الفلسطيني ،
فالمانائل الذي يموت اليوم هو ابن المقاتل الذي
مات في ثورة ١٩٣٦ مشنوقا كما تخبرنا القصيدة
العامية :

« لا تظن دمعي خوف

دمعي على اوطاتي

على كهشة زغليل

في البيت جوعاني »

وهي أبيات يضمناها زياد بشكل رائع في قصيدته هذه
حتى لنخال انها جزء لا يتجزأ من مشاعر المقاتلين
الذين سقطوا في ايلول الاسود . وزياد في تصويره
لهذه المارك يظل شاعرا بصوته الخاص . فهو بعيد
عن ساحات عبان . لذلك يرفع صوته مع اصوات
عرب الارض المحتلة محببا للمقاتلين والمقاتلات :

« اه لو اتدر ان اجمل نفسي

في كلك

رشاشا للثورة »

وهو حين يتحدث عن المقاتلين ، يضمهم الى
الارض ، الى جدلية الانسان - الارض . فمسمود
الشيبان يظهر وكأنه شجرة خارجة من رحم
الارض . انه :

« قلعة ارض مذت وانفصلت

وانخذت شكل مقاتل »

وحين يكتب عن العدو في « كلمات من خصم غير
مقطوع الرأس لكنه بروح واحدة » فان التفاؤل

بالنصر ، لا يأتي على حساب التقليل من قوة
العدو ، لكن احتية انتصار الشعوب على
مستغلبها تدفعه ليقول :

« يا أردن الشعب الصامد

في الزرقاء وعبان وأربد

ما هو آت آت

والآتي سيبدد كل الظلمات »

توفيق زياد في قصائده الاربعة هذه يريد شيئا
واحدا : الاندماج الكامل بحركة الجماهير
الواقعية . والشعر هو تهليل ، نشيد جماعي ،
صوت شامل ، الشعر هو سلاح للمقاتلين ، هو
صيحة للحرب ، الشاعر هنا هو لحن موسيقي
يمشي في مواكب المقاتلين . يعني احلامهم والاهم .
يقف معهم في الخندق ويرفع صوته عاريا . لكنه
في الوقت نفسه يعود في النشيد الاخير « أسئلة لا
بد منها » الى محاولة استخلاص الدروس .
والدروس عفوية لكنها في الوقت نفسه حارة
الصوت . فعلى الزعماء ان يعرفوا « ان على
الثورة ان تبقى يقظى » وهو يدعو الى مزيد من
الحقد الثوري .

« هل يعرف بعض الزعماء

أن على مشنقة الثورة

ان تصنع

من حبل لا ينقطع

من نقل الخصم المشنوق

لما يدخل في العتدة رأسه »

جان في ايلول : تتراقف في مجموعة زياد مع
مئة سنة على كومونة باريس : القصيدة الاولى
تحمل سمات العنوية والرؤيا الشعبية النافذة .
انها محاولة لتأريخ حدث في ضمير الجماهير .
من هنا تأتي لغتها المبسطة والسهلة وعودتها الى
القصائد العامية الشعبية ، وتركيزها على مشاعر
الانفراد . وتوفيق زياد لا يضيع في التفاصيل ، انه
يلتقطها المتقاطعا محولا اياها الى لوحة متكاملة .
وهذه اللوحة ليست مغلقة . فالرمادي القاتم
الذي يظهر في تصوير المذبحة ، لا يلبث ان يصطبغ
بالاحمر ثم يتحول الى صوت واثق من النصر ،
متعلم من الهزيمة دروس النصر . وتوفيق زياد
يحاول عبر عمله هذا ، ان يتابع بحثه عن الفس

حضانة الكومونة ، «الخارجون من احتشاء النهار»

و « النابتون كالقطر » .

« هبوا كالريح

كعاصفة تكتسح السبع مساوات »

وفي النشيد الخامس « بين الحلم والواقع » حيث يصور الشاعر الكومونة بأرق الكلمات ، يستعمر صوته من ناظم حكمت ، ليصف الكومونة عطشى انها :

« انخر عذراء واشهاها

اجلها اروعها واقساها »

هذه العودة الى عذرية القتال وقوته وجسماله نهض للمجزرة الدموية . حين نسمع في النشيد السادس صوت الراوي يخبرنا عن اتحاد الغالب والمغلوب تبيير وبسمارك وكيف اتحد هذا الاتحاد :

« والوف العمال الشهداء

اصحاب الافروهولات الزرقاء

فرشت ابدانهم الدافئة المقتولة

نصف العاصمة الشرقي »

ويعود توفيق زياد في النشيد الاخيرين مستعزرا صوت بني الايام الى تناوله المطلق بالشعب وبحركة التاريخ . لبومضة عين استطاع التاريخ العملاق ان يقطع مئة عام ، والجوع الى الحرية هو محرك التقدم :

« والجوع الى الحرية كان

والجوع الى الحرية ما زال

الاجمل والاقصى

في تاريخ الاتسان

في كل زمان ومكان » .

رؤيا الشاعر في التصديتين واحدة . انها العمل في سبيل ان يتحول الصوت الشعري الى صوت جماعي . والشاعر يندرج في حركة التاريخ ، فهو لا ينفصل عنها أنه يحاول عبر ربط القضيتين القومية والاممية ان يشير الى العدو . فكما تعاون تبيير وبسمارك تعاون النظام الاردني والامبريالي . وفي الحالين سقطت المحاولة الثورية في دماء ابنائها . لكن الحركة الثورية مستمرة ، والتاريخ اصدر حكمه القاسي ، والنصر هو فترة نضال

الجماهيري ، الفن الذي يغتسل بالحياة اليومية وباللغة اليومية ، لكنه يتعد عنها بمقدار ما يريد جعلها أكثر قابلية للحياة . ولئن يبدو بناء هذه القصيدة متناغما ، فانه يتميز بعدم سيطرة الشاعر على شعره . الشاعر والشعر هما طرفان في عمل واحد . وصرورة هذا العمل تدمجها بشدة وبمرارة لا واعية . هذا الاندماج لا يلبث ان يتفكك في قصيدة مئة سنة على كومونة باريس . النبيرة هنا نبيرة واعية والبناء الشعري أكثر تماسكا وان افتقد الى الحرارة التي راقت القصيدة الاولى .

٢ - مئة سنة على كومونة باريس تحساول ان تسجل لأول ثورة بروليتارية في العالم . ووضعها الى جانب عمان في ايلول هو شيء طبيعي ، لا بل حتمي . فالثورة الفلسطينية التي تراجعت في ايلول امام دموية الامبريالية وانظمتها تذكر بالسقوط العظيم لكومونة باريس . للرجال « الذين حاولوا ان يقتحموا السماء » تقسم القصيدة الى ثمانية اناشيد . ومنذ النشيد الاول « الحسب الاول » يظهر البطل . انه ليس فرديا ، انه الطبقة العاملة . البطل هو :

« أول عبد

يتجرا

أن يمشي

منتصب الظهر » .

وفي النشيد الثاني من « باريس الى بتروغراد » تأتي دروس الكومونة . فالكومونة التي سقطت كانت الخبرة التي منها انفجرت ثورة اكتوبر السوفياتية .

« لم تكن تعرف

انك انت المقتول بأذار

سنتهب كعاصفة اعصار

ذات نهار

من اكتوبر »

بعد هذا التقديم . تتوالى لوحات تصوير الثورة . فنشيد « لحظات قبل الوضع » يصور خيانة البرجوازية الفرنسية ، التي مجرت الذهب الثوري . هذا الذهب سيحول الدنيا الى « حديقة ازهار بوية » . تحتضن المولود الاول من تنوعه . وفي النشيد الرابع ، يلقي زياد الضوء على الطبقة

بين الهزيمة والثورة .

أمام هذه المجموعة الشعرية المفتوحة الانق على المستقبل ، نود ان نطرح سؤالاً محدداً :

كيف نفهم محاولة توفيق زياد الشعرية من خلال بحثنا عن مقومات الشعر الواقعي ؟

لا شك ان زياد يتابع في هذه المجموعة بحثه عن الأرض الواقعية ، التي يستمد منها شعره . انه يحاول جاهدا الالتصاق بالجماهير . من هنا يحاول الاستفادة قدر الامكان من التراث الشعبي . هذه الاستفادة في المقابل تعاني خفوتا في المستوى التشكيلي للقصيدة . فهل صحيح ان الشعر الملتصق بحياة الجماهير ، يجب ان يبقى لصيغته بالشكل الشعري الحديث « التفعيلة الواحدة » أم انه ، واستنادا الى التراث والى الفهم المتطور لهذا التراث ، يستطيع ان يخلق اشكاله الجديدة ، وينطلق الى رحاب اوسع من ان يحصرها شكل واحد . القصيدة ليست ايقامها الموسيقي فقط لكن لهذا الايقاع دوره الخاص والفاعل . انه يتقوّل في داخل الكلمة ليحيلها من مجرد تشكيل لفظي الى بركان يتفجر بالصور والانفعالات . وهنا فان لغة زياد لا تزال تبحث عن براكينها الداخلية . الاجتكاك بين الكلمة الشعرية والواقع يولد

الابداع . والشاعر في وصلته الابداعية يتجاوز ماضيه محاولا ولوج مداخل النهر الجماهيري حيث يتفجر الابداع . فالن المبدع هو لصيق الحياة ولصيق الصراعات الاجتماعية . الاصوات المتعددة داخل قصائد هذه المجموعة ، تؤكد ظاهرة ما تزال بحاجة الى درس . فالشاعر يجمع العديد من الاصوات والمواقف ليولد الحركة الابداعية والانفعالية في قصيدته . وهو يقترب من سبيح القاسم . ويعتمد عن درويش الذي يحاول في ديوانه الاخير **احبك او لا احبك** ان يخلق مساحات واسعة في قصيدته عبر عمقها الداخلي وليس عبر اصواتها المتعددة . هل يشعر هذا الى ان الشاعر داخل الأرض المحتلة بحاجة الى الخطابة المباشرة ، لان شعره هو شعر معركة مباشرة . بينما الشعائر المنفي خارج ارضه يستطيع ان يتحرر من هذه المتطلبات الملحة ؟ ان مجموعة توفيق زياد ، هي حنجرة متوترة ، تحاول ان تقرب الشاعر اكثر فأكثر من الجماهير . وتحاول ان ترسم لوحة متكاملة تأتلف في داخلها الشهادة والنصر والموت والحياة حتى تخرج الثورة من خضم هذه الصراعات الى انتصارها النهائي .

الياس خوري

صدر عن مركز الابحاث في م . ت . ف . كتاب

الصهيونية واسرائيل وآسيا

تأليف : ج . ه . جانسن

ترجمة : راشد حميد

٢٤٩ صفحة

٨ ليرات لبنانية

تضاف اليها اجور البريد : ١٠٠ ق.ل. في العالم العربي ،

٢٥٠ ق.ل. في أوروبا ، ٥٠٠ ق.ل. في سائر الدول

رسائل اعلامية

الصحف الغربية وأحداث أيلول ١٩٧٠

توطئة

الأحداث ، فكان أن تكونت لدى القارئ الغربي عدة مفاهيم خاطئة عن الوضع في هذه المنطقة من العالم . ان سلاسل من الغالات والافتتاحيات التي تمشي ضمن خط محدد ترسخ هذا المفهوم لدى القارئ . كيف كانت الجرائد الغربية تسجل حقبة مهمة مرت بها الحركة الوطنية في العالم العربي ، فترة معارك شهر أيلول من عام ١٩٧٠ . سنعمد في هذه الدراسة الى الاحاطة بخلفية الأحداث قبل بدء المعارك واثاء المعارك ، واثار تلك المعارك ، كما صورته الجرائد والمجلات الغربية .

مرحلة ما قبل معارك أيلول والصورة المشوهة لحركة المقاومة :

لقد صورت الجرائد الغربية ، اجمالا ، حركة المقاومة الفلسطينية تصورا خاطئا ، فقد عكست الكثير منها ما مضونه ان حركة المقاومة لا هم لها الا « عمليات الاعدام » لمواطنين عرب يتعاملون مع اسرائيل ، وان ذلك كما تحلله صحيفة «ساينس كريستشن مونيتور » « يعكس القلق الحاد الذي يسيطر على الغدائين كلما ازدادت التحركات نحو الحل السلمي اندفاعا » (١) .

وفي اليوم التالي تنشر جريدة « نيويورك تايمز » المزيد من المعلومات حول عمليات الاغتيال ، ومن الطبيعي ، فان حصر مهمة حركة المقاومة بالاعدامات فقط يعكس الصورة المشوهة لدى القارئ الغربي ، طالما ان الجرائد لم تشر الى منجزات حركة المقاومة على الاصعدة السياسية والاجتماعية . ثم تلجا بعض الصحف لنشر اخبار عن وجود خلافات بين المنظمات حول مبدأ الموافقة على مشروع روجرز وهذا ما ظهر جليا في صحيفة « صندي تايمز » حين نشرت تقريرا عن الوضع في غزة تشير فيه الى انه « تم العثور على » جنك في احدى بيارات البريتال في غزة-لعناصر من

تالت السيدة آني غسان كفتاني في مؤتمرها الصحفي ، بعد استشهاد زوجها ، ان الصحف الاجنبية قد هيات لاغتيال زوجها ، فقد ذكرت ان « صحيفة « الديلي ميل » البريطانية نشرت صورة لرجل يجلس مع شاب ياباني ، بعد عملية مطار اللد ، وكتبت تحتها انه غسان كفتاني ، ومع ان وكالة انباء الاسوشيتدبرس وزعت نفيًا ، الا ان « الديلي ميل » لم تنشره . » - عن جريدة النهار - . ان هذا القول يستوقفنا للبحث جدية فيما تقدم الجرائد والمجلات الغربية حول الوضع السياسي والاجتماعي في المنطقة . ومن البديهي القول ان قطاعات كبيرة من الراي العام الغربي تأخذ معلوماتها من جرائد ومجلات بلدها ، لانها الوسيلة الوحيدة ، بعد الراديو والتلفزيون ، لنقل الاخبار والمعلومات . ما هو دور الجرائد الغربية في هذا المضمار وما هو مدى صحة نقاشها وطرحها عبر صفحاتها ؟ ان افتتاحيات الصحف قد تشكل لدى بعض القراء وجهة نظر خاصة في تحليل الامور السياسية ، وبالتالي تكون هذه الافتتاحيات بالنسبة لهم مقياسا للاحداث الجارية . وان تقييم هذه الأحداث عبر الاخبار التي تناقلها وكالات الانباء ، قد تنطبع في ذهنية القارئ ويكون بذلك فهمه عن طبيعة ما يجري (١) .

ويتأثر خط جريدة معينة في كثير من الاحيان بوضعها المادي ، فالجريدة تولمها اعلانات شركات عديدة . وبذلك تخضع الجريدة احيانا في خطها السياسي لتأثير العبء المادي (٢) . ولكن على الجريدة مهمات يجب ان تمارسها وهي اساسا ضرورات نقل الاخبار والأحداث بموضوعية . ففي كثير من المواقف ، لم تعكس الجرائد الغربية ، بصورة واضحة ، عدة نقاط مهمة في تاريخ العرب المعاصر ، ولم تسجل هذه الجرائد موقفها المستقل من

ج. ش. ت. ف. كانوا قد قتلوا في معركة مع منظمة فدائية مناسبة بسبب الاختلاف على الموقف من مشروع روجرز» (٩). ثم تنف الجريدة موقفا احصائيا و« بذلك يمبج عدد الذين قتلوا في غزة في الشهر الماضي وحده ١٩ شخصا معظمهم اعدوا من قبل الفدائيين بسبب تعاونهم مع سلطات الاحتلال ».

ثم تتخطى « الصنداى تايمز » هذا الحد ، فتشير الى ان « عمليات التخريب » هذه « يقوم بها طلاب مدارس يتناضون لقاء كل عملية ما بين ١٠ شلنات وجنيهن استرلينيين » . وبذلك تمطي صحيفة « الصنداى تايمز » حركة المقاومة صفة الارتاق وتلني عنها كل مضمون اجتماعي وثورى، طالما ان الجريدة تقول في ذات البحث « ان معظم عمليات الاغتيالات تتم في المخيمات » وبهذا تكون صورة المخيم لدى القارئ الغربي عبر هذه الصحيفة صورة مخبا لمرتزة يقومون باغتيالات لاهل المخيم - اضافة الى قول الجريدة ان اللاجئين « يؤيدون الفدائيين بشكل سلبي نتيجة للؤوس والقهر الذي يعيشون فيه » ! وبهذا تكون الجريدة قد محت اية خلفية سياسية واجتماعية عن طبيعة العمل الفدائي ، وتكون قد حرمت سكان المخيمات من أي اطلاع ثوري نحو مقاتليهم .

الجرائد الغربية وعمليات خطف الطائرات : كانت الجرائد والمجلات الغربية تعزل عمليات خطف الطائرات من كل الدوافع الاجتماعية والسياسية، مظهرة ان هذه العمليات تنف ضد كل سلام العالم وأمنه ، وكانت ان تحولت الكثير من الجرائد بمقالاتها لبحث عمليات الخطف ومقاومتها ومنع تكرارها ، فالنيويورك تايمز تطلب من « جيبس الدول الغربية وجميع شركات الطيران في العالم ان تقاطع الدول العربية وان ترفض السماح للطائرات العربية بالهبوط في اي مكان في العالم » (٥). ونجد ان بعض الجرائد كان يتخذ موقفا يشجع النظام الاردني على ضرب حركة المقاومة ، فقد اعترت التايمز ان البلاغات والمؤتمرات التي يصدرها ويعقدها الفدائيون « تثبت الانطباع ان هناك حكومتين في الاردن : الحكومة الرسمية وسلطة الفدائيين » (٦). ولم تتورع صحيفة « الجارديان » ، مثلا ، عن اعطاء صورة غربية للمقاتلين الفلسطينيين للرأي العام الغربي ، فوصفت عناصر الجبهة الشعبية بانهم

« يتلقون تفكيرا ليفكروا كأنهم خارجون عن القانون » (٧). ومن الطبيعي ان يشمئز الغرب من الخارجيين عن القانون واصحاب « الاعمال الاجرامية » كما كانت تذكر « انترناشونال هيرالد تريبيون » . وفي كثير من الاحيان كانت الجرائد تتخذ موقف الدفاع عن الجانب الاردني وتتجهج على حركة المقاومة من خلال عمليات خطف الطائرات فمتصور جريدة « لوموند » ان باستطاعة الملك حسين « القضاء على الفدائيين واعادة سيطرته على البلاد » (٨). وكذلك ترى « الفايينشال تايمز » ان « باستطاعة حسين ان يتصرف مع الجبهتين الشعبية والديمقراطية لانهما تصدنا لمشروع روجرز » (٩). ومن السهل ان نرى موقف الجريدة هذا الذي يدعو الى تقسيم حركة المقاومة واعطاء المفهوم بان الشعبية والديمقراطية فقط تغنان في وجه مجادة روجرز ولم تورد اي اعتبار للشعب الفلسطيني . واحيانا تنف الجرائد موقف تحذير للحكومات من « خطر » الفدائيين ، « فالجارديان » ذكرت « ان هذا الاسبوع يشكل نقطة انعطاف بالنسبة الى الاردن ، فاما ان يثبت حسين بن طلال او ان يدع الفوضى تسيطر » (١٠). الموقف نفسه تنف جريدة « نيويورك تايمز » ، فهي ترى « ان الجبهة الشعبية اذا ما تجحت في اي من هاتين المحاولتين - القضاء على محادثات السلام ، او قلب نظام الحكم ، - فان الشرق الاوسط سيتحول الى جحيم » وتذكر الجريدة كلمة « جحيم » باللفظة نفسها التي كان قد ذكرها الدكتور جورج حبش في مؤتمر صحفي له . بعض الجرائد كانت تضع كل اللوم على حركة المقاومة ، « فالدايلي تلغراف » ترى « ان ج. ش. ت. ف. و ج. و ج. ش. د. ت. ف ترايدان حدوث حرب اهلية في الاردن » (١١).

ما حل المشكلة بالنسبة للجرائد ؟ في الواقع تتفاوت آراء الجرائد في وضعها الحل للمشكلة ، ولكن الشيء الذي يلفت الانتباه ، هو ان هذه الحلول قد بدأت تطرح رامسا بعد عمليات خطف الطائرات واثرها . فصحيفة « هيلسنجي ساتومات » ترى « ان أي سلام دائم في الشرق الاوسط ليس ممكنا دون التعاون مع الفدائيين الفلسطينيين » (١٢). كما رأت هذه الصحيفة ضرورة « تقييم الوضع السياسي في المنطقة في ضوء تطورات عمليات خطف الطائرات التي قام بها الفدائيون » (١٣).

قد جرى ليتوافق مع زيارة جولدا مائير لواشنطن ومع الدورة العادية للجمعية العامة للأمم المتحدة لتمهيد السبيل من أجل استئناف محادثات السلام العربية - الإسرائيلية» (٢٢).

«التدخل السوري» وانعكاسه في الجرائد الغربية:

لقد اثبت التدخل السوري في الاردن «الرفض الكلامي لاي شكل من اشكال التسوية مع اسرائيل» (٢٢) على حد قول «الجارديان» ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فقد هولت بعض الجرائد كثيرا حول تدخل القوات السورية . فقد عملت على ربط هذا التدخل بضرب محاولات السلام في المنطقة ودفنح المنطقة الى التحول الاشتراكي ، فقد اعتبرت «انترناشونال هيرالد تريبيون» ان وقوف سوريا والفدائيين معا «سيكون بمثابة رصاصة الرحمة لامل السلام... وسيجعل المنطقة قريبة لنوع من الاشتراكية القوية التي لا تقدم سوى الغليل لشعبها وتسبب الاحتكاكات والتوترات لبقية دول العالم» (٢٤) . اما جوسف «نيويورك تايمز» من «التدخل السوري» ، فهو «اضعاف جهود الامم المتحدة لتحقيق السلام في الشرق الاوسط» (٢٥) وتعتبر هذا التدخل «انتهاكا ليثاق الامم المتحدة» (٢٦) وبعد «انسحاب القوات السورية» اعتبرت هذه الصحيفة ان المنطقة قد تجنبت ، بهذا الانسحاب ، خطر حرب جديدة في المنطقة . كما ردت جريدة «تايمز» عامل اطالة الحرب الاهلية الى تدخل الجيش السوري .

تحليل الاحداث : لقد اعتبرت جريدة تايمز في تعليق لها بعنوان «تدمير بلد» ، «ان اثاره الحرب قد تقع على الفدائيين ، اما اطالة الحرب فتقع على السوريين ، لكن اللوم ، بالنسبة للمجزرة يجب ان يقع بشكل رئيسي على الجيش الاردني ... ان قصف المخيمات استمر اكثر بكثير ، مما تدعو اليه حاجة عسكرية معقولة ...» (٢٧) . وفي الواقع ان هذا الرأي لصحيفة «تايمز» يمثل اجمالا تصور بقية الجرائد لوحشية المعارك ، فقد كشفت ايضا صحيفة «نيويورك تايمز» جانبها يعكس هذه الوحشية ، «فقد شاهد المرسلون الأمريكيون والالمان الغربيون الذين سمح لهم بالدخول الى الاحياء التي يعطنها الفلسطينيون في عمان وفي حي الاشرفية ، حفرة مفتوحة فيها ٤٠ جثة» الامر الذي يؤكد الاتهام السابقة بان السلطات الاردنية كانت تدفن الموتى في قبور

أما الحل الذي طرحه «الجارديان» للقضاء على «السرطان» الذي تسبب في خطف الطائرات فهو «تسوية تعطي اللاجئين املا حقيقيا في مستقبل اكثر امنا ورغدا» (١٤) . كما ترى «الواشنطن بوست» ضرورة ارضاء «الامل السياسي والشرعية لجميع الفلسطينيين - الذين يخشى - اذا لم يتحقق ذلك ان يتعوا في فخ الارهابيين» (١٥) وتطرح «نيويورك تايمز» حلا مشابهها فهي «تطلب توسيع مهمة «يارينغ» باعطاء الفلسطينيين دورا مباشرا في المفاوضات من أجل التوصل الى تسوية نهائية للنزاع العربي - الاسرائيلي» (١٦) ورأت صحيفة «تايمز» ان عمليات خطف الطائرات «قد زادت من وعي الجمهور البريطاني بالنسبة للقضية الفلسطينية» (١٧) .

معارك ايلول وانعكاسات الجرائد الغربية :

انفجار المعارك بين الجيش الاردني والفدائيين ، كانت الجرائد الغربية تعكس ظلة الوعي عن الاحاطة بتحليل الموقف ، «فالدائلي تطجرف» كانت تخاف اندلاع حرب اهلية خوفا على حياة الرهائن ، من الطائرات المخطوفة ، فان «حدوث حرب اهلية في الاردن تهدد حياة الرهائن ال ٤٠» (١٨) ثم تستطرد الى انه «ما دام القتال ليس على نطاق واسع فليس هناك خطر اكيد على الرهائن» (١٩) اما الصورة البسيطة التي تراها «انترناشونال هيرالد تريبيون» بـ «ان مستقبل الفلسطينيين متعلق بالرهائن المحجوزة لديهم ، فان استطاعوا ان يحافظوا على سلامتهم ، تزول بذلك الغيوم الملبدة ويشرق مستقبلهم» (٢٠) هي صورة تخلو من كل مهم لجذور المسألة ، وكان الرهائن هم مفتاح القضية ، ولم تشر الصورة الى وجود اية قوى متصارعة اخرى . أما «نيويورك تايمز» فتشير تحت عنوان «مهدف الفدائيين هو وضع نظام جديد» الى ان لاجئي المخيمات هم الذين اوجدوا «حركة الفدائيين الارهابيين» ضد اسرائيل ، ومهدف هذه الحركة هو قلب نظام الحكم في الاردن» (٢١) . ولكن على الطرف الاخر نجد ان صحيفة «صانداي تايمز» تعكس الصورة بوضوح ، «فاحداث الاردن ليست اختبارا لسلطة حسين او لقوة الفدائيين ولكن للسياسة العربية من القبة الى القاعدة ومن اليمن الى اليسار ... والتحليل الدقيق للاحداث يشير الى ان ما يجري في الاردن لم يكن من قبيل الصدفة ، بل على العكس ، يمكن ان يكون توقيتته

أن هذا الاستعراض لوجهة نظر الجرائد الغربية انشاء معارك ايلول ١٩٧٠ ، في الاردن ، يطرح علينا عدة اسئلة نستخلص اجاباتها من كل المواقف مجتمعة ، لهذه الجرائد . ففي فترة ما قبل المعارك ، كانت الجرائد والمجلات الغربية لا تعكس صورة حركة المقاومة الا بشكل حركة ارامية وذلك عبر :

١ - نشر اخبار حول الاعدامات التي يقوم بها الفدائيون لمواطنين عرب يتعاملون مع سلطات الاحتلال . ٢ - تصوير المخيمات على اساس انها قواعد لعصابات مسلحة . ٣ - اعطاء حركة المقاومة صفة الارتزاق [انظر صنداى تايمز ٢٠ آب ١٩٧٠] ٤ - عزل حركة المقاومة عن كل منجزاتها الاجتماعية والسياسية وعدم الخوض في تحليل خلفية الفلسطينيين .

أما بالنسبة الى قضية خطف الطائرات فاننا نلمس النقاط التالية :

١ - سارعت الجرائد والمجلات الى طرح حلول لمنع خطف الطائرات ، وضرورة معاقبة الخاطفين . ٢ - اعطاء الخاطفين صورة الخارجين عن القانون [انظر جارديان ٨ ايلول ١٩٧٠] وانهم اصحاب « الاعمال الاجرامية » [انظر انترناشونال هيرالد تريبيون ٨ ايلول ١٩٧٠] ٣ - تحريض النظام الاردني على ضرب حركة المقاومة ، طالما ان هذه الحركة تريد احداث حرب اهلية [انظر دايلى تلجراف ١٢ ايلول ١٩٧٠] ٤ - كثيرا ما ربطت الجرائد الغربية عمليات خطف الطائرات بضرب محاولات السلام في المنطقة .

أما معارك ايلول ، فقد رأتها الجرائد على انها اختبار لليمين واليسار في العالم العربي ، وكانت الجرائد دائما تطرح مشكلة الرهائن ركاب الطائرات المخطوفة واضفاء صورة مأساوية على هؤلاء الرهائن ، كما كانت الجرائد تريد ان تعكس صورة ان الفدائيين يريدون قلب النظام في الاردن . وقد هولت الجرائد كثيرا من التدخل السوري لمساعدة المقاومة .

• ش •

New York Times", by H.H., Published by the Palestine Research Center, Beirut, 1969.

جماعية داخل عمان وخارجها» (٢٨). وهذا الخط المشترك ، دفع بعض الجرائد الى لمس التجربة الفلسطينية خلال ٢٢ سنة ماضية ، كان تصور « نيويورك تايمز ماجازين » تصورا عميقا في فهم هذه التجربة ، باعتبارها للصحيفة ان « الحرب الاهلية في الاردن ... خطف الطائرات ، تدمير اربع طائرات من قبل اللاجئين الفلسطينيين المايين ، كل ذلك حدث بسبب فشل العالم خلال ال ٢٢ سنة الماضية » (٢٩). كما اقترحت «التايمز» ايجاد دولة للفلسطينيين اسما فلسطين تضم الضفة الغربية ، ذلك لانه لم يعد لهم أمل في الاردن ... « وكان موقف « كريستشن ساينس مونيتور » مشابها تماما لموقف « الجارديان » في انه لن يكون هناك سلام دائم في الشرق الاوسط اذا لم يسمح للفلسطينيين باختيار الشكل السذي سيكون عليه هذا السلام (٣٠). الموقف نفسه اتخذته « دايلى تلجراف » في عددها ١٩٧٠/٦/٢٩ . ولكن مجلة « الايكونوميست » وقفت موقفا مغايرا لبقية الصحف والمجلات ، فقد تصورت المجلة بان « انتصار حسين الظاهري سيعطي املا كبيرا للسلام في الشرق الاوسط بين العرب واسرائيل » (٣١).

ومن الواضح ، فان هذه الفترة الحرجة كانت مجالا لكثير من الجرائد لكي تجمع حلومات من المنطقة وتضع حلولا للخروج من الازمة ، واجبالا فقد تركزت نظرة الجرائد حول القضية الفلسطينية ، كما تركزت الحلول حول الشعب الفلسطيني ، وبالإمكان القول ان صحيفة « الاوبزرفر » قد احتوت هذا الخط فنراها تعرض معالم تصورها مشيرة الى « ان قضية خطف الطائرات الغربية قد اوضحت للعالم بان في وسطها يوجد شعب مصمم بكل عناد لاستعادة ارضه المسلوقة » ، وذكر المقال ان « هناك ٣ مخططات للعاملين من اجل السلام : ١ - اعادة اللاجئين العرب الى ارضهم تيميش اليهود والمسلمون والمسيحيون معا ٢ - انشاء دولة فلسطينية في الضفة والقطاع ٣ - خلق اردن موسع يضم الضفة وغزة لان ثلثي سكان الاردن من الفلسطينيين » (٣٢).

١ - انظر Essays on the American Public Opinion and the Palestine Problem. "The Middle East Crisis and the

- ٢ - المصدر السابق .
- ٣ - كريستشن ساينس مونيتور ، ١٩/٨/١٩٧٠
- ٤ - صنداي تايمز ، ١٩٧٠/٨/٣٠ .
- ٥ - نيويورك تايمز ، ١٩٧٠/٩/٧ .
- ٦ - تايمز ، ١٩٧٠/٩/٨ .
- ٧ - جارديان ، ١٩٧٠/٩/٨ .
- ٨ - لوموند ، ١٩٧٠/٩/٩ .
- ٩ - المصدر نفسه .
- ١٠ - لوموند ، ١٩٧٠/٩/١٠ .
- ١١ - لوموند ، ١٩٧٠/٩/١٠ .
- ١٢ - هيلسنجي ساتومات ، ١٩٧٠/٩/١٤ .
- ١٣ - المصدر نفسه .
- ١٤ - الجارديان ، ١٩٧٠/٩/١٤ .
- ١٥ - الواشنطن بوست ، ١٩٧٠/٩/١٤ .
- ١٦ - نيويورك تايمز ، ١٩٧٠/٩/١٦ .
- ١٧ - تايمز ، ١٩٧٠/٩/١٦ .
- ١٨ - دايلي تجراف ، ١٩٧٠/٩/١٧ .
- ١٩ - المصدر نفسه .
- ٢٠ - انترناشونال هيرالد تريبيون ، ١٨/٩/١٩٧٠ .
- ٢١ - نيويورك تايمز ، ١٨/٩/١٩٧٠ .
- ٢٢ - صنداي تايمز ، ٢٠/٩/١٩٧٠ .
- ٢٣ - الجارديان ، ٢٣/٩/١٩٧٠ .
- ٢٤ - انترناشونال هيرالد تريبيون ، ٢٢/٩/١٩٧٠ .
- ٢٥ - نيويورك تايمز ، ٢٣/٩/١٩٧٠ .
- ٢٦ - المصدر نفسه .
- ٢٧ - تايمز ، ٢٤/٩/١٩٧٠ .
- ٢٨ - نيويورك تايمز ، ٣٠/٩/١٩٧٠ .
- ٢٩ - نيويورك تايمز ماجازين ، ٢٧/٩/١٩٧٠ .
- ٣٠ - جارديان ، ٢٧/٩/١٩٧٠ و كريستشن ساينس مونيتور ، ٢٩/٩/١٩٧٠ .
- ٣١ - الايكونوميست ، ٢٦/٩/١٩٧٠ .
- ٣٢ - الاوبزرفر ، ٤/١٠/١٩٧٠ .

المهرجان الدولي الاول لافلام وبرامج فلسطين

المجتمعين اصدروا بياناً في ذلك الوقت. نشرت الصحف العراقية اكادوا فيه اهمية اقامة مثل هذا المهرجان وضرورة ذلك. وقد وقع ذلك البيان مندوبيون من كل من العراق ومصر ولبنان والمغرب والاردن وسوريا. وقد عرضت فكرة اقامة مهرجان سينمائي شبيه بمهرجان لايبزج على جامعة الدول العربية التي احوالت الاقتراح على اتحاد اذاعات الدول العربية ليتبناه. وبالعمل، اتفق على ان يتم المهرجان في نهاية العام ١٩٧٠ الا ان مجازر ايلول في الاردن ووفاة الرئيس جمال عبد الناصر، لم تتيح الفرصة امام تنفيذ الاقتراح. وقد عقدت فيما بعد اجتماعات عدة وتبنت حكومة العراق الدعوة الى اقامة المهرجان على ارضها واستعدادها لتحمل النفقات وبذل كل ما يلزم لانجاح المهرجان. وكان ان ووفق على ذلك وشكلت سكرتارية عامة للمهرجان من السيد محمد سعيد الصحاف سكرتيراً عاماً والسيد سلام

تحت شعار « تحرير فلسطين ركيزة للسلام العالمي » سيتم في بغداد في اذار القادم، في الذكرى السنوية الخامسة لمعركة الكرامة، اول مهرجان سينمائي دولي من نوعه لافلام وبرامج فلسطين. وسوف يدعى لهذا المهرجان وفود وشخصيات من مختلف دول العالم ومن القسوى التقدمية المناصرة للعمل الفلسطيني المسلح. وتقوم المؤسسة العامة للمسرح والتلفزيون والسنيما في العراق، وهي الجهة المكلفة بالتخصيص لهذا المهرجان بدور استاتي في انجاح المهرجان، كما ستغطي الحكومة العراقية جميع المصاريف. وقد بدأ التفكير في اقامة مثل هذا المهرجان منذ سنوات، فلي اثناء انعقاد مهرجان لايبزج الدولي في العام ١٩٦٩ التقت مجموعة من السينمائيين العرب المشتركين في المهرجان ورات اهمية اقامة مهرجان مماثل يكرس حضور القضية الفلسطينية في الاوساط الدولية. وقد نجم عن ذلك اللقاء ان

السلطان والسيد سعد لبيب سنكرتيرين. مساعدين .
بالإضافة الى عدد من اشهر العاملين في حقل
السينما والتلفزيون في العراق مثل يوسف العاني
وابراهيم جلال وعمانويل زسام وغيرهم .

هذا ، وقد صرح السيد سلطان لصحيفه
« الجهورية » العراقية في ١٦/١٠/٧٢ « بأن
قاعة الخلد ستكون مكان المهرجان ، واتفق على
ان يكون شعار المهرجان « تحرير فلسطين ركيزة
للسلم العالمي » وقد اختير اذار بالذات لتوافقه مع
الذكرى الخامسة لمعركة الكرامة . . . وان موعد
المؤتمر سيكون ما بين ١٩ و ٢٢ اذار ١٩٧٣ .
ويهدف المهرجان الى توضيح استراتيجية الثورة
الفلسطينية والدفاع عنها ، وبذلك فسوف يسهم
المهرجان في دفع القضية الفلسطينية الى مواقع
تكتسب فيها اصدقاء ومؤيدين جدد .

اما الجهات الداعية لهذا المهرجان فهي ١ - اتحاد
اذاعات الدول العربية ٢ - جامعة الدول العربية
٣ - منظمة التحرير الفلسطينية ٤ - المؤسسة
العامة للاذاعة والسينما والتلفزيون في العراق .
وسيكون برنامج المهرجان كالآتي : ١ - عرض
الافلام والبرامج داخل المسابقة . ٢ - عرض
الافلام والبرامج خارج المسابقة . ٣ - عقد
جلسة بحث تتناول دور الهيئات السينمائية
والتلفزيونية في الدعوة لقضية تحرير فلسطين .
٤ - عرض خاص للافلام التي تتحدث عن قضايا
النضال والتحرر العالمي ضد الاستعمار
والاضطهاد . وسوف تكون الفرصة متاحة
للاشتراك في المهرجان امام المؤسسات الرسمية
وشبه الرسمية العاملة في مجالي السينما

والتلفزيون وامام الشركات والجماعات والافراد .
وقد حددت المواعيد التالية لتقديم طلبات الاشتراك
وتقديم الافلام : ١ - ١٥/١/٧٢ اخر موعد لقبول
استمارة المهرجان للاشتراك ٢ - ١٥/٢/٧٢ اخر
موعد لتقديم الافلام والبرامج التي ستشارك في
المهرجان . ويتصل بالمؤسسة العامة للاذاعة
والتلفزيون والسينما (في عنوانها : الصاحبة -
بغداد) للحصول على استمارة الاشتراك .

وقد شكلت سنكرتيرية المهرجان لجننتين مختصتين
تعرض عليهما جميع الافلام والمواد التي ستشارك
في المهرجان ، وللجننتين الحق في تقرير الأمور
التالية : ١ - صلاحية الافلام والبرامج المقدمة
طبقا للشروط والاحكام التي بموجبها يقبل الفيلم
او يرفض ٢ - صلاحية الفيلم للمشاركة في
المسابقة ٣ - صلاحية الفيلم للعرض خارج
المسابقة . ويمكن معرفة المقاييس والشروط من
العنوان المذكور انفا . وقد قررت السنكرتيرية
تخصيص جوائز للمهرجان كالآتي : ١ - شعار
ذهبي ٢ - شعار فضي . بالإضافة الى مبلغ ١٥٠
دينارا عراقيا للجائزة الاولى ومائة دينار للجائزة
الثانية بجانب عدد محدود من الشارات التقديرية .
وقد استقر الرأي على دعوة ٢٠ شخصية معروفة
بتقدميتها وتأييدها للحق الفلسطيني ومن هؤلاء
جين غوندا المثلة الأميركية المشهورة بدفاعها عن
قضايا التحرير خاصة في فيتنام ، والشاعر التقدمي
بابلو نيرودا ، والمناضلة التقدمية الزنجية ، انجيلا
ديفيس ، وهاركن ثال رئيس مهرجانات لايبزج ،
ورئيس مهرجاني ملشقند وترطاجه .

سفيان الرمحي

النشاط الصهيوني في اليابان

يجعل من بلدان كالاليابان والمانيا الغربية التي يفترض منطق المصالح المتبادلة ان تلتمز ، على اقل تقدير ، بموقف محايد من قضايا النزاع العربي الاسرائيلي ، واعنى بهذا القاسم المشترك الاكبر الانتساء لحظيرة الاستعمار الامريكى وسلطانه الاقتصادى والسياسى ، ولعلنا لا نجاني واتسع الحال اذا قلنا ان الانتساء لحظيرة الاستعمار الامريكى هذا هو ذاته الذي يربط بخيوط خفية ، تحس بها دائما ولا نراها احيانا ، بين سلطات تل ابيب ونفر من الحاكمين سعيدا في بعض انحاء الارض العربية وكذلك غير الحاكمين فيها من اصحاب المصالح والتيارات السياسية واصحاب « الوكالات » ...

وعلى أية حال ، ان روابط اسرائيل الرسمية بالمؤسسة الحاكمة في اليابان قد بدأت في ١٥ ايار عام ١٩٥٢ يوم ان اعترفت اليابان - تحت وطأة الضغط الامريكى - بدولة الصهاينة ، وبادرت اسرائيل الى ارسال بعثتها الدبلوماسية الى طوكيو لفتح مفاوضات هناك في ١٩ كانون الاول من العام ذاته ، بينما تلكت اليابان في ارسال رجال مفاوضتها الى تل ابيب لغاية ٣٠ تموز ١٩٥٥ ، ولكن بتوطد دعائم العلاقات المتبادلة رفعت درجة التمثيل الدبلوماسي بين الطرفين الى مستوى سفارة اعتبارا من ٥ تموز ١٩٦٣ ، وكان اول سفير اسرائيلي في طوكيو من مواليد الاسكندرية ومن عائلة للتجار ...

ان مرتكزات التأثير الاسرائيلي في اليابان ليست هائلة القوة كما هي عليه في أوروبا الغربية وامريكا الشمالية حيث توجد جاليات يهودية كبيرة تمثل درجة مرموقة في السلم الاجتماعى وتسيطر على قطاعات واسعة من الاقتصاد ووسائل الاعلام تنارس من خلالها نفوذها في شتى القطاعات والنواحي الاخرى ، ولكن اسرائيل لا تنتفخ كليا الى ركائز محلية للتأثير في اليابان تشكل نواة تنطلق منها بنشاط وفعالية ... فقلة عدد افراد الجالية الاسرائيلية وهيئة السفارة الاسرائيلية في اليابان يعوض عنها وجود ما يزيد على الف تاجر يهودى معظمهم من يهود البلدان العربية ويتزعمهم تاجر من عائلة سامسون من يهود الصراق ، وهم يسيطرون على تجارة الماس واللؤلؤ الذي هو من

مزقت عملية مطار اللد فتاع الرياء عن وجه المؤسسة الحاكمة في اليابان وكشفت عن موقفها الحقيقى من قضايانا القومية المصرية فبمثت بأحد كبار موظفي وزارة خارجيتها يتأبط كيسا ممتلئا ببلغم قيل انه خمسة ملايين دولار امترضاء للاوساط الحاكمة في تل ابيب ، للتعويض عن الخسائر والضحايا التي ألحقها « الارهابيون الحبر » الذين اغواهم « المخربون الفلسطينيون » كما انهالت على تل ابيب رسائل الاعتذار والاستعطاف من المسؤولين اليابانيين واعيان المؤسسة الحاكمة ، ونددت صحف المؤسسة الحاكمة بهذه « الجريمة النكراء » ، ومضت تستعطف دولة الصهاينة بخنوخ لا يوازيه سوى خنوخ الدوائر الحاكمة في بون ونذالتها في اعقاب عملية ميونيخ ، ناهيك عن حقن المساعدات الهائلة والتواطؤ في شتى المجالات قبل ميونيخ . واذا كان لالمانيا الغربية ودوائرها الحاكمة ربما شيء من العذر او بعض التبرير المثل في عقدة الذنب التي ورثتها عن جرائم النازيين ، وكذلك واقعها الاوروبى الغربى وما ينطوي عليه هذا من تحامل ثقافى وحضارى تاريخى ضد شعوبنا ومجتمعاتنا ، فلا بد للمرء من ان يتساءل تسرى ما هو مصدر اليابان البلد الامسيوى الشرقى ، وهو الذي يعتمد في نحو ٨٥٪ من احتياجاته من النفط الخام والغاز الطبيعى على ما يستخرج من هذا الذهب الاسود من البلدان العربية ، كما ان البلدان العربية هي من الاسواق الرئيسية للسلح والمعدات الصناعية اليابانية ، هذا اذا طرطنا جانبنا حاجة اليابان الفعيرة بالمواد الاولية الى ما تزخر به البلاد العربية من هذه المواد الاولية مثل الحديدالجزائري الخام الذي يشحن الى اليابان بكميات كبيرة على سبيل المثال ...

اذن ، هل من جواب يحصل لغز هذه الهرولة اليابانية امام سلطات تل ابيب سوى تصور الانتظة الحاكمة في البلدان العربية عن طرح مصالحنا وقضايانا الهوية بجدية امام بلدان العالم الاخرى ؟ اليس تفرط الانتظمة العربية باعتبارات كرامتنا القومية هو خير مشجع للبلدان الاخرى على الاستهتار بعقودنا وقضايانا المادسة ومجازاة اعدائنا واسترضائهم على حسب كرامة شعوبنا وحقوقها ؟ هناك بطبيعة الحال قاسم مشترك اعظم

خلالها الى قطاعات المجتمع الياباني كافة ومن هذه الجمعيات والهيئات : جمعية الصداقة اليابانية - الاسرائيلية ، والجمعية الثقافية اليابانية - الاسرائيلية ، والجمعية النسائية اليابانية - الاسرائيلية ، والمركز اليهودي الاجتماعي ، وميثم أساهيدي .

وبفضل هذه الجمعيات والهيئات المتعددة تسمى السفارة الاسرائيلية الى زرع تأثيرها ونفوذها في قلب المجتمع الياباني وخلق قواعد راسخة متينة لها في صلب البناء الاجتماعي والسياسي في البلاد ، وهي تتحرك في اتجاهين رئيسيين : اولهما العمل على تطوير الروابط والعلاقات الاقتصادية بين اسرائيل واليابان . وثانيهما ، القيام بعملية تضليل سياسي على اوسع نطاق داخل قطاعات المجتمع الياباني لخلق صورة عامة زاهية لسياسة اسرائيل واهدافها واوضاعها ، وتشويه صورة المجتمعات العربية وعدالة قضاياها في اذهان اليابانيين ، وتطويق اية مجهودات مضادة لاسرائيل تقوم بها الجهات العربية هناك او القوى الثورية اليابانية البصيرة بعدوانية اسرائيل وعنصريتها وضلوها مع الاستعمار الامريكي في استراتيجيته الاستعمارية الدولية ، وذلك في اطار عملية غسل دماغ واسعة النطاق على غرار عملية غسل الدماغ الشاملة التي افلحت في انجازها في مجتمعات اوروبا الغربية والامريكتين ، وبالتالي تكيف السياسة اليابانية تجاه منطقة الشرق الاوسط وفق اهوائها ومآربها ...

فعلى مسعد تطوير العلاقات الاقتصادية وتوثيقها ما زالت اسرائيل توالي ضغوطها على الحكومة اليابانية وعلى المؤسسات الصناعية والتجارية لزيادة التبادل التجاري بين البلدين وفسح المجال في السوق اليابانية امام المزيد من المنتجات الاسرائيلية ولحفز اليابانيين على زيادة استثماراتهم في اسرائيل ، وتطوير علاقاتهم الاقتصادية كما ونوعا بإنشاء فروع لصناعاتهم داخل اسرائيل نفسها مطلقا فعل الكثير من الشركات الامريكية والاوربية ... ويبدو ان هذه الضغوط تحقق استجابة حثيثة من جانب الجهات اليابانية ، فقد تضاعف حجم التجارة المتبادلة بين البلدين في مدة عام واحد فزاد من ٥٠ مليون دولار في عام ١٩٦٩ الى ١٠٠ مليون دولار في عام ١٩٧٠ ، وزادت قيمة الصادرات اليابانية الى اسرائيل في المدة

الدعوات المهمة للاقتصاد الياباني ... ويمارس هؤلاء التجار الاف نشاطا ونفودا عظيمين في نواح شتى وذلك بتنسيق مع السفارة الاسرائيلية التي تشرف على تأسيس الجمعيات والهيئات المحلية التي تدير من خلالها نشاطاتها الدعائية وتتغلغل بواسطتها الى الاوساط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ...

ويساعد السفارة الاسرائيلية في مهمتها نجاح اسطورة روجتها العناصر الصهيونية بين سكان جزيرة هوكايدو وفحواها ان سكان هذه الجزيرة يعودون في اصلهم الى يهود موسى الذين تاهوا في صحراء سيناء ، ولذلك فان صلقتهم باسرائيل والاسرائيليين هي صلة الاحفاد بالجدود وهي صلة قائمة عرفا. ودما علاوة على انها صلة دينية روحية وثقافية ، وقد تقبل سكان جزيرة هوكايدو هذه الاسطورة بحماس حتى ان عددا منهم اخذوا يتقاربون على القدس لزيارة حائط المبكى . ويستفيد الاسرائيليون من واتسع هؤلاء اليهود اليابانيين المحليين ويستغلونهم في اغراضهم الدعائية الى اقصى حد ، فأتقدم الصهانية على تأسيس كيبوتزين في هذه الجزيرة نجحا اعظم نجاح حتى ان عدد الاعضاء المنتهين لها قد بلغ (١٠) الف عضو حسيما تقول الصحف اليابانية ، ويتطلع للعمل في هذين الكيبوتزين بعض الصهانية من شتى انحاء العالم ، وتنتشر الصحف اليابانية تحقيقات صحفية شيقة الاسلوب عن الحياة الجماعية المتأززة في هذين الكيبوتزين . وكذلك اصبحت جزيرة هوكايدو والكيبوتزان مسرحا لنشاط السفير الاسرائيلي الذي وطد علاقته بمحافظ الجزيرة ، ومصدرا لحشد المظومين من الشباب الياباني للعمل في المستوطنات والكيبوتزات الاسرائيلية ، وتقدم السفارة الاسرائيلية منحسا دراسية وبعثات تدريبية في اسرائيل للشباب من هذين الكيبوتزين . فبعثت في شهر تموز ١٩٧١ ١٣ ففائة قضين في اسرائيل شهرا ، كما ان اتحاد الشبيبة الاسرائيلي نظم زيارات تدريبية في اسرائيل لاربعة وعشرين شابا من هؤلاء ، وعلى اثر ذلك الغيت تأشيرات السفر بين البلدين ...

وعلاوة على هذا الاستغلال الدعائي الناجح لكيبوتزي يهود هوكايدو نظمت السفارة الاسرائيلية عددا من الهيئات والجمعيات المحلية لتنفيذ من

ذاتها من ٢٠ مليون دولار الى ٦٢ مليون دولار ،
ويمثل هذا الرقم حسب ما ورد في حديث السفير
الاسرائيلي خلال الحفل الذي اقامه في نيسان
١٩٧١ بمناسبة ذكرى « عيد الاستقلال » الرابع
والعشرين مجرد ٢٪ فقط من اجسالي واردات
اسرائيل . وقارن السفير الاسرائيلي في حديثه ذلك
بين هذا الرقم الضئيل نسبيا وبين واردات
اسرائيل الكبيرة من البلدان الصناعية الاخرى
الاوروبية والامريكية وقال : « ان الواجب لا
يقضي الوقوف عند مضاعفة حجم التجارة المتبادلة
بين البلدين فحسب ، فهناك مجال لزيادتها ثلاثة
اضعاف او اربعة » ... وكان بذلك يرمي الطعم
للمؤسسات الصناعية اليابانية ويعطيها اشارة
العمل وكأنه يقول لرجال الصناعة والمسؤولين
اليابانيين : لا تدعوا الامر يخلط عليكم فالتعاون
مع اسرائيل اجدى لكم وانفع فسوتها اوسع من
سوق البلدان العربية وانضم وان كانت اصغر
منها حجما ، وهذه الكذوبة دأب الدعاة الصهيونية
على ترديدها على مسامح البلدان الصناعية لا
سيما في اوربوا الغربية ، كما تطرق السفير
الاسرائيلي في حديثه المشار اليه الى المجالات
الواسعة لزيادة حجم السياحة بين البلدين ...
ويرسم هذا الحديث الاطار العام الذي تتحرك
ضمنه الجهود السياسية والدبلوماسية الاسرائيلية
... فعلاوة على سيطرة التجار اليهود والاسرائيليين
على تجارة اللؤلؤ والماس في اليابان ، وحسده
الاخيرة أصبحت احتكارا اسرائيليا - يهوديا على
نطاق العالم بأسره ، اقامت شركات صناعة
الملابس الجاهزة الاسرائيلية فروعا لها في اليابان ،
ووقعت اليابان مؤخرا اتفاقية مع اسرائيل لاستيراد
كميات وافرة من الحمضيات الاسرائيلية ، وهناك
خط لشركة الملاحة الاسرائيلية « نسيم » يربط ميناء
ايلات ببيناء يوكوهاما الياباني وتشحن بواسطته
المنتجات الاسرائيلية الى اليابان وبالعكس ...
وتتوالى الضغوط الاسرائيلية والصهيونية على
شركة الطيران اليابانية (جال) لتسيير رحلات
لها الى مطار اللد ، ويعاون السفارة الاسرائيلية
في هذه الضغوط عدد من كبار الممولين واصحاب
المصالح اليهود الامريكيين ، وحتى الان لم تلب
الخارجية اليابانية وشركة الطيران اليابانية طلب
اسرائيل هذا ، ولكنها تسعيان لاسترضائها بتقديم
خدمات اخرى مثل دعوة الفنانين الاسرائيليين للقيام
بجولات فنية في اليابان على حساب الشركة ، ومن

جهة اخرى ، تطالب اسرائيل بحد شبكة خطوط
طيرانها العال الى طوكيو ، ولا تزال الاتصالات
جارية بهذا الخصوص ، وان لم يحصل الاسرائيليون
على جواب حاسم حتى الان ... ومن الشواهد
على هذه الضغوط الاسرائيلية الصهيونية الضغط
الذي مارسته شركة لوكهيد الامريكية لصناعة
الطائرات على شركة « نيسان » اليابانية لصناعة
السيارات ، اذ عدتها بأنها ستتوقف عن تسويق
سياراتها والبضائع اليابانية الاخرى في مناطق
الشرط الشرقي من الولايات المتحدة الامريكية اذا
لم تستجيب لرغبة اسرائيل بانشاء مصنع
لسياراتها فيها والتي لاقت رواجا هناك ، وقد
رضخت اخيرا شركة نيسان لهذه الضغوط
وستنشئ في المستقبل القريب مصنعا لسياراتها
تحت يافطة اخرى وباسم اخر ولن تخسر الاسواق
العربية .

ومن الشواهد على هذه الضغوط كذلك رفض
اليابان اقتراحا تقدمت به ليبيا بواسطة مكتب
المقاطعة العربية لاسرائيل لفتح غرفة تجارية عربية
في اليابان علما بأن جميع الدول التي تتعاضل
مع اليابان تجاريا لها غرف تجارية في طوكيو او
اوساكا ، وذلك خشية ان تزد مثل هذه الغرفة
من فعالية مراتبة الصفقات الملتوية التي تعقد في
الخفاء وبأساليب مواربة جانبية بين اسرائيل
والهيئات الاقتصادية اليابانية ... ولا يقتنى لنا
ان نقدر اهمية هذه الضغوط الا اذا ادركنا ان
رؤوس الاموال الامريكية ، وكثير منها يهودي ،
متغلظة في اعقب اعقاب الاقتصاد الياباني ، وتلك
في كثير من الحالات غالبية الاسهم في كبريات
المؤسسات الصناعية اليابانية الكبرى في مروع
الالكترونيات وصناعة السفن وغيرها ، وبناء على
هذا تأخذ اليابان بجدية متناهية اية ضغوط من هذا
النوع لا سيما وان الدول العربية لا تمارس على
هذه المؤسسات ضغوطا جدية لتحسب لها الجهات
اليابانية حسابا . وفي هذا الاطار هدد السفير
الاسرائيلي اثناء زيارة الوفد التجاري الاسرائيلي
لليابان السنة الماضية بأنه اذا لم تتعاون الشركات
اليابانية مع الشركات الاسرائيلية بقدر كفا
تستلج الشركات الامريكية والاوروبية الغربية الى
اتخاذ موقف حازم تجاه هذه الشركات اليابانية ..
وفي هذا السياق تروج المصادر الاسرائيلية قصصا
حول تعاون الشركات اليابانية مع « المخربين »
الغلمطيين ، ففي رواية من هذه قالت المصادر

اسرائيل واليابان ، وتعمل اسرائيل على جذب المزيد من السواح اليابانيين اليها فمدعو لهذا الغرض وفودا من مكاتب السياحة في اليابان للتجول في أنحاء اسرائيل، كما انها تبعت بمندوبيها السياحيين الى اليابان للاتصال برجال السياحة هناك . وواقع الامر ان اسرائيل تبذل جهودا متعانية لتنفذ الى عقول اليابانيين وقلوبهم ومن ثم الى جيوبهم ، وهي تلجأ في هذا المضمار الى مختلف أساليب الدعاية واستغلال شتى المناسبات، وكذلك باقامة المعارض والمهرجانات وغيرها من المظاهرات الثقافية والفنية والاقتصادية ، ووضع برامج طويلة الامد للمساعدات العلمية والمتح الدراسية والتدريبية .

وتبين مقدار ما تتهاز به جهود اسرائيل هذه من حيوية ودهاء ونشاط وبراعة باستعراض شريط الاخبار التالي عن بعض النشاطات الاسرائيلية في اليابان وكيف يوزعون الادوار على الجمعيات والهيئات التي يؤسسونها لهذا الغرض فتبدو هذه الاعمال وكأنها نابذة من داخل المجتمع الياباني ذاته . . .

— اقامت السفارة الاسرائيلية في طوكيو حفلا في ذكرى مرور عشر سنوات على تأسيس « المعهد الافرو — اسيوي التعاوني » في اسرائيل ، وقد حضر هذا الحفل خمسون شابا يابانيا ممن تخرجوا من هذا المعهد بموجب منح دراسية قدمتها لهم الحكومة الاسرائيلية .

— اقامت السفارة الاسرائيلية حفلا في فندق هيلتون طوكيو ترحيبا بموشي شوفتاني مدير تشجيع السياحة بوزارة السياحة الاسرائيلية يوم ٧٢/٣/٥ دعت اليه رجال السياحة اليابانيين حيث تحدث اليهم عن الامكانيات السياحية المتوفرة في اسرائيل .

— وصلت الى طوكيو في تموز ١٩٧١ ملكة جمال الكون لعام ١٩٧٠ الانسة ايريس هوغر الاسرائيلية المولدة .

— نشرت الصحف اليابانية صورة لطفل فلسطيني مسد بالقيود بينما ضابط شرطة اسرائيلي يقوم بقص اصغاد هذا الطفل وفك اساره ، والطفل من ابناء القدس ويدعى ناصر شريف وعمره ١١ سنة ، وقام والده بتقييده بالاصغاد عقابا له لمدة اربعين يوما . . .

— اقامت جمعية الصداقة اليابانية — الاسرائيلية

الاسرائيلية ان شركة سيارات تويوتا ظلت ترفض الضغوط عليها لفتح وكالة لمنتجاتها في اسرائيل متعللة بان التزاماتها تجاه وكلائها في الشرق الاوسط لا تمكنها من ذلك ، ولكن عندما قام الجيش الاسرائيلي بغزو منطقة الكرامة في ربيع ١٩٦٨ وجد ان في حوزة « المخربين الفلسطينيين » العشرات من سيارات تويوتا التي من طراز الجيب ، وعندئذ ادركت اسرائيل ماهية هذه الالتزامات التي تلزم بها شركة تويوتا تجاه وكلائها في الشرق الاوسط . . . اي ان اسرائيل تنصد من ترويج هذه الاخبار التشهيم بسبعة مثل هذه الشركات في السوق العالمي لعضمة مكانتها الى ان تستجيب لضغوطها . . .

ولا تقتصر السيطرة الامريكية في اليابان على تغلغل رؤوس الاموال الامريكية في قطاعات عريضة من الاقتصاد الياباني ، بل لها وزنها للموس في التأثير على سياسة اليابان العامة حتى ان اليابان رضخت للضغوط الامريكية برفع قيمة عملتها « الين » لصالح الدولار اثناء الازمات اللتين عصفتا به السنة الماضية وهذه السنة وادت الى تخفيضه . . فالتعامل الحكومي بين امريكا واليابان ما زال على اساس سعر الدولار ثيل تخفيضه ، وتعامل اليابان الجيش الامريكي في قواعد فيها (اوكنواوا) على اساس ٣٦٠ ين للدولار الواحد بينما قيمة الدولار في البنك هي ٣٠٨٤٩ ين، واضطرت اليابان لتسديد خسائرها من هذه التغطية لعجز الدولار الامريكي الى رفع الاسعار في داخل البلاد بنسبة ٤٤ / ٠٠٠

وفي هذا الجو السياسي العام المواتي الذي عبر عنه احسن تعبير جدمون رغائيل مدير عام وزارة الخارجية الاسرائيلية عندما زار اليابان في شهر ايار ١٩٧١ فأبدى رضاه واغتباطه بنوع الحياض الذي تمارسه اليابان تجاه النزاع في الشرق الاوسط وقال : « ان هذا الحياض تأييد لنا » . . . فني هذا الجو تعمل اسرائيل بذكاء وفعالية على ترويج منتجاتها في اليابان بخلق الظواهر الفنية والتجارية المناسبة ، فاقامت هذه السنة وبالتعاون مع شركة الخطوط الجوية الفرنسية وفندق هيلتون طوكيو ما دعته المهرجان الاسرائيلي لعرض المكولات والمشروبات الاسرائيلية وتذوقها في جو من الرقصات والاعاني الاسرائيلية . وكذلك نشطت في الفترة الاخيرة حركة السياحة بين

بطوكيو حفل وداع للسفير الإسرائيلي النشط
موشي بارثور. لمناسبة نقله من اليابان وعودته
إسرائيل ... وجدير بالذكر ان ابنة هذا السفير
قد تزوجت من احد الفنانين اليابانيين ، وقد
استغلت الاوساط الاسرائيلية هذا الحدث احسن
استغلال ، تخلقت حوله ضجة اعلامية هائلة في
الصحف ومحطات الاذاعة والتلفزيون اليابانية ...
نعم في هذا لا يعدمون فرصة تفوت دون استغلالها
الى اقصى حد ...

— نشرت الصحف اليابانية خيرا مساندة ان
البروفيسور دافيد من معهد وايزمن للعلوم اخترع
مقياسا لدقات القلب بحجم صغير يعمل بالبطارية
وذلك لفائدة الجيش الاسرائيلي .

— زار اليابان في السنة الماضية الثري الصهيوني
روتشيلد صاحب بنوك روتشيلد الشهيرة ، وقد
ظهر مع رئيس الوزراء الياباني السابق ايزاكو
ساتو في نشرة اخبار مسائية ، وقد تم خلال هذه
الزيارة عقد اتفاق بين البنك الصناعي الياباني
ومؤسسات روتشيلد المصرفية .

— صنع اربعة من الفنانين اليابانيين نماذج من
الطيور المخططة المهداة من مؤسسة فيليكس يهودا
في لوس انجليس لعرضها في متحف اسرائيل للطيور
في المدينة المقدسة .

— اقامت الجمعية النسائية اليابانية سوقا خيرية
في طوكيو برعاية زوجة السفير الإسرائيلي لمناسبة
« عيد الاستقلال » الإسرائيلي في ١٩ نيسان ١٩٧٢
عرضت فيه الازياء الشعبية الاسرائيلية وهي في
واقع الامر الازياء الفولكلورية الفلسطينية
المشهورة والتي يعرضونها في كل مكان على انها
اسرائيلية كما اشتهل على رقصات اسرائيلية
ويابانية ، وحضر هذه السوق بعض اميرات القصر
الامبراطوري ، وخصص ربعها الى ميتم اساهيدي
للاطفال اليابانيين ، واقامة هذه السوق هي عادة
سنوية .

— نشرت الصحف اليابانية تفصيلات كثيرة عن جهود
الساخام الدكتور فيكتور سالون استاذ علم النفس
في جامعة صوفيا التبشيرية بطوكيو لتخليد ذكرى
القائد الياباني كيشيرو هيجوتشي الذي انقذ حياة
عشرين الف يهودي من مذابح النازيين قبل الحرب
العالمية الثانية ، حيث كان يعمل ملحقا عسكريا
بسفارة اليابان في فرسونيا (ارسو) ، وقام هذا

الساخام بجمع الوثائق والتفاصيل عن حياة
هيجوتشي هذا من عائلته ومن ملفات المؤسسات
الرسمية ... وقد احتوت كتاباته التي تقرر
تدريسها في مدارس اليابان على ما قدمته اليابان
لاسرائيل من خدمات ... وكذلك يعمل الساخام
نيكتور سالون هذا على بناء مدينة جديدة تسمى
هيجوتشي تكريما لعمل هذا الضابط الياباني
وخدماته لاسرائيل ...

وكذلك اقام مركز الجالية اليهودية معرضا لصور
اللاجئين اليهود اثناء الحرب العالمية الثانية ، وقام
الساخام بشرح الصور مدققا فيها وكأنه يبحث شيئا
عن قريب له ليستدر بهذا عطف اليابانيين ، وقد
نجح في ذلك اياها نجاح .

— صدرت ترجمة كتاب تحديات اسرائيل لوزير
المواصلات الاسرائيلي شمعون بيرس باللغة
اليابانية ، كما ظهر كتاب اخر باللغة اليابانية يدعى
« حكمة اليهود في خبسة الالف عام » ، ووصفته
صحيفة « يوميوري » بأنه من احسن الكتب
الترجمة ...

— ولكن اذكى البدع الدعائية الاسرائيلية هو كتاب
« اليابانيون واليهود » الذي طبع اكثر من عشر
مرات حتى الان وهو من الكتب المفضلة عند
اليابانيين ، ويبيع منه حتى الان اكثر من ١٧٠٠٠٠
نسخة . وقد فاز اخيرا بجائزة « بونماي شانجو »
وما زال يعتبر من اكثر الكتب راجا ... وكسل
الدلائل تشير الى ان هذا الكتاب قد طبع في مطبخ
السفارة الاسرائيلية في طوكيو . اذ لم يحضر
مؤلفه لتسلم جائزة « بونماي شانجو » المذكورة
بل حضر نيابة عنه شخصان من امريكا ..

وادعى ناشر الكتاب ان المؤلف شخص يدعى ابن
اكسان ، ولكنه لا يعرفه شخصيا ولا يعرف عنه
شيئا ...

وقد استشهد السفير الإسرائيلي في حديثه بمناسبة
« عيد الاستقلال » الماضي بما جاء في هذا الكتاب
من ان الاسرائيليين تربيوا الشبه باليابانيين لغة
وتاريخا وعرقا ... وقد نجح الكتاب الى ابعد حد
في تحقيق غرضه ، فهو يمس شغاف قلوب اليابانيين
نفسيا ومعنويا اذ صيغ بلغة يابانية عالية وربط
باسلوب علمي المشاكل اليابانية والاسرائيلية .

وبعد ، ما هذه سوى ثغرات من مجهودات
الاسرائيليين لامتلاك زمام الموقف في بلاد الشمس ،

ولكن ، هل معنى ذلك ان ساحة اليابان مفتوحة تماما للنشاط الاسرائيلي والاميركي ولا مجال لسواهما ... واقع الحال ان القوى الثورية في اليابان تخوض صراعا عنيدا ضد الهيمنة الامريكية ، كما اخذت هذه القوى تنتفهم اكثر فأكثر عدوانية اسرائيل وغنصيرتها وذلوعها في مخططات الاستعمار الاميركي ، كما اخذ يتعاطف تعاطفها مع قضية العرب العادلة لا سيما مع نضال الشعب الفلسطيني ، ويقف في طليعة هذه القوى الثورية في الساحة اليابانية حزب العمال والفلاحين الفقراء الثوريين الذي يؤمن بالعنف الثوري ، وتطارد الحكومة هذا الحزب بصورة شديدة ، وايضا الحزب الشيوعي الياباني الذي يعتبر التنظيم السياسي الثاني في اليابان من حيث القوة والنشاط بعد الحزب الليبرالي الحاكم ، وهو يسيطر على معظم الهيئات والاتحادات الديمقراطية مثل اتحاد المحامين الديمقراطيين واتحاد العمال لعموم اليابان ومؤتمر السلام للتضامن الامرو اسوي ، واتحاد الشبيبة ، واتحاد المزارعين ، ولجنة نصره فيتنام ، واتحاد المرأة .

وعنالك جماهير عريضة تنتفهم قضايانا وتؤيدنا بحماس وانني امام المد الجماهيري الياباني اقف مشدوها بهم وعاتبا على انفسنا لتقصيرنا الاعلامي وفي الاتصال بهم والتعاون معهم ... ففي المؤتمر السادس والعشرين لذكرى القاء اول قنبلة ذرية على هيروشيما قدمت طالبات الجامعة باقاعات من الزهر الى الوفود ، وكان نصيب مندوب الثورة الفلسطينية ثلاث باقات احداها لقايد الثورة ، وثانيها للشوار المقاطلين ، وثالثها للشعب الفلسطيني ، وعندما قدم السكرتير العام للمؤتمر مندوب الثورة للجماهير هبت الجماهير تهتف للثورة الفلسطينية مدة طويلة اضطر معها رئيس المؤتمر الى ان يطلب منهم الهدوء ليقدم المتدربين الاخرين، وعادت الجماهير تهتف للثورة الفلسطينية عندما قام مندوب الثورة باهداء العلم الفلسطيني الى السكرتير العام للمؤتمر ... هذا ، وقد تشكل اخرا في جامعة واسيدا وهي جامعة خاصة فريق للدراسات الفلسطينية ... اذن ليست الساحة خالية للاسرائيليين والامريكان السذبن يرتبطون بالمؤسسة الحاكمة في اليابان ويحاولون من خلالها تضليل جماهير الشعب التي هي رصيد طبيعي للقوى الثورية التي علينا ان نمثن روابطنا بها ونوفر لها المادة الاعلامية الضرورية لتتولى هي

وهم في هذا نشيطون في تزويد محطات الاذاعة والتلفزيون ودور السينما بالانلام والبرامج عن اسرائيل ، وكذلك يستقلون كمعادتهم الصحف على نطاق واسع ... وتساعدهم في مجهوداتهم هذه محطات الاذاعة والتلفزيون الموجودة في قواعد الجيش الاميركي في اليابان والتي تبث برامجها طوال ٢٤ ساعة ، وقد اُفلق الاميركيون في صبح اليابانيين بطابعهم الحضاري غزورهم ثقافيا وفنيا كما غزورهم حربيا وماليا ... ومن خلال هذه السيطرة الامريكية على اليابان اخذت تتولد بين اسرائيل واليابان علاقات عسكرية لا سيما في ميدان التكنولوجيا العسكرية ، فتزود اليابان اسرائيل بالمعدات والاجهزة الالكترونية المتطورة ، ولعمل الحديث الذي اخذ يتردد عن امتلاك اسرائيل قنابل توجهه للهدف بأشعة ليزر مماثلة لتلك التي يستخدمها الاميركيون في قصف هاتوي تبين مدى حاجة اسرائيل لهذه العلاقات وهذا التعاون ، فالقنابل المذكورة يوجهها جهاز الكتروني من صنع شركة سوني اليابانية على سبيل المثال ...

ولكن ماذا عن مجهودات الجانب العربي في اليابان ... من المؤسف ان نضطر لان نقول ان صورة العمل العربي في اليابان لا تشرف احدا ، ولعلنا لا نعلم احدا حين نقول ان ممثلي الدول العربية في اليابان حيث توجد ثماني سفارات عربية يكادون لا يحركون ساكنا ازاء هذا المد الاسرائيلي الجارف ، وهم على كل حال يغطون في سبات عميق ، ولا يتورع بعضهم عن حضور حفلات مركز الجالية اليهودية الاسبوعية الراقصة حيث تسود اجواء مديرة من الخلاصة والمجون لثراء النفوس الضعيفة بين المسؤولين اليابانيين وكذلك لا يطيب لبعضهم تناول وجبات طعامه سوى في مطعم مختص باصناف الطعام اليهودية (الكوشير) وتملكه امرأة يهودية امريكية ، وقد تكون اصناف الطعام اليهودي اقرب الى الماكل العربية من الاصناف اليابانية ، ولكن اما خطر ببال هؤلاء المثلثين الذيلوماسيين العرب انهم قد يجدون انفسهم يوما في ساعة ازدحام في هذا المطعم يجالسون السفير الاسرائيلي في طوكيو على طاولة واحدة ... اما التجار العرب في اليابان فليسوا اسعد حالا ، اذ لا يحظون بالقيام بأي نشاط لمصالح امتهم وقضاياهم ... بل ان بعضهم يتغيب في صفقات مريبة مع التجار الصهيونيين .

تعرضت لاحتها في حزيران ١٩٦٧ أخذ يسمى لتجنيد شبان يابانيين للقيام بحملة معه تضامنا مع مصر ، ولما لم يلق كبير تجاوب ، ممن حوله من الشبان اليابانيين سيطر عليه التشاؤم واستبد به اليأس وانتحر حنقا على عدم تفهم الشباب الياباني لوقف مصر التي يحبها وقضيتها ليجلب بانتحاره الأذهان للاهتمام بهذه القضية والتعاطف معها وهو ما فشل فيه في حياته ...

ولن أجد مثلا ابلغ من هذا الخبر الذي أوردته « الأهرام » على الفشل العربي والقصور العربي في الساحة اليابانية ، الفشل السياسي والقصور الاعلامي ، وقد ذهب هذا الشاب النبيل ضحية هذا الفشل وذلك القصور الذي لا بد ان يعوض الان بتوجيه المزيد من الضغوط الاقتصادية والسياسية على المؤسسة اليابانية الحاكمة لقطع علاقاتها الاقتصادية بالعدو الصهيوني ، ومن جهة بالانفتاح اكثر فأكثر سياسيا واعلاميا على القوى الثورية اليابانية التي تؤيد قضيتنا لتشجيعها على المضي قدما في هذا السبيل ...

مراسلنا في طوكيو

اشاعة المقائق عن قضيتنا ومكافحة أكاذيب الصهيونية والمستعمرين الامريكان واضاليلهم ... ولولا التصير العربي العام في طرح قضايانا بجدية أمام المؤسسة اليابانية الحاكمة لاضطرت هذه بدورها الى ايلاء قضايانا وحقوقنا قسطا اكبر من الاحترام ولما رضخت للضغوط الصهيونية بالصورة التي رأيناها اثر عملية اللد ، فاعتاد اليابان الكلي على النفط والغاز العربي يجمل العرب في واقع الامر قابضين على روحها ، ولكن هل هناك بين الانظمة العربية من سيقف هذه الوقفة الصادقة ؟ نترك الجواب على ذلك للأيام القادمة ، وان كانت المظاهر المائلة اماننا لا تبشر بالخير ..

وفي ختام هذا المقال ، يعود لذاكرتي خبر قرأته في جريدة « الأهرام » القاهرة في الايام التالية لعليّة مطار اللد التي استشهد فيها شابان ثوريان يابانيان واعتقل ثالث ، وجاء في الخبر المذكور ان أول ياباني استشهد من اجل القضية العربية شاب انتصر من اجل مصر عام ١٩٦٨ ، وخلصه الخبر ان هذا الشاب قد تلقى علومه في مصر واحب البلد واهلها ، وكان وديا في اخلاصه لها فلما

العلاقات الاقتصادية الخارجية لاسرائيل

بقلم

يحيى عروديكي

من منشورات مركز الابحاث في م. ت. ف. (بيروت ، ص.ب ١٦٩١)

٣٠٩ صفحات بأربع ليرات لبنانية

تضاف اليها اجور البريد الجوي : ٧٥ ق.ل. في العالم العربي ،
٢٠٠ ق.ل. في اوروبا ، ٤٠٠ ق.ل. في سائر الدول

اصداء ميونيخ في الساحة الفلسطينية في كندا

الإذاعة والتلفزيون ، بل ان هذه كانت تقطع مختلف برامجها لتفيع الرسائل والصور الصوتية التي تنطقها من مراسليها في ميونيخ وتل ابيب والاحاديث التي تجريها مع الدعاة الصهيونيين ومع بعض المبعوثين العرب ، واستمر الاهتمام بأخبار هذه العملية مدة أربعة ايام أخرى ولكن بصورة متناقصة ، وان كانت قد أعطت بعدا جديدا لنقاش سياسي سيطر دائرا ما بقيت القضية الفلسطينية تنبض بالحياة . وواقع الامر انه نتج عن احتشاد جمع هائل من الصحفيين في ميونيخ ، زهاء ٢٥٠٠ صحفي، وهو أكبر حشد من الصحفيين غزفه العصر الحديث ، بالإضافة الى طابع الاثارة الذي اتسمت به العملية من بدايتها ، سيل هائل من المقالات الوصفية والتحليلات والتعليقات والرسوم الكاريكاتيرية ورسائل القراء - بين مؤيدين ومعارضين - لم يسبق له مثيل على صعيد أحداث العالم العربي سوى تلك التي رافقت أحداث حزيران عام ١٩٦٧ .

ولوحظ ان التركيز في الايام الأولى كان على إبراز بشاعة الحادث وبربرية مرتكبيه « العرب » مع تحميل المانيا بعض المسؤولية « لاهمالها حراسة الرياضيين الاسرائيليين » !! ثم لقيام الشرطة الالمانية باطلاق النيران على المفدائين العرب . وتحديث جميع العناوين الرئيسية في الصحف ونشرات الاخبار عن « المجزرة » و « قتل الرهائن اليهود » و « المذبحة التي تبعث على القشعريرة » ، كما حفلت بالسياب والشائعات الموجهة للمفدائين فوصفوا « بالتعصب » و « الارهاب » و « العنث » و « الغباء » و « الدمية » الخ ... وأبدى بعض المعلقين ذمهم «لوجة الجنون التي تجتاح العالم» وتساءل بدهشة عما يخبئه لنا المجهول .

وقد استغلت أجهزة الدعاية الصهيونية حادث ميونيخ على أوسع نطاق، وكانت الخطوط الرئيسية التي انتهجتها في حملتها الاعلامية هي تحميل الدول العربية مسؤولية الحادث لاوائها « الارهابيين العرب » وتمويلهم وتشجيعهم . وكذلك الثناء على موقف سلطات بون لعدم رضوخها لمطالب « الارهابيين » ، وان كانت قد انتقدت هذه السلطات لعدم توفيرها الحماية اللازمة للرياضيين الاسرائيليين ، وهذا بطبيعة الحال هو

حتى نهاية شهر ايلول الماضي كانت اصداء عملية ميونيخ ما زالت تتردد في ساحة النقاش السياسي في كندا ، ويتناجر رسالة ملفومة بالملحق الزراعي الاسرائيلي في لندن وفي أماكن أخرى ، ووصول عدد من هذه الرسائل الملفومة الى كندا ، وكانت احداها موجهة الى القنصل الاسرائيلي العام في مونتريال ، تطور النقاش حول عملية ميونيخ الى معالجة عامة لقضية « الارهاب » ككل ... وتعبير « الارهاب ككل » هنا معاذ الله ان يعني بربرية الامريكاني في الفيتنام او وحشية العدو الصهيوني في أرضنا وضد أهلنا ... فهذه الكلمة « الارهاب » لا مدلول لها في اذهان بعض الناس ، وهذا البعض يبدو ان له الكلمة العليا في مناطق واسعة هامة من عالمنا اليوم ومنها كندا ، سوى شيء واحد ألا وهو كل ما ينم عن وجود أي نفس من روح في الجسد الفلسطيني حتى وان كان يحض اشارة رفض او رعشة غضب ، بل ان مجرد الايمان على ذكر الشعب الفلسطيني هو عمل ارهابي في نظر هذا البعض من الناس ، وهذا التفسير وحده لمدلول كلمة « ارهاب » و « ارهابيين » في اذهان هذا البعض يتيح للمرء ان ينهم ما جرى ويجري في كندا من نقاش طرغمه الاول ذو الحول والطول الفريق الصهيوني وصنائعه الساترون في الركاب من هيئة المؤسسة الحاكمة ، أما طرفه الثاني ففريقان كنديان هما : قيادة الحركة النقابية في ولاية كيبك بزعماء ميشيل شارتران من جهة ، والتبار القوي في الكنيسة المتحدة البروتستانتية الذي يعود له الاب الدكتور فورست رئيس تحرير مجلة « يونتايد تشيرش اوبزيرفر » ومؤلف كتاب « الارض غير المقدسة » .

وقبل ان نتطرق لعرض ماهية هذا النقاش وابعاده الذي يلتزم فيه فريق ميشيل شارتران وفريق الاب فورست جانب الحق والعدل ، لا بد من استعراض سريع لمفعول عملية ميونيخ وردود فعلها في الساحة الفلسطينية في كندا للوقوف على مقدار ضراوة المعركة التي يخوضها هذان الفريقان .

وتد طفت أخبار عملية ميونيخ على كل شيء آخر في وسائل الاعلام في كندا طوال ثلاثة ايام فأمردت لها الصحف مساحات كبيرة من صفحاتها الأولى ، كما احتلت أخبارها صدر نشرات الاخبار في محطات

من قبيل التهيئة النفسية لعملية الابتزاز الصهيوني لهذه السلطات في المستقبل ، فيتناضون منها كالعادة المبلغ المرقوم ...

وقد وصفت المراجع الصهيونية حادث ميونيخ بأنه من الحوادث التي نجع لها الشعب اليهودي ، وأنه يماثل في شدته حادث مطار اللد ومقد الغواصة دكار ، وأعربت عن ارتياحها لأن بعض زعماء العالم وجهوا اللوم الى الحكومات العربية بسببه ، وخلصت هذه المراجع الصهيونية الى القول بأن فرض « السلام » التي أخذت تلوح في الأفق اثر طرد السوفييت من مصر قد ثلاثت تماما بسبب عملية ميونيخ هذه ... وأكد الدعاة الصهاينة ان « الارهاب العربي » لم يسفر بعد عن اصابة اي شخص له وزن او دور ملحوظ في سياسة الشرق الاوسط ، وان عددا كبيرا من ضحاياه كانوا من السيدات والاطفال العرب ، ولعلمهم يعنون بذلك ضحايا الغارات الجوية الاسرائيلية على مخيمات اللاجئين الفلسطينيين والقرويين في لبنان وسوريا .. كما اكد هؤلاء الدعاة انه يتمين على الحكومات العربية المشاركة في الجهود الرامية الى القضاء على الارهاب وبطبيعة الحال فان المستر روجرز وزير خارجية نيكسون قد وجه مذكرات بهذا المعنى الى عدد من الحكومات العربية لاثت تجاوبا سريعا لدى البعض منها تمثل في التضييق على حركة رجال المقاومة الفلسطينية ومنع الاموال عنها ، ومن جهة اخرى عكس الدعاة الصهاينة مطالبة الحكومة الاسرائيلية لدول أوروبا الغربية وأمريكا باقتفال مكاتب « الارهابيين العرب » وملاحقة نشاطهم وتنسيق عملية الملاحقة هذه ، وهذا ما انصاعت له حكومات ألمانيا الغربية وبريطانيا والولايات المتحدة وغيرها حيث جعلوا من مقر البوليس البريطاني في لندن (سكوتلانديارد) مركزا لتبادل المعلومات بين الدول المعنية حول نشاط « الارهابيين العرب » وتنسيق عملية ملاحقتهم بين دوائر المباحث والشرطة في كل من هذه الدول .

وعلى كل حال ، في الأيام والاسباع التالية لعملية ميونيخ اتسع مجال مناقشة هذا الحادث بحيث امتد الى كافة نواحي القضية الفلسطينية ، رغم ان التيار الصهيوني وصنائه كان يلح على ضرورة حصر النقاش في موضوع « الارهاب » ومسؤولية الدول العربية عنه ... فكادت لا تخلو صحيفة

من عدة موضوعات استعرضت تاريخ القضية ونشأة المقاومة والتيارات التي تتجاذبها ... ويلاحظ ان الصحف قد انتهجت ابتداء من اليوم الاول للعملية الخط الذي سارت عليه حتى نهاية الازمة ، فالصحف الصادرة باللغة الانكليزية اتخذت في غالبيتها العنظمى خطأ معاديا للجانب العربي ، بينما المغالاة التي ظهرت في الصحف الصادرة بالفرنسية أخذت تميل تدريجيا الى جانب الحياد ، بل ان بعضها انقلب دفعا عن القضية العربية . وفي هذا الصدد ذكرت جريدة «لودوفوار» الصادرة بالفرنسية في ولاية كيبك السلطات الالمانية الغربية بالانتقادات التي وجهتها هذه الاخرة الى غواتيمالا عندما رفضت الامراج عن ٢٤ مسجونيا سياسيا لقاء الامراج عن المسير الالمانى مسون سبريتي الذي كان قد احتجزه الثوار الغواتيماليون رهينة ، وكيف ان ذلك أدى الى مقتل المسير ... وقالت : « أما كان حربا بالمانيا ان تحذو خطا مختلفا عن خط اسرائيل ؟ » . كما انتقد رئيس تحرير هذه الصحيفة حكومة بون بشدة وطالبها بكشف الظروف التي احاطت بالحادث ، وتساءل : « هل يعتبر ما نجحت فيه اسرائيل ضروريا بالنسبة لجميع حكومات العالم ؟ » . والكاتب يشير بقوله هذا الى تصرف اسرائيل المغامر في حادث طائفة السابينا في مطار اللد عندما استغلت حزمة الصليب الاحمر الدولي في خديعة الفدائين آنذاك . وقد اكتسبت عملية ميونيخ اهمية خاصة لكندا عموما ومدينة مونتريال بوجه خاص لانه قد تقرر ان تقام في هذه المدينة الدورة القادمة للالعاب الاولمبية في عام ١٩٧٦ . مونتريال التي ما زالت اكبر مدينة في كندا اخذت تخسر تدريجيا من مكانتها لصالح تورنتو في ولاية اونتاريو بعد ان ظهرت اول بوادر الحركة الانفصالية في ولاية كيبك ، مما حدا ببعض الشركات الكندية الانكليزية الكبرى الى الانتقال الى تورنتو . ولذلك فان عبدة مونتريال يعلق آماله على اولمبياد ١٩٧٦ لاعطاء المدينة دفعة قوية الى الامام شبيهة بتلك التي حدثت عند اقامة معرض مونتريال الدولي عام ١٩٦٧ ، فالمشروع محيوي بالنسبة لمدينة مونتريال واقليم كيبك عموما ، وهذا يلقي ضوءا على الملابس التي اكتنفت اصوات الاستنكار للعملية التي صدرت عن بعض الكنديين الفرنسيين .

عالمية القضية الفلسطينية :

وتقبل ميونيخ كان هنالك معارضون لاقامة الالعاب

القطيعة النهائية بين اتجاهين « يميني » و« يساري »
في الحركة النقيابية في كيبك .

ثانيا : الصهيونيون يسعون لتطويق الاب ماكلويد :

واصلت الدعاية الصهيونية حملتها ضد الدكتور فورست رئيس تحرير مجلة « يوناييتد تشيرش اوبزيرفر » ومؤلف كتاب « الارض غير المقدسة » الذي اثار ضجة كبيرة في كندا لفصح الكاذب الصهاينة واضاليلهم وعرضه للزيه لمأساة اللاجئين الفلسطينيين . ورغشم ضراوة الحملات الصهيونية التي يتعرض لها الدكتور فورست ما زال صامدا بثبات بل ويزداد اصرارا بازدياد قوة التيار الذي يقوده داخل الكنيسة المتحدة التي تعتبر أكبر كنيسة بروتستنتية في كندا ، وكذلك نتيجة ارتفاع شأن المجلة التي يرأس تحريرها اذ تحولت من صحيفة مهملة غير مقروءة الى صحيفة عصرية واسعة الانتشار . وقد حصل الدكتور فورست في شهر آب الماضي على ثقة المؤتمر العام للكنيسة المتحدة عندما تحدث عن موضوع الشرق الاوسط ، وذلك بأن وقف له جميع الاعضاء وهم يصفتون الامر الذي طمأنه على حد قوله « على تاييد الكنيسة » ، وأضعف من مركز معارضيه في صحيفته وفي مختلف مستويات الكنيسة المتحدة . وقد انتخب المؤتمر العام للكنيسة المتحدة المشار اليه الاب بروس ماكلويد رئيسا جديدا للكنيسة المتحدة ، ومنذ ان انتخب الرئيس الجديد سعى الصهيونيون الى تطويقه لعلمهم يتناولون من الدكتور فورست ويضعون حدا لنشاطه ، ولكن الاب ماكلويد لم يستجب لضغوطهم حتى الان وأعلن تاييده للدكتور فورست مائة في المائة ، وان كان ذلك لا يعني انه يؤيد كل ما تنشره المجلة ... الا ان الصهيونيين افلحوا في انتزاع تنازل اولي من الاب ماكلويد اذ أدلى عقب حادثة ميونيخ بتصريحات أدان فيها بشدة مرتكبي العملية ، كما صرح بعد ذلك بأنه سيبدأ على الفور محاولات لراب الضدع الذي أصاب العلاقات بين الكنيسة المتحدة وبعض الزعماء اليهود . وذكر انه دعا الحاخام غونتر بلوت للتحدث في اجتماع الكنيسة المتحدة في تورنتو يوم ٢٢ تشرين الاول الماضي ، وقال : « ينبغي ان تمتد ايدينا الى اخوتنا اليهود في مناسبة السنة اليهودية الجديدة لندين معهم استراتيجية الإرهاب التي تهددهم » .

وعلى أية حال اشتهر الرئيس الجديد بأفكاره التجديزية في أكثر من مجال ، ويعتبر اختياره انعكاسا لنتيار التجديدي البسائد في اجتماع اللجنة البرلمانية للكنيسة المتحدة والذي اسفر عن اقرار مجموعة من القرارات القوية تضمنت ادانة لحكومات كندا والولايات المتحدة وجنوب افريقيا وروديسيا والبرتغال وفرنسا واسرائيل ، وكذلك الموافقة على تقرير أعدته لجنة فرعية تحت الاعضاء على الاستعداد لاستقلال كيبك . وبالنسبة لاسرائيل وافقت الكنيسة على طلب مقابلة تروودو رئيس الوزراء ، حينذاك ، لمناقشة بعض قضايا الشرق الاوسط « مثل انتقاد العرب للادارة الاسرائيلية في الاراضي المحتلة » ، وهو الانتقاد الذي عضدته لجنة حقوق الانسان في الامم المتحدة » ، وكذلك مناقشة موضوع « القرض الذي يبلغ مائة مليون دولار والذي قدمته هيئة تنمية الصادرات الكندية لاسرائيل » .

ورغم ان ماكلويد يحاول التزام خط معتدل ، فان الصهيونيين ابدوا على الدوام تشككهم في شخصه ، وكانت جريدة الكنديان جويش نيوز الصهيونية قد أدرجته في ١٩٧١/٧/٢٢ ضمن قائمة تضم « أهم سبعة أعداء لاسرائيل في كندا » وهم أعضاء « اللجنة الكندية لتفهم الاوضاع في الشرق الاوسط » .

اما الصهيونيون ، فهم كالعادة ماضون قدما في كرفنال دعاويهم الكاذبة واضاليلهم ، ولعل أطرف هذه الاضاليل ما نشرته جريدة « غلوب أند ميل » الكندية في عددها الصادر في ١٩٧٢/٩/١٨ من ان الصهيوني سيجون ويزنتال المختص بالكشف عن الزعماء الصهيونيين المختلين والذي كشف عن شخصية ادولف ايخمان قد بدأ البحث عن « الحقائق التاريخية » حول كريستوفر كولومبوس . وقد اعرب عن اعتقاده بأن كولومبوس كان يهودي الديانة وانه قام برحلة الى امريكا الشمالية بحثا عن القبائل اليهودية العثر المختفية . وان الذي مول رحلته نثر من اثرياء اليهود الاسبان ... ترى هل هذه هي مجرد بداية للمطالبة بامتلاك القارة الامريكية بأكملها شمالها وجنوبها واعتبارها هي الاخرى أرض ميعاد لشعب الله المختار ؟

مراسلنا في كندا

شهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

أحدى الوحدات العسكرية ، نكلت القيادة وخذت عسكرية بالسيطرة على الموقف لانتهاء هذا التصرف الذي يهدد التضابطية . وافادت المعلومات الصحفية ، ان ابو يوسف الكايد كان في الاصل عضوا في « الهيئة العامة لتحرير فلسطين » ، ثم انضم الى فتح وتولى مسؤوليات عسكرية مختلفة فيها ، منها مسؤولية قاعدة الصرند جنوبى صيدا ، ثم مسؤولا عنشكريا من قوات فتح في منطقة البقاع ، حيث جرت احداث التمرد . اما حملة تطويقه والقضاء على تبرده فقد قادها ابو الزعيم ، مسؤول فتح العسكري في لبنان .

وخلالما للتوترات السابقة التي كان اطرافها يلتزمون بالصمت ، ثم تتولى الحركة رسميا نفي الاتباء الصحفية عنها ، فقد اتسم هذا التوتر باقدام ابو يوسف الكايد على الادلاء بتصريحات عن اسباب الخلاف ، تضمنت تحليلات وادانسات ملقطة للنظر .

لم تقدم قيادة فتح على الادلاء بأي رد على هذه الانتقادات ، وبالتالي لا يمكن الجزم ، اعتمادا على وجهة نظر واحدة ، اذا كانت هذه هي فعلا موضوعات الخلاف ام لا . ولكن ، اعتمادا على يوسف الكايد عليها ، واصرارها على تأكيدها فلنا ، يظهر اعتقاده على الاقل بانها حجج تظل موقفا سياسيا مقابلا لموقف القيادة ، يمكن ان يلغى تجاوبا من العناصر المتبردة معه او من الوسط الفلسطيني بشكل عام . ولكن قيادة فتح اصدرت يوم ١٩ ا ب بيان اخر قالت فيه : بعد التحقيق تبين ان ما حدث لم يكن انشقاقا او تمردا . بل كان خلافا بين ابو يوسف الكايد وبعض الاخوة المسؤولين العسكريين . وقد اصدرت القيادة العامة القرارات المناسبة . . . وسيفقد من شملهم القرار الى الخارج .

وقد تبين فيما بعد ان السفير الجزائري محمد

مثلت احداث الفترة الماضية التي احاطت بحركة المقاومة (١١ تا ١٠ - ٢) امتدادا للاحداث التي سبقتها دون اي تطور نوعي جديد . فمن جهة اولى استمرت عمليات العنف في الخارج ، من خلف الطائرات الى الرسائل الملقومة . ومن جهة ثانية استمر بروز بعض المشكلات التي تعكس حالة من التوتر الداخلي تستدعي لمعالجتها بحثا عن اسبابها العميقة ، دون الاكتفاء بالوقوف عند مظاهرها . ومن جهة ثالثة تابعت اسرائيل نشاطها الارهابي واعطته مضامين جديدة . وقد عبرت هذه الاحداث عن نفسها من خلال المظاهر التالية :

١ - اوضاع المقاومة الداخلية : برزت في اوساط حركة المقاومة منذ معركة ايلول ١٩٧٠ ومعركة جرش تجوز ١٩٧١ ، اكثر من ازمة داخلية ، عبرت عن نفسها احيانا باعلان حل تنظيم واندماجه في تنظيم اخر (الهيئة العامة لتحرير فلسطين) ، او باعلان انشقاق تنظيم عن تنظيم اخر (الجبهة الثورية) . وفي احيان اخرى عبرت هذه الازمة عن نفسها باللقاء مجموعة من العناصر ومن تنظيمات مختلفة على نقد كل ما هو قائم والدعوة الى « مقاومة جديدة » . وقد عاشت حركة فتح الظاهرة نفسها من خلال حالة واسعة من الجدل بين صفوفها ، ثم من خلال توترات برزت الى العلن ، وخاصة في لبنان ، وحين كانت تنشر ابناء صحفية حول هذه التوترات كانت قيادة فتح تسارع الى نفيها رسميا ، اما في الشهر الماضي ، فقد انفجرت ازمة داخلية استمرت اكثر من اسبوع ، وصدرت بشأنها بيانات رسمية من اكثر من جهة .

ففي الرابع عشر من تشرين الاول اصدرت حركة فتح بيانا رسميا جاء فيه انه « على اثر قرار اتخذته اللجنة المركزية لحركة فتح بفصل ابو يوسف الكايد بسبب مخالفتها لمسلحية ، قام المذكور صباح اليوم بتحرير بعض العناصر في

التراجع يتسع نطاق النقد والتذمر امام الاحساس بالازمة المحيطة بالعمل الثوري . ويتدرج ما تكون القيادة السياسية قادرة على تقديم بديل نضالي لتواعدها وجهاتها ، بمقدار ما تكون مسادرة على مواجهة هذه الازمات وتخطيها وتحويلها الى ظاهرة صحية . اما اذا عالجتا كمتردات جزئية ، وسعت الى تمعها بالقوة دون ان تطرح البديل النضالي الذي يشكل جوابا على الازمة الثورية ، فان المعالجة حينذاك تتحول الى نوع من الكبت ، ولا يولد الكبت عادة في الحركات الثورية الا المزيد من الانفجارات . وما يجب ان نلاحظه هنا بدقة ان التبردات الجزئية في اوقات الازمات قد لا تستطيع التعبير عن نفسها بوضوح ، وقد تعبر عن نفسها بشكل خاطيء ، وعلى اساس ذلك ترتاح بعض القيادات الى استغلال غموضها او اخطائها لصددها والقضاء عليها ، ولكن الاكتفاء بذلك يعني معالجة جزئية لحدث يعبر عن وجود ازمة عامة ، دون الالتفات لجذور الازمة نفسها ومحاولة حلها . وعلى اساس ذلك فان كل قيادة فلسطينية تواجه ازمات من هذا النوع مطالبة بان تحدد بنفسها ومن اجل مستقبل مسيرتها ، نوع التوترات التي تواجهها والاسباب التي تولد هذه التوترات ، والبحث عن حل لها يتناول المواقف السياسية والمواقع النضالية التي تلبي متطلبات المرحلة الراهنة ، لان ذلك يشكل مدخلا لمعالجة التوترات برمتها ، وتحويل الجهود المبذولة فيها ، الى جهود تصب في المجري النضالي العام .

٢ - **الارهاب الاسرائيلي** : تابعت اسرائيل تنفيذ مخططات الارهابي الذي اعلنت انها ستلجأ اليه بعد حادث ميونيخ ، والذي تميز حتى الان بالمواصفات التالية : ١ - التزام اسرائيل رسميا ، وعلى صعيد الدولة ، بسياسة الارهاب . ٢ - توجيه الارهاب ضد حركة المقاومة ، وضد الشعب الفلسطيني ككل . ٣ - محاولة جر دول العالم للاسهام معها في هذه العملية . ٤ - ضرب القوة العسكرية العربية ، والمواقع المدنية العربية ، على اساس سياسة الانتقام ، ولدفع الحكومات نحو منع العمل الفدائي من اجل تفادي استمرار الضربات الاسرائيلية . ٥ - الكف عن سياسة التمهيد الاعلامي المسبق قبل توجيه الضربات ، والقيام بالاعتداءات بصورة مفاجئة ، وحسب اهداف مختارة سلفا .

يزيد لعب دورا مهما في اثناء الخلاف الذي استمر اسبوعا واسفر عن ٩ قتلى وعدد من الجرحى ، وذلك حين طلبت منه قيادة فتح التدخل كوسيط ، وكانت موافقته مشروطة بان لا تكون قيادة فتح تعتبر ما جرى تمردا او انشقاقا . لان ذلك يصيب من الشؤون الداخلية التي لا يجوز حلها عن طريق الوساطة . وبعد ان تم الاتفاق بين السفير يزيد وقيادة فتح على اساس الوساطة ، توجه السفير بسيارته الى موقع الكايد يرانقة ثلاثة من قادة فتح هم ابو اللطف وابو جهاد وحمدان . وفي اللقاء معه تم الاتفاق على ان يسافر للجزائر ، وان يعتبر قتلى الحادث من شهداء الثورة وان يتم تشييعهم على هذا الاساس . وعلى اثر هذا اللقاء خرج الكايد من موقعه ورافق السفير بسيارته الى مدينة صيدا ، ثم سافر الى الجزائر يوم ٢٤ تا ١ . وقد عقد السفير الجزائري مؤتمرا صحفيا يوم ٢٠ تا ١ اوضح فيه الدور الذي قام به مركزا على ان تدخله كان تلبية لطلب من قيادة فتح ، وان قادة فتح حلوا المشاكل فيما بينهم وبكل سيادة . وأكد انه ليست لديه اية نية للحديث في مشاكل المقاومة الداخلية ، وانه لسو كان ما حدث تمردا فان تدخله يصحح غير معقول . وكانت قد نشرت قبل ذلك (١٨ تا ١) اثناء صحفية عن قرار باجراء تغييرات في بعض المراكز القيادية في فتح على الشكل التالي : - نقل حمدان مسؤول اقليم لبنان ليكون مسؤولا عن اقليم مصر . - نقل هائل عبد الحميد مسؤول اقليم مصر ليكون مسؤولا عن اقليم لبنان . - نقل ابو الزعيم المسؤول العسكري عن لبنان ، الى مكان لم يحدد ، وتعيين ابو موسى قائد ميليشيا فتح في لبنان ، مسؤولا عسكريا . - تعيين ابو ماهر بدلا من ابو موسى في قيادة ميليشيا لبنان .

وقد ربطت الاتباء الصحفية بين الحادث وبين هذه التغييرات ، ولكن ما هو معروف في اوساط المقاومة ، ان هذه التغييرات كانت مقرة داخل فتح منذ التوترات السابقة ، وارجى تنفيذها الى حين هدوء تلك التوترات ، ثم نفذ جزء منها فقط اثناء حادث الكايد .

ان هذا الحادث كما قلنا ليس حادثا مجزئا يمكن للنظر اليه بعيدا عن الاجواء العامة التي تعيشها حركة المقاومة بفصلها كافة ، وعن سلسلة التراجعات التي اضطرت اليها . ففي مراحل

وعلى أساس هذه النقاط قامت إسرائيل مؤخرًا بسلسلة من الاعتداءات المفاخنة على سوريا ولبنان ، (راجع القضية الفلسطينية عربيًا) كما نفذت عملية اغتيال في روما ، إضافة إلى استمرارها في إرسال الرسائل الملقومة إلى شخصيات من المقاومة .

في ١٦ تم اغتيال المناضل وائل زعبي في روما ، ونعته حركة فتح في بيان رسمي جاء فيه أن « الشهيد لبطل من أوائل الذين استطاعوا وبجهود لا حدود لها ، أن يوصل صوت فلسطين إلى الرأي العام الأوروبي » . وتكمن عبر ذلك أن يبني جسورًا من العلاقات الودية المتينة بين الثورة الفلسطينية والأحزاب التقدمية في إيطاليا . وقد حاول أهل الشهيد احضار جثمانه إلى نابلس ليدفن في مسقط رأسه ، ولكن الحاكم العسكري للضفة الغربية رفض الموافقة على ذلك ، خوفاً من أن تؤدي عملية التشييع إلى تفجير الوضع في المدينة . ثم وافقت الحكومة الإيطالية على طلب ليبيا نقل الجثمان إليها ، حيث جرى نقله من هناك إلى دمشق . وفي دمشق تم تشييع جثمان الشهيد يوم ٢٨ تم في جناز شعبي ضخم ، وقال ممثل فتح في كلمة تأبينية « سننتقم من الصهيونية التي اغتالته في إيطاليا وأوروبا وكل أنحاء » .

أما على صعيد الرسائل الملقومة فقد اكتشفت سلطات القاهرة رسالة موجهة إلى السيد فاروق القذافي (٢٤ تم) ، ثم اكتشفت ثلاث رسائل أخرى انفجرت أحدها بين يدي ضابط مصري بينما كان يحاول إبطال مفعولها (٢٦ تم) . وفي الفترة نفسها انفجرت رسالة ملقومة بين يدي أبو خليل مسؤول منظمة التحرير في الجزائر ، (٢٥ تم) ، وفي اليوم نفسه انفجرت رسالة أخرى بين يدي مصطفى عوض زيد أحد موظفي مكتب منظمة التحرير في ليبيا ، وأصيب في الحادث شخصان لبيبان كانا إلى جانبه . أما في لبنان فقد استطاع حارس إحدى الإبنية كشف رسالة ملقومة موجهة إلى شاب فلسطيني يسكن في بنايته ، قبل أن يجري تسليمها إليه (٢٨ تم) .

٢ - عمليات العنف في الخارج : استمرت ظاهرة الرسائل الملقومة المرسلة إلى شخصيات سياسية إسرائيلية في الخارج ، ولكن أغلب هذه الرسائل تم اكتشافها . ففي ٢٥ تم أعلن في تل أبيب العثور على ٢ رسائل ملقومة موجهة إلى الرئيس

الأمريكي نيكسون وإلى اثنين من وزرائه هما وزير روجرز وزير الخارجية ، ومفيعن ليرد وزير الدفاع والملفت للنظر أن هذه الرسائل كانت مرسلة مسبقاً داخل إسرائيل ، وتم العثور عليها في برية مريضة كريات شسونه . وبعد يومين أعلنت السلطات الإسرائيلية أنها اعتقلت سائحاً أمريكياً بتهمة اجتياز الحدود من لبنان إلى إسرائيل ، ووجهت له تهمة توجيه الرسائل ، ولكن السائح الإسرائيلي اعترف باجتياز الحدود وانكر علاقته بالرسائل . وفي لندن انفجرت رسالة ملقومة بين يدي « فيفيان برينز » المدير الإداري لشركة هينينغ ، وهي من أكبر شركات الماس في بريطانيا . وقال بعض رجال المباحث أنه يبدو أن الرسائل الملقومة جزء من خطة لمنظمة أيلول الأسود لعزل شركات تتعامل مع إسرائيل . وقد كانت هذه الرسالة صادرة من الهند ، وعلى أثرها تمكنت السلطات الهندية من اكتشاف أكثر من ٥٠ رسالة ملقومة في مئاديق بريدي مدينة نيودلهي . وبالمثل تم اكتشاف ٥ رسائل في مدينة جنيف (١٠ تم) .

② ولكن أبرز عمليات الخارج خلال الشهر الماضي نفذتها منظمة جديدة أطلقت على نفسها اسم « منظمة الشبيبة القومية العربية لتحرير فلسطين » ، وذلك حين قام فدائيان من هذه المنظمة باختطاف طائرة لوفتهانزا . ركب الفدائيان الطائرة من بيروت وقاما بالسيطرة عليها وهي فوق قبرص ، وأمرأها بالتوجه نحو ميونيخ صباح يوم التاسع والعشرين من تم . حلقت الطائرة فوق مطار ميونيخ بعد أن احتشد فيه نحو ٥٠٠ رجل بوليس . ونسي الاتصالات اللاسلكية التي جرت طالب الخاطفان بإطلاق سراح الفدائيين الثلاثة الذين نجوا . من حادث ميونيخ بعد المجزرة التي نظمت في المطار وهم : إبراهيم بدران ، سامر عبد الله ، وعبد القادر السنواي . وجرت أثناء ذلك مفاوضات مع الخاطفين لبحث كيفية نقل الخاطفين إلى المطارات المتترحة داخل ألمانيا أو خارجها ولكن الخاطفين رفضوا الاقتراحات التي عرضت كافة ، وقرروا التوجه نحو مدينة زغرب بيوغسلافيا . حيث أعلنت ألمانيا استعدادها للإخراج عن المعتقلين وأرسلتهم إلى هناك . وبالرغم من هذه الموافقة ، وتقاعداً لأي خديعة أصر الخاطفان على بقاء الطائرة في الجو إلى أن يصل المعتقلون الثلاثة عملاً ، واستمرت عملية الانتظار خمس ساعات كاملة هبطت الطائرة بعدها والوقود على وشك أن ينفذ

منها . ودخل المعتقلون الثلاثة الى الطائفة الألمانية ، حيث اقلعت من جديد ومعها ايضا قنصل المانيا الغربية في زغرب الذي صعد الى الطائفة ليفاوضهم ، وحطت بعد ذلك في ليبيا . وبذلك انتهت مغامرة استمرت ست عشرة ساعة ، وتميزت بالتصميم وضبط الاعصاب ، وتوجت بنجاح كامل بالانجراج عن الاسرى الثلاثة .

٤ - ملاحظات عامة : اضافة للماسح الاحداث الاساسية التي تحدثنا عنها ، لوحظ ان حركة المقاومة تابعت انجاز بعض العمليات الفدائية داخل اسرائيل نفسها . ففي ١٣ ت١ انفجرت عبوة ناسفة داخل احد المصارف في مدينة نتانيا قرب تل ابيب . وفي ٣١ ت١ وقع انفجار اخر في الطبقة الثالثة من اعلى مبنى في مدينة تل ابيب ، وادى الى اصابة ثلاثة اشخاص بجراح . وفي كلا الحادثين قامت اسرائيل باعتقال عدد كبير من المواطنين العرب للتحقيق معهم .

ولوحظ من جهة اخرى ان وفدا اعلاميا فلسطينيا هو الاول من نوعه ، توجه الى موسكو يوم ٢٧ ت١ . وتأتي هذه الزيارة كدليل على تنوع مستوى العلاقات بين المقاومة والاتحاد السوفياتي ، وذلك بعد الزيارة الاخيرة التي قام بها وفد فلسطيني برئاسة ياسر عرفات ، وتردد يومها ان الاتفاق قد تم على رفع مستوى العلاقات بين الطرفين .

وعلى صعيد العلاقات الفلسطينية المصرية اعلن يوم ١٠ ت٢ انه قد تقرر عقد « المؤتمر الشعبي العربي لدعم الثورة الفلسطينية » في بيروت يوم ٢٧ ت٢ . وقالت امانة اللجنة التحضيرية في بيان لها : ان المؤتمر يهدف الى تكوين جبهة شعبية عربية مشاركة في الثورة ، ويشترك في اعبائه ممثلون عن مختلف القوى الوطنية والتقدمية العربية ، ويتضمن جدول الاعمال : ١ - اقرار برنامج العمل السياسي للجبهة . ٢ - اقرار اللائحة الداخلية . وكما ان حركة المقاومة تعيش بانتظار هذا المؤتمر وما سيسفر عنه من نتائج ، فانها تعيش ايضا حالة انتظار وبحث متواضل للمجلس الوطني الفلسطيني العاشر الذي سيعقد في القاهرة في كانون الأول ١٩٧١ ، والذي سيكون موضوعه الرئيسي قضية الوحدة الوطنية وما تم

انجازه منها على ضوء البرنامج السياسي والتنظيمي الذي اوصى به المؤتمر الشعبي الذي عقد في نيسان الماضي ، حيث ستقدم لجنة المتابعة تقريرها في هذا الشأن .

وفي الوقت الذي يجري فيه التحضير لهذين المؤتمرين ، انفجرت في لبنان يوم ١١ ت٢ ازمة سياسية عنيفة بعد اقدام رجال الامن الداخلي على اطلاق النار على عمال مصانع الغندور المضربين ، واسفر الحادث عن استشهاد عامل وعاملة وسقوط ٢٦ جريحا . ويعمل في مصانع الغندور عدد كبير من العمال والعاملات الفلسطينين ، الذين استدمي قسم منهم للتحقيق ، مما ادى الى تدخل بعض القوى من المقاومة لمعرفة اوضاعهم ومصيرهم . وهنا اثار الاستغراب الشديد بيان صدر عن الاتحاد العام لعمال فلسطين - فرع لبنان - استنكر فيه المجزرة ولكنه اضاف قائلا : « ابلغ الاتحاد العاملات الفلسطينيات ولجنة الاضراب انه يحذرهن من الاتصال بفصائل المقاومة او اللجوء اليها . وطلب اليهن ابلاغ الاتحاد اسم اي عنصر من اي فصيل فدائي يتدخل لاتخاذ الاجراء اللازم في حقه » .

وقد نسر هذا الموقف في الاوساط العمالية اللبنانية ، على انه تخل من قبل اتحاد عمال فلسطين عن مساندة الاتحادات اللبنانية في نضالها ، وهو في الوقت نفسه اضعاف لموقف العمال والعاملات الفلسطينيين المشاركين في الاضراب ، والذين يعانون من الاجحاف نفسه الذي يعاني منه بقية العمال . وكان حريا بالاتحاد ان يعتبر نفسه شريكا في المسألة ، ان لم يكن من اجل التمسك النقابي ، لمن اجل العمال والعاملات اللسطينيين الذين يحتاجون للدعم والمساندة من قبل القوى السياسية والنقابية الفلسطينية ، خاصة وان الاجراءات القانونية التي تطبق على العمال اللبنانيين لا تسري على العمال الفلسطينيين ، فهم بذلك يعانون من متكنة مزدوجة ، الحرمان من المكتسبات القانونية القديمة . اولاً ، والحرمان من المكتسبات الجديدة التي يطالب بها العمال ثانياً .

• ب • ح •

(٢) القضية الفلسطينية عربياً

الدين ان نعد الى حرمان الولايات من هذه الاموال والاستفادة منها ايجابياً . واقتراحات الاستاذ احمد بهاء الدين هذه مكملة لاقتراحات سابقة نشرها على صفحات الاهرام سابقاً .

ونشرت الاهرام في اليوم التالي ٧٢/١٠/٩ مقالاً بعنوان « ماذا بعد انتخابات الرئاسة » . ويذكر المقال ان هنالك ثلاثة سيناريوهات : « الاول » : يستند ... الى امل متجدد باستمرار ، يتصور قبل كل انتخابات ان الرئيس الجديد للولايات المتحدة لا شك منصف للعرب ضد اسرائيل ، او انه قادر بحكم تخلصه من ضغط الظروف الانتخابية على التحرك بسهولة وعلى الرؤية الموضوعية للنزاع والمصالح القومية الاميركية (الحقيقية) في الشرق الاوسط . « الثاني » : يستند الى اسس اخرى اخلاقية وتقليدية توامها ان السياسة الاميركية في الشرق الاوسط سياسة دائمة اساسها الاول هو العلاقة الدائمة بين الولايات المتحدة واسرائيل . « الثالث » : يستند الى السؤال التالي : « ماذا نعمل من الان ، وحتى نمشية الانتخابات او بعدها لتحقيق الهدف ؟ »

ويجيب على هذا السؤال بقوله :

- التاثير في اوضاع المنطقة : تغيير « الواقع الجديد » الذي فرضته اسرائيل في حزيران .
- اثبات توازن القدرة الثورية العربية على التخطيط للاستخدام الامثل للموارد العربية في الاجل المتوسط ، والتخطيط لسياسات يتم تنفيذها في الاجل القصير للاضرار بالمصالح الاميركية ومصالح النظم العربية الحاكمة التي تضر على الامتناع عن التهديد بالمكن والفتح ، وهو الاصرار الذي اسهم في تدعيم « الواقع الجديد » في المنطقة .
- تشجيع كل عمل - مشروع وغير مشروع - يكون هدته النهائي اضعاف قوى الضغط الصهيونية والاسرائيلية على النظام السياسي الاميركي . . .
- وتقوم هذه الموضوعات والموضوعات التي سبقها على اساس « ان حجم التغيير الذي يمكن ان يطرأ على السياسة الاميركية تجاهنا ، هو انعكاس دقيق لحجم استعدادنا لاتخاذ موقف عملي موحد - ولو عند الحد الأدنى - من المصالح

١ - انتخابات الرئاسة الاميركية :

كان موضوع انتخابات الرئاسة الاميركية من ابرز الاحداث العالمية التي شغلت وسائل الاعلام العربية خلال الاشهر الماضية . ولقد طرحت الانتخابات موضوع العلاقات العربية - الاميركية ودور الولايات المتحدة في منطقتنا .

ولقد جرى تناول هذا الموضوع من زاويتين : الاولى : تقرر ان هناك فرصة ، بعد الانتخابات الاميركية ، لتحسين موقف الولايات المتحدة من العرب ، وبالتالي زحزحة الانحياز الاميركي « من مواقفه التي موافق اقرب الى العدالة والى المبادئ التي يكرر ترادها على لسان نيكسون » (لسان الحال ٧٢/١١/١١) . الثانية : تقرر ان الموقف الاميركي لن يتغير الا بمقدار ما نصمم على اتخاذ موقف عربي موحد من المصالح الاميركية .

ولقد ناقشت معظم الصحف العربية هذه القضية ، ولكن الصحافة في مصر اولتها الكثير من الاهتمام . وكانت الصحف المصرية مجمعة على ان سياسة الولايات المتحدة لن تتغير اذعاناً الا اذا حدد العرب موقفاً ازاء مصالحها . ومن المناسب ان نستعرض بعض وجهات النظر المنشورة في الصحف المصرية حول الموقف من الولايات المتحدة الاميركية .

ولقد ناقش الاستاذ احمد بهاء الدين قضية الموقف من الولايات المتحدة (الاهرام ٧٢/١٠/٨) . ولما كان قد دعا الى المقاطعة الاقتصادية من قبل ، فانه اضاف هذه المرة : « المقاطعة الاقتصادية والحربان اذا شئنا ان نجعلها اسلحة حقيقية ، ومؤثرة على الولايات المتحدة الاميركية ... ليست اسلحة تكتيكية ولكنها سلاح استراتيجي » . وبين الاستاذ احمد بهاء الدين سر قوة الامة العربية ، فذكر العناصر التالية : ● اهم مخزون عالمي للبتروول . ● سوق تجارية واسعة . ● مال

سائل ضخم يكاد يخل بالتوازن النقدي للعالم . وذكر الاستاذ احمد بهاء الدين ان ارباح شركات النفط الاميركية تبلغ ٢٠٠٠ مليون دولار كل عام ، وان السوق العربية تستورد ما قيمته ٨٠٠ مليون دولار كل عام من السلع الاميركية . ولدى العرب فوق هذا من ١٢ الى ١٥ الف مليون دولار من النقد السائل . وسيصل المبلغ سنة ١٩٧٥ الى ٢٠ الف مليون دولار . ويرى الاستاذ احمد بهاء

الاميركية في المنطقة .. » (الجمهورية ٧٢/١١/٨) .
 وقيل ان تعرض لمناقشة هذه الموضوعات لا بد لنا
 من ايراد وجهة نظر اخرى مناقضة . وجهة النظر
 هذه عنوانها «لا بد من التصدي للانحياز الاميركي»
 (لسان الحال ٧٢/١١/١١) . ولكنها في الواقع
 ليست تصديا . ان وجهة النظر هذه تنطلق من ان
 تصحيح العلاقات يبدو ممكنا الآن « ... فان الباب
 يبدو مفتوحا امام اربع سنوات كاملة يمكن فيها
 المسعي الى زحزحة هذا الانحياز من مواقعه الى
 مواقف اقرب الى العدالة ... »

ولكن هذا كله مربوط بأمرين : الاول : « ...
 يتوقف علينا نحن ... » علينا نحن العرب ان
 نعرف كيف نحدد مطالبنا بوضوح وان نعرف كيف
 ندافع عن حقوقنا « الدفاع المقنع للاميركيين وليس
 الدفاع العاطفي الصالح للدعاية الداخلية ... »
 الثاني : ان نختر « ... قيادة سياسية لقضية
 فلسطين يوكل اليها امر المفاوضة ، وما يتبعها من
 اخذ وعطاء ، شرط الا تكون عرضة للتخوين في أول
 مناسبة » . ولا يغوت صاحب القتال من ان يؤكد :
 « ان العرب مدعوون الى دفع « شيء » ثمنا
 لاطلائهم السابقة ولخسائرهم الحربية ... » فاذا
 رفضوا واصرروا « .. فان الخسارة في نهاية
 المطاف ، ستكون اكبر من اي « تنازل » يمكن ان
 يتحمله العرب بارادتهم ورضاهم » . ولهذا
 « ... فعلى الذين ليس عندهم غير الفكر السلبي
 ان يتنازلوا ويسمحوا لانكارهم ومقتولهم ان تتحرك
 بالسرعة المطلوبة ... »

هناك خيطان اذن . احدهما يريد اقتناع الولايات
 المتحدة واخر يريد الضغط عليها باستخدام مختلف
 الوسائل . ولكن هل يجدي الضغط ؟ هذه قضية
 بحاجة الى الدراسة الواعية ، لان الاجابة
 العشوائية تقود الى نتائج عشوائية . ولا يجوز
 الارتجال في قضية كهذه . ولهذا فلا بد من ان
 نسأل انفسنا قبل الاجابة ماذا نريد نحن من
 الولايات المتحدة ؟ هل نريدها ان تكون وسيطا ؟
 هل نريدها ان تضغط على دولة الاحتلال لتنفيذ قرار
 مجلس الامن ام نريد غير هذا ؟ ان الولايات المتحدة
 لا تستطيع ان تكون وسيطا لانها طرف . وهي
 طرف لانها تريد استمرار سيطرتها على المنطقة
 وفرواتها . وليس صحيحا ان تأييد الولايات المتحدة
 لدولة الاحتلال ناتج عن تأسير اصوات اليهود
 او اموالهم او نفوذهم فحسب . ان للولايات

المتحدة مصالحها الكبرى التي تدفعها الى مثل
 هذه المواقف . والتنافس على كسب ود دولة
 الاحتلال ليس تنافسا انتخابيا وان بدا كذلك ...
 انه تنافس على اعلان الالتزام بمصالح الاحتكارات
 الاميركية في بلادنا . لقد بدأت الولايات المتحدة
 مرحلة جديدة من سياستها الامبريالية ، وخلال
 هذه المرحلة اخذ تأييدها لمشروع الاستعمار
 الصهيوني في فلسطين يزداد حدة واندفاعا . كانت
 مطامع الاحتكارات في هذا الوقت قد اكتشفت
 بترول المملكة العربية السعودية واخذت تنظر
 بجشع الى بترول العراق والكويت . واذا كانت
 بريطانيا قد فكرت في القرن التاسع عشر بقيام
 دولة صهيونية من اجل حماية تناء السويس
 والطريق الى الهند ومنع قيام وحدة عربية ، فان
 الولايات المتحدة الاميركية فكرت في محالهما
 الخيالية في المنطقة عندما بدأت دعما العملي
 والمنظم لقيام دولة الاحتلال الصهيوني ، ثم لدولة
 الاحتلال بعد قيامها . ومنذ ذلك الحين وهذا الدعم
 يتعاطم . لان اهمية مصالح الولايات المتحدة
 كانت تتعاطم ايضا . ولهذا ليس بدعا ان نرى
 الحزبين ، الجمهوري والديمقراطي ، يتنافسان
 على تقديم العون لدولة الاحتلال الصهيوني ، وليس
 غريبا ان يؤكد زعيم الجمهوريين في مجلس الشيوخ
 — ردا على نقد الديمقراطيين — من : « ... ان
 المساعدات التي قدمها نيكسون لاسرائيل تفوق
 عشر مرات المساعدات التي قدمتها اية حكومة
 اميركية سابقة ... » . (الاخبار ، السباق
 المحموم ٧٢/١٠/٣) .

فاذا كانت الولايات المتحدة الاميركية طرفا مهمل
 يمكن ان تضغط على دولة الاحتلال الصهيوني من
 اجل الانسحاب ؟ ان الولايات المتحدة الاميركية لن
 تضغط على دولة الاحتلال الصهيوني ، لان القضية
 قضيتها اولا . هل من مصلحة الولايات المتحدة
 ان تنسحب دولة الاحتلال ؟ هل من مصلحتها ان
 يتفوق العرب ؟ اجابت الولايات المتحدة على هذا
 كله بصراحة قاسية وقالت : لا . فما الذي
 تريده الولايات المتحدة اذن ؟ هل تريد حربا دائمة؟
 بالطبع لا ولكنها تريد استمرار هيمنتها وضمان
 مصالحها . وهذا ، من وجهة نظرها ، لا يتم الا
 من خلال التوسع الصهيوني والتفوق الصهيوني في
 المنطقة . وعليه فان هدف الولايات المتحدة الان
 هو تكريس الانتصار الصهيوني في حزيران وتكريس
 الهزيمة العربية . ولكنها في الوقت ذاته تبحث

عن حل ضمن هذا الاطار . حل يكرس انتصار دولة الاحتلال الصهيوني ، ويفتح امامها مجالات اوسع للسيطرة ، وفي الوقت ذاته يحد من اسباب التوتر ، او يطوئها .

ولهذا فالولايات المتحدة تسعى من اجل فرض مجموعة من الحقائق : الاولى : استقرار الهدنة ، او وقف اطلاق النار ، حتى لا يقود اطلاق النار الى تفجرات غير مسيطر عليها في المنطقة ، وحتى يعتاد الاعداء التعايش . الثانية : خلق مجموعة من الازمات الباعثة على الاستسلام (انقلابات ، نزاعات داخلية ، هزائم ، حكومات عبيلة الخ) .

الثالثة : العمل على فرض حلول جزئية (فتح قناة السويس ، مثلا) . وكان هذا واضحا خلال السنوات الخمس الماضية . وما زال يبدو واضحا في السياسة الاميركية . وعليه فان الولايات المتحدة لن تضغط من اجل انسحاب كامل ، ولن تعمل على تنفيذ قرار مجلس الامن . وكل ما ستعمله سيكون لمصلحة تكريس انتصارها الصهيوني . ولسوف يزيد هذا الخروج من فيئاتم شراسة ، لان هزيمة الشرق الاقصى سيجعلها أكثر حرصا على التمسك بالشرق الاوسط ، ولان خسارتها هنا هي خسارتها الكبرى والاخيرة . فالولايات المتحدة الاميركية اذن لا تبسك عن « سلام » في المنطقة بل تبحث عن استسلام . والانتاع لا يجدي في هذا المجال ، لان الامبريالية لا يقنعها الا الدفاع عن مصالحها بوسائلها ، والا هزيمتها في ميادين القتال .

فماذا كان الانتاع غير مجد فهل يجدي الضغط الاقتصادي مثلا ، وكل اشكال الضغط الاخرى ؟ انها تجدي اذا كانت جزء من معركتنا مع الولايات المتحدة الاميركية ، فنحن نقاطع الولايات المتحدة ، نضرب مصالحها ، نخلق لها المشاكل ، لا لنضغط عليها ، فنضغط بدورها على دولة الاحتلال ، بل لاننا نحاربها في كل مكان . وموقفنا هذا لن يغير موقف الولايات المتحدة بسرعة ، وفي المدى القصير ، كما يتوهم كثيرون . ذلك ان الولايات المتحدة ستجابه المقاطعة ووسائل الضغط الاخرى بحملة مضادة ، شرسة وددمية . ويعود ذلك الى اسباب عدة اهمها : ١ - ان الولايات المتحدة الاميركية باعتبارها قوة امبريالية ، لا تتسامح مع اي تصد لمصالحها ، وهي باعتبارها قوة امبريالية لا تتقن الا لغة القوة . ٢ - ان الولايات المتحدة ،

وباعتبارها قوة امبريالية ذات مصالح خيالية ، ترى في اي تنازل تقبل به بداية مسلسل تنازلات تمس جوهر مصالحها ، ولذلك فانها تقابل قبل اني تنازل ، ولا تخضع الا بعد حرب طويلة تخسرهما .

٢ - وفيما يتعلق بدولة الاحتلال الصهيوني ، فان الولايات المتحدة الاميركية ، لا تبك ان تقدم تنازلات ذات رمال ، لان هذا يهز استراتيجيتها العالمية . وعليه فان الموقف من الولايات المتحدة يجب ان يتحدد كما يلي : ١ - الولايات المتحدة طرف اساسي في الصراع ، وهي العدو اساسي ، لا يمكن تحييده او اقصائه بالعدول عن موقفه . ٢ - مجابهة الولايات المتحدة في كل المجالات : والمقاطعة الاقتصادية والسياسية والعمل على ضرب مصالحها بعض مظاهر هذه المجابهة اللازمة . ٣ - ان هذه المجابهة لا تستهدف الضغط على الولايات المتحدة لاتقاعها بلعرب دور الوسيط ، لانها لن تكون وسيطا ، انها تستهدف : - الحاق الضرر بمصالح الولايات المتحدة . - خلق رأي عام متزايد داخل الولايات المتحدة يتحسس خطنا . - تبني سياسة معادية للعرب ، ومؤيدة للاحتلال الصهيوني بلا تحفظ . والولايات المتحدة الاميركية لن تكون وسيطا الا اذا قبلنا بالمشايخ الاميركية الصهيونية .

والان يعود نكسون الى الرئاسة ظاهرا . وتبدأ الدوائر الاميركية الحاكمة نشاطها لتحقيق ما تريد . ولقد جاء هذا واضحا في اكثر من تصريح . فقد اعلن روجرز « عن مبادرة اميركية جديدة بين مصر واسرائيل في وقت قريب ... » هدف هذه المبادرة « ... جعل مصر واسرائيل على اجراء مفاوضات مباشرة ... » ولم يتوان روجرز عن ان يؤكد ان واشنطن ستكون « نشطة جدا في هذا المجال » . (النهار ١١/٦/٧٢) . انما نيكسون فقد اعلن في اول تصريح له ، بعد انتخابه ، ان المنطقة : « ... ظلت خلال العامين الماضيين في حالة (هدنة) ، او في حالة تستطيعون تسميتها ما شئتم .. » ولكن وعلى الرغم من ذلك « ... فان الموقف يمكن ان يتفجر في اية لحظة .. » فالرئيس الجديد اذن مصمم على التصرف في الشرق الاوسط ، بعد ان جمد مشاكله مع الصين ، وبدأ صفحة جديدة من العلاقات مع الاقتصاد السوفياتي ، وقطع شوطا بعيدا في طريق الانسحاب من الورطة الهيتانامية . ولكن ما يريد في الشرق الاوسط واضح ايضا . انه يريد ان

يضمن استمرار وقف إطلاق النار ، وذلك يحتاج إلى تصفية المقاومة أولا ، ثم بدء مسلسل الحلول الجزئية ، بفتح قناة السويس وجر العرب السى قبول مبدأ المفاوضات المباشرة . ولا غرو بعد ذلك اذا وجدنا من يفتننا بأن على العرب ان يدفعوا ثمن الاخطاء والهزائم ، وان يكونوا ايجابيين . ولا غرو بعد ذلك ايضا اذا رأينا « ... الحلقة تضيق اليوم اكثر فأكثر امام المقاومة » (هدى لبنان ، ٧٢/١١/٤) . ذلك ان الائتلة العربية تبحث عن حل ، ضمن اطار الظروف الراهنة ، والحل لا بد ان يكون على حساب المقاومة والقضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني ، لان الحلول الدولية تكون دائما على حساب الضعفاء والمهزومين .

وهذا يستلزم ان يناضل الشعب الفلسطيني والجماهر العربية من اجل اغلاق الابواب امام كل التسويات الاستسلامية . وهذه هي الطريقة الوحيدة للحيلولة دون التصفية : تصفية المقاومة والقضية والشعب .

٢ - سورية والغارات الاسرائيلية :

قررت دولة الاحتلال الصهيوني ، منذ عملية ميونيخ ، ان تبدأ سياسة جديدة فيما يتعلق بموقفها من الثورة الفلسطينية والبلاد العربية . وتقوم هذه السياسة على ركيزتين : الاولى : مطاردة رجال الثورة أينما كانوا ، وهذا يعني اتباع سياسة الهجوم المستمر . ومن هذا المنطلق قامت قوات الاحتلال بعدد من الغارات على القواعد والمخيمات في سورية ولبنان . الثاني : ضرب الدول العربية التي تعمل الثورة على اراضيها ، من أجل دفعها الى اتخاذ موقف معاد من الثورة الفلسطينية . وقامت دولة الاحتلال من هذا المنطلق بهجمات ضد لبنان وضد سورية . ولهذه الغاية كان احتلال العرقوب في منتصف ايلول الماضي ، ولهذه الغاية ايضا كان تصف المزيروب مثلا ، ومعسكر تلخلخ واماكن أخرى من سورية .

ان هذه السياسة ترمي الى غايتين : الاولى : في الميدان الفلسطيني وقيامها ارباك الثورة الفلسطينية واشغالها . واستنزاف قواها وايقاع أكبر الخسائر الممكنة ، ماديا وبشريًا ، في صفوفها . الثانية . تهديد حرية البلاد العربية وسيادتها واستقلالها . وايقاع خسائر فادحة بها

لاجبارها على محاربة الثورة الفلسطينية . ولا يني الرسيون في دولة الاحتلال يتحدثون عن المثل الذي ضربه حسين ، والذي لا بد من ان يضرب مثله القادة العرب ليتلافوا انتقام دولة الاحتلال .

ولقد حاولت قوات الاحتلال ان تطبق هذه السياسة على لبنان . ولكنها ، بعد ان حققت بعض اهدافها في لبنان ، حولت اتجاهها الى سورية . فلماذا حدث ذلك ؟

حدث ذلك نتيجة ما يلي : ١ - لان لبنان الرسمي أنهم الدوائر الامبريالية العاطفة عليه ان « مشكلة المقاومة » مشكلة تتجاوز لبنان . وان وضع لبنان الداخلي والاضاع العربية المحيطة لا تسبح بحسم الموضوع حاليا . ٢ - لان مركز ثقل المقاومة في سورية ، ولان بقاءها في سورية يضمن لها البقاء في لبنان . فاذا ما تم تحول في الموقف السوري الرسمي من المقاومة أصبح حسم موضوع المقاومة في لبنان ميسورا . ولذلك فان رسمي دولة الاحتلال يصرحون علنا في هذه الايام بأن على سورية ان تفعل ما فعله النظام الاردني ، والا فان عليها ان تتحمل العواقب . ولهذا حدثت موجات الغارات الهجبية . وما زال التهديد بأعمال عدوانية جديدة قائما .

ولقد قررت سورية ان ترد . وكان ان ردت فعلا . وهي تبادر الى الرد الذي تراه مناسبًا ، خلال كل اشتباك أو بعده . والجهة السورية الان هي الجبهة المتوترة الوحيدة ، بعد ان هدأت المدافع ، وبعد ان اضيئت مستعمرات الافوار في ظل حماية الجيش الاردني ، وبعد ان هدأت الجبهة اللبانية لاسباب كثيرة . ولقد انتقدت دمشق صمت الجبهات العربية عبر مقال افتتاحي لجريدة الثورة شبه الرسمية . قالت الصحيفة : « لقد تحول وقف اطلاق النار الى سلاح يضاف الى أسلحة العدو المتعددة ، وسمح استمراره للحد الأدنى من التماسك العربي أن يتخلل ، كما سمح للكثيرين من المتخاذلين بأن يضعوا انفسهم على قدم المساواة مع الذين يعدون فعلا للمعركة ويحشدون لها أقصى حدود امكانياتهم » . وزادت على ذلك ان وقف اطلاق النار « فرصة للامبريالية لتستمر في خداعها ومناوراتها ، ولتجهل بمختلف الاساليب لتطويق ارادة العرب القتالية وتفجر تناقضاتهم الداخلية » . واضافت الصحيفة ان سورية أكدت : « أنها

مستعدة لكل تفحيسية في سبيل طريق الضرورية والتحرير . (النهار ١٢/١١/٧٢) .

وهذا الطريق هو الطريق الطويل الشاق . ان ضنط قوات الاحتلال ستركز على المقاومة وسوريه ، وسوف يزداد عننا وشراسة . وهناك معلومات تؤكد ان دولة الاحتلال مصممة على احتلال جنوب سوريه . وهذا ما أكده آلون في كتاباته ، معتبرا ان دولة الاحتلال اخطأت في عدم احتلال جنوب سوريه خلال حرب حزيران . كما

ان هناك معلومات اخرى تفيد ان دولة الاحتلال قد تلجا الى خربة قاصنة توجه للجيش السوري ، وذلك من اجل اضعافه ، واتقاء خطره الذي سنوات اخرى . وان هناك من يراهن اليوم على ان سورية « قد تدفع » الى اتخاذ تدابير من شأنها الحد من نشاط المقاومة وشل حركتها . (ضدى لبنان ٤/١١/٧٢) .

ناجي غلوش

(٣) القضية الفلسطينية دوليا

حيث حطت بعد ساعات من الاخذ والرد مع السلطات الالمانية الغربية ، انصاعت بعدتها الاخيرة الى مطلب الفدائيين باطلاق سراح الاسرى الثلاثة المعتقلين في الماتيا بعد عملية ميونيخ . وقد ادى هذا النزاع الالمانى الى تنازيم العلاقات الاسرائيلية الالمانية مقابل انفراج في العلاقات مع العرب . كما ادى الى حملة واسعة ضد الحكومة من قبل اقطاب الحزب الديمقراطي المسيحي وخطبة المسيحي الاجتماعي في بافاريا (حزب شتراوس) ، حيث طالب الاخير الحكومة الفيدرالية بدعوة ليبيا لتسليم الفدائيين .

لكن حرص حكومة برانت على انتهاء الازمة مع الدول العربية لعب دورا مهما في ردود الفعل الرسمية . فاعان فالتر شيل ، وزير الخارجية ، رفضه لتعبير « الاستسلام » الذي استعملته تسلي ابيب في وصف التصرف الالمانى ، واكد ان الماتيا ليست طرفا في نزاع الشرق الاوسط . واكتفيت وزارة الخارجية بطلسب توضيح من ليبيا حول سياستها في المستقبل مطالبة اياها بمحاكمة الخاطفين نظرا لعدم وجود اتفاقية تبادل جنائية بين البلدين .

واستمرت في هذه الاتقاء الخطة الاسرائيلية التي ساهمت فيها بحماس الصحافة اليمينية في الماتيا وخاصة صحافة شبرنغر . فركوت « بليت تسلي فونج » على ان العملية اهانة والذل للحكومة الفيدرالية ،

عمدت اسرائيل ، بعد سيل من التهديدات باستعمال جميع الاساليب في حربها ضد المقاومة ، الى نقل « عمليات الابادة والارهاب » التي اتبعها ضد تواعد الفدائيين والسكان ، الى خارج المنطقة . فقام بملاؤها باغتيال المناضل وائل زعير في مدينة روما عشية ١٠/١٦ باطلاق النار عليه حين عودته ليلا الى منزله . وجاء اختيار وائل ضحية اولى في حملة الارهاب الاوروبية الجديدة ، لثبوت اهتمام وانزعاج العدو الاسرائيلي بالعمل الشعبي الذي قام به والذي ساهم في تكثيف القوى اليسارية والديمقراطية الاساسية في ايطاليا في دعمها للمقاومة الفلسطينية . وقد اثارت هذه الجريمة سخط الاوساط اليسارية وخاصة الحزب الشيوعي ونقابات العمال التي قامت بتحركات اعلامية واسعة ضد الارهاب الصهيوني ومن اجل تقصي الحقائق . ورغم بعض التفصيلات حول احد المجرمين ، لم تعرف حتى الان اية نتائج ملموسة عن التحقيق .

ولم تقتصر التحركات الصهيونية الجديدة على اوروبا ، فامتدت عبر الرسائل الملقومة لتشمل عدة دول عربية .

من جهة اخرى قامت مجموعة من فدائيي « منظمة الشبيبة القومية العربية » في ١٠/٢٩ بتحويل طائفة تابعة للخطوط الجوية الالمانية كوفتهازرا عن خط سيرها الماتيا التي مطار زغرب في يوغوسلافيا ،

لكن هذا الحذر - الذي قد يفسر بغياب أوروبا الغربية عمليا من الساحة وحرصها على عدم اساءة العلاقات مع العرب واسرائيل معا - لم يمنع بعض دولها من اتخاذ مبادرات ذات دلالة . فأكد بيير هارميل وزير خارجية بلجيكا اثناء زيارة عبدالحميد خدام وزير الخارجية السورية ، تعلق بلجيكا بقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ الذي ينص اساسا - حسب رأيه - على مبدأ رفض ضم الاراضي بالقوة وعلى ضرورة توفير الامن والسلام لدول المنطقة كافة (ويبدو ان الدبلوماسية البلجيكية نشيطة بشكل خاص في هذا الصدد) . واصلت سفير ألمانيا الجديد في القاهرة في ١١/٤ حرص بون على تنفيذ القرار نفسه بينوده كافة . كما اشارت اللقاءات الطويلة في باريس بين المسؤولين الفرنسيين (بمن فيهم بومبيدو) وعبد السلام جلود رئيس وزراء ليبيا ، التفاوض حول مدى تطرق الطرفين الى قضايا أخرى الى جانب العلاقات الاقتصادية . وبرزت « المجموعة الأوروبية » اهتمامها « بقضية الشرق الأوسط » باقرار مساعدة قدرها ١٦٥ مليون فرنك فرنسي تقدم خلال خمس سنوات عن طريق الاونروا « لاهانة اللاجئين الفلسطينيين » .

وفي الأمم المتحدة ، نشرت اللجنة الخاصة للاستفتاء حول التصرفات الاسرائيلية في الاراضي المحتلة - والتي تضم ممثلي سيلان وبوغوسلافيا والصومال - تقريرها ، الذي ابرزت فيه محاولات اسرائيل الدائبة لتغيير معالم الاراضي المحتلة باقامة مستعمرات عديدة وبحمل السكان الاصليين على مغادرة اراضيهم . كما اكدت على ان حقوق الانسان قد خرقتها اسرائيل التي تحصل ما في وسعها لطمس الشخصية الفلسطينية . وطالبت اللجنة بان يقوم المصليب الاحمر الدولي بالاشرف على حماية السكان . وقد واجه المنسحب الاسرائيلي هذا التقرير بهجوم عنيف .

ومن جهة أخرى ، افتتحت اللجنة الثانوية للجمعية العمومية بشوم ١١/٩ نقاشها حول موضوع « الارهاب » . وقد استهل رئيس اللجنة ، البلجيكي اريك سوي ، الاجتماعات بمطالبة الدول الامضاء بالتوقيع على المعاهدات القائمة بخصوص خطف الطائرات وحماية الدبلوماسيين ، معلنا عن اجماع الوفود التي التقى بها حول موضوع مكافحة الارهاب ، عمليا بان تحديد الكلمة سيكون

بيننا طالبت « دي فلت » بقطع العلاقات مع ليبيا . واستدعت اسرائيل من جانبها « سفرها » في بون بحجة التشاور . وواجه فيلي برانت الحجة بعملية توازن ظهر فيها واضحا حرص المانيا على المحافظة على علاقاتها الاقتصادية مع الدول العربية وعلى علاقة سياسية مميزة مع اسرائيل . فبعد ان اعتبر ، في مقابلة مع مجلة نيوزويك الامريكية (١١/٦) ان « ردود الفعل الاسرائيلية مبالغ فيها » مذكرا بان « الاسرائيليين انفسهم بادلوا المساجين مقابل ركاب طائرة عام ١٩٦٨ » وبان عطفه على المنطلقات الاسرائيلية لن يمنعه من ان يعارض بعض مطالبها اذا اقتضى الامر ، عمل على تهدئة الجانب الاسرائيلي فارسل رسالة شفوية الى فولدا مثير عن طريق سفيره في القدس فون بوتكامر اعلن فيها تأسفه للتطور السيء للعلاقات وحرصه على ابقائها على مستوى حسن . واعتبرت اسرائيل هذه الرسالة انهاء للارتهاب بسبب عودة « السفير » الاسرائيلي الى بون .

وقد اظهرت هذه الاحداث مرة أخرى الدور المتماثل الذي تحاول دول أوروبا الغربية القيام به في « الصراع العربي الاسرائيلي » ، مما يدفع بعض الاطراف المعنية الى التسابق في كسب ودها . وما كان انضمام بريطانيا وايرلندا والدانمرك الى الدول الست الاصلية (والذي توج باعتقاد مؤتمر قمة الدول التسع في باريس في ١١/١٩) ، الا ليزيد من اهمية « المجموعة الاقتصادية الأوروبية » . ولكن جميع الدلائل تشير الى حذر دول السوق المشتركة الشديد تجاه اية خطوة في اطار سياسة شرق اوسطية جديدة . هذا الحذر عبر عنه وزير خارجية فرنسا امام الجمعية العمومية الفرنسية في ١٠/١٦ بقوله « ان احداثا عدة - وخاصة عملية ميونيخ ونتائجها - تفرض في الظروف الحالية عناية خاصة في اتخاذ اية مبادرة اوروبية » مضيفا بان « شروط سلام مقبول من اسرائيل ومصر ليست سهلة التحديد الآن » .

وكان محمد حسنين هيكل قد اشار قبل ذلك الى فشل جولة الزيات الأوروبية في توفير مصادر سلاح جديد مكان المصدر السوفياتي . كما اكد ابا اييان في نيويورك ان لقاءاته في اروقة الامم المتحدة اوضحت له عدم رغبة دول أوروبا الغربية في اتخاذ اية مبادرة في الازمة .

تخصر الزيارة التي لم تدم أكثر من يوم واحد في اجتمع الطرفان على أنها كانت إيجابية وأن المحادثات سارت في جو «من الصراحة والتفاهم» وأكد البيان المشترك المواقف المعروفة للتطرف السوفياتي الذي تعهد «بعمل ما في وسعه لتحقيق الاجلاء الكامل عن الأراضي المحتلة والمحافظة على الحقوق المشروعة للشعب فلسطين» كما أعلن «حق الدول العربية في تحرير أراضيها بجميع السبل حسب ما تنص عليه معاهدة الأمم المتحدة» وفي اجتماع لمجلس الشعب المصري دافع عزيز صدقي عن سياسته الجديدة مؤكدا «استمرار الاتحاد السوفياتي في تقديم الدعم في حدود إمكاناته» وعزمه على اتخاذ مبادرات جديدة لم ينصح عنها .

ويبدو ان الامال المعلقة على تغيير في الموقف الأمريكي بعد الانتخابات تدخبت ، رغم تصريحات روجرز عشيتها والبيت الابيض على اثرها ، والتي أكدت الاهتمام الخاص الذي سيوليه نيكسون في «العهد الجديد له» لمشكلة الشرق الاوسط . وربما كان هذا هو السبب الرئيسي وراء العودة من جديد للحوار مع الاتحاد السوفياتي .

♦ ♦ ♦

عقبة كبيرة ، واقترح على ضوء ذلك تأجيل النقاش في الموضوع الى الدورة القادمة على ان تقدم كل دولة اقتراحاتها في هذا الصدد قبل ايلول ١٩٧٣ .

على صعيبه العلاقات مع الاتحاد السوفياتي ، قام وفد اعلامي فلسطيني لأول مرة بزيارة الاتحاد السوفياتي ابتداء من ١٠/٢٧ . وكانت مختلف الاجهزة الاعلامية السوفياتية قد اكدت خلال الفترة الماضية على تطور التأييد السوفياتي لحركة المقاومة . فعلقت وكالة نوفوستي في ١٠/٤ على الاعتداءات الاسرائيلية معتبرة اياها «حيلة صليبية ضد كل الحركة الفلسطينية» ومضيفة بان «السوفيات يرحبون مع كل الاصدقاء المخلصين للشعب العربي الفلسطيني بكل تدبير من شأنه توطيد قوى حركة المقاومة الفلسطينية» التي تعتبر «في الصفوف الاولى للنضال ضد العدوان الامبريالي في الشرق الاوسط» . وفي ١٠/١٥ ، ظهرت لأول مرة بين الشعارات المعلقة بمناسبة الذكرى الخامسة والخمسين لثورة اكتوبر نداءات للتضامن مع المقاومة الفلسطينية .

ومن الجانب المصري استمرت المحاولات الرامية الى تحسين العلاقات وتبليورت في زيارة رئيس الوزراء عزيز صدقي لموسكو في ١٠/١٦ . ورغم

(٤) المناطق المحتلة

في مشارف رفح وأراضي قرية عقربه ومجموعة الأراضي التي برزت فوقها مستوطنات اسرائيلية ، قامت سلطات الاحتلال في الونة الاخيرة بالاستيلاء على منطقة تقع بين اريحا وبيت ساحور تمهيداً لمساحتها الى ٧٠ كم ، متذرة بالحجة المألوفة الواهية «مطالبات الامن» . وتعود ملكية هذه الأراضي الى الفلاحين من اهالي بلدتي بيت ساحور وبيت لحم وكذلك الى عرب القنيطرة والمبيدية الذين يسكنون داخل الأراضي المستولى عليها .

ويبدو ان السبب الحقيقي الكامن وراء خطوية الاستيلاء لا يعود الى مطالبات «توسيع منطقة

من بين القضايا الرئيسية التي ظهرت في الونة الاخيرة في المناطق المحتلة قضية ضم الممال العرب الى الهمستدروت ، ومصادرة اراض عربية من اجل خلق وتائع جديدة لتكريس الاحتلال ، ودخول قطاع غزة مرحلة جديدة غدا فيها الطرفان الاساسيان في القطاع ، رجال المقاومة الفلسطينية وقوات الاحتلال يتفان وجهها لوجهه بعد سقوط الزعامة التقليدية المتذبذبة المثلة في شخص رئيس بلدية غزة رشاد الشوا .

مصادرة الأراضي : امتدادا لعمال للسلب والنهب في المناطق المحتلة بواسطة سلطات الاحتلال يفرض اقامة معالم جديدة محل معالم قديمة ، والمتمثلة

النار والتدريبات في المنطقة « بقدر ما يعود إلى التفكير بتنفيذ مشروع إقامة مدينة يهودية هناك ، فمن المعروف أن هذا المشروع ينسجم مع ما يعرف بخطة الون وخريطة ديان اللتين تدعوان إلى إقامة مدينة في المنطقة تحمل اسم «كريات بريحو» . وإزاء الخطر المحدق بالفلاحين العرب أصحاب هذه المنطقة شكلت بلدتي بيت لحم وبيت ساجور وفدا لتقديم احتجاج إلى السلطات الإسرائيلية ضد عملية الاستيلاء ، وبالفعل توجه الوفد إلى الحاكم العسكري في ٢٢/١٠/٧٢ وقدم باسم الأهالي احتجاجا ، ووعد الحاكم العسكري بنقل ذلك إلى السلطات المسؤولة ؛ بيد أن هذه السلطات كانت منهكة في الوقت نفسه بدراسة عملية مصادرة منطقة أخرى تصل مساحتها إلى ثلاثة آلاف دونم في ضواحي قرية عنتا في الشمال الشرقي لمدينة القدس ، دون أن تتذرع هذه المرة بالحجة المألوفة ، بل اعترفت أن عملية المصادرة جاءت « لأقامة منطقة صناعية للقدس ، وكذلك لنقل المسلح الذي يسبب الإزعاج للمستوطنين من الطة الفرنسية إلى منطقة يعييدة عن محل سكناهم » (دافار ١١/١٠/٧٢) .

العمال العرب والضم : غدت قضية العمال العرب من بين القضايا الرئيسية التي تواجه سلطات الاحتلال ، وأصبحت شبيهة إلى حد كبير بقضية مصر المناطق المحتلة التي يحتدم النقاش حولها بشكل قوي لاختلاف مشارب وآراء التيارات السياسية الفاعلة في إسرائيل (انظر إسرائيليات) ، فمن المعروف أن مصر المناطق المحتلة تنازعه منذ الاحتلال وحتى الآن وجهات نظر متعددة ومتفاوتة ، تتفق كلها على الضم بيد أنها تختلف في مقدار الضم ، فهناك من يرى ضرورة ضم جميع المناطق المحتلة بدون استثناء وهناك من يكتفي بضم بعض المناطق مثل القدس وهضبة الجولان وغور الأردن وشمم الشيخ ، وقد تمثل التضارب في وجهات النظر حول كمية الضم ووجهه « بخرائط السلام » التابعة للكتل والأحزاب والشخصيات الإسرائيلية الفاعلة . ومع مرور الزمن غدت قضية العمال العرب شبيهة بقضية مصر المناطق المحتلة ينظر الأحزاب الإسرائيلية ، إذ بدأ الحديث والنقاش فيما بينها يحتدم حول ضرورة ضم العمال العرب إلى الهستدروت بغض النظر عن صفتهم كمواطنين من المناطق المحتلة . وبدأت تبرز « خرائط » متفاوتة في حجم الضم وكيفية تطبيقه !

وقبل التطرق إلى وجهات النظر المتباينة حول النقاش المحتدم لضم العمال العرب إلى الهستدروت لا بد من الإشارة إلى أن هناك عاملين كانا ولا يزالان يتحكمان في تصرف السلطات الإسرائيلية وسلوكهما (١) شهوة التوسع (٢) شهوة الحفاظ على نقاء أو صفاء المجتمع اليهودي في « دولة اليهود » ، بيد أن هاتين الشهوتين تتخللهما رغبات صعبة ومتناقضة ، فشهوة التوسع ترافقها رغبة في أن تكون المناطق خالية من السكان الأصليين ، وبما أن ذلك ليس أمرا متوفرا ، فإن الرغبة تتبدل في ترحيل هؤلاء السكان ، إلا أن ذلك يعتبر صعبا بسبب الظروف الموضوعية ، كما أن شهوة الحفاظ على نقاء المجتمع الإسرائيلي وصفائه تنازعا رغبة أخرى ، تتمثل في تسخير السكان ضحايا الشهوة الأولى ، للعمل في المجالات الاقتصادية ، وبين هاتين الشهوتين تبرز المواقف المتباينة للتكتلات السياسية في إسرائيل تجاه مصر المناطق المحتلة ومصير الإنسان المحتل . ولعل ظاهرة العمال الزراعيين العرب الذين يعملون في المستوطنات الإسرائيلية خير دليل على التناقض بين الشهوتين ، بين شهوة النقاء والرغبة في التسخير ، فقد حدث صراع بين السلطات الإسرائيلية من جهة وبين مستوطنات النقب من جهة أخرى في الآونة الأخيرة حول ظاهرة العمال العرب الذين يخدمون وينامون داخل المستوطنات في ظروف صعبة شبيهة إلى حد كبير بظروف الملثمين في جنوب إفريقيا وأوضاعهم فالسلطات الإسرائيلية رأت في هذه الظاهرة خطرا « قوميا واجتماعيا » كما جاء على لسان وزير العمل ، منطلقة من شهوة الحفاظ على نقاء مجتمع المستوطنين وطهارته ولذا اتخذت قرارا بعدم السماح للعمال العرب بالنوم داخل هذه المستوطنات بينما تحركت رغبة التسخير لدى المستوطنين وأخذوا يناضلون ضد قرار الحكومة ويدعون إلى إيجاد حل مناسب للحيلولة دون الأخطار التي تواجه مزارعهم نتيجة القرار الذي اتخذته الحكومة ، يحفظ مزارعهم وينعشها وفي الوقت نفسه يحمسي طهارة مستوطناتهم من « الطوث » وذلك بخلق معسكرات عمل تساوي العمال العرب خلال الليل « ملو اقلوا مركزا كبيرا في منطقة لخيش ، مسيجا وبداخله خيام ، كالمخيمات العسكرية » ، ليأوي الإجراء من قطاع غزة ، فإن ذلك سيكون أفضل .. » (معازيسف ٢٧/١٠/٧٢) . بيد أن هذا الاقتراح الذي جاء على

لنسان احد المستوطنين لم تأخذ به الحكومة ، وانما
اخذت تفكر بدل ذلك بتشغيل قطار بين غزة ونسل
أبيب لجلب العمال العرب كل صباح الى
المستوطنات والمدن الاسرائيلية الواقعة بين المدينتين
وأعادتهم الى بيوتهم مساء كل يوم . وبالفعل بدأ
القطار بالعمل لينقل الآف العمال العرب الى
المصانع والمزارع الاسرائيلية الى جانب نحو
١٢٠ سيارة تنقل نحو ١٥٠٠ عامل ، بالإضافة
الى سيارات التاكسي التي بإمكانها نقل مثل هذا
العدد ، وكذلك الى جانب باصات شركة « ايجد »
التي بوسمها نقل ٣٠٠٠ عامل ذهباً واياباً ، هذا
فضلاً عن سيارات المغاولين الاسرائيليين التي تنتظر
كل صباح مئات العمال العرب بالقرب من الخط
الاخضر . ومن الجدير بالذكر ان مجال سير قطار
العمال سيهدد بعد مدة حتى مدينة العريش .

ما هو مصير العمال العرب ؟ هل سينالهم هوس
الضم اسوة بما يحدث للمناطق المحتلة ؟ لقد غدا
مصير الانسان العربي المحتل بالرغم من التناقض
بين شهوتي التوسع و « الطهارة اليهودية » ،
شبيهاً الى حد كبير بمصير المناطق المحتلة ، فقد
كشفت رئيس الهستدروت يتسحاق بن اهارون عن
هذا الاتجاه في محاضرة القاها مؤخراً ذكر فيها ان
الهستدروت تدرس امكانية ضم غرب المناطق
المحتلة اليها ، و اضاف انه ستبنى في المرحلة الاولى
نواد تابعة للهستدروت في الضفة الغربية وقطاع
غزة . وعارض هذا الاتجاه بشدة وزير العمل يوسف
الموغي ، وتنتج عن النقاشات المحتدمة داخل
الهستدروت ظهور ثلاثة اتجاهات حول ضم العمال
العرب اليها . ١ - دعاء الضم الكامل ، ويقف
على رأسهم اهارون هرثيل عضو اللجنة المركزية
لهستدروت ورئيس تسم التنظيم التابع لهما ،
الذي يعتقد « بضرورة ضم غرب المناطق بما في
ذلك العمال الذين يعملون داخل المناطق كاعضاء
ذوي حقوق كاملة في الهستدروت » ٢ - دعاء
الضم بواسطة خلق اتحادات مرتبطة بالهستدروت ،
ويمثل هذا الاتجاه يوسف خميس من حزب مبام
الذي يعتقد بضرورة اقامة اتحادات مهنية مرتبطة
بالهستدروت . ٣ - دعاء الضم الجزئي : ويقف
على رأسهم يعقوب كوهين الذي يعتقد بضرورة
البدء بتنظيم المجلس العرب الذين يعملون في
اسرائيل بصناديق التأمين الهستدروتية . وفي
المرحلة الثانية يدعو الى اقامة اتحادات مهنية
ونواد هستدروتية في المناطق المحتلة .

يعتبر الاتجاه الاول الذي يمثله اهارون هرثيل
(رافي) اخطر الاتجاهات ، ويبدو انه يحظى بتأييد
وزير الدفاع موشيه ديان ، اذ انه يتطابق مع
سياسة الدمج الاقتصادي التي ينادي بها الاخير .
وقد لخص اهارون هرثيل موقفه في مذكرة مفصلة ،
معتداً اسلوب المراحل لضم العرب في المناطق
المحتلة الى الهستدروت بشكل رسمي (١) تعتمد
المرحلة الاولى على « الاستمرار بتنظيم الدور
وعرب القدس الشرقية » . ومن المعروف انه قد
انضم الى الهستدروت منذ حرب حزيران نحو
٨٠٠ من سكان الهضبة ، بينما انضم اليها قرابة
٨٠٠٠ من سكان القدس العربية (٢) اقامة نواد
تابعة للهستدروت في المناطق المحتلة مع القيام
بحملة اعلامية دون قبول اعضاء في الهستدروت .
ولم تظهر خلافات في الرأي تجاه هاتين المرحلتين ،
الا ان الخلافات والاجتهادات حول المرحلتين
التاليتين (٣) تعتمد المرحلة الثالثة على ضم :
٤ - الف عربي يعملون بشكل منظم داخل اسرائيل
(٤) وتعتمد المرحلة الاخيرة على فتح باب عضوية
الهستدروت امام جميع العاملين من بين صفوف
عرب المناطق المحتلة ، واذا ما تمت هذه المراحل
الاربع فان عملية ضم الارض والانسان لخدمة
مجتمع المهاجرين والمستوطنين تكون قد دخلت حيز
التنفيذ .

القطاع يدخل مرحلة جديدة : دخل قطاع غزة
مرحلة جديدة عبرت عن نفسها بعودة المجلس
البلدي لمدينة غزة الى حاكم اسرائيل وسياسة
« الضم الزاحف » التي اخذت تتبعاها اسرائيل تجاه
القطاع من خلال اقدامها على تصفية قضية اللاجئين
وتوطينهم في امكنتهم ، وفي المقابل بانتعاش المقاومة
ال فلسطينية في القطاع بعد حملة التضحية الراهية
التي اقدمت عليها سلطات الاحتلال في اواخر شهر
تموز من العام الماضي . وبذلك اصبح الطرفان
الاسرائيلي (قوات الاحتلال) والثورة الفلسطينية
مبثلة في رجال المقاومة يقفان وجها لوجه في القطاع
بعد ان اتيل ابرز وجوه الزعامة التقليدية وشاد
الشوا من رئاسة البلدية ، وبذلك تكون السلطات
الاسرائيلية قد فشلت في خلق زعامة تقليدية في
القطاع اسوة بالزعامة التقليدية في الضفة الغربية .
تصفية قضية اللاجئين في القطاع : على ضوء
نجاح المخطط الذي وضعته سلطات الاحتلال لخم
رنح والذي اصبح بعد ضمه لثلاثة رنح يعتبر من

وجهة النظر الإسرائيلية « كمكان دائم يشكل مع مدينة رفح بلدية واحدة » اخذت تعمل لتعميم التجربة على جميع مخيمات القطاع والضفة الغربية بقصد تصفية اللاجئين متذرة بحجة تطوير وانعاش المخيمات . ومن الجدير بالذكر ان عدد السكان في بعض المخيمات وخاصة في قطاع غزة يفوق في حالات كثيرة عدد السكان في المدن التي تضم اليها . مثل مخيم رفح الذي يبلغ تعداد سكانه ٤٠ ألفا بينما يبلغ عدد سكان المدينة ١٠ آلاف فقط ، او مخيم جباليا الذي يصل تعداد سكانه الى ٢٤ الف نسمة ، سيضم ١٢ الف من سكانه الى المجلس القروي لبلدة بيت لاهيا التي يبلغ عدد سكانها نحو ستة آلاف نسمة ، بينما سيضم بقيسة سكان المخيم ٢٢ الفا الى قرية جباليا . كان مخيم الشاطئ لوقعه بالقرب من مدينة غزة المخيم الذي اصطلحت به التجربة الاسرائيلية بعنف ، وادت مع مجموعة عوامل اخرى الى استقالة رئيس بلدية غزة احتجاجا على خطوات التصفية . يبلغ عدد سكان هذا المخيم ٢٦ الف نسمة ، وتعتزم سلطات الاحتلال نقل قسم من سكانه خلال العام القادم الى مبان جديدة تتسع لالف عائلة تقع على تلة الشيخ رضوان شرقي المخيم . عند منتصف شهر اكتوبر اعلن حاكم منطقة قطاع غزة ضم المخيم الى مدينة غزة ، وارسلت دعوات الى ٢٥٠ شخصا من سكان المخيم لحضور اجتماع يعقد في مدرسة فلسطين في غزة دون ان يحاط الدعوون علما بباحية الاجتماع ، وقد فوجئ الكثيرون منهم عندما علموا بأن قائد قضاء غزة المقدم ي. هيني قد دعا لهذا الاجتماع بغرض انتخاب لجنة محلية « للمشاركة في تطوير المخيم » وقد بدأ قسم من المجتمعين يحتج على فكرة اجراء انتخابات / بيد ان المقدم هيني اصر على موقفه ودعاهم لترشيح اسماء من بينهم ، وتحت وطأة الضغط تم ترشيح ٢٠ شخصا ، ونودي على كل شخص مرشح الى المنصة لكي يقف امام المجتمعين بغرض التعرف عليه ! وانتهت مهلة الانتخابات التي وصفها وسائل الاعلام الاسرائيلية بـ « السابقة الديمقراطية » داخل المخيمات ، بغوز سبعة اشخاص في اللجنة المحلية لادارة المخيم .

اقالة الشوا : وسط هذا الجو اصدر قائد منطقة القطاع يتسحاق فونداق في ١٤/١٠/٧٢ تعليمات لبلدية غزة بضم مخيم الشاطئ اليها وتقديم الخدمات للمخيم اسوة بالمخيمات الاخرى التي

الحقت بالمجالس المحلية والمجالس البلدية في قطاع غزة والضفة الغربية . وقد طلب الشوا من قائد المنطقة تاجيل سريان مفعول التعليمات حتى يتسنى لاعضاء البلدية ووجهاء مخيم الشاطئ دراسة الموضوع ووافق قائد المنطقة على ذلك . ومن الجدير بالذكر هنا ان سلطات الاحتلال قد تذرعت عند فرضها ضم مخيم الشاطئ لبلدية غزة بأنها تستكمل بذلك اجراء كان الحاكم المصري للقطاع قد اصدره في عام ١٩٦٦ وان اندلاع حرب حزيران قد حال دون تنفيذ الاجراء ، اما بالنسبة لبقية المخيمات سواء في القطاع ام الضفة فانها تتمسك بفرائع اخرى مثل تصنيف اوضاع المخيمات ... وجاء رد المجلس البلدي لمدينة غزة بالرفض الكامل لخطط ضم مخيم الشاطئ الى المدينة ، وقد تشكل الرد من الملاحظات الاربعة التالية: « (١) ان المنطقة التي اضيفت الى منطقة اختصاص البلدية بهتمتسى القرار رقم ٢٦ بتاريخ ١٥/١٢/٦٦ هي معسكر اللاجئين المعروف باسم معسكر الشاطئ. (٢) اننا نرى ان اضافة تلك المنطقة في حينه لبلدية غزة كانت تستهدف بعدا جغرافيا فقط دون ان يكون لها اي ابعاد او مفاهيم اخرى او مفهوم اخر . (٣) ان تقديم الخدمات في هذا المعسكر كما في كل معسكر اخر للاجئين هو من صميم مهام واختصاص وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الدولية التي انشأتها الجمعية العمومية للامم المتحدة للقيام بهذا الغرض . (٤) اننا نرى ان اي تغيير في وضع المعسكر او في علاقة وكالة غوث اللاجئين به من شأنه ان يحدث ابعادا سياسية واجتماعية كبيرة تتعلق بصميم القضية الفلسطينية وبالقانون الدولي العام وبحقوق اللاجئين الفلسطينيين وقرارات الامم المتحدة في شأنهم ، واستنادا الى كل هذه الحقائق مجتمة فان المجلس البلدي لمدينة غزة يرى انه لا يستطيع مطلقا وبأي حال ان يتخذ اي اجراء من شأنه المساس بحقوق اللاجئين الفلسطينيين او تحديد مصيرهم او الصبب بعلاقاتهم بوكالة الغوث الدولية ، كذلك فان المجلس البلدي لمدينة غزة اذ يؤمن بضرورة تحسين الاوضاع والاحوال المعيشية لجميع الاخوة والاهل الفلسطينيين المقيمين في معسكرات اللاجئين طالما ظلت قضية فلسطين معلقة دوليا وسياسيا فانه يؤمن ايضا بان هذه المهمة يجب ان تظل منوطة بوكالة الغوث الدولية حسب قرارات الجمعية العمومية لهيئة

الأمم المتحدة الممول في هذا الشأن والواجبات
الاتباع .

وجاء رد قائد المنطقة سريعاً ففي ٢٢/١٠/٧٢
أصدر أمراً بإقالة الشوا من رئاسة البلدية والحق
بأمر آخر عين بموجبه أوري تشاناشيك وهو ضابط
أركان للشؤون الداخلية في الحكم العسكري
رئيساً لبلدية غزة بالوكالة ، وقد منحت له
صلاحيات رئيس البلدية ، وبذلك ضم مخيم
الشاطيء الى المدينة ، وأقبل الشوا بعد أن
بقي ١٢ شهراً في رئاسة البلدية . ومن الجدير
بالذكر أن اقالة او استقالة رئيس بلدية غزة
كانت مرتقبة لاسباب عدة من بينها :

١ - أن الشوا كان قد قدم استقالته الى الحاكم
العسكري في شهر سبتمبر الماضي على اثر تعرضه
لمحاولة قتل من قبل رجال المقاومة في القطاع
بعد تباديه في العمل لربط القطاع بسياسة الملك
حسين ، بيد ان سلطات الاحتلال لم تقبل الاستقالة
بسبب توقيتها خشية ان تنسر خطوته بانها انتصار
للفدائيين . ٢ - هناك عناصر في بلدية غزة كانت
تعارض مواقف الشوا السياسية وتبدي تحفظاتها
تجاهها ، وهددت أكثر من مرة بتقديم استقالتها
اذا ما استمر الشوا في مواقفه السياسية المتذبذبة
والمتناقضة . ٣ - خيبة أمل سلطات الاحتلال من
زعامة الشوا ، اذ انها كانت تعتقد عند تعيينها له
على اثر حملة التشريد والتجوير والهدم في العام
الماضي بأنه خير من تركز عليه لتنفيذ سياستها
ومخططاتها تجاه القطاع اسوة بالركائز المنصوبة
في الضفة الغربية . ولكن الشوا قد اظهر خلال
فترة ترؤسه للبلدية ميولاً تجاه النظام الأردني
بتأييده مشروع الملك حسين كلاً وحافظ على
استقلالية نسبية حيال المواقف السياسية على
خلاف الزعامة التقليدية في الضفة الغربية ، الأمر
الذي خيب أمل سلطات الاحتلال وجعلها تتخذ
موقفاً سلبياً منه الى ان اقالته بحجة معارضته
لضم مخيم الشاطيء للبلدية . ومن الجدير بالذكر

أن جميع أعضاء البلدية قد أصبحوا يحكم
المستقلين من مناصبهم .

وقد نقل الصحفي الإسرائيلي عاموس حداد صورة
عن تفكير اهالي مخيم الشاطيء تجاه الإجراءات
الإسرائيلية على لسان سليمان أبو حصرية :
« منذ اليوم السذي دخلت فيسه إسرائيل
الى القطاع لم نشاهد اي تحصن في اوضاعنا . .
انتم الإسرائيليون تعملون فقط ما هو جيد بالنسبة
لكم . قبل عام توجهتم الى الشوا ونصبتوه
رئيساً للبلدية لانه جيد بالنسبة لكم ، وكنتم
تعتقدون انه سيخدم المصالح الإسرائيلية . وقد
اتضح لكم اليوم ان الأمر لا يسير وفق ما تريدون
فانظروهم من منصبه . انه الآن في نظرنا بطل ،
قبل ذلك كان مكروها في غزة ! . » وفيما يتعلق
بقضية توظين اللاجئين في اماكنهم اضاف الشاب
الذي كان يخاطب الصحفي الإسرائيلي أمام جمع
من شباب المخيم : « اذا كان الحكم العسكري
يريد لنا ان نعيش كما يعيش الناس في إسرائيل
فعلية ان يدعنا نعود الى منازلنا التي سلبتونا
ايها عام ١٩٤٧ . اننا نريد العودة الى ارضنا
وبيوتنا التي سكنها قبل ٢٥ عاماً . اننا لا نريد
خدمات للمخيم ولا نريد طرقات مبهدة ان ما نريده
فقط هو العودة الى بيتنا » (هاتريس ٢٧/١٠/٧٢) .
في غضون ذلك كانت المقاومة الفلسطينية تنشط في
توجيه الضربات المتتالية ، من نسف لقضبان سكة
الحديد التي يسير عليها القطار الذي تتوخى منه
السلطات الإسرائيلية ازالة معالم الحدود (لانه لا
يوجد هناك افضل من طمس معالم الحدود مثل
القطارات كما جاء على لسان الصحافي
الإسرائيلي) وغرس الألغام ضد السيارات
العسكرية والقاء القنابل اليدوية واطلاق نيران
الاسلحة ضد الدوريات الإسرائيلية ، الأمر الذي
دفع سلطات الاحتلال الى اعادة نظام منع التجول
بشكل اوسع على جميع جبهات القطاع البرية
والبحرية .

٢٠٠٤

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ١٠/٣ - ١٩٧٢/١١/١٢

خسائر المقاومة		خسائر العدو		خسائر العدو		خسائر العدو		خسائر العدو		خسائر العدو		خسائر العدو	
تاريخه	المصدر	الناحية	الذخيرة	قتيل	جريح	المستعمل	المنطقة	نوع	السلح	المسيرة	الموقع	تاريخ العملية	الوقت
١٠/٢٨	من ١٧٥٥٥	—	غير محدد	غير محدد	غير محدد	فتيلة يدوية	الغناء	فتيلة	الغناء	خان يونس	٨/٣٠	٠٠.٠٠.٠٠	١
١٠/٢٨	من ١٧٥٥٥	—	تدمير سيارة	غير محدد	غير محدد	عربات ناسفة	تجزر	فتيلة	الغناء	تل ابيب	١٠/٥	٠٠.٠٠.٠٠	٢
١٠/٢٨	من ١٧٥٥٥	—	تدمير سيارة	غير محدد	غير محدد	عربات ناسفة	تجزر	فتيلة	الغناء	تل ابيب	١٠/٥	٠٠.٠٠.٠٠	٢
١٠/٢٨	من ١٧٥٥٥	—	—	(١)	—	الاطلاق	مجموع	فتيلة	الغناء	رمات غسان	١٠/٦	٠٠.٠٠.٠٠	٤
١٠/٢٨	من ١٧٥٥٥	—	تدمير معهد الولاد	غير محدد	غير محدد	عربات ناسفة	تجزر	فتيلة	الغناء	تل ابيب	١١٠٠ ١٠/٧	٠٠.٠٠.٠٠	٥
١٠/٢٨	من ١٧٥٥٥	—	تدمير سيارة	٤	—	عربات ناسفة	تجزر	فتيلة	الغناء	العمولة	١٠/١٠	٠٠.٠٠.٠٠	٦
١٠/٢٨	من ١٧٥٥٥	—	تدمير صالة سينما	١٥	—	الغناء	مجموع	فتيلة	الغناء	رمات غسان	٢٢٠٠ ١٠/١٢	٠٠.٠٠.٠٠	٧
١٠/٢٨	من ١٧٥٥٥	—	تدمير الطابق الاول في بنك هيروليم	١٧	—	عربات ناسفة	تجزر	فتيلة	الغناء	ناتانيا	١٠٠٠ ١٠/١٢	٠٠.٠٠.٠٠	٨
١٠/١٤	١	—	غير محدد	غير محدد	غير محدد	فتيلة يدوية	الغناء	فتيلة	الغناء	غزة	١٨٣٠ ١٠/١٢	٠٠.٠٠.٠٠	٩
١٠/١٦	٢	—	تدمير وحققين للتوتر العالي للمركبة الكهربائية	غير محدد	غير محدد	عربات ناسفة	تجزر	فتيلة	الغناء	تل ابيب	١٠/١٥	٠٠.٠٠.٠٠	١٠
١١/٢	٥	—	الاعتقال في سيارة عسكرية محملة بالجنود	غير محدد	غير محدد	فتيلة يدوية واسعة رقعاة	مجموع	فتيلة	الغناء	غرب الخليل	٢٢٢٠ ١٠/١١	٠٠.٠٠.٠٠	١١
١٠/٢٧	عدد الامم ٢٨١٥٥	—	غير محدد	١	٣	فتيل وفتائف صاروخية	مجموع	فتيلة	الغناء	تل ابو السيتور/الجلولان	٦١٥ ١٠/٢٤	٠٠.٠٠.٠٠	١٢
١٠/٢٦	١	—	تدمير جسر	—	—	عربات ناسفة	تجزر	فتيلة	الغناء	بعضات/الجلولان	١١١٥ ١٠/٢٤	٠٠.٠٠.٠٠	١٣
١٠/٣٠	١	—	تدمير بلدوز	١	—	الغمام	تجزر	فتيلة	الغناء	تل شبيحة/الجلولان	١٧٠٠ ١٠/٢٨	٠٠.٠٠.٠٠	١٤
١٠/٢٩	١	—	تدمير مطعم	غير محدد	غير محدد	عربات ناسفة	تجزر	فتيلة	الغناء	العمولة	١٠/٢٩	٠٠.٠٠.٠٠	١٥
		—	—	—	—	فتيل	استيلاء على طائرة المانية	فتيلة	الغناء	١٠/٢٩	٠٠.٠٠.٠٠	١٦	

١٧/٣٠	٢	ونا من	حرق مستودع لشركة كوبريا العم	غير محدد	غير محدد	حرق	بيل السبع	١٠/٢١	١٧	ق.ع.ق.ث.ث.
١١/١	٣-٤	ونا من	غير محدد	غير محدد	اسلحة رشاشة	كين	خربة تانو/بيت لحم	١٠/٣٠	١٨	ق.ع.ق.ث.ث.
١١/١	٤	ونا من	تدمير جزء من بناية	غير محدد	عبوات ناسفة	تاجر	كريات آسم/جينا	١٠/٣٠	١٩	ق.ع.ق.ث.ث.
١١/١	٤	ونا من	تدمير جزء من الطابق الثالث في مبنى برج شالوم	غير محدد	عبوات ناسفة	تاجر	طل ايب	١٠/٣١	٢٠	ق.ع.ق.ث.ث.
١١/١	٢	ونا من	غير محدد	غير محدد	اسلحة رشاشة وقاتل يدوية	المتشاك	مخيم الشاطيء/غزة	١١/١	٢١	ق.ع.ق.ث.ث.
١١/٢	٢	ونا من	غير محدد	غير محدد	اسلحة مخففة	المتشاك	بقيعات/الجولان	١١/٢	٢٢	ق.ع.ق.ث.ث.
١١/٢	٤	ونا من	امطار آية	غير محدد	عبوات ناسفة	كين	مخيم الشاطيء/غزة	١١/٢	٢٣	ق.ع.ق.ث.ث.
١١/٢	٤	ونا من	تدمير جزء من مبنى البريد والحراق الرشيف	غير محدد	عبوات ناسفة	تاجر	القدس	١١/٢	٢٤	ق.ع.ق.ث.ث.
١١/٧	ونا ملحق	ونا ملحق	غير محدد	غير محدد	تنبية يدوية	الغناء تنبلة	مخيم الشاطيء/غزة	١١/٥	٢٥	ق.ع.ق.ث.ث.
١١/٩	ونا	ونا	اصابة عدد من الاليات	غير محدد	سواروخ - مدفعية هاون	هجوم	جيب وعليل/الجولان	١١/٥	٢٦	ق.ع.ق.ث.ث.
١١/٩	ونا	ونا	تدمير جزء من خط سكة الحديد	غير محدد	عبوات ناسفة	تاجر	غزة	١١/٧	٢٧	ق.ع.ق.ث.ث.
١١/١٢	ونا	ونا	غير محدد	غير محدد	تذائف صرورية	هجوم	كر الال/الجولان	١١/٩	٢٨	ق.ع.ق.ث.ث.
١١/١٢	ونا	ونا	امطار سيارة	غير محدد	عبوة ناسفة	تاجر	تلانس	١١/١١	٢٩	ق.ع.ق.ث.ث.
١١/١٢	ونا	ونا	تدمير عدة متاجر	غير محدد	عبوات ناسفة	تاجر	بالسا	١١/١١	٣٠	ق.ع.ق.ث.ث.
١١/١٢	ونا	ونا	امطار سيارة	غير محدد	اسلحة مخففة	كين	بين اللطرون ورام الله	١١/١٢	٣١	ق.ع.ق.ث.ث.

جدول بالمهمات العسكرية التي اعترف بها المدو الصهيوني من ١٠/٣ - ١٩٧٢/١١/١٢

خسائر المقاومة

خسائر المدو

خسائر المدو

خسائر المدو

خسائر المدو

خسائر المدو

خسائر المدو

تاريخه	المصدر	الكمية	الغرض	نوع العملية	موقعها	تاريخ العملية	الرقم
1٠/١٤	عدد ٢٤	اصليّة سيارة ياغران	موتيرة	الغناء	غزة	١٠/٥	١
1٠/١١	عدد ٢٢	تصديق احد المنازل	موتيرة	تفجير	الخليل	١٠/١٠	٢
1٠/١١	عدد ٢٢	ترب مقبرة الخليل	موتيرة	تفجير	بغداد/الجزلان	١٠/١٠	٣
1٠/١٤	عدد ٢٥	افران في مبنى بنك العمال	موتيرة	تفجير	ناباليا	١٠/١٣	٤
1٠/١٤	عدد ٢٥	موتيرة	موتيرة	الغناء	غزة	١٠/١٣	٥
1٠/١١	عدد ١١	موتيرة	موتيرة	تفجير	جباليا	١٠/١٤	٦
1٠/١٧	عدد ١٧	موتيرة	موتيرة	اطلاق رصاص	خان يونس	١٠/١٦	٧
1٠/٢٠	عدد ٧٠	موتيرة	موتيرة	موتيرة	كريات اونو	١٠/١٨	٨
1٠/٢٠	عدد ٧٠	موتيرة	موتيرة	موتيرة	رفح	١٠/١٩	٩
1٠/٢٣	عدد ٧٢	موتيرة	موتيرة	موتيرة	الموتيش	١٠/٢٢	١٠
1٠/٢٤	عدد ٧٣	موتيرة	موتيرة	موتيرة	بغداد/الجزلان	١٠/٢٤	١١
1٠/٢٥	عدد ٧٤	موتيرة	موتيرة	موتيرة	ناحال جزلان	١٠/٢٤	١٢
1٠/٣٠	عدد ٧٨	موتيرة	موتيرة	موتيرة	الموتيرة	١٠/٢٨	١٣
1٠/٣١	عدد ٧٩	موتيرة	موتيرة	موتيرة	بغداد/بيت لحم	١٠/٣٠	١٤
1١/١٨	عدد ٨٠	موتيرة	موتيرة	موتيرة	تل ابيب	١٠/٣١	١٥
1١/١٨	عدد ٨٠	موتيرة	موتيرة	موتيرة	بين نابلس وطولكرم	١٠/٣١	١٦
1١/١٩	عدد ٨١	موتيرة	موتيرة	موتيرة	مخيم الشاهين/غزة	١٠/٣١	١٧
1١/٢٠	عدد ٨٢	موتيرة	موتيرة	موتيرة	بغداد/الجزلان	١١/١	١٨
1١/٢٠	عدد ٨٢	موتيرة	موتيرة	موتيرة	مخيم الشاهين/غزة	١١/٢	١٩

١١/٨	١	٨٤	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠
١١/٨	٤	٨٤	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠
١١/٩	١	٨٥	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠
١١/١٢	٢	٨٨	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠
١١/١٢	٦	٨٨	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠

شاملة

١ - ايلول ، تشرين الاول ١٩٧٢ في العدد الخامس عشر من الجلة .
٢ - تام احد مقالتي الجبهة الشعبية بهائية منزل فباطل المخابرات بلوتج دايد واطلاق الرصاص عليه .

١ - وردت هذه المسئلة حينها مرانيا اعطائها في مطلع هذا الجول . كما تجدر الاشارة الى ان المسئلة رقم ٢٢ في جول مقالات شهر آب ، ايلول ١٩٧٢ في العدد الرابع عشر من الجلة قد اعطت الجبهة الشعبية مسؤوليتها عنها كما اعطت مسؤوليتها من المقالات ١ - ١٢ - ٢٤ - ٢٥ في جول

تعريف بالمصطلحات والنشرات الواردة نكروها

٥ - ج.ش.ق.٥.ح. : الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القيادة العامة .
٦ - ج.ش.ت.٥.ف. : الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .
٧ - ق.ث.٥.ف. : قوات الثورة الفلسطينية .
٨ - ن. : نشرة رصد اذاعة اسرائيل اليومية ، التي تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .
٩ - م.ش.ق.٥.ح. : منظمة الديمقراطية العربية لتحرير فلسطين

غازي خورشيد

١ - ق.ع.ق.٥.ث. : القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية
٢ - ويا : بكرة يومية تصدر عن دائرة الاعلام والتوجيه القومي بمنظمة التحرير الفلسطينية .
٣ - ه. : الهدف ، صحيفة اسبوعية تصدر عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .
٤ - الم. الامام : صحيفة اسبوعية تصدر عن الجبهة الشعبية - القيادة العامة .

اسرائيليات

عن الخلافات في حزب العمل حول مستقبل المناطق المحتلة

الكلمة المحرمة ، مما يساعدنا على ادراك ان المسألة ، من وجهة النظر الاسرائيلية ، لا تدور حول الانسحاب او عدمه . فلماذا يأخذ هذا الموضوع مثل هذا الصدى الان ؟ ان الذي تغير هو طريقة طرح المسألة القديمة ، لان اسرائيل تتأهب لخوض معركة الانتخابات ، ولان رئيسة الوزراء غولده مئير قد اقسمت بكل ما تملك من قدرة على القسم انها لن تعود الى مقعد رئاسة الوزارة بعد الانتخابات القادمة بسبب تقدمها في السن (٧٦) ، ولان كلا من الفارسين القويين موشه ديان ويغال آلون يريان انفسهما على وراثة المقعد . وفي هذا الجو .. جو التنافس على السلطة يأخذ الخلاف القديم بين وجهات النظر حول مستقبل المناطق المحتلة مثل هذا الاهتمام الجديد لانه قضية اسرائيل الاولى .

فما هي نقاط الخلاف بين كبار المسؤولين الاسرائيليين ؟ .. ما هي امكاناتهم في الفوز بمقعد الوراثة ؟

انهم جميعا يريدون اكبر قدر من الاراضي العربية المحتلة ، ولكنهم في الوقت ذاته لا يريدون ، بهذا الضم ، ان تتعرض « الطهارة اليهودية » لاسرائيل الى أي تهديد بسبب احتواء المناطق المحتلة على مليون عربي قد تتحول اسرائيل ، بسببهم ، الى دولة ثنائية القومية . وقبل اسابيع ابدت غولده مئير رأيها في الموضوع (مريب ١٠/٢٧) بتأكيدا انها لا تريد دولة ثنائية القومية وأوضح أنها ، بسبب ذلك ، لا تنوي ضم كل الضفة الغربية الى اسرائيل ، وانها تريد اقلية يهودية في اسرائيل الموسعة . ويبغى آخر - كما قالت مريب - فانها تريد خارطة تشبه ، الى حد ما ، الخارطة التي رسمها يغال آلون في مشروحه الشهير ، مع مزيد من الارض . وبذلك تكون غولده مئير قد قالت

● ليست جديدة هذه المناقشات الدائرة الان بين كبار المسؤولين الاسرائيليين حول مستقبل الاراضي العربية المحتلة في اعقاب حرب ٦٧ . ولا يتمتع بالصحة الكافية ذلك الانتطاع الشائع القائل ان هذه الخلافات او المناقشات الدائرة هي نوع من استعداد القوى والحزاب والاجنحة السياسية لخوض معركة الانتخابات للكنيست . ولا يعني ذلك أيضا غياب العلاقة بين الانتخابات والتنافس على وراثة مقعد رئاسة الوزارة المقبلة وبين المناطق العربية المحتلة ، فكما كانت هذه المناطق « ورقة لعب » في يد السياسة الاسرائيلية في صراعها مع العرب ، فان طريقة الاحتفاظ بها ، في المستقبل الابعد والاقبل بعدا ، هي أيضا ورقة لعب في الصراعات والتنافس الاسرائيلية الداخلية . ولعل التعمق في مبادئ الاختلاف بين وجهات النظر الموزعة على اصحاب النظرة « البعيدة المدى » واصحاب النظرة « القصيرة المدى » من رجال الحكم الاسرائيلي في موقفهم من مستقبل الاراضي العربية المحتلة - يعطينا من المبالغة او الاهتمام المفرط في تعليق أهمية جدية على نتائج هذه المناقشات او الخلافات . فان هذا الاختلاف يدور أولا بين رجال الحكم انفسهم وداخل حزب العمل الحاكم وليس بين معارضة وسلطة . وهذا الخلاف ، ثانيا ، يطمح الى العثور على افضل طريقة لضمان الاحتفاظ بأكبر قدر من التوسع دون ان يكلف اسرائيل شيئا . وبمعنى أوضح : ان الاسرائيليين يتعاملون مع المناطق العربية المحتلة وكأنها قضية اسرائيلية داخلية .

ولقد كان هذا الموضوع موضع مناقشات واجتهادات تصل الى حد الخلاف منذ انتهاء معارك حزيران حتى الان ، ولعل كلمة « انسحاب » كانت قابلة للطرح الاسرائيلي قبل سنتين ، ولكن القاموس السياسي الاسرائيلي الان قد حظر استعمال هذه

كلمتها في المناقشة التي يديرها : موشه ديان ، بنحاس سبير ، يقال آلون ، ابا ايبن ، ويسرائيل غليلي . وتقول « معريب » في مقالها المذكور ان المناقشة الدائرة الان لا تدور حول المناطق المحتلة فحسب ، أي حول ما يجري فيها ، ولكنه يمتد الى مسألة حدود اسرائيل وخارطة المستقبل .

يتمثل موقف ديان وأنصاره في أنه لا ينبغي على اسرائيل أن تبادر الى أي حل ، لان الظروف المحيطة بها وغياب عناصر الضغط عليها لا يستدعي تغيير ما هو قائم . من هنا ، فان ديان يطالب باستمرار بالامر الواقع حتى تتمكن اسرائيل مع الزمن من خلق وقائع جاهزة تساعد على ضم المناطق المحتلة نهائيا . اي ان ديان يدعو الى الاستمرار في عملية « الضم التدريجي » دون الاهتمام بالاطعنا الناشئة عن ذلك . ان ترك الامور تتطور مع انتظار ما يسفر عنه المستقبل هو الرأي انذي يتمسك به ديان . وقد صرح ديان في مقابلة تلفزيونية نشرت في الصحف الاسرائيلية في ١٠/٢٩ بأن « سكان الضفة الغربية يعتبرون انفسهم مواطنين اردنيين وعاصمتهم عمان . وان على اسرائيل ان تنفذ الامور التي تعتبرها ضرورية لها وهي بقاء قوات الجيش الاسرائيلي معسكرة على مشارف نهر الاردن ، وان تكون في الضفة الغربية حكومة واحدة هي حكومة اسرائيل . وان يكون بإمكان اسرائيل تنفيذ حقها في الاستيطان في كل مكان في الضفة الغربية أو قطاع غزة أو في جزء من سيناء » .

ويعتبر المعلقون الاسرائيليون رأي غولده مثير الذي يرفض خلق اقلية عربية كبيرة في اسرائيل بمثابة رفض لانكار موشه ديان . ويقول متتياهو بيلد في مقاله بصحيفة « معريب » (١١/٣) ان رفض غولده مثير العلني هذا « اجبر موشه ديان على الاختيار : اما السير في الظلم واما الخروج من الحلبة . واعتقد ان احدا لم ينجأ من قرار ديان العودة الى تعديل موقفه » . ويذكر الكاتب ان رأي ديان القائل ان قدر العرب في المناطق هو ان يكونوا غريسا في بلادهم الخاضعة للحكم الاسرائيلي ليس رأيا جديدا لديان ، فمقصد غير عنه في كتابه « خارطة جديدة » علاقات جديدة . ويضيف الكاتب : « ولكن ما جرى في الاسابيع الأخيرة مفاجيء من ناحية واحدة فقط . فلاننا نتقرب من الانتخابات شعر وزير الدفاع بأنه ينبغي

ونفس الامور في مكانها وان يكون ثابتا في رؤية مستقبلنا السياسي . ولكنه عندما خرج لتوضيح وجهة نظره بان « سكان المناطق يجب ان يحافظوا على ميلهم لعمان دون ان يكون لعمان الحق في المحافظة على ميلها اليهم ، وان علينا ان نحفظ بالمناطق ونستوطن فيها دون ان نمنح سكانها حقوقا سياسية ، كان ديان يعتقد ان القلوب مهيأة بما فيه الكفاية لاستيعاب هذه النظرية وان الشعب ، بغالبية ، سيذهب لمساندتها . هذا الخطأ في تقديرات وزير الدفاع هو العامل الحاسم في كل القضية » . ويرى الكاتب ان غلطة ديان الاساسية هي في طرحه حلا يتيح امكانية الضم مع تهدئة الجمهور الاسرائيلي من الخطر الديموغرافي . « ولكن هذه المحاولة جوبهت بمعارضة قوية » .

ولكن رفض غولده مثير لمعادلة ديان لا يتضمن حل المعادلة التي يفرضها واقع الاحتلال الاسرائيلي لاراض عربية شاسعة يعيش فيها عدد كبير من السكان . فكيف يتم الانسجام بين الاجماع الاسرائيلي على الاحتفاظ بالاراضي المحتلة وبين الاجماع الاسرائيلي على عدم تحويل اسرائيل الى بلاد ثنائية القومية . من الواضح ان حل ديان الرامي الى أن تكون الضفة الغربية اسرائيلية والسكان العرب فيها غير اسرائيليين هو نوع من الفصاحة اللغوية . ومن هنا تسبأ متتياهو بيلد : « كيف نضمن قيام دولة يهودية قومية لا توجد فيها الا اقلية عربية خفيفة تتمتع بالحقوق الكاملة ؟ هل تقصد رئيسة الحكومة حلا على طريقة مشروع آلون الذي يقضي بضم ٥٠٠ الف عربي في الضفة والقطاع بالإضافة الى المواطنين الحاليين في اسرائيل ، فيشكلون اقلية كبيرة جدا . تبلغ ٨٠٠ ألف عربي ؟ وماذا سيحدث اذا تصرفت هذه الاقلية مثل تصرف سكان القدس الشرقية الذين رفضوا الجنسية الاسرائيلية ؟ هل نستطيع ان نقول مطلقا قال تاجر قشور البن الذي احضر القشور طعانا للدجاج : اذا اراد الدجاج ان يأكل اكل ، واذا لم يرد لا يأكل » .

ويعتبر بنحاس سبير - وهو المرشح القوي لخلافة غولده مثير مع أنه يرفض ذلك - من كبار المسؤولين الاسرائيليين الذين يفضلون « الطهارة اليهودية » لاسرائيل والتخلص من اكبر قدر من العرب حتى لو ادى ذلك الى « بعض التنازل » عن بعض المناطق العربية المحتلة . وينحاس سبير

يخفي عن أحد انه لا يريد الان تسوية سلمية مع الاردن . لانه يعتقد ان السلام مع الاردن يستدعي دفع الكثير مقابل الحصول على القليل . ولذلك من الافضل ان يبقى الوضع على ما هو عليه . . ان ننظر ونرى » . وتقول الصحيفة ان بنحاس سبير يقف في مواجهة خط ديان من اجل التوصل الى تسوية سلمية مع الاردن مع المحافظة على التفرد اليهودي لاسرائيل ، فان سبير من شأنه ان يقبل ما هو اقل من مشروع آلون ، بشرط ان تحصل اسرائيل على « حدود آمنة » .

ويعبر المحرر في صحيفة « معرب » يوسف حريف عن اعتقاده بأن انتصار احد الخطين . . خط ديان او خط سبير سيكون ذا اهمية بالغة بالنسبة لقيادة حزب العمل . « وهذه هي العلاقة بين « المناطق » وبين رئاسة الحكومة . فليس النقاش حول المناطق الا لافئة . اذ ليس له اية دلالة عملية من ناحية السلام مع الاردن . انه ذو دلالة عملية من ناحية السلام الداخلي في حزب العمل بعد غياب غولده مير » . ويقول الكاتب ان كتلة تل ابيب للحزب — وهي اكبر كتلة — تريد ان توقف ديان عند حده ، لان قبول نظرية ديان السياسية معناها قبول زعابته . وتريد هذه الكتلة صاحبة التأثير الكبير على تشكيل القيادة ان يفوز بنحاس سبير بالوراثة ، ولكنها تسعى الى ان تجري المسألة بنعومة ، اي : ان ترأس غولده مير قائمة الحزب المكتسبة وتشكل الحكومة القادمة . وبعد ذلك تسلم الحكومة لبنحاس سبير . ومن المؤكد ان اغلبية الحزب ستتكل حول سبير . ولقد اعترف ديان بأنه لا يعتقد ان الحزب سيرشحه لرئاسة الحكومة . ولكن سبير قد اعلن انه لن يقبل المنصب ، وسيضطر على غولده مير للبقاء .

عن زيارة ديان في الولايات المتحدة

● قد يكون من السابق لاوانه تقييم نتائج زيارة وزير الدفاع الاسرائيلي موشه ديان في الولايات المتحدة الامريكية ، فعند كتابة هذه الكلمات كان ديان يستعد لمقابلة المسؤولين الامريكيين وسط تقديرات امريكية بأن هذه الزيارة « تمكن من تفحص افكار جديدة بشأن التسوية الجزئية واعادة فتح قناة السويس » كما ورد على لسان مراسل الاذاعة الاسرائيلية في واشنطن .

ولكن زيارة ديان تتسم ببيزتين : اولها ان هذه الزيارة هي فاتحة سلسلة من الزيارات التي

رجل أرقام ، وهو يعيش في شبه كابوس من تناسل العرب ، وقد اعتد له اخصائي الحكومة البروفيسور روبرت بيكي اخصائية تفيد بانسه اذا استمرت الهجرة الى اسرائيل بوتيرتها الحالية وبقي التزايد السكاني للعرب على حجه الحالي — فقد يصل عدد السكان في اسرائيل والمناطق المحتلة — بعد ٢٥ سنة الى تسعة ملايين منهم أربعة ملايين عربي . وتقول صحيفة « معرب » (١٠/٢٧) ان مخاوف أخرى تراود بنحاس سبير في الميدان الاجتماعي او ما يسمى « العمل العربي » . وتراوده ايضا مخاوف اقتصادية « اذا اصبح سكان الضفة الغربية مواطنين اسرائيليين ، فان من واجب اسرائيل ان ترفع مستواهم ، بقدر الامكان ، اسوة باليهود . وان مجرد هذه الفكرة تخلق كابوسا لبنحاس سبير ، اذ كيف سيتبرع اليهود في العالم من اجل رفع مستوى معيشة مليون عربي » وعبرت غولده مير عن مخاوفها من الكابوس العربي عندما فسرت في ندوة صحفية (معرب ١٠/٢٧) رفضها لثنائية القومية « لانها ستنهض كل صباح خائفة من ولادة طفل عربي » . ولقد اضطر موشه ديان الى تسجيل تراجع لفظي امام هذه المخاوف التي تصيب الجسد الاسرائيلي بالقشعريرة . نقلت معرب عن ديان قوله انه لا يميل الى استيعاب مليون عربي في نطاق حدود اسرائيل الموسعة ، واذا اضطر للوقوف أمام الاختيار بين « تنازل » عن « مناطق » وبين تحويل مليون عربي الى مواطنين اسرائيليين ذوي حقوق فانه سيخج من المناطق المحتلة . ولكن ديان لا يعتقد ان القضية مطروحة على هذا النحو . القضية — كما يراها — هي على النحو التالي : « الملك حسين لا يريد مشروع آلون . ودولة مستقلة في الضفة فكرة نافية لانه ليس في الضفة اية معطيات لكيان مستقل . احتمالات السلام القريب مع حسين غير وارادة لمدة عشر او خمس عشرة سنة . ومن هنا ، نمية ضرورة « لتسوية طويلة » على اساس الامر الواقع . ولا ينبغي ان نتناقش حول المسألة السكانية ، بل يجب ان نعمل على ضوء الواقع . والواقع هو ان المواطنين الاردنيين في الضفة لا يريدون ان يصيروا اسرائيليين . واذا كانت المسألة بهذا الشكل ، فان القضية ليست: ما هي حدود اسرائيل في المستقبل ، بل كيف نواجه مشكلة وجود مليون عربي في الضفة » . وتقول « معرب » : « ان ديان لا

سيعوم بها كبار المسؤولين الاسرائيليين ، وربما غير الاسرائيليين من منطقة الشرق الاوسط التي اميركا في عهد نيكسون الثاني وثانيها - ان الزيارة تجري في جو شائعات صحفية امريكية حول مبادرة جديدة تدرسها الولايات المتحدة لاجراء تسوية لازمة الشرق الاوسط .

ولقد رأى المسؤولون الإسرائيليون ان من الضرورة نشر مجموعة من التلميحات للرأي العام الإسرائيلي ترمي الى نفي ما قد ينبعث من احساس تلقائي بأن نيكسون الثاني قد يختلف عن نيكسون الاول . لان مثل هذا الاحساس يفتح مدى لتوقعات سياسية قد تتبالغ في المخاوف وقد تتبالغ في الاطمئنان . ومن هنا ، يادر كبار المسؤولين الاسرائيليين التي التشكيك بنية الولايات المتحدة في عهد نيكسون الثاني للضغط على اسرائيل اولا ، والى التأكيد على ان اسرائيل قادرة على مقابمة هذا الضغط في حال وقوعه . لقد وجدت النقطة الاولى تعبيراً عنها في حديث ادلى به وزير الخارجية ابا اييسن (١١/١٠) بقوله : « ان الولايات المتحدة لم تتروح علينا تغيير موقفنا من قضية الشرق الاوسط » و اضاف « ان الناطقين الامريكيين قد أكدوا على ان اسرائيل قامت بواجبها » . ووجدت النقطة الثانية تعبيراً عنها في تصريح للمسفير الإسرائيلي في واشنطن يتسحاق رايبين في اليوم ذاته ، بقوله : انه لا يعتقد ان الولايات المتحدة ستعمل اي شيء جدي لا تقبله اسرائيل . و اضاف انه اذا ما اظهرت الولايات المتحدة دلائل محاولة للتأثير على اسرائيل لبدء « مزيد من الليونة » فان اسرائيل تلك القدرة على التمسك بموقفها اكثر من قدرتها على ذلك قبل سنتين او ثلاث سنوات .

واشتركت رئيسة الحكومة الإسرائيلية بهذا المعنى في حديث اذاعي مهم في ١١/١٠ بقولها انه من الضروري الفصل بين « نشاط الولايات المتحدة في محاولة للوصول الى تسوية ، اذا لم يكن من اجل سلام شامل ، فعلى الاقل من اجل تسوية تحول دون تجدد اطلاق النار » وبين الضغط الامريكي على اسرائيل . و اضافت - غولده مئير : « ان رئيس الولايات المتحدة ليس بوجهها جديدا علينا . وعندما اجتمع بجماعة من اليهود قبيل الانتخابات سأله احدهم عما اذا كان مستعدا للضغط على اسرائيل لفرض حل ، في حال اعادة

انتخابه ، فاجاب : انتم تعرفون اسرائيل ولو انني اريد ان اضغط فهل هذا يمكن ان يبنى على ذلك ، تعتقد غولده مئير انه من غير الممكن فرض امر على اسرائيل يعرف انه يتناقض مع مصلحتها الحيوية .

ان تكون الولايات المتحدة قادرة او عاجزة عن الضغط على اسرائيل - هو مجرد احتساب اسرائيلي بالقوة يسمى تأكيد والتظاهر به التي تغلبة الموقف الامريكي من جهة ، والى اشاعة الامان في وعي الرأي العام الإسرائيلي من جهة اخرى . فان غولده مئير ذاتها قد اوضحت في المقابلة الاذاعية ذاتها ان المصالح الامريكية هي التي توجه السياسة الامريكية . ومن هنا ، فسأل السؤال الوحيد المعقول هو : هل طرأ على المصالح الامريكية بعد اعادة انتخاب نيكسون ما يستدعي تغيير الموقف الامريكي من الصراع في الشرق الاوسط . ولقد سئلت رئيسة الحكومة الإسرائيلية عما اذا كان وجه رئيس الولايات المتحدة في فترة الرئاسة الاولى هو الوجه نفسه في فترة الرئاسة الثانية ؟ فاجابت : « هذا سؤال له ما يبرره . واضح انه رئيس الولايات المتحدة وعلينا دائما ان نذكر ذلك . و واضح ان للولايات المتحدة مصالح ، ولا يمكن ان نطلب من الدولتين الكبرى الصديقة ان تغضى عن مصالحها الحيوية من اجلنا . ف العالم غير مركب على هذه الصورة ولكن من خلال مقابلاتي معه رأيت انه فعلا يدرك مشاكلنا ويتفهمها ويتعاطف معنا . وفي احدى المرات سررت جدا - استطرادا للحديث عن المصالح - عندما قال لي : عليك ان تعرفي ان ما افعله الان - وكان قد قرر اشياء مهمة جدا - ليس نابعا من علاقتي باسرائيل ، بل انها مصلحة امريكية اولا ان تكون اسرائيل قوية » .

اذن ، ما هو مصدر بعض علامات الطلق التي تظهر من بعض تصريحات المسؤولين الاسرائيليين بمجرد حديثهم عن « احتمال الضغط » والقدرة على مقاومة الضغط ؟ لقد سجلت صحيفة « هارتس » تاريخ الاطمئنان الإسرائيلي من اللحظة التي افتتح بها الاسرائيليون بأن واشنطن توقفت عن ذكر « مشروع روجرز » . و كتبت الصحيفة (١٠/٢٠) : « لقد كان الرأي المتفق عليه في القدس منذ بداية عام ١٩٧٢ انه بعد الانتخابات الامريكية ليس الحكم الجمهوري الذي يريد رئيسه ان يعاد

انتخابه - معنيا بابرار خلاف مع اسرائيل . وقد كلف الامريكويون من ذكر « مشروع روجرز » . وربما تكون فترة الهدوء السياسي قد بدأت قبل ذلك بعد محادثات رئيسة الحكومة مع نيكسون في البيت الابيض قبل حوالي العام . وعلى اية حال ، فان الهدوء العملي في القدس بدأ فقط بعد انتهاء محادثات القمة في موسكو .

على الرغم من هذا الهدوء ، فان الصحيفة تسجل علامات طفيفة من « اللاهدوء » . من هذه العلامات ما قاله جوزيف سيسكو ، قبل فترة ، دماغا عن مشروع روجرز في حديث مع التلفزيون الاسرائيلي . وآراء بعض الدبلوماسيين الامريكسيين بشأن المشروع اياه . وعدم حدوث تغيير على السراي الامريكسي القائل ان اسرائيل بالغت في حملتها على مشروع روجرز .

لكن ذلك كله ليس كافيا لان يصرح موشه ديان بان « هنالك مصاعب متوقعة من الامريكسيين » . اين مصدر القلق اذن ؟ يقول المعلق السياسي دان مرغلين في مقال نشره في « هارتس » (١٠/٢٠) : « اذا اخذنا بعين الاعتبار ان موشه ديان يريد الاكثار من الاحاديث والاتصالات مع مصر ، فينبغي علينا ان نفترض انه يبرى « المصاعب » مع واشنطن ناشئة من الجانب الشرقي بالذات : من المحاولة الامريكية المستمرة لحث اسرائيل على عقد اتفاق مسبق مع الملك حسين » . واهضاف الكاتب في مكان اخر من مقاله : « نفترض الاوساط السياسية في القدس ان واشنطن لن تزيد ضغوطها على اسرائيل في المنطقة المصرية على الرغم من انها النقطة التي تعنى اسرائيل بالتوصل الى تسوية معها تسبق التسويات مع سائر البلدان العربية . ويبدو ان الولايات المتحدة مستعدة للانتظار زمنا طويلا بشأن التسوية مع مصر الى ان تنضج الظروف الكفيلة باقناع السادات باجراء مفاوضات مع اسرائيل » .

ينتج عن ذلك ان مصدر القلق الاسرائيلي من امكانية الضغط الامريكى صادر عن سعي الملك حسين الى تسوية مع اسرائيل . ويقول كاتب المقال في « هارتس » : « ان الصعوبة كائنة في حسين ، فانه سيمود الى واشنطن بعد زيارة ديان بفترة . ويمكن الانتراض ان الامريكسيين سيستغلون هذه الزيارة للاطلاع عن كثب على تطورات آراء موشه ديان ، هل يتقوچ الضم ؟

أم أن ثمة أساسا لرأي آخر يقول ان ديان لنسب يخلق الباب ، نهائيا ، امام المفاوضات ، ولكنه يعبر عن رأيين : الاول - ان الطريق الى الاتفاق الشامل مع العرب لا يزال بعيدا ، ولذلك لا بد من اللوضح الزاهن . والثاني - ان حديثه عن وجود ميل لدى سكان الضفة الغربية الى الاردن ، دون وجود ميل لدى حكومة حسين الى نابلس والخليل - لا يعبر الا عن تعقيب الوضع والمجرى القائمين . ومن هنا فسكون للامريكيين ما يناقشون به آراء ديان وخاصة تشككه في جدوى التفاهم مع الملك حسين . لان الامريكيين معينون بتسوية اسرائيلية - اردنية . وسيعبرون عن ذلك بوضوح اكبر بعد انتخابات الرئاسة . ومن هنا ، يرى المسؤولون السياسيون في القدس ان مستقبل الاتصالات الاسرائيلية - الاردنية سيكون نقطة خلاف كبير بين اسرائيل والولايات المتحدة اكثر من مستقبل الاتصالات مع الدول العربية الاخرى . ويمكن القول ان هذه النقطة هي نقطة الخلاف الجوهرية .

والجدير بالذكر ، في هذا السياق ، ان فولده مؤير ، في حديثها الازاعي (١١/١٠) قد أشادت « بشجاعة » الملك حسين واعلنت انها تصدق رغبته في عقد سلام مع اسرائيل ، « انتي واثقة من صحة اقوال الملك . انه يريد سلاما » . ولكنها لم تعلن استجابتها لرغبة الملك ، الامر الذي يخلق انطبعا بان الحكومة الاسرائيلية لا تتحمس ، الان ، لعقد اتفاق منفرد مع الاردن .

ويعتقد كاتب اخر في « هارتس » . ا . شفيقتسر في مقاله عن « قوة الامر الواقع » (١٠/٢٠) « انه في عام ١٩٧٣ وما بعده ، لن يكون الشرق الاوسط منطقة لنشاط سياسي كبير من الدول الكبرى . ومن هنا ، فاذا حدث تزحزح في النزاع العربي - الاسرائيلي فسكون دوافعه من داخل المنطقة ذاتها . وكما تبدو الامور الان ، فان مثل هذا التحرك من داخل المنطقة غير متوقع » . لماذا ؟ « لان الوضع مريح لاسرائيل في المدى القصير . ورجال الدولة لا يتطلعون ، عادة ، الى تغيير وضع مريح . اما العرب ، فانهم يبدون وكأنهم لا يملكون قوة جعل الوضع غير مريح لاسرائيل - او تقديس تسوية لاسرائيل تدفع السياسيين الاسرائيليين الى المخاطرة براحة الظروف الحالية . ويحتاج المرء الى خيال جامع ليصدق ان القاهرة

تستطيع اغراء اسرائيل بظروف افضل مما تملكه الان . وكذلك الامر بالنسبة الى الاردن . فالملك جاء ليمقد صفقات مع اسرائيل بأيد فارغة ، بينما الفلسطينيون لا يملكون ايدي « .
والخلاصة ؟ ان اسرائيل « لن تخرج من الضفة الغربية لاعتبارات المدى البعيد فقط - لاعتبارات النورية تؤكد افضلية الوضع القائم . واذا لم يلزم الاردنيون والفلسطينيون اسرائيل على اخلاء الضفة الغربية ، او قسم منها ، فلن يكون انسحاب « .
ويعترض الكاتب على طريقة قيام الاسرائيلي بتخويف نفسه بزراعة اسمها « نيكسون الثاني » ويؤكد ان

نيكسون مستعفي في سياسته الموالية لاسرائيل ويستخلص من كل ذلك انه لا مقر من الحضاظ على الامر الواقع . « حتى اذا اراد بعض الحكام اجراء تعديل على الامر الواقع ، فمن المشكوك به ان يحظوا بتأييد الجمهور . ليست في اسرائيل اكرية ولا اقلية تتطلع الى اجراء مثل هذا التعديل . وليس على الجانب الثاني قوة سياسية قادرة على تشجيع مخاطرة اسرائيلية بالتفكيك . قد يكون المتهمون هم العرب وقد يكونون الاسرائيليين . ولكن من ناحية النتائج ليس للامر اهمية عملية « 1

م . د .

صدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية
تهويد فلسطين
اعداد وتحرير الدكتور ابراهيم ابو لغد
ترجمة الدكتور اسعد رزوق

اثناعشر مقالا تحليليا حول قضية فلسطين بقلم اثني عشر استاذا جامعيًا مختصًا في جوانب القضية ، مع تصدير للمؤرخ العالمي ارنولد توينبي .

تهويد فلسطين

اعداد وتحرير الدكتور ابراهيم ابو لغد

ترجمة الدكتور اسعد رزوق

تندرج موضوعات الكتاب في اربعة عناوين ، اوضح القسم الاول الرؤيا في الفكر الصهيوني وشرح الاطباع ومقاصد الحركة الصهيونية ، كما بين وسائلها لتحقيق هذه المآرب ، موضحًا في القسم ذاته العلاقة العضوية بين الصهيونية والامبريالية الغربية . اما القسم الثاني والثالث فهما اهم اجزاء الكتاب ، ركز الثاني حول حركات استلاب الارض عبر تعبئه عن الوضع الاجتماعي في فلسطين المحتلة ومساوية نظام الملكية ، الامر الذي أدى لتتركز ملكية الارض في ايدي التجار والغائبين ، كما بين بتحليل ديموغرافي تطور مراحل تحويل فلسطين من شعب واحد يضم فئة يهودية قليلة ، مندجعة كليًا فيه ، الى مواطنين من مهاجرين غربيين ، واحلال مجتمع مكان آخر ولغة محل ثانية ، وتحويل السكان الاصليين الى مهاجرين وشرح ما جرى ويجري من عداة للعرب واستعمال للعنف والارهاب لاجبارهم على ترك ارضهم . ويعرض القسم الثالث للمقاومة العربية تحت الانتداب البريطاني وتحليل السياسة البريطانية ازاء الانتفاضات العربية ولجان التحقيق ، مع تركيز خاص عن ثورة ١٩٣٦ يعتبر من افضل ما كتب عنها وعن آثارها . ويتطرق القسم الرابع والاخير تمة لجوانب الموضوع للصراع العربي الاسرائيلي ويركز بصورة خاصة على القدس وتطورات وضمها السياسي المتغير .

٨ ل . ل .

٤١٣ صفحة

تضاف اجور البريد : ١٠٠ ق . ل . في البلاد العربية
٢٥٠ ق . ل . في اوروبا ، ٥٠٠ ق . ل . في سائر دول العالم

تقرير خاص حول مؤتمر التنمية الاردني

أ. م.

خارجية الولايات المتحدة ، والوزير البريطاني للتنمية فيما وراء البحار ووزير الخارجية والمال الفرنسيين والوزير الألماني الغربي للتمساون الاقتصادي والامين العام للسوق المشتركة . بيد ان هؤلاء جميعهم لم يحضروا وافتدوا بدلا عنهم ممثلين عن حكوماتهم . وقد وجهت الدعوة إلى عدد كبير من الدول الأوروبية الغربية والى اليابان وأستراليا وكندا والاتحاد السوفياتي .

وعلى الصعيد العربي فقد وجهت الدعوات الى عدد من الدول العربية والهيئات الاقتصادية مثل الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية وصندوق الإناء في أبو ظبي والى مجلس الوحدة الاقتصادية العربية وغيرها من المنظمات والهيئات . وبصورة عامة فان ما يمكن لمسه بسهولة هو غياب الدول العربية عن المؤتمر ، باستثناء السعودية ودول امارات الخليج ، التي شاركت حكوماتها ومؤسساتها التمويلية . وكانت المشاركة الاساسية من الولايات المتحدة والمانيا الغربية وبريطانيا واليابان والسوق الأوروبية المشتركة ، ومن المؤسسات المتخصصة في الأمم المتحدة وعدد كبير من المؤسسات والجمعيات الامريكية الدينية وغيرها ، ومن المؤسسات الخاصة شارك بنك الاعمار الغربي ، شركة ميتسوبيشي اليابانية ، بنك كريدي ليونييه (لبنان) ، فيليس ، مجموعة الفا ، مؤسسة نورد فاونديشن ، منظمة كير العالمية . الخ

من الواضح ان هذه « النظاره » الاقتصادية ، التي انتظمت في عمان ، كانت بهدف انجاح خطة التنمية الثلاثية التي يراهن بها النظام على معالجة الوضع الاقتصادي المتدهور وخاصة بعيد ايلول ١٩٧٠ . ولعل ابلغ تعبير عن هذا الوضع هو ما نقلته من مقدمة خطة التنمية نفسها : ١ - منذ

بين ١١ و١٢ تشرين الثاني الماضي انعقد مؤتمر التنمية الاردني في عمان تحت عنوان « شركاء في التنمية » بحضور ممثلين عن ٢٦ دولة عربية واجنبية و٤٢ منظمة وهيئة دولية واطليمية وخاصة . وحسب التعبير الرسمي فان الهدف من المؤتمر هو القيام بـ « دراسة عملية للتأكد من جدوى المشاريع وترابطها وتماسكها وقابليتها للتنفيذ ، والتعرف الى ميادين التمويل الخارجي ومصادره في ضوء الجدوى الاقتصادية للمشاريع وأولويتها في الخطة » . وكانت الحكومة الاردنية قد أعلنت عن انتهاء وضع الخطة ، التي استغرق اعدادها نحو العام في ٥ ايلول الماضي ، عندما عرضت على الملك حسين في ندوة عقدت في الجمعية العلمية الملكية واستمرت ٩ ساعات ، استمع خلالها الى عرض مفصل عن جوانب الخطة ، وقد تحدث الامير حسن (الذي اشرف على اعدادها) ، ورئيس الوزراء ، عن اهداف الخطة ومشاريع الحكومة ، وشارك رئيس الجامعة الاردنية ، ورئيس المجلس القومي للتخطيط وعدد من المسؤولين في النقاش ، وكذلك تحدث ممثلون عن القطاع الخاص عن استعدادهم للمشاركة في تنفيذ الخطة ، كما تحدث امين عام اتحاد نقابات العمال (شاهر المجالي) عن دور العمال في الخطة . ثم عاد الامير حسن لعرض الخطة في ندوة خاصة على الدبلوماسيين الاجانب والعرب ودعاهم الى المشاركة في تنفيذ مشاريع الخطة (١٢ ايلول) . وتكرر عرض اهداف الخطة امام ممثلين عن المنظمات المتخصصة في الأمم المتحدة وجمعيات اخرى (١٩ ايلول ١٩٧٢) .

وقد استكلت « تظاره » النظام الاقتصادية بعدد مؤتمر التنمية ، الذي وجهت فيه الدعوات الى عدد من الوزراء والمسؤولين الغربيين مثل وزير

عام ١٩٦٧ وحتى عام ١٩٧١ كان متوسط نمو الانتاج القومي الاجمالي للاردن ٣٤٨ ٪ بمقابلة ١١ ٪ سنويا بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٦٦ ، اذ بلغت معدلات نمو القطاعات الاقتصادية على النحو التالي : الزراعة ١ ٪ ، الصناعة والتعدين والكهرباء والماء ٤٦ ٪ ، قطاع الانشاءات ٥٤ ٪ ، قطاع الخدمات ٥ ٪ - ٢٠ ٪ انخفاض فرص العمل في الضفة الشرقية ، وتوقف المشاريع الكبرى مترافقا مع نزوح ٤٠٠ الف مواطن - السي الضفة الشرقية ٣٠ ٪ - هجرة العمال والمعتول خارج الاردن ٤٠ ٪ - خسارات في الدخول الاخرى ، فقد انخفض الدخل من السياحة من ١١٤٣ مليون دينار عام ١٩٦٦ الى ٣٤١ مليون دينار عام ١٩٧١ ، كما انخفضت تحويلات المواطنين العاملين في الخارج من ١٣ مليون دينار عام ١٩٦٦ الى نحو ٥ ملايين دينار عام ١٩٧١ . ٥ - زيادة اعتماد الموازنة العامة على المعونات المالية الخارجية ، فقد ارتفعت نسبتها الى الإيرادات العامة (ما عدا القروض والمساعدات الاقتصادية والفنية) من ٢٥٤٤ ٪ عام ١٩٦٦ الى ٥٠٤٤ ٪ عام ١٩٧١ . ٦ - تكرار العجز في ميزان المدفوعات ، الذي بلغ اكبر عجز له في عام ١٩٧١ وبلغ ١٥٤٣ مليون دينار ، وكان عام ١٩٦٩ ١١ مليون دينار وعام ١٩٧٠ ٥٤٣ مليون دينار .

ازاء هذا الوضع الاقتصادي المتردي تستهدف الخطة ، كما أعلن عنها ، تحقيق أعلى مستوى ممكن من العمل والتشغيل ، وتحقيق أعلى معدل نمو ممكن في الانتاج القومي وتوزيع الخدمات العامة بين مختلف مناطق الاردن وفئات المواطنين وتخفيض العجز في الميزان التجاري وتدعيم ميزان المدفوعات وزيادة اعتماد الموازنة العامة للدولة على الموارد المالية المحلية بدلا من المساعدات الخارجية . وتقدر الخطة انها ستخلق ٧٠٠٠٠ فرصة عمل . وان ترفع الدخل المحلي الاجمالي من ٢١٧ مليون دينار في العام الحالي الى نحو ٢٧٣ مليون دينار عام ١٩٧٥ . وتهدف الى رفع معدل الدخل الفردي من ١٠٦ دنائير في العام الحالي الى ١٢٢ دينار عام ١٩٧٥ . وتأمل الخطة ان ترفع واردات الدولة المحلية من نحو ٣٩ مليون دينار (١٩٧٢) الى نحو ٥٤ مليون دينار عام ١٩٧٥ . وتوقع ان ترتفع قيمة الواردات الاردنية تدريجيا خلال السنوات الثلاث بحيث تصل الى ١٠٧ ملايين دينار عام ١٩٧٥ . وتقول ان الجزء الاكبر من الزيادة في

الواردات سيتمثل في استيراد الآلات والاعينات اللازمة للمشاريع الجديدة . كما تتوقع ان ترتفع قيمة الصادرات من نحو ١٥ مليون دينار في العام الحالي الى نحو ٢٣ مليون دينار عام ١٩٧٥ . وحسبها هو مقدر في الخطة فان القطاع العام يساهم بنحو ١٠٠ مليون دينار في تمويل مشاريعها ، وذلك عن طريق الوتر الحكومي الحالي ، والاقتراض الداخلي والخارجي والمساعدات الاقتصادية والفنية الاجنبية (١٠٤٤ مليون دينار وقر الحكومي سنوي ، ٢٧٤٧ مليون اقتراض داخلي ، ١٦٤٥ مليون مساعدات خارجية عينية وتقنية ، ٥٣ مليون قروض) . اما مساهمة القطاع الخاص بمقدرة بنحو ٨٠ مليون دينار ، وهناك مساعدات خارجية للقطاع الخاص قدرت بـ ٨ ملايين دينار . ولتوفير مصادر التمويل هذه ، تدمو الخطة الى تحسين أساليب جمع الضرائب من المواطنين ، وخفض ضرائب على الشركات وأرباح رؤوس الاموال . كما تدمو الى بذل الجهد للحصول على الإيرادات الخارجية التي تقدر بمعدل ٤٠ مليون دينار مساعدات مالية سنوية لدعم الموازنة و ٥٣ مليون دينار سنويا كقروض خارجية ونحو ١٦ مليون دينار سنويا كمساعدات اقتصادية فنية .

ولكن السؤال المطروح بحددة هو هل يستطيع خطة التنمية هذه ان تضع حدا للتدهور العام ، لا بل تطوير الانتاجية ، وقبل ذلك هل يستطيع النظام توفير مثل هذه الموازاة ؟ ان التجارب التنموية السابقة لا تدمو الى التفاؤل . فبرنامج التنمية الزراعية الذي حددت مدته بخمس سنوات (٥٣ / ١٩٥٤ - ١٩٥٨ / ٥٧) ، قد اعتد في رهانه على القروض البريطانية وادرت اكلانه ٤٣٤٨ مليون دولار ، الا ان البرنامج الذي رفضت بريطانيا تمويله عدل حتى بلغت اكلانه ١٣٤٧ مليون دينار غير ان المبالغ البريطانية التي قدمت لم تتجاوز ٤٤٨ مليون دينار انفق منها اقل من مليون على قطاع الزراعة فيما تحول الباقي الى ميزانية الدولة .

اما برنامج التنمية للسنوات الخمس (١٩٦٢ - ١٩٦٧) ، فقد عدل عنه بعد عام وأعد بدلا منه برنامج السنوات السبع (١٩٦٢ - ١٩٧٠) ، الذي احدث تعديلات على المشروع السابق لكن البرنامج فشل فشلا ذريعا ، وانتقده الاقتصاديون الاردنيون كثيرا ، ورغم حديث الملك حسين في

مؤثر التنمية عن الازدهار المتحقق قبل عام ١٩٦٧، فان المسؤولين عن التخطيط التنموي اعترفوا بوجود صعوبات واجهت الحكومة حالت دون تنفيذ خطة السنوات السبع وعن نظمي الحكومة نهائيا عن اكمالها . (حديث د. أحمد مراد الى جريدة الدستور ١٩٧٢/١٠/٧) ، كما اعترفت الخطة الثلاثية نفسها « بتلك القطع الخاص في الاستثمار او اقامة الصناعات او توسيع القائم منها » .

ليس من السهل هنا معالجة المدى الذي يمكن ان تصيبه الخطة من النجاح ، فالمشكلة الاساسية ، وهي المتعلقة بالتمويل ، لا يمكن التكهّن بها قبل ان يمر بعض الوقت لمعرفة الجهات المستعدة للتمويل وحجم مساهماتها ، واذا وضعت التجارب السابقة في الاعتبار فان مشكلة التمويل تظل عقبة اساسية ، وبشكل عام فان تقدير بعض الخبراء الاجانب في المؤتمر عن بقاء عجز قدره ٨٠ مليون دينار بدون تغطية هو تقدير يؤخذ بالحسبان (النهار الاقتصادي ١٩ تشرين الثاني ١٩٧٢) . كما ان هناك عقبات اخرى مثل مدى تلبية الخطة للحاجات الراهنة والمستقبلية للاقتصاد المتدهور ، ووجود اداة فعالة قادرة على تنفيذ البرنامج ، وقبل ذلك ان تكون الخطة قد وضعت تقديرات سليمة للاحتياجات القائمة وامكانية تغطية نفقاتها ومدى ترابط الخطط الجزئية وتفاعلها ، وهي امور يمكن القول دون مبالغة ان الخطط السابقة لم تعطيها حثها من المعالجة .

ملاحظات على سياسة النظام ازاء الخطة :

١ - في الكلمة التي القاها الملك حسين عند افتتاح المؤتمر يمكن ملاحظة الامور التالية :

- قال ان المشاريع الانتاجية المباشرة في الخطة تركت عن قصد للقطاع الخاص ، « وانا ادعم هذا الاتجاه » . وازداد ان القطاع الخاص اثبت قدرته على التطلع الى الامام واستعداده للمجازفة والتعاون مع الجميع . وكلام الملك هذا منساق لكل دروس الخطط التنموية السابقة ، حيث خيب القطاع الخاص الامل المعلق عليه وهو الامر الذي تعترف به الخطة نفسها .

- واعلن الملك ان رأس المال الاجنبي يتمتع بالامتيازات نفسها التي يتمتع بها رأس المال المحلي . والواقع ان رأس المال الاجنبي يتمتع بامتيازات اكبر من تلك التي يتمتع بها رأس المال

المحلي . (فقد صدر قانون جديد لتشجيع الاستثمارات الاجنبية في البلاد ومنحت تسهيلات واغراءات واعفاءات جبركية بشكل لم يسبق له مثل . فهو يعني المشاريع المتامة برؤوس اموال اجنبية من رسوم الاستيراد والرسوم الجبركية ، كما يعني ارباحها الصافية من ضريقتي الدخل والخدمات الاجتماعية لمدة ست سنوات على الاقل ، ومن ضريبة الابنية لخمس سنوات ، وبالإضافة الى اعفاءات اخرى فان القانون يجيز اعادة تحويل رأس المال الاجنبي الى خارج الاردن على ثلاثة اقساط سنوية متساوية بعد سنتين من مباشرة المشروع ، وفي حالات خاصة يجيز القانون تحويل رؤوس الاموال دون التقيد بالمدة او بالاقتساط . وينص هذا القانون على تحويل الارباح والفوائد ورأس المال الاجنبي الى خارج الاردن بالعملة الاجنبية التي استورد بها او بأية عملة اجنبية اخرى قابلة للتحويل) . («الجريدة» اللبثانية ٣٠ تموز) . وقد كان القانون المذكور صدى لاتجاهات الخطة الثلاثية وتلبية لمتطلباتها .

- دعا الملك الى وضع قانون جديد للمعامل ، « يوجه اتجاه وسلوك العمال » ، وتعكس هذه الدعوة رغبة النظام في تطوير الطبقة العاملة واغرائها « بسياسة الخبز » بهدف رفع الانتاجية وطمس حدة التناقضات الاجتماعية .

- اشار الى ان هدف النظام هو تحسين وضع المواطن في كلا الضفتين ، وتوفير كل المرافق والتسهيلات التي من شأنها تحسين احواله المعيشية . وقال « ان شقاء شعبنا ، اللاجئين والنازحين من فلسطين هو محط اهتمامنا الكبير » . وحول الملك مشكلة الشعب الفلسطيني الى قضية انسانية محضة ، فقد ربطها بكلام منسوب الى مكتمارا « مدير البنك الدولي » عن جماهير الفقراء في العالم وحاجتهم للعمل . وازداد الملك « انهم - اي الفلسطينيون - يسمون وراء فتاعة بسيطة في العمل ، نحو شيء افضل ، نحو انتهاء الشقاء والبدء في الامل » . ويمكننا ادراك مغزى حديث الملك ، عندما ننتبه الى مشاريع الاسكان ضمن الخطة الثلاثية ، التي تهدف الى توطئ النازحين في الاغوار ، التي تهدف الى تصفية اوضاعهم وفق ارتباطهم بالقضية الفلسطينية ، ناهيك عن استثمار جهودهم في المشاريع الزراعية الرأسمالية بأجور وظروف معيشية غير مؤاتية .

— تحدث الملك حسين من أحداث ايلول ، وما اسباب الاقتصاد من اضرار وخسائر جسيمة ، وجاء حديثه ليخرج على عودة « سيادة القانون والنظام » وعلى « الدرس » الذي تعلمه من ضرب المقاومة حيث قال : « لقد كان الدرس العملي الاول الذي استنتجناه خلال السنين الخمس الماضية ان الامن والاستقرار شرطان ضروريان للتخطيط والتنمية » . وهي دعوة مباشرة « للمعنيين بأمن المنطقة » ان يسارعوا في زيادة دعم النظام . كما عاد فأكد على هذه النقطة من خلال لشدته بالقوات المسلحة « وبدورها في إعادة القانون والهدوء الى البلاد » . ويجب الملك عن تساؤل لا يد انه شغل خبراء التنمية حول تضخم النفقات العسكرية فيقول ، واذا كان هناك امرؤ يشك في معقولية نفقاتنا العسكرية فيحتتم عليه ان يفكر ان ارضنا ما زالت محتلة ، وان محاولتنا لتحقيق السلام ما زالت بعيدة عن التبلور « . . كما ما زالت قوى الظلام والفوضى وعدم المسؤولية تعيث في منطقتنا » (١١) . لذلك « فان النفقات العسكرية تصبح لا مئاص منها ولها ما يبررها » .

٢ — اما الامير حسن فقد اشارت كلمته الى ان قرار النظام بمعد المؤتمر كان « لبنة الاساس لانفتاحنا على العالم » ، وان الخطة الثلاثية تمثل نقطة تحول في طريق التنمية والتقدم . . كما انها ستسهم في تأمين الاستقرار في المنطقة . وتال ان المؤتمر سيكون جزءا من عملية مستمرة لاقامة حوار مع الاسرة الدولية .

ملاحظات حول وقائع المؤتمر ونتائجه المباشرة :

١ — حرص الملك على احاطة الوفود البارزة في المؤتمر باهتمامه الشخصي ، فمثلا نقل ممثلو السوق الأوروبية المشتركة بطائرته الهيلوكوبتر الخاصة وطار بهم فوق أنحاء الأردن . ٢ — توزع أعضاء الوفود في المؤتمر في اليوم الثاني لانعقاده على لجتين اساسيتين ، واحدة لمناقشة الجانب الاقتصادي والثانية لمناقشة الجانب الاجتماعي . وتحدث امام اللجتين ممثلو الولايات المتحدة وبريطانيا ومانيا الغربية وتايوان والبحرين والبرتغال بالاهانة الى منظمي الوكالات المتخصصة للامم المتحدة . وايدوا استعدادهم لتقديم المساعدات للاردن والمساهمة في تنفيذ مشروعات الخطة . وقد قدمت اللجتان الاساسيتان تقريرا من مناقشاتها في الجلسة الختامية للمؤتمر ، دما فيه الحكومات

والهيئات المختصة الى دعم الخطة . ٣ — قال وزير الاقتصاد الاردني عمر النابلسي ان مؤتمر سيمتد في عمان في اوائل العام القادم (١٩٧٣) لتعريف المستثمرين الاجانب وتزويدهم بالمعلومات اللازمة . ومن جهة ثانية بدأت بعد المؤتمر محادثات اثباتية بين الحكومة الاردنية والوفود المعنية بتحويل الخطة .

بشكل عام ، فان ما يمكن تسجيله على المؤتمر هو التالي : ● ان خطة التنمية والمؤتمر المخصص لها ، قد اعدا في ظروف وقف اطلاق النار على حدود المجابهة مع اسرائيل ، وفي ظروف خروج الاردن عن هذه المجابهة . لذلك عكست الخطة « الطابع السلمي » المهيمن على توجهات النظام ، حيث تاخذ السياحة مكانا مهما ، فتطور المناطق التي كانت حتى عابدين مناطق عسكرية ومواقع للمقاومة الى مرافق سياحية . كما ان تطوير الزراعة في الاغوار ، ومشاريع التوطين والاسكان للنازحين في الاغوار يحمل ذات الطابع ، (راجع تقريرا عن خطة التنمية الثلاثية : شؤون فلسطينية عدد تشرين الاول ١٩٧٢) . ● ان توجه النظام الاردني لتمويل الخطة في هذه الظروف ، يلقي عطف الامبريالية والدول الغربية ورعايتها ، والتي تجد ان مصالحها الاقتصادية في المنطقة عموما ، (وخاصة البترول) ومصالحها السياسية باستقرار المنطقة ، تتطلب توفير حد ادنى من الاستقرار الاقتصادي والسياسي للنظام ، واعادة تركيب الاقتصاد المحلي على اسس اكثر ثباتا . ● ان الخطة تعكس واقع ازدياد اهمية المراتب البرجوازية في اجهزة الدولة ، وازدياد تعويل النظام على التكنوقراط والبيروقراطية في انجاح الخطة ، لما تحتاجه من متابعة في التنفيذ ، ولكون اجهزة الحكومة هي الاجهزة الوحيدة القادرة على متابعة تنفيذ الخطة بانتظام . وعلى الرغم من مراعاة النظام على القطاع الخاص ليلعب دوره في تنفيذ مشاريع الخطة ، فانه من المستبعد ان تذهب مساهمة القطاع الخاص الى الحد المقدر له (نحو ٨٠ مليون دينار) . ● ان مشاريع خطة التنمية الثلاثية ، تعبر اقتصادي ملموس عن اتجاه سياسي لدى النظام على ان حدود مجابهته مع اسرائيل تقف عند حدود قيام جهد سياسي من الولايات المتحدة او غيرها ، وانها لا تفترض ، ولا تحيد قيام اية مجابهة مسلحة معها كانت حدودها « كمودة المقاومة مثلا » .

رأي آخر حول مؤتمر الكتاب والصحفيين الفلسطينيين

تختتم شؤون فلسطينية بهذا الرأي سلسلة وجهات النظر التي أبيت حول الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، وتؤكد مرة أخرى أن جميع وجهات النظر هذه إنما تعبر عن رأي كاتبها . هذا ونعتذر لحذف بعض مقاطع هذا الرأي لضيق المساحة .

تسم ممكن من قاعدة حيلة الاتهام . وكان اول عمل للجنة التحضيرية ان طلبت ، وبحضور رئيس دائرة الاعلام والتوجيه القومي ، اضافة اعضاء الامانة العامة السابقة الى اللجنة التحضيرية . وهذا ما تم فعلا . والامور كانت تسير على خير ما يرام ، ولم يبد لنا خلال اجتماعات اللجنة التحضيرية ، ما يفسر نية احد البيئة « بابتلاع » المؤتمر .

نعود للجنة التحضيرية ، فنقول ، انها كانت جادة للوصول الى مؤتمر للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، اقرب ما يكون الى الكمال ، فيحقق الانسجام بين اعضائه ، ليساهم عمليا في تأكيد الوحدة الوطنية الفلسطينية ، ويعطيها دفعا الى الامام ، من ناحية ، وليكون ، من ناحية ثانية ، مناسبة عالمية يعطي من خلالها صورة اكثر وضوحا عن ثورة شعبنا وحقه ، للبيئات والاشخاص البارزين ، ولم يكن ذنب اللجنة التحضيرية ، ان تكون هدفا للانتقادات اللاذعة ، ومن جانب الذين يعتبرون انفسهم اعضاء طبيعيين وازليين في كل لجنة او هيئة تشكل . ومن ناحية ثانية ، لم يكن ذنب اللجنة التحضيرية ان تعمل وعلى مبدأ انتقاد ما يمكن انتقاده ، في ظروف تغيب بعض اعضائها .

وصلنا الى المؤتمر ، ولم يكن كما اردنا له ان يكون ، ولكن ورغم ذلك ، فانه كان مؤثرا له حسناته التالية :

اولا : جمع اكبر قسم من الكتاب والصحفيين الفلسطينيين الموزعين بين اكثر من قطر عربي وعالمي ، في تظاهرة لا تخلو من الايجابيات ، خاصة ضمن تلك الظروف من حيث الزمان والمكان .
ثانيا : بفضل انعقاده ، التقى عدد كبير من مثقفينا ، وتبادلوا الآراء التي لا تخلو من فائدة .

تشكلت اللجنة التحضيرية بقرار من الجهة المسؤولة في منظمة التحرير ، ورغم ان قرار التشكيل راعى بعض النواحي ، الا ان ذلك لم يكن على حساب القضايا الثنية ، مما جعل للجنة التحضيرية لجنة كتاب وصحفيين ، وعودة سريعة الى تلك القائمة تؤكد لنا صحة ذلك .

وعندما ائبت اللجنة التحضيرية اجتماعاتها كان طابعها المميز ، ان اجتماعاتها اقتصرت بمعظمها على بعض الاعضاء ، لان سواهم من الاعضاء لم يحضر اي اجتماع على الاطلاق ، ومنهم من حضر اجتماعا واحدا ، ومنهم من كان يحضر لمدة دقائق من بعض الاجتماعات . ولم يكن بالامر مقاطعة اللجنة من قبل « كتابنا وصحفيينا الكبار !... » كما ذكر واحد من الزملاء ، لان الذي كان يتغيب منهم عن جلسات اللجنة التحضيرية كان يعتذر لانشغاله بامور أخرى او بمرض ، او لاي سبب آخر ما عدا « المقاطعة » ، التي لم نسمع بها الا بعد ان اعلنت نتائج الانتخابات ... بل على العكس كان اول اجتماع للجنة التحضيرية نموذجيا لدى تفاهم المجتمعين ، حيث انجلت الامور من ان الدعاية المسبقة كانت للتضليل ، واذكر ان احد الزملاء طرح في تلك الجلسة موضوع الامانة العامة السابقة والتي كان يرئسها المرحوم خيري حماد ، وينتمى العنوية والبساطة اجنح الحاضرون على ان فكرة تجاهل الامانة العامة السابقة امر غير وارد ، وطريقة طمس الواقع مرفوضة ، لان هناك اتحادا وهناك امانة عامة ، الا ان الجمود الذي يعيشه اتحاد كتاب فلسطين (بغض النظر عن السبب ...) ، امر يتنافى والمسيرة الثورية الفلسطينية ، وتطورها ، لذلك كان لا بد من تحريك هذا الاتحاد ، ولن يكون ذلك بالترقيع ، اذ لا بد من اعادة تقييم جميع الامور ، واشراك اكبر

ثالثاً : قام عدد كبير من أعضاء المؤتمر بزيارات عديدة لقواعد أخوانهم المقاتلين ، وتعايشوا معهم أوقاتنا أوحث بكتابة أكثر من موضوع ، اغترفت مادته من أرض الواقع . وأيضاً : إلى جانب تكريم المؤتمر لشهداء الثورة الفلسطينية ، كرم الذين أعطوا الثورة قسطاً كبيراً من دمائهم واستمروا أحياء بعد ذلك ، أمثال الأخ بسام أبو شريف ، والدكتور انيس صايغ ... ورغم أننا لا ننفي بعض النقصان التي عانى منها المؤتمر إلا أن غارقاً كبيراً ، بين كلمة الحق التي تحترمها ، وكلمة الحق التي أريد لها باطل .

والآن لنناقش الأمر بموضوعية ما أمكن ، لا دفاعاً عن الأخطاء ، بل أجلاء لها ، ليتمكن تحاشيها في مناسبات مقبلة .

كتب زميل مقالاً انتقادياً ، جاء فيه : « ان الامانة العامة التي انبثقت عنه - يقصد المؤتمر - أصبحت معزولة منذ تشكيلها [ولا أقول انتخابها والكل يعرف لماذا] فوقعت في المطلب الذي كانت تأخذ على الامانة السابقة ، رغم حرمان تلك الأخيرة من كثير من حقوقها على المنظمة » .

طبعاً ليست الامانة العامة الجديدة معزولة ، والدليل القاطع على ذلك ، انها تكاد تفرغ قريباً من عملية تشكيل فروع الاتحاد في الاقطار العربية . ثانياً ، سوف تتعرض الامانة العامة التي سيكون عضواً فيها للانتقاد النهجي من قبل زميل غير راض عن المؤتمر وتناجسه ، وهكذا ... واستطرد هذا الزميل ، ليقول « كشف المؤتمر - ولعل هذه احدى ايجابياته - اخلاقية بعض العاملين في الثورة من المثقفين البورجوازيين الذين يمارسون عكس ما يزعمون لانفسهم من مواقف ثورية . اذ انضج منذ اليوم الاول للمؤتمر ان كل هذا التجمع ليس الا « ديكورا » لاسباغ الشرعية على عدد من الامراء كقادة للكتاب والصحفيين الفلسطينيين » .

وهنا أكتفي بالقول ان استعراض أسماء الامانة العامة الجديدة ، يكفي ليؤكد للزميل وللآخرين ، ان معظم هذه الاسماء ، يحملها اديباء وصحفيون معروفون ومناقضون فعليون ، ولهم تاريخ نقالي قريب .

والآن ، لا بد من الاهتمام بالناحية الايجابية ، ولا بد لنا من اشمال شعبة واحدة على الاقل ، والا

فاني امانة عامة لاي اتحاد لا يمكنها ان تعمل شيئاً ، ان هي لم تلق الدعم الكامل ومن الجميع ، لتجاوز العنصتات وضيق الامس ، والتصويب التنظيمي ، ولتجمل نظرنا أكثر شمولاً ، لتعرف اين نفك كمشعب ، واين اصبحنا كخصية ، ولتجمل محور أعمالنا وأقوالنا ، قضيتنا لانها للجميع . واما مسائل الأفراد وأحاسيسهم وانفعالاتهم ، وعقدتهم أحياناً ، وتطلعاتهم الشخصية أحياناً أخرى ، فكلها أمور يجب ان ترفع عليها ، لتقابل العالم كمشعب موحد الصفوف والاهداف .

والامانة العامة الجديدة للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين مسؤولة ونحن معها عن :

١ - اعادة تنظيم فروع الاتحاد ، بشكل يجعل منها فروعاً عاملة منتجة ، لا مجرد فروع تنتظر الانتخابات العامة للاتحاد ، وقبل ذلك وبعده لا عمل لها ، حيث يكتفي المسؤولون في كل فرع ان يلتقوا بالمسؤولية على الامانة العامة للاتحاد .

٢ - عن طريق الفروع . أيضاً ، لا بد من تمكين العلاقة مع اتحادات الكتاب والصحفيين المحليين في الاقطار العربية ، وكذلك مع جميع المنظمات الشعبية الأخرى . ٣ - تمكين العلاقة مع جميع الاتحادات والنقابات العربية والعالمية ، لامكانية

اسهام اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين اسهاماً يتناسب وحجمه في العمل لقضيتنا

الاساسية . ٤ - اعداد دراسة ميدانية ، ان

امكن ، عن الادباء العرب في الارض المحتلة ، لامكانية دعمهم مادياً وادبياً ، بما هو اجدى من

التباكي على احوالهم . ٥ اعداد دراسة أيضاً ميدانية ، عن احوال الكتاب والصحفيين الفلسطينيين المتواجدين في الاقطار العربية ، وعن

كتب تفهم تضاييهم ، الخاصة منها والمهنية ، لامكانية دعمهم والاخذ بيدهم ، وحل مشاكلهم .

٦ - اصدار نشرة غير دورية في البداية باسم الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، وذلك

ليساهم الاتحاد بوضع حد لاعلام الثورة الذي كثيراً ما تشده الاساليب الاعلامية البالية في المنطقة الى

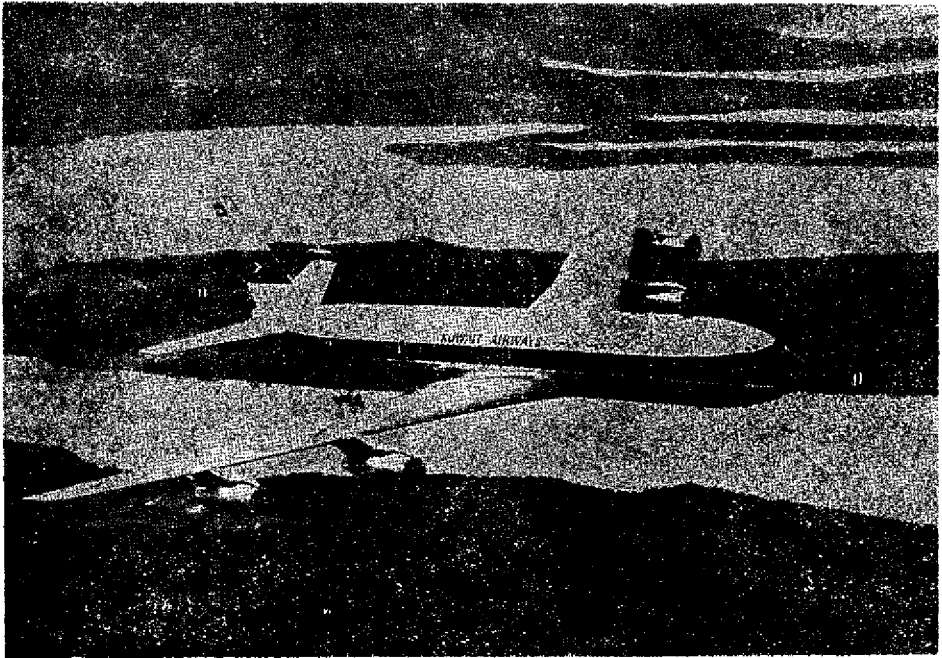
جانبيها ، وبذلك يكون عطاء الكتاب والصحفيين الفلسطينيين الى جانب كونه موحداً ، أكثر جدوى

وفائدة . ٧ - واخيراً على الامانة العامة للاتحاد ان تحدد النقاط الاساسية التي لا يحق لاي كاتب

فلسطيني الخروج عليها ، وتحت اي حجة ، مثل دعم الثورة الفلسطينية ، والوحدة الوطنية الفلسطينية ... الخ . أنيس الخطيب

أخطوط الكويت الكويتية

شبكة خطوط عالمية تغطي مختلف بقاع العالم العربي وأوروبا والشرق الأوسط بطائرات بوينج ٧٠٧ النفاثة



مكاتب رئيسية في كل من :

الكويت - البحرين - الدوحة - دبي - الظهران - عدن - عمان - دمشق - بيروت - القاهرة
طهران - عبادان - اثينا - جنيف - فرانكفورت - باريس - روما - لندن - نيويورك - هيوستون
شيكاغو - ديترويت - تورونتو .

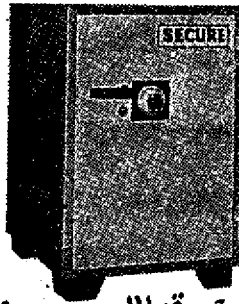
قبل في قديم الزمان

إذا ضاعت
الأمانات...
خبّي مخزنك
عبك



واليوم يقال اجعل مخزنك صندوق

سيكور



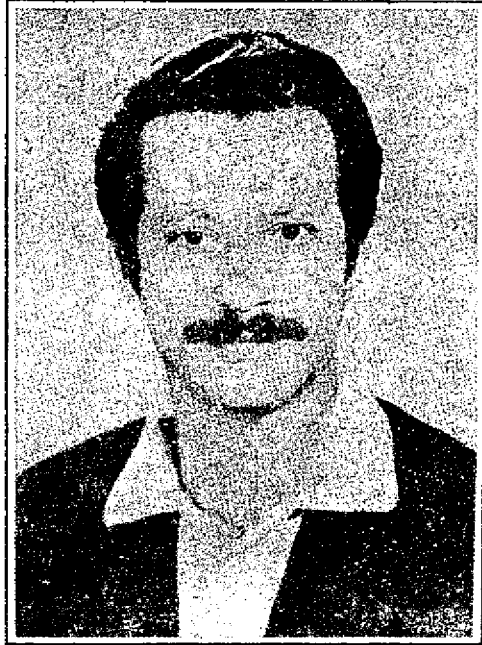
الذي لا يسرق!!! ولا يحرق!!!

نجر كونتيننتال

فرع طرابلس : ممدوح النملة واولاده شارع ويسان والمصانع .

غسان: كنفاني

المجلد الأول



رجال في الشمس
ما تبقى لكم
عائد إلى حيفا
أمّ سعد
الغاصقة
الأعمى والأطرب
برقوة نيسان

الأشعار الكاملة للكاتب المناضل
الشهيد تصدر في مجلدات

المجلد الأول
يصدر قريباً